

# في المقام

تأليف  
مصطفى صادق الرافعي

المكتبة العصرية  
كتابات معاصرة

كتابات معاصرة

# وَحْكَمَ الْقُرْبَانُ

تأليف

مُصطفى صادق الرافعي

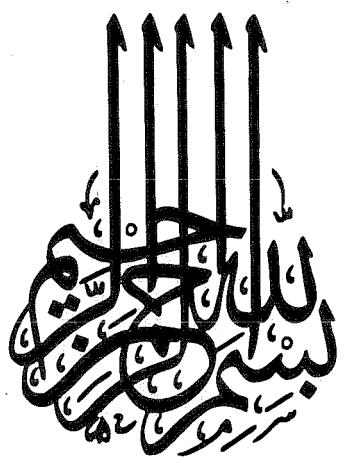
راجعه واعتني به

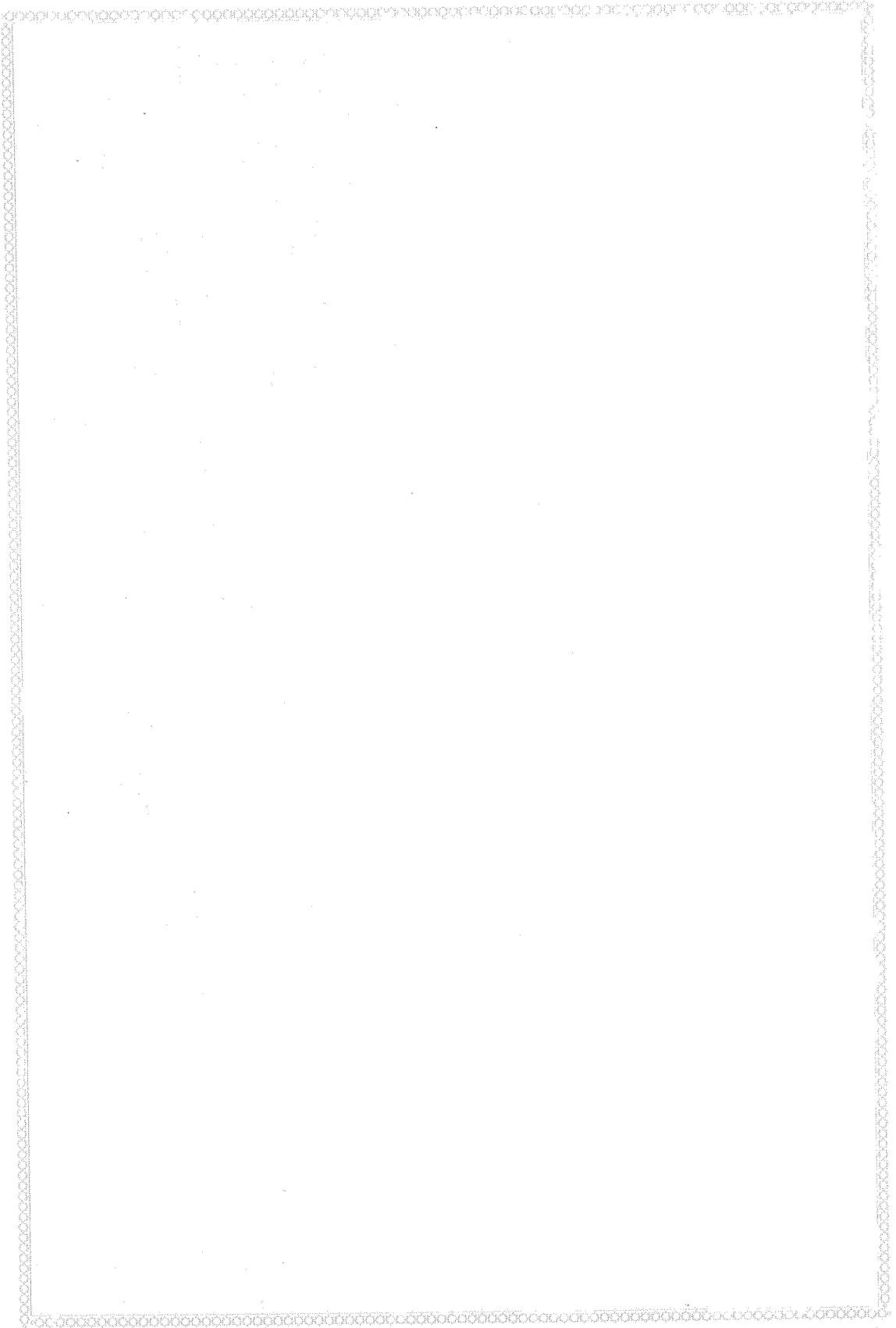
د. درويش الجويدي

الجزء الثاني

المكتبة العصرية

مكتبة سعدت





## الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام

كما تطلع الشمس بأذواها فتفجر بنبوع الضوء المسمى النهار، يولّد النبيُّ فِي الإنسانية بنبوع النور المسمى بالدين. وليس النهار إلّا يقظة الحياة تتحقق أعمالها، وليس الدين إلّا يقظة النفس تتحقّق فضائلها.

والشمس خلقها الله حاملة طابعة الإلهيَّ، في عمله للعادة تحولُّ به وتحيّر، والنبيُّ يُرسّلُ الله حاملاً مثل ذلك الطابع في عمله ترقى فيه وتسمو.

وزرعاتُ الضوء من الشمس هي قصّة الهدایة للكون في نورِ من الكلام. والعامل الإلهي العظيم يعمل في نظام النفس والأرض بآداتين متشابهتين: أجرام النور من الشموس والكواكب، وأجرام العقل من الرسُّل والأنبياء.

فليسَ النبيُّ إنساناً من العظام يقرأ تاريخه بالفَكِّر معهُ المُنْطَقِ الشك، ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة، ولكنهُ إنسان نجميٌّ يقرأ بمثيل «التلسكوب» في الدقة، معهُ العلم، ومع العلم الإيمان، ثم يدرس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحدتها.

والحياة ثانية علم التاريخ، ولكنَّ هذه الطريقة في درس الأنبياء - صلواث الله عليهم - تجعلُ التاريخ هو يُنشيء علمَ الحياة، فإنما النبيُّ إشراق الإلهيُّ على الإنسانية، يُؤمّنها في فلكلها الأخلاقية، ويجلبها إلى الكمال في نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية في الكواكب.

ويجيء النبيُّ فتجيء الحقيقة الإلهية معهُ في مثل بلاغة الفنُّ البلياني، ليكون أقوى أثراً، وأيسَر فهماً، وأبدع تمثيلاً، وليس عليها خلافٌ من الجنس. وهذا هو الأسلوب الذي يجعل إنساناً واحداً فنَّ الناس جميعاً، كما تكونُ البلاغة فنَّ لغة بأكملها، هو الشخص المفسّر إذا تعسَّ<sup>(١)</sup> الناسُ الحياة لا يدرؤُنَّ أين يؤمنون

(١) تعسَّ: اشتغل، جاوز الحد المعقول.

منها، ولا كيف يتهدون فيها، فتضطرّبُ الملايينُ من البشريةُ أضطرابها فيما تنقبضُ عنه وتتهالكُ فيه من أطماء الدنيا، ثم يخلقُ رجلٌ واحدٌ ليكونَ هو التفسيرُ لما مضى وما يأتي، فتظهرُ به حقائقُ الآدابِ العاليةُ في قالبِ مِنَ الإنسانِ العاملِ المرئيِّ، أبلغُ مِمَّا تظهرُ في قصةٍ متكلمةٍ مرويةٍ.

وما الشهادةُ للنبيَّ إلا أن تكونَ نفسُ النبيِّ أبلغُ نفوسِ قومِه، حتى لَهُوَ في طباعِهِ وشمائلِهِ طبيعةٌ قائمةٌ وحدهَا، كأنَّها الوضعُ النفسيُّ الدقيقُ الذي يُنصبُ لتصحيحِ الوضعِ المغلوبُ للبشريةِ في عالمِ المادةِ وتنافُزِ البقاءِ<sup>(١)</sup>. وكانَ الحقيقةُ الساميةُ في هذا النبيِّ تُنادي الناسَ: أنْ قَاتلُوا على هذا الأصلِ وصَحُّحوا ما اعتبرُ أنفسَكم من غلطِ الحياةِ وتحريفِ الإنسانيةِ.

\* \* \*

ومن ثُمَّ فنِيَّ البشريةُ كلُّها مِنْ بُعْثَ بالدينِ أعمالاً مفصَّلةً على النفسِ أدقَّ تفصيلٍ وأوفأَهُ بمصلحتِها، فهو يُعطي الحياةَ في كلِّ عصرٍ عقلَها العمليِّ الثابتَ المستقرَّ تُنظِّمُ بِهِ أحوالَ النفسِ على ميزةٍ وبصيرةٍ، ويَدُعُّ للحياةِ عقلَها العلميِّ المتجددُ المتغيرُ تُنظِّمُ بِهِ أحوالَ الطبيعةِ على قصدٍ وهُدُّى، وهذه هي حقيقةُ الإسلامِ في أخصِّ معانِيهِ، لا يُغْنِي عنه في ذلك دينٌ آخرٌ، ولا يُؤْدي تأديتهُ في هذه الحاجةِ أدبٌ ولا عِلْمٌ ولا فلسفَةٌ، كأنَّما هُوَ نَيْعٌ في الأرضِ لِمعانِي النورِ، يَإِزاءِ الشَّمْسِ نَيْعٌ للنورِ في السماواتِ.

وكلُّ ذلك تراؤُ في نفسِ محمدٍ ﷺ، فهي في مجموعِها أبلغُ الأنفسِ قاطبةَ، لا يمكنُ أن تعرفَ الأرضُ أكملَ منها، ولو اجتمعَتْ فضائلُ الحكماءِ وال فلاسفةِ والمتألهينَ وجُعلَتْ في نصابِ واحدٍ - ما بلغَتْ أنْ يجيءَ منها مثلُ نفسهِ ﷺ. ولَكَأنَّما خرَجَتْ هذه النفسُ من صبغةِ كصيغةِ الذرَّةِ في عرقِهِ. وهي النفسُ الاجتماعيةُ الكبُرى، من أين تدبَّرَتها رأيتها على الإنسانيةِ كالشمسِ في الأفقِ الأعلى تبسطُ وتضخَّى.

وتلك هي الشهادةُ لِهِ ﷺ بأنَّه خاتمُ الأنبياءِ، وأنَّ دينَهُ هو دينُ الإنسانيةِ الأخيرِ، وهذا الدينُ في مجموعِهِ إنَّه هو إِلَّا صورةٌ تلك النفسِ العظيمةِ في مجموعِها: صلابتُهُ بمقدارِ الحقِّ الإنسانيِّ الثابتِ، لا بمقدارِ الإنسانِ المتغيِّرِ الذي

(١) تنافُزُ البقاءِ: صراعُ البقاءِ.

يكونُ عندَ سبِّ جَبَلًا صَلْدًا<sup>(١)</sup> يَشْمَخُ<sup>(٢)</sup>، وعندَ سبِّ آخرَ ماءَ عَذْبًا يَجْرِي.

وهو دينٌ يعلو بالقوّة ويدعو إليها، ويريدُ إخضاعَ الدنيا وحُكْمَ العالم، ويستفرغُ همَّه في ذلك، لا لِإعزازِ الأقوى وإذلالِ الأضعف، ولكن لِارتفاعِ بالأضعفِ إلى الأقوى، وفرقٌ ما بينَ شريعتِه وشرائعِ القوّة، أنَّ هذه إنما هي قوّةٌ سيادةٌ الطبيعةٌ وتحكُّمها، أمّا هو فقوّةٌ سيادةٌ الفضيلةٌ وتغلُّبها، وتلك تعملُ للتفريقِ، وهو يعملُ للمساواة، وسيادةُ الطبيعةٌ وعملُها للتفريقِ هما أساسُ العبودية، وغلبةُ الفضيلةٍ وعملُها للمساواة هما أعظمُ وسائلُ الحريةِ.

ومن هنا كان طبيعياً في الإسلام ما جاء به من أنَّ لا فضيلةَ إلَّا وهو يطبعُ عليها صورةَ الجنةِ بتعييمها الخالد، ولا رذيلةَ إلَّا وهو يضعُ عليها صورةَ النارِ الأبديَّةِ وقودُها الناسُ والحجارة، فلا تنظر العينُ المسلمَةُ إلى أسبابِ الحياةِ نظرةَ الفكرِ المنازعِ: يحرّصُ على ما يكونُ له ويشُرِّه<sup>(٣)</sup> إلى ما ليسَ له، ويمكرُ الحيلةَ، ويفيدُ وسائلَ الخداعِ، ويزيدُ بكلِّ ذلك في تعقيدِ الدنيا - بل نظرةُ القلبِ المُسالمِ: يخلعُ الدنيا ويُسخنُ بكلِّ مضمونِ فيها، فيعرفُ عن كثيرٍ، ويعرفُ الإنسانيةَ ويطمعُ في غایاتِها العُليَا، فيغفو عن كثيرٍ، ويُدركُ أنَّ الحلالَ وإنْ حلَّ فوراءَ حسابِه، وأنَّ الحرامَ وإنْ غرَّ ليسَ إلَّا تَعَلَّلَ<sup>(٤)</sup> ساعةً ذاهبةً ثمَّ من ورائهِ عقابُ الأبدِ.

ويخرجُ من ذلك أنَّ يكونَ أكبُرُ أغراضِ الإسلامِ هو أنْ يجعلَ من خشيةَ اللهِ - تعالى - قانونَ وجودِ الإنسانِ على الأرضِ، فمن أيِّ عطفِه<sup>(٥)</sup> التفتَ هذا الإنسانُ وجَدَ على يَمْتِيهِ ويسْرِتهِ ملائِكَةً مِنْ ملائِكَةِ اللهِ يكتَبُونَ أعمالَه بخَيْرِها وشَرِّها، فهو كالملئَمِ المستَرابِ<sup>(٦)</sup> به في سياسةِ النفسِ: لا يمشي خطوةً إلَّا بينَ جاسوسَيْنِ يُحصيَانَ<sup>(٧)</sup> عليهِ حتى أسبابِ الْثَّيَّةِ، ويَجْمِعُانِ منهُ حتى نَزَواتِ الكِبْدِ، ويُترَجمانِ عنه حتَّى معانِي النَّظرِ.

وإذا قامَتْ هذه المحكمةُ الملائِكَيةُ وتقرَّرتْ في اعتبارِ النفسِ، قامَ منها على النفسِ شرعٌ نافذٌ هو قانونُ الإرادةِ المميزةُ، وثُرِيدُ الحسناتِ وتعلَّمُ لها، وتخشى

(١) صَلْدًا: قاسيًا.

(٢) يَشْمَخُ: يتسامي.

(٥) عطفِه: جنْيَه.

(٣) يُشَرِّه: يسعى للحصول على ما ليس له بطعم.

(٦) المستَراب: الشَّاكِ.

(٧) يُحصيَان: يُعَذَّان.

(٤) تَعَلَّل: تَمْنَى النفسِ.

السيّات وتَنَفِّرُ منها، فإذا معانٍ الجسد يحكمُ بعضها بعضاً، لا لتحقيقِ الحكومة والسلطة، ولكن لتحقيقِ الخير والمصلحة، وإذا نواميس الطبيعة المجنونة في هذا الحيوان، قد نهضت إلى جانبها نواميس الإرادة الحكيمَة في الإنسان، وإذا كل صغيرة وكبيرة في النفس هي من صاحبها مادة تهمة عند قاضيها في محكمتها، وإذا كلُّ ما في الإنسان وما حول الإنسان، لا يُراد منه إلَّا سلام النفس في عاقبتها؛ وإذا معنى السلام هو المعنى الغالبُ المتصرّفُ بالإنسانية في دنياهما.

وكل أفعال الإسلام وأخلاقه وأدابه، فتلك هي غايتها، وهذه هي فلسفتها؛ لا يقرّها للإنسانية حسبًّا، بل يُعرّسُها في الوراثة غرساً بالاعتباد والمران الدائم، ليكونَ علماً وعملأً، فتُمكّن لسلام النفس بين الأسلحة المسددة إليها من ضرورات الحياة، في أيدي الأعداء المتالبة<sup>(١)</sup> عليها من شهوات الغريزة.

فليس يعم السلام إلا إذا عم هذا الدين بأخلاقه فشمل الأرض أو أكثرها؛ فإن قانون العالم حيث يصبح متزناً من طبيعة التراحم، فإما أتسنى به قانون التنازع الطبيعي، وإما كسر من شرته؛ ويولد المولود يومئذ وتولد معه الأخلاق الإنسانية.

卷之三

تقريرٌ معنى الدوام لِكُلِّ أَعْمَالِ النَّفْسِ حَتَّى مُثْقَلُ الذَّرَّةِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَضَبْطُ ذَلِكَ بِرِياضَةٍ عَمَلِيَّةٍ دَائِمَةٍ مَفْروضَةٍ عَلَى النَّاسِ جَمِيعًا هَذَا هُوَ أَسَاسُ الْعِقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ وَلَا صَلَاحٌ لِلإِنْسَانِيَّةِ بِغَيْرِهِ يَرْدُهَا إِلَى سَبِيلِ قَصْدِهَا<sup>(٢)</sup>، فَإِنَّ مِنْ ذَلِكَ تَكُونُ الْأَصْفَةُ الْعُقْلِيَّةُ الَّتِي تَعْلَمُ عَلَى الْمَجَمِعِ، وَتُجَانِسُ بَيْنَ أَفْرَادِهِ، فَتَوَجَّهُ الْإِنْسَانِيَّةُ كُلَّهَا نَحْوَ الْمُمْكِنِ مِنْ كَمَالِهَا، وَلَا تَزَالْ تَوَجَّهُهَا نَحْوَ مَا هُوَ أَعْلَى، وَتَحْكُمُ فَاسِدَهَا بِصَالِحِهَا، وَتَأْخُذُ عَاصِيَهَا بِمُطِيعِهَا، وَتَجْعَلُ الشَّرَفَ الْإِنْسَانِيَّ غَرْضَهَا الْأَوَّلَ، لَأَنَّ اللَّهَ الْحَقُّ غَرْضُهَا الْآخِرُ؛ فَيُصْبِحُ الْمَرءُ - وَهَذَا دِينُهُ - كَلَمَا تَقْدَمُ بِهِ الْعُمُرُ كَمْلَ فِيهِ اثْنَانِ: الْإِنْسَانُ، وَالشَّرِيعَةُ. وَلَا يَعُودُ طَالِبُ السَّعَادَةِ النَّفْسِيَّةِ فِي الدُّنْيَا كَالْمَجْنُونِ يَجْرِي وَرَاءَ ظَلَّهُ لِيُمْسِكُهُ؛ فَلَا يُدْرِكُ فِي الْآخِرَ شَيْئًا غَيْرَ مَعْرِفَتِهِ إِنَّهُ كَانَ فِي عَمَلِ باطِلٍ وَسَعَى ضَائِعًا.

والإسلام يحرض أشدّ الحرص وأبلغه على تقرير ذلك المعنى الإلهي

(١) الأعداء المتألبة: المجتمعين المتضادين على من يتخلونه عنهم.

(٢) قصدھا: غایتها۔

العظيم، لا بالمنطق، ولكن بالعمل؛ ثم في النفس وعواطفها، لا في العقل وآرائه؛ ثم على وجه التعميم، دون الاستثناء والخصوص؛ وذلك هو سر مشقّة على النفس بما يفرضه عليها؛ فإن فلسفة أن هذه النفس هي أساس العالم، وأن النظام الخلقي هو أساس النفس، وأن العمل الدائم هو أساس النظام، وأن روح العمل الدائم تكون فيما يشق بعض المشقة ولا يبلغ العسر والحرج<sup>(١)</sup>، كما تكون فيما يسهل بعض السهولة ولا يبلغ الكسل والإهمال.

وللنفس وجهان: ما تعلّم، وما تسرّ؛ ولا صدق لإعلانها حتى يصدق ضميرها، ولا صلاح لجهرها<sup>(٢)</sup> حتى يصلح السر فيها، ولا يكون الإنسان الاجتماعي فاضلاً بشهوده<sup>(٣)</sup> حتى يكون كذلك بعثيه.

للعالم كذلك وجهان: حاضرُ الذي يمرُ فيه، وأتيه الذي يمتدُ له؛ ولا يفلح حاضر منقطع لا يورث ما بعده كما ورث قبّله، وما حاضر الإنسانية إلا جزء من عمل الناس في استمرارِ فضائلِ لهم باقية نامية.

وللنظام أيضاً وجهان: نظام الرغبة على الطاعة والأطمئنان لها، ونظام الرغبة على الخشية<sup>(٤)</sup> والقرة منها. ولا يستقيم شأنُ ليس أساساً للطاعة في النفس، ولا يستمر نظامٌ عليه خلافٌ من فكِّ العاملِ به.

وللعمل الدائم طريقتان: إداهما طريقةُ الجادِ يعملُ للعقابِ يستيقنُها، فلا يجدُ مما يشقّ عليه إلا لذة المغالبة للنصر؛ كل مراراة من قبله هي حلاوة فيه من بعد، ولا يعرف للمخنة<sup>(٥)</sup> يُتلى بها إلا معناها الحقيقي وهو إيقاظ نفسه، فيُصبح الصبرُ عنده كصبرِ المحب على أشياءٍ ممَّن تحبه؛ صبرٌ فيه من السحرِ ما يكسو الحِزمَان في بعض الأحيان خيالَ الاستمتاع، ويدُيقُ النفس في العجزِ عن بعض أغراضِها - لذة كلذة إدراكه.

\* \* \*

تلك هي فلسفة الإسلام؛ لا قوام للأمر فيها ولا مساك له إلا بتقريرِ معنى الدوام لـكلِّ أعمالِ النفس، ووضع طابعِ الجنة على أعمالِ الجنة، وطابعِ النار على

(١) الحرج: الشعور بالضيق والشدة.

(٢) لجهرها: لإعلانها.

(٤) الخشية: الخوف.

(٣) بشهوده: بحضوره.

أعمال النار - وحياة كل فرد من الناس حياة رياضية عملية بين الساعة والساعة، بل بين الدقيقة والدقيقة، بما يكلّف من أعمال جسمه وحواسه، ثم أعمال قلبه ونيته - وتعظيم الشخصية الروحية دون الشخصية المادية، فلا يحاول كل إنسان أن يجعل بطنه في حجم مملكة أو مدينة أو قرية، بما ينتقص<sup>(١)</sup> من حقوق غيره؛ بل تُنسَع ذاتية كل فرد بما يجب له على المجتمع من الواجبات الإنسانية؛ وبهذا لا بغيره تتَّعَيَن مقاييس الأخلاق في الأرض: بالمصلحة لا باللذة؛ فلا يقع الخطأ ولا التزوير، وتنحل المشكلة الاجتماعية ما دامت الحياة لا تجد من أهلها كل ساعة عَقْدا فيها.

والأستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحدة الطريقة لإنشاء طبيعة الخير في الناس على نسقها الطبيعي، كما أنه هو وحدة الطريقة لتطهير التاريخ الإنساني من أوباته الاقتصادية<sup>(٢)</sup>، التي جعلت كائناً هو تاريخ الأسنان والأضراس، وتركت الناس يهدم بعضهم بعضاً، كما يهدم الجار حائط جاره ليوسّع بيته.

وأساس العمل في الإسلام إخضاع الحياة للعقيدة، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة، فيكون الفقير معدماً<sup>(٣)</sup> ويتعفّف، ويكون الغني موسراً ويتصدق، ويكون الشّرط طاماً ويمسيك، ويكون القوي قادرًا ويُخجِّم<sup>(٤)</sup>، وكما قال العرب في تحقيق ناموس الأنفة والحمى وغلبته على الناموس الاقتصادي: «تجوّع الحرّة ولا تأكل بشذتها».

\* \* \*

تُريد الإنسانية امتداداً غير امتدادها التجاري في الأرض، وتحتاج إلى معنى يقود إنسانها غير الحيوان الذي فيه؛ وإذا قاد الغراب قوماً فإنما هو - كما قال شاعرنا - يمْرُّ بهم على جيف الكلاب... والإنسانية آليوم في مثل ليل حوشى<sup>(٥)</sup> مظلوم اختلط بعضه في بعض، وليس معاني الإسلام إلا الإشراق الإلهي على هذه الكثافة المادية المترافق، وإذا رُفع المصباح لم تجد الظلم إلا وراء الحدود التي تنتهي إليها أشعنته.

(١) ينتقص: يأخذ.

(٢) أوباته الاقتصادية: أمراضه، كالفقر والعزوج... (٤) يُخجِّم: يمسك.

(٣) معدماً: فقيراً لا يملك مالاً. (٥) حوشى: متواتش.

وقد علمنا من طبيعة النفس أنَّ إنسانيةُ الفرد لا تعظمُ وتسمو وتحلُّ وتفرخُ فرَحها الصادق وتحزنُ حزناً أَسَامي - إِلَّا أنْ تعيشَ في محبوب؛ فإنْسانيةُ العالم لا تكونُ مثلَ ذلك إِلَّا إذا عاشتَ في نبئها الطَّبيعي، نبئ أَخلاقها الصَّحيحة وآدَابها العالية ونظامها الدقيق؛ وأين تجدُ هذا المحبوب الأعظم إِلَّا في محمدٍ ودينِ محمد؟

وعجيبُ أنْ يجهلُ المسلمون حِكْمَةَ ذِكْرِ النبي العظيم خمسَ مراتٍ في الأذان كلَّ يوم، يُنادى بِاسْمِهِ الشَّرِيفِ ملْءَ الْجَوَّ؛ ثمَّ حِكْمَةَ ذِكْرِهِ في كُلِّ صلاةٍ من الفريضة والسنَّة والنافلة<sup>(١)</sup>، يُهَمَّسُ بِاسْمِهِ الْكَرِيمِ ملْءَ النَّفْسِ! وهلِّ الحِكْمَةُ من ذلك إِلَّا الفرضُ عليهم إِلَّا ينقطعوا من نبئهم ولا يَوْمًا واحدًا مِنَ التَّارِيخِ، ولا جزءًا واحدًا مِنَ الْيَوْمِ؛ فَيَمْتَدُ الزَّمْنُ مَهْمَا أَمْتَدَ وَالْإِسْلَامُ كَأَنَّهُ عَلَى أَوْلَهُ، وكَأَنَّهُ فِي يَوْمِهِ لَا في دَهْرٍ بَعِيدٍ؛ وَالْمُسْلِمُ كَأَنَّهُ مَعَ نَبِيِّهِ بَيْنَ يَدِيهِ تَبَعُّثُ رُوحُ الرَّسَالَةِ، وَيُسْطَعُ فِي نَفْسِهِ إِشْرَاقُ النَّبَوَةِ، فَيَكُونُ دَائِمًا فِي أَمْرِهِ كَالْمُسْلِمِ الْأَوَّلِ الَّذِي غَيَّرَ وَجْهَ الْأَرْضِ؛ وَيَظْهُرُ هَذَا الْمُسْلِمُ الْأَوَّلُ بِأَخْلَاقِهِ وَفَضَائِلِهِ وَحَمِيمَتِهِ فِي كُلِّ بَقِيعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا مَكَانٌ إِنْسَانٌ هَذِهِ الْبَقِيعَةِ، لَا كَمَا نَرَى الْيَوْمَ؛ فَإِنَّ كُلَّ أَرْضِ إِسْلَامِيَّةٍ يَكَادُ لَا يَظْهُرُ فِيهَا إِلَّا إِنْسَانُهَا التَّارِيْخِيُّ بِجَهْلِهِ وَخُرَافَاتِهِ وَمَا وَرَثَ مِنَ الْقِدَمِ؛ فَهُنَا الْمُسْلِمُ الْفَرَعَوْنِيُّ، وَفِي نَاحِيَةِ الْمُسْلِمِ الْوَثَنِيِّ، وَفِي بَلْدِ الْمُسْلِمِ الْمَجْوُسِيِّ<sup>(٢)</sup>، وَفِي جَهَةِ الْمُسْلِمِ الْمَعْتُلِ... وَمَا يُرِيدُ الْإِسْلَامُ إِلَّا نَفْسَ الْمُسْلِمِ الإِنْسَانِيِّ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُ!

لَا تَنْقُطُعُ مِنْ نَبِيِّكَ الْعَظِيمِ، وَعِشْ فِيهِ أَبْدًا، وَاجْعُلْهُ مَثَلَّكَ الْأَعْلَى؛ وَحِينَ تَذَكُّرُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ فَكُنْ كَأَنَّكَ بَيْنَ يَدِيهِ؛ كُنْ دَائِمًا كَالْمُسْلِمِ الْأَوَّلِ؛ كُنْ دَائِمًا أَبْنَى الْمُعْجَزَةِ.

(١) النافل من كل شيء: الزائد.

(٢) المَجْوُسِيُّ: عَابِدُ النَّارِ.

## حقيقة المسلم

لا يعرف التاريخ غير محمد ﷺ رجلاً أفرغ الله وجوده في الوجود الإنساني كلّه؛ كما تنصب المادة في المادة، لِتُمْزَجُ بها فتحولها، فتُنْدَثَ منها الجديد، فإذا الإنسانية تحولت به وتنمو، وإذا هو ﷺ وجود سار فيها فما تبرع هذه الإنسانية تنمو به وتحول.

كان المعنى الأدمي في هذه الإنسانية كأنما وهن<sup>(١)</sup> من طول الدهر عليه، يتحقق<sup>(٢)</sup> ويمحوه ويتناوره<sup>(٣)</sup> بالشر والمتكر؛ فابتعدت الله تاريخ العقل بآدم جديداً بدأته به الدنيا في تطورها الأعلى من حيث يرتفع الإنسان على ذاته، كما بدأ من حيث يوجد الإنسان في ذاته؛ فكانت الإنسانية دهرها بين اثنين: أحدهما فتح لها طريق المجيء من الجنة، والثاني فتح لها طريق العودة إليها: كان في آدم سر وجود الإنسانية، وكان في محمد سر كمالها.

\* \* \*

ولهذا سمي الدين (بالإسلام)؛ لأنَّه إسلام النفس إلى واجبها، أي إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية؛ لأنَّ المسلم ينكر ذاته فيسلمها إلى الإنسانية تصرُّفها وتغْتَمِلُها في كمالها ومعاليها؛ فلا حظ له هو من نفسه يمسِّكها على شهواته ومنافيه، ولكن للإنسانية بها الحظ.

وما الإسلام في جملته إلا هذا المبدأ: مبدأ إنكار الذات و(إسلامها) طائعة على المنشط<sup>(٤)</sup> والمكره لفروضها وواجباتها؛ وكلما نكصت<sup>(٥)</sup> إلى متزعها الحيواني، أسلمه صاحبها إلى وازعها<sup>(٦)</sup> الإلهي؛ وهو أبداً يرُوّضها<sup>(٧)</sup> على هذه

(١) وهن: ضئف.

(٢) يتحقق: يظلمه.

(٣) يتعاروه: يتجادبه، يتراوشه.

(٤) نكست: تراجعت.

(٥) نكست: تراجعت.

(٦) وازعها: رادعها.

(٧) يرُوّضها: يدرِّبها.

(٤) المنشط: الجد والحيوية والحماس.

الحركة ما دام حيًّا، فيترنّعُها كلُّ يوم من أوهام دنياه، ليضعها ما بين يديِّ حقيقتها الإلهية: يروضها على ذلك كلَّ يوم وليلةٍ خمسَ مراتٍ مُسماةً في اللغةِ خمسَ صلواتٍ، لا يكونُ الإسلام إسلاماً بغيرِها؛ فلا غُرُو<sup>(١)</sup> وكانت الصلاةُ بهذا المعنى كما وصفَها النبيُّ ﷺ هي عماد الدين.

\* \* \*

بين ساعاتٍ وساعاتٍ في كلِّ مطلع شمسٍ من حياةِ المسلم صلاة، أي إسلامُ النفس إلى الإرادةِ الاجتماعيةِ الشاملة<sup>(٢)</sup> القائمةُ على الطاعةِ للفرضِ الإلهيِّ، وإنكارَ لمعانيها الذاتيةِ الفانيةِ التي هي مادةُ الشرِّ في الأرضِ، وإقرارُها لحظاتٍ في حيزِ الخيرِ المحسُنِ البعيدِ عن الدنيا وشهواتها وأثامها ومنكراتها. ومعنى ذلك كله تحقيقُ المسلم لوجودِ روحِه؛ إذ كانت أعمالُ الدنيا في جملتها طرفاً تشتبَّثُ فيها الأرواحُ وتبعثرُ، حتى تضلُّ روحُ الأخِ عن روحِ أخيه فتُنكِّرها ولا تعرفُها!

وهذا الوجودُ الروحيُّ هو مبعثُ الحالةِ العقليةِ التي جاءَ الإسلامُ ليهديَ الإنسانيةَ إليها: حالةُ السلامِ الروحانيِّ الذي يجعلُ حربَ الدنيا المهلكةَ حرباً في خارجِ النفس لا في داخلِها، ويجعلُ ثروةَ الإنسانِ مُقدَّرةً بما يعاملُ اللهُ والإنسانيةَ عليه؛ فلا يكونُ ذهباً وفضةً ما كتبَتْ عليهُ الدولُ: «أُصْرِبَ في مملكةِ كذا»، ولكنَّ ما يراهُ هو قد كُتبَ عليه: «صُنِعَ في مملكةِ نفسيٍّ»؛ ومن ثم لا يكونُ وجودُ الاجتماعيِّ للأخْذِ حسبُ، بل للعطاءِ أيضاً، فإنَّ قانونَ المالِ هو الجمُعُ، أمَّا قانونُ العملِ فهو البذل.

بالانصرافِ إلى الصلاةِ وجمعِ النيةِ عليها، يستشعرُ المسلمُ أنَّه قد حطَّ الحدوَدَ الأرضيةَ المحيطةَ بنفسِهِ من الزمانِ والمكانِ، وخرجَ منها إلى رُوحانيةٍ لا يحدُّ فيها إلَّا باللهِ وحدهُ.

وبالقيامِ في الصلاةِ، يُحقِّقُ المسلمُ لنَفْسِهِ معنى إفراغِ الفكرِ أساميِّ على الجسمِ كلهِ، ليمتَّزَ بجلالِ الكونِ ووقارِهِ، كأنَّه كائنٌ متَّصلٌ معَ الكائناتِ يسبِّحُ بحمليهِ.

وبالتولِي شطرَ القبلةِ<sup>(٣)</sup> في سمتِها<sup>(٤)</sup> الذي لا يتغيَّرُ على اختلافِ أوضاعِ

(١) لا غُرُو: لا شك، لا ريب.

(٢) الشاملة: الجامعة، ويقصد بذلك صلاة الجماعة لأهميتها ولثوابها.

(٣) شطر القبلة: ناحيتها.

(٤) سمتها: وقارها ومظاهرها.

الأرض، يَعْرُفُ الْمُسْلِمُ حَقِيقَةَ الْأَرْمَزِ لِلْمَرْكُزِ الثَّابِتِ فِي رُوْحَانِيَّةِ الْحَيَاةِ؛ فَيَحْمُلُ  
قَلْبُهُ مَعْنَى الْاَطْمَئْنَانِ وَالْاَسْتِقْرَارِ عَلَى جَاذِبَيِّ الدُّنْيَا وَقَلْقَهَا.

وَبِالرَّكُوعِ وَالسُّجُودِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، يُشْعِرُ الْمُسْلِمُ نَفْسَهُ مَعْنَى السُّمُوِّ وَالرَّفْعَةِ  
عَلَى كُلِّ مَا عَدَّ الْخَالِقُ مِنْ وُجُودِ الْكَوْنِ.

وَبِالْجَلْسَةِ فِي الصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ التَّحْيَاتِ الطَّيِّبَاتِ، يَكُونُ الْمُسْلِمُ جَالِسًا فَوْقَ  
الْدُّنْيَا يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُسْلِمُ عَلَى نَبِيِّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَيَشْهُدُ وَيَدْعُو.

وَبِالتَّسْلِيمِ الَّذِي يَخْرُجُ بِهِ مِنَ الصَّلَاةِ، يُقْبِلُ الْمُسْلِمُ عَلَى الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا إِقْبَالًا  
جَدِيدًاً؛ مِنْ جَهَتِيِّ السَّلَامِ وَالرَّحْمَةِ.

هِيَ لَحَظَاتٌ مِنَ الْحَيَاةِ كُلَّ يَوْمٍ فِي غَيْرِ أَشْيَاءِ هَذِهِ الدُّنْيَا؛ لِجَمْعِ الشَّهَوَاتِ  
وَتَقْيِيدِهَا بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ بِسَلَاسِلِهَا وَأَغْلَالِهَا مِنْ حَرَكَاتِ الصَّلَاةِ، وَلِتَمَرِّيقِ الْفَنَاءِ  
خَمْسَ مَرَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ عَنِ النَّفْسِ؛ فَيَرَى الْمُسْلِمُ مِنْ وَرَائِهِ حَقِيقَةَ الْخَلْوَدِ، فَتَشَعَّرُ  
الْأَرْوَاحُ أَنَّهَا تَنْمُو وَتَتَسَعُ.

هِيَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ، وَهِيَ كَذَلِكَ خَمْسُ مَرَاتٍ يَفْرَغُ فِيهَا الْقَلْبُ مِمَّا أَمْتَلَّ بِهِ  
مِنَ الدُّنْيَا، فَمَا أَدْقَ وَأَبْدَعَ وَأَصَدَّقَ قَوْلَهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: «جَعَلْتُ قُرْبَةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

\* \* \*

لَمْ يَكُنِ الْإِسْلَامُ فِي حَقِيقَتِهِ إِلَّا إِبْدَاعًا لِلصِّيَغَةِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تَنْتَظُمُ الْإِنْسَانِيةُ  
فِيهَا؛ وَلَهُذَا كَانَتْ آدَابُهُ كُلُّهَا حُرَاسًا عَلَى الْقَلْبِ الْمُؤْمِنِ، كَأَنَّهَا مَلَائِكَةٌ مِنَ الْمَعْانِي؛  
وَكَانَ الْإِسْلَامُ بِهَا عَمَلاً إِصْلَاحِيًّا وَقَعَ بِهِ التَّطَوُّرُ فِي عَالَمِ الْغَرِيزَةِ، فَنَتَّلَهُ إِلَى عَالَمِ  
الْخُلُقِ، ثُمَّ أَرْتَقَى بِالْخُلُقِ إِلَى الْحَقِّ، ثُمَّ سَمَّا بِالْحَقِّ إِلَى الْخَيْرِ الْعَامِ؛ فَهُوَ سُمُّ  
فَوْقَ الْحَيَاةِ بِثَلَاثَةِ طَبَقَاتٍ، وَتَدْرِجُ إِلَى الْكَمَالِ فِي ثَلَاثِ مَنَازِلٍ، وَأَبْتَعَادَ عَنِ الْأَوْهَامِ  
بِمَسَافَةِ ثَلَاثِ حَقَائِقٍ.

وَبِتِلْكَ الْأَعْمَالِ وَالْآدَابِ كَانَتِ الدُّنْيَا الْمُسْلِمَةُ الَّتِي أَسَسَهَا النَّبِيُّ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ دُنْيَا  
أَسْلَمَتْ طَبِيعَتِهَا، فَأَصْبَحَتْ عَلَى مَا أَرَادَ الْمُسْلِمُونَ لَا مَا أَرَادُتْ هِيَ؛ وَكَأَنَّهَا قَائِمَةٌ  
بِنَوَامِيسَ مِنْ أَهْلِهَا، لَا عَلَى أَهْلِهَا؛ وَكَانَ الْظَّاهِرُ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَغْزِي الْأَمَمَ بِالْعَرَبِ  
وَيَفْتَتِحُهَا، وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّ إِقْلِيمًا مِنَ الدُّنْيَا كَانَ يُحَارِبُ سَائِرَ أَقْوَالِمِ الْأَرْضِ  
بِالطَّبِيعَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الْجَدِيدَةِ لِهَذَا الدِّينِ.

وَكَانَ اللَّهُ - تَعَالَى - أَلْقَى فِي رِمَالِ الْجَزِيرَةِ رُوحَ الْبَحْرِ، وَبَعَثَهَا بَعْثَةً إِلَهِيَّةً

لأمِّهِ، فكانَ النَّبِيُّ ﷺ هو نقطَةُ المَدِّ التي يفُورُ الْبَحْرُ منها، وكانَ المُسْلِمُونَ أمواجَهُ التي عُسِّلَتْ بها الدُّنْيَا ...

لهذا سمعَ المُسْلِمُونَ الأوَّلُونَ كلامَ اللهِ - تعالى - في كتابِهِ، وكلامَ رسولِهِ ﷺ، لا كما يسمعُونَ القولَ، ولكنَّ كما يتلقَّونَ الحُكْمَ النافِذَ المُقْضَى<sup>(١)</sup>؛ ولم يجدُوا فيهِ البلاغَةَ وحْدَها، بل رَوْعَةَ أمرِ السَّمَاءِ في بلاغَةٍ؛ واتصلوا بِنَبِيِّهم، ثم بعْضُهم ببعضٍ، لا كما يتصلُ إنسانٌ بِإنسانٍ، بل كما تتصلُّ الأمواجُ بِقوَةِ المَدِّ، ثم كما يُمْدُّ بعضُها بعضاً في قوَةٍ واحدةٍ.

وحقَّقوا في كمالِهِ ﷺ وجودَهُمُ الْأَنْفُسِيَّ؛ فكانُوا من زَخَارِفِ الْحَيَاةِ وباطِلِهَا في موضعِ الْحَقِيقَةِ الَّذِي يُرَى فِيهِ الشَّيْءُ لَا شَيْءٌ.

ورأوا في إرادَتِهِ ﷺ النقطَةَ الثابتَةَ فيما يتضَارَبُ من خيالاتِ الْأَنْفُسِ؛ فكانُوا أكبرَ علماءِ الْأَخْلَاقِ عَلَى الْأَرْضِ، لَا مِنْ كُتُبٍ وَلَا عِلْمٍ وَلَا فلْسَفَةَ، بل مِنْ قلبِ نَبِيِّهِمْ وَحْدَهُ.

وعرَفُوا بِهِ ﷺ تَمامَ الرِّجْوَلَةِ؛ ومتى تَمَّتْ هَذِهِ الرِّجْوَلَةُ تَمامَهَا في إنسانٍ، رجَعَتْ لَهُ الطَّفُولَةُ فِي رُوْجِهِ، وأمْتَلَّكَ تَلْكَ الطَّبِيعَةَ الَّتِي لَا يَمْلِكُهَا إِلَّا أَعْظَمُ الْفَلَاسِفَةِ وَالْحُكَّمَاءِ فَأَصْبَحَ كَائِنًا يَمْشِي فِي الْحَيَاةِ إِلَى الْجَنَّةِ بِخُطُوطَاتٍ مُسَدَّدَةٍ لَا تَزِيفَ<sup>(٢)</sup> وَلَا تَنْحِرُفُ، فَلَا شَرَّ وَلَا رَذِيلَةٌ؛ وَدُنْيَا هِيَ الدُّنْيَا كُلُّهَا بِشَمْسِهَا وَقَمَرِهَا، يَمْلِكُهَا وَإِنْ لَمْ يَمْلِكْ مِنْهَا شَيْئًا، مَا دَامَتْ فِي قَلْبِهِ طَبِيعَةُ السُّرُورِ، فَلَا فَقْرٌ وَلَا غُنْيَ مَمَّا يَشْعُرُ النَّاسُ بِمَعْنَاهِهِ، بل كُلُّ مَا أَمْكَنَ فَهُوَ غَنِيٌّ كَامِلٌ، إِذْ لَمْ تَعُدْ الْقُوَّةُ فِي الْمَادِّةِ تَزِيدُ بِزِيادَتِهَا وَتَنْقُصُ بِنَقْصِهَا، بل الْقُوَّةُ فِي الرُّوحِ الَّتِي تَتَصَرَّفُ بِطَبِيعَةِ الْوُجُودِ، وَتَنْدَعُ قُوَّةُ الْجَسْمِ بِمَثِيلِ دَوْافِعِ الطَّفُولَةِ النَّاَمِيَّةِ الْمُتَغَلِّبَةِ، حَتَّى لَتَجْعُلَ مِنَ النُّورِ وَالْهَوَاءِ مَا يُؤْتَدِمُ<sup>(٣)</sup> بِهِ مَعَ الْخِبَرِ الْقَفَارِ، كَمَا يُؤْتَدِمُ بِاللَّحْمِ وَأَطَابِ الْأَطْعَمَةِ.

وبِذَلِكَ لَا تَتَسَلَّطُ ضُرُورَةُ الْجِسْمِ - كَالجُوعِ وَالْفَقْرِ وَالْأَلَمِ وَنَحْوِهَا - إِلَّا كَانَ تَسْلُطُهَا كَائِنَةً أَمْرٌ مِنْ قوَّةِ الْوُجُودِ إِلَى قوَّةِ فِي هَذَا الْجَسْمِ: أَنْ تَظْهَرَ لِتَعْلَمَ عَمَلَهَا الْمُعْجِزَ فِي إِبْطَالِ هَذِهِ الضرُورَةِ. وَهَذَا الْجِسْمُ مِنَ النَّاسِ كَالْأَزْهَارِ عَلَى

(١) المُقْضَى: المُقدَّرُ.

(٢) لَا تَزِيفَ: لَا تَحْوِلَ وَلَا تَنْحِرُفُ.

(٣) يُؤْتَدِمُ: يُؤْكَلُ مِنَ الطَّعَامِ.

أغصانها الخضر؛ لو قالـت شيئاً لـقالـت: إن ثروتي في الحياة هي الحياة نفسها،  
فليس لي فقر ولا غنى، بل طبيعة أولاً طبيعة.

— 1 —

ولقد كانَ الْمُسْلِمُ يُضْرِبُ بِالسَّيْفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَتَقْعُضُ ضَرَبَاتُ السَّيْفِ عَلَى جَسْمِهِ فَتُمْزَقُهُ؛ فَمَا يُحْسِنُهَا إِلَّا كَانَهَا قَبْلُ أَصْدِقَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَلْقَوْنَهُ وَيَعْنَقُونَهُ! وَكَانَ يُبْتَلَى فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَا يَشْعُرُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ الْمُرَّازُ<sup>(١)</sup> الْمُبْتَلَى يُعْرَفُ فِيهِ الْحُزْنُ وَالْأَنْكَسَارُ، بَلْ تَظَهُرُ فِيهِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْمُنْتَصِرَةُ كَمَا يَظَهُرُ أَطْلَاثُ الْأَذَافِرِ فِي بَطْلِيِّ الْعَظِيمِ أُصِيبَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ جَسْمِهِ بِجَرَاحٍ، فَهِيَ جَرَاحٌ وَتَشْوِيَّهٌ وَأَلْمٌ، وَهِيَ شَهَادَةُ النَّصْرِ!

ولم تكن أثقالُ المسلم من دنياه أثقالاً على نفسه، بل كانت لهُ أسبابٌ قوّةٌ وسموٌ؛ كالشّرِّ المخلوق لطبقاتِ الجوّ العلّياً، ويحملُ دائمًا من أجلِ هذه الطبقاتِ ثقلَ جناحيهِ العظيمين.

وكانت الحقيقة التي جعلها النبي ﷺ مثلهم الأعلى، وأقرّها في أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله - أن الفضائل كلها واجبة على كل مسلم لنفسه، إذ إنها واجبة بكل مسلم على غيره، فلا تكون في الأمة إلا إرادة واحدة متعاونة، تجعل المسلم وما هو روح أمته تعمل به أعمالها هي لا أعماله وحدها.

ال المسلم إنسان ممتد بمنافعه في معناء الاجتماعي حول أمته كلها، لا إنسان ضيق مجتمع حول نفسه بهذه المنافع؛ وهو من غيره في صدق المعاملة الاجتماعية كالتاجر من التاجر؛ تقول الأمانة لکلیهما: لا قيمة لمیزانک إلا أن یُصدقه میزان أخيك.

ولن يكون الإسلام صحيحاً تاماً حتى يجعل حامله مثلاً من نبيه في أخلاق الله؛ فما هو بشخص يضبط طبيعته: يقهرها مرّة وتقهره مراراً؛ ولكن طبيعة تضبط شخصها فهي قانون وجوده.

لا يضطرب من شيء، وكيف يضطرب ومعه الاستقرار؟

لَا يخافُ مِنْ شَيْءٍ، وَكَيْفَ يَخَافُ وَمَعَهُ الْطَّمَائِنَةُ؟

لَا يَخْشِي مُخْلوقاً، وَكَيْفَ يَخْشِي مَعْهَ اللَّهُ؟

أيتها الأسد، هل أنت بجميلتك إلا في طبيعة مخالفك وأنيابك...؟

(١) المرزاً: المصايب بالاتلاعات المختلفة.

## وحي الهجرة

إن التاريخ ليتكلّم بلغة أوسع من الفاظه إذا قرأه من يقرؤه على أنه بعض نوايسن الوجود، صورت فيها النفس الإنسانية كيف أعتبرت أغراضها، وكيف مدت في نسقها<sup>(١)</sup>، وكيف تغلغلت في مصالكها، وما تأثر لها فجرث به مجريها، وما دفعها فانحدرت منه إلى مقارها<sup>(٢)</sup>؛ فهو ليس بكلام تستقبله تقرأ فيه، ولكنه أحوال من الوجود تعرضها فتغيّر عليك حسسك بإلهامها وأحلامها، وتنالها من ناحية فتناولك من الأخرى؛ فإذا الكلمة من ورائها معنى، من ورائه طبيعة، من ورائها سبب وحّنة؛ وإذا كلّ حادثة فيها إنسانيتها وإلهامها معاً، وإذا الوجود في ذهنك كالساعة ترسم لك حد الثانية بخطرتين، وحد الدقيقة من عدد محدود من الثنائي، وحد الساعة إلى حد اليوم؛ وإذا ألياف في نفسك من كل هذه الحواسى، وإذا التاريخ فيما تقرؤه مفتّن في ظاهره وباطنه يقىء عليك من الفاظه ومعانيه بطلال هي صلتك أنت إليها الحى الموجود بأسرار ما كان موجوداً من قبل.

كذلك قرأت بالأمس تاريخ الهجرة النبوية في كتاب أبي جعفر الطبرى لأكتب عنه هذه الكلمة، فلم أكن - علم الله - في كتاب ولا في حكاية، بل في عالم أنشق في نفسي مخلوقاً تاماً بأهله، وحوادث أهله، وأسرار أهله جميعاً؛ كما يرى المحب حبيب: لا يكون الجميل في محل إلا أملاً مكانه بعاشقه، فهو مكان من النفس، لا من الدنيا وحدها، وفيه الحياة كما هي في الوجود بمظهر المادة، وكما هي في الحب بمظهر الروح.

وتلك حالة من القراءة بالروح والكتابة بالروح، متى أنت س茅ت إليها رأيت فيها غير المعنى يخرج معنى، ومن لا شيء تخلق أشياء، لأنك منها اتصلت بأسرار نفسك، ومن نفسك اتصلت بأسرار فوقها؛ فيصبح التاريخ معك فن الوجود الإنساني على الوجه الذي أفضت به الحكمة إلى الحياة لستمر بالنفس الإنسانية،

(٢) مقارها: أماكنها.

(١) نسقها: طرازها وعلى شكلها.

لَا فَنِعْلَمُ النَّاسِ عَلَى الْوِجْهِ الَّذِي أَفْصَثَ<sup>(١)</sup> بِهِ الْحَوَادِثُ مِمَّا بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ.

\* \* \*

نشأ النبي ﷺ في مكة، وأشتبأ على رأس الأربعين من سنه، وعبر<sup>(٢)</sup> ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله قبل أن يهاجر إلى المدينة؛ فلم يكن في الإسلام أول بدأته إلا رجل وأمرأة وغلام: أما الرجل فهو هو ﷺ، وأما المرأة فزوجة خديجة، وأما الغلام فعلي ابن عم أبي طالب.

ثم كان أول النمو في الإسلام بحر وعبد: أما الحر فأبو بكر، وأما العبد قبلاً، ثم أتَسقَ النمو قليلاً ببطء الهموم في سيرها، وصبر الحر في تجلده؛ وكأن التاريخ واقف لا يتزحزح، ضيق لا يتسع، جامد لا ينمو؛ وكأن النبي ﷺ أخو الشمس: يطلع كلاهما وحده كل يوم. حتى إذا كانت الهجرة من بعد، فانتقل الرسول إلى المدينة، بدأ الدنيا تتقلّل<sup>(٣)</sup>، كأنما مر بقدميه على مركزها فحرّكها؛ وكانت خطواته في هجرته تخطّي الأرض، ومعانيها تخطّي في التاريخ؛ وكانت المسافة بين مكة والمدينة، ومعناها بين المشرق والمغرب.

لقد كان في مكة يعرض الإسلام على العرب كما يعرض الذهب على المتواشين: يرؤونه بريقاً وشعاعاً ثم لا قيمة له، وما بهم حاجة إليه، وهو حاجة بني آدم إلا المتواشين، وكانوا في المحادة<sup>(٤)</sup> والمخالفـة الحمقاء، والبلوغ بدعويـة مبلغ الأوهام والأساطير - كما يكون المريض بذات صدره مع الذي يدعوه في ليلة قارأة إلى مداواة جسمه بأشعة الكواكب؛ وكانت مكة هذه صخراً جغرافياً يتحطم ولا يلين، وكانت الشيطان نفسه وضع هذا الصخر في مجرى الزمن ليصدّ به التاريخ الإسلامي عن الدنيا وأهلها.

وأوذى رسول الله ﷺ، وكذب وأهين، ورجف به الوادي يخطو فيه على زلزال تقلب، ونابذه<sup>(٥)</sup> قومه وتذمروا<sup>(٦)</sup> فيه، وحضر بعضهم بعضاً عليه، وانصفق<sup>(٧)</sup> عنه عامة الناس وتركوه إلا من حفظ الله منهم؛ فأصيب كبيراً باليثم من قوله، كما أصيب صغيراً باليثم من أبويه.

(١) أردت: أوصلت.

(٢) غير: مضى.

(٣) تقلّل: تتملّم.

(٤) المحادة: المعاندة والمخالفـة والعداء.

(٥) نابذ: رفض وأخرج وأفرد.

(٦) تذمروا: اتحدوا واحتشدوا جماعات جماعات.

(٧) انصفق: تخلى واجتنب.

وكان لا يسمع بقادم يقدّم من العرب له أسم وشرف، إلا تصدى<sup>(١)</sup> له فدعاه إلى الله وعرض نفسه عليه؛ ومع ذلك بقيت الدعوة تلوح وتختفي كما يشئ البرق من سحابة على السماء: ليس إلا أن يرى ثم لا شيء بعد أن يرى!

\* \* \*

فهذا تاريخ ما قبل الهجرة في جملة معناه، غير أنّي لم أقرأه تاريخاً، بل قرأتُ فيه فصلاً رائعاً من حكمـة إلهية، وضعـة الله كالـمقدمة لـتاريخ الإسلام في الأرض؛ مقدمة منـ الحـوادـث والأـيـام تـحيـا وـتمـرـ في نـسـق<sup>(٢)</sup> الروـاـيـة الإـلـهـيـة الـمـنـطـوـيـة عـلـى رـمـوزـها وأـسـرـارـها، وـتـظـهـرـ فيها رـحـمـة الله تـعـمـلـ بـقـسـوـة، وـحـكـمـة الله تـجـلـيـ في غـمـوضـ؛ فـلـوـ أـنـتـ حـقـقـتـ الـنـظـرـ لـرـأـيـتـ تـارـيـخـ الإـلـاسـلـامـ يـتـأـلـهـ<sup>(٣)</sup> فيـ هـذـهـ الـحـيـثـةـ، بـحـيـثـ لـاـ تـقـرـؤـهـ الـنـفـسـ المؤـمـنةـ إـلـاـ خـاـشـعـةـ كـائـنـاـ تـصـلـيـ، وـلـاـ تـتـدـبـرـ إـلـاـ خـاـضـعـةـ كـائـنـاـ تـعـبـدـ.

بدأ الإسلام في رجل وأمرأة وغلام، ثم زاد حراً وعبد؛ أليسـتـ هذهـ الخـمـسـ هيـ كـلـ أـطـوـارـ البـشـرـيـةـ فيـ وجـودـهـاـ، مـخلـوقـةـ فيـ الإـنـسـانـيـةـ وـالـطـبـيـعـةـ، وـمـصـنـوـعـةـ فيـ الـسـيـاسـةـ وـالـجـمـعـانـ؛ فـهـنـاـ مـطـلـعـ القـصـيـدـةـ، وـأـوـلـ الرـمـزـ فيـ شـعـرـ التـارـيـخـ.

ولـبـتـ النـبـيـ ﷺ ثـلـاثـ عـشـرـ سـنـةـ لـاـ يـغـيـرـ<sup>(٤)</sup> قـوـمـهـ إـلـاـ شـرـاـ، عـلـىـ آـنـهـ دـائـبـ<sup>(٥)</sup> يـطـلـبـ ثـمـ لـاـ يـجـدـ، وـيـغـرـضـ ثـمـ لـاـ يـقـبـلـ مـنـهـ، وـيـخـفـقـ ثـمـ لـاـ يـعـتـرـيهـ أـلـيـاسـ، وـيـجـهـدـ ثـمـ لـاـ يـتـخـوـنـهـ الـمـلـلـ<sup>(٦)</sup>، وـيـسـتـمـرـ مـاضـيـاـ لـاـ يـتـحـرـفـ<sup>(٧)</sup>، وـمـعـتـمـداـ لـاـ يـتـحـوـلـ؛ أـلـيـسـتـ هـذـهـ هيـ أـسـمـيـ معـانـيـ التـرـيـةـ الإـنـسـانـيـةـ أـظـهـرـهـاـ اللهـ كـائـنـاـ فـيـ نـبـيـهـ، فـعـمـلـ بـهـ وـبـتـ عـلـيـهـ، وـكـائـنـ ثـلـاثـ عـشـرـ سـنـةـ فـيـ هـذـهـ الـمـعـنـىـ كـعـمـرـ طـفـلـ وـلـدـ وـنـشـأـ وـأـحـكـمـ تـهـذـيـبـهـ بـالـحـوـادـثـ، حـتـىـ تـسـلـمـتـ الـرـجـولـةـ الـكـامـلـةـ بـمـعـانـيـهاـ مـنـ الطـفـولـةـ الـكـامـلـةـ بـوـسـائـلـهاـ؟

أـفـلـيـسـ هـذـهـ فـصـلـاـ فـلـسـفـيـاـ دـقـيـقاـ يـعـلـمـ الـمـسـلـمـينـ كـيـفـ يـجـبـ أـنـ يـنـشـأـ الـمـسـلـمـ: غـنـاءـ فـيـ قـلـبـهـ، وـقـوـنـةـ فـيـ إـيمـانـهـ، وـمـوـضـعـهـ فـيـ الـحـيـاةـ مـوـضـعـ الـنـافـعـ قـبـلـ الـمـنـتـفـعـ، وـالـمـصـلـحـ قـبـلـ الـمـقـلـدـ؛ وـفـيـ نـفـسـهـ مـنـ قـوـةـ الـحـيـاةـ مـاـ يـمـوتـ بـهـ فـيـ هـذـهـ النـفـسـ أـكـثـرـ مـاـ فـيـ الـأـرـضـ وـالـنـاسـ مـنـ شـهـوـاتـ وـمـطـامـعـ؟

(١) تـصـدىـ: خـرـجـ لـمـواجهـتـهـ.

(٢) نـسـقـ: نـمـطـ مـنـسـجـمـ.

(٣) يـتـأـلـهـ: يـسـمـوـ وـيـعـلـوـ كـالـإـلـهـ.

(٤) لـاـ يـغـيـرـ: لـاـ يـرـيدـ لـهـ.

(٥) دـائـبـ: مـسـتـمـرـ.

(٦) لـاـ يـتـخـوـنـهـ الـمـلـلـ: لـاـ يـدـاـخـلـهـ.

(٧) لـاـ يـتـحـرـفـ: لـاـ يـمـيلـ وـلـاـ يـتـحـوـلـ.

ثم أليست تلك العوامل الأخلاقية هي هي التي أقيمت في منع التاريخ الإسلامي ليُعبِّر عنها تياره؟ فتدفعه في مجرى بين الأمم، وتجعل من أخصّ الخصائص الإسلامية في هذه الدنيا - الثبات على الخطوة المتقدمة وإن لم تتقدّم، وعلى الحق وإن لم يتحقق؛ والتبرؤ من الأثرة وإن شحّت<sup>(١)</sup> عليها النفس، وأحتقار الضعف وإن حكم وسلط، ومقاومة الباطل وإن ساد وغلب، وحمل الناس على مخض الخير وإن رددوا بالشزء، والعمل للعمل وإن لم يأت بشيء، والواجب للواجب وإن لم يكن فيه كبير فائدة، وبقاء الرجل رجلاً وإن حطمه كلُّ ما حوله؟

ثم هي هي البرهانات القائمة للدهر قيام المنارة في الساحل - على نبوة محمد ﷺ ثبُت ببرهان الفلسفة وعلوم النفس أنَّه رُوحٌ وغياثها المحتومة بالقدرة، لا جسم ووسائله المتغلبة بالطبيعة؛ ولو كان رجلاً أبعتنته<sup>(٢)</sup> نفسه، لتمحلَّ<sup>(٣)</sup> الجيل لسياسته، ولا خفت طمعاً من كلٍّ مطعم، ولرکَدَ مع الحوادث وهبَ، ولما استمرَ طوال هذه المدة لا يتتجه وهو فردٌ إلا اتجاه الإنسانية كلُّها كائناً هو هي.

ولو هو كانَ رجلَ الملك أو رجلَ السياسة، لاستقامَ والتوى، ولادركَ ما يتغى في سنوات قليلة، ولا يُؤخذَ الحوادث يتعلّقُ عليها، ولما أفلَت ما كانَ موجوداً منه يتعلّقُ به، ولما انتزعَ نفسه من محلِّه في قومِه وكانَ واسطةً فيهم، ولا تركَ عواملَ الزمنَ تُبعدهُ وهي كانت تُذنيه.

قالوا: إنَّ عَمَّةً أبا طالبٍ بعثَ إِلَيْهِ حِينَ كَلَمَتُهُ فُرِيشَ فقالَ له: يا أَبَنَ أَخِي، إنَّ قومَكَ قد جاؤُونِي فقالوا لي: كذا وكذا، فأبْنَى عَلَيْهِ وَعَلَى نَفْسِكَ. ولا تُحْمِلْنِي مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا أُطِيقُ. فظنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قد بدأ لِعْمَهُ فِيهِ بَدَاءً<sup>(٤)</sup>، وَأَنَّهُ خَازِلَهُ<sup>(٥)</sup> وَمُسْلِمَهُ، وَأَنَّهُ قد ضَعَفَ عَنْ تُصْرِيَّهِ وَالْقِيَامِ مَعَهُ، فقال: يا عَمَّاهُ، - وَاللَّهُ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتُرَكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَ اللَّهُ أَوْ أَهْلَكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ. ثمَّ أَسْتَعِبُ<sup>ﷺ</sup> فَبَكَى!

يا دموع النبوة! لقد أثبتت أنَّ النفس العظيمة لن تَتَعَزَّزَ عن شيءٍ منها بشيءٍ

(١) شحّت: بخلت وفاقت.

(٢) أبعتنته: اختارته.

(٣) تَمَحَّلَ: أوجَدَ الأعذار الواهية.

(٤) بَدَاءٌ: رأي جديد.

(٥) خَازِلَهُ: متخلٌ عنه.

من غيرها كائناً ما كان، لا من ذهب الأرض وفضتها، ولا من ذهب السماء وفضتها  
إذا وضعَت الشمس في يدَه وألْقَمَ في الآخرِ.

وكل حادث ألمدة قبل الهجرة على طولها ليست إلا دليل ذلك الزمان على  
أنه زمان نبي، لا زمان ملك أو سياسي أو زعيم؛ ودليل الحقيقة على أن هذا اليقين  
الثابت ليس يقين الإنسان الاجتماعي من جهة قوته، بل يقين الإنسان الإلهي من  
جهة قلبه؛ ودليل الحكمَة على أن هذا الدين ليس من العقائد الموضعية التي  
تشعرُها عذري النفس للنفس؛ فها هو ذا لا يبلغ أهلُه في ثلاثة عشرة سنة أكثر مما  
تبلغ أسرة توالده في هذه الحقبة؛ ودليل الإنسانية على أنه وخى الله بإيجاد الإخاء  
العالمي والوحدة الإنسانية. أفلَم يكُن خروجه عن موطنِه هو تحفَّه في العالم؟

ثلاث عشرة سنة، كانت ثلاثة عشر دليلاً ثبِّت أن النبي ﷺ ليس رجل ملك،  
ولا سياسة، ولا زعامة؛ ولو كان واحداً من هؤلاء لأدرك في قليل؛ وليس مبتدع  
شريعة من نفسه، وإنما غير في قومه وكأنه لم يجدهم وهم حوله؛ وليس  
صاحب فكرة تعملُ أساليب النفس في انتشارها؛ ولو كان لحملهم على مخضها  
وممزوجها؛ وليس رجلاً متعلقاً بالمصادفات الاجتماعية، ولو هو كان لجعل إيمان  
يوم كفر يوم؛ وليس مُضليع عشرية يهدّب منها على قذر ما تقبل منه سياسة  
ومخداعة، ولو رجل وطنه تكون غايتها أن يشمخ في أرضه شموخ جبل فيها، دون  
أن يحاول ما بلغ إليه من إطلاله على الدنيا إطلال السماء على الأرض، ولا رجل  
حاضرٍ إذ كان واثقاً دائماً أن معه الغد وآتيه، وإن أدبر<sup>(1)</sup> عن اليوم وذاهبه؛ ولا  
رجل طبيعته البشرية يلتمس لها ما يلتمس الجائع ليطنه، ولا رجل شخصيته  
يستهوي بها ويسحر، ولا رجل بطشه يغلب به ويتسلط، ولا رجل الأرض في  
الأرض، ولكن رجل السماء في الأرض.

هذه هي حكمَة الله في تدبيره لنبيه قبل الهجرة: قبضَ عنه أطرافَ الزمان،  
وحصَّرَه من ثلاثة عشرة سنة في مثل سنة واحدة، لا تصلُّرَ به الأمور مَصادرها كي  
ثبتَ أنها لا تصلُّرَ به: ولا تستحقُ به الحقيقة لتدلُّ على أنها ليست من قوته  
وعمله.

(1) أدبر: رحل راجعاً.

وكانَ ﷺ على ذلك - وهو في حدود نفسه وضيق مكانيه - يتسعُ في الزمِنِ من حيث لا يرى ذلك أحدٌ ولا يعلمُه، وكأنَّما كانت شمسُ اليوم الذي سيتصرُّ فيه - قبلَ أن تشرقَ على الدنيا بثلاثَ عشرَةَ سنةً - مشرقةً في قلبه ﷺ

والفصلُ مِنَ السنةِ لا يقدمُه الناسُ ولا يؤخرونَه، لأنَّه من سيرِ الكونِ كله؛ والسحابةُ لا يشعرونَ برقها بالأسبابِ، ومعَ النبيِّ من مثل ذلك برهانُ اللهِ على رسالتهِ، إلى أن نزلَ قوله تعالى: «وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونُ الَّذِينَ كُلُّهُمْ لِلَّهِ» فحلَّ الفصلُ، وأنطلقتِ الصاعقة، وكانت الهجرة.

تلك هي المقدمةُ الإلهيَّةُ للتاريخِ، وكانَ طبيعياً أن يطردَ التاريخُ بعدها، حتى قال الرشيدُ للسحابةِ وقد مرَّتْ به: أمطري حيث شئتِ فسيأتيَني خرائجُ!

## فلسفة قصة

ماتت خديجة زوج النبي ﷺ ومات عمّه أبو طالب في عام واحد، في السنة العاشرة من النبوة، فعظمت المصيبة فيما عليه، إذ كان عمّه هذا يمتنعه من أذى قريش، ويقوم دونه فلا يخلصون إليه بمكروه؛ وكان أبو طالب من قريش كالعقيدة السياسية: هي بطبيعتها قوة نافذة على قوة القبيلة؛ فمن ثم كان هو وحده المشكلة النفسية المعقدة التي تعمل قريش جاهدة في حلها، وقامت المعركة الإسلامية الأولى بين إرادتهم وإرادته، وهم أمّة تحكمهم الكلمة الاجتماعية التي تسير عنهم في القبائل؛ وتاريخهم ما يقال في الألسنة من معاني المدح والذم، فيخشون المقالة أكثر مما يخشون الغارة، وقد لا يبالون بالقتل والجرح منهم، ولكنهم يبالون بالكلمات المجرورة.

فكان من لطيف صنع الله للإسلام، وعجب تدبيره في حماية نبيه ﷺ - وضع هذه القوة النفسية في أول تاريخ النبوة، تشغل بها سخافات قريش، وتكون عملاً لفراغهم الروحي، وتأثير فيهم الإشكال السياسي الذي يعطّل قانونهم الوحشي إلى أن يتم عمل الأسباب الخفية التي تكسر هذا القانون، فإن المصنوع الإلهي لا يخرج أعماله التامة العظيمة إلا من أجزاء دقيقة.

أما خديجة زوج النبي ﷺ فكانت في هذه المحنّة قلباً مع قلبه العظيم، وكانت لنفسه كقول (نعم) للكلمة الصادقة التي يقول لها كل الناس (لا)، وما زالت المرأة الكاملة المحبوبة هي التي تعطي الرجل ما نقص من معاني الحياة، وتيلد له المرسارات من عواطفها كما تيلد من أحشائهما، فالوجود يعمل بها عملين عظيمين: أحدهما زيادة الحياة في الأجسام، والآخر إتمام نقصها في المعاني.

وبموت أبي طالب وخديجة، أفرز النبي ﷺ بجسمه وقلبه، ليتجزأ<sup>(١)</sup> من الحال التي يغلب فيها الحسُّ، إلى الحال التي تغلب فيها الإرادة، ثم ليخرج من

(١) ليتجزأ: ليتفرغ، ليختلص.

أيام الاستقرار في أرضه، إلى الأيام المتحركة به في هجرته، ثم ليتنهى بذلك إلى غاية قوميته الصغيرة المحدودة، فيحصل من ذلك بأول عالميته الكبير.

وأراد الله - تعالى - أن يبدأ هذا الجليل العظيم من اسم خلال العجل والعظمة، ليكون أول أمره شهادة بكماله، فكانت الحسنة فيه بشهادة السيئة من قومه، فحمله بشهادة رعنونهم<sup>(١)</sup>، وأنانه<sup>(٢)</sup> بدليل طيشهم، وحكمته ببرهان سفاهتهم<sup>(٣)</sup>؛ وبذلك ظهر الروحاني روحاً في المادة.

قالوا: فنالت منه قريش، ووصلوا من أذاته إلى ما لم يكونوا يصلون إليه في حياة عمه، حتى نظر بعضهم التراب على رأسه، كأنما يعلمونه أنه أهون عليهم من أن يكون حروباً، فضلاً عن أن يكون عزيزاً، فضلاً عن أن يكوننبياً؛ قالوا: فدخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي!

كانت تبكي إذ لا تعلم أن هذا التراب على رأس النبي العظيم هو شذوذ الحياة الأرضية الدنيا، في مقابلة إنسانها الشاذ المنفرد. هذه القبضة من التراب الأرضي قبضة سفيهه، تحاول رد الممالك الإسلامية العظيمة أن تنشأ نشأتها وتعمل عملها في التاريخ، فهي في مقدارها وسخافتها ومحاولتها، كعقل قريش حينئذ في مقداره وسخافته ومحاولته.

أما النبي ﷺ فقال لبيته: «يا بنتي لا تبكي، فإن الله مانع أباك». حسب ذلك هواناً وضيغة، فأعلمهها أن قبضة من التراب لا تطمر النجم، وأن هذه الحثوة الترابية لا تسمى معركة أثارتها الخيل فجاءت بنتيجة، وأن ساعنة من الحزن في يوم، لا يحکم بها على الزمن كله، وأن هذه التزوة التي تحركت الآن هي حمق الغباوة: قوتها نهايتها.

«يا بنتي لا تبكي فإن الله مانع أباك». أي ليس للنبي كبرباء ينالها الناس أو يغضبون<sup>(٤)</sup> عنها فيأتي الدمع مترجمًا عن المعنى الإنساني الناقص مثبتاً أنه ناقص، إنما هي النبوة: قانونها غير ما أعتادت النفس من أفراح وأحزان، وهي النبوة: تجعل المختار لها غير محدود بجسده الضعيف، بل حدوده الحقائق التي فيها

(١) رعنونهم: حماقتهم.

(٢) أنانه: ترؤيه.

(٣) سفاهتهم: طيشهم ودناعتهم.

(٤) غض الطرف: أغمض عينه.

قوتها، فهو في مَنْعَة الواقع الذي لا بد أن يقع، فلو أمكن أن يُحدِّف يوم منَ الزَّمْنِ أو يؤخِّر عن وقته، أمكن أن يؤخِّر النبي أو يُحدِّف.

«يا بنيَّة لا تبكي إِنَّ اللَّهَ مانعٌ أَبَاكُ». لا - والله - ما يقول هذه الكلمة إِلَّا نَبَيَّنَ وَسَعَ التَّارِيَخَ فِي نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ هَذَا التَّارِيَخُ فِي الدُّنْيَا، فَكَلْمَتَهُ هِيَ الْإِيمَانُ وَالثَّقَةُ إِذَا تَكَلَّمَ عَنْ مُوْجَدٍ.

ترابٌ يُشَرِّه سفيهٌ على رأسِ النَّبِيِّ! ويحكِ يا حَقَارَةَ المَادَةِ؛ إِنَّ ارْتِفَاعَكِ لَعْنَةٌ، إِنَّ ارْتِفَاعَكِ لَعْنَةٌ.

\* \* \*

قالوا: وخرجَ رسولُ الله ﷺ وحدهُ إلى الطائفِ، يلتَمِسُ من ثَقِيفِ النَّصْرِ والمنعَةِ لَهُ مِنْ قَوْمِهِ، فلَمَّا أَنْتَهَى إِلَى الطَّائِفِ عَمَدَ<sup>(١)</sup> إِلَى نَفْرٍ مِنْ ثَقِيفٍ هُمْ يَوْمَئِذٍ سَادُّهُمْ وَأَشْرَافُهُمْ، فَجَلَّسُ إِلَيْهِمْ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَكَلَّمُهُمْ بِمَا جَاءُهُمْ لَهُ مِنْ نُصْرَتِهِ وَالْقِيَامِ مَعَهُ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ، فَلَمْ يَفْعُلُوا وَأَغْرَوْا<sup>(٢)</sup> بِهِ سُفَهَاءَهُمْ وَعَيْدَهُمْ يَسْبُوْنَهُ وَيَصِحُّونَ بِهِ، حَتَّى أَجْتَمَعُ عَلَيْهِ النَّاسُ وَالْجَمَاؤُ إِلَى حَاطِنٍ<sup>(٣)</sup> لِعَيْنَةِ ابْنِ رَبِيعَةِ وَشَيْبَةِ بْنِ رَبِيعَةِ وَهُمَا فِيهِ. وَرَجَعَ عَنْهُ مِنْ سُفَهَاءِ ثَقِيفٍ مِنْ كَانَ يَتَبعُهُ، فَعَمَدَ<sup>(٤)</sup> إِلَى ظَلْ حُبْلَةٍ<sup>(٥)</sup> مِنْ عَنْبَرٍ فَجَلَّسَ فِيهِ، وَابْنَا رَبِيعَةَ يَنْظَرَا إِلَيْهِ وَيَرْبَّانِ مَا لَقِيَ مِنْ السُّفَهَاءِ.

فَلَمَّا أَطْمَأَ<sup>(٦)</sup> فِي مَجْلِسِهِ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قَوْنِي، وَقَلَةَ حِيلَتِي، وَهُوَانِي عَلَى النَّاسِ؛ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكَلَّنِي، إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي<sup>(٧)</sup>، أَوْ إِلَى عَدُوِّ مَلْكَتِهِ أَمْرِي، إِنَّ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكَنْ عَافِيَّكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي. أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقْتُ لَهُ الظُّلْمَاتِ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، مِنْ أَنْ يَتَرَلَّ بِي غَضِبُكَ، أَوْ يَحْلُّ عَلَيَّ سَخْطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضِيَ، لَا حُولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ!».

\* \* \*

أَلَا مَا أَكْمَلَ هَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةَ الَّتِي تُثِبِّتُ أَنَّ قَوَّةَ الْخُلُقِ هِيَ دَرَجَةٌ أَرْفَعُ مِنَ الْخُلُقِ

(١) عَمَدَ: لَجَأَ.

(٢) أَغْرَوْا: حَتَّوا وَشَجَعُوا.

(٤) الْحُبْلَةُ بِالضمِّ: الْكَرْمُ.

(٥) يَتَجَهَّمُنِي: يَسْتَهْلِكُنِي بِوَجْهِ كَرْبَلَةِ.

(٦) يَتَجَهَّمُنِي: يَسْتَهْلِكُنِي بِوَجْهِ كَرْبَلَةِ.

نفسه، فهذا فنُ الصبر لا الصبر فقط، وفنُ الحلم لا الحلم وحده.

قوَّةُ الْخُلُقِ هي التي تجعلُ الرجلَ العظيمَ ثابتاً في مركِّزِ تاريخِه لا متقلِّلاً في تواريَّخِ النَّاسِ، محدوداً بعظامِ شخصيَّته الخالدة لا بمصالحِ شخصيَّةِ الفانيِّ، ناظراً في الحياة إلى الوضِّع الثابت للحقيقة لا إلى الوضِّع المتغيَّر لِلمنفعةِ.

وما كانَ أولئكَ الأشْرَافُ وسفهاؤُهم وعيُّدُهم إِلَّا معانِيَ الظُّلْمِ، والشَّرِّ، والضعفِ، تقولُ لِلنَّبِيِّ العظيمِ الذي جاءَ يمحوُها ويُدَبِّلُ منها: إننا أشياءٌ ثابتةٌ في البشريَّةِ.

لم يكنَ منهمُ الأشْرَافُ والسفهاءُ والعبيْدُ، بلْ كانَ منهمُ العَسْفُ<sup>(١)</sup>، والرُّقُّ، والطَّيشُ، تَسْخَرُ ثلاثتها من نبِيِّ العَدْلِ، والحرَّيَّةِ، والعقلِ، فما تَسْخَرُ إِلَّا منْ نفسِها. صغائرُ الحياة قد أحاطَتْ بِمَجْدِ الْحَيَاةِ، لِتُثْبِتَ الصَّغَائِرُ أَنَّهَا الصَّغَائِرُ، ولِتُثْبِتَ الْمَجْدُ أَنَّهُ الْمَجْدُ.

كانَ الْفَرِيقَانِ هما الفَكِّرَتَيْنِ الْمُتَعَادِيَتَيْنِ أَبْدَا عَلَى الْأَرْضِ: إِحْدَاهُمَا عِشْ لِتَأْكُلُ وَتَسْتَمْتَعُ إِنَّ أَهْلَكَتْ، وَالْأُخْرَى عِشْ لِتَعْمَلَ وَتَنْفَعَ النَّاسَ إِنَّ هَلْكَتْ.

كانتِ الأَقْدَارُ تُبَادِي هَذَا الرُّوحَ الْوَاسِعَ بِذَلِكَ الرُّوحِ الضَّيقِ، لِينْتَلِقَ الْوَاسِعُ مِنْ مَكَانِهِ وَيَسْتَقِبِلَ الدُّنْيَا الَّتِي عَلَيْهِ أَنْ يُنْشِئَهَا. فأولئكَ الأشْرَافُ والسفهاءُ والعبيْدُ إِنَّهُمْ إِلَّا الضَّيقُ، والرُّكُودُ، وذُلُّ الْعِيشِ، حَوْلَ السَّعَيْرِ الْرُّوحِيَّةِ، وَالسَّمْوِ، وَطَهَارَةِ الْحَيَاةِ.

وقفَ الْمَعْنَى السَّمَاوِيُّ بَيْنَ معانِي الْأَرْضِ، وَلَكِنَّ نُورَ الشَّمْسِ يَنْبَسِطُ عَلَى التَّرَابِ فَلَا يُعْفَرُهُ التَّرَابُ<sup>(٢)</sup>، وَمَا هُوَ بِنُورٍ يُضِيءُ إِكْثَرَ مِمَّا هُوَ قُوَّةٌ تَعْمَلُ بِالْعِنَاصِيرِ الَّتِي مِنْ طَبِيعَتِهَا أَنْ تَحْوَلَ، فِي الْعِنَاصِيرِ الَّتِي مِنْ شَأْيَهَا أَنْ تَحْوَلَ.

وَكَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ أولئكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ قُوَّةٌ أُخْرَى، هِيَ الْقَدْرَةُ الَّتِي تَعْمَلُ بِهَذَا النَّبِيِّ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ، وَبِهَذِهِ الْقَدْرَةِ لَمْ يَنْظُرِ النَّبِيُّ إِلَى قُرَيْشٍ وَصَوْلَتِهِمْ<sup>(٣)</sup> عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا يَنْظُرُ إِلَى شَيْءٍ أَنْقَضَى، فَكَانَ الْوَجُودُ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ غَيْرُ مَوْجُودٍ، وَكَانَتْ حَقِيقَةُ الزَّمْنِ الْآتِيِّ تَجْعَلُ الزَّمْنَ الْحَاضِرَ بِلَا حَقِيقَةِ.

(١) العَسْفُ: الجُورُ وَالظُّلْمُ.

(٢) يُعْفَرُ التَّرَابُ: يَلْوَثُهُ وَيَعْطِيهِ.

(٣) صَوْلَتِهِمْ: جُولَتِهِمْ، تَغْلِبَتِهِمْ.

وإلى هذه القدرة توجه النبي ﷺ بذلك الدعاء البليغ الخالد، يشكو أنَّه إنسانٌ فيه الضعفُ وقلةُ الحيلة، فينطقُ الإنسانيُّ فيه بالشطر<sup>(١)</sup> الأول من الدعاء يذكرُ أنفراوهَا وأثارَ أنفراوهَا، ويتوجَّعُ لِمَا بَيْنَ وَبَيْنَ إِنْسَانِيَّةِ قَوْمِهِ، ثُمَّ ينطقُ الروحانيُّ فيَوْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى آخرَ الدعاء متوجَّهاً إِلَى مَصْدِرِهِ إِلَهِيُّ قائلًا أَوَّلَ ما يَقُولُ: إِنْ لَمْ يَكُنْ بَكَ عَلَيَّ غَضْبٌ فَلَا أَبْلِي.

ولعمري لو نَطَقَتِ الشَّمْسُ تَدْعُو اللَّهَ لَمَّا خَرَجَتْ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى وَلَا زَادَتْ عَلَى قَوْلِهِ: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ»، تلتَمِسُ<sup>(٢)</sup> مِنْ مَصْدِرِ النُّورِ الْأَزْلِيِّ حِيَاةً وَجُودَهَا الْكَامِلُ.

\* \* \*

ولقد هزَّئُوا مِنْ قَبْلِ بِالْمَسِيحِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فَقَالَ لِلسَّارِخِينَ مِنْهُ: لَيْسَ نَبِيًّا بلا كرامةً إِلَّا فِي وَطْنِهِ وَفِي بَيْتِهِ. وَبِهَذَا رَدَّ عَلَيْهِمْ رَدًّا مِنْ أَنْسَلَخَ مِنْهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ قَوْلًا مِنْ لَيْسَ لَهُ حَكْمٌ فِيهِمْ، وَأَخْذَهُمْ بِالشَّرِيعَةِ الْأَدْبَرِيَّةِ لَا الْعَمَلِيَّةِ؛ إِذْ كَانَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) كَالْحُكْمَةِ الطَّائِفَةِ لِيَسْتَ لِكُلِّ قُلْبٍ وَلَا لِكُلِّ عَقْلٍ، وَلَكُلَّهَا لِمَنْ أَعْدَّ لَهَا؛ وَشَرِيعَتُهُ أَكْثَرُهَا فِي التَّعْبِيرِ وَأَقْلُلُهَا فِي الْعَمَلِ، وَلَمْ تَجِعْ بِالْقُوَّةِ الْعَامِلَةِ فَلَمْ يَكُنْ بَدِّ مِنْ أَنْ تَضَعَّ الْمَوْعِظَةُ فِي مَكَانِ الْسَّيفِ، وَأَنْ تَكُونَ قَائِمَةً عَلَى النَّهِيِّ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ قَائِمَةً عَلَى الْأَمْرِ، وَأَنْ تَكُونَ كَشْمِسَ الشَّتَاءِ الْجَمِيلَةِ: لَا تَغْلِي بِهَا الْأَرْضُ، وَإِنَّمَا عَمَلُهَا أَنْ تَمَهَّدَ<sup>(٣)</sup> هَذِهِ الْأَرْضَ لِفَصْلِ آخِرٍ.

أَمَّا نَبِيُّنَا ﷺ فَلَمْ يُجِبِ الْمُسْتَهْزِئِينَ، إِذْ كَانَتِ الْقُوَّةُ الْكَامِنَةُ فِي بَلَادِ الْعَرَبِ كُلُّهَا كَامِنَةٌ فِيهِ، وَكَانَ صَدْرُهُ الْعَظِيمُ يَحْمِلُ لِلْدُنْيَا كَلِمَةً جَدِيدَةً لَا تَقْبِلُ الْدُنْيَا أَنْ تُعَامِلَهُ عَلَيْهَا إِلَّا بِطَرِيقِهَا الْحَرَبِيَّةِ؛ فَلَمْ يَرِدَ رَدُّ الشَّاعِرِ الَّذِي يُرِيدُ مِنَ الْكَلِمَةِ مَعْنَاهَا الْبَلِيجُ، وَلَكُلُّهُ سَكَتَ سَكُوتَ الْمُشَتَّرِ الَّذِي لَا يُرِيدُ مِنَ الْكَلِمَةِ إِلَّا عَمَلَهَا حِينَ يَتَكَلَّمُ؛ وَكَانَ فِي سُكُوتِهِ كَلَامٌ كَثِيرٌ فِي فَلْسَفَةِ الْإِرَادَةِ وَالْحَرَبَةِ وَالْتَّطَوُّرِ، وَأَنْ لَا بَدَّ أَنْ يَتَحَوَّلَ الْقَوْمُ، وَأَنْ لَا بَدَّ أَنْ يَنْفَطِرُ<sup>(٤)</sup> هَذِهِ الشَّجَرُ الْأَجْرَدُ عَنْ وَرَقِهِ جَدِيدٍ أَخْضَرٍ يَنْمُو بِالْحَيَاةِ.

لَمْ يَتَسْخُطْ<sup>(٥)</sup> وَلَمْ يَقْلُ شَيْئًا، وَكَانَ كَالصَّانِعِ الَّذِي لَا يَرِدُ عَلَى خَطَا الْآلَةِ بَسْخُطٍ وَلَا يَأْسٍ، بَلْ يَارْسَالِ يَدِهِ فِي إِصْلَاحِهَا.

(١) الشطر: الجانب والقسم.

(٢) تلتَمِسُ: تستمد، تأخذ.

(٣) تمَهَّد: تفسح المجال وتهيئه.

(٤) ينْفَطِرُ: يتفتح ويستتبَّتْ.

(٥) يَتَسْخُطُ: يغضِبُ.

قالوا: ورأى أبا ربيعة، عتبةً وشيبةً ما لقي النبي ﷺ من السفهاء، فتحرّك  
لَهْ رَجْمُهُمَا<sup>(١)</sup>، فدعوا غلاماً لهما نصاراً يُقالُ له عَدَاسُ، فقال له: خذْ قطْفَأَ من  
هذا العنْبِ وضعْهُ في ذلك الطبق، ثمْ أذهبْ بِهِ إلى ذلك الرجل فقلْ لَهْ يأكلْ منه.  
فعملَ عَدَاسُ ثمْ أقبلَ بِهِ حتى وضعْهُ بينَ يدي رسولِ الله ﷺ فلَمَّا وضعَ يَدَهُ قال:  
«بِسْمِ اللَّهِ» ثُمَّ أكلَ؛ فنظرَ عَدَاسُ إلى وجهِهِ ثُمَّ قال: - والله - إنَّ هَذَا لِكَلَامِ مَا  
يقولُهُ أهْلُ هَذِهِ الْبَلْدَةِ.

قالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ أَهْلٌ أَيْ الْبَلَادِ أَنْتَ يَا عَدَاسُ وَمَا دِينُك؟  
قال: أنا نَصَارَىٰ وَأَنَا رَجُلٌ مِّنْ أَهْلِ نَبِيٍّ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَرْيَةِ  
الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونَسَ بْنِ مَتْئِي؟ قَالَ: وَمَا يَدْرِيكَ<sup>(٢)</sup> مَا يُونَسُ بْنُ مَتْئِي؟ قَالَ ﷺ ذَاكَ  
أخِي: كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ.

فأكبَّ عَدَاسُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَقْبَلَ رَأْسِهِ وَيَدِيهِ وَرِجْلِيهِ.

\* \* \*

يا عجَباً لِرِموزِ الْقُدْرِ فِي هَذِهِ الْقَصَّةِ!  
لَقَدْ أَسْرَعَ الْخَيْرُ وَالْكَرَامَةُ وَالْإِجْلَالُ فَأَقْبَلَتْ تَعْتَذِرُ عَنِ الشَّرِّ وَالسَّفَاهَةِ  
وَالظَّفَّافِ، وَجَاءَتِ الْقُبْلَاتِ بَعْدَ كَلْمَاتِ الْعَدَاوَةِ.

وَكَانَ أَبُوا رَبِيعَةَ مِنَ الْأَدْعَاءِ الْإِسْلَامِ، وَمَمْنُ مَشَّا إِلَيْهِ أَبِي طَالِبٍ عَمِّ النَّبِيِّ  
ﷺ مِنْ أَشْرَافِ قَرِيشٍ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَكْفُهُ عَنْهُمْ أَوْ يُخْلِيَ بَيْتَهُمْ وَبَيْتَهُ، أَوْ يُنَازِلُهُ وَإِيَّاهُ  
حَتَّى يَهْلِكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ، فَأَنْقَلَبَتِ الْغَرِيزَةُ الْوَحْشِيَّةُ إِلَى مَعْنَاهَا الإِنْسَانِيِّ الَّذِي جَاءَ  
بِهِ الدِّينُ، لِأَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ الْدِينِيَّ لِلْفَكَرِ لَا لِلْغَرِيزَةِ.

وَجَاءَتِ النَّصَارَىٰ تَعْانِقُ الْإِسْلَامَ وَتُزَعِّزُهُ، إِذَا دِينُ الصَّحِيحِ مِنَ الدِّينِ الصَّحِيحِ  
كَالآخِرِ مِنْ أَخِيهِ، غَيْرَ أَنْ تَسْبَبَ الْإِخْرَوَةُ الدِّمْ وَتُنَسِّبَ الْأَدِيَانَ الْعُقْلَ.

ثُمَّ أَتَمَ الْقُدْرُ رِمَزَةً فِي هَذِهِ الْقَصَّةِ، بِقَطْفِ الْعَنْبِ سَاقَنَا عَذْبًا مَمْلُوِّعًا خَلَاوَةً؛  
فِي اسْمِ اللَّهِ كَانَ قَطْفُ الْعَنْبِ رِمَزًا لِهَذَا الْعَنْقُودِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي أَمْتَلَأَ حَبَّاً كُلَّ  
حَبَّةٍ فِيهِ مُمْلَكَةً.

(٢) يَدْرِيكُ: يَعْلَمُكُ.

(١) رَحْمَهُمَا: إِحْسَانُهُمَا بِالْقَرَابَةِ.

## فوق الأدمية الإسراء والمعراج

من أعجب ما اتفق لي أنني فرغت<sup>(١)</sup> من تسويد هذا المقال ثم أردت نقله، فتعسّر علىي وصريفت عنه بألم شديد اعتزاني<sup>(٢)</sup>، ونانني منه ثقلة في الدماغ؛ ثم كشفة الله بعد يوم فراجعت الكتابة، فإذا قلمي ينبعث بهذه الكلمات:  
كيف يستوطِّنُ المسلمون العجز، وفي أول دينهم تخْرُّطُ الطبيعة؟  
كيف يستمهدون الراحة<sup>(٣)</sup>، وفي صدر تاريخهم عمل المعجزة الكبرى؟  
كيف يرکون إلى الجهل، وأول أمرهم آخر غایات العلم؟  
كيف لا يحملون النور للعالم ونشئهم هو الكائن النوراني الأعظم؟

\* \* \*

قصة الإسراء والمعراج هي من خصائص نبينا محمد ﷺ هذا النجم الإنساني العظيم؛ وهو النور المتجلّس لهداية العالم في حيرة ظلماته النفسية؛ فإن سماة الإنسان تُظلم وتُضيّع من داخله بأغراضه ومعانه. والله - تعالى - قد خلق للعالم الأرضي شمساً واحدة تُنيره وتحييه وتتقلب عليه بليله ونهاره، بيد الله ترك لكل إنسان أن يصنع لنفسه شمس قلبه وعِمامتها وسحابتها وما تُسفرُ به وما تُظلمُ فيه. وللهذا سُمي القرآن نوراً لعمل آدابه في النفس، ووُصِّف المؤمنون بأنهم «يَتَعَقَّبُونَ بَيْنَ أَيْمَنِهِمْ وَأَيْمَانِهِمْ»، وكان أثر الإيمان والتقوى في تعبير القرآن الكريم أن يجعل الله للمؤمنين نوراً يمشون به.

وقد حاز المفسرون في حكمة ذكر «الليل» في آية «الإسراء» من قوله - تعالى -: «شَهَدَنَ الَّذِي أَنْزَى بِعَبْدِهِ لِيَلَّا يَنْتَزِعَ السَّجْدَ الْحَرَامَ إِلَى السَّجْدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَّكَ حَوْلَهُ لِرُبْعَةِ مِنْ أَيَّتِنَا». فإن السرّ في لغة العرب لا يكون إلا ليلًا.

(١) فرغت: انتهيت.

(٢) اعتزاني: داخلني وسيطر على.

(٣) يستمهدون الراحة: يجعلونها مهدداً لهم.

والحكمة هي الإشارة إلى أنَّ القصَّةَ قصَّةُ (النجم) الإنساني العظيم الذي تحولَ من إنسانيته إلى نوره السماوي في هذه المعجزة، ويُتَمَّمُ هذه العجيبة أنَّ آيات «المِعْرَاجِ» لم تجِء إلَّا في سورة: «والنَّجْمٌ».

وعلى تأويلِ أنَّ ذكرَ (الليلِ) إشارةً إلى قصة النجم، تكونُ الآية برهانَ نفسها، وتكونُ في نسقها<sup>(١)</sup> قد جاءَتْ معجزةً منَ المعجزاتِ البَيَانِيَّةِ؛ فإذا قيلَ إنَّ نجماً دارَ في السماءِ، أو قطعَ ما تقطعُه النجومُ منَ المسافاتِ التي تُعْجِزُ الحسابَ، فهل في ذلك من عجيب؟ وهل فيه شكٌّ أو نظرٌ أو ترددٌ؟ وهل هو إلَّا من بعضِ ما يُسَبِّحُ اللَّهُ بذكْرِهِ؟ وهل يكونُ إلَّا آيةً اتصلَتْ بالآياتِ التي نَرَاهَا اتصالَ الوجودِ بعضِهِ بعض؟

وأنَّا ما يكادُ ينقضي عجبي من قوله تعالى: «إِلَيْهِ مِنْ مَا يَنْتَهِي». معَ أنَّ الألفاظَ كما ترى مكشوفةً واضحةً، يُخَيِّلُ إليكَ أنَّ ليسَ وراءَها شيءٌ، ووراءَها السُّرُّ الأَكْبَرُ؛ فإنَّها بهذه العبارةِ نصٌّ على إشرافِ النبي ﷺ فوقَ الزمانَ والمكانِ يرى بغيرِ حِجابِ الحواسِ مِمَّا مَرْجَعَهُ إلى قُدرةِ اللَّهِ لا قدرةِ نفسهِ؛ بخلافِ ما لو كانتِ العبارةُ: «لِيرِي مِنْ آيَاتِنَا» فإنَّ هذا يجعلُه لِنفسِهِ في حدودِ قوتها وحواسِها وزماياها ومكانتها، فيضطرُّ الكلامُ، ويتطوَّرُ إلَيْهِ الاعتراضُ ولا تكونُ ثُمَّ معجزةً.

وتحوِيلُ فعلِ (الرؤيا) من صيغةِ إلى صيغةِ كما رأيتَ، هو بعينِهِ إشارةٌ إلى تحويلِ الرأيِي من شكلٍ إلى شكلٍ كما ستعرفُهُ، وهذه معجزةٌ أخرى يسجدُ لها العقلُ؛ فتبارَكَ اللَّهُ مُتَمَّلٌ هذا الكلامُ!

وإذا كانَ ﷺ نجماً إنسانياً في نورهِ، فلن يأتيَ هذا إلَّا منْ غَلَبةِ روحانيتهِ على مادتهِ؛ وإذا غلَبَتْ روحانيتهُ كانتْ قواهُ النفسيَّةُ مهيأةً في الدنيا لِمِثْلِ حالِها في الآخرِ؛ فهو في هذه المعجزةِ أشبهُ بالهواءِ المتحرِّكِ. فقلِّ آلان: أيُعترضُ على الهواءِ إذا أرتفعَ بائِهِ لم يرتفعَ في طيارة...؟

ومنْ ثُمَّ كانَ الإنسانُ إذا سما درجةً واحدةً في ثباتِ قواهُ الروحيَّةِ، سما بها درجاتٍ فوقَ الدنيا وما فيها، وسُخِّرَتْ لَهُ المعانِي التي تُسخِّرُ غيرَهُ مِنَ النَّاسِ، ونشأتْ لَهُ نواميسٌ أخلاقيَّةٌ غيرُ النواميسِ التي تتسلَّطُ بها الأهواءُ. وممَّى وُجُدَ الشيءُ مِنَ الأشياءِ كانتْ طبائعُ وجودِهِ هي نواميسَهُ؛ فالنَّازُ مثلاً إذا هي تضرَّمتْ أو جدتِ الإحرابِ فيما

(١) نسقها: نمطها، نموذجها.

يحرق، فإن وضع فيها ما لا يحرق أبطأ نواميسها وغلب عليها.

وكل معجزة تحدث فهذا هو سببها في إيجاد النواميس الخاصة بها وإبطال النواميس المألوفة، وبهذا يقال: إنها خرقت العادة. ومن نور لا يشف<sup>(١)</sup> له غير الهواء، ومنه أشعة (رونتجن) التي تشف لها الجدران والجحب؛ فهذه معجزة في ذاك.

\* \* \*

والنبي لا يكوننبياً حتى يكون في إنسان آخر بنواميس تجعله أقرب إلى الملائكة في روحانيتها، وما ينزل إنسانه الظاهر من إنسان الباطن فيه إلا منزلة من يتلقى ممّن يعطي؛ فذاك الباطن هو للحقائق التي لا تحملها الدنيا، وهذا الظاهر لما يمكن أن يبلغ إليه الكمال في المثل الإنساني الأعلى، ولو لا ذلك الباطن ما أستطاعنبي من الأنبياء أن يحمل هموم أمّة كاملة لا تضنه ولا تغره ولا تعجزه.

فحقيقة النبوة أنها قوة من الوجود في إنسان مختار جاءت تصلح الوجود الإنساني به لتقر في هذه الحيوانية المهدبة مثلاً الأعلى، بدلاتها على طريقها النفسي مع طريقها النفسي مع طريقها الطبيعي؛ فيكون مع الانحطاط الرقي، ومع النقص الكامل، ومع حكم الغريزة التحكم في الغريزة، ومع الظلمة المادية الإشراق الروحاني.

وما المعجزات إلا شأن تلك القوة الباطنة لا شأن إنسانها الظاهر، ومن الذي ينكر أن قوى الوجود هي في نفسها إعجاز للعقل البشري؟ وهل ينكر اليوم أحد شأن هذه القوة في (الراديو) حين مسنته فجعل الكلمة التي ترسل بين الشرق والغرب، كالكلمة بين أثنين يتحدثان في مجلس واحد؟

ونحن نرى معجزات التنويم المغناطيسي وما يبصره النائم وما يسمعه، وما ينكشف له مما وراء الزمان والمكان؛ وليس التنويم شيئاً إلا تسلط الذات الباطنة بقواها الروحية العجيبة، على الذات الظاهرة المقيدة بحواسها المحدودة، فتُطْغِي عليها، فتضفي الحواس مطلقة شائعة في الوجود بمقدار ما فيها من قواه لا بمقدار ما فيها من قوة شخصها.

وعلى نحو من ذلك يتصل الرجل الروحاني بذاته الباطنة، فيقع شخصه الظاهر في الاستهواء<sup>(٢)</sup>، فينكشف له الوجود، ويُبصر ما يقع على بعد، ويرى ما

(٢) الاستهواء: الاستحالـة القلبـية.

(١) يشف: يرق.

هو آتٍ قبل أن يأتي؛ وما الكون في هذه الحالة إلا كالمحشوقي يقول لعاشقه الذي وقع في قلبه الحب: قد أتيتك نوراً تنظر به جمالي.

\* \* \*

وفي علماء عصرنا من يفكرون في الصعود إلى القمر، وفيهم من يعمل للمخاطبة مع الأفلاك، وفيهم من تقع له العجائب في استحضار الأرواح وتفسيرها؛ وكل ذلك أول البرهان الكوني الذي سيلزم العلم فتضطره في يوم ما إلى الإقرار بصحة الإسراء والمعراج.

ونحن قبل أن نُبدي رأينا في القصة نلم بها إلماً موجزة؛ فقد اختلفت فيها الأحاديث ووقع فيها تخلط كثير، فجاءت فنونا وأنواعاً من طرق شئ، حتى جمعها بعضهم في جزئين، وما تحمل كل ذلك ولا بعضه، ولكن روح الرواية في ذلك الزمن كانت كروح الصحافة في هذا العصر: متى فارت فوزها أستحدثت من كل عبارة أخرى، وعلى هذه الطريقة تخرج من العبارتين عبارة ثالثة، فيكون الأصل معنى واحداً وإذا هو يمدد من يمينه ويساره.

ولا يردون بذلك بأساً؛ فإنهم يشدون به الرأي، ويضاعفون منه اليقين، ويزيدون ضوءاً في نور المعنى، وما داموا قد أثبتوا الأصل وأستيقنوه، فلا خرج أن يؤيد القول بعضه بعضاً، بأجهاد في عبارة، وأستباط من أخرى، وزيادة في الثالثة مما هو بسبيل منها، على نحو ما نرى من فن الرواية القصصية؛ إذ تتعدد الأساليب والعبارات مختلفة متنوعة، وليس تحتها إلا حقيقة واحدة لا تختلف. والقصص الدينية في هذه اللغة العربية فن كامل قائم ب نفسه، لا يبدع العقل والخيال والعاطفة أقوى منه ولا أعجب ولا أغرب.

هذا في متن القصة، أما في واقعتها فقد اختلفوا اختلافاً آخر: هل كان الإسراء والمعراج يقطة أو مناماً؟ وبالروح وحدها، أو بالروح والجسم معاً: وإنما ذكرنا هذا الخلاف لأنَّ الدليل القاطع على أنَّ النبي ﷺ لم يُخِرْ بشيءٍ من ذلك، فلم يعين لهم وجهاً من هذه الأوجه. والحكمة في ذلك أنَّ عقولهم لم تكن تحتمل الإدراك العلمي الذي أساسه ما عُرفَ اليوم من أمر الكهرباء والأثير...  
والخلاصة التي تتأدى<sup>(١)</sup> من القصة: أنَّه ﷺ كان مضطجعاً، فاتأه جبريل.

(١) تأدي: تستج.

فأخرجَه من المسجد، فاركَهُ البراق، فأتى بيتَ المقدس، ثم دخلَ المسجدَ فصلَى فيه، ثم عرَجَ به إلى السموات، فاستفتحَها جبريلُ واحدةً واحدةً، فرأى فيها من آياتِ ربِّه، وأجتمعَ بالأنبياء - صلواتُ اللهِ عليهم -، وصعدَ في سماءٍ بعدَ سماءٍ إلى سُدْرَةِ المُنتَهِيَّ، فعشَّيَها من أمرِ اللهِ ما غشَّيَها، فرأى مُثْلَثَةً مظهرَ الجمالِ الأَزْلِيِّ، ثم زَجَ<sup>(١)</sup> به في النورِ فأوْحَى اللهُ إليه ما أوْحَى.

أمَّا وَشُيُّ القصَّةِ وَطِرَازُهَا فَبَابٌ عَجِيبٌ مِنَ الرِّموزِ الْفَلْسُفِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ التي يُرمَّزُ بها إلى تجسيُّدِ الأَعْمَالِ في هذهِ الْحَيَاةِ: تكونُ تَعْبًا وَتَقْعُّ فَائِدَةً، أَوْ تُلْتَمِسُ مُنْفَعَةً وَشَهْوَةً وَتَقْعُّ مُضَرَّةً وَحَمَاقَةً، ثُمَّ تَفَنَّى مِنْ هَذِهِ وَتَلَكَ الصُّورُ الْزَمْنِيَّةُ التي تَوَهَّمُهَا أَصْحَابُهَا، وَتَخْلُدُ الصُّورُ الْأَبْدِيَّةُ التي جَاءَتْ بِهَا حَقَائِقُهَا.

وَمِنْ هَذِهِ الرِّموزِ الْبَدِيعَةِ قَوْلُهُ: فَجَاءَنِي جَبَرِيلُ بِإِنَاءِ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءِ مِنْ لِبَنٍ، فَأَخْذَتُ الْلِبَنَ، فَقَالَ جَبَرِيلُ: أَخْذَتِ الْفِطْرَةَ. وَأَنَّهُ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ يَزْرُونَ وَيَحْصُدُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ، كُلَّمَا حَصَدُوا عَادَ كَمَا كَانَ؛ فَسَأَلَ مَا هَذَا؟ قَالَ جَبَرِيلُ هُؤُلَاءِ الْمَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، تُضَاعِفُ لَهُمُ الْحَسْنَةُ سَبْعَمِائَةً ضِعْفًا. ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ تُرْضَخُ<sup>(٢)</sup> رُؤُوسُهُمْ بِالصَّخْرَ، كُلَّمَا رُضِّخَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ وَلَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ؛ فَقَالَ مَا هَذَا؟ قَالَ جَبَرِيلُ: هُؤُلَاءِ الَّذِينَ تَتَشَاقَّلُ رُؤُوسُهُمْ عَنِ الْصَّلَاةِ. ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لَحْمَ نَضِيجٍ فِي قِدْرٍ، وَلَحْمَ أَخْرُونِيهِ فِي قِدْرٍ خَبِيثٍ، فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ أَنْتِيءِ الْخَبِيثِ وَيَدْعُونَ النَّضِيجَ؛ فَقَالَ مَا هُؤُلَاءِ؟ قَالَ جَبَرِيلُ: هَذَا الرَّجُلُ تَكُونُ عَنْهُ الْمَرْأَةُ الْحَلَالُ الْطَّيِّبُ فَيَأْتِي أُمْرَأَةٌ خَبِيثَةُ، وَالْمَرْأَةُ تَقْوَمُ مِنْ عَنْ زَوْجِهَا حَلَالًا طَيِّبًا فَتَأْتِي رَجُلًا خَبِيثًا. ثُمَّ أَتَى عَلَى رَجُلٍ قَدْ جَمَعَ حَزْمَةً عَظِيمَةً لَا يُسْتَطِعُ حَمْلَهَا وَهُوَ يَزِيدُ عَلَيْهَا، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا جَبَرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الرَّجُلُ تَكُونُ عَلَيْهِ أَمَانَاتُ النَّاسِ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَدَائِهَا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا. ثُمَّ رَأَى نِسَاءً مَعْلَقَاتٍ بِشَدِيهِنَّ؛ فَسَأَلَ، فَقَالَ جَبَرِيلُ: هُؤُلَاءِ الَّذِي أَدْخَلْنَ عَلَى الرَّجُلِ مِنْ لِسَنِ مِنْ أَوْلَادِهِمْ.

\* \* \*

وَنَحْنُ عَلَى الرَّأْيِ الَّذِي عَلَيْهِ جَمْهُورُ الْعُلَمَاءِ: مِنْ أَنَّ الإِسْرَاءَ وَالْمَعْرَاجَ كَانَا بِالْجَسْمِ وَالرُّوحِ مَعًا عَلَى التَّأْوِيلِ الَّذِي سَبَبَهُ؛ وَيُشَبِّهُ ذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي

(٢) تُرْضَخُ: تُضَرِّبُ وَتُشَدَّخُ.

(١) زَجَ به: أَدْخَلَ.

سورة ( والنَّجْم ) : « إِذْ يَنْثَرُ الْسَّدَرَةُ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى »<sup>(١)</sup> . فلا يكون البصر يزيع ويطغى إلا في الجسم ، ولا ينتفي عنه ذلك إلا وهو في الجسم . ولم يتتبه أحد من المفسرين إلى المعنى المعجز العجيب في قوله : « وَمَا طَغَى » : فذلك نص على أنه كان يرى بجسم قد تحول عن الطبيعة الأدمية المحدودة فليس فيه منها شيء ؛ إذ لا يكون طغيان البصر إلا من سلط الخيال عليه بأهواء الجسم التي لا يستقيم بها حكم على حقيقته ، مما زاغ البصر بكونه مقيد الحاسة ، ولا طغى بكونه مطلقاً الخيال ، بل كان كما يريه الله من آياته ، أني كان حقيقة كونية في غير حالتها الأرضية الناقصة .

والذين قالوا إنَّ الإِسْرَاءَ وَالْمَعْرَاجَ كَانَا رَؤْيَا رَأَاهَا النَّبِيُّ ﷺ أَحْتَجُوا لِذَلِكَ بِقُولِهِ تَعَالَى : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّثْبَيَا الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ». وقد خلط المفسرون في هذا أيضاً ، وإنما كان التعبير بلفظ « الرؤيا » - وهي التي تكون مناماً - لنفي تأثير الحواس على الرأي ، وإثبات أنَّ الطبيعة الأدمية بجملتها كانت فيه كالنائمة عن حاليها الأرضية بحقائقها وأخليتها معاً ، فليس نائماً كالنائم ، ولا مستيقظاً كالمستيقظ .

وفي أساس القصة جبريلُ والبراق ، وهمما القوَّةُ الملائكية والقوَّةُ الطبيعية ، أو الروحُ الملائكيُّ والروحُ الطبيعيُّ ؛ ولم يُوصِفَ البراقُ بأنَّه دابةٌ إلا رمزاً ، إذ لا يأتي للعربِ أنْ يفهموا ما يُرادُ منه ؛ وعندها أنَّه سُميَّ البراقَ من البرق ، وما البرق إلا الكهربائية ، وهذا هو المرادُ منه ؛ فتلك قوَّةُ كهربائية متى نَبَضَتْ جمعَتْ أولَ العالمِ باخرِه ؛ وهذه هي الحِكْمَةُ في أنَّ آيَةَ الإِسْرَاءِ لم تذكرْ أنَّه كان محمولاً على شيء ، إذا لم يكن محمولاً إلا على روحِ الأثيرِ .

وما دامتِ القوَّةُ الملائكيةُ والقوَّةُ الطبيعيةُ قد سُخْرَتَا لَهُ ﷺ فلا معنى لأنَّ يكون ذلك للروح دونَ الجسم ، بل اجتماعهما معاً في القصة دليل على أنَّ سرَّ المعجزة إنما كان في تيسيرِ ملائمةِ جسمِه الشَّرِيفِ لهاتينِ الحالتينِ ؛ فيتحولُ في صورةِ كونيةِ ملائكية بينَ سرِّ الملك وسرِّ الطبيعة ، وحينئذٍ لا تجري عليه أحكامُ الحواسِ ولا أحكامُ المادةِ .

ومن الممكن أن تتحولُ الأجسامُ إلى حالتها الأثيرية<sup>(٢)</sup> في بعضِ الأحوالِ الخارقة ، وبهذا يُعلَلُ طَيُّ الأرضِ لبعضِ الروحانيين ، وتعلُّلُ خوارقِ كثيرةٍ مما

(٢) الأثيرية: الهوائية .

(١) يزيع: يحيد ويتحول .

يَحْدُثُ فِي أَسْتِحْضارِ الْأَرْوَاحِ لِهَذَا الْعَهْدِ، وَمِمَّا يَأْتِيهِ فَقْرَاءُ الْهَنْدِ، وَمِمَّا كَانَ يَصْنَعُهُ «هُودِينِي» الْأَمْرِيكِيُّ: إِذْ كَانُوا يَغْلُونَهُ بِالسَّلاسِلِ وَالْقِيُودِ ثُمَّ يَرَوْنَهُ طَليقاً؛ وَيَجْسُونَهُ فِي السُّجُونِ الْمُحَصَّنَةِ يَقْوُمُ عَلَيْهَا الْحَرَاسُ وَتُمْسِكُهُ فِيهَا الْأَبْوَابُ وَالْجُدْرَانُ ثُمَّ يَجْدُونَهُ فِي بَعْضِ الْفَنَادِقِ.

وَلَيْسَ لِلْعُقْلِ أَنْ يُنْكِرَ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ وَنَحْوِهِ، فَإِنَّ تَرْكِيبَ الْطَّبِيعَةِ رَدٌّ عَلَيْهِ، وَنَقْصُهُ هُوَ رَدٌّ عَلَى نَفْسِهِ، وَالْمُسْتَحِيلُ عَلَى الْأَعْمَى هُوَ أَيْسَرُ الْمُمْكِنَاتِ عَلَى الْمُبَصِّرِ.

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ ذَكْرَ الْبُرَاقِ وَالْمَلَكِ فِي أَسَاسِ قَصَّةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ هُوَ صَلَةُ الْقَصَّةِ بِالْمَعْجَزَةِ، وَهُوَ عَيْنُهُ صِلْتُهَا بِالْبَرْهَانِ؛ وَلَوْلَا يَكُونُوا فِيهَا لَمَّا كَانَ لَهَا تَفْسِيرٌ.

\* \* \*

وَالْقَصَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ تُشَيِّثُ أَنَّ هَذَا الْوَجْدَ يَرْقُ وَيَنْكَشِفُ وَيَسْتَضِيءُ كُلَّمَا سَمَا الإِنْسَانُ بِرُوحِهِ، وَيَغْلُظُ وَيَتَكَافَئُ وَيَتَحَجَّبُ كُلَّمَا نَزَلَ بِهَا، وَهِيَ مِنْ نَاحِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ قَصَّةٌ تَصِفُّ بِمَظَاهِرِ الْكُوْنِيِّ فِي عَظَمَتِهِ الْخَالِدَةِ كَمَا رَأَى ذَاهِهُ الْكَامِلَةُ فِي مَلْكُوتِ اللَّهِ، وَمِنْ نَاحِيَةِ كُلِّ مُسْلِمٍ مِنْ أَتَابِعِهِ هِيَ كَالدَّرْسِ فِي أَنْ يَكُونَ لِقَلْبِ الْمُؤْمِنِ مِعْرَاجٌ سَمَاوِيٌّ فَوْقَ هَذِهِ الدُّنْيَا، لِيَشْهَدَ بِبَصِيرَتِهِ أَنوارَ الْحَقِّ، وَجَمَالَ الْخَيْرِ، وَتَجَسَّدَ الْأَعْمَالُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي صُورِهَا الْخَالِدَةِ؛ فَيَكُونُ بِتَدْبِيرِهِ الْقَصَّةُ كَائِنًا يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْزَلُ؛ فَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْحَقَائِقِ الْأَسَاسِيَّةِ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ، فَيُدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ بِذَلِكَ تَعَقُّدَ الْأَخْيَلَةِ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ الْبَلَاءِ عَلَى الرُّوحِ.

وَمَتى أَسْتَنَارَ الْقَلْبُ كَانَ حَيًّا فِي صَاحِبِهِ، وَكَانَ حَيًّا فِي الْوَجْدِ كَلْمَهُ. وَمَتى سَلَمَتِ الْحَيَاةُ مِنْ تَعْقِيدِ الْخَيَالِ الْفَاسِدِ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَبَيْنَ اللَّهِ إِلَّا حَيَاةٌ هِيَ الْحَقُّ وَالْخَيْرُ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ إِلَّا حَيَاةٌ هِيَ الْرَّحْمَةُ وَالْحُبُّ.

## الإنسانية العليا

من أوصاف النبي ﷺ أنه كان متواصلاً بالأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويلاً السكت، لا يتكلم في غير حاجة، ليس بالجافي<sup>(١)</sup> ولا المهين، يعظُ النعمة وإن دفعت لا يذم منها شيئاً، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها، فإذا تعلّم الحق لم يقم لغضبه شيء حتى يتصرّ له، ولا يغضب لنفسه ولا يتصرّ لها؛ وكان خافضَ الطرف<sup>(٢)</sup>، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، من رأه بديهيَّة هابه، ومن خالطة معرفة أحبه، لا يحسب جلسته أن أحداً أكرم عليه منه، ولا يطوي عن أحدٍ من الناس بشرة<sup>(٣)</sup>، قد وسع الناس بسطه وحُلقه، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق سواء؛ يحسنُ الحسن ويقويه، ويُقيّح القبيح ويُوهِي<sup>(٤)</sup>، معنِّدُ الأمر غير مختلف؛ وكان أشدَّ الناس حياءً، لا يثبت بصره في وجه أحد، له نورٌ يعلو كأنَّ الشمس تجري في وجهه، لا يؤيُس<sup>(٥)</sup> راحيه، ولا يخيب عافيه<sup>(٦)</sup>، ومن سائله حاجة لم يرده إلا بها أو بمُيَسُورٍ من القول؛ أجود الناس بالخير.

\* \* \*

صلى اللهُ وسلم على صاحب هذه الصفات التي لا يجدُ الكمالُ الإنسانيُّ مذهبَاً عنها ولا عن شيء منها، ولا يجدُ النقصُ البشريُّ مساغاً<sup>(٧)</sup> إليها ولا إلى شيء منها؛ فيها المعنى التام للإنسانية، كما أنَّ فيها المعنى التام للحق، ومن أجتماع هذين يكونُ فيها المعنى التام للإيمان.

هي صفات إنسانها العظيم، وقد اجتمعت له لتأخذ عنْ الحياة إنسانيتها العالية؛ فهي بذلك من برهانات نبوته ورسالته.

(١) الجافي: القاسي الغليظ.

(٢) الطرف يسكن الراء: النظر.

(٣) بشرة: مسروقه وابتسماه وبسطه.

(٤) يوهِي: يضعفه.

(٥) يؤيُس: يقنط ويفقد الأمل من رجائه.

(٦) العافي: المحتاج.

(٧) مساغاً: سبلاً.

ولو جمعت كلَّ أوصافِهِ ﷺ ونظمتها بعضها إلى بعض، وأعتبرتها بأسرارها العلمية - لرأيت منها كُوناً معنوياً دقيقاً قائماً بهذا الإنسان الأعظم، كما يقوم هذا الكون الكبير بُستنِيهِ وأصولِ الحِكمةِ فيهِ، ولا يقتضي أنَّ هذا النبيَّ الْكَرِيمَ إنْ هو إلا مُعجمٌ نفسيٌّ حيٌّ الفتنَةُ الْحِكمةُ الإلهيَّةُ بعلمٍ من عِلمِها، وقوَّةً من قوَّتها، ليتخرَّجَ بهُ الأُمَّةُ التي تُبدِّعُ الْعَالَمَ إِبْدَاعاً جديداً، وَتُشَيَّثُ النِّسَاءَ الْمُحْفَوظَةَ لَهُ في أطوارِ كمالِهِ.

ولَنْ ترى في الإنسانية أسمى مِنْ أجتماع هذه الصفات بعضها إلى بعض وإنْ لا يكادَ كُلُّا تأملُها أحسبُ هذا السُّمُّ قضاةً وقدراً بِإِنْسانٍ على الإنسانية كُلُّها. وهي دليلٌ على أنَّهُ إِنْسانٌ الذي خُلِقَ لِلدُّنْيَا لَا لِنَفْسِهِ؛ فهو لا ينمو بما يكونُ على الناس مِنَ الْحَقِّ، ولكنَّ بما يكوُنُ لِلنِّاسِ عَلَيْهِ مِنَ الْوَاجِباتِ، كَائِناً هُوَ حَقِيقَةً كُونِيَّةً تعيشُ عيشهَا، فما تكوُنُ فِي الْوَجُودِ إِلَّا لِتَقْرَرَ وجوهُهَا هِيَ، وَلَا تنتهي حين تنتهي بذاتها إِلَّا لِتَبْدِأَ مَعْنَيَّها فِي غَيْرِهَا، فهو ﷺ إِنْسانٌ غُرِيبٌ فِي التَّارِيخِ غَرِيباً لِيَكُونَ حَدُّا لِزَمْنٍ وَأَوْلَى لِزَمْنٍ بَعْدَهُ، وَمَا كَانَتْ حَيَاةُ تُلُكَّ إِلَّا طَرِيقَةً غَرِيبَةً، وَهُوَ أَبْدَأُ أَصْبَحَ فِي الدُّنْيَا كَائِناً جَهَّةً مِنَ الْجِهَاتِ لَا إِنْسانٌ مِنَ النِّاسِ، فَلَنْ يَتَغَيَّرَ أَوْ يُتَحَوَّلَ إِلَّا إِذَا تَغَيَّرَ أَوْ مُحِيَّ المُشْرُقُ وَالْمَغْرِبُ .

ونحن حين نقرأ تلك الصفات وما فاضت به كُتبُ الشَّمائلِ من أمثلتها، لا نقرؤُها أوصافاً ولا حِلْيَة، بل نراها صفحَةً إِلهيَّةً مُضْئَفةً أبدعَ تصنِيفَ وأدْفَهَ، وبين وراءِ تأليفيها تفسيرٌ طويلاً لا يتهدى<sup>(١)</sup> الفكرُ البشريُّ لِأَحْسَنِ منهِ وَلَا أَصْبَحَ وَلَا أَكْمَلَ؛ فَقِدْ أَجْتَمَعَتْ تلكَ الصَّفَاتِ فِي إِنْسانِها أَجْتَمَعَ الْأَجْزَاءُ فِي الْمَسَالَةِ الْرِّيَاضِيَّةِ: لَا يَنْبَغِي أَنْ تَرِيدَ أَوْ تَنْتَصَرَ، إِذَا كَانَ فِي مَجْمُوعِهَا مَا وُجِدَ لَهُ مَجْمُوعَهَا.

ويكادُ الارتباطُ بَيْنَ أَجْزَاءِ الْمَسَالَةِ يَكُونُ هُوَ بَعْيِنِيهِ صُورَةً لِلارتباطِ بَيْنَ أَجْزَاءِ تلكَ الصَّفَاتِ الْشَّرِيفَةِ؛ فَإِنَّ كُلَّ جُزْءٍ مِنْهَا مُوضُوعٌ وَضِعًا لَا يَتَمَّ الْكُلُّ إِلَّا بِهِ، حتَّى لَا مَوْضِعٍ فِيهَا لِقَلْيَةٍ أَوْ كُشْرَةٍ؛ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ «أَدْبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنْ تَأْدِيبِي»، وَأَنْتَ إِذَا دَقَّقْتَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَدْرَكْتَ مِنْ مَعْنَاهِهِ أَنَّ هَنَاكَ طَبِيعَةً أَخْلَاقِيَّةً مَفْرَدةً<sup>(٢)</sup> تَجْرِي عَلَى قَانُونِهَا الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ لَهَا وَأَحْكَمَهَا بِهِ.

وأعجبُ ما يُدِهِشُنَا مِنْ مَجْمُوعِ صِفَاتِهِ ﷺ أَنَّ فِيهَا دَلِيلًا بَيْنَا عَلَى أَنَّهُ مَخْلوقٌ خَلْقَةً مُتمِيَّزةً بِنَفْسِهَا، كَخَلْقَةِ الْقُلُوبِ الْإِنْسَانِيَّ: نَظَامُهُ حَيَاةً وَحَيَاةُ نَظَامِهِ، وَكَائِنًا

(٢) مفردة: مميزة.

(١) لا يتهدى: لا يعثر.

اعتَرَّتْ حَالَةٌ نُفْسِيَّةٌ كَالَّتِي تَعْتَرِي الْقَلْبَ فِي أَسْتَشْعَارِ الْخَطَرِ فَتُخْرُجُهُ مِنْ طَبَيْعَتِهِ إِلَى أَقْوَى مِنْهَا، فَلَا يَزَالُ يُمْدُدُ أَعْضَاءَ الْجَسْمِ بِمَدَدٍ لَا يَنْفَدُ مِنَ الْقُوَّةِ وَالصَّبَرِ، يَجْعَلُ الْحِبَّةَ فِيهَا عَلَى أَضْعافِهَا كَانَهَا حَيَاةً كَانَتْ مُخْبَرَةً وَظَهَرَتْ بِغَتَّةٍ؛ وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَتَّجَهُ غَرَائِزُ النَّفْسِ كُلُّهَا إِلَى جَهَةٍ وَاحِدَةٍ كَانَهَا مُقْدَرَةً بِمِيزَانِهِ، مُضْبُوطةً بِقِيَاسِهِ؛ فَتَرْجِعُ عَلَى تَنَاقُضِهَا وَأَخْتِلَافِهَا مُتَعَاوِنَةً يُؤَازِرُ<sup>(۱)</sup> بَعْضَهَا بَعْضًا، وَكَانَ قَانُونُهَا الْطَّبِيعِيُّ أَنْ تَتَجَادَّبَ وَتَتَسَاقَطَ وَتَفَسَّرَ الْوَاحِدَةُ مِنْهَا عَمَلُ الْأُخْرَى، فَيَجِيءُ بِهَا الشَّيْءُ وَضَدُّهُ مَعًا: كَالْصِدْقِ وَالْكَذْبِ، وَالْطَّمْعِ وَالْقَنَاعَةِ، وَالشَّهْوَاتِ الثَّانِيَةِ وَالْخُمُودِ الْأَسَاكِنِ، إِلَى آخِرِ مَا تَعُدُّ مِنْ هَذِهِ الْغَرَائِزِ؛ وَلَكِنَّهَا فِي أَسْتَشْعَارِ الْخَطَرِ تَكُونُ كَالْأَشْيَاءِ لَا كَالْأَضْدَادِ، فَيُشَدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيُتَمَّمُ التَّقْيِضُ مِنْهَا نَقْيِضَهُ، وَتَجْرِي كُلُّهَا فِي قَانُونِ وَاحِدٍ: هُوَ الدَّفَاعُ بِأَجْزَائِهَا عَنْ مَجْمُوعِهَا؛ فَتَرَى الْتَّازَعُ مِنْهَا وَإِنَّهُ لَمُسْتَقْرٌ فِي أَشَدَّ مِنَ الْقِيدِ، وَكَانَ فِيهِ غَيْرُ طَبَيْعَتِهِ.

وَهُلْ يُبَثِّكَ مَجْمُوعُ صَفَاتِهِ بِكِيرٌ إِلَّا أَنَّهُ يَعِيشُ مَعِيشَةَ الْقَلْبِ إِذَا أَخْتَلَفَ مَا حَوْلُهُ وَفِجَائِهُ بِغَنَّاثٍ<sup>(۲)</sup> الْوَحْدَةِ فَتَجَاوِرُ أَنْ يَكُونَ مَنْبِعًا لِلْحَيَاةِ إِلَى أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِلْحَيَاةِ فِي مَنْبِعِهَا؟

وَتَلِكَ الْحَالَةُ - كَمَا مَرَّ بِكَ - تَجْعَلُ وَجْهَ الْإِنْسَانِ هُوَ وَجْهُ إِرَادَتِهِ وَعَقْلِهِ، لَا وَجْهَ شَهْوَاتِهِ وَغَرَائِزِهِ؛ وَكَذَلِكَ عَاشَ نَبِيُّهُ بِكِيرٌ فَهُوَ مَدَدُ حَيَاةِهِ فِي وَجْهِ إِرَادَتِهِ لَا غَيْرِهَا، حَتَّى لِيَسَ عَلَيْهِ سَبِيلٌ لِغَمِيَّةٍ أَوْ لَاِثْمَةَ، كَانَهُ خُلُقٌ تَسْدُهُ نَيَّةُهُ مُسْتَقِظَةً قَدْ نَبَّهَهَا مَا يُنْبِئُ النَّفْسَ مِنَ الْغَرَرِ وَالْخَطَرِ. وَلَعَلَّ هَذَا الشَّعُورُ فِي نَفْسِهِ بِكِيرٌ هُوَ التَّفْسِيرُ لِقَوْلِهِ: «نَيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ». إِلَى أَحَادِيثِ كَثِيرَةٍ مِمَّا يَجْرِي فِي مَعْنَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْجَامِعَةِ؛ يُرِيدُ بِهَا: أَنَّ نَيَّةَ الْمُؤْمِنِ لَا تَنْطُوِي إِلَّا عَلَى الْخَيْرِ الْكَاملِ، فَهُوَ - مَا دَامَتْ نَيَّتُهُ عَلَى صَلَاجِهَا وَسِرَّهُ عَلَى إِخْلَاصِهِ - لَا يَعْدُ أَلِيسِيرَ مِنَ الشَّرِّ يَسِيرًا، وَلَا يَرِي الْكَثِيرَ مِنَ الْخَيْرِ كَثِيرًا؛ فَالْأَصْلُ الْقَائِمُ فِي تَلِكَ النَّيَّةِ الْمُؤْمِنَةِ إِلَّا يَبْدُ الشَّرُّ كَيْ لَا يَوْجَدُ، وَأَلَا يَنْتَهِي الْخَيْرُ كَيْ لَا يَفْتَنَ؛ فَالْمُؤْمِنُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْخَيْرِ وَالْكَمَالِ أَبْدًا، فِي حِينِ أَنَّ عَمَلَهُ بِطَبَيْعَتِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ يَتَنَاهُ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ جَمِيعًا، ثُمَّ لَا يَكُونُ إِلَّا عَمَلاً إِنْسَانِيًّا عَلَى نَفْسِهِ وَاضْطِرَابِهِ وَالتَّوَاءِ.

وَقَدْ لَا يَسْتَطِعُ الْمُؤْمِنُ أَنْ يَأْتِيَ الْخَيْرَ فِي بَعْضِ أَحْوَالِهِ، وَلَكِنَّهُ يَسْتَطِعُ دَائِمًا

(۲) بِغَنَّاثٍ: مَفَاجَآتٍ.

(۱) يُؤَازِرُ: يَعْضُدُ وَيَقْوِي.

أن ينويه ويرغب فيه ويعزم عليه، ليتحقق ضميره في كل ما يهم به؛ ويحصر أفكاره في قانون ينتهِ المؤمنة. وهذا هو الأساس في علم الأخلاق، لا أساس من دونه.

والآلية من بعد هي حارس العمل؛ فكل إنسان يستطيع أن يُذعن<sup>(١)</sup> وأن يأبى، ومن ثم تكون هذه النية ردًا ومدافعة من ناحية، وأستجابة ومطاوعة من الناحية الأخرى؛ فهي على الحقيقة متى صلحت كانت استقلالاً تاماً للإرادة، وكانت مع ذلك ضبطاً لهذه الإرادة على حال واحدة هي التي يتنظم بها قانون المبدأ السامي. ثم إنَّ لا ضابط لصحة العمل وأستقامتِه إلا النية الصحيحة المستقيمة؛ فالتزوير والتلبيس كلاهما سهل ميسور في الأعمال، ولكنهما مستحيلان في النية إذا خلصت.

وهي كذلك ضابط للفضائل توجُّه القلوب على اختلافها وتفاوتها اتجاهها واحداً لا يختلف؛ فيكون طريق ما بين الإنسان والإنسان، من ناحية الطريق ما بين الإنسان وبين الله.

وأشواق الروح بطبعتها لا تنتهي، فيعارضها الجسم بجعل حاجاته غير منتهية؛ يحاول أن يطمس<sup>(٢)</sup> بهذه على تلك، وأن يغلب الحيوانية على الروحانية، فإذا كانت النية مستيقظة كفته وأماتت أكثر نزعاته، ووضعت لـكُل حاجة حداً ونهائية؛ وبذلك ترجع النية إلى أن تكون قوَّة في النفس يخرج بها الإنسان عن كثير مما يُحدُّه من جسمه، ليخرج بذلك عن كثير مما يحدُّه من معاني الأرض ... .

وهي بعد هذا كلِّه تحمل الإنسان أن ينظر إلى واجبه كأنَّه رقيبٌ حيٌّ في قلبه، لا يُرايه ولا يُجامله، ولا يُخدع من تأويل، ولا يُعرِّف بفلسفته ولا تزيين، ولا يُسكنه ما تُسُولُ النفس<sup>(٣)</sup>، ولا يزال دائماً يقول للإنسان في قلبه: إنَّ الخطأ أكبر الخطأ أن تتنطِّم الحياة من حولك وتترك الفوضى في قلبك.

وجملة القول في معاني النية أنها قوَّة تجعل باطنَ الجسم متساوياً مع ظاهره، فتتعاون الغرائز المختلفة في النفس تعاوناً سهلاً طبيعياً مطرياً، كما تتعاون أعضاء الجسم على اختلافها في أطْرَادِ وسهولة وطبيعة.

\* \* \*

(١) يُذعن: يخضع.

(٢) يطمس: يغطي.

(٣) تُسُولُ النفس: توسل.

وكل صفات النبي ﷺ - مما ذكرناه وما لم نذكره - متى أعتبرت بذلك الأصل الذي بينما انتظمها جميماً، فجاء بعضها تماماً على بعض في نسقٍ رياضيٍّ عجيب، وظهرت حكمة كل منها واضحةً مكشوفة، ورأيتها في مجموعها تصف لك عمراً هندسياً دقيقاً قد بلغ أقصى مِنَ الكمال والروعة والدقة، لا يُعد جزءاً منه جزءاً، بل كله أجزاء، وأجزاء كله؛ كالوضع الهندسي: إما أن يكون بـكـلـه، وإما ألا تكون فيه الهندسة كـلـها.

وليس مجموع تلك الصفات في معناه إلا صنعة الإنسان صنعة جديدة تخرجه موجوداً من ذات نفسه، وتكسر القالب الأرضي الذي صُبَّ فيه وثُرِغَ في مثل قالب الكون، فإذا هو غير هذا الإنسان الضيق المنحصر في جسمه وذاعي جسمه، فلا تخضعه المادة، ولا يؤتي من سوء نظير لنفسه، ولا تغره<sup>(١)</sup> الدنيا، ولا يمسكه الزمان؛ إذ كانت هذه هي صفات المستعبد بأهوائه لا الحر فيها، والخاضع بنفسه لا المستقل بها، والمقبور في إنسانيته لا الحي فوق إنسانيته؛ ومثل هذا المستعبد الخاضع المقيور لا وجود له إلا في حكم حواسه، فعمله ما يعيش به لا ما يعيش من أجله؛ ويتأصل بكل شيء اتصالاً مبتوراً<sup>(٢)</sup> ينتهي في هوئ من أهواء الحيوان الذي فيه.

ومن المقابلة العجيبة أن يكون في الإنسان الاجتماعي حيوان، تقابلُ الحكمة في الحيوان الأليف بـإنسان، وحكمها واحدٌ ومنطقهما لا يختلف. فلو أنك سألت حيوان الأعصاب عن صاحبه الإنسان لقال لك: هو غلطي ومزرعتي. ولو سألت كلباً عن حبه صاحبه ومبلغ هذا الحب في نفسه لما زاد في جواه على أنه يحبه حب اللقمة والعظمة..

ومتى كان الإنسان في حكم حواسه لم تعد الأشياء عنده كما هي في نفسها بمعانٍها الطبيعية المحدودة، وأنقلب كما هي في وهمِه بمعانٍ متفاوتة مضطربة، فلا يشعر المرء بـأئتلاف الوجود وتعاونه، ولكن بـاختلافه وتناقضه، فمن ثم لا تكون أسباب اللذة إلا من أسباب الألم، ويدخل في كل حب بغض، وفي كل رغبة طمع، وفي كل خير شر، وفي كل صريح خبيء، وهلم جرا؛ إذ لا بد من هذا كله متى غلب الفاني على الباقي، ولا بد من كل هذا في تمثيل رواية الحواس الخادعة

(٢) مبتوراً: مقطوعاً.

(١) تغره: تخدعه.

التي أساسها التغيير والتقلب، حتى لكانَ النَّفْسَ إِنَّمَا تعيشُ بِهَا فِي ظَاهِرٍ مِّنَ الْحَيَاةِ  
لَا فِي الْحَيَاةِ نَفْسِهَا.

وهذا الخداع جاعلٌ كُلَّ شَيْءٍ مِّن أَشْيَاءِ النَّفْسِ لَا يَبْدُأ إِلَّا لِيَتَهِيَ، ثُمَّ لَا يَتَهِي  
إِلَّا لِيَبْدُأ؛ فَمَا تَزَالُ هَذِهِ النَّفْسُ طَامِعَةً فِيمَا لَا تَنَالُهُ، وَلَا يَزَالُ مِنْ ذَلِكَ مَصْدَرُ  
لَا لَامِهَا الْجِسْيَةُ؛ ثُمَّ إِذَا هِي نَالَتْ مَنَالَتْهَا سَيْمَثُ، فَلَا يَزَالُ مِنْ ذَلِكَ مَصْدَرُ آخَرُ  
لَا لَامِهَا الْمَعْنَوَيَةُ. وَلَنْ يَجِدَ أَصْحَاحًا مِّنْ غَيْرِ الصَّحِيحِ؛ فَالْكُوْنُ كُلُّهُ لَيْسَ إِلَّا كَذِبًا  
فِي النَّفْسِ الْكَاذِبَةِ بِحَوَاسِهَا.

ولَذَا كَانَ أَخْصُ أَوْصَافِهِ رَاجِعًا إِلَى خَرْوَجِهِ مِنْ سُلْطَانِ نَفْسِهِ، فَلَا يَغْضُبُ  
لَهَا، وَلَا يُطْلِقُهَا مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا تَذَمَّهُ أَوْ تَمْدُحُهُ، وَلَا يُحِبُّ فِيهَا، وَلَا يُغْضُبُ مِنْ  
أَجْلِهَا، وَلَا يَهَاوِنُهَا، وَلَا يَسْتَلِينُ لَهَا فِي مَأْكُلٍ وَلَا مَلْبِسٍ، وَلَا يَأْخُذُهَا إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ  
الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِيمَانِ بِالْإِنْسَانِ؛ فَأَفْرَاحُهَا أَحْزَانُهَا، وَآمَالُهَا أَشْوَاقُهَا، وَأَمْلَاكُهَا  
أَعْمَالُهَا، وَجِسَابُهَا فِي طَبِيعَتِهَا، وَحَوَادِثُهَا مِنْ الْعُقْلِ لَا مِنَ الْحَوَاسِ، وَعَظَمَتْهَا  
إِثْبَاتُ ذَاتِهَا فِي غَيْرِهَا، لَا إِثْبَاتُ غَيْرِهَا فِي ذَاتِهَا؛ وَغَايَتُهَا فِي الْأَبْقَى لَا أَلْزَائِلِ، وَفِي  
الْخَالِدِ لَا الْفَانِيِّ، وَمَا دَامَ الْحَاضِرُ مَتْحَرِّكًا فَهُوَ طَارِئٌ عَابِرٌ أُوْشَكُ أُمُورِ الدُّنْيَا  
زَوَالًا، وَأَعْمَلُ لَهُ عَلَى مَقْدَارِهِ فِي قِلَّةِ لُبْثَيَهِ<sup>(۱)</sup> وَهَوَانِ أَمْرِهِ، وَالْأَهْتَمَامُ أَبْدًا بِمَا وَرَاءَهُ  
لَا بِهِ.

فَأَوْلُ النَّفْسِ الْنَّيَّةُ الْعَامِلَةُ لِآخِرِهَا، وَآخِرُ النَّفْسِ مَا تُؤْدِي إِلَيْهِ أَعْمَالُ هَذِهِ  
الْنَّيَّةِ؛ فَلَيْسَ فِي إِنْسَانِ الدُّنْيَا إِلَّا إِنْسَانُ الْعَالَمِ الْآخَرِ؛ وَبِهَا يُقْدَرُ صِمَتَهُ وَكَلَامُهُ،  
وَحُرْكَتَهُ وَسُكُونُهُ، وَمَا يَأْتِي وَمَا يَدْعَ، وَمَا يُحِبُّ وَمَا يَكْرَهُ، إِذْ كُلُّ شَيْءٍ مِّنْهُ عَلَى  
ذَلِكَ الْأَعْتَبَارِ إِنَّمَا هُوَ صُورَةُ الْحَقِيقَةِ الْعَامِلَةِ فِيهِ.

وَجَمَاعُ الْأَمْرِ<sup>(۲)</sup> أَلَا يَكُونَ مُسْتَقْبِلُ الْإِنْسَانِ عَلَمَةً أَسْتَهْزَاءً بِجَانِبِ مَاضِيهِ، وَلَا  
عَلَمَةً أَسْتَفْهَامٍ، وَلَا عَلَمَةً إِنْكَارٍ.

\* \* \*

وَتَدْلُّ صَفَاتُ النَّبِيِّ رَبِّ الْعَالَمِ بِأَجْتِمَاعِهَا وَتَسَاوِقُهَا<sup>(۳)</sup> عَلَى حَقِيقَةٍ عَظِيمَى لَمْ يَتَبَيَّنْ  
إِلَيْهَا أَحَدٌ؛ وَهِيَ أَنَّ جَمِيعَ خَصَائِصِهِ الْنَّفْسِيَّةِ مُرْهَقَةٌ<sup>(۴)</sup> مُتَيْقَظَةٌ، وَهَذَا مَمَّا يَنْدُرُ

(۳) تساوِقُهَا: تجانِسُهَا.

(۱) لُبْثَة: مَكَثَهُ، بِقَائِهُ.

(۴) مُرْهَقَة: مُتَعَبَّهَا.

(۲) جَمَاعُ الْأَمْرِ: الْخَلَاصَةُ.

وقوعه وإمكانه؛ فإنَّ الرجلَ من الناسِ ليكونُ حيًّا بالحياةِ، ولكنَّ جوانبَ كثيرةً من نفسِه قد طاخَ بها الموتُ، أو هي مريضةٌ وذلكَ أولُ الموتِ؛ أو غافلةً وذلكَ شبةُ الموتِ؛ أمَّا الحيُّ العظيمُ فهو الذي يحيا بأكثَرِ خصائصِ نفسهِ، وأمَّا الحيُّ الأعظمُ فهوَ الذي يحيا بجميعِ خصائصِها، تملؤُهُ الحياةُ فِيمَا لَحِيَةُ، ويتمددُ السُّرُّ فيهِ ليريهُ حقائقَ الأشياءِ ويهديهُ ويدلهُ، فيكونُ بنفسِهِ رؤيةً للناسِ وهدايةً ودلالةً؛ ومثلُ هذا يعظمُ ثُمَّ يعظمُ حتى ليريَ الفرقَ بينَهُ وبينَ غيرِهِ كالفرقِ بينَ نورٍ ليسَ اللحمَ والدمِ، وبينَ ترابٍ ليسَ الدَّمَ واللَّحمَ.

وذلكَ لا يكادُ يتَّفقُ إلَّا في مراتبِ أعلاها الامتيازُ في النبوةِ، ثُمَّ تدنو إلى النبوةِ؛ ثُمَّ تنزلُ إلى الامتيازِ في الحِكمَةِ؛ ثُمَّ تهبطُ إلى عبريةِ الشِّعراءِ قاطبةً كالنبيِّ في معناهِ إلَّا أنَّهُ نبيٌّ صغيرٌ، وإلَّا أنَّهُ في حدودِ قلبهِ.

وهذه القوىُّ الثلاثُ هي التي أبدعَتها الحِكمَةُ الإلهيَّةُ لتحويلِ الحياةِ والسموِّ بها؛ فالشاعرُ يستوحى الجمالَ إذا تألهَ الجمالُ في قلبهِ، والحكيمُ يستوحى الحقيقةَ إذا تألهَتْ في نفسهِ، والنبيُّ يستوحى الألوهيةَ نفسهاَ.

«كانَ يَكْلُبُ متوالِلَ الأحزانِ» ولكنَّها أحزانُ النبوةِ تكسوُ الحياةَ فرحةَ النفسِ الكبيرة؛ وهو فرحةٌ كُلُّهُ حزنٌ وتأملٌ، وفكرةٌ وخشوعٌ، وظهورٌ وفضيلةٌ؛ وما فرحةُ أعظمِ الشِّعراءِ بِطَرِيبِ الوجودِ وجمالِ الموجوداتِ إلَّا شيءٌ قليلٌ من حزنِ النبيِّ.

«وكانَ دائمَ الفكرةِ ليَسِّنَ لَهُ راحَةً» إذ هو مكَلَّفٌ أنْ يصنعَ الإنسانَ الجديدَ وينقُحَ<sup>(1)</sup> الآدميَّةَ فيهِ. وفكرةُ النبيِّ هي معيشَتُهُ بنفسِهِ معَ الحقائقِ العليا، إذ لا يرى أكثرَها تعيشُ في الناسِ، وهي الفرديةُ وأستقلالُها وسموُّها؛ لأنَّها إطاقةُ النفسِ الكبيرةِ لوحديتها، بخلافِ الأنفسِ الضعيفةِ التي لا تُطيقُها، فدأبُّها أبداً أنْ تبحثَ عما تستعيدهُ لَهُ، أو تنسى ذاتَها فيهِ، أو تستريحُ إليهِ من ذاتِها. ومتى كانتِ النفسُ فارغةً كانَ تفكيرُها مضاعفةً لِفراغِها، فهي تفرُّ منهُ إلى ما يُلهيَها عنهُ؛ ولكنَّ العظيمَ يعيشُ في أمٍّ تلاعِي نفسهِ؛ وعالَمُهُ الدَّاخليُّ تُسمَّى لِللغَةِ أحياناً: الفكرة؛ وتُسمَّى أحياناً: الصمتِ.

«وكانَ يَكْلُبُ طويَلَ السُّكُنِ لَا يتكلَّمُ في غيرِ حاجةٍ»، ومنَ الصمتِ أنواعٌ:

(1) ينفعُ: يميِّز بينَ الجيدِ والرديءِ.

فَنَوْعٌ يَكُونُ طَرِيقَةً مِنْ طَرِيقِ الْفَهْمِ بَيْنَ الْأَمْرَاءِ وَبَيْنَ أَسْرَارِ مَا يُحِيطُ بِهِ؛ وَنَوْعٌ يَعْشِي  
الْإِنْسَانَ الْعَظِيمَ لِيَكُونَ عَلَامَةً عَلَى رَهْبَةِ السُّرُّ الَّذِي فِي نَفْسِهِ الْعَظِيمَةِ؛ وَنَوْعٌ ثَالِثٌ  
يَكُونُ فِي صَاحِبِهِ طَرِيقَةً مِنْ طُرُقِ الْحُكْمِ عَلَى صَمْتِ النَّاسِ وَكَلَامِهِمْ؛ وَنَوْعٌ رَابِعٌ  
هُوَ كَالْفَصْلِ بَيْنَ أَعْمَالِ الْجَسَدِ وَبَيْنَ الرُّوحِ فِي سَاعَةِ أَعْمَالِهَا؛ وَنَوْعٌ خَامِسٌ يَكُونُ  
صَمْتًا عَلَى دُوَيْ تَحْتَهُ يُشَبِّهُ نَوْمًا سَاكِنًا عَلَى أَحْلَامِ جَمِيلَةٍ تَتْحَركُ.

\* \* \*

عَلَى هَذَا الْتَّمَطِ يَجِبُ أَنْ تُفَسَّرَ كُلُّ أُوصَافِهِ عَزِيزٌ لِلْكُلِّ؛ فَهِيَ بِمَجْمُوعِهَا طَابُعُ الْهَيُّ  
عَلَى حَيَاتِهِ الشَّرِيفَةِ، يُبَثِّتُ لِلْدُنْيَا بِكُلِّ بَرْهَانَاتِ الْعِلْمِ وَالْفَلْسَفَةِ أَنَّهُ الْإِنْسَانُ الْأَفْضَلُ،  
وَأَنَّهُ الْأَقْدَرُ، وَأَنَّهُ الْأَقْوَى.

# سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم



كان النبي ﷺ على ما يصفُ التاريخُ من الفقرِ والقلةِ، ولكنَّه كانَ بطبيعتِه فوقَ الاستغناءِ، فهو فقيرٌ لا يجوزُ أنْ يُوصَفَ بالفقيرِ، ولا تناولُ المعاني النفسيةُ التي تعلو بعَرضِ مِنَ الدُّنيا وتتنزَّلُ بعَرضِ، فما كانتْ بِه خَلَةٌ تُحدِثُ هَذِمَا في الْحَيَاةِ فِيْرَمَّمُهَا الْمَالُ<sup>(١)</sup>، ولا كانَ يتحرَّكُ في سَعْيٍ يُتَفَقَّدُ فِيهِ مِنْ نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ لِيجمعَ مِنَ الدُّنيا، ولا كانَ يتقلَّبُ بَيْنَ الْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ مِنْ طَمَعِ أَدْرَكَ أو طَمَعِ أَخْفَقَ، ولا نظرَ لِنَفْسِهِ فِي الْحِسْبَةِ وَالْتَّدِبِيرِ لِيتدبَّرَ مَعِيشَتَهُ فِيْخَاتِلَّهَا<sup>(٢)</sup> ذَهَبًا أو فِضَّةً، ولا أَسْتَقَرَ فِي قَلْبِهِ الْعَظِيمِ مَا يَجْعَلُ لِلدِّينَارِ معْنَى الدِّينَارِ وَلَا لِلدِّرْهَمِ معْنَى الدِّرْهَمِ؛ فإنَّ الْمَعْنَى الْحَيِّ لِهَذَا الْمَالِ هُوَ إِظْهَارُ النَّفْسِ رَابِيَّةً مَتَجَسَّمَةً فِي صُورَةٍ تَكَبَّرُ فِي قَدْرٍ مِنَ السَّعَةِ وَالْغَنِّيَّ؛ وَالْمَعْنَى الْحَيِّ لِلْفَقِيرِ مِنَ الْمَالِ هُوَ إِبْرَازُ النَّفْسِ ضَئِيلَةً مَنْزُوَيَّةً فِي صُورَةٍ تَصَعُّرُ عَلَى قَدْرٍ مِنَ الْضَّيقِ وَالْعُسْرَةِ.

إِنَّ فَقْرَةَ ﷺ كَانَ مِنْ أَنَّهُ يَتَسْعُ فِي الْكَوْنِ لَا فِي الْمَالِ، فَهُوَ فَقِيرٌ يُعَدُّ مِنْ مَعْجزَاتِهِ الْكَبِيرِيَّ الَّتِي لَمْ يَتَبَنَّأْ إِلَيْهَا أَحَدٌ إِلَى الْآنِ، وَهُوَ خَاصٌ بِهِ وَمِنْ أَيْنَ تَدَبَّرَهُ رَأْيَتَهُ فِي حَقِيقَتِهِ مَعْجَزَةً تَواضَعَتْ وَغَيَّرَتْ أَسْمَاهَا؛ مَعْجَزَةً فِيهَا الْحَقَائِقُ الْنُّفْسِيَّةُ وَالْاجْتِمَاعِيَّةُ الْكَبِيرِيَّ، وَقَدْ سَبَقَتْ زَمَنَهَا بِأَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنَاهَا، وَهِيَ الْيَوْمُ ثُبَّتَ بِالْبَرْهَانِ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ فِي صَفَةِ نَفْسِهِ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَأً».

نَحْنُ فِي عَصْرٍ تَكَادُ الْفَضْلَيَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِيهِ تَلْحُقٌ بِالْأَلْفَاظِ الْتَّارِيخِيَّةِ الَّتِي تَدْلُّ عَلَى مَا كَانَ قَدِيمًا... بَلْ عَادَتْ كَلْمَةً مِنْ كَلْمَاتِ الشِّعْرِ ثُرَادٌ لِتَحرِيكِ الْنَّسِيمِ

(٢) يَحْتَلُّهَا: يَسْتَخْرُجُ مِنْهَا.

(١) يَرْمِمُهَا الْمَالُ: يَصْلِحُهَا.

اللغوي الراكي في الخيال، كما تقول: السحاب الأزرق، والفجر الأبيض، والشفق الأحمر، والتّطاريـف<sup>(١)</sup> الوردية على ذيل الشمس. وأصبح الناس ينظـر أكثرهم إلى أكثرهم بـأعـينـها معـنى وحـشـيـاً لـمـسـ لـضـربـ أو طـعنـ أو دـبـحـ.

وعـملـتـ المـدنـيـةـ أـعـمالـهاـ فـلـمـ تـزـدـ عـلـىـ أـنـ أـخـرـجـ الشـكـلـ الشـعـرـيـ لـإـنـسـانـهاـ الفـنـيـ مـتـهـافـنـاـ<sup>(٢)</sup> تـرـفـاـ، وـنـغـمـةـ، وـأـفـتـانـاـ بـيـنـ ذـلـكـ مـنـ أـيـسـرـ الـحـلـالـ إـلـىـ الـفـظـيـعـ الـمـتـفـاحـشـ فـيـ الـإـبـاحـةـ؛ فـكـائـنـاـ وـضـعـتـ الـمـدـنـيـةـ عـقـلاـ فـيـ وـحـشـ، فـجـاءـ وـقـدـ زـاغـتـ<sup>(٣)</sup> فـيـ الـطـبـيـعـةـ مـنـ نـاحـيـتـيـنـ؛ ثـمـ قـابـلـتـهـ بـالـشـكـلـ الـوـحـشـيـ لـإـنـسـانـهاـ الـفـقـيرـ، فـكـائـنـاـ تـزـعـتـ عـقـلاـ مـنـ إـنـسـانـ، فـجـاءـ وـقـدـ ضـلـلـتـ فـيـ الـطـبـيـعـةـ مـنـ نـاحـيـتـيـنـ؛ وـكـانـ مـعـ الـأـوـلـ سـرـفـ الـهـوـيـ بـالـطـبـيـعـةـ، وـكـانـ مـعـ الـثـانـيـ بـالـطـبـيـعـةـ سـرـفـ الـحـمـاـقـةـ.

وـقدـ أـصـبـحـ مـنـ تـهـكـمـ الـحـيـاـةـ بـأـهـلـهـاـ أـنـ يـكـوـنـ الـفـقـيرـ فـقـيرـاـ وـهـوـ يـعـلـمـ أـنـ صـنـاعـتـهـ فـيـ الـمـدـنـيـةـ عـمـلـ الـغـنـيـ لـلـأـغـنـيـاءـ... وـأـنـ يـكـوـنـ الـغـنـيـ غـنـيـاـ وـهـوـ يـعـلـمـ أـنـ عـمـلـهـ فـيـ الـمـدـنـيـةـ هـوـ صـنـعـةـ الـفـقـرـ لـضـمـيرـهـ!

وـخـرـجـتـ مـنـ هـذـاـ وـذـاكـ مـسـائـلـ جـديـدـةـ فـيـ فـلـسـفـةـ الـمـعـاـيـشـ الـإـنـسـانـيـةـ الـتـيـ يـسـمـونـهـاـ «ـالـاجـتمـاعـ»ـ؛ إـلـىـ أـسـئـلـةـ كـثـيرـةـ لـوـذـهـنـاـ نـعـدـهـاـ وـنـصـفـهـاـ لـطـالـ بـنـاـ الـقـولـ، وـكـلـهـاـ عـاـمـلـةـ عـلـىـ نـزـعـ الـشـعـورـ الـعـقـليـ مـنـ الـحـيـاـةـ لـتـظـهـرـ أـسـخـفـ مـمـاـ هـيـ، وـأـقـبـحـ مـمـنـ كـانـتـ؛ حـتـىـ أـصـبـحـتـ الـشـمـسـ تـطـلـعـ تـمـحـوـ لـيـلـاـ عـنـ الـمـادـةـ وـتـلـقـيـ لـيـلـاـ عـلـىـ الـنـفـسـ، فـيـ حـيـنـ أـنـ الـدـيـنـ وـالـإـنـسـانـيـةـ لـاـ يـعـلـمـانـ غـيـرـ بـتـ هـذـاـ الـنـورـ الـعـقـليـ فـيـ الـأـشـيـاءـ وـالـمـعـانـيـ لـتـظـهـرـ الـحـيـاـةـ مـضـيـةـ مـلـتـمـيـةـ، فـتـصـبـحـ أـوـضـحـ مـمـاـ هـيـ فـيـ نـفـسـهـاـ، وـأـجـمـلـ مـمـاـ هـيـ فـيـ الـطـبـيـعـةـ.

فـيـ مـثـلـ هـذـهـ الـنـزـعـاتـ الـمـتـقـاـيـلـةـ الـتـيـ صـعـدـتـ بـالـفـلـسـفـةـ وـنـزـلـتـ، وـجـعـلـتـ مـنـ الـعـلـمـ فـيـ صـدـرـ الـإـنـسـانـيـ مـلـءـ سـمـاءـ مـنـ الـغـيـومـ بـسـوـادـهـاـ وـرـغـدـهـاـ وـصـوـاعـقـهـاـ، وـتـرـكـتـ الـعـالـمـ يـضـجـ ضـجـيجـهـ الـمـزـعـجـ فـيـ قـلـبـ كـلـ حـيـ حتـىـ لـتـذـاعـ الـهـمـوـمـ إـلـىـ قـلـوبـ النـاسـ إـذـاعـةـ الـأـصـوـاتـ إـلـىـ أـسـمـاعـهـمـ فـيـ «ـالـرـادـيوـ»ـ... فـيـ مـثـلـ هـذـاـ الـبـلـاءـ الـمـاـحـقـ تـلـفـتـ الـإـنـسـانـيـةـ إـلـىـ التـارـيـخـ تـسـأـلـهـ درـسـاـ مـنـ الـكـمـالـ الـإـنـسـانـيـ الـقـدـيمـ تـطـبـ مـنـهـ لـهـذـهـ الـحـمـاـقـاتـ الـجـديـدـةـ، وـلـوـ عـلـمـتـ لـعـلـمـتـ أـنـ درـسـ هـذـاـ الـعـصـرـ فـيـ عـلـاجـ مشـاـكـلـهـ

(١) التطـاريـفـ: الإـشـعـاعـاتـ.

(٢) مـتـهـافـنـاـ: مـتـسـارـعـاـ مـتـهـالـكـاـ.

(٣) زـاغـتـ: مـالـتـ انـحرـفتـ.

الإنسانية هو «محمد» ﷺ، الذي لن يبلغ أحدٌ في وصفه الاجتماعي ما بلغ هو في قوله: «إنما أنا رحمة مُهداة».

\* \* \*

هذا المصلح الاجتماعي الأعظم يلقي فقرةً اليوم درساً على الدنيا العلمية الفلسفية، لا من كتاب ولا فكر، ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته؛ إذ ليس المصلح من فكر وكتب، وواعظ وخطب، ولكنه الحي العظيم الذي تلتمسه الفكرة العظيمة لتجيئ فيه، وتجعل له عمرًا ذهنياً مرصفاً على حكمها، فيكون تاريخه ووصفه هو وصف هذه الفكرة وتاريخها.

وما كان محمد ﷺ إلا عمراً ذهنياً مخضاً، تمر في المعاني الإلهية لظهوره للناس إلهية مفسرة. وكل حياته ﷺ دروسٌ مفتنةٌ مختلفةٌ المعاني، ولكتها في جملتها تُخاطبُ الإنسان على الدّهر بهذه الجملة: أيها الحي، إذا كانت الحياة هنا فلا تكون أنت هناك: أي إذا كانت الحياة في الحقيقة فلا تكون أنت في الكذب، وإذا كانت الحياة في الرجولة البصيرة فلا تكون في الطفولة الترقة<sup>(١)</sup>، فإن الرجل يعرف ويُدرك، فهو بذلك وراء الحقيقى؛ ولكن الطفل يجهل ولا يعرف الدنيا إلا بعينيه، فهو وراء الوهم، ومن ثم طيشه ونزقه، وإيشاره كلّ عاجل وإن قلّ، وعمله أن تكون حياته النفسية الضئيلة في مثل توثب أعضاء جسمه، حتى كأنه أبداً يلعب بظاهره وباطنه معاً . . .

أيها الحي، إذا كانت الحياة هنا فلا تكون أنت هناك: أي الحياة في ذاتك الداخلية وقانونِ كمالها، فإذا أستطعت أن تُخرج للأرض معنى سماوياً من ذاتك فهذا هو الجديد دائمًا في الإنسانية، وأنت بذلك عايش في القريبِ القريبِ من الروح، وأنت به شيء إلهي؛ وإذا لم تستطع وعشت في دمك وأعصابك فهذا هو القديم دائمًا في الحيوانية، وأنت بذلك عايش في البعيد البعيد من النفس، وأنت به شيءٌ أرضي كالحجر والتراب.

هنا: أي في الإرادة التي فيك وحدك. ولا هناك: أي في الخيال الذي هو في كل شيء. وهنا، في أخلاقك وفضائلك التي لا تدفعك إلى طريق من طرق الحياة إلا إذا كان هو بعينه طريقاً من طرق الهدى والحكمة؛ وليس هناك، في أموالك ومعايشك

(١) الترقة: الطائفة المنحرفة.

التي تجعلك كاللص مندفعاً إلى كل طريق متى كان هو بعينه طريقاً إلى نهب أو سرقة . هنا، في الروح، إذ تشعر الروح أنها موجودة، ثم تعمل لثبت أنها شاعرة بوجودها، ماضية إلى مصيرها، منتهية بجسدها إلى الموت الإنساني على سُنة النفس الخالدة؟ وليس هناك في الحسن، إذ يتعلق الحسن بما يتقلب على الجسم، فهو مهتاج لشعوره بوشك فنائه فلا يُحدث إلا الألم إن نال أو لم ينل، وهو متنه بجسمه إلى الموت الحيواني بين أكل وماكول على سُنة الطبيعة الفانية .

أيها الحبي، إذا كانت الحياة هنا فلا تكون أنت هناك .

\* \* \*

إن الحكيم الذي ينظر إلى ما وراء الأشياء فيتعرف أسرارها، لا تكون له حياة الذي يتعلق بظاهرها ولا أخلاقها ولا نظرته؛ هذا الأخير هو في نفسه شيءٌ من الأشياء له مظهر المادّة وخداعها عن الحقيقة؛ وذلك الأول هو نفسه سرّ من الأسرار له روعة السر وكشفه عن الحقيقة . ولهذا كان في حياة الأنبياء والحكماء ما لا يطيقه الناس ولا يضبطونه إذا تكلفوه، بل ينحرق عليهم فيكونون منه العجز والغلط، ويحدث من الغلط الزلل .

ونظرة نبينا ﷺ إلى هذا الوجود نظرة شاملة مدركة لحقيقة الانهاية، فيرى بداية كل شيءٍ ماديٍ هي نهاية في التو واللحظة، فلا وجود له إلا عارضاً ماراً، فهو في اعتباره موجود غير موجود، مبتدئٌ مُنتهٍ معاً؛ وبذلك تبطل عنده الأشياء المادية وتتأثيرها، فلا تتصل بنفسه العالية إلا من أضعف جهاتها، ويجد لها الناس في حياتهم الشجرة والفرع والثمرة، وما لها عنده هو جذرٌ ولا فرع؛ وبهذا لم يفته شيءٌ ولم يتعلق به شيءٌ .

وكانت الدنيا تطول الناس وتتقاسرون عنها، وكانت منقطعة النماء وهو ذاهب في نموء الروحي، وكانتها هو صورة أخرى من آدم (عليه السلام)؛ فكلاهما لمس بنفسه الحياة جديدة خالية مما جمع فيها الزمن وأهله من طمع وشره، وجاء آدم ليعطي الأرض ناسها من صلبه، وجاء محمد ليعطي الناس قوانينهم من فضائله؛ فآدم بشخصيه هو دنيا بعثت لتتسع، ومحمد بشخصيه هو دنيا بعثت لتنتظم .

وماذا يفهم من الفلسفة الأخلاقية النبوية العظيمة؟ يفهم منها أن الشهوات خلقت مع الإنسان تحكم فيه، لينقلب بها إنساناً يتحكم فيها؛ وأن الإنسان

الصحيح الذي لم تزوره الدنيا يجب أن يكون ذا روح يمتد فيفيض عن غيات جسمه إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يصبح في حكم النور وأنطلاقه وحريته، ولا ينكمش فيحصاره جسمه في غاياته وضروراته فيرتد إلى ما هو أدنى أدنى حتى يعود في حكم التراب وأسره وعبوديته. فالفقر وما إليه، والزهد وما هو بسبيل منه، والانصراف عن الشهوات والرذائل - كل ذلك إن هو إلا تراجع النفس العالية إلى ذاتها النورانية حالاً بعد حال، وشيئاً بعد شيء، لتُضيء على المادة فتكشف حقائقها الصريحة فلا تباليها ولا تُقْيم لها وزناً. فبينما الناس يرون الأموال والشهوات مادة حياة وعمل وشعور، تراها هي مادة بخت ومعرفة وأعتبر ليس غير؛ وبهذا تكون النفس العظيمة في الدنيا كأسنان المعلم: تدخل المادة إلى معمله وهي مادة وفكرة، وتخرج منه وهي حقيقة ومعرفة، وعلى أي أحوالها فهي إنما تُحسن في ذلك المعامل بأصابع علمية دقيقة ليس فيها الجمود ولا الجرس، ولكن فيها الذهن والفكر؛ وليس لها طبيعة الرغبة والغفلة، ولكن طبيعة الانتباه والتَّحْرُّز، وليسَت في أسر المادة، ولكن المادة في أسرها ما شاءت.

ولا يسمى فقره بِكَلَّةٍ زهداً كما يظن الضعفاء من يتعلمون على ظاهر التاريخ ولا يحققون أصوله النفسيّة؛ وأكثرهم يقرأ التاريخ النبوي بأرواح مظلمة ثرّيهم ما ترى العين إذا ما أختلط الظلام وليس الأشياء فراءت مجملة لا تفصيل لها، مفرغة لا تُبَيِّن فيها؛ وما بها من ذلك شيء، غير أنها تراءى في بقية من البصر لا تغمُّها.

وهل الزهد إلا أن تطرد الجسم عنك وهو معك، وتنصرف عنه وهو بك متعلق؟ فتلك سخريةٌ ومثنة، وفي رأيي تشويه للجسم بروحه، وقد تنعكس ف تكون من تشويه الروح بجسمها؛ فليس يعلم إلا الله وحده: أذاك تفسير ل الإنسانية الراهدة بالنور، أم هو تفسير بالتراب . . .

ولقد كان بِكَلَّةٍ يملك أمالاً ويَجْدُهُ، وكان أجود به من الريح المرسلة، ولكنه لا يدعه يتناصل<sup>(١)</sup> عنده، ولا يتركه يثبت في عمله، وإنما كان عمله ترجمة لإحساسه الروحي؛ فهو رسول تعليمي، قلبُه العظيم في القوانين الكثيرة من واجباته، وهو يريد إثبات وحدة الإنسانية، وأن هذا الإنسان مع المادة الصامدة

(١) يتناصل: يتكاثر.

أَعْمِيَاءِ مَادَةٌ مُفْكَرَةٌ مُمِيَّزةٌ، وَأَنَّ الدِّينَ قُوَّةٌ رُوحِيَّةٌ يُلْقَى بِهَا الْمُؤْمِنُ أَحْوَالَ الْحَيَاةِ فَلَا  
 يُشَبِّهُ بِإِلَازَائِهَا شَيْءٌ عَلَى شَيْئِيهِ، إِذَا الرُّوحُ خَلُودٌ وَبَقَاءُ، وَالْمَادَةُ فَنَاءٌ وَتَحْوُلٌ، وَمِنْ  
 ثُمَّ تَخْضُعُ الْحَوَادِثُ لِلرُّوحِ الْمُؤْمِنَةِ وَتَغْيِيرُهَا، فَإِنَّ لَمْ تَخْضُعْ لَمْ تُخْضِعَهَا، وَإِنَّ  
 لَمْ تَغْيِيرِ الرُّوحُ بِهَا؛ وَأَسَاسُ الإِيمَانِ أَنَّ مَا يَتَهَيِّئُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَصَرَّفَ بِمَا لَا يَتَهَيِّئُ.  
 مَا قِيمَةُ الْعِقِيدَةِ إِلَّا بِصَدِقَهَا فِي الْحَيَاةِ، وَأَكْثَرُ مَا يَصْنَعُ هَذَا الْمَالُ: إِمَّا الْكَذَبُ  
 الْصُّرَاحُ فِي الْحَيَاةِ، وَإِمَّا شُبْهَةُ الْكَذَبِ؛ وَلِهَذَا تَنْزَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ التَّعْلِقِ بِهِ، وَزَادَهُ  
 بُعْدًا مِنْهُ أَنَّهُ نَبِيُّ إِلَّا إِنْسَانٌ وَمِثْلُهَا الْأَعْلَى، فَحَيَا تُهُوكَهُ الشَّرِيفَةُ لِيَسْتَ كَمَا نَرَى فِي  
 الْأَنْسَابِ: إِيجَادًا لِحَلٍّ مَسَائِلِ الْفَرَدِ وَتَعْقِيدًا لِمَسَائِلِ غَيْرِهِ، وَلَا تَوْسِعًا مِنْ نَاحِيَةِ  
 وَتَضِيقًا مِنْ نَاحِيَةِ الْأُخْرَى، وَلَا جَمِيعًا مِنْ هَنَا وَمِنْعًا مِنْ هُنَاكَ؛ بَلْ كَانَتْ حَيَاةُ  
 بَعْدِ الرِّسَالَةِ مُنْصَرِفةً إِلَى إِقْرَارِ التَّوازنِ فِي إِلَّا إِنْسَانِيَّةِ، وَتَعْلِيمِ الْجَمِيعِ عَلَى تَفَاوِتِهِمْ  
 وَأَخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ كَيْفَ يَكُونُ لَهُمْ عَقْلٌ وَاحِدٌ مِنَ الْكَوْنِ؛ وَبِهَذَا الْعُقْلُ الْكُوْنِيُّ  
 الْسَّلِيمُ تَرَى الْمُؤْمِنُ إِذَا عَرَضَ لَهُ الشَّيْءُ مِنَ الدُّنْيَا يَقْتَنِيْهُ أَوْ يَضْرِفُهُ عَنْ وَاجْبِهِ  
 الْإِنْسَانِيِّ - أَبْتَ نَفْسُهُ الْعَظِيمَةَ إِلَّا أَنْ تَرْتَفَعَ بِطَبِيعَتِهَا، فَإِذَا هُوَ فِي قَانُونِ الْسَّمَوَاتِ، وَإِذَا  
 الْمَادَةُ فِي قَانُونِ الْأَثْقَلِ؛ فَيَرْتَفَعُ وَتَهَاوِي<sup>(۱)</sup> وَيُصْبِحُ الْذَّهَبُ - وَإِنَّهُ ذَهَبٌ - وَلَيْسَ فِيهِ  
 عِنْدَ الْمُؤْمِنِ إِلَّا رُوحُ الْأَتْرَابِ.

(۱) تَهَاوِي: تَسْقُطُ وَتَرْسِيبُ.

## سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم

٢

قالت عائشة (رضي الله عنها): لم يمتلىء جوف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئاً فَطَّ، وإنَّهُ كانَ في أهله لا يسألُهم طعاماً ولا يتشرَّهُ؛ إنَّه أطعموه أكلَ، وما أطعموه قَبْلَ، وما سقَوه شَرِبَ.

وقالت: ما شبعَ آلُ محمدٍ من خبزِ الشعيرِ يومينِ متتابعينِ حتى قُبضَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعنها: كُنَّا آلُ محمدٍ نمكثُ شهراً ما نَسْتَوْقِدُ ب النار، إنَّهُ هو إلَّا التمرُّ والماء. وقالت: ما رفعَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَطُّ غداء لعشاء، ولا عشاء لغداء ولا اتَّخَذَ من شيء زوجين؛ لا قميصين، ولا رداءين، ولا إزارين، ولا زوجين مِنَ النعال. ويروى عنها، قالت: تُوفيَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليس عندي شيء يأكلُه ذو كيد، إلَّا شطرُ شعيرٍ في رف لي.

وقالت: تُوفيَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثة صاعاً من شعير.

وعن ابن عباس: كانَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبيتُ الليلَى المتابعةَ وأهله طاويَا<sup>(١)</sup> لا يجدونَ عشاء، وإنما كانَ خبزُهم الشعير.

وعن الحسن، قال: خطَبَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «واللهِ ما أمسَى في آل محمدٍ صاعٌ من طعام، وإنما لِيسْعَهُ أبياتٌ!» واللهِ ما قالَها أستقلالاً، ولكنَّ أرادَ أن تتأسى به أمهُ.

(١) طاويَا: جائعاً لم يأكل شيئاً.

وعن ابن ماجير قال: أصحاب النبي ﷺ جُوعٌ يوماً، فعَمِدَ<sup>(١)</sup> إلى حجر فوضعه على بطنه، ثم قال: «ألا ربّ نفس طاعمة ناعمة في الدنيا،جائعة عاربة يوم القيمة؛ ألا ربّ مكرم نفسه وهو مهين لها؛ ألا ربّ مهين نفسه وهو مكرم لها». وَخَيْرَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ «أَحَدٍ» ذهباً فقال: «لا يا ربّ؛ أَجُوعٌ يوماً فادعوك، وأشبع يوماً فأحمدك»!<sup>(٢)</sup>

وكان يقول في دعائه ويُكثِّر منه: «اللهم أخْبِنِي مِسْكِنِي، وأمْتَنِي مِسْكِنِي، وأَحْسِنْنِي في زُمْرَةٍ<sup>(٣)</sup> المساكين».

\* \* \*

هذا هو سيد الأمة، يُمسكُه في الحياة نبياً عظيماً ما يخرج غيره منها ذليلاً محترقاً، وكأنما أشرف صفاء نفسه على تراب الأرض فردة أشعّة نور، على حين يُلقي الناس على هذا التراب من ظلام أنفسهم فلا يُنقى تراباً بل يرجع ظلاماً، فكأنهم إذ يمشون عليه يطهرون المجهول بخوفه وروعته؛ ثم لا يستقر ظلاماً بل يرجع آلاماً، فكأنهم يتبنّون على المرض لا على الحياة؛ ثم لا يثبت آلاماً بل يتحول فورة وتوثباً تكون منه نزوات<sup>(٤)</sup> الحمق والجنون في النفس.

هؤلاء الذين تعيش أنفسهم في التراب، ويتمرغون بأخلاقهم فيه، ينتلبون على الحياة من صنع التراب ناساً دوداً كطبع الدود لا يقع في شيء إلا أفسده أو قدره؛ أو قوماً سوساً كطبع السوس لا يتأل شيئاً إلا تخرّه أو عابه، فهم يُوقعون الخلل في نظام أنفسهم، فإذا هي طائفة تخيل لهم كانوا اختلط نواميس الدنيا، وكأن الله قدّض عليهم وبسط غيرهم، وشعلّهم وفرغ من عداتهم، وأبتلاهم على مسكة الرزق<sup>(٥)</sup> بالشهوة المسعورة<sup>(٦)</sup> التي لا تتحقق، فضرّبهم بالمجاهدة التي لا تنقطع؛ وأنعم على غيرهم في بساطة الرزق بالشجرة المسحورة التي لا تقطع منها ثمرة إلا نبت غيرها في مكانها.

إِنَّ مَا وَصَفْنَاهُ مِنْ فَقْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَتِيدٌ حَاضِرٌ، وَأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ نَفْسَهُ فِي هُمَّ الْمَالِ، وَلَا جَعَلَنَّهُ نَفْسَهُ فِي هُمَّ الْفَقْرِ، وَأَنَّهُ لَقِيَ الْحَيَاةَ حَامِلاً لَا

(١) عَمَدَ إِلَى حَجْرٍ: أَتَى بِحَجْرٍ.

(٤) مسكة الرزق: ضيق العيش.

(٢) زمرة: جماعة.

(٥) الشهوة المسعورة: الجامحة.

(٣) نزوات: رغبات.

محمولاً، وأستقرَّ فيها هادئاً لا مضطرباً - كل ذلك إنما يُثبتُ للدنيا أنَّه خلقَ وبُعثَ وعاشَ ليكونَ درساً عملياً في حلِّ المشكلاتِ الاجتماعية، يُعلمُ الناسَ أنها لا تتعقدُ بطبعتها، ولكنَّ بطبعاتهم فيها، ولا تستمرُّ بقوتها، ولكنَّ بإمدادِ قواهم لها؛ ولا تغلبُ بصلولتها<sup>(١)</sup>، ولكنَّ بجزعهم<sup>(٢)</sup> منها؛ ولا تعُصِّلُ<sup>(٣)</sup> من ذاتِ نفسها، ولكنَّ من سوءِ أثرِهم عليها وسوءِ نظرِهم لأنفسهم ولها.

فإذا قرأتَ الأحاديثَ التي أسلفناها فلا تقرأها زهدًا وتقللاً، ولا فقراً وجوعاً، ولا اختلالاً وحاجة، كما تترجمُها نفسك أو تحسُّها ضرورتك؛ بل انظرُ فيها وأعتبرُها بنفسِه هو عليه السلام، ثم اقرأها شريعةً اجتماعيةً مفضلةً على طبيعةِ النفس، قائمةً على أن تأخذَ نفسُ الإنسانِ من قوى الدنيا عناصرَها الحية، لتعطيَ الحياةً من ذلك قوةً عناصرِها.

والحياةُ العاملةُ غيرُ الحياةِ الوداعة، هما ذكرُ وأنشى؛ فأما الأولى فهي ما وصفنا وحكيتنا، وأما الثانيةُ فهي تغللُ النعمة، وإطلاقُ قانونِ التنازلِ في المالي ينْتَي بعضُه بعضاً، ويتبَعُ بعضُه على بعض، ثُمَّ إقامةُ الحياةِ على الزينةِ ومُقوِّماتِها، وقيامُ الزينةِ على الخداعِ وطبياعِه، فيُغَيِّلُ المرأةُ من دنياه على ما هو جديزٌ أن يصرُّه عنها، ويُجْحِبُ منها ما كانَ ينبغي أن يباغضَه فيها. وكلُّ ما رأيتَ وعلمتَ في رجلٍ، قوتهُ القوةُ فهو هناك؛ وكلُّ ما علمتَ ورأيتَ في أنثى، قوتها الضعفُ فهو هنا.

فالسوادُ الذي تراه في فقره عليه السلام هو السوادُ الحيُّ؛ سوادُ الليلِ حولِ الروحِ التَّئْجِيمِيَّةِ الساطعة؛ وذلك الترابُ هو الترابُ الحيُّ؛ ترابُ الزرعِ تحتَ النَّضرةِ والخضراء؛ وتلك الحاجةُ الجسميةُ هي الحاجةُ الحيةُ الدافعةُ إلى حريةِ النفس؛ وذلك الإقلالُ من فهمِ اللذةِ هو الإقلالُ الحيُّ الذي يزيدُ قوةَ فهمِ الجمالِ في السماءِ والأرضِ وما بينهما، وذلك الضيقُ في حيزٍ<sup>(٤)</sup> المَتَاعُ للحاسةِ هو الضيقُ الحيُّ الذي يُوَسِّعُ حيزَ المَتَاعِ للروحِ. وبالجملةِ فذلك النقصُ منَ المادةِ لم يكنَ إلا لنفي النقصِ عنِ الفضيلةِ، وذلك الاحتقارُ للعرضِ الفاني الزائلِ هو المعنى الآخرُ لِتقديرِيَّةِ الخالدِ الباقيِ.

(١) الصولة: الغلبة.

(٣) تعضل: تشتدّ وتقوى.

(٢) بجزعهم: بخوفهم.

فليس هناك خبرُ الشعير، ولا الجوعُ، ولا رهنُ الدرعِ عندَ اليهودي. كلا، بل هناك حقيقةٌ نفسيةٌ عقليةٌ، ثابتةٌ متّزنةٌ، قائمةٌ بعناصرِها السامية: منَ اليقينِ والعقلِ والحكمةِ، إلى الرفقِ والحلمِ والتواضعِ، تُخبرُ هذه الدنيا العلميَّةُ الفلسفيةُ المفكِّرةُ أنَّ ذلك النبيَّ العظيمَ هو الرجلُ الاجتماعيُّ التامُ بأخلاقِه وفضائلِه، وهو الذي بعثَ لتنقيحِ غرابةِ تنازعِ البقاءِ، وكسرَ هذه الحيوانيةَ، وقمعَ<sup>(١)</sup> نزواتِها، وإماتةِ دواعيها، والسمُّ بخواطِرِها؛ فهو بنفسِه صورةُ الكمالِ الذي بعثَ لتحقيقِه وإثباتِ أنه الممكِّنُ لا الممتعِ، وال حقيقيُ لا الخياليُّ.

ليس هناك درعٌ مرهونٌ في ثلاثينَ صاعاً، ولا الفقرُ ولا خبرُ الشعير. كلا، بل هناك تقريرٌ أنَّ النصرَ في معركةِ الحياةِ لا يأتي منَ المالِ والثراءِ والمتاعِ، ولكنَّ منَ المعاناةِ والشدةِ والصبرِ؛ وأنَّ التقدُّمَ الإنسانيَّ لا يُباعُ بيعاً، ولا يؤخذُ هوناً<sup>(٢)</sup>؛ بل هو انتزاعٌ منَ الحوادثِ بالأخلاقِ التي تتغلبُ على الأزماتِ ولا تتغلبُ الأزماتُ عليها، وأنَّ هذا المالَ وهذه الشهواتِ - في حقائقِ الحياةِ ومصائرِها - كثنوذِ الأحلامِ: لا تكونُ كثنوذاً إلَّا في مواضعِها من أرضِ الغفلةِ والنومِ، فلا لذةٌ منها إلَّا بقدرٍ خفيفٍ من هذه الغفلةِ. وليس إلَّا الأحمقُ أو المخدولُ أو الضائعُ هو الذي يقطعُ العمرَ نائماً أبداً ليظلُّ مالكاً أبداً لهؤلئِه الكثنوذِ. وهو يعلمُ أنَّه لا بدَّ منْستيقظُ، وأنَّه متى أتبه في آخرِته لم يجدُ منها شيئاً «وَوَجَدَ اللَّهَ عَنْهُ فَوْفَاهُ حِسَابَهُ».

كلا، ليس هناك فقرٌ ولا جوعٌ وما إليهما، بل هناك وَضْعٌ هذه الحقيقة: ينبغي أنْ تجدَ نفسَكِ، وموْضِعَ نفسِكِ، وإيمانَ نفسِكِ، وعزَّةَ نفسِكِ. فإذا أدركتَ ذلك ورفعتَ نفسَكِ إلى مواضعِها الحقِّ، وأفررتَها فيهِ، وحبستَها عليهِ، وحدَّذتها بالإنسانيةِ من ناحيةِ وباللهِ من الناحيةِ المُقابلةِ - رأيتَ إذنَ أنَّ قيمتكَ الصحيحةَ في أنْ تكونَ وسيلةً تعطي وتعملُ لِعطي، لا غَايَةً تأخذُ وتعملُ لِتأخذُ، ومهما ضيقَ عليكِ فإنَّما أنتَ كالشجرةِ الطيبةِ تأخذُ تراباً وتصنُّعَ حلاوةً.

وما قطُّ نبتَ شجرةً في مكانِها لِتأكلَ وتشربَ وتختزنَ الستمادَ والترابَ وتحصُّنَها وتمتعُّها عن غيرِها، ولو قد فعلَتْ ذلك شجرةً لكانَ هلاكُها فيما تفعلُ، إذْ تُحاوِلُ أنْ تُضايِعَ فائدَتها من قانونِ العالمِ، فيكونُ طعمُها سريعاً في

(٢) هوناً: سهلاً.

(١) قمع: ضرب وقهْر وأذلَّ.

إفساد الصلة بينهما، فلا يجد القانون فيها نظامه، ومن ثم لا تجد في القانون نظامها، فيهلكها الذي كان يحييها، وتستبعد لحظ نفسها، فيفقدوها ذلك حرية الحياة التي كانت لها في نفسها.

\* \* \*

يقول نبينا عليه السلام: «إن المؤمن بكل خير على كل حال، وإن نفسه تنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل». فهذا هو أسمى قانون اجتماعي يمكن أن تظفر به الإنسانية، وما يأتي لها ذلك إلا إذا أصبحت تلك المعاني التي أومنا<sup>(١)</sup> إليها شعوراً اجتماعياً عاماً مقرراً في النفس، قائماً فيها على إيمان راسخ بأن الفرد هو صورة المجتمع لا صورة نفسه وحدها، وأن الناس كحب القمح في السنبلة، ليس لجميعه إلا قانون واحد، فموقع كل حبة من السنبلة هو ثروتها، علتها أو سفلتها، وكثير ما تأخذ أو قل؛ وإذا كان أساس الحياة في الحبة منها أن تجد قوامها وكفايتها من مادة الأرض، فتمام الحياة فيها أن يعمّرها النور من حولها، وأن يستمر النور من حولها يغمرها.

فالحبة من السنبلة بكل خير على كل حال، وإنها تنزع وما بها أنها نزع، ولكنها أدت ما تؤدي، وأنقطعت من قانون يتصل بقانون غيره، وما أنتشت ولا افتقرت، ولا أكثرت ولا أخفت بل حفّت موضعها، فإنها ما نبتت لتبقى، وما نمث إلا لينقطع نمائها. وكذلك المؤمن الصحيح بالإيمان، الصادق النظر في الحياة: هو أبداً في قانون آخرته، فهو أبداً في عمل ضميره.

والناس في هذه الحياة كحشيد عظيم يتدقق من مضيق بين جبليين ينفذ إلى الفضاء؛ فإذا هم أدركوا جميعاً أنهم مفضون<sup>(٢)</sup> إلى هذه النهاية مرؤواً أمنين وكان في يقينهم السلام، وفي صبرهم الوقاية، وفي نظامهم التوفيق، وفي تعاونهم الحياة؛ فهم بكل خير على كل حال، ما دام هذا قانون جميعهم؛ فأيّما رجل شدّ منهم فاضطرب فطاش<sup>(٣)</sup>، هلك وأهلك من حوله، ومن عكس منهم موضعه ونكص على عقيبه، أهلك من حوله وهلك، والموت أشقي الموت هنا في هذا المضيق بين الجبليين - اعتبار الحاضر حاضراً فقط، والضجر منه، وجعل كل إنسان نفسه

(١) أومنا: أشرنا.

(٢) مفضون: واصلون، متهمون إلى.

(٣) طاش: انحرف.

غاية . والحياة أهناً الحياة - اعتبار الحاضر بما وراءه ، والصبر على شدّته ، وجعل الإنسان نفسه وسيلة .

\* \* \*

فذلك معنى خبز الشعير ، والقلة والضيق ، ورهن الدرع عند يهودي من سيد الخلق وأكملهم ، ومن لو شاء لمشى على أرض مِنَ الذهب . فهو يَعْلَمُ الإنسانية أنَّ الرجل العظيم النَّفْسِ لا يكون في الحياة إلَّا ضيفاً نازلاً على نفسه .

ومن معاني ذلك الفقر العظيم أنَّ خبز الشعير هو رمز من رموز الحياة على التحلل من خلق الأثرة ، والبراءة من هوى الترف ؛ ورهن الدرع رمز آخر على التخلص مِنَ الْكِبَرِيَاءِ وَالْطَّمَعِ ؛ والعُسْرَةُ رمز ثالث على مجاهدة الملل الْحَيِّ الذي يفسد الحياة كما يفسد بعض النباتات . ومجموع هذه الرموز رمز بحاله على وجوب الإيقاظ النفسي للأمة العزيزة التي تقود أنفسها بمقاساة الشدائِدِ ومجاهدة الطبع ، ليكون في كل فرد مادة الجيش ، ول يصلح هذا الجيش قائدًا للإنسانية .

على أنه يَعْلَمُ حتَّى على طلب اليسار<sup>(١)</sup> ، والتغلل من الأعمال الشريفة بالغلة والمال ، فقال : «إنك إن تداعع عيالك أغنياء ، خيرٌ من أن تدعهم عالة يتکففون<sup>(٢)</sup> الناس». ورأى عابدا قد انقطع للعبادة حتى أكلت نفسه جسمه ، ووصفوا له مِنْ زُهْدِه وعبادته ، فقال يَعْلَمُ : «من يعوله؟» قالوا : كلنا نعوله . فقال : «كلكم خير منه!...» إلى أحاديث كثيرة مروية ، هي تمام القانون الأدبي الاجتماعي في الدنيا ، ثبت أنَّ الْحَيِّ إنْ هو إلَّا عمل الْحَيِّ .

ولكن حين يكون سيد الأمة وصاحب شريعتها رجلاً فقيراً ، عاملًا مجاهداً ، يكبح<sup>(٣)</sup> لعيشـه ، ويحوج يوماً ويسبع يوماً ، فلم يقلب بيده في تلاد<sup>(٤)</sup> مِنَ المال يرثه ، ولم يجمعهما على طريف<sup>(٥)</sup> منه يورثه - فذلك هو ما بيناه وشرخناه ، وذلك كالأمر نافذا لا رخصة فيه ، على ألا يتخد الغني مِنَ الفقير عبدًا اجتماعيًّا لفقر هذا ولما ذاك؛ بل هي المساواة النفسية لا غيرها وإن

(١) اليسار : الغنى .

(٢) يتکففون : يعيشـون على الكفاف وشظف العيش .

(٤) تلاد المال : المال الموروث .

(٥) طريف المال : حدثـه وجدـه .

(٣) يكبح : يتعب ويجد في عمله .

أختلفت طبقات المجتمع . والأكرم هو الأثقى لِللهِ بمعنى التقوى ، والأقوم بالواجب على معنى الواجب ، والأكفاء لإنسانية في معاني الإنسانية .

فقر ذلك السيد الأعظم ليس فقراً ، بل هو كما رأيت : ضبط السلطة الكائنة في طبيعة التملك ، لقيام التعاون الإنساني على أساسه العملي ؛ هو المحاجزة العادلة بين المصالح الاقتصادية الطاغية : يمنع أن تأكل مصلحة مصلحة فتهلك بها ، ويوجب أن تلد المصلحة مصلحة لتحيا بها .

والنبي الفقير العظيم هو في التاريخ من وراء كل هذه المعاني ، كالقاضي الجالس وراء مواد القانون . بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

## درسٌ من النبوة

قالوا: إنَّمَا نَصَرَ اللَّهُ (تعالى) رَسُولُهُ وَرَدَ عَنْهُ الْأَحْزَابَ وَفَتَحَ عَلَيْهِ قُرْيَظَةَ وَالْأَنَصِيرِ<sup>(١)</sup>، ظَنَّ أَزْوَاجُهُ بِعَلِيهِ أَخْتَصَّ بِنَفَائِسِ الْيَهُودِ وَذَخَائِرِهِمْ؛ وَكَنَّ تَشْعَنْ نِسْوَةً: عَائِشَةَ، وَحَفْصَةَ، وَأُمَّ حَبِيبَةَ، وَسَوْدَةَ، وَأُمَّ سَلَمَةَ، وَصَفِيفَةَ، وَمِيمُونَةَ، وَزَيْنَبَ، وَجُوَوْرِيَّةَ؛ فَقَعَدُنَّ حَوْلَهُ وَقُلْنَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَنَاتُ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِي الْحَلْيِ وَالْحَلْلِ، وَالْإِمَاءِ وَالْخَوْلِ<sup>(٢)</sup>، وَنَحْنُ مَا تَرَاهُ مِنَ الْفَاقَةِ وَالضَّيقِ... وَالْمُنَّ قَلْبُهُ بِمَطَالِبِهِنَّ لَهُ بِتَوْسِعَةِ الْحَالِ، وَأَنْ يَعْمَلُهُنَّ بِمَا تَعْمَلُ بِهِ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الدُّنْيَا أَزْوَاجَهُمْ؛ فَأَمْرَةُ اللَّهِ (تعالى) أَنْ يَتَلوَ عَلَيْهِنَّ مَا نَزَّلَ فِي أَمْرِهِنَّ مِنْ تَخْيِيرِهِنَّ فِي فِرَاقِهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: «يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدُنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرِبَّنَتْهَا فَنَعَالِيَتْ أَمْتَعَكُنَّ وَأَسْرِحَكُنَّ سَرَّلَا جَيِّلَا<sup>(٣)</sup> وَلَنْ كُنْتَنَ تُرِدُنَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْدَّارُ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعْدَ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا».

قالوا: وَبَدَا بِعَائِشَةَ - وَهِيَ أَحَبُّهُنَّ إِلَيْهِ - فَقَالَ لَهَا: «إِنِّي ذَاكِرُ لَكِ أَمْرًا مَا أَحَبُّ أَنْ تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبُوِيْكِ». قَالَتْ: مَا هُوَ؟ فَتَلَّا عَلَيْهَا الْآيَةُ.

قَالَتْ: أَفِيكَ أَسْتَأْمِرُ أَبُويْ؟ بَلْ أَخْتَارُ اللَّهَ - تَعَالَى - وَرَسُولَهُ.

ثُمَّ تَشَابَعَنَ كُلُّهُنَّ عَلَى ذَلِكَ، فَسَمَاهُنَّ اللَّهُ «أَمْهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ»، تَعْظِيْمًا لِحَقِّهِنَّ، وَتَأكِيدًا لِحَرْمَتِهِنَّ، وَتَفْضِيلًا لَهُنَّ عَلَى سَائِرِ النِّسَاءِ.

\* \* \*

هَذِهِ هِيَ الْقَصْةُ كَمَا تُقْرَأُ فِي التَّارِيخِ وَكَمَا ظَهَرَتْ فِي الْزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، فَلْنَقْرِأْهَا نَحْنُ كَمَا هِيَ فِي مَعْنَى الْحُكْمَةِ، وَكَمَا ظَهَرَتْ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَالِيَّةِ؛ فَسَنَجِدُ لَهَا غَورًا<sup>(٤)</sup> بَعِيدًا، وَنَعْرُفُ فِيهَا دَلَالَةً سَامِيَّةً، وَنَتَبَيَّنُ تَحْقِيقًا فَلْسِفِيًّا دَقِيقًا لِلْأَوْهَامِ وَالْحَقَائِقِ.

(١) قريظة والنمير: هما قبيلتان وحيان من أحياء اليهود في المدينة.

(٢) الخول: الخدم والخشم.

(٣) السراح: الطلاق، أما ممتعة الطلاق فهي الصداق المتأخر.

(٤) غوراً: عمقاً.

وهي قبل كل هذا ومع كل هذا تنطوي على حكمة رائعة لم يتتبَّه لها أحد، ومن أجلها ذُكرت في القرآن الكريم، ليكونَ نصاً تاريخياً قاطعاً يُدَافِعُ به التاريخ عن هذا النبي العظيم في أمر من أمور العقل والغريزة، فإنَّ جَهْلَةَ المُبَشِّرِينَ في زماننا هذا، وكثيراً من أهل الرَّيْغ<sup>(١)</sup> والإلحاد، وطائفة من قصار النظر في التحقيق - يزعمون أنَّ محمداً ﷺ إِنَّمَا أَسْتَكْثَرَ مِنَ النِّسَاءِ لِأَهْوَاءِ نُفْسِيَّةِ مَحْضَةٍ وشهواتٍ كالشهوات؛ ويَتَطَرَّقُونَ من هذا الزعم إلى الشُّبهَةِ، ومن الشُّبهَةِ إلى سوء الظنِّ، ومن سوء الظنِّ إلى قبح الرأي؛ وكلَّهم غبيٌّ جاهلٌ؛ فلو كانَ الْأَمْرُ على ذلك أو على قريبٍ منه أو نحوِ من قريبه، لَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْقَصَّةُ الَّتِي أَسَاسُهَا نَفْيُ الزينةِ وتجريدُ نسائِهِ جمِيعاً منها، وتصحِّحُ النَّيْةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُنَّ عَلَى حِيَاةٍ لَا تَحِيَا فِيهَا مَعْنَى الْمَرْأَةِ، وتحتَ جُوْرَ لا يَكُونُ أَبْدَاً جُوْرَ الْزَّهْرَ . . . وأمْرُهُ مِنْ قَبْلِ رَبِّهِ أَنْ يُخْيِرَهُنَّ جمِيعاً بَيْنَ سَرَاجِهِنَّ فِي كُلِّ النِّسَاءِ وَيَجْذِنَ مَا شِئْنَ مِنْ دُنْيَا الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ إِمْسَاكِهِنَّ فَلَا يَكُنَّ مَعَهُ إِلَّا فِي طَبِيعَةِ أُخْرَى تَبْدِأُ مِنْ حِيَثُ تَنْتَهِي الْدُّنْيَا وَزِيَّتُهَا.

فالقصةُ نفسُها ردٌّ على زعم الشهوات، إذ ليست هذه لغة الشهوة، ولا سياسة معانيها، ولا أسلوب غضبها أو رضاها. وما هُنَا تملِيق، ولا إطْرَاء، ولا ثُوعبة، ولا حِرْضٌ على لذة، ولا تعبيرٌ بِلُغَةِ الْحَاسَةِ؛ والقصةُ بَعْدَ مَكْشُوفَةٍ صَرِيحَةٍ لِيَسَّرَ فِيهَا معنى ولا شِبَهٌ معنى من حرارة القلب، ولا أثرٌ ولا بقيةٌ أثِرٌ من ميل النفس، ولا حرفٌ أو صوتٌ حرفٌ من لغة الدُّمْ. وهي على منطقٍ آخرٍ غيرِ المنطق الذي تُسْتَمَالُ بِهِ الْمَرْأَةُ، فلم تقتصرْ عَلَى نَفْيِ الدُّنْيَا وَزِينَتِ الدُّنْيَا عَنْهُنَّ، بل تَقْتَلُ أَمَلَّ فِي ذَلِكَ أَيْضًا إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ، وَأَمَاثَلَ مَعْنَاهُ فِي نَفْوِهِنَّ، بَقْصَرَ الإِرَادَةِ مِنْهُنَّ عَلَى هَذِهِ الْمُلْتَسَبَاتِ: اللَّهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَالرَّسُولُ فِي شَدَائِهِ وَمُكَابَدَتِهِ<sup>(٢)</sup>، وَالدَّارُ الْآخِرُ فِي تِكَالِيفِهَا وَمَكَارِهَا. فَلَيْسَ هَنَا ظَرْفٌ، وَلَا رَقَّةٌ، وَلَا عَاطِفَةٌ، وَلَا سِيَاسَةٌ لِطَبِيعَةِ الْمَرْأَةِ، وَلَا أَعْتَبَارٌ لِمَزاجِهَا، وَلَا زُلْفَى<sup>(٣)</sup> لِإِنْوَاثِهَا، ثُمَّ هُوَ تَخْيِيرٌ صَرِيحٌ بَيْنَ ضِدِّيْنَ لَا تَتَلَوَّنُ بَيْنَهُمَا حَالَةٌ تَكُونُ مِنْهُمَا مَعَأً، ثُمَّ هُوَ عَامٌ لِجَمِيعِ زَوْجَاتِهِ لَا يَسْتَشِنِي مِنْهُنَّ وَاحِدَةً وَلَا أَكْثَرَ.

والحرِيصُ عَلَى الْمَرْأَةِ وَالاستِمْتَاعُ بِهَا لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا، بل يُخَاطِبُ فِي

(١) الرَّيْغُ: الانحراف عن الدين والكفر.

(٢) مُكَابَدَتِهِ: عاشَ فِي بِجَهَدٍ وَمُشَفَّةٍ.

(٣) زُلْفَى: تَقْرَبُ.

المرأة خيالها أول ما يخاطب، ويشيعه مبالغة وتأكيداً، ويُوسّعه رجاءً وأملًا، ويقربُ لهَ الزَّمْنَ الْبَعِيدَ، حتى لو كان في أول الليل وكان الخلاف على الوقت، لحقَّ لهَ أَنَّ الظَّهَرَ بَعْدَ سَاعَةٍ . . .

\* \* \*

وبرهان آخر؛ وهو أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يتزوج نسأةً لِمَتَاعٍ مِمَّا يُمْتَنَعُ الْخِيَالُ بِهِ، فلو كان وضعُ الأمْرِ على ذلك لَمَّا أَسْتَقَمَ ذَلِكَ إِلَّا بالزَّيْنَةِ وبِالْفَنِّ الْنَّاعِمِ فِي الشُّوْبِ والْجَلْبِيَّةِ وَالتَّشْكُلِ كَمَا نَرَى فِي الْطَّبِيعَةِ الْفَنِيَّةِ، فَإِنَّ الْمُمْثَلَةَ لَا تَمْثِلُ الْرَّوَايَةَ إِلَّا فِي الْمَسْرَحِ الْمَهْيَا بِمَنَاظِرِهِ وَجُوهِهِ . . . وَقَدْ كَانَتْ نَسَاؤُهُ ﷺ أَعْرَفَ بِهِ؛ وَهَا هُوَ ذَيْنِيَّ الْزَّيْنَةِ عَنْهُنَّ وَيُخِيرُهُنَّ الْطَّلاقَ إِذَا أَصْرَرْنَ عَلَيْهَا. فَهَلْ تَرَى فِي هَذَا صُورَةً فَكِرْ مِنْ أَفْكَارِ الشَّهْوَةِ؟ وَهَلْ تَرَى إِلَّا الْكَمَالُ الْمَحْضُ؟ وَهَلْ كَانَتْ مَتَابِعَةً لِلْزَوْجَاتِ الْتَّسْعِ إِلَّا تَسْعَةً بِرُهَانَاتٍ عَلَى هَذَا الْكَمَالِ؟

وَكَانَ النَّبِيَّ ﷺ يُلْقِي بِهَذِهِ الْقَصَّةِ درساً مُسْتَفِيضاً فِي فَلْسَفَةِ الْخِيَالِ وَسُوءِ اُثْرِهِ، عَلَى الْمَرْأَةِ فِي أَنْوَثِتِهَا، وَعَلَى الرَّجُلِ فِي رَجُولِتِهِ؛ وَأَنَّ ذَلِكَ تَعْقِيْدٌ فِي الشَّهْوَاتِ يُقَابِلُهُ تَعْقِيْدٌ فِي الْطَّبِيعَةِ، وَكَذِبٌ فِي الْحَقِيقَةِ يَنْشأُ عَنْهُ كَذِبٌ فِي الْخُلُقِ، وَأَنَّهُ صَرْفٌ لِلْمَرْأَةِ إِلَى حَيَاةِ الْأَحْلَامِ وَالْأَمَانِيِّ وَالْطَّينِ وَالْبَطْرِ وَالْفَرَاغِ، وَتَعْوِيْدُهَا عَادَاتٌ تُفَسِّدُ عَاطِفَتِهَا، وَتُضَيِّفُ إِلَيْهَا التَّصْنِعَ فَتُضَيِّعُ قُوَّتَهَا الْفَنِسِيَّةَ الْقَائِمَةَ عَلَى إِبْدَاعِ الْجَمَالِ مِنْ حَقِيقَتِهَا لَا مِنْ مَظَاهِرِهَا، وَتَحْقِيقُ الْفَائِدَةِ مِنْ عَمَلِهَا لَا مِنْ شَكَلِهَا.

وَكُلُّ مَحَاسِنِ الْمَرْأَةِ هِيَ خِيَالٌ مُتَخَيِّلٌ وَلَا حَقِيقَةً لِشَيْءٍ مِنْهَا فِي الْطَّبِيعَةِ، وَإِنَّمَا حَقِيقَتُهَا فِي الْأَعْيُنِ الْأَنَاظِرَةِ إِلَيْهَا فَلَا تَكُونُ اُمْرَأَةٌ فَاتَّهَةٌ إِلَّا لِلْمُفْتُونِ بِهَا لِيَسَ غَيْرُهُ.

وَلَوْ رَدَتِ الْطَّبِيعَةُ عَلَى مَنْ يُشَبِّبُ<sup>(۱)</sup> بِأُمْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ فَيَقُولُ لَهَا: هَذِهِ مَحَاسِنُكَ وَهَذِهِ فَتَنَتُكَ وَهَذِهِ سِحْرُكَ وَهَذِهِ وَهَذِهِ؛ لَقَالَتْ لَهُ الْطَّبِيعَةُ: بَلْ هَذِهِ كُلُّهَا شَهْوَاتُكَ أَنْتَ . . .

وَبِهَذَا يُخْتَلِفُ الْجَمَالُ عِنْدَ فَقْدِ النَّظَرِ؛ فَلَا يَفْتَنُ الْأَعْمَى جَمَالُ الصُّورَةِ وَلَا سِحْرُ الشَّكْلِ وَلَا فَرَاهَةُ الْمَنْظَرِ، وَإِنَّمَا يَفْتَنُهُ صَوْتُ الْمَرْأَةِ وَمَجَسَّتُهَا<sup>(۲)</sup> وَرَائِحَتُهَا.

فَلَا حَقِيقَةَ فِي الْمَرْأَةِ إِلَّا الْمَرْأَةُ نَفْسُهَا؛ وَلَوْ أَخِذَتْ كُلُّ أَنْتِي عَلَى حَقِيقَتِهَا هَذِهِ لَمَّا فَسَدَ رَجُلٌ وَلَا شَقِيقَتِ اُمْرَأَةٌ، وَلَا أَنْتَظَمْتُ حَيَاةً كُلُّ زَوْجٍ بِأَسْبِابِهَا الَّتِي فِيهَا.

وَذَلِكَ هُوَ الْمِثْلُ الْمُضْرُوبُ فِي الْقَصَّةِ.

(۲) مجسّتها: لمسها.

(۱) يُشَبِّبُ: يتغَزَّلُ.

يُريد النبي ﷺ ليعلم أمته أن حيف<sup>(١)</sup> الغريزة على العقل إفساد لهذا العقل، وأنه متى أخضعت المرأة لحظ الغريزة وأختيارها، كانت حياتها أستجابة لجنون الرجل، وملائتها معانٍ أتزيد والتتصعن؛ فيوشك أن ينقلها هذا عن طبيعتها السامية التي أكثرها في الحرمان والإيثار والصبر والاحتمال، ويردها إلى أصداء هذه الصفات، فيقوم أمرها بعد على الأثرة والمصلحة والتغادي والضجر والتبرم<sup>(٢)</sup> والإلحاح والإزعاج، ويُضعفُ معنى السُّلُبُ الراسِخُ في نفسها من أصل الفطرة؛ فيتبدل حياؤها، وفي الحياة ردها عن أشياء؛ ويقل إخلاصها، وفي الإخلاص ردها عن أشياء أخرى؛ ويكثر طمعها، وفي قناعتها مُحااجَزَةً بينها وبين الشَّرِّ.

وبهذا ونحوه يفسد ما بين الرجل والمرأة المتتصنة، فإذا أكثر المتتصنعت لا يكون من النساء مشاكل فقط، بل تكون من حلول المشاكل معهن مشاكل أخرى . . .

\* \* \*

ولباب هذه القصة أن النبي ﷺ يجعل نفسه في الزواج المثل الشعبي الأكمل كما هو دأبه<sup>(٣)</sup> في كل صفاتي الشريفة، فهو يُريد أن تكون زوجاته جميعاً نساء فقراء المسلمين، ليكون منهن المثل الأعلى للمرأة المؤمنة العاملة الشريفة التي تبرع البراعة كلها في الصبر والمجاهدة والإخلاص والعيقة والصرامة والقناعة، فلا تكون المرأة زينة تطلب زينة لتتنم بها في الخيال، ولكن إنسانية تطلب كمالها الإنساني ليتنم به في الواقع.

وهذه الزينة التي تتصنع بها المرأة تكاد تكون صورة المكر والخداع والتعقد، وكلما أسرفت في هذه أسرفت في تلك، بلة الزينة لوجه المرأة وجسمها سلاح من أسلحة المعاني: كالاظافر والمخالب والأنياب، غير أن هذه لوحشية الطبيعة الحية المفترسة، وتلك لوحشية الغريزة الحية التي تُريد أن تفترس. ولا تنكر المرأة نفسها أن الزينة على جسمها ثرثرة طويلة تقول وتقول . . .

\* \* \*

وإنما يكون أساس الكمال الإنساني، في إنسان العامل المجاهد: لا يحضر نفسه في شيء يسمى متابعاً أو زينة، ولا يقدر نفسه بما يجمع لها أو بما يجمع حولها، ولا يعتقد ما يكون من ذلك إلا كالتعبير من عمل الشهوات عن الشهوات.

(١) حيف: ظلم، جوز.

(٣) دأبه: عادته.

(٢) التبرم: إظهار السلل والضجر.

ونبئنا عليه السلام هو الغاية في هذا. دخل عليه مرة عمر بن الخطاب، فإذا هو على حصير وعليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه. قال عمر: وإذا أنا بقبيضة من شعير نحو الصاع، وإذا إهاب معلق<sup>(١)</sup>، فابتدرت عيناي<sup>(٢)</sup>، فقال: ما يُبكيك يا ابن الخطاب؟ قال: عمر: يا نبئ الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبيك، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك كسرى وقيصر في الشمار والأنهار وأنت نبئ الله وصفوته وهذه خزائنك؟

وجاء مرة من سفر فدخل على أبنته فاطمة (رضي الله عنها) فرأى على بابها سترًا وفي يديها قلبين<sup>(٣)</sup> من فضة، فرجع؛ فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي، فأخبرته برجوع أبيها، فسألة في ذلك فقال عليه السلام: من أجل الستر والسوارين.

فلما أخبرها أبو رافع هتك<sup>(٤)</sup> الستر ونزعت السوارين فأرسلت بهما بلا  
إلى النبي عليه السلام وقالت قد تصدق<sup>(٥)</sup> به، فضعة حيث ترى. فقال ليلاً) اذهب فِيْ  
وأدفغه إلى أهل الصفة<sup>(٦)</sup>. فباع القلبين بدرهمين ونصف (نحو ثلاثة عشر قرشاً)  
وتصدق<sup>(٧)</sup> به عليهم.

يا بنت النبي العظيم! وأنت أيضاً لا يرضى لك أبوك حلية بدرهمين ونصف  
ولأن في المسلمين فقراء لا يملكون مثلها.

أيُّ رجل شعبي على الأرضِ كمحمد عليه السلام، فيه للأمة كلها غريزة الأب، وفيه  
على كل أحواله اليقين الذي لا يتحول، وفيه الطبيعة التامة التي يكون بها الحقيقي  
هو الحقيقي.

يا بنت النبي العظيم! إن زينة بدرهمين ونصف، لا تكون زينة في رأي الحق  
إذا أمكن أن تكون صدقة بدرهمين ونصف؛ إن فيها حينئذ معنى غير معناها؛ فيها  
حق النفس غالباً على حق الجماعة؛ وفيها الإيمان بالمنفعة حاكماً على الإيمان  
بالخير؛ وفيها ما ليس بضروري قد جاز على ما هو ضروري؛ وفيها خطأ من  
الكمال إن صَحَّ في حسابِ الحلال والحرام لم يصح في حسابِ الثواب والرحمة.  
تعالوا أيها الاشتراكيون فاعرفوا نبئكم الأعظم؛ إن مذهبكم ما لم تخشه

(١) الإهاب: هو كيس من جلد كان يتخذه العرب وعاء.

(٢) ابتدرت عيناي: دمعت.

(٤) هتك الستر: مزقته.

(٥) الصفة: بالضم، هي الغرفة.

(٦) القلب، بالضم هو سوار من فضة.

فضائل الإسلام وشرائعه - إن مذهبكم لِكالشجرة الذازلة تعلقون عليها الأثمار  
تشدُّونها بالخيط ... كل يوم تَحْلُون، وكل يوم تَرْبُطُون، ولا ثمرة في الطبيعة.

ليَسْتَ قصَّةُ التخيير هذه مسأَلةً من مسائلِ الغَنِي والفقير في معانِي المادَّة، ولِكُلِّها  
مسأَلةٌ من مسائلِ الْكَمَالِ والنَّقْصِ في معانِي الرُّوح؛ فَهُنَّ صَرِيقَةٌ في أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَسْتَاذُ  
الإِنْسَانِيَّةِ كُلُّهَا؛ واجِبَةٌ أَنْ يَكُونَ فَضْلِيَّةٌ حَيَّةٌ في كُلِّ حَيَاةٍ، وَأَنْ يَكُونَ عَزَاءً في كُلِّ فَقْرٍ،  
وَأَنْ يَكُونَ تَهْذِيَّةً في كُلِّ غَنِيٍّ، وَمِنْ ثُمَّ فَهُوَ في شَخْصِهِ وَسِيرَتِهِ الْقَانُونُ الْأَدْبَيُّ لِلْجَمِيعِ.

وَكَائِنَّهُ ﷺ يُرِيدُ لِيُعْلَمَ الْأَمْمَةُ بِهَذِهِ الْقَصَّةِ أَنَّ الْجَمَاعَاتِ لَا تَصْلُحُ بِالْقَوَانِينِ  
وَالشَّرَائِعِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَلِكُلِّ بَعْلِمِ عَظَمَائِهَا فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ؛ وَأَنَّ الْحَاكِمَ عَلَى  
النَّاسِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْكُمَ إِلَّا إِذَا كَانَ فِي نَفْسِهِ وَطَبِيعَتِهِ يُحْسِنُ فَتْنَةَ الدُّنْيَا إِحْسَانَ  
الْمُتَسَلِّطِ<sup>(١)</sup> لَا الْخَاصِّ، لِيَكُونَ أُولُو اسْتِقْلَالِهِ اسْتِقْلَالُ دَاخِلِهِ.

فَلَيْسَ ذَلِكَ فَقْرًا وَلَا زُهْدًا كَمَا تَرَى فِي ظَاهِرِ الْقَصَّةِ، وَلِكُلِّهَا جُزَءٌ أَنَّ النَّفْسِ  
الْعَظِيمَيِّ فِي تَقْرِيرِ حَقَائِقِهَا الْعَمْلِيَّةِ.

\* \* \*

وَتَنْتَهِي الْقَصَّةُ فِي عِبَارَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِتَسْمِيَّةِ زَوْجَاتِهِ ﷺ: «أَمْهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ»  
بَعْدَ أَنْ أَخْتَرَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَّ الْآخِرَةَ؛ وَعِلَّمَاءُ التَّفْسِيرِ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ (تعَالَى)  
كَافَأْهُنَّ بِهَذِهِ التَّسْمِيَّةِ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِشَيْءٍ وَلَا فِيهِ كَبِيرٌ مَعْنَى، وَإِنَّمَا تُشَعِّرُ هَذِهِ  
الْتَّسْمِيَّةُ بِمَعْنَى دَقِيقٍ هُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ الْإِعْجَازِ؛ فَإِنَّ الزَّوْجَةَ الْكَامِلَةَ لَا تَكْمِلُ فِي  
الْحَيَاةِ وَلَا تَكْمِلُ الْحَيَاةَ بِهَا إِلَّا إِذَا كَانَ وَضْفَهَا مَعَ رَجُلِهَا كَوْصِفِ الْأُمَّ: تَرَى ابْنَهَا  
بِالْقَلْبِ وَمَعَانِيهِ، لَا بِالْغَرِيزَةِ وَحُظُوطِهَا؛ فَكُلُّ حَيَاةٍ حِينَئِذٍ مُمْكِنَةُ الْسَّعَادَةِ لِهَذِهِ  
الْزَّوْجَةِ، وَكُلُّ شَقَاءٍ مُحْتَمَلٍ بِصَبْرٍ، وَكُلُّ جِهَادٍ فِيهِ لِذَنْتِهِ الْطَّبِيعَيَّةِ، إِذَا يَقُومُ الْبَيْتُ  
عَلَى الْحُبِّ الَّذِي هُوَ الْحُبُّ الْخَالِصُ لَا الْمُنْفَعَةِ، وَتَكُونُ زِينَةُ الْحَيَاةِ وَجُودُ الْحَيِّ  
نَفْسِهِ لَا وِجْدَ الْمَادَّةِ، وَتَبَتَّئُ النَّفْسُ عَلَى الْلَّوْفَاءِ الْطَّبِيعِيِّ كَوْفَاءُ الْأُمَّ، وَذَلِكَ خُلُقٌ لَا  
يَعْسُرُ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ حَقِيقَتِهِ أَنْ يَتَغلَّبَ عَلَى الدُّنْيَا وَزِيَّتِهَا.

وَآخِرُ مَا نَسْتَخْرُجُ مِنَ الْقَصَّةِ فِي درِسِ النَّبِيَّةِ هَذِهِ الْحِكْمَةُ:  
يَحْسِبُ الْمُؤْمِنُ إِذَا دَخَلَ دَارَةَ أَنْ يَجِدْ حَقِيقَةَ نَفْسِهِ الطَّيِّبَةِ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ حَقِيقَةَ  
كِسْرَى وَلَا قَيْصَرَ.

(١) المُتَسَلِّطُ: الْمُسِيَّطُ.

## شهر للثورة فلسفة الصيام

لم أقرأ لأحد قوله شافياً في فلسفة الصوم وحكمته؛ أمّا منفعته للجسم، وأنّه نوع من الطلب له، وباب من السياسة في تدبّره؛ فقد فرغ الأطباء من تحقيق القول في ذلك؛ وكأنّ أيام هذا الشهير المبارك إن هي إلّا ثلاثون حبة تؤخذ في كلّ سنة مرتّة لتنقية المعدة وتصفية الدم وحياطة أنسجة الجسم؛ ولكنّ الآن لستنا بصدّى من هذا، وإنّما نستوحى تلك الحقيقة الإسلامية الكبرى التي شرّعَتْ هذا الشرع لسياسة الحقائق الأرضية الصغيرة، عاملة على استمرار الفكرة الإنسانية فيها، كي لا تتبدل النفس على تغيير الحوادث وتبدلها، ولكيلا تجهل الدنيا معانٍ الترقيع إذا أتيت على هذه الدنيا معاني التمزيق.

من معجزات القرآن الكريم أنَّه يَدْخُرُ<sup>(١)</sup> في الألفاظ المعروفة في كلّ زمان، حقائق غير معروفة لِكُلّ زمان، فَيُجلِّيها<sup>(٢)</sup> لِوقتها حين يضُجُّ الزمان العلمي في مَتَاهِته وَحِيرَته، فَيَشْغُبُ<sup>(٣)</sup> على التاريخ وأهله مُسْتَخِفًا بالأديان، ويذهب يتبعُ الحقائق، ويستقصي في فنون المعرفة، لِيُسْتَخلَصَ من بين كُفُرٍ وإيمانٍ دِينًا طبيعياً سائغاً، يتناولُ الحياة أولَ ما يتناولُ فِي ضيَّطِها بأسرارِ الْعِلْمِ، وَيُوجِّهُها بالعلم إلى غايتها الصالحة، ويُضاعِفُ قوتها بأساليبِ الطبيعة، ليتحققُ في إنسانية العالم هذه الشَّيْئَةُ المجهولةُ التي تتوهّمُها المذاهبُ الاجتماعيةُ العلميَّةُ بين يدي علمائها: لم يحققُوها ولم يتأسوا منها، وبقيَّت تلك المذاهبُ كعقاربِ الساعة في دُورِتها: تبدأ من حيث تبدأ ثم لا تنتهي إلّا إلى حيث تبدأ . . .

\* \* \*

يُضطربُ الاشتراكيون في أوروبا وقد عجزوا عجزاً ممّا يُحاوِلُ تغييرَ الإنسان

(١) يَدْخُرُ: يوفر ويختزن.

(٢) يُجلِّيها: يكشفها.

(٣) يَشْغُبُ: يشوش.

بزيادة ونقص في أعضائه؛ ولا يزال مذهبُم في الدنيا مذهبَ كُتُبٍ ورسائلٍ؛ ولو أنهم تدبّروا حِكْمة الصوم في الإسلام، لرأوا هذا الشهْر نظاماً عملياً من أقوى وأبدع لأنظمة الاشتراكية الصحيحة: فهذا الصوم فقرٌ إجباريٌ تفرضهُ الشريعة على الناسِ فرضاً ليتساوَى الجميعُ في بواطِنِهم، سواءً منهم مَنْ مَلَكَ المليونَ من الدنانير، ومن ملك القرشَ الواحدَ، ومن لم يملك شيئاً؛ كما يتساوى الناسُ جميعاً في ذهابِ كبرياتِهم الإنسانية بالصلة التي يفرضها الإسلام على كُلّ مسلم؛ وفي ذهابِ تقاوِتهم الاجتماعي بالحجَّ الذي يفرضهُ على مَنْ استطاع.

فقرٌ إجباريٌ يُرادُ به إشعارِ النفُس الإنسانية بطريقَةٍ عمليةٍ واضحةٍ كُلَّ الوضوحِ، أنَّ الحياةُ الصحيحةُ وراءُ الحياةِ لا فيها، وأنَّها إنما تكونُ على أتمِها حين يتساوى الناسُ في الشعورِ لا حين يختلفون، وحين يتعاطفُون بإحساسِ الألمِ الواحدِ لا حين يتنازعون بإحساسِ الأهواءِ المتعددةِ.

ولو حقَقتَ لرأيَتَ الناسَ لا يختلفون في الإنسانية بعقولِهم، ولا بأنسابِهم، ولا بمراتِبِهم، ولا بما ملوكوا؛ وإنما يختلفون ببطونِهم وأحكامِ هذه البطونِ على العقلِ والعاطفة؛ فمن البطنِ نكبةُ الإنسانية، وهو العقلُ العمليُ على الأرضِ؛ وإذا أختلفَ البطنُ والدماغُ في ضرورةِ مَدَّ البطنِ مَدَّهُ من قوىِ الهضمِ فلم يُبِقِ ولم يَذَرْ.

ومن هُنَّا يتناولُهُ الصومُ بالتهذيبِ والتَّأديبِ والتَّدريبِ، ويجعلُ الناسَ فيهِ سواءً: ليس لجميعِهم إلَّا شعورٌ واحدٌ وحسٌ واحدٌ وطبيعةٌ واحدةٌ؛ ويُحِكمُ الأمَّرُ فيحولُ بينَ هذا البطنِ وبينَ المادَّةِ، ويُبَالُغُ في إحكامِهِ فِيمَسِكُ حَوَاشِيهِ العصبيةِ في الجسمِ كُلِّهِ يمنعُها تغذيتها ولذتها حتى نُفَثَّةً من دخينةٍ<sup>(١)</sup>.

وبهذا يضَعُ الإنسانية كُلُّها في حالةٍ نفسيةٍ واحدةٍ تَتَلَبَّسُ بها النفُسُ في مشارقِ الأرضِ ومعاربِها، ويُطْلُقُ في هذه الإنسانية كُلُّها صوتُ الرُّوحِ يُعلِّمُ الرحمةَ ويدعو إليها، فيُشَبِّعُ فيها بهذا الجوعِ فكرةً معينةً هي كُلُّ ما في مذهبِ الاشتراكيةِ من الحقِّ، وهي تلك الفكرةُ التي يكونُ عنها مساواةُ الغنيِ للفقيرِ من طبيعتهِ، وأطمئنانُ الفقرِ إلى الغنيِ بطبعتهِ؛ ومن هذين: (الاطمئنانُ والمساواة)، يكونُ هدوءُ الحياةِ بهدوءِ النفسيَّن اللتينِ هما السُّلْبُ والإيجابُ في هذا الاجتماعِ الإنسانيِّ؛ وإذا أنت

(١) الدخينة كلمة استعملها الأستاذ مصطفى صادق الرافعي للسيجارة.

نرّغت هذه الفكرة من الاشتراكية بقي هذا المذهب كله عبئاً من العبث في محاولة جعل التاريخ الإنساني تاريخاً لا طبيعة له.

\* \* \*

من قواعد النفس أن الرحمة تنشأ عن الألم، وهذا بعض السر الاجتماعي العظيم في الصوم، إذ يبلغ أشد المبالغة، ويدفع كل التدقير، في منع الغذاء وشبعه عن البطن وحواشيه مدة آخرها آخر الطاعة؛ فهذه طريقة عملية لتربيّة الرحمة في النفس، ولا طريقة غيرها إلا النكبات والكوارث؛ فهما طريقتان كما ترى: مُبصرة وعمياء، وخاصةً وعامةً، وعلى نظام وعلى فجأة.

ومتى تحققت رحمة الجائع الغني للجائع الفقير، أصبح للكلمة الإنسانية الداخلية سلطانها النافذ، وحكم الوازع<sup>(١)</sup> النفسي على المادة؛ فيسمع الغني في ضميرة صوت الفقير يقول: «أعطي». ثم لا يسمع منه طلباً من الرجاء، بل طلباً من الأمر لا مفرّ من تلبية والاستجابة لمعانيه، كما يُواси المبتلى من كان في مثل بلائه.

آية معجزة إصلاحية أعجب من هذه المعجزة الإسلامية التي تقضي أن يُحذف من الإنسانية كلها تاريخ البطن ثلايين يوماً في كل سنة، ليحل في محله تاريخ النفس؟ وأنا مُستيقن أن هناك نسبة رياضية هي الحِكمَة في جعل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل أثني عشر شهرًا، وأن هذه النسبة متحققة في أعمال النفس للجسم، وأعمال الجسم للنفس؛ كأنه الشهر الصحي الذي يفرضه الطبع في كل سنة للراحة والاستجمام<sup>(٢)</sup> وتغيير المعيشة، لأحداث الترميم العصبي في الجسم، ولعل ذلك آتٍ من العلاقة بين دورة الدم في الجسم الإنساني وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى أن يدخل في المحاق؛ إذ تنفتح العروق وتربو في النصف الأول من الشهر، كأنها في (مد) من نور القمر ما دام هذا النور إلى زيادة، ثم يراجعها (الجزر) في النصف الثاني حتى كأن للدم إضاءة وظلاماً. وإذا ثبت أن للقمر أثراً في الأمراض العصبية، وفي مد الدم وجزره<sup>(٣)</sup>، فهذا من أعجب الحِكمَة في أن يكون الصيام شهراً قمريًّا دون غيره.

(١) الوازع: الرادع.

(٢) الجزء: انحسار ماء البحر وانخفاضه عكس المد.

(٣) الاستجمام: الراحة.

وفي ترائي الهلال ووجوب الصوم لرؤيته معنى دقيق آخر، وهو - مع إثبات رؤية الهلال وإعلانها - إثبات الإرادة وإعلانها، كأنما أنبع أول الشعاع السماوي في التنبية الإنساني العام لفروض الرحمة والإنسانية والبر.

وهنا حكمة كبيرة من حكم الصوم، وهي عمله في تربية الإرادة وتقويتها بهذا الأسلوب العملي، الذي يذرب الصائم على أن يمنع باختياره من شهواته ولذة حيوانيته، مصراً على الامتناع، متهيئاً له بعزيزته، صابراً عليه بأخلاق الصبر، مزاولاً في كل ذلك أفضل طريقة نفسية لاكتساب الفكرة الثابتة ترسخ لا تتغير ولا تحول، ولا تعدو عليها عوادي الغريرة.

وإدراك هذه القوّة من الإرادة العملية منزلة اجتماعية سامية، هي في الإنسانية فوق منزلة الذكاء والعلم، ففي هذين تعرض الفكر مازة مروّرها، ولكنّها في الإرادة تعرّض ل تستقر وتحقّق. فانظر في أي قانون من القوانين، وفي أيّة أمّة من الأمم، تجد ثالثين يوماً من كل سنة قد فرضت فرضاً لتربية إرادة الشعب ومزاولته فكرة نفسية واحدة بخصائصها وملابساتها حتى تستقر وترسخ وتعود جزءاً من عمل الإنسان، لا خيالاً يمر برأسه مرّاً.

أليست هذه هي إتاحة<sup>(١)</sup> الفرصة العلمية التي جعلوها أساساً في تكوين الإرادة؟ وهل تبلغ الإرادة فيما تبلغ، أعلى من منزلتها حين يجعل شهوات المرأة مذعنّة لتفكيره، مُنقادة لـلوازع النفسي فيه، مصರّفة بالحسن الديني المسيطر على النفس ومشاعرها.

أما - والله - لو عمّ هذا الصوم الإسلامي أهل الأرض جميعاً، لآل معناه أن يكون إجماعاً من الإنسانية كلّها على إعلان الثورة شهراً كاملاً في السنة، ليطهير العالم من رذائله وفساده، ومحقّ<sup>(٢)</sup> الآثرة والبخل فيه، وطرح المسألة النفسية ليتدرّسها أهل الأرض دراسة عملية مدة هذا الشهر بطوله، فيبهط كل رجل وكل امرأة إلى أعماق نفسه ومكامنها، ليختبر في مصنع فكره معنى الحاجة ومعنى الفقر، وليفهم في طبيعة جسمه - لا في الكتب - معانى الصبر والثبات والإرادة، وليبلغ من ذلك وذلك درجات الإنسانية والمواساة والإحسان؛ فيتحقق بهذه وتلك معانٍ للإخاء والحرية والمساواة.

(٢) محق: محو.

(١) إتاحة: إفساح المجال.

شهر هو أيام قلبية في الزمن؛ متى أشرفت على الدنيا قال الزمن لأهله: هذه أيام من أنفسكم لا من أيامي، ومن طبيعتكم لا من طبيعتي؛ فيُقْبِلُ العالَمُ كُلُّهُ على حالة نفسية بالغة السمو، يتعهد فيها النفس برياستها على معالي الأمور ومكارم الأخلاق، ويفهم الحياة على وجه آخر غير وجهها الكالح، ويراهَا كأنَّما أجيَعَتْ من طعامها اليومي كما جاءَ هو، وكأنَّما أفرَغَتْ من خَسائِسِها وشهواتِها كما فَرَغَ هو، وكأنَّما أُلْزِمَتْ معانِي النقوي كما أُلْزِمَها هو. وما أجمل وأبدع أن تَظَهَرَ الحياة في العالَمِ كُلِّهِ - ولو يوماً واحداً - حامِلةً في يدها السُّبْحة...! فكيف بها على ذلك شهراً من كُلِّ سنة؟

إنَّها - والله - طريقة عملية لرسوخ فكرة الخير والحق في النفس؛ وتطهيرِ الأجتماع من خسائِسِ العقلِ المادي؛ وردُّ هذه الطبيعة الحيوانية المحكومة في ظاهرِها بالقوانين، والمحرَّرة من القوانين في باطنِها - إلى قانونٍ من باطنِها نفسه يُطَهِّرُ مشاعرَها، ويسمو بإحساسِها، ويصرُّفُها إلى معانِي إنسانيَّتها، ويُهذِّبُ من زياَداتِها، ويحذُّفُ كثيراً من فضولِها، حتى يرجعُ بها إلى نحوِ من براءةِ الطفولة، فيجعلُها صافية مُشرقةً بما يجتذبُ إليها من معانِي الخير والصفاء والإشراق؛ إذ كان من عملِ الفكرة الثابتة في النفس أن تدعُو إليها ما يُلائِمُها ويَتَصلُّ بطبعِها من الفكرِ الأخرى. والنفسُ في هذا الشهْرِ مُحتَبَسةٌ في فكرةِ الخيرِ وحدها، فهي تبني بناءَها من ذلك ما استطاعت.

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر، بل هو فصلٌ نفسيٌّ كفصول الطبيعة في دُورِانِها؛ ولَهُوا - والله - أشبه بفصلِ الشتاء في حلولِه على الدنيا بالجوِّ الذي من طبيعتِه السُّحبُ والغيثُ، ومن عملِه إمدادُ الحياة بوسائلٍ لها ما بعدها إلى آخرِ السنة، ومن رياضته أن يُكَسِّبَها الصلابةَ والأنكماشَ والخفةَ، ومن غايتها إعدادُ الطبيعة لِلتَّفَتُّحِ عن جمالِ باطنِها في الربيعِ الذي يتلوه.

وعجِيبٌ جدًا أنَّ هذا الشهْرَ الذي يَدْخُرُ فيه الجسمُ من قُوَّاهُ المعنوية فيُودِعُها مَصْرِفَ روحانِيَّته، ليجدَ منها عند الشدائِدِ مَدَدَ الصبرِ والثباتِ والعزمِ والجلدِ والخشونةِ - عجِيبٌ جدًا أنَّ هذا الشهْرَ الاقتصادي هو من أيامِ السنةِ كفائدة  $\frac{1}{3}$  في المائة... فكأنَّه يُسجَّلُ في أعصَابِ المؤمنِ حسابَ قوَّتهِ وربحِه فلَهُ في كُلِّ سنة زيادة  $\frac{1}{3}$  من قوَّتهِ المعنوية الروحانيةِ.

وسُخِّرَ العظامُ في هذه الدنيا إنَّما يكونُ في الأُمَّةِ التي تعرَّفُ كيف تَدَخُرُ هذه

القوَّة وَتُوفِّرُهَا لِتستمدُّها عندَ الحاجة، وذلك هو سُرُّ أسلافنا الأوَّلِينَ الذين كانوا يجدون على الفقرِ في دمائِهم وأعصابِهم ما تجدُ الجيوشُ العظيمَى الْيَوْمَ في مخازِنِ العَتَادِ والأسلحةِ والذخيرةِ.

\* \* \*

كُلُّ ما ذكرُتُهُ في هذا المقالِ من فلسفةِ الصوم؛ فإنَّما أَسْتَخِرُ بِجُنَاحِهِ من هذه الآيةِ الكريمة: ﴿كُبَّ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُبَّ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَلَّكُمْ تَنَقُّونَ﴾. وقد فهمها العلماءُ جميعاً على أنَّها معنى «القوى»، أمَّا أنا فأؤلِّتها من «الاتقاء»؛ فالصوم يتنَقَّيُ المرءَ على نفسهِ أنْ يكونَ كالحيوانِ الذي شريعتهُ مَعْدَتُهُ، وألا يُعاملُ الدنيا إلَّا بمِوادٍ هذه الشريعة؛ ويتنَقَّيُ المجتمعُ على إنسانيَّته وطبيعتِه مثلَ ذلك، فلا يكونُ إنسانٌ مَعَ إنسانٍ كحمارٍ معَ إنسانٍ: يبيعُ القوَّةَ كُلُّها بالقليلِ مِنَ العَلَفِ.

والصوم يتنَقَّيُ هذا وهذا ما بينَ يديهِ وما خلفَهُ، فإنَّ ما بينَ يديهِ هو الحاضرُ من طباعِهِ وأخلاقِهِ، وما خلفُهُ هو الجِيلُ الذي سيرثُ من هذه الطباعِ والأخلاقِ، فيعملُ بنفسهِ في الحاضرِ، ويعملُ بالحاضرِ في الآتيِ.

وكُلُّ ما شرَحْنَاهُ فهو أتقاءُ ضرِّ لِجَلْبِ منفعةٍ، وأتقاءُ رذيلةٍ لِجَلْبِ فضيلةٍ؛ وبهذا التأويلِ تتوَجَّهُ آآيةُ الكريمةُ جهةً فلسفيةً عاليةً، لا يأتيَ البَيَانُ ولا العِلْمُ ولا الفلسفةُ بأوجزٍ<sup>(١)</sup> ولا أكملَ من لفظِها؛ ويتوَجَّهُ الصيامُ على أنَّهُ شريعةٌ اجتماعيةٌ إنسانيةٌ عامةً؛ يتَقَيَّ بها الْجَمَعُ شرورَ نفسهِ؛ ولن يتهذَّبَ العالمُ إلَّا إذا كانَ لهُ مَعَ القوانينِ النافذةِ هذا القانونُ العامُ الذي أَسْمَاهُ الصومُ، ومعناه «قانونُ البطن» . . . .  
ألا ما أعظمَكَ يا شهرَ رمضانَ! لو عَرَفْتَكَ العالَمُ حقَّ معرفتكَ لَسَمَّاكَ:  
«مدرسةُ الثلاثينِ يوماً».

(١) أوجز: أَخْصُرُ، أَبْلَغُ.

## ثبات الأخلاق

لو أَنِّي سُئلْتُ أَنْ أُجْمِلَ فلْسَفَةَ الدِّينِ الإِسْلَامِيِّ كُلَّهَا فِي لِفْظَيْنِ، لَقُلْتُ: إِنَّهَا ثِبَاتُ الْأَخْلَاقِ «وَلَوْ سُئلَ أَكْبَرُ فَلَاسْفَةُ الدِّنِيَا أَنْ يُوْجِزَ عَلاَجَ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلَّهُ فِي حِرْفَيْنِ، لَمَّا زَادَ عَلَىِ الْقَوْلِ: إِنَّهُ ثِبَاتُ الْأَخْلَاقِ». وَلَوْ أَجْتَمَعَ كُلُّ عَلَمَاءِ أُورِبَا لِيَدْرِسُوا الْمَدْنِيَّةَ الْأُورَبِيَّةَ وَيَحْضُرُوا مَا يُعَوِّزُهَا فِي كَلْمَتَيْنِ لِقَالُوا: ثِبَاتُ الْأَخْلَاقِ.

فَلِيَسْ يَنْتَظِرُ الْعَالَمُ أَنْبِيَاءً وَلَا فَلَاسْفَةً وَلَا مُصْلِحِينَ وَلَا عَلَمَاءً يُدْعَوْنَ لَهُ بِدُعَاءً جَدِيدًا، وَإِنَّمَا هُوَ يَتَرَقَّبُ<sup>(١)</sup> مَنْ يَسْتَطِعُ أَنْ يَفْسِرَ لَهُ الْإِسْلَامَ هَذَا التَّفْسِيرُ، وَيُثْبِتُ لِلَّدِنِيَا أَنَّ كُلَّ الْعِبَادَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ هِيَ وَسَائِلُ عَمَلِيَّةٍ تَمْنُعُ الْأَخْلَاقَ الْإِنْسَانِيَّةَ أَنْ تَتَبَدَّلَ فِي الْحَيَّ فَيَخْلُعَ مِنْهَا وَيَلْبَسَ، إِذَا تَدَلَّتْ أَحْوَالُ الْحَيَاةِ فَصَعِدَتْ بِإِنْسَانِهَا أَوْ نَزَلتْ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ يَأْبَى عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا حَالَتِهِ التِّي هُوَ فِيهَا مِنَ الْثَّرَوَةِ أَوِ الْعُلُومِ، وَمِنَ الْأَرْتَفَاعِ أَوِ الْضَّعْفِ<sup>(٢)</sup>، وَمِنْ خَمْوِ الْمَنْزِلَةِ أَوْ نَبَاهِتِهَا<sup>(٣)</sup>؛ وَيُوجَبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا الْدَّرْجَةِ الَّتِي أَنْتَهَى إِلَيْهَا الْكَوْنُ فِي سُمُّهِ وَكَمَالِهِ، وَفِي تَقْلِيَّهِ عَلَى مَنَازِلِهِ بَعْدَ أَنْ صُفِّيَ فِي شَرِيعَةِ بَعْدَ شَرِيعَةٍ، وَتَجْرِيَّةَ بَعْدَ تَجْرِيَّةً، وَعِلْمٍ بَعْدَ عِلْمٍ.

انْتَهَىَ الْمَدْنِيَّةُ إِلَى تَبَدُّلِ الْأَخْلَاقِ بَتَبَدُّلِ أَحْوَالِ الْحَيَاةِ، فَمَنْ كَانَ تَقِيًّا عَلَى الْفَقْرِ وَالْإِمْلَاقِ<sup>(٤)</sup> وَحَرَمَةِ الْإِعْسَارِ<sup>(٥)</sup> فُنُونَ اللَّذَّةِ، ثُمَّ أَيْسَرَ مِنْ بَعْدِهِ؛ جَازَ لَهُ أَنْ يَكُونَ فَاجِراً عَلَى الْغَنَى وَأَنْ يَسْمَحَ لِفُجُورِهِ عَلَى مَدَّ مَا يَتَطَوَّخُ بِهِ الْمَالُ، وَإِنْ أَصْبَحَ فِي كُلِّ دِينَارٍ مِنْ مَالِهِ شَقَاءُ نَفْسٍ إِنْسَانِيَّةً أَوْ فَسَادِهَا.

وَمَنْ وُلِّدَ فِي بَطْنِ كُوخٍ، أَوْ عَلَى ظَهَرِ الطَّرِيقِ، وَجَبَ أَنْ يَبْقَى أَرْضاً إِنْسَانِيَّةً؛ كَانَ اللَّهُ (سَبِّحَانَهُ) لَمْ يَبْيَنْ مِنْ عَظَامِهِ وَلَحْمِهِ وَأَعْصَابِهِ إِلَّا خَرِبَةً آدَمِيَّةً مِنْ غَيْرِ هَنْدَسَةٍ

(١) يَتَرَقَّبُ: يَتَنَظَّرُ.

(٢) الْضَّعْفُ: الْمَذْلَةُ.

(٣) نَبَاهِتِهَا: عَلَوْ مَنْزِلَتِهَا.

(٤) الْإِمْلَاقُ: الْفَقْرُ الشَّدِيدُ الْمَدْعَعُ.

(٥) الْإِعْسَارُ: الْفَقْرُ.

ولا نظام ولا فن... ثم يقابلة من ولد في القصر أو شبه القصر فله حكم آخر، كأن الله (سبحانه) قد ركب من عظميه ودميه وتكونيه آية هندسية وأعجوبة فن، وظرفه تدبر، و شيئاً مع شيء، وطبقه على طبقة.

ولكن الإسلام يقر ثبات الخلق ويوجبه وينشئ النفس عليه، ويجعله في حياة المجتمع وحياسته، لأن هناك حدوداً في الإنسانية تميز بحدود في الحياة، ولا بد من الضبط في هذه وهذه، حتى لا يكون وضع إلا وراءه تقدير، ولا تقدير إلا معه حكمة، ولا حكمة إلا فيها مصلحة؛ وحتى لا تعلو الحياة ولا تنزل إلا بمثل ما ترى من كفتني ميزان شدتنا في علاقة تجمعهما وتحرر كهما معاً، فهي بذاتها هي التي تنزل بالنازل لتذلل عليه، وتشيل بالعالى لتبين عنه؛ فالإسلام من المدنية هو مدينة هذه المدينة.

\* \* \*

إنها لن تتغير مادة العظم واللحم والدم في الإنسان فهي ثابتة مقدرة عليه، ولن تتبدل السنن الإلهية التي توجدها وتفنيها فهي مصرفه لها قاضية عليها، وبين عمل هذه المادة وعمل قانونها، فيها تكون أسرار التكوين: وفي هذه الأسرار تجد تاريخ الإنسانية كلها سابحاً في الدم.

هي الغرائز تعمل في الإنسانية عملها الإلهي، وهي محددة محكمة على ما يكون من تعادلها وأختلاف بينها، وكأنها خلقت بمجموعها لمجموعها؛ ومن ثم يكون الخلق الصحيح في معناه قانوناً إلهياً على قوة كثرة الكون وضبطه.

وبهذه القوة وهذا الضبط يستطيع الخلق أن يحوّل المادة التي تعارضه إذا هو أشدّ وصَلْب، ولكنه يتحول معها إذا هو لأنّ أو ضعف. فهو قدّر إلا أنه في طاعتك، إذ هو قوة الفضل بين إنسانيتك وحيوانيتك، كما أنه قوة المزاج بينهما، كما أنه قوة التعديل فيهما، وقد سوّغ<sup>(١)</sup> القدرة على هذه الأحوال جميعاً، ولو لا أنه بهذه المثابة لعاش الإنسان طول التاريخ قبل التاريخ، إذ لن يكون له حينئذ كون تؤرخ فضائله أو رذائله ب مدح أو ذم.

فلا عبرة<sup>(٢)</sup> بمظاهر الحياة في الفرد، إذ الفرد مقيد في ذات نفسه بمجموع هو

(١) سوّغ: علل وسمح.

(٢) عبرة، بكسر العين: الدرس والأمثلة.

للمجموع وليس له وحده: فإنك ترى الغرائز دائبة<sup>(١)</sup> في إيجاد هذا الفرد لنوعه بسُنن من أعمالها، ودائبة كذلك في إهلاكه في النوع نفسه بسُنن أخرى؛ فليس قانون الفرد إلا أمراً عارضاً كما ترى؛ وبهذا يمكن أن يتحول الفرد على أساس مختلفة، ثم تبقى الأخلاق التي بينه وبين المجموع ثابتة على صورتها.

فالأخلاق على أنها أفراد، هي في حقيقتها حُكم المجتمع على أفراده؛ فقوامها بالأعتبار الاجتماعي لا غير.

\* \* \*

وحيث يقع الفساد في المجتمع عليه من آداب الناس، ويلتوي ما كان مستقيماً، وتشتت العالية والسفالة<sup>(٢)</sup>، وتُطْرَح<sup>(٣)</sup> المبالغة بالضمير الاجتماعي، ويقوم وزن الحكم في اجتماعهم على القبيح والمنكر، وتجري العبرة فيما يعتبرونه بالرذائل والمحرمات، ولا يعجب الناس إلا ما يُفسيدهم، ويقع ذلك منهم بموقع القانون ويحل في محل العادة؛ فهناك لا مساك للخلق السليم على فرد، ولا بد من تحول الفرد في حقيقته؛ إذ كان لا يجيء أبداً إلا متصدعاً<sup>(٤)</sup> في كل مظاهره الاجتماعية، فأينما وقع من أعمال الناس جاء مكسوراً أو مثلوماً، وكأنه منتقل من عالم إلى عالم ثانٍ بغير نواميس الأول.

وما شدَّ من هذه القاعدة إلا الأنبياء وأفراد من الحكماء؛ فأماماً أولئك فهم قوة التحويل في تاريخ الإنسانية: لا يُبَعِّث أحدهم إلا ليهياج به الهَيَّج في التاريخ، ويُتَطْرَق به الناس إلى سُبُل جديدة كأنما طردهم إليها العواصف والزلزال وألبراكين، لا شريعة ومبادئه وأدابه؛ وأماماً الحكماء الناضجون فيهم دائماً في هذه الإنسانية أمكنة بشريَّة مُحَصَّنة لحفظ كنوزها وإحرازها في أنفسهم، فلهم في ذات أنفسهم عصمة ومتاعة كالجبال في ذات الأرض.

\* \* \*

الأخلاق في رأي هي الطريقة لتنظيم الشخصية الفردية على مقتضى الواجبات العامة، فالإصلاح فيها إنما يكون من عمل هذه الواجبات، أي من ناحية المجتمع والقائمين على حكمه. وعندى أن للشعب ظاهراً وباطناً؛ فباطنه هو الدين

(١) دائبة: مستمرة بطلها.

(٢) السافلة: الرعاع.

(٣) تُطْرَح: تُرمى وتُتجاهل.

(٤) متصدعاً: متهدماً.

الذي يحكم الفرد، وظاهره هو القانون الذي يحكم الجميع، ولن يصلح للباطن المتصل بالغيب إلا ذلك الحكم الديني المتصل بالغيب مثله؛ ومن هنا تتبين مواضع الاختلال في المدنية الأوربية الجديدة؛ فهي في ظاهر الشعب دون باطنه، والفرد فاسد بها في ذات نفسه إذا هو تحلل من الدين، ولكنه مع ذلك يبدو صالحًا منتظمًا في ظاهره الاجتماعي بالقوانين وبالآداب العامة التي تفرضها القوانين، فلا يبرح هازئاً من الأخلاق ساخرًا بها؛ لأنها غير ثابتة فيه، ثم لا تكون عنده أخلاقاً يعتد بها إلا إذا درث بها منافعه، وإنما هي ضارة إذا كانت منها مضرّة، وهي مؤلمة إذا حالت دون اللذات. ولا ينفك هذا الفرد يتحول لأنّه مطلق في باطنه غير مقيد إلا بأهوائه وزرعاته، وكلمات الفضيلة والرذيلة معدومتان في لغة الأهواء والنزاعات؛ إذ الغاية المتاجع واللذة والنجاح، ولن يكون السبب ما هو كائن . . .

وبهذا فلن تقوم القوانين في أوروبا إذا فني المؤمنون بالأديان فيها أو كاثرهم<sup>(1)</sup> الملحدون، وهُم اليوم يُبصرون بأعينهم ما فعلت عقيلة الحرب العظمى في طوائف منهم قد خربت أنفسهم من إيمانهم فتحولوا بذلك التحول الذي أومأنا إليه، فإذا أعصاهم بعد الحرب ما تزال محاربة مقاتلة ترمي في كل شيء بروح الدم والأسلاء والقبور والتعرّف والليل . . . وانتهت الحرب بين أمم وأمم، ولكنها بدأت بين أخلاق وأخلاق.

وقدימה حارب المسلمين، وفتحوا العالم، ودوّخوا الأمم؛ فأثبتوا في كل أرضٍ هديَّ دينهم وقوَّة أخلاقهم الثابتة، وكان من وراء أنفسهم في الحرب ما هو من ورائهما في السُّلْم، وذلك بثبات باطنه الذي لا يتحول، ولا تستخفه الحياة بتزّقها، ولا تسفةه<sup>(2)</sup> المدنيات فتحمله على الطيش.

ولو كانوا هم أهل هذه الحرب الأخيرة بكل ما قذفت به الدنيا. لبقيت لهم العقلية المؤمنة القوية، لأنَّ كلَّ مسلم فإنما هو عقيله في سلطان باطنه الثابت القار على حدود بيته مُحصلة مقسمة، تحوطها وتُمسكُها أعمال الإيمان التي أحكمها الإسلام أشدَّ إحكام بفرضها على النفوس متوعة مكررة: كالصلوة والصوم والزكاة، ليمنع بها تغييرًا ويحدث بها تغييرًا آخر، و يجعلها كالحارسة للإرادة ما تزال تمرُّ بها وتعهدُها بين الساعتين والساعة.

إنما الظاهر والباطن كالموْج والساحل؛ فإذا جنَّ الموج فلن يضيئه ما بقيَ

(2) تسفةه: تنزل به إلى الحضيض.

(1) كاثرهم: فاخرهم بكثرة.

الساحل ركيناً هادئاً مشدوداً بأعضايه في طبقات الأرض. أمّا إذا ماج الساحل . . . فذلك أسلوب آخر غير أسلوب البحار والأعاصير؛ ولا جرم<sup>(١)</sup> ألا يكون إلا خسفاً بالأرض وألماء وما يتصل بهما.

• • •

في الكونِ أصلٌ لا يتغيّرُ ولا يتبدّلُ، هو قانونٌ ضبطُ القوَّةِ وتصريفُها وتوجيهُها على مقتضى الحِكْمَةِ. ويُقابِلُهُ في الإنسانِ قانونٌ مثُلُهُ لا بدَّ منه لضبطِ معانِي الإنسانِ وتصريفُها وتوجيهُها على مقتضى الْكَمَالِ. وكلُّ فروضِ الدينِ الإِسْلَامِيِّ وواجباتهُ وآدابُهُ، إنَّ هِي إِلَّا حركةً هذا القانونِ في عملِهِ؛ فما تلك إِلَّا طُرُقٌ ثابتَةٌ لِخَلْقِ الْحَسْنِ الأدبيِّ، وتبثِيته بالتكرارِ، وإدخالِهِ في ناموسِ طبيعِيٍّ ياجرِئُهُ في الأنفُسِ مجرِي العادةِ، يجعلُهُ بكلِّ ذلك قوَّةً في باطنِهَا، فتُسمَّى الواجباتُ والأدابُ فروضاً دينيَّةً؛ وما هي في الواقع إِلَّا عناصرُ تكوينِ النَّفْسِ العاليةِ، وتكونُ أوامرَ وهي حقائقٌ.

ومن ذلك أرانا - نحنُ الشرقييْن - نمتَّأ على الْأُوربيِّينَ بائنا أقربُ منْهم إلى  
قوانينِ الكون؛ ففي أنفسنا ضوابطٌ قويَّةٌ متيقنةٌ إذا نحنُ أقرَرْنَا مدینَتَهُم فيها - وهي  
بطبيعتِها لا تقبلُ إلَّا محسَنَ هذه المدنية - سبقناهم وتركُنا غبارَ أقدامنا في  
وجوهِهم، وكُنَّا الطبقةَ الْمُصَفَّاةَ التي يَشُدُّونَها<sup>(٢)</sup> في إنسانِيهِم الراهنَة<sup>(٣)</sup> ولا  
يجدونَها، ونمتَّأ عنْهم من جهَّةِ أخرى بائنا لم تُثْثِيَّ هذه المدنية ولَم تُنْشِئَنا،  
فليَسَ حَقًا علينا أَن نأخذَ سِيَّاتِهَا من حسناَتِها، وحِمَافَتها في حِكمَتها، وتزويرَها في  
حَقِيقَتِها؛ وَأَن نُسْيِغَ<sup>(٤)</sup> منها الْحُلُوةُ وَالْمُرَّةُ، وَالنَّاضِجَةُ وَالْفَجَّةُ؛ وَإِنَّما نحنُ نَحْصُلُها  
وَنَقْبُسُها وَنَرْتَجِعُ منها الرَّجْعَةُ الْحَسْنَةُ؛ فَلَا نأخذُ إلَّا الشَّيْءُ الصَّالِحُ مَكَانُ الشَّيْءِ قَدْ  
كَانَ دُونَهُ عَذْنَا وَنَدَعَ ما سُوِيَ ذَلِكُ؛ ثُمَّ لَا نأخذُ وَلَا نَدَعُ إلَّا عَلَى الأَصْوَلِ الضَّابِطَةِ  
الْمُحْكَمَةِ في أديانِنا وَآدَابِنا؛ وَلَسْنَا مثَلَّهُم مُتَصَلِّينَ من حاضرِ مدینَتِهِم بمثيلِ  
ماضِيهِم، بيدَ أَنَّ العَجَبَ الذي ما يفرغُ عَجَبِي منه، أَنَّ الموسومِينَ<sup>(٥)</sup> مِنَّا بالتجديِّدِ  
لَا يُحاوِلُونَ أَوَّلَ وَهَلَّةً وَآخِرَهَا إلَّا هَدَمَ تلك الضوابطِ التي هي كُلُّ ما نمتَّأُ بِهِ،  
وَالَّتِي هي كذلك كُلُّ ما تَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَوربا لِضَيْطِ مدینَتِها؛ وَيُسمُونَ ذلك تجديداً،  
وَلَهُوَ بَأْنَ يُسَمَّى حِمَاقةً وَجَهْلًا أَوْلَى وَأَحْقَّ.

(١) لا جرم: لا شك.

(٢) ينشدونها: يطلبونها.

(٣) الراهنة: الحالية.

(٤) نُسْيَغْ: نجد طعم.

(٥) الموسومين: المعروفين بطبع التجديد.

أقولُ ولا أُبالي: إِنَّا أَبْتَلِينَا فِي نَهْضَتِنَا هَذِه بَقْوَةٌ مِنَ الْمُتَرَجِّمِينَ قَدْ أَحْتَرَفُوا<sup>(۱)</sup>  
 النَّقْلَ مِنْ لُغَاتِ أُورْبَا، وَلَا عَقْلًا إِلَّا عَقْلُ مَا يَنْقُلُونَهُ: فَصَنَعْتُهُمُ الْتَرْجُمَةُ مِنْ حِيثُ  
 يَدْرُوْنَ أَوْ لَا يَدْرُوْنَ صَنْعَةً تَقْلِيدٍ مَخْضٍ وَمُتَابَعَةً مُسْتَعْبَدَةً، وَأَصْبَحَ عَقْلُهُمْ - بِحِكْمَةِ  
 الْعَادَةِ وَالْطَّبِيعَةِ - إِذَا فَكَرَ أَنْجَذَبَ إِلَى ذَلِكَ الْأَصْلِ لَا يَخْرُجُ عَلَيْهِ وَلَا يَتَحَوَّلُ عَنْهُ.  
 إِذَا صَحَّ أَنَّ أَعْمَالَنَا هِيَ الَّتِي تَعْمَلُنَا - كَمَا يَقُولُ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ - فَهُمْ بِذَلِكَ خَطَرٌ  
 أَيُّ خَطَرٌ عَلَى الشَّعَبِ وَقَوْمِيَّهُ وَذَاتِيَّهُ وَخَصَائِصِهِ، وَيُوشِكُ إِذَا هُوَ أَطَاعَهُمْ إِلَى كُلِّ  
 مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ أَنَّ... أَنْ يَتَرَجَّمُوهُ إِلَى شَعَبٍ آخَرَ... .

\* \* \*

إِنَّ أُورْبَا وَمَدْنِيَّهَا لَا تُسَاوِي عَنْدَنَا شَيْئًا إِلَّا بِمَقْدَارٍ مَا تُحْقِقُ فِينَا مِنْ اتساعِ  
 الْذَّاتِيَّةِ بِعِلْمِهَا وَفَنْوِنَهَا، فَإِنَّمَا الذَّاتِيَّةُ وَحْدَهَا هِيَ أَسَاسُ قَوْتِنَا فِي الْنِزَاعِ الْعَالَمِيِّ  
 بِكُلِّ مَظَاهِرِهِ أَيْهَا كَانَ؛ وَلَهَا وَحْدَهَا، وَبِاعتَبارِ مَنْهَا دُونَ سَوَاهَا، نَأْخُذُ مَا نَأْخُذُهُ مِنْ  
 مَدْنِيَّةِ أُورْبَا وَنُهَمِّلُ مَا نُهَمِّلُ؛ وَلَا يَجُوزُ أَنْ نَتَرَكَ الْأَثَبَ فِي هَذَا وَلَا أَنْ نَتَسَامَّحَ فِي  
 دَقَّةِ الْمَحَاسِبِ عَلَيْهِ.

فَالْمَحَافظَةُ عَلَى الْضَّوَابِطِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْقَوْيَّةِ الَّتِي هِيَ مَظَاهِرُ الْأَدِيَانِ فِينَا، ثُمَّ  
 إِدْخَالُ الْوَاجِبَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْحَدِيثَةِ فِي هَذِهِ الْضَّوَابِطِ لِرِبِطِهَا بِالْعَصْرِ وَحَضَارَتِهِ، ثُمَّ  
 تَنْسِيقُ مَظَاهِرِ الْأَمَّةِ عَلَى مُقْتَضَى هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ وَالْضَّوَابِطِ، ثُمَّ الْعَمَلُ عَلَى اِتْحَادِ  
 الْمَشَاعِرِ وَتَمَارِيجِهَا لِتَقْوِيمِ هَذَا الْمَظَاهِرِ الشَّعْبِيِّ فِي جَمْلَتِهِ بِتَقْوِيمِ أَجْزَائِهِ - هَذِهِ هِيَ  
 الْأَرْكَانُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي لَا يَقُومُ عَلَى غَيْرِهَا بِنَاءُ الشَّرْقِ.

وَالِإِلْحَاظُ وَالنِّزَاعُ عَلَى السَّافَلَةِ وَتَخَانِيْثُ الْمَدْنِيَّةِ الْأُورَبِيَّةِ الَّتِي لَا عَمَلَ لَهَا إِلَّا أَنْ  
 تُظَهِّرَ الْخَطَرَ فِي أَجْمَلِ أَشْكَالِهِ... ثُمَّ الْجَهَلُ بِعِلْمِ الْقَوْةِ الْحَدِيثَةِ وَبِأَصْوَلِ التَّدَبِيرِ  
 وَحِيَاطَةِ الْاجْتِمَاعِ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرِيُّ، ثُمَّ التَّدَلِيسُ<sup>(۲)</sup> عَلَى الْأَمَّةِ بَارَاءِ الْمُقْلِدِينَ  
 وَالْزَّائِفِينَ وَالْمُسْتَعْمِرِينَ لِمَحْقِّ الْأَخْلَاقِ الشَّعْبِيَّةِ الْقَوْيَّةِ وَمَا اتَّصَلَ بِذَلِكَ، ثُمَّ التَّخَاذُلُ  
 وَالشَّقَاقُ وَتَدَابُّ الطَّوَافِ وَمَا كَانَ بِسَبِيلِهَا - تَلْكَ هِيَ الْمَعَاوِلُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي لَا يَهْدُمُ  
 غَيْرُهَا بِنَاءَ الشَّرْقِ.

فَلَيَكُنْ دَائِمًا شَعَارُنَا - نَحْنُ الشَّرَقَيْنَ - هَذِهِ الْكَلْمَةُ: أَخْلَاقُنَا قَبْلَ مَدْنِيَّتِهِمْ .

(۱) اَحْتَرَفُوا: اَتَخْذَلُوا حَرْفَةً.

(۲) التَّدَلِيسُ: الْكَذْبُ.

## قُلْتُ لِنفْسِي وَقَالَتْ لِي . . .

قُلْتُ لِنفْسِي : ويَحِكِ يا نفْسُ ! مالي أتحاَمَلُ عَلَيْكِ ؟ فإذا وَفَيْتَ بِمَا فِي  
وَسْعِكِ أرْدَثْتَ مِنِّي مَا فَوْقَهُ وَكَلْفَتُكِ أَنْ تَسْعِي ؛ فَلا أَزَالُ أُغْيِثُكِ<sup>(١)</sup> مِنْ بَعْدِ كَمَالِ  
فِيمَا هُوَ أَكْمَلُ مِنْهُ ، وَبَعْدَ الْحَسَنِ فِيمَا هُوَ الْأَحْسَنُ ؛ وَمَا أَنْفَكُ أَجْهَدُكِ كَلْمًا راجَعَكِ  
النَّشَاطُ ، وَأَضْنَيْكِ كَلْمًا ثَابَتِ الْقُوَّةُ ؛ إِنْ تَكُنْ لَكَ هُمُومٌ فَأَنَا أَكْبَرُهَا ، إِنْ إذا سَاوَرَتْكِ  
الْأَحْزَانُ فَأَكْثُرُهَا مِمَّا أَجْلِبُ عَلَيْكِ .

أَنْتَ يا نفْسُ سائِرَةٌ عَلَى التَّهْجِيجِ ، وَأَنَا أَعْتَسِفُ<sup>(٢)</sup> بِكِ أَرِيدُ الظِّيرَانَ لَا السَّيْرِ ،  
وَأَبْتَغِي عَمَلَ الْأَعْمَارِ فِي عُمْرِ ، وَأَسْتَحْثِكِ مِنْ كُلِّ هَجْعَةٍ<sup>(٣)</sup> رَاحَةً بِفَجْرِ تَعْبِ جَدِيدِ ،  
وَكَانَيْ لَكِ زَمْنٌ يُمَادُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَمَا يَبْرُحُ يَثْبِقُ عَلَيْكِ مِنْ ظَلَامٍ بِنُورٍ وَمِنْ نُورٍ  
بِظَلَامٍ ؛ لِيُهُمْنِي لَكِ الْقُوَّةُ الَّتِي تَمْتَدُ بِكِ فِي التَّارِيخِ مِنْ بَعْدِ ، فَتَذَهَّبَيْنَ حِينَ تَذَهَّبِيْنَ  
وَيَعِيشَ قَلْبُكِ فِي الْعَالَمِ سَارِيًّا بِكَلْمَاتِ أَفْرَاجِهِ وَأَحْزَانِهِ .

وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ : أَمَّا أَنَا فَإِنِّي مَعَكَ دَأْبًا كَالْحَبِيبَةِ الْوَفِيَّةِ لِمَنْ تُحِبُّهُ : تَرِى  
خَصْوَعَهَا أَحْيَانًا هُوَ أَحْسَنُ الْمَقاوِمَةِ ؛ وَأَمَّا أَنْتَ فَإِنَّا لَمْ تَكُنْ تَعْبُ وَلَا تَزَالُ تَتَعَبُ  
فَكِيفَ تُرِينِي أَنَّكَ تَتَقدَّمُ وَلَا تَزَالُ تَتَقَدَّمُ ؟

لَيَسَّتْ دُنْيَاكِ يا صَاحِبِي ما تَجْدُهُ مِنْ غَيْرِكِ ، بَلْ مَا تُوْجِدُهُ بِنَفْسِكِ ؛ إِنْ لَمْ تَزِدْ  
شَيْئًا عَلَى الدُّنْيَا كَثُتْ أَنْتَ زَائِدًا عَلَى الدُّنْيَا ؛ إِنْ لَمْ تَدَعْهَا أَحْسَنَ مِمَّا وَجَدْتَهَا فَقَدْ  
وَجَدْتَهَا وَمَا وَجَدْتَكِ ؛ وَفِي نَفْسِكِ أَوْلُ حدُودِ دُنْيَاكَ وَآخِرُ حدُودِهَا . وَقَدْ تَكُونُ دُنْيَا  
بعْضِ النَّاسِ حَانُوتًا صَغِيرًا ، وَدُنْيَا الْآخَرِ كَالْقَرْزِيَّةِ الْمُلْمَلَمَةِ<sup>(٤)</sup> ، وَدُنْيَا بَعْضِهِمِ  
كَالْمَدِيْنَةِ الْكَبِيرَةِ ؛ أَمَّا دُنْيَا الْعَظِيمِ فَقَارَّةً بِأَكْمَلِهَا ، وَإِذَا أَنْفَرَدَ أَمْتَدَّ فِي الدُّنْيَا فَكَانَ هُوَ  
الدُّنْيَا .

(١) أَعْنَتْ : أَتَعْبُ .

(٢) اَعْتَسِفَ : عَنْفَ .

(٣) هَجْعَةٌ : رَقْدَةٌ .

(٤) الْمُلْمَلَمَةُ : يَقْصُدُ بِذَلِكَ الْقَرْيَةَ الصَّغِيرَةَ .

والقوّة يا صاحبي تغتدي بالشّعب والمعاناة؛ فما عانيتهُ الْيَوْمَ حركةً من جسمك، أَلْفِيَتَهُ<sup>(١)</sup> غداً في جسمك قوّةً من قوى اللحم والدم. وساعة الراحة بعد أيام من التعب، هي في لذتها كأيام من الراحة بعد تعب ساعة. وما أشيء الحي في هذه الدنيا ووشك أنقطاعه منها، بمن خلق ليعيش ثلاثة أيام معدودة عليه ساعاتها ودقائقها وثوانيتها؛ أفتراه يعقل فتقذرها ثلاثة أعوام، ويدهب يُسرف فيها ضرباً من لهو ولعبه ومجونه، إلا إذا كان أحمق إلى نهاية الحُمُق؟

اتعب تعبك يا صاحبي، ففي الناس تعب مخلوق من عمله، فهو ليس هين مسوى تسوية؛ وفيهم تعب خالق عمله، فهو جبار متمرّد له الْقُهْرُ والْغَلْبَةُ. وأنت إنما تكُن لتسمو بروحك إلى هموم الحقيقة العالية، وتسمو بجسمك إلى مشقات الروح العظيمة؛ فذلك يا صاحبي ليس تعباً في حفر الأرض، ولكنه تعب في حفر الكنز.

اتعب يا صاحبي تعبك؛ فإنّ عناء الروح هو عمرها؛ فأعمالك عمرك الروحاني، كعمر الجسم للجسم؛ وأحد هذين عمر ما يعيش، والآخر عمر ما سيعيش.

\* \* \*

قلت لنفسي: فقد مللت أشياء وتركت بأشياء. وإن عمل التغيير في الدنيا لهو هدم لها كلّما بنيت، ثم بناؤها كلّما هدمت؛ فما من شيء إلا هو قائم في الساعات الواحدة بصورتين معاً؛ وكم من صديق خلطته بالنفس يذهب فيها ذهاب الماء في الماء، حتى إذا مر يوم، أو عهد كاليلوم، رأيت في مكانه إنساناً خيالياً كمسألة من مسائل التّحاة فيها قولان...! فهو يحمل في وقت واحد تأويل ما أظن به من خير، وما أتوقع به من شر! وكم من اسم جميل إذا هجس<sup>(٢)</sup> في خاطري قلت: آه، هذا الذي كان...!

أما - والله - إن ثياب الناس لتجعلهم أكثر تشابهاً في رأي النفس، مما يجعلهم وجوههم التي لا تختلف في رأي العين: وإنّ لأرجي العالم أحياناً كالقطار السريع منطلقًا بركبته وليس فيه من يقوده، وأرجي الغفلة المفرطة<sup>(٣)</sup> قد بلغت من هذا الناس مبلغ من يظن أنه حي في الحياة كالموظف تحت التجربة، فإذا قضى المدة قيل له: ابدأ من الآن. كأنه إذا عاش يتعلّم الخير والشرّ، ويدرك ما يصلح وما لا

(١) أَلْفِيَتَهُ: وجدته.

(٢) هجس: طرأ على بالي.

(٣) المفرطة: الزائدة.

يصلح، وتأتيه من عمره إلى النهاية المحدودة - راجع من بعدها يعيش متقطعاً على  
أستواء وأستقامه، وفي إدراك وتميز. مع أنَّ الخرافَة نفسها لم تقبل قطَّ أنْ يُعدَّ منها  
في أوهام الحياة أنَّ رجلاً بلغ الثمانين أو التسعين وحان أجلُه فأصبحوا لم يجدوه  
متناً في فراشه؛ بل وجده مولوداً في فراشه...!

وقالَت لي النفس: وأنت ما شئت بالناس والعالم؟ يا هذا ليس لمصباح  
الطريق أن يقول: «إنَّ الطريق مظلم». إنما قوله إذا أراد كلاماً أن يقول: «هأنذا  
مضيء».

والحكيم لا يضجر ولا يضيق ولا يتململ، كما أنه لا يسخف ولا يطيش ولا  
يسترسل<sup>(١)</sup> في كذب أوهم؛ فإنَّ هذا كلَّه أثرُ الحياة البهيمية في هذه البهيمة  
الإنسانية، لا أثرُ الروح القوية في إنسانها. والحيوان هو الذي يجوع ويشعُّ لا  
النفس. وبين كلِّ شيئين مما يتعَوَّرُ الحيوانية - كالخلو والأملاء، واللذة والألم -  
تعمل قوى الحيوان أشياءها الكثيرة التي تتسلطُ بها على النفس، لتشحطُها من مرتبة  
إلى أن تجعلها كنفوس الحيوان؛ ولهذا كان أول الحكمة ضبط الأدوات الحيوانية  
في الجسم، كما توضع اليُد العالمة على مفاتيح القطار المنطلق يتسعُّ مرجله  
ويغلي.

اعمل يا صاحبي عملك؛ فإذا رأيت في العاملين من يضجر فلا تضجز مثله،  
بل خذ أطمئنانه إلى اطمئنانك، ودعه يخلو وتضاعف أنت.

إنه ليُوشِكُ أن يكون في الناس ناسٌ (كالبُنوك)؛ هذه مُستَوَدَعاتٌ للمال  
تحفظُه وتُخرجُ منه وتشمرُه، وتلك مستودعات للفضائل تحفظُها وتخرجُ منها  
وتزيدها. وإفلاسُ رجل من أهل المال، هو إطلاقُ النكبة مُسدسها على رجلٍ  
قتله؛ ولكنَّ إفلاسَ (بنك) هو إطلاقُ النكبة مدفعها الكبير على مدينة تدمُّرها.

\* \* \*

قلت لنفسي: فما أشدَّ الألم في تحويل هذا الجسد إلى شبه روح مع الروح!  
تلك هي المعجزة التي لا توجد في غير الآباء، ولكنَّ العمل لها يجعلها كائناً  
موجودة. والأسد المحبوس محبوسة فيه قوته وطياعه؛ فإنَّ زال الوجودُ الحديدي  
من حوله أو وهنت<sup>(٢)</sup> ناحية منه، انطلق الوحش. والرجل الفاضل فاضل ما دام في

(٢) وهنت: ضعفت.

(١) استرسل: تمادي واستمر.

فَقَصِّهِ الْفَكْرَى، وَهُوَ مَا دَامَ فِي هَذَا الْقَفْصِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ دَائِمًا نَمُوذْجًا مَعْرُوضًا لِلتَّنْقِيقِ<sup>(١)</sup> الْمُمْكِنِ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ: تُصْبِيْهُ الْسَّيِّئَةُ مِنَ النَّاسِ لِتُخْتَبِرَ فِيهِ الْحَسَنَةُ، وَتَبْلُوْهُ الْخِيَانَةُ لِتَجَدُّدِ الْوَفَاءِ، وَيَكْرُهُ الْبَعْضَ لِيَقْبَلُهُ بِالْحُبُّ، وَتَأْتِيهِ الْلَّعْنَةُ لِتَجَدُّدُ الْمَغْفِرَةِ؛ وَلَهُ قَلْبٌ لَا يَتَعْبُ فَيَبْلُغُ مَنْزَلَةً إِلَّا أَبْتَدَأَ الْتَّعْبَ لِيَبْلُغُ مَنْزَلَةً أَعْلَى مِنْهَا، وَلَهُ فَكْرٌ كَلَّمَا جَهَدَ فَأَدْرَكَ حَقْيَقَةَ كَانَتِ الْحَقْيَقَةُ أَنْ يَجْهَدَ فِيْدُرَكَ غَيْرَهَا.

وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ: إِنَّ مَنْ فَاقَ النَّاسَ بِنَفْسِهِ الْكَبِيرَةَ كَانَتْ عَظَمَتُهُ فِي أَنْ يَفْوَقَ نَفْسَهُ الْكَبِيرَة؛ إِنَّ الشَّيْءَ الْنَّهَائِيَّ لَا يُوجَدُ إِلَّا فِي الصَّعَادِيَّةِ وَالشَّرَّ، أَمَّا الْخَيْرُ وَالْكَمالُ وَعَظَائِمُ النَّفْسِ وَالْجَمَالِ الْأَسْنَى، فَهَذِهِ حَقَائِقٌ أَزْلِيَّةٌ وُجِدَتْ لِنَفْسِهَا: كَالْهَوَاءِ يَتَنَفَّسُهُ كُلُّ الْأَحْيَاءِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ وَلَا يَتَنَاهِي، وَلَا يَعْرِفُ أَنْ تَكُونَ تَلْكَ الْصَّفَاتُ مِنْبَعَةً إِلَى النُّفُوسِ مِنْ أَنْوَارِ الْمَلَائِكَةِ، وَبِهَذَا كَانَ أَكْبَرُ النَّاسِ حَظًّا مِنْهَا هُمُ الْأَنْبِيَاءُ الْمَتَّصِلُونَ بِتَلْكَ الْأَنْوَارِ.

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ أَنْ جَعَلَ فِي كُلِّ النُّفُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَصْلًا صَغِيرًا يَجْمِعُ فِكْرَةَ الْخَيْرِ وَالْكَمالِ وَعَظَائِمِ النَّفْسِ وَالْجَمَالِ الْأَسْنَى، وَقَدْ تَعَظَّمُ فِيهِ هَذِهِ الصَّفَاتُ كُلُّهَا أَوْ بَعْضُهَا، وَقَدْ تَصَعَّرُ فِيهِ بَعْضُهَا أَوْ كُلُّهَا: إِلَّا وَهُوَ الْحُبُّ.

لَا بَدَّ أَنْ تَمَرَّ كُلُّ حَيَاةٍ إِنْسَانِيَّةٍ فِي نُوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْحُبُّ؛ مِنْ رِقَّةِ النَّفْسِ وَرِحْمَتِهَا، إِلَى هَوَى النَّفْسِ وَعِشْقِهَا.

وَإِذَا بَلَغَ الْحُبُّ أَنْ يَكُونَ عِشْقًا، وَضَعَ يَدُهُ عَلَى الْمَفَاتِيحِ الْعَصِيبَةِ لِلنَّفْسِ، وَفَتَحَ لِلْعَظَائِمِ وَالْمَعْجَزَاتِ أَبْوَابَهَا؛ حَتَّى إِنَّهُ لِيَجْعَلُ الْحُرَافَةَ الْفَارَغَةَ مَعْجَزَةً دَقِيقَةً، وَيَمْلأُ الْحَيَاةَ بِمَعْانِي لَمْ تَكُنْ فِيهَا مِنْ قَبْلِ، وَيَصْبِحُ سُرُّ هَذِهِ الْحُبُّ لَا يَتَنَاهِي؛ إِذَا هُوَ سُرُّ لَا يُدْرِكُ وَلَا يُعْرِفُ.

إِجْهَدْ جُهْدَكَ يَا صَاحِبِي، فَمَا هُوَ قَفْصُكَ الْفَكْرَى ذَلِكَ الشَّعَاعُ الَّذِي يَحْبِسُكَ، وَلَكِنَّهُ صَقْلُ<sup>(٢)</sup> النَّفْسِ لِتَلْقَى أَنْوَارَ، وَلَا بُدَّ لِلْمَرْأَةِ مِنْ ظَاهِرٍ غَيْرِ ظَاهِرٍ الْحَجَرِ لِتَكُونَ بِهِ مَرْأَةً.

\* \* \*

قَلْتُ لِنَفْسِي: فَمَا أَشَدَّهُ مَضَضًا<sup>(٣)</sup> أَعْانِيهِ! إِنَّ أَمْرِي لِيَذْهَبُ فُرْطًا<sup>(٤)</sup> أَكَلَمَا

(١) التَّنْقِيقُ: التَّمْيِيزُ بَيْنَ الصَّالِحِ وَالظَّالِحِ.

(٣) مضضًا: المأ وعذاباً.

(٤) صقل: تهذيب.

(٤) فُرْطًا: مجاوزًا الحد.

أَبْتَغَيْتُ مِنَ الْحَيَاةِ مَرْحًا أَطْرَبَ لَهُ وَاهْتَرَ، جَاءَتِي الْحَيَاةُ بِفِكْرَةٍ أَسْتَكِدُ<sup>(١)</sup> فِيهَا وَأَدَابٌ؟ أَهْذَا السُّرُورُ الَّذِي لَا يَزَالُ يَقْعُدُ بَيْنَ النَّاسِ هُوَ الَّذِي لَا يَكَادُ يَقْعُدُ لَيْ؟ وَهُلْ أَنَا شَجَرَةٌ فِي مَغْرِسِهَا: تَنْمُو صَاعِدَةً بِفَرْوَعَهَا، وَنَازِلَةً بِجَذُورِهَا، غَيْرُ أَنَّهَا لَا تَبْرُخُ مَكَانَهَا؟ أَوْ أَنَا تِمَثَالٌ عَلَى قَاعِدِهِ: لَا يَتَزَحَّرُ عَنْهَا إِلَّا سَاعَةً لَا يَكُونُ تِمَثَالًا، وَلَا يَدْعُهَا حَتَّى تَدْعُهُ مَعْنَى الْعَظَمَةِ الَّتِي نُصِبُّ لَهَا؟

قَالَتْ لِي النَّفْسُ: وَيَحْكُ! لَا تَطْلُبْ فِي كُونِكَ الصَّغِيرِ مَا لَيْسَ فِيهِ؛ إِنَّ النَّاسَ لَوْ أَرْتَفَعُوا إِلَى السَّمَاءِ وَتَقْلِبُوا فِيهَا كَمَا يَسِيغُ<sup>(٢)</sup> أَهْلُ قَارَّةٍ مِنَ الْأَرْضِ فِي قَارَّةٍ غَيْرِهَا، وَأَبْتَغُوا أَنْ يَحْمِلُوا مَعَهُمْ مِمَّا هُنَاكَ تَذَكَّرَ أَصْغِيرًا إِلَى الْأَرْضِ - لَوْجَدُوا أَصْغَرَ مَا هُنَالِكَ أَكْبَرَ مِنَ الْأَرْضِ كُلُّهَا؛ فَأَنْتَ سَائِنُّ فِي سَمَاوَاتِ.

أَنْتَ كَالنَّايمَ: لَهُ أَنْ يَرَى وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا مِمَّا يَرَى إِلَّا وَضَفَّهُ، وَجَحْكَمَتَهُ، وَالسُّرُورُ بِمَا أَتَدَّ مِنْهُ، وَالْأَلْمَ بِمَا تَوَجَّعَ لَهُ.

لَنْ تَكُونَ فِي الْأَرْضِ شَجَرَةٌ بِرْجَلِينِ تَذَهَّبُ هُنَا وَهُنَاهَا، وَلَكِنَّ الشَّجَرَةَ تُرْسِلُ أَثْنَارَهَا يَتَنَاقِلُهَا النَّاسُ، وَهِيَ تُبَدِّعُ الشَّمَارَ إِبْدَاعَ الْمُؤْلِفِ الْعَبْرِيِّ مَا يُؤْلِفُهُ بِأَشْدَدِ الْكَدْ وَأَعْظَمِ الْجَهَدِ، مُطْلِقَةً ضَمِيرَهَا فِي الْفِكْرَةِ الْأَصْغِيرَةِ، تَعْقِدُهَا شَيْئًا شَيْئًا، ثُمَّ تَعُودُ عَلَيْهَا بِالْزِيَادَةِ، وَلَا تَرْزَالُ كُلَّ وَقْتٍ تَعُودُ عَلَيْهَا حَتَّى تَسْتَفِرَ<sup>(٣)</sup> أَقْصَى الْقُوَّةِ؛ ثُمَّ يَكُونُ سُرُورُهَا فِي أَنْ تَهْبَ فَائِدَتَهَا، لَأَنَّهَا لِذَلِكَ وُجِدَتْ.

إِنَّ فِي الشَّجَرَةِ طَبِيعَةً صَادِقَةً لَا شَهْوَةً مَكْذُوبَةً؛ فَالْحَيَاةُ فِيهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ الْحَيَاةُ فِي الإِنْسَانِ عَلَى مَجَازِهَا؛ وَشَرْطُ الْمَجَازِ الْخَيَالُ وَالْمِبَالَغَةُ وَالْتَّلَوِينُ؛ وَلَكِنَّ مَتَى أَخْتَارَ اللَّهُ رَجْلًا فَأَقْرَرَ فِيهِ سِرَّاً مِنْ أَسْرَارِ الْطَّبِيعَةِ الْصَّادِقَةِ، وَوَهَبَ لَهُ الْعَاطِفَةُ الْقَادِرَةُ التِّي تَصْنَعُ ثَمَارَهَا - فَقَدْ غَرَسَهُ شَجَرَةً فِي مَثَبِّتِهَا لَا مَفْرَأً وَلَا مَنْدُوحةً<sup>(٤)</sup>، وَقَدْ يُخَيِّلُ لَهُ ضَعْفُ طَبِيعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ أَحِيَا نَهْرَةً الْمَجَدِ الَّتِي تَعْلُوَهُ وَتَتَأْلُقُ كَشْعَاعَ الْكَوْكَبِ، هِيَ تَعْبُهُ وَضَجَّرُهُ، أَوْ أَثْرُ أَنْخَذَالِهِ<sup>(٥)</sup> وَالْمِيَهُ وَمَسْكَتِهِ؛ وَهَذَا مِنْ شَقَاءِ الْعُقْلِ؛ فَإِنَّهُ دَائِمًا يُضِيفُ شَيْئًا إِلَى شَيْءٍ، وَيَخْلِطُ مَعْنَى بِمَعْنَى، وَلَا يَتَرَكُ حَقِيقَةً عَلَى مَا هِيَ؛ كَانَ فِيهِ مَا فِي الْطَّفْلِ مِنْ غَرِيزَةِ التَّقْلِيدِ؛

(١) أَسْتَكِدَ: أَتَعَبُ.

(٢) يَسِيغُ: يَتَقْلِلُ وَيَرْتَحِلُ.

(٤) لَا مَنْدُوحة: لَا مَلْجَا.

(٥) اَنْخَذَاله: اَنْهَازَمَهُ.

(٣) تَسْتَفِرَ: تَخَلُّصُ.

والعقل لا يرى أمامه إلا الإلهية، فهو يُقللُها في مُداخلة الأشياء بعضها في بعض، لإيجاد الأسرار بعضها من بعض.

ومن ثم كانت الحقيقةُ الصريحةُ أثبتَةً مذعأةً للملل العقلي في الإنسان، لا يكادُ يُقيِّمُ عليها أو يتقدِّمُ بها، فما نال شيئاً إلا ليطمع في غيره، وما فاز بلذة إلا ليرهد فيها، وأجل ما أحبه الإنسان أن يناله، فإذا ناله وقع فيه معنى موته، وبدأ في النفس عمرًا آخرًا من حالة أخرى، أو مات ولم يبُدُّ؛ فلا بد لهذا الإنسان مع كل صوابٍ من جزءٍ من الخطأ، فإن هو لم يجد خطأ في شيء اتفق لك لنفسه<sup>(١)</sup> الخطأ المضحك في شيءٍ روايةٍ خيالية.

إنه لشُعْرٌ سخيف بالغ السخافة أن يتخيل الغريق مفكراً في صين سمكة رأها... ولكن هذا من أبلغ البلاغة عند العقل الذي يبحث عن وهم يُضيقه إلى هذه الحقيقة ليصحح منها، كما يبحث لنفسه أحياناً في أجمل حقائق اللذة عن اليم يتالم به ليغرس فيه!

\* \* \*

قلت لنفسي: فهل ينبغي لي أن أحرق دمي لأنني أفكّر، وهل أظل دائمًا بهذا التفكير كالذي ينظر في وجه حسناء بمنظارٍ مكبر؟ لا يُريه ذلك الوجه المعشوّق إلا ثقوباً وتخریماً كأنه خشبٌ ترتعش منها مساميرٌ غليظة...! فلا يجد المسكين هذه الحقيقة إلا ليفقد ذلك الجمال؟ وهل بُدُّ من الشبه بين بعض الناس وبين ما أرتكَدَ له من عملٍ يحيا به؟ فلا يكون الحوذى<sup>(٢)</sup> حوذياً إلا لشبهه بين نفسه وبين الخيل والبغال والحمير...؟

وقالت لي النفس: إن فأس الحطاب لا تكون من أدلة الطبيب؛ فخذ لكل شيء أداته، وكُنْ جاهلاً أحياناً، ولكن مثل الجهل الذي يصفع لوجه الطفل بشاشته الدائمة؛ فهذا الجهل هو أكبر علم الشعور الدقيق المرهف، ولو لا لهلك الأنبياء والحكماء والشعراء غمماً وكمداً، ولكانوا في هذا الوجود، على هذه الأرض، بين هذه الحقائق - كالذي قُيِّدَ وخُبس في رهج<sup>(٣)</sup> ثُثيرهُ القدم والخف والحافر: لا يتنفس إلا الغبار يثار من حوله إلى أن يقضى عليه.

(١) اتفك لنفسه: كذب واخترع ليسوغ ما هو عليه.

(٢) الحوذى: سائق العربة يجرّها حصان.

(٣) رهج: شعب.

إجهلْ جهلك يا صاحبي في هذه الشهواتِ الخسيسة؛ فإنَّها أعلمُ الخبيث  
الذِي يُفْسِدُ الروح، وأعرُفُ كيف تقولُ لِرُوحِك الطَّفْلَةِ في ملائكتِها حينَ تُساوِرُك  
الشهواتِ: هذا ليسَ لي؛ هذا لا ينبغي لي.

إنَّ الروح الكبيرة هي في حقيقتها الطفلُ الملائكي.

وعِلْمُ خسائِسِ الحياة يجعلُ للإنسان في كلِّ خسيسٍ نفساً تتعلَّقُ بها، فيكونُ  
المسكينُ بينَ نفسيينِ وثلاثِ وأربعَ، إلى ثلاثينَ وأربعينَ كلُّهُنَّ يتَنَازَّعُونَ، فيُضيِّعُ بهؤُلَّا  
الكثرة، ويُصْبِحُ بعضاً بلاه على بعض، وتشَعَّلُهُ الفُضُولُ، فيعودُ لها كالمزبلةِ لما  
أُلْقِيَ فيها، ويُنْهَى<sup>(١)</sup> في نفسهِ الطبيعيةِ حِسْنُ الفرحِ بِجماليِ الطبيعةِ، كما يُمحَقُّ في  
المزبلةِ معنى النظافةِ ومعنى الحسُّ بها.

هذه الأنفسُ الخياليةُ في هذا الإنسانِ المنكود، هيَ الأرواحُ التي يتَنَفَّخُها في  
مصالحِهِ، فتَجْعَلُها مصالَبَ حَيَّةٍ تعيشُ في وجودِهِ وتعملُ فيهِ أعمالَهَا، ولو لاها  
لمَاتْ في نفسهِ مطامعُ كثيرة، فماتَتْ لَهُ مصالَبُ كثيرة.

أنظر بالروح الشاعرة، تَرَ الكونَ كُلَّهُ في سمائهِ وأرضهِ أنسجاماً واحداً ليسَ  
فيهِ إلَّا الجمالُ والسحرُ وفتنةُ الْطَّربِ، وأنظر بالعقلِ العالِمِ، فلنَ تَرَ في الكونِ  
كُلَّهُ إلَّا موادُ عِلْمِ الطبيعةِ والكيمياءِ.

ومَدَى الروحِ جمالُ الكونِ كُلَّهُ؛ ومَدَى العقلِ قطعةٌ من حَجَرٍ، أو عَظَمَةٌ من  
حيوانٍ، أو نَسِيجةٌ من نباتٍ، أو فُلَذَةٌ من معدنٍ، وما أشَبهُها.

إجهلْ جهلك يا صاحبي؛ ففي كلِّ حُسْنٍ عَزَلَ بشرطٍ إلَّا تكونَ العاشقةِ  
الطامِعِ، وإلَّا أَصْبَتَ في كلِّ حُسْنٍ هَمَّا ومشَغَلةً . . . .

\* \* \*

قلْتُ لنفسي: إلى الآن لم أقلُ لكِ ذلك المعنى الذي كتمتهُ عنكِ.  
وقالتَ لي النفس: وإلى الآن لم أقلُ لكِ إلَّا جوابَ ذلك الذي كتمتهُ عنِّي . . .

(١) يُمحَقُّ: يُمحَوُ.

## الاتحار

### ١

حدَّثَ الْمُسَيْبُ بْنُ رَافِعَ الْكُوفِيَّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا يَوْمًا فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ، وَمَعِي سَعِيدُ بْنُ عَشَّامَ، وَمَجَاهِدَ، وَدَاوِدَ الْأَزْدِيَّ وَجَمِيعَهُ - أَقْبَلَ فَتَىٰ فَجَلَسَ قَرِيبًا مَثَّا، وَكَانَ تَلْقَاءَ وَجْهِي؛ لَا أَمْدُ نَظَرِي إِلَّا أَنْطَلَقَ فِي سَمْتِهِ<sup>(١)</sup> وَوَقَفَ عَلَيْهِ، وَكَنَّا نَتَحَدَّثُ فِرَائِيَّةً يَتَسَمَّعُ إِلَى حَدِيثِنَا؛ فَلَمَّا تَكَلَّمَ سَعِيدًا - وَكَانَ خَافِتَ الصَّوْتُ مِنْ عَلَيْهِ، وَكَنَّا نَسْمِيهِ النَّمَلَةَ الصَّخَابَةَ - رَأَيْتُ الْفَتَىٰ يَتَزَحَّفُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّىٰ صَارَ بِحِلْ ثَيَقُّ فِي سَمَاعِهِ حَسِيسُ تَمَلِّتِنَا.

وَكَانَ سَعِيدٌ يَقُولُ: إِجْتَزَتْ<sup>(٢)</sup> أَنَا وَالشَّعْبِيُّ أَمْسِ بِعِمْرَانَ الْخِيَاطَ، فَمَا زَحَّهَ الشَّيْخُ فَقَالَ لَهُ: عَنَّدَنَا حَبٌ<sup>(٣)</sup> مَكْسُورٌ، تَخْيِطُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنْ كَانَ عَنْدَكَ خِيطٌ مِنْ رِيحٍ! فَقُلْتُ أَنَا: فَأَذْهَبْ فِجْحَنَّمَ بِالْمَغْزَلِ الَّذِي يَغْزِلُ الْهَوَاءَ لِنَضْعِ لَكَ الْخِيطَ.

قَالَ مَجَاهِدٌ: هَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ فِي تَنَادِي شَيْخِنَا وَمَا يَتَفَقَّلُ لَهُ؛ أَخْبَرَنِي أَنَّ رَجَلًا جَاءَهُ فِي مَسَالَةٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْبَيْتَ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ امْرَأَتِهِ؛ فَقَالَ الرَّجُلُ أَيُّكُمَا الشَّعْبِيُّ...؟ فَأَوْمَأَ الشَّيْخُ إِلَى امْرَأَتِهِ وَقَالَ: هَذِهِ...!

قَالَ الْمُسَيْبُ: وَضَحَّكَنَا جَمِيعًا، وَأَخْدَنَا نَظَرِي الْغَلَامَ إِذَا هُوَ نَاكِشُ حَزَنًا وَهُمَّا، وَكَانَ لَا يَتَسَمَّعُ إِلَيْنَا لِيَسْمَعُ، بَلْ لِيَشْغُلَ نَفْسَهُ عَنْ شَيْءٍ فِيهَا، فَتَتَوَزَّعُ خَوَاطِرُهُ، فَيَبْدُدُ أَجْتِمَاعُهَا عَلَى هَمَّهُ بِصَوْتٍ مِنْ هَنَا وَصَوْتٍ مِنْ هَنَا، كَمَا يَفْعَلُ الْمَحْزُونُ فِي مَغَالِبِ الْحَزَنِ وَمَدَائِعِهِ: يَشْغُلُ عَنْهُ بَصَرَهُ وَقَلْبَهُ وَسَمْعَهُ جَمِيعًا، فَيَكُونُ الْحَزَنُ فِيهِ وَكَانَ بَعِيدٌ مِنْهُ.

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: أَمْرُ أَمَاتِ الضِّحْكَ فِي هَذَا الْفَتَىٰ وَكَسَرَ حِدَتَهُ<sup>(٤)</sup> وَشَبَابَهُ.

(١) سَمْتُهُ: حَسْنُ هِيَتِهِ وَمَنْظَرِهِ فِي الدِّينِ.

(٢) اجْتَزَتْ: التَّقْيَةُ.

(٣) حَبٌّ، بَكْسَرُ الْحَاءِ هُوَ الزِّيرُ.

(٤) حِدَتَهُ: قُوَّتِهِ.

ئَمْ تَحُولُّ إِلَيْهِ وَقُلْتُ : رَأَيْتَكَ يَا بُنْيَ مَقْبَلًا عَلَيْنَا كَالْمُنْصَرِفِ عَنَّا ؛ فَمَا بِالْكَ لَمْ  
تَضْحَكْ وَقَدْ ضَحَكْنَا جَمِيعاً؟

قال : إِلَيْكَ عَنِي يَا هَذَا ؛ فَأَيْنَ مِنِي الْضَّحْكُ وَأَنَا عَلَى شَفِيرٍ<sup>(۱)</sup> الْقَبْرِ ، وَرُوحُ  
الْتَّرَابِ مَالِيَّةُ عَيْنِيَ فِي كُلِّ مَا أَرَى ، وَكَانَ حُفْرَتِي أَبْتَلَعَتِ الدُّنْيَا الَّتِي أَنَا فِيهَا  
لِتَأْخُذَنِي فِيهَا ، وَأَنَا السَّاعَةُ مَيْتٌ حَيٌّ ؛ رِجْلٌ فِي الدُّنْيَا وَرِجْلٌ فِي الْآخِرَةِ !

قُلْتُ : فَأَعْلَمْنِي مَا بَكِ يَا بُنْيَ ، فَلَقِدْ أَحْسَبْتُ وَلَدًا لِي كَانَ فِي مِثْلِ سِنِّكَ  
وَشَبَابِكَ وَلَمْ أُرْزِقْ غَيْرَهُ ، قَلْبِي بَعْدَهُ مَرِيضٌ بِهِ ، يَتَوَسَّمُ مُفَرَّقاً فِي لِدَاتِهِ ، مُتَوَهِّمًا أَنَّ  
وَجْهَهُمْ تَجْمَعَهُ بِمَلَامِحِهِ ؛ فَأَنَا مِنْ ذَلِكَ أَحْبَبْهُمْ جَمِيعاً وَأَطْيَلُ الْنَّظَرِ إِلَيْهِمْ وَالْتَّأْمَلَ  
فِي وَجْهِهِمْ ، وَلَسْتُ أَرَى أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا كَانَ لَهُ وَلِقَلْبِي حَدِيثٌ ! إِنَّ رَأْيَتَهُ حَرِينَا  
مِثْكَ تَقْطَعْتُ لَهُ مِنْ إِشْفَاقِ وَرَحْمَةِ ، وَطَالَعْنِي فَتَايَ فِي مِثْلِ هُمْ وَحْزِنَهُ وَانْكِسَارِهِ ؛  
فَيَعُودُ قَلْبِي كَالْعَيْنِ الَّتِي غَشَّاهَا الْدَّمْعُ ، تَحْمِلُ أَثْرَ الْحَزْنِ وَمَعْنَاهُ وَسَرَّهُ ؛ فَبُشِّنِي مَا  
تَجَدُّ يَا بُنْيَ ، فَلَعِلَّ لِي سَبِّا إِلَى كَشْفِ ضُرُّكَ أَوْ إِسْعَافِكَ بِحاجَتِكَ ؛ وَلَعِلَّكَ تَكُونُ  
قَدْ خَرَنْتَ مِنْ أَمْرِ قَرِيبِ الْمَتَنَاؤِلِ هِينَ الْمَحَاوَلَةُ ، لَمْ يَجْعَلْهُ عَنْدَكَ كَبِيرًا أَنَّهُ كَبِيرٌ ،  
وَلَكِنْ أَنَّكَ أَنْتَ صَغِيرٌ .

قَالَ الْفَتَى : مَهْلَأًا يَا عَمَّ ، إِنَّ مَا نَزَلَ بِنَا مِمَّا تَنْقَطَعُ عَنْهُ الْجِيلَةُ وَلَا تَنَقَّادُ فِيهِ  
الْأَوْسَائِلُ ، وَلَا عَلاَجٌ مِنْهُ إِلَّا بِالْمَوْتِ يَأْخُذُهَا وَيَأْخُذُهُ !

قُلْتُ : يَا بُنْيَ ، هَذِهِ كَلْمَةٌ مَا أَحْسَبُ أَحَدًا يَقُولُهَا إِلَّا مِنْ أَخْدَ لِلْقَتْلِ بِجَنَاحِيَّهِ  
وَلَمْ يَعْفُ أَهْلُ الدَّمِ ، فَهَلْ جَنِيتَ أَوْ جَنِي أَبُوكَ عَلَى أَحَدٍ ؟

قَالَ : إِنَّ الْأَمْرَ قَرِيبٌ مِنْ قَرِيبٍ ، فَإِنِّي تَرْكَتُ أَبِي السَّاعَةَ مُجْمِعًا عَلَى إِزْهَاقِ  
نَفْسِهِ ، وَقَدْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ الْدَّارَ وَأَسْتَوْثَقَ<sup>(۲)</sup> مِنَ الْبَابِ !

قَالَ الْمُسَيْبَ : فَكَانَمَا لَدَغْتِنِي حَيَّةٌ بِهَذِهِ الْكَلْمَةِ ، وَأَكْبَرْتُ أَنْ يَكُونَ رَجُلٌ  
مُسْلِمٌ يَقْتَلُ نَفْسَهُ : فَتَنَاهَضْتُ ، وَلَكِنَّ الْغَلامَ أَمْسَكَ بِي وَقَالَ : إِنَّهُ لَا يَزَالُ حَيًّا ،  
وَسِيقْتَلُ نَفْسَهُ مَتَى أَظْلَمَ الْلَّيلَ وَهَدَأَتِ الرُّجْلِ .

قُلْتُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، إِنَّ فِي النُّورِ عَقْلًا ، وَلَكِنْ مَا الَّذِي صَارَ بِهِ إِلَى مَا قُلْتُ ،  
وَكِيفَ تَرْكَتَهُ لِقَدْرِهِ وَجِئْتَ ؟

(۲) أَسْتَوْثَقَ ، تَأَكَّدَ .

(۱) شَفِيرٌ : حَافَةٌ .

قال الفتى: إله قال لي: يا ولدي، ليس لك أبٌ بعدي؛ فإن أردت اللحاق  
بِي فارجع مع الليل لِسُلْمَ أنفسنا، وإن آثرت الحياة فارجع مع الصبح لِسُلْمَني إلى  
غاسلي !

قلت: أفأمين أنت ألا يكون أبوك قد أخرجك عنه لأن عينك تمسيك يده وترده  
عما يهم به، حتى إذا خلا وجهه منك أزهق نفسه؟

قال: لم أدعه حتى أقسم أن يحيا إلى الليل، وحتى أقسم أن أرجع لأموت  
معه؛ فإن لم تمسيكه يميئه أمسكه انتظاري، وقد فرغت الحياة منا فلم يبق إلا أن  
نفرغ منها؛ ومن كان فيما كنا فيه ثم انحدر إلى ما انحدرنا إليه، لم ير الناس من  
نفسه ضعة ولا استكانة: وإنما خرجمت لأسأل هذا الإمام (الشعبي) وجهاً من الرأي  
فيمن يقتل نفسه إذا صارت عليه الدنيا، ونزلت به النازلات، وتعدد القوت، وأشتد  
الضرر، وتدلّت به المسكنة إلى حضيضها، وألجه إلى أحوال دقة الرّحى<sup>(١)</sup> لما  
تدور عليه، ولم يعد له إلا رأي واحد في معنى الدنيا: هو أنه مكذوب مزور على  
الدنيا.

قلت: يابني، فإني أراك أديباً، فمن أبوك؟

قال: هو فلان التاجر، ظهر ظهور القمر ومحق<sup>(٢)</sup> محاقه، وهو اليوم في  
أخلق الليالي وأشدّها أنطماماً؛ جهده<sup>(٣)</sup> الفقر، ويا ليته كان الفقر وحده، بل  
أنتهكته العلل، وليتها لم تكن إلا العلل مع الفقر، بل أخذ الموت أمرأته فماتت  
هماً به وبّي، ولم يكن له غيري وغيرها، وكان كل من ثلاثتنا يحيا لثلاثين  
آخرين، فهذا ما كان يجعل كلاماً لا يفرغ إلا أميلاً، ولما ذهبَت الأم ذهبَت  
الحقيقة التي كنا نقاتل الأيام عنها، وكانت هي وحدها ثرينا الحياة بمعناها إن  
جاءتنا الحياة فارغة من المعنى، وكنا من أجلها نفهم الأيام على أنها مجاهدة  
البقاء؛ أما الآن فالحياة عندنا قتل الحياة...!

قلت: يابني، فإليك - والله - مع أدبك لحكيم، وإني لأنفسي<sup>(٤)</sup> بك على  
الموت، فكيف ردتكم حياة أمك عن قتل نفسك ولا تردد حياة أبيك؟

قال: لو بقي أبي حياً لبقيت، ولكن الدهر قد انتزع منه آخر ما كان يملك من

(١) الرّحى: الطاحون.

(٢) جهده: أتعبه.

(٤) أنفس: أضنه.

(٢) محق: خفي.

أسباب القوة، حين أخذ القلب الشفيف الذي كان يجعله يرتعد إذا فكر في الموت: فهو الآن كالذي يُحارب عن نفسه تلقاء عدو لا يرحمه؛ إن عجز عن عدو فالرأي قتل نفسه ليستريح من تكيل العدو به.

\* \* \*

قال المسيح بن رافع: وأدركت أن الفتى يريد من سؤال الشيخ تحلاً يطمئن إليها أن يموت مسلماً إذا قتل نفسه كالمضطه أو المُكره؛ فأشفقت<sup>(١)</sup> أن أكسير نفسه إذا أنا حدثه أو أفتنه؛ قلت: هذا مريض يحتاج العلاج لا الفتيا؛ وكان إمامنا (الشعبي) حكيمًا لجنا فطنا، سفرَ بين أمير المؤمنين (عبد الملك) وعاهلي الروم<sup>(٢)</sup>، فحسدنا العاهل أن يكون فيما مثله. قلت: لعل الله يحدث به أمري. فأخذت بيد الفتى إليه، ومشيت أكلمه وأرفة عن نفسه. قلت له: أما تدري أنك حين فرغت من سرور الحياة فرغت من غرورها أيضاً، وأن الزاهد المنقطع في عزّة<sup>(٣)</sup> الجبل ينظر من صوْماعته إلى الدنيا، ليس بأحكم ولا أبصر ممَّ ينظر من آلامه إلى الدنيا؟ يابني: إن الزاهد يحسب أنه قد فرَّ من الرذائل إلى فضائله، ولكن فراره من مجاهدة الرذيلة هو في نفسه رذيلة لِكُلِّ فضائله. وماذا تكون العفة والأمانة والصدق والوفاء والبر والإحسان وغيرها، إذا كانت فيمن انقطع في صحراء أو على رأس جبل؟ أيزعم أحد أن الصدق فضيلة في إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار؟ وایم الله إن الخالي من مجاهدة الرذائل جميعاً، لهُوَ الخالي من الفضائل جميعاً! يابني: إن من الناس من يختارهم الله فيكونون قمَح هذه الإنسانية: يبتلون ويُحصدون ويُطحَّدون ويُعجنون ويُخربون، ليكونوا غذاء الإنسانية في بعض فضائلها. وما أراك أنت وأباك إلا من المختارين، كان في أعراضكم دم نبيٍّ يُقتل أو يُضليل!

قال المسيح: وانتهينا إلى دارِ الشعبي، فطرقَت الباب، وجاء الشيخ ففتح لنا، وسلمتنا وسلام، ثم بدرَت فقلت: يا أبا عمرو، إن أبا هذا كان من حاله كيٌت وكيٌت، فترادفت<sup>(٤)</sup> عليه المصائب، وتواترت النكبات، وتواترت الأقسام<sup>(٥)</sup>... ثم

(١) أشفقت: خفت.

(٢) عاهل الروم: قيسرو الروم، ملوكهم.

(٣) عزّة الجبل، بالضم: رأسه ومعظمها.

(٤) ترادفت: توالت.

(٥) الأقسام: الأمراض.

أقتضيَتْ ما قالَ أبْنَهُ حرفاً، ثُمَّ قلْتُ: وإنَّ الْآنَ مُوشِكٌ أنْ يُزْهَقَ نفْسَهُ وسِيَّبَعُهُ أبْنَهُ هذَا؛ وقد (هداهُ اللَّهُ إِلَيْكُ فجاءَ يسأَلُكُ: أَيْمُوتُ مُسْلِمًا مَنْ أُلْجِيَ وأُكْرِهَ وأُضْطُرَّ وَأَسْتَضَاقَ وَأَخْتَلَ، فَتَحَسَّى<sup>(١)</sup> سُمًا فَهَلَكَ أَوْ تَوَجَّا<sup>(٢)</sup> بِحَدِيدَةٍ فَقَضَى، أَوْ ذَبَحَ نفْسَهُ بِنَضْلٍ فَخَفَتَ، أَوْ حَرَّ فِي يَدِهِ بِسَكِينٍ فَمَا رَقَّ دُمُّهُ<sup>(٣)</sup> حَتَّى ماتَ، أَوْ أَخْتَقَ فِي حِلٍ فَفَاضَتْ نفْسَهُ<sup>(٤)</sup>، أَوْ تَرَدَّى<sup>(٥)</sup> مِنْ شَاهِقٍ فَطَاحَ...).

وأدرَكَ الشَّيخَ معنى قولِي: (هداهُ اللَّهُ إِلَيْكُ)، وَمَعْنَى مَا أَكْثَرْتُ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُتَرَادِفَةِ عَلَى القَتْلِ وَمَا أَسْتَقْصَنِتُ مِنْ وَجْهِهِ؛ فَعِلْمٌ أُنِي لَمْ أَسْأَلْهُ أَفْتَيَا وَالنَّصْ، وَلَكَنِي سَأَلْتُهُ الْحِكْمَةَ وَالْسِّيَاسَةَ؛ فَقَالَ: هَذَا - وَاللَّهُ - رَجُلٌ كَرِيمٌ، أَخَذْتُهُ الْأَنْفَةَ وَعِزَّةَ النَّفْسِ، وَمَا أَنَا السَّاعَةَ بِمَعْرِلٍ عَنْ هُمْهُ، فَنَذَهْتُ نَكْلُمُهُ وَاللَّهُ أَمْسَعُهُ.

ومشيناً ثلَاثَتَنَا، فلَمَّا شَارَفْنَا الدَّارَ قَالَ الْفَتِي: إِنَّهُ لَا يَفْتَحُ لِي إِذَا رَأَكُمَا، وَرَبِّما أَسْتَفِرَ<sup>(٦)</sup> بِنَفْسِهِ فَازْهَقَهَا، وَسَأَسْتَوْرُ الْحَائِطَ<sup>(٧)</sup> وَأَنْدَلِيَ ثُمَّ أَفْتَحُ لَكُمَا فَتَدْخَلَنِي وَأَنَا عَنْهُ.

\* \* \*

وَدَخَلْنَا، إِذَا رَجُلٌ كَالْمَرِيضِ مِنْ غَيْرِ مَرْضٍ، خَوَارٌ<sup>(٨)</sup> مُسْلُوبٌ الْقَوَةِ، أَنْزَعَ جَلْبُهُ إِلَى الْمَوْتِ وَمَا بِهِ جُرْأَةٌ، وَإِلَى الْحَيَاةِ وَمَا بِهِ قَوَةٌ؛ وَصَغَرَ إِلَيْهِ نفْسَهُ أَنَّهَا أَصْبَحَتْ فِي مُعَامَلَةِ النَّاسِ كَالدَّرْهَمِ الزَّانِفِ لَا يَقْبِلُهُ أَحَدٌ، وَثَابَرَ عَلَيْهِ دَاءُ الْحَزْنِ فَأَضْنَاهُ وَتَرَكَهُ رُوحًا تَتَقَعَّدُ فِي جَلْدِهَا، فَهِيَ تَهُمُّ فِي لَحْظَةٍ أَنْ تَثْبَتْ وَتَنْدَلِقُ.

وَسَلَّمَ الشَّيخُ وَأَقْبَلَ بِوْجَهِهِ عَلَى الرَّجُلِ، ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ﴿وَالصَّدِيرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَيَعِينَ أَبْلَيْكَ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْمُنْتَقُونَ﴾».

فَقُطِعَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ وَقَالَ كَالْمَحْنِقُ: أَيُّهَا الشَّيخُ، قَدْ صَبَرْنَا حَتَّى جَاءَ مَا لَا صَبَرَ عَلَيْهِ؛ وَقَدْ حَلَوْنَا مِنْ مَعْانِي الْكَلَامِ كُلُّهُ، فَمَا نَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا لَفْظَةً وَاحِدَةً نَمْلُكُ مَعْنَاهَا، هِيَ أَنْ نَتَهِي!

وَمَذَّ الشَّيخُ عَيْنَهُ فِرَأَيْ كُوَّةً<sup>(٩)</sup> مَسْدُودَةً فِي الْجَدَارِ، فَقَالَ لِي: افْتَحْ هَذِهِ وَدِعِ

(١) تَحَسَّى: شَرَبَ.

(٢) تَوَجَّا: ضَرَبَ نفْسَهُ بِالسَّكِينِ.

(٣) رَقَّ دُمُّهُ: تَوَقَّفَ نَزْفُهُ.

(٤) فَاضَتْ نفْسَهُ: مَاتَ.

(٥) تَرَدَّى: رَمَى نفْسَهُ مِنْ عَلَى... .

(٦) اسْتَفِرَ: أَثَارَ.

(٧) تَسْوَرُ الْحَائِطَ: صَدَعَ فَوْقَهُ.

(٨) خَوَارٌ: ضَعِيفٌ.

(٩) كُوَّة: فَتْحَةٌ صَغِيرَةٌ فِي جَدَارٍ.

الهوا يتكلم معنا كلامه . فقمت إليها فعالجتها حتى فتحتها ، ونفذ منها روح الدنيا ،  
وقال الشيخ للرجل : أصحي إلي ، فإذا أنا فرغت من الكلام فشأنك بنفسك :  
أعلم أنَّ رجلاً مِنَ المسلمين قد مرض ، فأفضل مرضه<sup>(١)</sup> فأثبتة على سريره  
ثلاثين سنة لا يتحرك ، وطوى فيه الرجل الذي كان حيًا ونشر منه الرجل الذي  
سيكون ميتاً ، فبقى لا حيًا ولا ميتاً ثلاثين سنة . . . .

قال الرجل : وفي الدنيا مَنْ يعيش على هذه الحالِ ثلاثين سنة؟

قال الشيخ : صَحُّ الكلام وأسائل . أياصر على هذه الحالِ ثلاثين سنة ولا  
يقول : جاء ما لا صبر عليه) وأي شيء لا صبر عليه عند الرجل المؤمن الذي يعلم  
أنَّ البلاء مالٌ غير أنه لا يوضع في الكيس بل في الجسم؟

أفتدرى مَنْ كان الصابرَ ثلاثين سنة على بلاء الحياة والموت مجتمعين في  
عظام مُمددة على سريرها؟ إنَّ إمامنا (عمران بن حصين الحزاعي) الذي أرسله  
عمُر بن الخطاب يُفقيه أهل البصرة ، وتولى قضاءها ، وكان الحسن البصري يحلُّ  
بالله ما قدِّمها خير لهم من عمران بن حصين . ولقد دخلت عليه أنا وأخوه  
(العلاء) ، فرأيناها مُثبِّتاً على سرير الجريد كائناً شُدَّ بالجبال وما شد إلا بانتهاك  
عصبيه وذوَبَان لحمه وَوَهْن<sup>(٢)</sup> عظامه؛ فبكى أخوه ، فقال : لم تبكي؟ قال : لأنَّ  
أراك على هذه الحال العظيمة؟ قال : لا تبكِ؛ فإنَّ أحبه إلى الله تعالى أحبه إلىي .  
ثم قال : إنَّ هذه الأرض تحمل الجبال فلا يشعر موضع منها بالجبل القائم عليه ، إذ  
كان تماسك الأرض كلها قد جعل لِكُل موضع منها قوة الجميع ، ولو لا هذا لدك<sup>(٣)</sup>  
الجبل موضعه وغاربه؛ وكذلك يحمل المؤمن مثل الجبال من البلاء على أعضائه  
لا ينكسر لها ولا يتهدم؛ إذ كانت قوَّة روحه قوَّة في كل موضع ، فالبلاء محمول  
على همة الروح لا على الجسم ، وهذا معنى الخبر : «إنَّ المؤمن بكل خير على كل  
حال ، إنَّ روحه لتشتَّرُ من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل!» .

ثم قال : ولكن ذاك هو المؤمن ، فمن آمن بالله فكانما قال له : «أمتَحني!»  
وكيف تراك إذا كنت بطلاً مِنَ الأبطال مع قائده الجيش ، أما تفرض عليك شجاعتك  
أنْ تقول للقائد : «أمتَحني وأرم بي حيث شئت!» وإذا رمى بك فرجعت مُثخناً

(١) أضل مرضه : اشتَدَ حتى صعب الشفاء منه .

(٢) دك : ضعيف .

بـالجراح<sup>(١)</sup> ونالـك البـشـرـ والـتـشـويـهـ، أـثـرـاـهـ أـوـصـافـاـ لـمـصـائـكـ، أـمـ ثـنـاءـ عـلـىـ شـجـاعـتكـ؟

ثم قال: إذا لم يكن الإيمان بالله أطمئناناً في النفس على زلازلها وكوارثها، لم يكن إيماناً، بل هو دعوى بالفکر أو باللسان لا يغدوهما، كدعوى الجبان آلة بطل، حتى إذا فجأة الرّفوع<sup>(٢)</sup> أحدث في ثيابه من الخوف... ومن ثم كان قتل المؤمن نفسه لبلاء أو مرض أو غيرهما كفراً بالله وتکذیباً لإيمانه، وكان عمله هذا صورة أخرى من طيشِ الجبان الذي أحدث في ثيابه!

والإيمان الصحيح هو بشاشة الروح، وإعطاء الله الرضى من القلب، ثقة بوعدِه ورجاءِ لما عنده، ومن هذين يكون الأطمئنان. وبالبشاشة والرضى والثقة والرجاء، يُصبح الإيمان عقلاً ثانياً مع العقل؛ فإذا أبْتَلَى المؤمن بما يذهب معه الصبر ويطيش له العقل، وصار من أمره في مثل الجنون - برز في هذه الحالة عقلُ الرُّوحاني وتولى سياسة جسمه حتى يُفْسِد العقل الأول. ويجيء الخوف من عذاب الله ونقمته في الآخرة، فيغمر به خوف النفس من الفقر أو المرض أو غيرهما فيقتل أقواماً الأضعف، ويخرج الأعزَّ منها الأذلَّ.

فالاطمئنان بالإيمان هو قتلُ الخوف الدُّنيوي بالتسليم والرضى، أو تحويله عن معناه بجعلِ البلاء ثواباً وحسناً، أو تجريده من أوهامه باعتبارِ الحياة سائرة بكل ما فيها إلى الموت؛ وهو بهذا عقل روحاني له شأن عظيم في تصريف الدنيا، يتركُ النفس راضية مرضية، تقولُ لِمَصَائِبِها وهي مطمئنة: نعم. وتقولُ لِشهواتها وهي مطمئنة: لا.

وما الإنسان في هذا الكون؟ وما خيره وشره؟ وما سخطه ورضاه؟ إن كل ذلك إلا كما ترى قبضة من التراب تكبر وقد نسيت أنَّه سيأتي من يكتنسها...!

\* \* \*

قال الشيخ: وأنظر، أما تُبَتَّلِي الشجرة الخضراء في بعض أوقاتها بمثل ما يُبَتَّلِي به الإنسان؟، غير أن لها عقلاً روحانياً مستقراً في داخلها يمسك الحياة عليها ويتربيص<sup>(٣)</sup> حالاً غير الحال؛ ومهما يكن من أمر ظاهرها وبلائه فالسعادة كلها في داخلها، ولها دائماً ربيع على قدرها حتى في قر<sup>(٤)</sup> الشتاء.

(١) مثخناً بالجراح: ممتنعاً جراحًا في سائر جسده.

(٢) يتربص: يتنتظر.

(٤) القر: البرد الشديد.

فالعقلُ الروحانيُّ الآتي من الإيمانِ، لا عملَ له إلا أن يُنشئ للنفسِ غريزةً متصرفَةٍ في كلِّ غرائزِها، تُكملُ شيئاً وتنقصُ من شيءٍ. وَتُوجَّهُ إلى ناحيةٍ وتصرُّفُ عن ناحيةٍ؛ وبهذه الغريزة تسمو الروحُ ف تكون أكبرَ من مصالحِها وأكبرَ من لذاتها جمِيعاً.

وتلك الغريزة هي نفسها معنى الرُّضى بالقدرِ خيرٍ وشَرٍّ، وهي تأتي بالتأويلِ لكلِّ همومِ الدنيا، فتضُعُّ في النكباتِ معانِي شرِيفَةٍ تنزعُ منها شرَّها وأذاها للنفس؛ ولنِسْتِ المصيبةُ شيئاً لولا تأديُ النفسُ بها. وإذا وقعَ التأويلُ في معانِي النكباتِ أصبحَتْ تعمَلُ عملَ الفضائلِ، وتغيَّرَتْ طبيعتُها فيعودُ الفقرُ باباً من الزهدِ، والمرضُ نوعاً من الجِهادِ، والخيبةُ طريقاً من الصبرِ، والحزنُ وجهاً من الرِّجاءِ، وهلمَ جراً.

والنفسُ وحدها كنزٌ عظيمٌ، وفيها وحدها الفُرُحُ والأبتهاجُ لا في غيرِها، وما لذاتِ الدنيا إلا وسائلٌ لإثارةِ هذا الفُرُحُ وهذا الأبتهاجِ، فإنَّ وُجداً مع الفقرِ بطلَتْ عِزَّةُ المَالِ وأصبحَ حجرًا من الأحجارِ، والبللُ يتغَرَّدُ بحُجْرَتِه الصغيرةِ ما لا تُعْنِي فيه آلاتُ التَّطْرِيبِ كلُّها. وفي النفسِ حياةٌ ما حَوْلُها، فإذا قَوَيْتَ هذه النفسَ أذلتِ الدنيا، وإذا ضعَفتَ أذلتِها الدنيا!

\* \* \*

قالَ الْمَسِيْبُ: ثم سَكَتَ الشَّيْخُ قليلاً، وكثُتَ أَرَى الرَّجُلَ كائِناً يغتسلُ بكلامِهِ، وقد أشَرَقَ وجْهُهُ وتنَضَّرَ وأنقلَبَ إلى روحِهِ التي كانَ منصِرَفَاً عنها، فعادَتْ مصالَبُهُ تضغطُ روحاً لينةً كما تضغطُ اليدُ على الماءِ، وأُفِيقَ أَنَّ النَّكبةَ كلُّها هي أَنَ ينظرُ الإِنْسَانُ إلى الْحَيَاةِ بعيْنِ شهوَاتِهِ، فَيُنَكِّبَ أَوْلَ ما ينَكِبُ في صُبْرِهِ وَيُقْيِنِيهِ.

ثم قالَ الشَّيْخُ، ولقد رأيْتُ بعينِي رأسِي معجزَةً (العقلُ الروحانيُّ) وكيف يصنعُ: رأيْتُ عروةَ بْنَ الْزَّبِيرَ وهو شَيْخٌ كبيرٌ، عندَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، وقد وَقَعَتْ في رِجْلِهِ الْأَكْلَةُ<sup>(١)</sup>: فأشاروا عَلَيْهِ بقطعِها لا تُفسَدَ جسْدُهُ كُلُّهُ، فَدُعِيَ لَهُ مَنْ يقطِّعُها فلَمَّا جَاءَهُ قَالَ لَهُ: نَسْقِيكَ الْخَمْرَ حتَّى لا تَجِدَ لَهَا أَلْمَأَ. فَقَالَ عُرُوْةُ: لَا أَسْتَعِنُ بحرامِ اللهِ عَلَى مَا أَرْجُو مِنْ عَافِيَةٍ! قَالَ: فَنَسْقِيكَ الْمُرْقِدَ<sup>(٢)</sup>. فَقَالَ عُرُوْةُ: مَا أَحِبُّ أَنْ أُسْلَبَ عَضْوَأَ مِنْ أَعْصَائِي وَأَنَا لَا أَجُدُ أَلَمَ ذَلِكَ فَأَحْتَسِبُهُ!

(١) الأَكْلَةُ، بضم الهمزة هي الحِكَةُ بكسر الحاءِ. (٢) المُرْقِدُ: ما يُسمَى بالأَجْنبِيَّةِ الْبَنْجِ.

ثم دخل رجال أنكراهم غرفة، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يمسكونك، فإنَّ الألم ربِّما عزَّب<sup>(١)</sup> معه الصبر. قال أرجو أن أكيفكم ذلك من نفسي!

قال الشيخ: فانظر أيها الضعيف الذي يُريد قتل نفسه كيف صنع غرفة، وكيف استقبل البلاء، وكيف صبر وكيف أحتمل. إنَّه انصرف بحسنه إلى النفس فأنبسَطَ روحه عليه، وأخذ يكبر ويهلل ليقى مع روحه وحدها، وخرج من دنيا ظاهره إلى دنيا باطنِه، وغمَرَتْ حواسُه وأعصابُه بالنور الإلهي من معنى التكبير والتهليل، فقطع القاطع كعبَة بالسُكين وهو لا يلتقي، حتى إذا بلغ العظم وضع عليها المنشار ونشرَها وعروة في التكبير والتهليل؛ ثم جيء بالزيت مغلياً في مغارف<sup>(٢)</sup> الحديد فخسم<sup>(٣)</sup> بِمِكانِ القطع، فُتشَي على غرفة ساعة ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه، ولم يسمع منه في كل هذه الآلام الماحقة آلة ولا آهة، ولم يقل قبلها ولا بعدها ولا بين ذلك: « جاءَ ما لا صَبَرَ عَلَيْهِ . . . ! ».

\* \* \*

قال المسيب: وأزهف<sup>(٤)</sup> بأس الرجل الضعيف وقوى جائشه<sup>(٥)</sup>، وأنبعث فيه الروح إلى عمرِ جديد، ونشأ له اليقين من عقلِه الروحاني، وعرف أنَّ ما لا يمكن أن يدرك، يمكن أن يُترك.

وجاء هذا العقل الروحاني فمر بالمنشار على أليس الذي كان في نفسه فقطَّعه، فما راعنا إلَّا أن ثبَّ الرجل قائماً يقول: الله أكبر من الدنيا، الله أكبر من الدنيا!

ثم أكب<sup>(٦)</sup> على يد الشيخ وهو يقول: صدقت؛ إنَّ كُلَّ ذلك إلَّا كما ترى قبضة من التراب تتكبر، وقد نسيتَ أنَّه سيأتي من يكسُها!».

ماذا يصنع الإنسان إذا غلطَ في مسألة من مسائل الدنيا إلَّا أن يتحرَّى<sup>(٧)</sup> الصواب، ويجهَّذ في الرجوع إليه، ويصبر على ما يناله في ذلك؟ وماذا يصنع الإنسان إذا غلطَ في مسألة . . . ؟

(١) عزب: نقد.

(٢) مغارف: ملاعق.

(٣) حسم: سكر.

(٤) أرهف: رق.

(٥) الجأش: السيطرة على النفس.

(٦) أكب: انحنى.

(٧) يتحرَّى: يتقصى.

## الانتحار

٢

قال المسيب بن رافع : وقام الشعبي إلى الرجل فاغتنقه فرحاً بما آل أمره إليه ، بعد إذ رأى النور يجري على لونه ويترقرق في ديباجته<sup>(١)</sup> ؛ كأنما وقع الصلح بين وجهه وبين الحياة . ثم قال له : نعم أخو الإسلام أنت ، فاستعد بالله من خذلانيه ، فإنه ما خذلك إلا وضعك بيازء الله تعارضه أو تجاريه في قدرته ، فيكِلك إلى هذه النفس ، فتنتهي بك إلى العجز ، وينتهي العجز بك إلى السخط ؛ وممكنت عاجزا ساخطا ، محصوراً في نفسك ؛ موكولاً إلى قدرتك ، كمن كان الأسد الجائع في القفر<sup>(٢)</sup> ، إذا ظن أن قوته تتناول خلق الفريسة ؛ فيدعو ذلك إلى نفسك اليأس والانزعاج والكآبة ؛ وأمثالها من هذه المهمليات تقدح<sup>(٣)</sup> في قلبك الشك في الله ، وتثبت في روحك شر الحياة ، وتهدي إلى خاطرك حماقات العقل ، وتقرر عندك عجز الإرادة ؛ فتنتهي من كل ذلك ميتاً قد أزهقتك نفسك قبل أن تزهقها !

ولو كنتم بدأ إيمانكم بنفسكم قد آمنت بالله حق الإيمان ، لسلطكم الله على نفسكم ولم يسلطها عليكم ؛ فإذا رمتكم المطامع بال الحاجة التي لا تقدر عليها ، رميتمها من نفسكم بالاستغناء الذي تقدر عليه ؛ وإذا جاءتكم الشهوات من ناحية الرغبة المقبلة ، جئتكم من ناحية الرُّهْد المنصرف ، وإذا ساورتك كبريات الدنيا أذللتكم بكبرياء الآخرة .

وبهذا تقلب الأحزان والألام ضرباً من فرح الفوز والانتصار على النفس وشهواتها ، وكانت فنونا من الخذلان والهم ، وتعود موضع فخر ومباهة ، وكانت أسباب حزني وأنكساري . «وعزيمة الإيمان إذا هي قويت حصرت أللباء في مقداره ، فإذا حصرت لم تزل تقص من معانيه شيئاً شيئاً ، فإذا ضعفت هذه العزيمة جاء

(٣) تقدح : تشعل .

(٢) القفر : الصحراء .

(١) ديباجته : محياته .

البلاء عامراً مُتَفَشِّياً يُجاوِرُ مقداره بما يضجِّبه من الخوف والرُّوعِ، فلا تزال معانيه تزيد شيئاً شيئاً بما فيه وبما ليس فيه.

وللإيمان صورة في النفس يُنير ما حولها فتراه على حقيقته الفانية ويشكّا أن يزول؛ فإذا أنتفأّ هذا الضوء انطمسَت الأشياء، فتوهُمُها النفس أو هاماً مُتباهية<sup>(١)</sup> على أحوالها المختلفة؛ كما يرى الأعمى بوجهه: لا عينه مع الأشياء تكون في طبيعتها، ولا أشياؤه عند عينه تكون في حقيقتها.

\* \* \*

قال المسيح: وكانت الشمس قد طفت<sup>(٢)</sup> للغيب؛ فقال الإمام للرجل: قُمْ فتوضاً وأسبغ الوضوء، وسأعلّمك أمراً تنتفع به في دينك ودنياك: فإذا قمت إلى وضوئك فأيقن في نفسك وأعزم في خاطرك على أنّ في هذا الماء سراً روحانياً من أسرار الغيب والحياة، وأنّه رمز للسماء عندك، وأنّك إنما تتطهّر به من ظلمات نفسك التي امتدّت على أطرافك؛ ثم سُمَ الله (تعالى) مُفيضاً اسمه القادر الكريم على الماء وعلى نفسك معاً، ثم تمثّل أنك غسلت يديك مما فيهما وممّا تعاطاه بهما من أعمال الدنيا، وأنّك أخذ فيهما من السماء لوجهك وأعضائك؛ وقرّر عند نفسك أنّ الوضوء ليس شيئاً إلا مسحة سماوية تُسبّعها على كلّ أطرافك، ليشعر بها جسمك وعقلك؛ وأنّك بهذه المسحة السماوية تستقبل الله في صلاتك سماوياً لا أرضياً.

إذا أنت أستشعرت هذا وعملت عليه وصار عادة لك، فإن الوضوء حينئذ ينزل من النفس منزلة الدواء، كلّما أغتنمته أو تسخّطت أو غشّيك حزن أو عرض لك وسوس، فما تتوضاً على تلك النية إلا غسلت الحياة وغسلت الساعة التي أنت فيها من الحياة. وترى الماء تحسّب هدوءاً ليناً بين الرّضي، وإذا هو ينساب في شعورك وفي أحوالك جميعاً.

قال المسيح: وقفت أنا فجددت وضوئي على هذه الصفة بتلك النية، فإذا أنا عند نفسي مستضيّة بروح نجمية لها إشراق وسناء، وإذا الوضوء في أضعف معانيه هو ما علمنا من أنه ألطهارة والنظافة، أمّا في أقوى معانيه فهو إفاضة من السماء فيها التقديس والتزكية وغسل الوقت الإنساني مما يُخالطه كلّما مرّت

(٢) طفت: مالت.

(١) متباهية: مختلفة.

ساعات، وأبتدأه للروح كالنبات الأخضر ناضراً مطولاً متربطاً بالماء.

ثم صلّى بنا الشيخ، وأمرني بالمبث مع الرجل، كأنما خشي البدوات<sup>(١)</sup> أن تبدو له فتنقص عزمه، أو هو زادني عليه لغير شخصه وأبدل وحدته التي كان فيها، أو كان الشيخ لم يأمن على الرجل أن يكون إنسانه الروحي قد تنبه بأكمليه فوضعني كالتبيه له.

وجاءنا العشاء من دار الشيخ فطبعمنا، ثم قام الرجل فتوضاً وصلينا العتمة وجلسنا نتحدث، فاستبأته نباء<sup>(٢)</sup>، فقال: مهلاً. ثم نهض فتوضاً الثالثة وقال: تالله ما أعرف الوضوء بعد اليوم إلا ملامسة بين السماء والنفس، وما أعرف وقته من الروح إلا ك الساعة الفجر على النبات الأخضر.

\* \* \*

قال المسيب: وأصبحنا فعدونا على الإمام، ثم لزمني الرجل في بعض أموري، ثم وافينا المسجد صلاة العصر لحضور درس الشيخ؛ وكان الناس كالحرب المترافق على العقود، لا أدرى من ساقهم وجاءهم؛ كأنما علمت الكوفة أن رجلاً مسلماً كفر بالله كفراً صلعاً وأنه سيحضر درس الشيخ، وسيحضر الشيخ من أجله، فهبت أرياح الأربع تسوق أهلها إلى المسجد من أقطارها.

وجلس الشيخ مجلس الحديث فقال:

رُويَنَا أَنَّ رجلاً كَانَتْ بِهِ جِرَاحَةً، فَأَتَى قَرَنَّا<sup>(٣)</sup> لَهُ فَأَخَذَ مِشَقْصَانِ<sup>(٤)</sup> فَذَبَحَ بِهِ نَفْسَهُ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَرَكَ جَنَازَتَهُ مَطْرُودَةً تَقْتَحِمُ مَتْلَفَةَ الْآخِرَةِ كَمَا أَفْتَحَمْتُ مَتْلَفَةَ الدِّنِيَا!

رُويَنَا فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «الَّذِي يَخْنُقُ نَفْسَهُ يَخْنُقُهَا فِي النَّارِ، وَالَّذِي يَطْعُنُ نَفْسَهُ يَطْعُنُ نَفْسَهُ فِي النَّارِ، وَالَّذِي يَقْتَحِمُ يَقْتَحِمُ فِي النَّارِ!»

رُويَنَا عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذْبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ!»

رُويَنَا عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ بِهِ جِرَاحٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ اللَّهُ: بَدَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ فَحَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ!».

(٣) القرن بالفتح: جعة النشاب.

(١) البدوات: المفاجئات.

(٤) المشقص: سهم ذو نصل عريض.

(٢) استبأته نباء: سأله عنه.

قال الشعبي: يقول الله: «بَدَرْنِي عَبْدِي بِنْفِسِهِ . . .» أني بدرني<sup>(١)</sup> وتألّه فجعل نفسي إله نفسي، فقبضها وتوفّها، فكان ظالماً.

بَدَرْنِي وتألّه في آخر أنفاسه لحظة يقلّب إلى، فكان مع ظلمه مغوراً أحمق! بدرني وتألّه حين ضاق، فهو رئيْسُ نفسه<sup>(٢)</sup> في الموت من عجزه أن يمسكها في الحياة، فكان عاجزاً مع ظلمه وغروره وحمقها!

بدرني وتألّه على جهله سر الحياة وحكمتها، فلم يستحْ هذا المخلوق الظالم المغور في حمقه وعجزه وجهمه - لم يستحْ أن يجيئني في صورة إله! بَدَرْنِي وتألّه، فطَّبع نفسَه طابعَه الأبدِي من غيّ وتمرد وسفاهة، وأرسلها إلى مقولة يردها علَيَّ.

بدرني وتألّه كأنما يقول: إنَّ لَه نصفَ الأمر ولَيَ النصف: أنا أحينُّ وهو أمات . . . !

بَدَرْنِي عَبْدِي بِنْفِسِهِ فَحَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ! قال الشعبي: وإنما تحرّم الجنة على من يقتل نفسه، إذ ينقلب إلى الله وعلى روحه جنائية يده ما تفارقها إلى الأبد: فهو هناك حيفةٌ من الجيف مسمومةً أبداً، أو مخنوقةً أبداً، أو مذبوحةً أبداً، أو مهشمةً أبداً يقول الله له: أنت بَدَرْنِي بنفسيك، وجريئت معي في القدر مجرى واحداً، فستخلُّ نفسك في الصورة التي هي من عملك، وما قتلت إلا حسناً.

قال الشعبي: ولو عرف قاتل نفسه أنه سيصنع من نفسه حيفةً أبديةً، فمن ذا الذي يعرف أنه إذا فعل كذا وكذا تحول حماراً وبقي حماراً، فيفرض أن يتحول ويُسرع ليتحول؟

من ذلك نظر النبي ﷺ إلى جنازة ذلك الرجل الذي قتل نفسه، كما ينظر إلى ذبابة توجّهت بالسب إلى الشمس وال Kovak والأفلاك كلها، ثم جاءته تقول: اشهد لي.

\* \* \*

قال الشيخ: ومِمَّ يقتلُ الإنسانُ نفسه؟ أما إنَّ الموت آتٍ لا ريب فيه ولا مقصِّرٌ لِحَيٍّ عنه، وهو الخيبةُ الْكُبْرى تُلْقَى على هذه الحياة؛ فما ضرُّ الخيبة الصغيرة في أمرٍ من أمورِ الحياة؟

(٢) هور نفسه: أزهقتها.

(١) بدرني: سبني وأتى إليَّ.

إِنَّ الْمَرْءَ لَا يُقْتَلُ نَفْسَهُ مِنْ نَجَاحٍ بَلْ مِنْ خَيْرٍ، فَإِنْ كَانَتِ الْخَيْرُ مِنْ مَالٍ فَهِيَ الْفَقْرُ أَوِ الْحاجَةُ، وَإِنْ كَانَتِ مِنْ عَافِيَةٍ فَهِيَ الْمَرْضُ أَوِ الْأَخْتِلَالُ، وَإِنْ كَانَتِ مِنْ عِزَّةٍ فَهِيَ الْذُلُّ أَوِ الْبُؤْسُ، وَإِنْ كَانَتِ مِمَّا سُوِيَ ذَلِكَ - كَالنَّسَاءِ وَغَيْرِهِنَّ - فَهِيَ الْعَحْزُ عَنِ الشَّهْوَةِ وَفَسَادِ التَّخَيْلِ، كُلُّ ذَلِكَ مُوْجَدٌ فِي النَّاسِ، يَحْمِلُهُ أَهْلُهُ رَاضِينَ بِهِ صَابِرِينَ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْغَبَارُ النَّفْسِيُّ لِهَذِهِ الْأَرْضِ عَلَى نُفُوسِ أَهْلِهَا. وَيَا عَجَباً! إِنَّ الْعُمَيَّانَ هُمْ بِالطَّبِيعَةِ أَكْثَرُ النَّاسِ ضَحْكًا وَابْتِسَامًا وَعَبْثًا وَسُخْرِيَّةً، أَفْتَرِيدُونَ أَنْ تُخَاطِبُوكُمُ الْحَيَاةُ بِأَفْصَحِّ مِنْ ذَلِكَ؟

لِيَسَّرِ الْخَيْرُ هِيَ الْشَّرُّ، بِلِ الْشَّرُّ كُلُّهُ فِي الْعُقْلِ إِذَا تَبَلَّدَ فَجَمِدَ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْطَّمْعِ الْخَائِبِ، أَوْ فِي الْإِرَادَةِ إِذَا وَهَنَتْ فَبِقِيَّتْ مَتَعْلِقَةً بِمَا لَمْ يُوجَدْ. أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ حِينَ لَا يُبَالِي الْعُقْلُ وَلَا إِرَادَةً لَا يَبْقَى لِلْخَيْرِ مَعْنَى وَلَا أَثْرَ فِي النَّفْسِ، وَلَا يَخِبُّ الْإِنْسَانُ حِينَئِذٍ، بِلِ تَخِيبُ الْخَيْرُ نَفْسُهَا؟

لِهَذَا يَأْبَى الْإِسْلَامُ عَلَى أَهْلِهِ التَّرَفَ الْعُقْلِيِّ وَالتَّخَيْلِ الْفَاسِدِ، وَيَشَتَّدُ كُلُّ الشَّدَّةِ فِي أَمْرِ الْإِرَادَةِ، فَلَا يَتَرَخَّصُ فِي شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِهَا، وَلَا يَزَالُ يُنْمِيهَا بِأَعْمَالِ يَوْمَيَّةٍ تَشَدُّدُ مِنْهَا لِتَكُونَ رِقْبَةً عَلَى الْعُقْلِ حَارِسَةً لَهُ، فَإِنَّ لِلْعُقْلِ أَمْرَاضًا كَثِيرَةً يَقْبِيسُ فِيهَا درَجَاتٍ مِنَ الطَّيْشِ حَتَّى يَلْعَجَ الْجَنُونَ أَحِيَّانًا؛ فَكَانَتِ الْإِرَادَةُ عَقْلًا لِلْعُقْلِ؛ هِيَ لِيَنَّهُ إِذَا تَصَلَّبَ، وَهِيَ حَرْكَتُهُ إِذَا تَبَلَّدَ، وَهِيَ حِلْمُهُ إِذَا طَاشَ، وَهِيَ رِضاً إِذَا سَخَطَ.

الْإِرَادَةُ شَيْءٌ بَيْنَ الْرُّوحِ وَالْعُقْلِ، فَهِيَ بَيْنَ وَجُودَيْنِ؛ وَلِهَذَا يَكُونُ بِهَا الْإِنْسَانُ بَيْنَ وَجُودَيْنِ أَيْضًا، فَيُسْتَطِعُ أَنْ يَعِيشَ وَهُوَ فِي الدُّنْيَا كَالْمَنْفَصِلِ عَنْهَا، إِذَا يَكُونُ فِي وَجُودِهِ الْأَقْوَى وَجُودُ رُوْحِهِ، وَأَكْبَرُ هُمُّهُ نِجَاجُهُ فِي هَذَا الْوِجْدَانِ.

وَهَذَا النِّجَاجُ لَا يَأْتِي مِنَ الْمَالِ، وَلَا تُحَقِّقُهُ الْعَافِيَةُ، وَلَا تُبَيِّنُهُ الشَّهْوَاتُ، وَلَا يَسْتَنِيَ<sup>(۱)</sup> التَّخَيْلُ الْفَاسِدُ؛ وَلَا يَكُونُ مِنْ مَتَاعِ الْغُرُورِ، وَلَا مِمَّا عُمْرُهُ خَمْسُونَ سَنَةً أَوْ مَائَةً سَنَةً؛ بَلْ يَأْتِي مِمَّا عُمْرُهُ الْخَلْوَةُ وَمِمَّا هُوَ باقٍ أَبْدًا فِي مَعْانِيهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ وَالصَّالِحِ؛ فَهُنَّا يُعِينُ الْمَرْضُ بِالصَّبَرِ عَلَيْهِ مِمَّا لَا تُعِينُ الصَّحَّةُ، وَيُفِيدُ الْفَقْرُ بِحَقَائِقِهِ مَا لَا تُفِيدُ الثَّرَوَةُ؛ وَهُنَّا يَكُونُ الْعُقْلُ الْإِنْسَانِيُّ عَامِلًا أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ مَتَخَيْلٌ، وَقَانِعًا أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ طَامِعٌ؛ وَهُنَّا لَا مَوْضِعَ لِغَلَبَةِ الشَّهْوَةِ، وَلَا كِبَرِيَّةِ النَّفْسِ، وَلَا

(۱) يَسْتَنِيَ: يَجْعَلُهُ سَيِّنا نِيَالًا.

حُبُّ الذات؛ وهذه الثالثة هي جالية الشقاء على الإنسان حتى في أحوال السعادة، وبدونها يكون الإنسان هائلاً حتى في أحوال الشقاء.

بالإرادة المؤمنة القوية ينصرف ذكاء المؤمن إلى حقائق العالم وصلاح النفس بها، وبغير هذه الإرادة ينصرف الذكاء إلى خيال الإنسان وفساد الإنسان ...

وإذا أنصرف الذكاء إلى حقائق الدنيا كان العقل سهلاً مطواعاً، وأستحال عليه أن يفهم فكرة قتل النفس أو يقرّها، فإنَّ هذه الفكرة الخبيثة لا تستطرُق إلى العقل إلا إذا تحجرَ وأنحصرَ في غرضٍ واحدٍ قد خابَ وخابت فيه الإرادة ففرغتِ الدنيا عندهُ.

ولو أنَّ أمراً تمَّ عزْمُه على قتل نفسهِ ثم صابر الدنيا أياماً، لأنفسَه عزْمُه أو رك<sup>(١)</sup>؛ إذ يلين العقل في هذه المدة نوعاً ما، ويجعل الصبر بينه وبين المصيبة مسافةً ما، فتتغير حالةُ النفس هوناً ما؛ فالصبر كالترُوح بالهواء على العقل الذي يكاد يختنق من احتباسه في معنى واحدٍ مُفْقِلٍ من جوانبه «ومثل العقل في هذه الحال مثل القائم في إعصار لفهُ بالتراب لفما وسدَ عليه مَنَافِذُ الهواء، وحبسهُ في هذا التراب الملتَفُ حَبْسَ الحشرة في جوفِ القصبة؛ فهو على أليقينِ أنها حالةٌ ساعةٌ طارئةٌ في الزَّمْنِ لا حالةُ الزَّمْنِ؛ وأنَّ الهواء الذي جاءَ بهذا أَلْهَمُ هو الذي يذهبُ بهذا أَلْهَمُ.

وكما أنَّ الأرض هي شيءٌ غيرُ هذا الإعصارِ الشائرِ منها، فالحياة كذلك هي أمرٌ آخرٌ غيرُ شقائها.

\* \* \*

قال الإمام: وفي كتاب الله آيتانِ تدللان على أنَّه كتب الدنيا كلها، إذ وضع لهذه الدنيا مثالين: أحدهما المثال الروحي للفردِ الكامل، والآخر المثال الروحي للجماعةِ الكاملة.

أما الآية الأولى فهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَشْوَأُ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾.

وأما الثانية فهي قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشَدُهُمْ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءٌ بِهِمْ﴾.

(١) رك: ضعف.

ففي رجاء الله واليوم الآخر يتسامي الإنسان فوق هذه الحياة الفانية، فتمرأ همومها حوله ولا تصدده، إذ هي في الحقيقة تجري من تحته فكأن لا سلطان لها عليه؛ وهذه الهموم تجذب في مثل هذه النفس قوى بالغة تصرّفها كيف شاءت، فلا يجيء الهم قوة تسحقه ضعفاً، بل قوة تمحن قوة أخرى أو تثيرها ليكون عملاً ظاهراً يقلل الناس ويتغافلون عنه بالأسوء الحسنة، والأسوأ وحدها هي علم الحياة. وقد ترى الفقير من الناس تحسبه مسكيناً، وهو في حقيقته أستاذ من أكبر الأساتيد يلقي على الناس دروس نفسه القوية.

وفي رجاء الله واليوم الآخر يبطل أكبر أسباب الشر في الناس، وهو نظرُ الإنسان لمن هو أحظى منه بفتنة الدنيا نظراً لا يبعث إلا الحقد والسلطة، فينظر المؤمن حينئذ إلى ما في الناس من الخير والصلاح والإيمان والحق والفضيلة، وهذه بطبيعتها لا تبعث إلا السرور والغبطة. ومن جعلها في تفكيره أبطل أكثر الدنيا من تفكيره؛ وبها تسقط الفروق بين الناس عاليهم ونازلهم؛ كالرجل الفقير العالم إذا قدِمَ على الغني العالم؛ جمَع بيتهما الاتفاق العقلي وسقط ما عداه.

وفي رجاء الله واليوم الآخر يعيش الإنسان عمرة الطويل أو القصير كائناً في يوم يُصبح منه غادياً على الحسرين والحساب؛ فهو متصل بالخلود غير معنى إلا بأسبابه؛ وبهذا تكون أمراضه وألامه ومصاباته ليست مكاراة من الدنيا، بل هي تلك المكاراة التي حُفِتَ الجنة بها؛ ولا يضره الحرمان لأنَّه قريبُ الزوال، ولا يغُرُّه المتابع لأنَّه قريبُ الزوال أيضاً.

وفي رجاء الله واليوم الآخر يسود الإنسان على نفسه؛ ومن كان سيد نفسه كان سيد ما حولها يصرفة بحكمه، ومن كان عبد نفسه صرفة بحكمه كل ما حوله. قال الشعبي: وأما المثال الروحي للجماعة الكاملة، فهو في وصف المؤمنين بأنهم «رحماء بينهم»؛ فهذا هذا، ما أحسبه يحتاج إلى بسط وبيان.

إنَّ أكثر ما يضيق به الإنسان يكون من قبل من حوله ممَّن يعايشُهم ويتأصلُ بهم لا من قبل نفسه، فإذا قام المجتمع أمَّة على أنهم (رحماء بينهم) تقررت العظلمة النفسية للجميع على السواء؛ ومن كانوا كذلك لم يحقرروا الفقير بفقره، ولم يعظموا الغني لغناه، وإنما يُحقرُون ويُعظَمون لصفاتِ سامية أو حقيقة. وبين هؤلاء يكون الفقير الصابر أعظم قدرًا من الغني الشاكر، وإعطاء الناس

**لِفَضْلِهِ الْفَقِيرُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ فَقْرَهُ عِنْدَ نَفْسِهِ شَيْئاً ذَا قِيمَةً فِي الْإِنْسَانِيَّةِ .**

ومتى تَصَحَّحَتْ آرَاءُ الْجَمَاعَةِ فِي هَذِهِ الْمَعْانِي الْمُؤْلَمَةِ لِلنَّاسِ بَطَلَ الْمُهَا وَأَسْتَحَالَتْ مَعْانِيهَا، وَصَارَ لَا يَبْلُو مَعْنَى مِنْ مَعْنَى الْحَيَاةِ فِي إِنْسَانٍ إِلَّا وَضَعَ إِيمَانَهُ مَعْنَى جَدِيداً فِي مَكَانِهِ، وَتُصْبِحُ الْفَضْلِيَّةُ وَحْدَهَا غَايَةُ النَّفْسِ فِي الْجَمِيعِ؛ وَبِذَلِكَ يَصْبِرُ الْفَرَدُ عَلَى مَصَابِيهِ، لَا بُقُولَتِهِ وَحْدَهُ، وَلَكِنْ بِجَمِيعِ الْقَوَى الَّتِي حَوْلَهُ . أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّ إِعْجَابَ النَّاسِ بِالشَّجَاعَةِ وَتَعْظِيمَهُمْ صَاحِبَاهَا يَضُعُ فِي أَلْمِ السَّلاَحِ لَذَهَبِهَا لِحُمُّ الشَّجَاعِ الْبَطَلِ؟

\* \* \*

قالَ الْمُسَيْبَ بْنُ رَافِعٍ : فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمَجْلِسِ، فَقَالَ . أَيُّهَا الشَّيْخُ، وَإِذَا فَسَدَ النَّاسُ وَغَلَظَتْ قُلُوبُهُمْ، وَتَقْطَعَتْ بَيْنَهُمُ الْأَسْبَابُ، وَلَمْ يَعُودُوا (رُحْمَاءُ بَيْنَهُمْ)، وَشَمِيتُوا بِالْفَقِيرِ، وَتَهَزَّءُوا بِالْمُبْتَلَى وَطَرَحُوهُ فِي الْأَسْتِهِمْ كَمَا يَطَرَّخُ الشَّاعِرُ فِي لِسَانِهِ رِجَالٌ يَهْجُوهُ لَا يَكُفُّ عَنْهُ - فَمَا عَسَى أَنْ يَصْنَعَ الْمُسْكِنُ حِينَئِذٍ وَكُلُّ شَيْءٍ يَدْفَعُهُ إِلَى قَتْلِ نَفْسِهِ؟

وقالَ الشَّعْبِيُّ : هُنَّا الرَّجَاءُ فِي اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهُوَ شَعُورٌ لَا يُشْتَرِى بِمَالٍ، وَلَا يُلْتَمِسُ مِنْ أَحَدٍ، وَلَا يَعْنُسُ عَلَى مَنْ أَرَادَهُ؛ وَالْفَقِيرُ وَالْمُبْتَلَى وَغَيْرُهُمَا إِنَّمَا يَصْنَعُ كُلُّ مِنْهُمْ مِثَالُهُ السَّامِيٌّ؛ فَالصَّبْرُ عَلَى هَذَا الْعَنْتِ هُوَ صَبْرٌ عَلَى إِتْمَامِ الْمِثَالِ، وَإِذَا وَقَعَ مَا يَسُوءُكَ أَوْ يُحِرِّنُكَ فَابْحُثْ فِيهِ عَنْ فَكْرِتِهِ السَّامِيَّةِ، فَقَلَّمَا يَخْلُو مِنْهَا، بَلْ قَلَّمَا يَجِيءُ إِلَّا بِهَا .

قالَ الْمُسَيْبَ : فَقَامَ آخُرٌ فَقَالَ : وَكَيْفَ يَصْنَعُ أَمْرُؤُ الْأَتْ<sup>(۱)</sup> أَحْوَالَ الدُّنْيَا إِلَى مَا يُخِيفُهُ، أَوْ بَلَغَ أَهْلَمُ مَبْلَغَهُ مِنْ قَلْبِهِ فَهُمْ أَنْ يَقْتَلَ نَفْسَهُ؟

قالَ الشَّعْبِيُّ : فَلِيَجْعَلِ الْخُوفَ خَوْفَيْنِ: أَحْدُهُمَا خَوْفُهُ عَذَابُ اللَّهِ خَالِدًا مُخْلِدًا فِيهِ أَبْدًا، فَيَذْهَبُ الْأَقْوَى بِالْأَضْعَفِ . إِذَا أَبْتَلَى فَلِيَضْمُمَ إِلَى نَفْسِهِ مَنْ هُوَ أَشَدُ بَلَاءً مِنْهُ؛ لِيَكُونَ هُمُّهُ أَحَدُ هَمَّيْنِ، فَيَذْهَبُ الْأَثْقَلُ بِالْأَخْفَ.

إِنَّ الْإِنْسَانَ وَنَفْسَهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ كَالذِي أُعْطِيَ طِفَلًا نَرْقًا طَيَاشًا عَارِمًا مُتَمَرِّدًا لِيُؤَذَّبُهُ وَيُخْكَمَ تَرْبِيَتُهُ وَتَقوِيمُهُ فَيُثَبَّتْ بِذَلِكَ أَنَّهُ أَسْتَاذٌ، فَيُعْطَى أَجْرًا صَبِرَهُ وَعَمِلَهُ، ثُمَّ يُضِيقُ الْأَسْتَاذُ بِالْأَطْفَلِ سَاعَةً فَيَقْتُلُهُ . أَكْذَلُكَ التَّأْدِيبُ وَالتَّرْبِيَّةُ؟

(۱) أَتْ: تَحَوَّلَتْ .

## الانتحار

٣

قال أَمْسِيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَكَانَ الْإِمَامُ قَدْ شَغَلَ خَاطِرَهُ<sup>(١)</sup> بِهَذِهِ الْقَصْةِ فَأَخْدَثَ تَمْدُّدَهَا فِي نَفْسِهِ، وَمَكَّنَتْ لَهُ مِنْ مَعْنَيهَا بِمِقْدَارٍ مَا مَكَّنَ لَهَا فِي هَمِّهِ، وَتَفَتَّقَ بِهَا ذِهْنُهُ عَنْ أَسَالِيبِ عَجِيبَةٍ يَتَهَيَّأُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ كَمَا يَلْدُ الْمَعْنَى الْمَعْنَى . فَلَمَّا قَالَ الرَّجُلُانِ مَقَالَاهُمَا آنَفًا وَأَجَابَهُمَا بِتَلْكَ الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، أَنْقَدَّ لَهُ مِنْ كَلَامِهِمَا وَكَلَامِهِ رَأِيًّا فَقَالَ :

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ: أَنْشُدُكُمُ اللَّهَ وَالْإِسْلَامَ أَيْمَانًا رَجُلٌ مِنْكُمْ ضَاقَ بِرُوحِهِ يَوْمًا فَأَرَادَ إِزْهَافَهَا إِلَّا كَشَفَ لِأَهْلِ الْمَجْلِسِ نَفْسَهُ وَصَدَقَنَا عَنْ أَمْرِهِ؛ وَلَا يَجِدُنَّ فِي ذَلِكَ ثَلَبًا<sup>(٢)</sup> وَلَا عَابًا، فَإِنَّمَا النِّكَبةُ مِذَهَبٌ مِنْ مَذَاهِبِ الْقَدَرِ فِي الْتَّعْلِيمِ؛ وَقَدْ يَكُونُ أَبْتَدَاءُ الْمَصِيبَةِ فِي رَجُلٍ هُوَ أَبْتَدَاءُ الْحِكْمَةِ فِيهِ لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِهِ؛ وَمَا مِنْ حَزِينٍ إِلَّا وَهُوَ يَشْعُرُ فِي بَعْضِ سَاعِاتِ حَزِينِهِ أَنَّهُ قَدْ غَيَّبَتْ فِيهِ أَسْرَارٌ لَمْ تَكُنْ فِيهِ، وَهَذَا مِنْ إِبَانَةِ الْحَقِيقَةِ عَنْ نَفْسِهَا وَمَوْضِعِهَا كَمَا لَأَلَا<sup>(٣)</sup> فِي سِيفِ بَرِيقِهِ .

وَعَقْلُ الْهَمِّ عَقْلٌ عَظِيمٌ، فَلَوْ قَدْ أَرِيدَ اسْتِخْرَاجُ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ النَّاسُ مِنَ الْلَّذَاتِ وَالنَّعْمَ؛ لَكَانَ مِنْ شَرِحِ هَذَا الْعِلْمِ مِنَ الْحَمِيرِ وَالْبَغَالِ وَالدَّوَابَاتِ مَا لَا يَكُونُ مِثْلُهُ وَلَا قُرَابُهُ فِي الْعُقَلَاءِ، وَلَا تَبْلُغُهُ الْقُوَى الْأَدَمِيَّةُ فِي أَهْلِهَا؛ بَيْدَ أَنَّهُ لَوْ أَرِيدَ عِلْمٌ مِنَ الْبُؤْسِ وَالْأَلَمِ وَالْحَاجَةِ لَمَا وُجِدَ شَرْحُهُ إِلَّا فِي النَّاسِ، ثُمَّ لَا يَكُونُ الْخَاصُّ مِنْهُ إِلَّا فِي الْخَاصَّةِ مِنْهُمْ .

وَمَا بَانَ أَهْلُ النِّعَمَةِ وَلَا عَمِرُوا الْمَسَاكِينَ فِي تَطَاوِلِهِمْ بِأَعْنَاقِهِمْ إِلَّا مِنْ أَنَّهُمْ يَعْلُونَ أَكْتَافَ الشَّيَاطِينِ؛ فَالشَّيَاطِينُ دَائِهُ الْغَنِيُّ الَّذِي يَجْهَلُ الْحَقَّ عَلَيْهِ فِي غِنَاهُ وَيَحْسِبُ نَفْسَهُ مُخْلَى لِشَهْوَاتِهِ وَنَعِيمِهِ؛ كَمَا هُوَ دَائِهُ الْعَالَمِ الَّذِي يَجْهَلُ الْحَقَّ عَلَيْهِ

(٣) لَأَلَا: عَابًا وَعِيَا.

(٢) ثَلَبًا: عَابًا وَعِيَا.

(١) خَاطِرَهُ: بَالِهِ .

في علّمه، ويُزعم نفّسه مخلّى لعقله أو رأيه، وما طال الطويل بذلك ولا عن ذلك قصر القصير، وهل يصح في الرأي أن يقال هذا أطول من هذا لأنّ الأول فوق السُّلْمِ والآخر فوق رجله...؟

\* \* \*

قال المسيح: فقام شيخ من أقصى المجلس وأقبل يتخطى الرقاب والناس يترججون<sup>(١)</sup> له حتى وقف بإزار الإمام؛ وتفرسته<sup>(٢)</sup> وجعلت عيني تعجمه<sup>(٣)</sup>، فإذا شيخ تبدو طلاقة وجهه شباباً على وجهه، أبلغ الغرّة متهلل عليه بشاشة الإيمان وفي أسريره أثر من تقطيب قديم، ينطّق هذا وذاك أنّ الرجل فيما أتى عليه من الدهر قد كان أطفأ المضيّ الذي في قلبه مرّة ثم أضاءه. وعجّب أن يكون مثل هذا الشيخ قد هم بقتل نفسه يوماً، وأنا أرى بعيني نفسه هذه مُثيّقة في الحياة أبناق الشّخّلة السّحوق.

وتكلّم هذا الرجل فقال:

أماماً إذ ناشدتنا<sup>(٤)</sup> الله والإسلام وميثاق العلم ووحى الأقدار في حكمتها، فإنّي محدثك بخبرى على وصفه ورصفه: أملقت<sup>(٥)</sup> منذ ثلاثين سنة ووقف بي من الدهر ما كان يجري، وأصبحت في مزاولة الدنيا كعاصر الحجر يريد أن يشرب منه، وعجزت يدي حتى لظفّر دجاجة في نبشهما التراب عن الحبة والحسنة أقدر مني؛ وطرقني النواب<sup>(٦)</sup> كائناً هي ساكتي في داري، وأكلني الدهر لحمها ورماني عظامها، فما كان يقف على إلا كلاب الطريق؛ولي يومئذ امرأة أعقبت منها طفلاً، ويلزمني حقهما ولا أستطيعه؛ وكان بيننا حب فوق المعاشرة والألفة قد تركني من أمرأتي هذه كالشاعر الغزل من صاحبته، غير أنّ الشعر في دمي لا في لساني.

فلما نهكتني<sup>(٧)</sup> المصائب وتناولتني من قريب ومن بعيد؛ قلت للمرأة ذات يوم وقد شجبت وأنكسر وجهها وتقبّض<sup>(٨)</sup> من هزاله: وأيم الله يا فلانة لو جاز أن يؤكل لحم الآدمي لذبحت نفسى لتأكلي وتدرى على الصبي؛ ولقد همت أن أركب رأسى وأذهب على وجهي لتفقدانى فتفقدا شوّمي عليكم؛ ولكن رذنى

(١) يترجون له: يُفسرون له الطريق.

(٢) تفرسته: نظرت إليه بامعان.

(٣) تعجمه: تفخصه.

(٤) ناشدتنا الله: استحلفتنا.

(٥) أملقت: افتررت.

.

(٦) طرقني التواب: حلّت بي المصائب.

(٧) نهكتني: أتعنتي وأضتنى.

(٨) تقبّض: انكمش.

قلبي، وهو حَبْسِنِي في هذه الدنيا الصغيرة التي بيتكما، فليس لي من الأرض مَشْرِقٌ ولا مَغْرِبٌ إِلَّا أَنْتِ وهذا الصبي. ولستُ أدرِي - والله! - ما نصنع بالحياة وقد كُنَا من نباتها الأخضرِ فرجعنا من حطِبِها اليابس؟ وعادتِ الشمسُ لا تَغْدوها بل تَمْتَصُ منها ما بقي، ولا تستضيء لها، ولكن تَسْتَوْقِدُ عليها!

إِنَّ مَنْ فَقَدَ الْخَيْرَ وَوَقَعَ فِي الشَّرِّ، حَرِيٌّ<sup>(١)</sup> أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَ خَيْرًا عَظِيمًا إِذَا قُتِلَ نَفْسَهُ فَخَلَصَ مِنَ الشَّرِّ وَالْخَيْرِ جَمِيعًا، لَا يُكْدِي<sup>(٢)</sup> وَلَا يَنْجُحُ، وَلَا يَأْلُمُ وَلَا يَلْذُ، وَكَمَا أَنْكَرْتُهُ الدُّنْيَا فَلَيُنَكِّرْنَا. أَمَا إِنَّهُ إِنْ كَانَ الْقَبْرُ فَالْقَبْرُ وَلَكِنْ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ لَا عَلَى ظَهْرِهَا كَحَالِنَا؛ وَإِنْ كَانَ الْمَوْتُ فَالْمَوْتُ وَلَكِنْ فِي بَمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ وَفِي شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا كَهْدَأُ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ أَنْواعًا أَنْواعًا. قد ماتَتْ أَيَّامُنَا، وَتَرَكَتْنَا نَعِيشُ كَالْمَوْتَى لَا أَيَّامَ لَهُمْ، وَزَادَ عَلَيْنَا الْمَوْتَى فِي النِّعَمَةِ وَالرَّاحَةِ أَنَّهُمْ لَا يَتَطَقَّلُونَ<sup>(٣)</sup> عَلَى أَيَّامٍ غَيْرِهِمْ فَيُطَرَّدُوا عَنْ يَوْمِ هَذَا وَيَوْمِ ذَاك.

قال: فَأَسْتَعْبِرُ<sup>(٤)</sup> الْمَرْأَةَ بَاكِيَّةً، وَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ كَلَامِ دَمْوعِهَا قَالَتْ: كَائِنُكْ تُرِيدُ أَنْ تَنْجَعَنَا فِيَكِ؟ قَلَّتْ: مَا عَدَوْتُ مَا فِي نَفْسِي؛ وَلَكِنْ هُلْ بَقَيَ فِي مَنْ ثَقَجَعَنَ فِيهِ؟ أَمَا ذَهَبَ مِنِي ذَاكُ الَّذِي كَانَ لِكِ زَوْجًا وَكَاسِبًا، وَجَاءَ الَّذِي هُوَ هُمُّكُ وَهُمُّ هَذَا الصَّبِيِّ مِنْ رَجُلٍ كَالْحَفْرَةِ لَا تَتَقَلَّ مِنْ مَكَانِهَا وَتَأْخُذُ لَا تُعْطِي؟

أَمْ وَاللهِ لَكَائِنِي خَلَقْتُ إِنْسَانًا خَطَلًا، حَتَّى إِذَا تَبَيَّنَ الْغَلْطُ أَرِيدُ إِرْجَاعِي إِلَى الْحَيْوَانِ فَلَمْ يَأْتِ لَا هَذَا وَلَا ذَاكُ، وَبِقِيَّتْ بَيْتَهُمَا؛ يَمُرُّ النَّاسُ بِي فَيَقُولُونَ: إِنْسَانٌ مِسْكِينٌ. وَأَحَسَّ لَوْ نَطَقَتِ الْكَلَابُ لَقَالَتْ عَنِّي: كَلْبٌ مِسْكِينٌ. يَا عَجِيَا! عَجِيَا لَا يَتَهَيِّ! أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا فِي يَدِنَا مِنَ الْعَجَزِ وَالْيَأسِ كَائِنًا هِيَ بَغْرَةٌ تَجْهَدُ فِي تَحْوِيلِهَا يَاقُونَةً أَوْ لَوْلَةً...

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: وَاللهِ لَئِنْ حَيَّتْ عَلَى هَذَا إِنَّهُ لَكُفُرٌ قَبِيجٌ، وَلَئِنْ مُتْ عَلَيْهِ لَأَقْبُحُ وَأَشَدُ.

فَقَلَّتْ لَهَا: وَيَحْكِي وَمَاذا تَنْظُرُ الْعَيْنُ الْمُبَصِّرَةُ فِي الظُّلُمَ الْحَالِكِ إِلَّا مَا تَنْظُرُ الْعَمِيَاءُ؟

قَالَتْ: وَلِمَ لَا تَنْظُرُ كَمَا يَنْظُرُ الْمُؤْمِنُ بِنُورِ اللهِ؟

(١) حَرِيٌّ: جَدِيرٌ.

(٢) أَكْدِي: قَلْ خَيْرٌ وَعَطَاؤُهُ.

قلت : فأنظري أنت وخبرني ماذا ترين . أترین رغيفاً؟ أترین إداماً؟ أترین ديناراً؟

قالت : والله إني لأرى كل ذلك وأكثر من ذلك . أرى قمراً سينكشيف هذه السدفة<sup>(١)</sup> المظلمة إن لم يطلع فكان قد .

قال : فغاظتني المرأة ورأيتها حينئذ أشد على بقلة ذات عقلها من قلة ذات يدي ؛ ولو لا حبي إليها ورحمتي لها لأوقعت بها<sup>(٢)</sup> . واستحکم في ضميري أن أزهق نفسي وأدعها لما كتب لها .

وقلت : إن جبن المرأة هو نصف إيمانها حين لا يكون نصف عقلها ، وللقدر يد ضعيفة على النساء تضعفهن وتensusخ دموعهن ، والله يد أخرى على الرجال ثقيلة تصفع الرجل وتأخذ بحلقه فتعصره .

\* \* \*

قال : وكنت قد سمعت قول الجاهلية في هذه الخلقة ؛ أرحام تدفع ، وأرض تبلغ . فحضرني هذا القول تلك الساعة وشبّه لي ، وأعتقدت أن هذا الإنسان شيء حقير في الغاية من الهوان والضعة : حملته أمّه كرها ، وأنقلت به كرها ، ووضعته كرها ؛ وهو من شؤمه عليها إذا دنّا لها أن تضع لم يخرج منها حتى يضرّ بها المخاض فتقلى وتصبح وتنمزق وتصدّع<sup>(٣)</sup> ؛ وربما تشب فيها فقتلها ، وربما التوى فينقر بطنها عنه . وإذا هي ولدت على أي حالٍها من عشر وطريق بمثيل المطارات المحطمـة ، أو سراح وراح كما يتيسّر - فإنما تلده في مشيمة ودماء وقدر من الأخلاط كأنما هو خارج من جرح . ثم تناوله الدنيا فتضعه من معانيها في أقبح وأقذر من ذلك كله . ثم يستوفي مدة فيأخذ القبر فيكون شرّا عليه في تمزيقه وتعفيه وإحالته .

قال : وحضرني مع كلمة الجاهلية قول ذلك الجاهل الزنديق الذي يعرف بالبقلة ) - إذ كان يزعم أنّ الإنسان كالبقلة ، فإذا مات لم يرجع . وقلت لنفسي : إنما أنت بقلة حمقاء ذاوية في أرض نشاشة<sup>(٤)</sup> ، فقتلتها ملح أرضها أكثر مما أحياها .

(١) السدفة : الظلمة والعتمة .

(٢) أوقعت بها : نزلت بها ضرباً .

(٣) تصدع : تتكسر .

(٤) الأرض النشasha : السبخة التي يوجد فيها الماء والملح .

قال : وَتَرَزَّتْ إِلَى الْمِدْيَةِ<sup>(١)</sup> أَرِيدُ أَنْ أَتَوَجَّأَ بِهَا ، فَتُبَادِرُنِي الْمَرْأَةُ وَتَحْوِلُ بَيْنِي  
وَبَيْنَهَا ؛ وَأَكَادُ أَبْطُشُ بِهَا مِنَ الْغَيْظِ ، وَكَانَتْ رُوْحُ الْجَحِيمِ تَزَرَّفُ مِنْ حَوْلِي لَوْسَمِعُوا  
سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفَوَّرُ ؛ فَمَا أَدْرِي أَيُّ مَلِكٍ هَبَطَ بِوْخِي الْجَنَّةَ فِي لِسَانِي أَمْرَأِي .

قَلْتُ لَهَا : إِنَّهَا عَزْمَةٌ مُنِيَّ أَنْ أُقْتَلَ نَفْسِي .

قَالَتْ : وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَنْقُضَهَا وَلَسْنُ أَرْدُكُ عَنْهَا وَسَمْضِيَهَا .

قَلْتُ : فَخَلَّيْ بَيْنَ نَفْسِي وَبَيْنَ الْمِدْيَةِ .

قَالَتْ : كُلُّنَا نَفْسٌ أَنَا وَأَنْتَ وَالصَّبِيُّ فَلَنْتَقْضِ معاً ؛ وَمَا بِنَفْسِي عَنْ نَفْسِكَ رَغْبَةٌ  
وَلَا نَدْعُ الصَّبِيَّ يَصْفَعُهُ مَنْ يُطْعِمُهُ ، وَيُضَرِّبُهُ أَبْنُ هَذَا وَأَبْنُ ذَاكَ إِذْ لَا يَسْتَطِعُ أَنْ  
يَقُولَ فِي أَوْلَادِ النَّاسِ أَنَا ابْنُ ذَلِكَ وَلَا ابْنُ هَذَا .

قَلْتُ : هَذَا هُوَ الرَّأْيِ .

قَالَتْ : فَتَعَالَ أَذْبِحْ الْأَطْفَلِ . . . .

\* \* \*

قَالَ الْمُسِيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَمَا بَلَغَ الرَّجُلُ فِي قَصْتِهِ إِلَى ذَبْحِ صَغِيرٍ حَتَّىٰ ضَرَّ  
النَّاسُ ضَرْجَةً مُنْكَرَةً ؛ وَتَوَهَّمَ كُلُّ أَبٍ مِنْهُمْ أَنَّ طَفْلَهُ الصَّغِيرُ مُمَدَّدٌ لِلذَّبْحِ وَهُوَ يُنَادِي  
أَبَاهُ وَيُشَقِّ حَلْقَهُ بِالصُّرَاحِ : يَا أَبِي يَا أَبِي ؛ أَدْرَكْنِي يَا أَبِي .

أَمَّا الْإِمَامُ فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَكَنْثَ بَيْنَ يَدِيهِ فَسَمِعَتْهُ يَقُولُ : إِنَّا لِلَّهِ، كَيْفَ تَصْنَعُ  
جَهَنَّمُ حَطَبَهَا؟

وَأَنَا فَمَا قَطَّ نَسِيَتْ هَذِهِ الْكَلْمَةِ ، وَمَا قَطَّ رَأَيْتُ مِنْ بَعْدِهَا كَافِرًا وَلَا فَاسِقاً  
فَأَغْتَبَرْتُ أَعْمَالَهُ إِلَّا كَانَ كُلُّ ذَلِكَ شَيْئًا وَاحِدًا هُوَ طَرِيقَةُ صَنْعِتِهِ حَطَبًا . . . كَانَ  
الشَّيْطَانُ لَعْنَهُ اللَّهُ يَقُولُ لِأَبِيَّهُ : جَفَّفُوهُ . . .

وَكَانَتْ هُنَيْهَاتُ ، ثُمَّ فَاءُ النَّاسُ وَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ وَصَاحُوا بِالْمُتَكَلِّمِ : ثُمَّ مَاذَا؟

\* \* \*

قَالَ الرَّجُلُ : فَفَتَحْتُ عَيْنِي وَقَلْبِي معاً وَرَمَقْتُ<sup>(٢)</sup> الْأَطْفَلَ الْمُسْكِينَ الَّذِي لَا  
يَمْلِكُ إِلَّا يَدِيهِ الْمُسْعِفَيْتَينِ ؛ وَنَظَرْتُ إِلَى مَجْرَى السَّكِينِ مِنْ حَلْقِهِ وَإِلَى مَحْزُونِهِ<sup>(٣)</sup> فِي

(١) الْمِدْيَةُ : السَّكِينُ .

(٢) مَحْزُونُهُ : مَوْضِعُ الذَّبْحِ .

(٣) رَمَقْتُ : نَظَرْ بِطَرْفِ نَظَرِهِ .

رقبته اللينة؛ ورأيته كائناً تفرق بصره من الفرع على كل جهة، ورأيته يتضئ لعيشه الباكيتين ألا أذبه، ورأيته يتسلل بيديه الصغيرتين كائناً عرف أنه متى أمام قاتله، ثم خيل إلى أنه يتلوى ويتنفس ويصرخ من الم الذبح تحت يد أبيه؛ تحت يد أبيه التعيس.

يا ولاته! لقد أخذني ما كان يأخذني لو تهدمت السماء على الأرض، وحسبت الكون كله قد انفجر صراخاً من أجل الطفل الضعيف الذي ليس له إلا ربه أمام القاتل.

فهرولت<sup>(١)</sup> مسرعاً وتركت الدار والمرأة والصبي وأنا أقول يا أرحم الرحيمين. يا من خلق الطفل عالمه أمّه وأبّه وحدهما وبقي العالم هباء عنده. يا من دبر الرضيع فوهبته ملكاً ومملكةً وغنى وسروراً وفرحاً، كل ذلك في ثدي أمّه وصدرها لا غير يا إلهي: أنسني مثل هذا النسيان، وأرزقني مثل هذا الرزق، وأكفلني بمثل هذا التدبير فإني منقطع إلا من رحمتك انقطاع الرضيع إلا من أمّه.

\* \* \*

قال الرجل: ولقد كنت مغوراً كالجيفة الراكدة تحسب أنها هي تفورة حين فارقت حشراتها. ولقد كنت أحقر من الذباب الذي لا يجد حقائقه، ولا يتمسها إلا في أقدر القدر.

وما كدت أمضي كما تسوقني رجلاً حتى سمعت صوتاً ندياناً مطلولاً يرجع ترجيع الورقاء<sup>(٢)</sup> في تخانها وهو يرثل هذه الآية:

«وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُوكَ رَبَّهُم بِالْفَدْوَةِ وَالْعَنْيِيْرِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلَنَا قَبْلَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فِرْطًا»<sup>(٣)</sup>.

قال: فوقفت أسمع وماذا كنت أسمع؟ هذه شعل لا كلمات، أحرقت كل ما كان حولي ولمست مصباح روحي المنطفيء فإذا هو يتوجه، وإذا الدنيا كلها تتوجه في نوره، وأرتفعت نفسي عن الجدب<sup>(٤)</sup> الذي كنت فيه وكائناً لفتشي سحابةً من السحب، ففي روحي نسم الماء البارد ورائحة الماء العذب.

لعن الله هذا الاضطراب الذي يبتلى الخائف به. إننا نحسبه أضطراباً وما هو

(١) هرولت: ركضت.

(٢) الورقاء: اليمامة.

إلا اختلاط الحقائق على النفس وذهاب بعضها في بعض، وتضليل الشر في الخير والخير في الشر حتى لا يبين جنس من جنس، ولا يعرف حذ من حذ، ولا تمتازحقيقة من حقيقة. وبهذا يكون الزمن على المبتلى كالماء الذي جمد لا يتحرّك ولا يتساير. فيلوح الشر وكأنه دائمًا لا يزال في أوله ينذر بالأهوال، وقد يكون هؤله أنتهى أو يُوشك.

قال الرجل: وكنت أرى يأسى قد اغترى كل شيء، فامتد إلى آخر الكون وإلى آخر الزمن؛ فلما سكن ما بي إذا هو قد كان يأس يوم أو أيام في مكان من الأمكنة؛ أمّا ما وراء هذه الأيام وما خلف هذا المكان، فذلك حكم حكم الشمس التي تطلع وتغيّب على الدنيا لحياتها، وحكم الماء الذي تهمي السماء به ليسقي الأرض وما عليها، وحكم استمرار هذه الأجرام السماوية في مدارها لا تمسكها ولا ترثها إلا قوّة خالقها.

أين أثر الإنسان الدنىء الحقير في كل ذلك؟ وهل الحياة إلا بكل ذلك؟ وما الذي في يد الإنسان العاجز من هذا النظام كله فيسوع<sup>(١)</sup> له أن يقول في حادثة من حوادثه إنَّ الخير لا يبتدئ وإنَّ الشر لا ينتهي؟

تعتري المصائب هذا الإنسان ليتمحو من نفسه الخسأة والدناءة، وتكتسّر الشر والكبرياء، وتَفَّأ<sup>(٢)</sup> الحدة والطيش؛ فلا يكون من حُمقه إلا أن يزيد بها طيشاً وحدة، وكبرياء وشرًا، ودناءة وخسأة، فهذه هي مصيبة الإنسان لا تلك.

المصيبة هي ما يشأ في الإنسان من المصيبة.

\* \* \*

قال: وردت الآية الكريمة في نفسي لا أشبع منها، وجعلت أرتلها أحسن ترتيل وأطربه وأشجاه؛ فكانت نفسي تهتز وترتج كأنما هي تبدأ تنظيم ما فيها لإقرار كل حقيقة في موضعها بعد ذلك الاختلاط والأضطراب.

صبر النفس مع الذين يمثلون روحانيتها تمثيلا دائمًا بالغداة والعشي، وعلى نور الحياة وظلماتها، يُريدون وجه الله الذي سبيله الحب لا غيره من مال أو متاع. وتقيد العينين بهذا المثل الأعلى كما يكون الأمر في الجمال والحب؛ والربط على

(٢) فتا الغضب: سكته وكسره.

(١) يسوع: يسمح.

الإرادة كيلاً تَنْفَلَتْ فُشِيفَ<sup>(١)</sup> إلى حقائق الدنيا المسمى هُزُعاً وتهكمَا زينة الدنيا، تلك التي تُشَبِّهُ حقائق الذباب العالية... ف تكون قدرة نجسة، ولكنها مع ذلك زينة الحياة لهذا الخلق الذبابي.

تلك - والله - هي أسباب السعادة والقوّة. أمّا المصائب كلّها، فهي في إغفال القلب الإنساني عن ذكر الله.

\* \* \*

قال: ولما صَحَّتْ توبتي، وَقَوِيَ اليقين في نفسي، كَبُرَتْ روحِي واتسعتْ، وأنبعثت لها بواعث من غير حقائق الذباب، وأشرق فيها الجمال الإلهي ساطعاً من كل شيء، وكان الصبح يطلع على كائنة ولادة جديدة، فأنا دائماً في عمر طفل، وجاءني الخير من حيث أخْتَسِبَ<sup>(٢)</sup> ولا أحْتَسِبَ، وكائناً نَمِتْ فانتبهتْ غنياً وعمل القلب الحي في الزمن الحي.

ولقد أخذت مِن الآية طبيعة لم تُكُنْ فِي، ولا يثبتُ معها الشُّرُّ أبداً، فأصبحَ من خصالي أن أرى الحاضر كله متحركاً يمر بما فيه من خيره وشره جميماً، وأنتشّعَ حركته مثلما ترى عيناي من قطار الإبل يهتز تحت رحاله وهو يُغَدِّ السير<sup>(٣)</sup>.

لم أُبْعِدْ قليلاً وأنا أمشي مطمئناً تائباً متوكلاً حتى دعاني رجل ذو نعمة ومرودة وجاه، وكائناً كلامه قلبه أو كلامه وجهي في قوله فاستثناني، وبَشَّته<sup>(٤)</sup> حالِي وافتضلت قصتي. فقال: سِيُحِبِّيكَ اللَّهُ بِالظَّفَلِ الَّذِي كِدْتَ تَقْتُلُهُ فَأَرْجِعُ إِلَيْكَ دارِكَ. ثُمَّ وجَّهَ إِلَيَّ دنانير وقال: إِنَّجْزُ بِهَذِهِ عَلَى أَسْمَ اللَّهِ وَبِرَكَتِهِ فَسِينِمُو فِيهَا طَفْلٌ مِنَ الْمَالِ حَتَّى يَبْلُغَ أَشْدَهُ.

وقد صدق إيمانه وإيماني، فبارك لي الله ونما طفل المال وبلغ وجائز إلى شبابه.

\* \* \*

قالَ الْمَسِيَّبُ: وجلسَ الرَّجُلُ وَكَانَ كَاالْخَطِيبِ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَقَالَ الْإِمَامُ: مَا أَشَبَّهَ النَّكَبةَ بِالْبَيْضَةِ تُحَسِّبُ سِجَنًا لِمَا فِيهَا وَهِيَ تَحْوِطُهُ وَتَرْبِيَهُ وَتَعْيِنَهُ عَلَى تَمامِهِ، وَلِيَسْ عَلَيْهِ إِلَّا الصَّبْرُ إِلَى مَدَّةٍ، وَالرُّضْيَ إِلَى غَايَةٍ، ثُمَّ تَنْقُضُ الْبَيْضَةُ فَيَخْرُجُ خَلْقاً آخَرَ.

وَمَا الْمُؤْمِنُ فِي دُنْيَا إِلَّا كَالْفَرَنْخُ فِي بَيْضَتِهِ، عَمِلَهُ أَنْ يَتَكَوَّنَ فِيهَا، وَتَمَامُهُ أَنْ يَنْبُقَ شَخْصُهُ الْكَاملُ فَيَخْرُجَ إِلَى عَالَمِهِ الْكَاملِ.

(١) تَسْفَ: تَنْهَطُ.

(٢) يَغَدِّ السِّيرَ: يَجِدُ فِي سِيرِهِ.

(٣) احْتَسِبَ: اعْتَقَدَ وَظَنَّ وَأَمْلَ.

(٤) بَشَّهَ: أَعْلَمَهُ وَأَطْلَعَهُ عَلَى أَمْرِيِ.

## الانتحار

٤

قال المسيب بن رافع : ومد الإمام عينه وقد رفع له شخص من المجلس ؛ ثم جلى بنظره كائنا يتطلع إلى عجيبة كالحق إذا بطل ، والصدق إذا كذب ؛ ثم رد بصرها على كأنه يعجّبني من عجبه ؛ ثم سجا<sup>(١)</sup> طرفة كائنا أنكر رأي عينيه فهو يلتمس رأي قلبه . وتبينت في وجهه أقباضاً خيل إلى أن الشيطان جاءه بهذا الرجل يفحمه<sup>(٢)</sup> به يربوه كيف يجعل أحد المؤمنين الصالحين يتهمس في دينه ليرجع بعد ذلك أصلاً لا غنى عنه في إنشاء قصة كفر !

هذا هو ضيقنا (أبو محمد البصري) يتخرّض<sup>(٣)</sup> الناس ليجيء فيحدثنا حديثه في قتل نفسه والاثم بربه ؛ فلو قيل لي : إن قوس السماء بأحمره وأصفره وأزرقه وأخضره ، قد وقع إلى الأرض وأصطبح من ألوانه أو حالاً وأقداراً ، لكن هذا كهذا في تعاظمه وإنكاره والعجب منه ؛ فأبو محمد من الرجال الحمس<sup>(٤)</sup> الذين لو كفر أحدُهم ثم قيل : إنه كفر ، لقصّر لفظ أن يبلغ الحقيقة أو يصف شعّتها ، كما يقصّر لفظ الجنون عن وصف حكيم تالي أن يعمل عملاً يخرج به من الكون ، فلا يبقى في أرض ولا سماء ولا تناله يد الله ! إن في لفظ الكفر مع ذاك ، وفي لفظ الجنون مع هذا - شيئاً من نفاق العقل وتأدبه في أداء المعنى الأخرق الذي لا يُشبهه جنون ولا كفر .

ونعود بالله من خذلانه<sup>(٥)</sup> ؛ فلقد يكون الرجل المؤمن في تشده وإيغاله في الدين - كالذي يصنع حلاً يقتلة فتلاً شديداً فميّره على طaci بعد طaci ، ليكون أشد

(١) سجا: سكن ودام.

(٢) يفحمه: يقنعه ويغلب عليه.

(٤) الحمس: أي المتمحمسين في دينهم.

(٥) خذلانه: تخليه.

(٣) يتخرّض: يتخطى.

لَهُ وَأَقْوَى، ثُمَّ يُجَاذِبُهُ الشَّيْطَانُ بَحْلَهُ، فَإِذَا هُوَ كَانَ فِي الْوَهَنِ مثْلَ الْعَنْكُوبِ أَتَخَدَثَ بِيَتًا فِي سَقْفِ حَدَادٍ؛ فَرَأَتُهُ يَصْبُرُ الْحَدِيدَ الْمُصْهُورَ يَجْعَلُهُ سَلْسَلَةً حَلْقَةً فِي حَلْقَةٍ، فَذَهَبَتْ تَحْكِيهِ وَتَرْسِيلُهُ مِنْ لُعَابِهَا خَيْطًا فِي خَيْطٍ تَرْعَمُهُ سَلْسَلَةً . . . !

إِنَّ مَعَ كُلِّ مُؤْمِنٍ شَيْطَانًا يَتَرَبَّصُ<sup>(۱)</sup> بِهِ، فَلَهُذَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ كَالذِّي يَشْعُرُ أَنَّهُ لَمْ يَؤْمِنْ إِلَّا مِنْذُ سَاعَةٍ، فَهُوَ أَبْدًا مُحْتَرِسٌ مُتَهَيِّئٌ مُتَجَدِّدٌ الْحَوَاسِنُ مُزَهَّفُهَا يَسْتَقْبِلُ بِهَا الدِّنَيَا جَدِيدَةً عَلَى نَفْسِهِ بَيْنَ الْفَتْرَةِ وَالْفَتْرَةِ؛ وَمِنْ هَذَا حِكْمَةُ أَنْ يَؤْذَنَ الْمُؤْذَنُ، وَأَنْ تُقَامِ الصَّلَاةُ مِرَارًا فِي الْيَوْمِ، فَكُلَّمَا بَدَأَ وَقْتٌ قَالَ الْمُؤْمِنُ: الآنَ أَبْدًا إِيمَانِي أَطْهَرَ مَا كَانَ وَأَقْوَى.

\* \* \*

وَقَالَ الْإِمامُ: هِيَهُ يَا أَبَا مُحَمَّدًا فَقَالَ الْبَضْرِيُّ وَقَدْ رَأَى الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِ الْإِيمَانِ: لَا يُفْرِغُنَّكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَدْ يَجْعَلُ مَا يُحِبُّهُ هُوَ فِيمَا نَكَرَهُ نَحْنُ؛ وَلَيْسَ لِلْأَقْدَارِ لِغَةٍ فَتَجْرِي عَلَى الْفَاظِنَا؛ وَقَدْ نُسَمِي النَّازِلَةَ<sup>(۲)</sup> تَنْزُلُ بِنَا خَسَارًا وَهِيَ رِبْعٌ، أَوْ نَقْوِلُ مَصِيبَةً جَاءَتْ لِتَبْدِيلِ الْحَيَاةِ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا طَرِيقَةً تَيَسِّرُثُ لِتَبْدِيلِ الْفَكْرِ. إِنَّمَا لِغَةُ الْقَدَرِ فِي شَيْءٍ هِيَ حَقِيقَةُ هَذَا الشَّيْءِ هِيَ حِينَ تَظَهُرُ الْحَقِيقَةُ؛ وَكَائِنُ مِنْ حَادَثَةٍ لَا تُصِيبُ أَمْرًا فِي نَفْسِهِ إِلَّا لِتَقْعُ بِهَا الْحَرْبُ بَيْنَ هَذِهِ النُّفُسِ وَبَيْنَ غَرَائِزِهَا. فَتَكُونُ أَعْمَالُ الطَّبِيعَةِ الْمَعَادِيَةِ أَسْبَابًا فِي أَعْمَالِ الْعُقْلِ الْمُتَنَصِّرِ.

وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ الَّذِي يُفْضِي عَلَى الْإِنْسَانِ، لَا يَكُونُ إِلَّا وَسَائِلُ مِنَ الْقَدَرِ يُرَدُّ بِهَا الْإِنْسَانُ إِلَى عَالَمِ فَكْرِهِ الْخَاصِّ بِهِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الدِّنَيَا عَالَمٌ وَاحِدٌ لِكُلِّ مَنْ فِيهَا، وَلَكِنَّ دَائِرَةَ الْفَكْرِ وَالنَّفْسِ هِيَ لِصَاحِبِهَا عَالَمَةُ وَحْدَهُ. وَالسَّعِيدُ مِنْ قَرَّ فِي عَالَمِهِ هَذَا وَأَسْتَطَاعَ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِ كَالْمَلِكِ فِي مَمْلَكَتِهِ، نَافِذًا الْأَمْرِ فِي صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا؛ وَالشَّقِيقُ مَنْ لَا يَزَالُ ضَائِعًا فِي كُلِّ هَذَا كَالْأَجْنِيَّةِ فِي غَيْرِ بَلَدِهِ وَغَيْرِ قَوْمِهِ وَغَيْرِ أَهْلِهِ، إِذَا كُلُّ شَيْءٍ يُصْبِحُ أَجْنِيَّا عَنِ الْإِنْسَانِ مَا دَامَ هُوَ أَجْنِيَّا عَنِ نَفْسِهِ.

لَقَدْ كَثُرَ ضَالًا عَنِ نَفْسِي وَعَالَمِهَا، فَكَثُرَ فِي هَذِهِ الدِّنَيَا أَسْتَشْعِرُ شَعْرَ اللَّصِنِ، أَشْيَاوِهِ هِيَ أَشْيَاوِ النَّاسِ جَمِيعًا؛ وَاللَّصِنُ يَنْتَرُ إِلَى أَمْوَالِ النَّاسِ بِعِينِي شَاعِرٌ مُتَحَبِّبٌ كَلِيفُ<sup>(۳)</sup>، وَهِيَ تَنْتَرُ إِلَيْهِ بِعِينِي مُقاَاتِلٌ مُتَرَبَّصِينَ حَذَرِ.

(۱) يَتَرَبَّصُ بِهِ: يَتَحِينُ الفَرْصَ.

(۲) النَّازِلَةُ: الْمَصِيَّةُ الطَّارِهَةُ.

وَكُنْتُ تَرِقًا<sup>(١)</sup> حَدِيدَ الطَّبَعِ سَرِيعَ الْبَادِرَةَ<sup>(٢)</sup>؛ وَمَنْ فَقَدَ عَالَمَ نَفْسِهِ وَكَانَ فِي مَثَلِ الْلَّصِ الَّذِي ذَكَرْتُ؛ فَإِنَّ هَذَهُ الطَّبَاعَ تَكُونُ هِيَ أَسْلَحَتُهُ يَدْفَعُ بِهَا أَوْ يَعْتَدِي. وَمَا قَطُّ تَمَكَّنَ إِنْسَانٌ مِنْ نَفْسِهِ وَأَحاطَ بِهَا وَنَفَدَ فِيهَا تَصْرُفُهُ؛ إِلَّا كَانَ رَاضِيًّا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا يَتَصَلُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِجَهَتِهِ السَّامِيَّةِ لَا غَيْرَهَا، حَتَّى فِي اتِّصَالِهِ بِأَعْدَائِهِ مِنَ النَّاسِ وَأَعْدَائِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ؛ فَمَا يَرِي هُؤُلَاءِ وَلَا هُؤُلَاءِ إِلَّا أَمْتَحَنَاهُ لِفَضَائِلِهِ وَإِثْبَاتِهِ لَهَا. وَقَدْ يَكُونُ عَدُوكَ فِي بَعْضِ الْأَمْوَارِ عِنْدَكَ فِي رَوْيَةِ نَفْسِكَ؛ فِيهِ بَرَكَةٌ هَذِهِ الْحَاسَةُ وَيَنْعَمُتُهَا.

وَلَوْ نَحْنُ كُنَّا مُسْلِمِينَ إِسْلَامَ نَبِيِّنَا ﷺ، وَإِسْلَامَ الْمُقْتَدِينَ بِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ - لَأَدْرَكْنَا سَرَّ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ؛ وَهُوَ أَنْ يَقَرَّ الإِنْسَانُ فِي عَالَمِ نَفْسِهِ وَيَجْعَلَ بَاطِنَهُ كَبَاطِنَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهِ، لَيْسَ فِيهِ إِلَّا قَانُونُهُ الْوَاحِدُ الْمُسْتَمِرُ بِهِ إِلَى جَهَةِ الْكَمَالِ، الْمُرْتَفِعُ بِهِ مِنْ أَجْلِ كَمَالِهِ عَنْ دَوْافِعِ غَيْرِهِ؛ فَنَظَرُ الإِنْسَانِ إِلَى نَفْسِهِ غَيْرُهُ هُوَ أَوْلُ نَفْسِهِ. وَالْمُؤْمِنُ كَالْغَصْنِ؛ إِنْ أَثْمَرَ فَتِلْكَ ثَمَارُ نَفْسِهِ، وَإِنْ عَطَلَ لَمْ يَشَحَّذْ وَلَمْ يَحْسُدْ وَأَسْتَمِرْ يَعْمَلُ بِقَانُونِهِ.

وَلَقَدْ نَشَأْتُ فِي مَغْرِسٍ<sup>(٣)</sup> كَرِيمٍ، عَلَى صُورَةِ مِنَ الْحَيَاةِ تُشَبِّهُ صُورَةَ الشَّمْرَةِ الْحَلْوَةِ، اجْتَمَعَ لَهَا مِنْ طَبِيعَةِ مَغْرِسِهَا وَمَرْتَبَتِهَا مَا تَعَيَّنَ بِهِ مِنْ حَلاوةً وَنَكْهَةً وَمَذَاقًّا؛ فَلَمَّا عَقَلْتُ<sup>(٤)</sup> وَعَرَفْتُ النَّاسَ بَعْدُ فَجَارِيَّتُهُمْ<sup>(٥)</sup> وَخَالَطْتُهُمْ، رَأَيْتُنِي مِنْهُمْ كَالْتَفَاحَةِ مُلْقَأً فِي الْبَصَلِ. وَكَانَتِ الْتَفَاحَةُ حَمْقَاءَ فَزَادَتْ خَمْقَاً، وَكَانَتْ جَدِيدَةً فَزَادَتْ حِدَةً، وَظَنَّتُ أَنَّ الْحِكْمَةَ قَدْ مَسَحَّتْ فِي الدُّنْيَا وَبَدَلَتْ إِذَا خَلَقَتِ الْبَصَلَةَ بَعْدَ أَنْ خَلَقَتِ الْتَفَاحَةَ؛ وَمَا عَلِمْتِ الْخَرْقَاءَ أَنَّ الْكَمَالَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مَجْمُوعُ نَقَائِصِ، وَأَنَّ لِلْجَمَالِ وَجَهِينَ: أَحَدُهُمَا الَّذِي أَسْمَهُ الْقَبْحُ؛ لَا يُعْرَفُ هَذَا إِلَّا مِنْ هَذَا؛ وَأَنَّ الْبَصَلَةَ لَوْ أَدْرَكَتْ مَا يُرِيدُ النَّاسُ مِنْ مَعْنَاهَا وَمَعْنَى الْتَفَاحَةِ لَسَمِّتْ نَفْسَهَا هِيَ الْتَفَاحَةُ، وَقَالَتْ عَنْ هَذِهِ إِنَّهَا هِيَ الْبَصَلَةُ!

وَلَمَّا رَأَتْ تَفَاحَتِي أَنَّهَا عاجِزةٌ أَنْ تَجْعَلَ الشَّجَرَ كُلَّهُ فِي مَثَلِ مَرْتَبَتِهَا وَمَغْرِسِهَا - قَالَتْ: إِنَّ الْأَمْرَ أَكْبَرُ مِنْ طَبِيعَتِي، وَمَا دَامَ سَرُّ الْكَوْنِ مُعْلَقاً فَلَا تَعْرِيفَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ

(١) نَرِقَا: سَرِيعُ الغَضْبِ، طَائِشًا.

(٢) الْبَادِرَةُ: الغَضْبُ.

(٤) عَقَلْتُ: أَدْرَكْتُ.

(٥) جَارِيَّتُهُمْ: مَاشَيْتُهُمْ وَوَافَقْتُهُمْ.

(٣) مَغْرِسُ: مَنْبَتُ فِي بَيْتِ وَعَائِلَةٍ.

سِرْ مُغلَقٌ، وَلَيْقَنَ كُلُّ شَيْءٍ فِي طَبِيعَةِ نَفْسِهِ، فَعَلَى هَذَا يَصْلُحُ كُلُّ شَيْءٍ وَلَوْ فِي نَفْسِهِ وَحْدَهَا.

\* \* \*

قال أبو محمد: ولكن بقيَتْ وَحْشَةُ الدُّنْيَا وَجَفْوَتُهَا، إِذَا لَمْ أَكُنْ أَهْتَدِيهَا إِلَى عَالَمِي، وَلَا تَأْكُدَتْ عِقِيدَتِي بِنَفْسِي؛ فَكَانَ كُلُّ مَا حَوْلِي مُثِبِّجَسًا<sup>(۱)</sup> فِي رُوحِي بِشَرْهِ، وَكَانَتِ الدُّنْيَا بِهَا كَالْمُتَطَابِقَةِ فِي رَأْيِي عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ، وَزَادَنِي أَنِّي كُنْتُ رَجُلًا عَزِيزًا مُتَعَفِّفًا؛ وَمَا أَشْبَهَ فَرَاغَ الرَّجُولَةِ مِنَ الْمَرْأَةِ بِفَرَاغِ الْعُقْلِ مِنَ الْذِكْرَ؛ هَذَا هُوَ الْعُقْلُ الْبَلِيدُ، وَتَلْكَ هِيَ الرَّجُولَةُ الْبَلِيدَةُ!

وَالْمَرْأَةُ تُضَاعِفُ مَعْنَى الْحَيَاةِ فِي النَّفْسِ، فَلَا جَرَمَ كَانَ الْخَلَاءُ مِنْهَا مُضَاعِفَةً لِمَعْنَى الْمَوْتِ؛ عَلِمَ هَذَا مَنْ عَلِمَ وَجَهَلَهُ مِنْ جَهَلٍ، فَكُنْتُ أَعِيشُ مِنَ الْكَوْنِ فِي فَرَاغِ الْمَيْتِ، وَكُنْتُ أَحْسَنُ فِي كُلِّ مَا حَوْلِي وَحْشَةً عَقْلَيَّةً تُشَعِّرُنِي أَنَّ الدُّنْيَا غَيْرُ تَامَّةَ؛ وَكَيْفَ تَتَمُّ في عَيْنِي دُنْيَا أَرَاهَا غَيْرَ الدُّنْيَا الَّتِي فِي قَلْبِي؟

وَعَرَفْتُ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَمْضِي عَلَى الرَّجُلِ الْعَزَبِ الْمُتَعَفِّفِ لَا يَمْضِي حَتَّى يُهْبِيَهُ فِيهِ مَرْضٌ يَوْمَ آخَرَ. وَمِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْمَرِيضَةِ الْمُتَهَالِكَةِ، تُعِدُّ الْحَيَاةُ أَنْتَقامَهَا مِنْ هَذَا الْحَيَّ الَّذِي تَقْضِيَ أَيْتَهَا وَأَفْتَاتَ عَلَيْهَا<sup>(۲)</sup>، وَجَعَلَ نَفْسَهُ كَالْإِلَهِ لَا زَوْجَةَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ!

وَأَئِيمُ اللَّهُ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْرُحُ بِالرَّجُلِ الْزَّانِي وَبِالْمَرْأَةِ الْزَّانِيَّةِ مَا يَفْرُحُ بِالرَّجُلِ الْعَزَبِ وَبِالْمَرْأَةِ الْعَزِيزَاءِ؛ لَا إِنَّهُ فِي ذِينَكَ رَذِيلَةٌ فِي أَسْلُوبِهَا، أَمَّا فِي هَذِينَ فَالشَّيْطَانَ رَذِيلَةٌ فِي أَسْلُوبِ فَضْيَلَةِ . . . ! هَنَاكَ يُلْمُ الشَّيْطَانُ وَيَمْضِي، وَهُنَا يَأْتِي الشَّيْطَانُ وَيُقْيِمُ!

وَقَدْ عَشْتُ مَا عَشْتُ بِقَلْبٍ مُغْلَقٍ وَعَقْلٍ مُفْتَوِحٍ؛ وَلَيَتَنِي كُنْتُ جَاهِلًا مُغْلَقًا عَقْلَهُ، وَكَانَ قَلْبِي مُفْتَوِحًا لِلْأَفْرَاحِ هَذَا الْكَوْنُ الْعَظِيمُ!

وَمَضَتْ أَيَّامِي يَضْرِبُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَيُمْرِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا حَتَّى أَنْهَتْ مُتَهَاها، وَجَاءَ الْيَوْمُ الْمُدْنِفُ<sup>(۳)</sup> الْهَالَكُ الَّذِي سِيمَوتُ.

أَصَبَّحْتُ فَقْلُتُ لِنَفْسِي: كَمْ تَعِيشِينَ وَيَحْكُمُ فِي أَحْكَامِ جَسِيدٍ مُخْتَلٍ لَا تَضَدُّقُ أَحْكَامُهُ، وَمَا أَنْتَ مَعْهُ فِي طَبِيعَتِكِ لَا هُوَ مَعِكِ فِي طَبِيعَتِهِ؛ فَفِيمَ أَجْتَمَاعُكُمَا إِلَّا عَلَى بَلَائِي وَنَكَدِي<sup>(۴)</sup>؟

(۱) المدْنِف: المريض مرضًا ثقيلاً.

(۲) نَكَدِي: سوء حظي.

(۱) منِجَّاسًا: نابتاً.

(۲) افْتَاتَ عَلَيْهَا: جَارٌ عَلَيْهَا فِي الْحُكْمِ.

لم تصطلحها قط على واجب ولا لذة، ولا حلال ولا حرام؛ فأنتما عدوان لا هم لكيلاهما إلا إفساد المسرة التي تَعْرِضُ لِلآخر. وما أدرى بِمَن يسخر الشيطان منكم؟ فالعبد الذي يُوَسِّوسُ باللذات يتمتّى أقrafها، كالفاجر الذي يُوَاقِعُها ويقتحمها!

ويحك يا نفس! إنّي رأيت هذه الدنيا الخرقاء لم تُقدّم لي إلا رغيفاً وقالت: إماًًاً بهذا بطئك وعقلك وعينيك وأذنيك ومشاعرك. آه، آه! ممكِّن واحد معه أربع مستحيلات؛ إنّ هذا لا يُلْبِّيني<sup>(١)</sup> أن يذهب مني بالأربعة التي تمسكني على الحياة: الأمل والعقل والإيمان والصبر.

لقد أستوى في هذه الكآبة صغير همي وكبيره، وما أراني إلا قد أشرفت على الهمكة التي لا باقية لها، فإنّ وجهي المتتكلّح<sup>(٢)</sup> المتقبّض يَدُلُّ مني على أعصاب مُختضرّة نَهَكتها<sup>(٣)</sup> أمراضها ووساوسعها، وإنما وجّه الإنسان في قطوبه<sup>(٤)</sup> أو تهلهل هو وجّهه ووجه دُنياه تعيس أو تبسم.

وتالله لقد عجزت عن كفاح الدنيا بهذه الأعصاب المريضة الواهنة؛ فإنّ حِبَّالة الصيد - صيد الوحش - لا تكون من خيط الإبرة...! وأراني أصبحت كإنسان حجري ليس في طبيعته الالتواه إلى يمين الحياة ويسارها؛ ويجعل إلى من صلابتي أنّي الأسد، ولكنّي أسد من حجر، لا تفرض قوته ألفاراً منه على أحد!

قال أبو محمد: ورأيت نفسي في هذا الحوارِ كالميّة، لا ثجيب ولا تعترض ولا تنكر، وكنت أظنّها تراودني على الحياة أو تردهني عن غوايتي<sup>(٥)</sup>؛ فملأني سكونها جزاً، وأيقنت أنّ الشيطان بيني وبينها، وأنّه أخذ بمتأفّتها، فأردث الصلاة فثقلت عنها ورأيتها لا أصلح لها، بل خيل إلى أنّي إذا قمت إلى الصلاة فإنما قمت لاتهماً بالصلاحة!

وجعل الشيطان يأخذني عن عقلي ويردّني إليه، ثم يأخذني ويردّني، حتى توهّمت أنّي جنّت، وكأنّما كان يُريد اللعين بقيّة إيماني يُجاذبني فيها وأجادبه، فلم ألبث أنّ مسنتي خبال وألقيت هذه البقيّة في يديه!

(١) لا يلبنني: لا يعييني.

(٢) المتتكلّح: المتغيّر، المصفر.

(٣) نهكتها: أتعبتها.

(٤) قطوبه: عبوسه.

(٥) غوايتي: ضلالتي.

ثُمَّ أَفْقَتُ إِفَاقَةً سَرِيعَةً، فَرَأَيْتُ (الْمَصْحَفَ) يَرْقُبُنِي قَرِيبًا، فَعَذْتُ بِهِ<sup>(١)</sup>  
وَعَطَفْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ: إِمْنَعْ الضرْبَةَ عَنْ قَلْبِي. بَيْدَ أَنِّي أَحْسَنْتُ أَنَّهُ خَصْمِي فِي  
مُوقْفِي لَا ظَاهِرِي؛ كَائِنِي جَعَلْتُهُ مَصْحَفًا عِنْدَ زِنْدِيقٍ، فَكَانَ كُلُّ إِيمَانِي الَّذِي بَقَى لِي  
فِي تِلْكَ اللَّهُظَةِ أَنِّي ضَعَفْتُ عَنْ حَمْلِ الْمَصْحَفِ كَمَا ثَقَلْتُ عَنِ الْأَصْلَةِ، فَبَقَى  
الظَّاهِرُ طَاهِرًا وَالنَّجْسُ نَجْسًا.

وَلَمْ تَكُنْ نَفْسِي فِي وَلَا كَثُرَ فِيهَا؛ فَرَأَيْتُ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهٍ لَا أُدْرِي مَا هُوَ،  
غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَعْقُولاً مِنْ تَخَالِيطِ مَجْنُونٍ تَرَكَهُ عَقْلُهُ مِنْ سَاعَةٍ: بِقَايَا  
شَعُورٍ ضَعِيفٍ، وَبِقَايَا فَهْمٍ مَرِيضٍ، تَضَاغَرُ فِيهِمَا الدُّنْيَا، وَيَتَحَاوَرُ بِهِمَا الْعُقْلُ.

فَلَمَّا أَنْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا لَمْ أَعْقُلْ مَا أَعْمَلْتُ، وَكَانَتِ الْمُوسَى قَدْ أَصَابَتْ مِنْ  
يَدِي عِرْقًا نَاشِرًا<sup>(٢)</sup> مُشَتَّرًا، فَفَارَ الدُّمُّ وَانْفَجَرَ مِنْهُ مُثْلُ الْيَنْبُوعِ ضَرِبَ عَنْهُ الصَّرْخُ  
فَانْشَقَ فَانْبَثَقَ.

وَتَحَقَّقْتُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ الْمَوْتُ فَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُ . . . .

\* \* \*

قَالَ الْمُسَيْبُ رَاوِيَ الْقَصَّةِ: وَتَجَهَّمَ وَجْهُ الرَّجُلِ فَأَطْرَقَ وَسَكَّتْ، وَكَانَ عَلَى  
وَجْهِهِ شَفَقٌ مُخْمَرٌ فَأَظْلَمَ بَغْتَةً عِنْدَ مَا قَالَ: «فَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُ». . . .  
وَأَرْتَجَ الْمَسْجَدَ بِصَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ: فَرَأَيْتَ مَاذَا؟ رَأَيْتَ مَاذَا؟

وَبَعَثَتِ الْصَّيْحَةُ أَبَا مُحَمَّدَ فَقَالَ: رَأَيْتُ ثَلَاثَةَ وُجُوهًا أَشْرَفْتُ مِنَ الْمَصْحَفِ  
تَنْظَرُ إِلَيَّ كَالْعَاتِبَةِ، وَكَانَ أَوْسِطُهَا كَالْقَمَرِ الطَّالِعِ، لَوْ تَمَثَّلَتْ آيَاتُ الْجَنَّةِ كُلُّهَا وَجَهَهَا  
لَكَانَتْهُ فِي نَصْرَتِهِ وَبِشَاشِتِهِ. وَغَمْعَمَتِ<sup>(٣)</sup> الْوِجْهُ الْمُؤْمِنُ بِكَلْمَاتٍ لَمْ أَسْمَعْ مِنْهَا  
شَيْئًا، وَلَكِنَّ نَظَرَهَا إِلَيَّ كَانَ يُؤْذِي لِي مَعْانِيهَا، وَكَائِنَهَا تَقُولُ: «أَكَذَّلُكَ  
الْمُؤْمِنُ . . .؟».

ثُمَّ غَابَتْ وَتَخَلَّتْ عَنِّي وَبِرَزَتْ ثَلَاثَةَ وُجُوهًا أُخْرَى، كَائِنَهَا نَقَائِضُ تِلْكَ، وَأَعْوَذُ  
بِاللَّهِ مِنْ أَوْسِطِهَا، لَوْ تَمَثَّلَتْ آيَاتُ الْجَحِيمِ كُلُّهَا وَجَهَهَا لَكَانَتْهُ فِي نُكْرِهِ وَهَوْلِهِ،  
وَخُلِيلٌ إِلَيَّ أَنَّ الْوِجْهَ الْأَصْغَرَ مِنْهَا وَجْهُ سُورَةِ مِنْ سُورَ الْمَصْحَفِ، فَفَكَرْتُ، فَوَقَعَ  
لِي مِمَّا قَامَ فِي نَفْسِي مِنَ اللَّعْنَةِ أَنَّهَا: «تَبَّتْ يَدَآيِ لَهَبٍ وَتَبَّ» . . .

(١) عَذَتْ بِهِ لِجَاتٍ إِلَيْهِ.

(٢) نَاشِرًا: نَافِرًا.

(٣) غَمْعَمَتِ الْوِجْهُ بَانَتْ عَنْ ذُعْرٍ وَخُوفٍ.

وطمس<sup>(١)</sup> الظلام هذه الرؤيا وتعيّمتِ الدنيا، فأيقنتُ أنَّ آثامي قد أقبَلتْ علىِ  
ظلمةٍ بعدَ ظلمةٍ، والتَّمَعَ شيءٌ أحمر، فنظرتُ فإذا الدَّمُ يتخالِلُ في عيني كأنَّه شعلَّ  
تلويَّ، فجزِرْغتُ أشدَّ الجزع، وحسبتها طرائق ممتدةً لِروحِي تذهبُ بها إلىِ الجحيم.  
وما تَثَكَّلُ خواطري بعدَ ذلك إلَّا فكرةً واحدةً بقيَّتْ حيَّةً تأكلُ في قلبي أكلَّ  
النَّار، وهي: «كيفَ تجرأْتُ فوضعتُ بيني وبينَ اللَّهِ حُمُقِي؟».

\* \* \*

ويقولون: إنَّ أختي قد رأتني أتشَخَّطُ<sup>(٢)</sup> في دمي فصاحت، وجاء الناسُ علىِ  
صوتها، وكانَ فيهم طبيبٌ، وبعدَ لأيِّ ما، استطاعَ حبسَ الدَّم، وأحتالَ حيلتهُ حتى  
أَسْفَ<sup>(٣)</sup> الجُرَحَ دواءً وضمَدَه؛ فجعلتُ أثوبُ نفسيَّاً بعدَ نفسيَّ، وراجعتُ قليلاً...  
ثم طافتَ الْحَيَاةُ علىِ عيني ففتحتُها، فإذا الأشياءُ تبدو لي وليسَ فيها حقائقُ ولا  
معانٍ، كأنَّها تتخلَّقُ<sup>(٤)</sup> جديدةً تحتَ بصريِّي، وكأنَّها خارجةً لِساعتها من يدِ اللَّهِ!  
وتماثلتُ شيئاً بعدَ ساعاتٍ، فأحسستُ أنَّ نفسي قد رجعتُ إلىِ ساخرةٍ مني  
تقولُ: كيفَ رأيتَ عمَّالَ العقلِ أيها العاقل؟

وبدأتُ الحياةُ تتجلَّدُ، فأقسَمتُ بيني وبينَ نفسي أنَّ أجَدَّ إيماني بِاللهِ. ولم  
أكُنْ أفعلُ حتى أحسنتُ أنَّ قوَّةَ الْوُجُودِ كُلُّها مستقرَّةٌ في روحي، وحُبِّلَ إلىِي أنَّي أنا  
وحديُ الْقَوْيُ علىِ هذه الأرضِ قُوَّةً جِبالِها وصخورِها، علىِ حينِ كانَ جسمِي  
ممدداً كالملنيَّتِ لا يتَماسُكُ مِنَ الضعفِ!

فأيقنتُ حينئذٍ ما أعرَفُه قطُّ منَ الدنيا ولم أشُعِرْ به قطُّ في الحياةِ ولم يأتِني به عِلْمٌ  
ولا فكرٌ: أيقنتُ أنَّها معجزةُ الإيمانِ الجديدِ الغضَّ<sup>(٥)</sup>، المتصلُ باللهِ لِتوه كإيمانِ الأنبياءِ  
دونَ أنْ تلمسَ شهوةً، أو تعرِضَهُ خاطرةً، أو تُكدرَهُ ذرَّةً واحدةً منْ فكريِّ أرضيِّ دُنسِ.

\* \* \*

قالَ المسيبُ: ثُمَّ جلسَ المتحدثُ، وكانَ الناسُ في آخرِ كلامِه كائناً غادروا  
الدنيا ساعَةً، ورجعوا إليها علىِ مثلِ حالِيهِ ومثلِ إيمانِهِ؛ فسكتَ الإمامُ ولم يتكلَّمُ،  
ليدعَ كلَّ نفسٍ تُكلِّمُ صاحبَها.

(١) طمس: غطى.

(٢) تخلق: تبدو علىِ هيئةٍ جديدةٍ.

(٣) أسف: أسعفَ الجرحَ بوضعِ الدواءِ فيه لينقطعُ.

(٤) الغض: الطريء.

(٥) الغض: الطريء.

## الانتحار

٥

قال المسيبُ بن رافع: وأطرقَ النَّاسُ قليلاً بعدَ خَبَرِ (أبي محمدِ البصريِّ)؛ إذْ كانَ كُلُّ مِنْهُمْ قد جَمَعَ بِاللهِ لِمَا سَمِعَ، وأخْذَ يَحْدِسُ<sup>(١)</sup>، فِي نَفْسِهِ وَيُرَاجِعُهَا الرَّأْيَ، وَكَانَ الْمَجْلِسُ قَدْ أَمْتَدَ بِنَا مِنْذُ الْعَصْرِ وَمَا يَكَادُ النَّهَارُ يُشَعِّرُنَا بِإِدْبَارِهِ، حَتَّى أَعْتَرَضَتِ فِي شَمْسِهِ الْغَيْرَةُ الَّتِي تَعْتَرِيَهَا إِذَا دَنَثَ أَنْ تَغْرُبُ. وَكَانَ إِلَى يَسَارِي فَتَى رَيَانُ الشَّابَّ، حَسَنُ الصُّورَةِ، وَضَيْعَةُ مُشْرِقٍ، لَهُ هِيَةٌ وَسَمْتٌ، أَقْبَلَ عَلَى الْأَيَّامِ، وَأَقْبَلَتِ الْأَيَّامُ عَلَيْهِ.

فَسَمِعْنِي أَطْئِنُ عَلَى أَذْنِ (مجاهِدِ الأَزْدِيِّ)؛ وَكُنْتُ أَعْرُفُهُ شَاعِرًا فِي كَلَامِهِ وَشَاعِرًا فِي قَلْبِهِ؛ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّهَارِ يَا مجاهِدٌ إِلَّا مِثْلُ صَبْرِ الْمُحَبِّ دَنَاهُ الْمَوْعِدُ؛ وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الشَّمْسِ إِلَّا مِثْلُ مَا تَتَلَفَّ صَاحِبُهُ، تَأْخُذُ عَلَيْهَا ثُوبَهَا وَغَلَائِلَهَا، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ تُسْقِطَهَا مِنْ هَنَا وَمِنْ هُنَا، لَتَرِي جَمَالَ جَسْمِهَا هَنَا وَهُنَا فَاهَتَّ الْفَتَى لِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَسَالَتِ الْأَرْقَةَ فِي أَعْطَافِهِ، وَقَالَ: يَا عَمَّ، أَمَا تَرَى مَا بَقَيَ مِنَ النَّهَارِ كَانَهُ وَجْهُ بَاكٍ مَسَحَ دَمَوْعَهُ وَلِيَسَ حَوْلَهُ إِلَّا كَابَةُ الْزَّمْنِ...؟ قُلْتُ: كَانَ لَكَ خَبْرًا يَا فَتَى، فَإِنَّ كَانَ شَائِنُكَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ فَقْصَهُ عَلَيْنَا وَعَلَّلْنَا بِهِ سَائِرَ الْوَقْتِ إِلَى أَنْ تَجْبَ الشَّمْسَ، وَلَعِلَّكَ طَائِرُ بَنَا طَيْرَةُ فَوْقَ الدُّنْيَا. قَالَ: فَمَمَّا<sup>(٢)</sup>؟

قلت: تقومُ فتتكلّم، فإني أرى لك لساناً وبياناً.

قال: أو يَحْسُنُ أَنْ أَتَكَلّمَ فِي الْمَسْجِدِ عَنْ صَرْعَةِ الْحُبِّ وَصَرْبِعِهِ، وَعَاشِقَةٍ وَعَاشِقٍ؟

(١) يَحْدِسُ: يَفْكَرُ وَيَغْلِبُ فَكْرَةً عَلَى فَكْرَةٍ.

(٢) مَهْ: اسْمَ فَعْلٍ اُمْرٍ بِمَعْنَى أَسْكَت.

فبادر مجاهدٌ فقال: ويحك يا فتى! لقد تَحَجَّرْتَ واسعاً؛ إنَّ الْمُؤْمِنَ لِيُصْلِي  
بين يدي اللهِ وكتابُ سيناتهِ في عنقهِ منشورٌ مقرءٌ. وهل أوقاتُ الصلوةِ إِلَّا ساعاتٌ  
قلبيةٌ لِكُلِّ يومٍ منَ الزَّمْنِ، تأتي الساعَةُ مِمَّا قبلها كما تأتي توبيهُ القلبِ مِمَّا عملَ  
الجسم؟ إنَّما يَتَلَقَّى الْمَسْجِدُ مَنْ يَدْخُلُهُ لِساعَتِهِ التي يَدْخُلُهُ فيها، ولو أَنَّهُ حَاسِبٌ عنِ  
أَمْسٍ وَأَوْلَى مِنْهُ وَمَا خَلَّ مِنْ قَبْلِهِ، لَطَرْدَةٌ مِنَ الْعَتَبَةِ! إنَّ الْمَسْجِدَ يَا بُنَيَّ إِنَّما يَقُولُ  
لِدِاخِلِهِ: أُدْخِلُ فِي زَمْنِي وَدَغْ زَمْنِكَ، وَتَعَالَ إِلَيَّ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْأَرْضِيُّ، لِتَتَحَقَّقَ أَنَّ  
فِيكَ حَاسَّةٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَجِئْنِي بِقَلْبِكَ وَفَكْرِكَ، لِيَشْعُرَا سَاعَةً أَنْهُمَا فِي لَا فِيكَ.  
ولَسْنَا الْآنَ يَا بُنَيَّ فِي مُتَحَدَّثٍ كَنَّدِيَ الْقَوْمَ يَتَطَارِحُونَ فِيهِ أَخْبَارَهُمْ، بَلْ نَحْنُ فِي  
مَجْلِسِ عَالَمٍ تَكَلَّمُتُ فِيهِ رَقَبَةُ هَذَا وَرَقَبَةُ هَذَا بِمَا سَمِعْتَ؛ فَقُنْمَ أَنْتَ فَادْكُزْ عَلَمَ قَلْبِكَ  
وَقُصَّ عَلَيْنَا خَبَرَ طَيْشِ الْحُبُّ وَالشَّيْبِ الَّذِي يُشَبِّهُ الْكَلَامُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا عَنِ  
الصَّعُودِ إِلَى الْقَمَرِ وَالْقَبْضِ مِنْ هَنَاكَ عَلَى الْبَرْزَقِ!

\* \* \*

قالَ الْمَسِيْبُ: فَأَنْتَهُضَ الْفَتَى، وَرَأَيْتُ مَجَاهِدًا يَتَنَاهُ كَأَنَّمَا أَنْصَدَعْتُ<sup>(۱)</sup> كَيْدُهُ:  
فَقُلْتُ: مَا بِالْكُ؟ قَالَ: إِنَّ شَابِيَ قَدْ مَرَ عَلَيَّ السَّاعَةَ فَنَسَمَتْ مِنْهُ فِي بُرْدَة<sup>(۲)</sup> هَذَا  
الْفَتَى، ثُمَّ فَقَدَتْهُ فَقَدَا ثَانِيَا فَهَرَمَتْ هَرَمَا ثَانِيَا، وَجَاءَنِي الْحَزْنُ مِنْ إِحْسَاسِيِّ بَأْنِي  
شِيْخٌ، حُزْنٌ مِنْ هَمٍ أَنْ يَدْخُلَ بَابَ حَيْبٍ ثُمَّ رُدَّ...!

وَتَحْدَثَ الْفَتَى، فَإِذَا هُوَ يَدْبِرُ بَيْنَ فَكَيْهِ لِسَانَ شَاعِرٍ عَظِيمٍ، يَتَكَلَّمُ كَلَامَهُ بِنَفْسِيْنِ:  
إِحْدَاهُمَا بَشَرِيَّةٌ تَصْنَعُ الْمَعْنَى وَالْلَّفْظَ، وَالْأُخْرَى عُلُوِيَّةٌ تُلْقِي فِيهَا الْنَّارَ وَالنُّورَ.

قالَ: إِنَّ لِي قَصَّةً أَيُّهَا الشِّيْخُ، لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا الْكَلَامُ الَّذِي دُفِنَتْ فِيهِ مَعَانِيهَا؛  
وَقَدْ تَأْتِي الْقَصَّةُ مِنْ أَخْبَارِ الْقَلْبِ مُفْعَمَةً بِالآلامِ وَالْأَحْزَانِ، لَا يُرَادُ بِالآمِهَا وَأَحْزَانِهَا  
إِلَّا إِيجَادُ أَخْلَاقِ الْقَلْبِ يَعِيشُ بِهَا وَيَتَبَدَّلُ. وَالَّذِي قُدِّرَ عَلَيْهِ الْحُبُّ لَا يَكُونُ قَدْ  
أَحْبَّ غَيْرَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَكُونُ قَدْ تَعْلَمَ كَيْفَ يَنْسِي نَفْسَهُ فِي غَيْرِهِ، وَهَذِهِ كَمَا هِيَ أَعْلَى  
دَرَجَاتِ الْحُبُّ؛ فَهِيَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْإِحْسَانِ.

وَمَتَى صَدَقَ الْمَرْءُ فِي حَبِّهِ كَائِنَتْ فَكْرَتُهُ فَكَرَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا فَكْرَةُ، وَالْأُخْرَى  
عَقِيْدَةٌ تَجْعَلُ هَذِهِ الْفَكْرَةَ ثَابِتَةً لَا تَتَغَيَّرُ؛ وَهَذِهِ كَمَا هِيَ طَبِيعَةُ الْحُبُّ فَهِيَ طَبِيعَةُ  
الَّدَّيْنِ.

. (۲) بُرْدَة: ثوب.

(۱) انْصَدَعْتَ: تَحَطَّمْتَ، تَكَسَّرْتَ.

ولا شيء في الدنيا غير الحب يستطيع أن ينتقل إلى الدنيا ناراً صغيرةً وجنةً صغيرةً، بقدر ما يكفي عذاب نفس واحدة أو نعيمها! وهذه حالة فوق البشرية.

والفضائل عامتها تعلم في نقل الإنسان من حيوانيته، وقد لا تنقل إلا أقله ويبيّن في الحيوانية أكثره: ولكن الحب الصادق يقتل الإنسان من حيوانيته بمرة واحدة، بينما الله لا يكون كذلك إلا إذا قتله بالآلام؛ فهو أعلى النسك والعبادة.

كان خبرِي أني دُعِيت يوماً إلى ما يُدعى لمثيلِ الشباب في مجلسِ غناء وشراب. يا الله من مجلس! وقد قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِي»، أن يضرِّب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها، والبعوضة في قصتي أنا كانت أمراً نَصْرَانِيّة.. قينة<sup>(١)</sup> فلابن المغنية الحاذفة المحسنة المتأدبة، تحفظ الخبر وتروي الشعر، وتتكلّم بالفاظ فيها حلاوة وجهها، وتحلُّق التكتة إذا شاءت خلق الزهرة المفتحة عليها، سقطت الندى؛ وتتجدد بالحديث ما شاءت وتهزل، فتجعل للكلام عقلاً وشهوة تضاعف بهما من تحدّثه في شهواته وعقله!

وستجري في قصتها ألفاظ القصة نفسها، لا أتأثم من ذلك ولا أندم؛ فقد ذكر الله الخمر بلغطِ الخمر ولم يقول: «الماء الذي فيه السُّكُر»، ووصف الشيطان ولم يقل: «الملك الذي عملَ عملَ المرأة الحسنة في تكبُّرها»، وذكر الأصنام بأنها الأصنام، ولم يسمّها: «حاملة السماء التي يصنعها الإنسان بيديه» وحكاية ما بين الرجل والمرأة هي كلام يقبل بعضه بعضاً ويلتزم ويعتائق!

قال المسيح: فتبسم إمامنا ونظرت عيناه تسألان سؤالاً. أما مجاهد الأزدي فكان من هزة الطَّرَبِ كأنه على قَبْعَير، وقال: لِلَّهِ دَرُّهُ فَتَى، إِنَّ هَذَا لَيَانٌ كَحِيلُ الْعَيْنِ... .

ثم قال الفتى: وذهبت إلى المجلس وقد جعلته هذه المغنية من حواشيه وأطرافيه كأنه تفسير لها هي. أما هي فجعلت نفسها تفسيراً لكلمة واحدة هي: «اللذة...».

قال المسيح: وطرب مجاهد طرباً شديداً، وسمعته يخافث بصوته يقول: «لِلَّهِ دَرُّهَا امْرَأَةٌ، هَذِهِ عَدُوَّةُ الْجُحُورِ الْعَيْنِ!».

ثم قال الفتى: وتطرب جماعة أهل المجلس إلى الشرب، وما ذقت خمراً

(١) قينة: أمة، بفتح الميم.

قط، ولن أندقها ولو شربها الناس جميعاً، ولن أذوقها ولو انقطع الغيث ولم تمطر السماء إلا خمراً؛ فإني مُذكنت يافعاً رأيت أبي يشربها، وكانت أمي تلومه فيها وتشتت في تعنيفه وتحتمد<sup>(١)</sup>، وكانا يتشارحان<sup>(٢)</sup> فينالها بالأذى ويندرىء<sup>(٣)</sup> عليها بالسب وفحش القول. وسَكَرَ مِرَّةً وغلبة السكر حتى ثارت أحشاؤه، فذرعه<sup>(٤)</sup> القيء فتوهمني وعاء، وجاء إلى وأنا جالس فامسك بي وقاء في حجري، حتى أفرغ جوفه؛ وثارت أمي لتنزعه وأنشأت تعالجه عنى فتصارع جنونه وعقلها حتى كفأته<sup>(٥)</sup> على وجهه كالإماء؛ فالتوى كالحية بطنًا لظهر، واستجمعت كالفنفذ في شوكي، ثم لكرها برجله أسفل بطنها فانقلبت، وأصاب رأسها إجابة<sup>(٦)</sup> العجين فتشل<sup>(٧)</sup> تثليم الإناء كأنما شيخ<sup>(٨)</sup> ضرباً بحجر، وانتصر دماغها على الأرض أمام عيني، ورأيتها لم تزد على أن دفعت بإحدى يديها في الهواء، وضمت بالأخرى إلى صدرها، تتوهم أنها تحبني وتدفعه عنى؛ ثم سكتت، ولو لم تمت من الشجاعة في رأسها لماتت من الضربة في بطنها!

\* \* \*

قال المسيح: وأطرق الفتى هنيهة وأطرق الناس معه؛ فرفع مجاهد صوته وقال: رحمها الله! فقال الناس جميعاً: رحمها الله.

ثم قال الفتى: وكان عاملاً من في المجلس يعرفون ذلك متى، ويعرفون أنه لو سأغ لإنسان أن يشرب دم أمّه ما شربت أنا الخمر، فقالوا للمعنى: إن هذا لا يدخل في ديواننا<sup>(٩)</sup> فنظرت إلي، وهربت أنا من نظرتها بإطراقة؛ ثم قالت: تشرب على وجهي؟ قللت لها: إن وجهك يقول لي: لا تشرب... فتضاحكت وقالت: فهو يقول لك غير ما يقول لهؤلاء؟ فهربت من كلامها بإطراقة أخرى، ووصلت الإطراقتان ما بيني وبين قلبي؛ وتبأة فيها مثل حنوة الأم على طفلها إذا آذته بسانها فأطرق ساكتاً يشكوها إلى قلبها!

والتفتت لمن حضر وقالت لهم: لست أطيب لكم ولا تنتفعون بي إلا أن

(٦) إجابة: آنية يعجن فيها العجين.

(١) تحتمد: تشتد.

(٧) تثلم: تشدق.

(٢) يتشارحان: يتشارجان.

(٨) شدّخ: ضرب رأسه.

(٣) يندرىء: يندفع ويعطف.

(٩) إنه تعبير قديم العهد، يريدون به الشرب كأنه ديوان ملك.

(٤) ذرعه: فاجأه.

(٥) كفأ الإناء: قلبه.

شربوا لي وله ولأنفسكم، وأنحط عليهم الساقى، فشربوا أرطاً وأرطاً، وهى بين ذلك تغتىهم وقد أقبلت عليهم وخلا وجهها لهم من دوني وإنما تخالسنى<sup>(١)</sup> النظرة بعد النظرة.

فوسوس لي شيطاني أن تشدّد مع هذه بمثل عزّمتك مع الخمر فإنما هما شيء واحد. ولكنى كنت أحذ النظر<sup>(٢)</sup> إليها، فمرة أوامقها نظرة المحب للحبيب، ومرة أغضى عنها بنظرة لا تنظر؛ وكأنى بذلك كنت آخذها وأدعها، وأصلها وأهجرها. فقالت لي كالمنكرة على: ما بالك تنظر إلى هكذا؟ ولكن هيئة وجهها جعلت المعنى: لا تنظر إلى إلا هكذا...!

وأسع الشراب في القوم وأفرط عليهم السكر؛ فبقيت لي وحدى وبقيت لها وحدها؛ ثم تناولت عودها وضمته إليها ضمًا شديداً أكثر من الضم... وألمسة صدرها ونهديها، ثم رأنت إلى بمعنى، فما شكت أثها ضمة لي أنا والعود؛ ثم غئت هذا الصوت:

ألا قاتل الله الحمامه غذوة  
على الغصن؛ ماذا هي جئت حين غئت؟  
فما سكت حتي أؤنست لصوتها  
وقلت: ثرى هذى الحمامه جئت؟

\* \* \*

صروف النوى<sup>(٣)</sup> من حيث لم تك ظنت..  
وبزد العجمى من بطئ خبٍ<sup>(٤)</sup>، طيبة  
بأكثر مني لوعة، غير أني<sup>(٥)</sup>  
أجمجم أحشائى على ما أجئت!<sup>(٦)</sup>  
وغنته غناء من قلب يثن، وصدر ينتهد، وأحساء لا تخفي ما أجئت<sup>(٧)</sup>؛  
وكانت ترتفع بالصوت ثم كأنما يهمى<sup>(٨)</sup> الدمع على صوتها، فيرتعش ويتنزل قليلاً  
قليلاً حتى يثن أنين الباكية، ثم يعتل<sup>(٩)</sup> في صدرها مع الحب، فيتردد عالياً  
ونازلاً، ثم يرفض الكلام في آخره دموعاً تجري.

\* \* \*

(١) تخالسنى: سارقنى.

(٢) أحد النظر: أمعن النظر.

(٣) صروف: مصابب. النوى: البعد.

(٤) العضاوه: ضرب من الشجر، ذو أشواك.

(٥) خبت: اسم مكان.

(٦) أرئت، نشطت.

(٧) أجمجم: أخفى شيئاً في صدري.

(٨) أجئت: من أجن الثوب إذا دقه.

(٩) يهمى: ينهر.

(١٠) يعتل: يختلج.

قالَ المُسِيْبُ : فَنَظَرَ إِلَيْهِ مُجَاهِدٌ وَقَالَ : عَدُوُّ الْجَنَّةِ - وَاللَّهِ - هَذِهِ يَا أَبَا مُحَمَّدَ ، لَا تَقْبِلُ الْجَنَّةَ مَنْ يَكُونُ مَعَهَا . تَقُولُ لَهُ : كُنْتَ مَعَ عَدُوِّي !

ثُمَّ قَالَ الْفَتِيْ : وَكَانَ الْقَوْمُ قَدْ أَنْشَأُوهُ ، فَاعْتَرَاهُمْ نَصْفُ النَّوْمِ وَبَقَى نَصْفُ الْيَقِظَةِ فِي حَوَاسِهِمْ ، فَكُلُّ مَا رَأَوْهُ مِنَ رَأْوَهُ كَأَحْلَامٍ لَا وَجْهَ لَهَا إِلَّا خَلْفَ أَجْفَانِهِمُ الْمُمْثَلَةِ سُكْرًا وَنُعَاصًا . وَوَبَّتِ الْمُغْنِيَةُ فِجَاءَتِ إِلَيْهِ جَانِبِيَّ وَالْتَّصْقِتُ بِي ، وَأَسْرَعَ الشَّيْطَانُ فَوْسُوسَ لِي : أَنْ أَحْذِنَ فَإِنَّكَ رَجُلٌ صِدْقٌ ، وَإِذَا صَدَقْتَ فِي الْخَمْرِ فَلَا تَكْذِبَنَّ فِي هَذِهِ ، وَلَئِنْ مَسَسْتَهَا إِلَيْهَا لَضَيَّاعُكَ آخِرَ الدَّهْرِ !

فَعَجِبْتُ أَشَدَّ الْعَجَبِ أَنْ يَكُونَ شَيْطَانِي أَسْلَمَ وَأَعْنَتْ عَلَيْهِ كَمَا أُعِينَ الْأَنْبِيَاءَ عَلَى شَيَاطِينِهِمْ . وَلَكِنَّ الْلَّعِينَ مُضِيَّ يَصْدُنِي عَنِ الْمَرْأَةِ دُونَ مَعَانِيهَا ، وَكَانَ مَتِي كَالَّذِي يَدْنِي الْمَاءَ مِنْ عَيْنِي الْفَتِيلِ الْمُتَلَهِّبِ بَجَوْفِهِ ثُمَّ يَجْعَلُهُ دَائِمًا فَوْتَ فِيمِهِ ، وَلَقَدْ كَثُرَ مِنَ الْفُحْولَةِ بِحِيثُ يَبْدُو لِي مِنْ شَدَّةِ الْفُورَةِ فِي دَمِيِّ وَشَبَابِيِّ أَنِّي أَجْمَعُ فِي جَسْمِي رَجُلًا عِدَّةً ، وَلَكِنْ ضَرَبَنِي الشَّيْطَانُ بِالْخَجْلِ فَلَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ أَكُونَ رَجُلًا مَعَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ .

وَعَجِبْتُ هِيَ لِذَلِكَ وَمَا أَسْرَعَ مَا نَطَقَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهَا بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ . . . ! فَقَالَتْ أَحَبِبْتُكَ مَا لَمْ أُحِبْ أَحَدًا ، وَأَحَبِبْتُ خَجْلَكَ أَكْثَرَ مِنْكَ ، فَمَا يُسْرِئِنِي أَنْ تَأْتِمَ فِي فَتَدْخُلِ النَّارِ بِحُبِّي ، وَلَوْ أَنَّكَ أَبْتَعْتَنِي مِنْ مَوْلَايِّ؟ فَقَلَّتْ : بِكُمْ أَشْتَراكِ؟ قَالَتْ : بِأَلْفِ دِينَارِ! قَلَّتْ : وَأَيْنَ هِيَ مَتِي وَأَنَا لَوْ بَعْثَتْ نَفْسِي مَا حَصَّلْتُ لِي؟

فَتَمَّ الشَّيْطَانُ مَوْعِظَتَهُ ، وَقَالَتْ وَأَشَارَتْ إِلَيْهَا : إِنَّ قَلْبِي هَذَا قَبِيلَكَ غَيْرِيَاً كَثَرَ أَوْ فَقِيرًا ، وَأَحْسَنَ بِكَ وَحْدَكَ حُبَّ الْعَذْرَاءِ أَوْلَ مَا تُحْبِبُ ، وَأَنَا - كَمَا تَرَانِي - أَعْيَشُ فِي السَّيَّئَاتِ كَالْمُكْرَهَةِ عَلَيْهَا ، فَسَأَعْمَلُ عَلَى أَنْ تَكُونَ أَنْتَ حَسَنَتِي عَنْدَ اللَّهِ ، أَذْهَبُ إِلَيْهِ حَامِلَةً فِي قَلْبِي حُبِّي إِيَّاكَ وَعَفْتِي عَنْكَ ، وَلَئِنْ كَانَتْ عِفَةً مَنْ لَا يَشْتَهِي وَلَا يَجِدُ تَعْدُدَ فَضْلِيَّةً كَامِلَةً ، إِنَّ عِفَةً مَنْ يَجِدُ وَيَشْتَهِي لَتَعْدُدُ دِينَاهُ بِحَالِهِ . وَلَا يَزَالُ حُبِّي بِكُرَّاً ، وَلَا أَزَالَ فِي ذَلِكَ عَذْرَاءَ الْقَلْبِ ، وَهُؤُلَاءِ قَدْ نَزَعُوا الْحَيَاةَ عَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنْفُسِهِمْ ، فَأَلْبَسْنِيَهُ أَنْتَ مِنْ أَجْلِكَ خَاصَّةً؛ وَإِنَّ قَوْةَ حُبِّي كَالَّذِي سِيَّالَمُكَ بِكَ وَيَتَعَذَّبُ مِنْكَ لِطُولِ مَا يَصْبِرُ عَنْكَ ، سَتَكُونُ هُنِيَّ بِعِينِهَا قَوْةً لِفَضْلِيَّتِي وَطَهَارَتِي .

ثُمَّ تناولتْ عودها وسوَّته وغَثَتْ :

فلو أَنَا عَلَى حَجَرِ ذِيْخَنَا جَرِي الدَّمَيَانِ بِالْخَبْرِ الْيَقِينِ<sup>(١)</sup>  
وَجَعَلَتْ تَنَاؤَةً فِي غِنَائِهَا كَأَنَّهَا تُذَبَّحُ ذَبَحًا، ثُمَّ وَضَعَتْ أَعْوَدَ جَانِبَاهَا وَقَالَتْ : مَا  
أَشْقَانِي ! إِذَا أَتَفَقْتُ لِي سَاعَةً زَوْاجِي فِي غَيْرِ وَقْتِهَا فَجَاءَتْ كَالْحُلْمِ يَأْتِي بِخَيَالِ  
الزَّمْنِ فَلَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا خَيَالُ الْأَشْيَاءِ .

ثُمَّ سَأَلْتُنِي : مَا بِالْكَ لَمْ تَشْرَبْ الْخَمْرَ وَلَمْ تَدْخُلْ فِي الْأَدِيَوَانِ؟ فَبَدَرَ شَيْطَانِي  
الْمُؤْمِنِ . . . وَسَاقَ فِي لِسَانِي خَبْرَ أُمِّيْ وَأَبِيْ، فَأَنْتَصَرَتْ عَيْنَاهَا بَاكِيَةً وَتَمَّ لَهَا رَأْيٌ  
فِي كَرَأْيِي أَنَا فِي الْمُسْكَرِ؛ وَكَانَ شَيْطَانُهَا بَعْدَ ذَلِكَ شَيْطَانًا خَبِيشًا مَعَ أَصْحَابِهَا،  
وَبَطْرِيقًا زَاهِدًا مَعِي أَنَا وَحْدِي !

وَرَأَيْتُهَا لَا تُجَالِسْنِي إِلَّا مُتَزَايِلَةً<sup>(٢)</sup> كَالْعَذْرَاءِ الْخَفِرَةِ إِذَا أَنْقَبَضَتْ وَغَطَّتْ  
وَجْهَهَا، وَصَارَتْ تَخَافِنِي لَأَنَّهَا تُحَبِّنِي، وَهَيَّبَنِي الشَّيْطَانُ إِلَيْهَا فَعَادَتْ لَا تَرَى فِي  
الرَّجُلِ الَّذِي هُوَ تَحْتَ عَيْنِيهَا التَّيْيَيْتَيْنِ . . . وَلَكِنَّ الْقَدِيسَ الَّذِي تَحْتَ قَلْبِهَا الْبَكْرُ .

وَلَمْ يَعْدْ جَمَالِي هُوَ الَّذِي يُعْجِبُهَا وَيُضِيبُهَا، بَلْ كَانَ يُعْجِبُهَا مَنِي أَنِّي صَنَعْتُ  
فَضْلِيلَهَا الَّتِي لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا غَيْرِي . . .

وَأَنْطَلَقَ الشَّيْطَانُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي وَفِيهَا بَدْهَاهُ وَحْنُكَتِهِ وَبِكُلِّ مَا جَرَبَ فِي النِّسَاءِ  
وَالرِّجَالِ مِنْ لَدُنِ آدَمَ وَحَوَّاءَ إِلَى يَوْمِي وَيَوْمَهَا! . . . فَكَانَ يَجْذِبُنِي إِلَيْهَا أَشَدَّ  
الْجَذْبِ، وَيَدْفَعُهَا عَنِي أَقْوَى الدَّفْعِ، ثُمَّ يُغَرِّنِي بِكُلِّ رَذَائِلِهَا وَلَا يُغَرِّرُهَا هِيَ إِلَّا  
بِفَضَائِلِي . وَأَلْقَى مِنْهَا فِي دَمِي فَكِرَةً شَهْوَةً مَجْنُونَةً مَتَّقْلَبَةً، وَأَلْقَى مِنِي فِي دَمِهَا فَكِرَةً  
حَكْمَةً رَزِينَةً مَسْتَقْرَرَةً . وَكَنْتُ أَلْقَاهَا كُلَّ يَوْمٍ وَأَسْمَعَ غَنَاءَهَا؛ فَمَا هُوَ بِالْغَنَاءِ وَلَكِنَّهُ  
صَوْتٌ كُلَّ مَا فِيهَا لِكُلِّ مَا فِيِ، حَتَّى لَوْ أَنْتَصَقَ جَسْمُهَا بِجَسْمِي وَسَارَ الْبَدْنُ الْبَدْنَ،  
وَهَمَسَ الدُّمُّ لِلْدُمِّ، لَكَانَ هُوَ هَذَا الْغَنَاءُ الَّذِي تُغَنِّيَهِ .

وَأَصْبَحْتُ كَلَمَا أَسْتَقْمَتُ لِجَهَهَا تَلَوَّثَ عَلَيَّ؛ إِذْ لَسْتُ عَنْهَا إِلَّا الْأَمْلَ في الْمَغْفِرَةِ  
وَالثَّوَابِ، وَكَأَنَّمَا مُسْخَتُ حَبْلًا طَوْلُهُ مِنْ هَنَا إِلَى الْجَهَةِ لِتَعْلَقُ بِهِ . وَعَادَ أَمْتَنَاعُهَا مَنِي  
جَنَوْنًا دِينِيَا مَا يُفَارِقُهَا، فَأَبْتَلَانِي هَذَا بِمَثِيلِ الْجَنُونِ فِي حُبِّهَا مِنْ كَلْفٍ<sup>(٣)</sup> وَشَغْفٍ .

(١) من جميل أسطoir العرب، أنه إذا قتل اثنان معاً في وقت واحد وجرى دمياهما والتقيا أنهما متاحبان، فإذا جرى دمياهما باتجاهين متعاكسين أنهما متاحنان.

(٢) مترالية: منحازة.

(٣) كلف: شغف: شديد الحب.

وأنحصرت نفسي فيها، فرجعت معها أشدّ غباءً من الجاهل ينظر إلى مَدْ بصره من أفقِ فيحكمُ أنَّ هنَا نهايةَ العالمِ، وما هنَا إلَّا آخرُ بصرِه وأولُ جهلهِ. وأنفلَتَ مئِي زمامُ روحيِ، وأنكسرَ ميزانُ إرادتيِ، وأختلَّ أستواءُ فكريِ، فأصبحتُ إنساناً من القائضِ المتعاديِ أجمعُ اليقينِ والشكِ فيهِ، والحبُّ والبغضُ لهُ، والأملُ والخيبةُ منهُ، والرغبةُ والعزوفُ عنهاِ، وفي أقلِّ من هذا يخطُفُ العقلُ، ويتدللُ مَنْ يتدَلَّ.

لَمْ أبُلِيتُ معَ هذا اللَّمَمِ<sup>(١)</sup> بجنونِ الغَيْظِ منْ أبْتَالِهَا لأصحابِها وعفتها معِيِ، فكثُرَ اتطايرُ قَطْعاً بينَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، وأجْدَعْتُ علَيْها واتَّكَرْتُ لَهَا، وهي في كُلِّ ذلك لا تزيدني على حالٍ واحدةٍ مِنَ الرَّهْبَانِيَّةِ؛ فكانَ يَطِيرُ بِعَقْلِي أَنْ أَرَى جَسْمَهَا ناراً مشتعلة، ثُمَّ إذا أنا رُمْتُهُ أَسْتَحَالَ ثُلْجاً، وَقَرَحَتِ الْغَيْرَةُ قلبِي وفَتَّشَتِ كِبِدي من عابدةِ الشَّيْطَانِ مَعَ الجَمِيعِ، الراهِبَةُ مَعَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَقَطْ! . . .

ورجعَتْ خواطري فيها مِمَّا يُعْقِلُ وَمَا لا يُعْقِلُ؛ فكثُرَ أَرَى بعضَها كائناً راجعاً من سفرٍ طويلاً عن حبيبِ في آخرِ الدنيا، وبعضَها كائناً خارجاً من دارِ حبيبِ في جوارِيِ، وبعضَها كائناً ذاهباً إلى المارستانِ . . . !<sup>(٢)</sup>

ورأينا كائناً في عالمين لا صلةَ بينهما، ونحن معاً قلباً إلى قلبِ، فذهبَ هذا بالحقيقةِ التي بقيت من عقليِ، ولم أَرَ لِي مَتْجَاهًا إلَّا في قتلِ نفسي لازهقَ هذا الوحش الذي فيها.

وذهبتُ فابتَعْتُ شَعِيرَاتِ مِنَ السُّمِ الْوَحِيِّ الذي يُعْجِلُ بالقتلِ، وأخذْتُها في كفي وهمنَتْ أَنْ أُقْحِمَها وأبتلعَها، فذَكَرْتُ أمِيِ، فظَهَرَتِ لِخيالي مشدوخةُ الرأسِ في هيئةِ موتها، وإلى جانبِها هذه المرأةُ في هيئةِ جمالِها، وثبتَتْ على عيني هذه الرؤيا، وأذْمَنْتُ النَّظَرَ فيها طويلاً فإذا أنا رجُلٌ آخرُ غيرِ الأولِ، وإذا المرأةُ غيرُ تلكِ، وطَغَتِ عِبرَةُ الموتِ على شهوةِ الْحَيَاةِ فمحَّتها، وصَحَّ عندي من يومئِذِ أَنَّ لِعَلاجِ من هذا الحُبِّ إلَّا أَنْ تُقرَنَ في النفسِ صورةُ امرأةٍ ميَّةٍ إلى صورةِ المرأةِ الْحَيَّةِ، وكلَّما ذُكِرَتْ هذهِ جِيءَ لها بتلكِ، فإذا أَسْتَمَرَ ذلكَ فإنَّ الميَّةَ تُميَّثُها في النفسِ وتحْمِلُ الشَّهْوَةَ إليها، ما من ذلكَ بُدَّ، فليجربهُ مَنْ شَاءَ في.

وأنفتحَ لي رأيُ عجيبِ، فجعلتُ أتأملُ كيفَ آمنَ شَيْطَانِي ثمَّ كَفَرَ بَعْدُ، على

(١) المارستان: مستشفى المجاذيب.

(٢) اللَّمَمِ، محركة بالفتح: الجنون.

أَنْ شِيَطَانَهَا هِيَ كَفَرٌ فِي الْأُولِيَّ ثُمَّ آمَنَ فِي الْآخِرِ؟ فَوَاللَّهِ مَا كَنْتُ إِلَّا غَبَيًّا خَامدًا لِلْفِطْنَةِ<sup>(۱)</sup>، إِذْ لَمْ يَسْتَخْ لِي الصَّوَابُ حَتَّى كَدْتُ أُزْهَقُ نَفْسِي وَأَخْسَرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ - لَعْنَهُ اللَّهُ - إِنَّمَا رَدَنِي عَنِ الْفَاحِشَةِ وَهِيَ ذَنْبٌ وَاحِدٌ، لِيَرْمَيْنِي بَعْدَهَا فِي الذُّنُوبِ كُلُّهَا بِالْمَوْتِ عَلَى الْكُفَرِ!

وَرَدَ إِلَيَّ هَذَا الْخَاطِرُ مَا عَزَبَ<sup>(۲)</sup> مِنْ عَقْلِيِّ. وَمَنْ أَبْتَلَنِي بِبِلَاءٍ شَدِيدٍ يُزَلْزِلُ يَقِينَهُ ثُمَّ أَبْصَرَ الْيَقِينَ، جَاءَ مِنْهُ شَخْصٌ كَائِنًا خُلِقَ لِسَاعِتِهِ؛ فَلَعِنْتُ شَيْطَانِي وَاسْتَعْذَتُ بِاللَّهِ مِنْ مُكْرِهِ، وَأَقْيَثْتُ السَّمَّ فِي التَّرَابِ وَغَيْثَتُ فِيهِ، وَقُلْتُ لِنَفْسِي: وَيَحْكِ يا نَفْسُ! إِنَّ الْحَيَاةَ تَعْمَلُ عَمَلاً بِالْحَيَّ، أَفَتَرَضَيْنَ أَنْ تَعْمَلَ الْحَيَاةَ بِأَبْطَالِهَا وَرِجَالِهَا مَا عَرَفْتَ وَمَا عَلِمْتَ، ثُمَّ يَكُونُ عَمَلُهَا بِكِ أَنْتِ الْقَعُودَ نَاحِيَةً وَالْبَكَاءَ عَلَى امْرَأَةٍ؟

أَيْتُهَا النَّفْسُ، مَا الْفَرْقُ بَيْنَ سُرْقَةِ لَحْمٍ مِنْ دَكَانِ قَصَابٍ، وَبَيْنَ سُرْقَةِ لَحْمٍ امْرَأَةٍ مِنْ دَارِ أَبِيهَا، أَوْ زَوْجِهَا، أَوْ مُولَاهَا...؟

أَيْتُهَا النَّفْسُ، إِنَّ إِيمَانَ أَسْلَافِنَا مَعْنَا؛ إِنَّ الإِسْلَامَ فِي الْمُسْلِمِ.

\* \* \*

قَالَ الْمُسَيْبُ: وَهُنَا طَاشَ مُجَاهِدٌ وَاسْتَخْفَهُ الْطَّربُ، فَصَاحَ صِحَّةَ النَّصْرِ: اللَّهُ أَكْبَرُ! وَجَاؤَهُ أَهْلُ الْمَسْجِدِ فِي صِحَّةٍ وَاحِدَةٍ: اللَّهُ أَكْبَرُ! وَلَمْ يَكُنْ يَهْتَفُ بِهَا النَّاسُ حَتَّى أَرْتَفَعَتْ صِحَّةُ الْمُؤْذِنِ لِصَلَاةِ الْمَغْرِبِ. اللَّهُ أَكْبَرُ... .

(۲) عَزَبٌ: ضَاعَ وَذَهَبَ.

(۱) الْفِطْنَةُ: الذَّكَاءُ.

## الانتحار

٦

تتمة

قالَ الْمُسِيَّبُ بْنُ رَافِعٍ : وَأَنْفَضَ<sup>(١)</sup> مَجْلِسُ الشَّيْخِ ، وَدَرَجَتْ<sup>(٢)</sup> بَعْدَهُ أَعْوَامٌ فِي عَدَّةِ الشَّهُورِ مِنْ حَمْلِ الْمَرْأَةِ ، بَلَغَتْ فِيهَا أَمْوَالُ النَّاسِ مِلْغَاهَا مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَشَرَّهَا ، مِمَّا أَعْرَفُ وَمَا لَا أَعْرَفُ ؛ وَدَخَلْتُ الْبَصْرَةَ أَنَا وَمُجَاهِدُ الْأَزْدِيُّ ، نَسْمَعُ الْحَسَنَ وَنَأْخُذُ عَنْهُ ؛ إِنَّا لَسَائِرٌ يَوْمًا فِي سِكَّةٍ<sup>(٣)</sup> بْنِي سَمْرَةَ ، إِذْ وَافَقْنَا الْفَتِيْحَ صَاحِبَ الْنَّصْرَانِيَّةِ مُقْبِلًا عَلَيْنَا ، وَكُنَّا فَقْدَنَاهُ تِلْكَ الْمَدَةِ ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ مُجَاهِدٌ فَالْتَّزَمَهُ وَقَالَ : مَرْحَبًا بِذِي نَسَبِ إِلَى الْقَلْبِ . وَسَلَّمَتْ بَعْدَهُ وَعَانَقْتُهُ ، ثُمَّ أَقْبَلْتُ نَسَالُهُ ، فَقَلْتُ لَهُ : مَا كَانَ آخِرُ أَوْلِكِ؟ قَالَ مُجَاهِدٌ : بَلْ مَا كَانَ آخِرُ أُولِهَا هِيَ؟

فَضَحِّكَ الرَّجُلُ وَقَالَ : النَّصْرَانِيَّةُ تَعْنِي؟ قَالَ : آخِرُهَا مِنْ أُولِهَا كَهْدَنِي؛ وَأَوْمَأَ إِلَى ظَلِّهِ فِي الْأَرْضِ مَمْدُودًا مَشْبُوحاً مَخْتَلِطًا غَيْرَ مُتَمِيِّزٍ؛ كَأَنَّهُ ثُوبٌ مَنْشُوَرٌ لَيْسَ فِيهِ لَابْسُهُ ، وَكُنَّا فِي السَّاعَةِ الْتِي يَصِيرُ فِيهَا ظُلُّ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلِيْهِ فَهُوَ مَزْجُ الْمَسْنَخِ بِالْمَسْنَخِ . . .

قَالَ مُجَاهِدٌ : مَا أَفْظَ جَوَابَكَ وَأَثْقَلَهُ يَا رَجُلٌ ! كَأَنَّكَ - وَاللَّهُ - تَاجِرٌ لَا صِلَةَ لَهُ بِالْأَشْيَاءِ إِلَّا مِنْ أَثْمَانِهَا؛ فَنَظَرَهُ إِلَى فَرَاهَةِ الْدَّابَّةِ مِنَ الدَّوَابِّ وَإِلَى فَرَاهَةِ الْجَارِيَّةِ مِنَ الْرِّقِيقِ سَوَاءً .

قَالَ الرَّجُلُ : فَأَنَا - وَاللَّهُ - تَاجِرٌ ، وَأَنَا السَّاعَةُ عَلَى طَرِيقِ الإِيَّوَانِ<sup>(٤)</sup> الَّذِي يَلْتَقِي فِيهِ تُجَارُ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَخُرَاسَانَ؛ وَقَدْ ضَرَبْتُ فِي هَذِهِ التِّجَارَاتِ وَحَسَنْتُ بِهَا حَالِي وَتَأَلَّثْتُ مِنْهَا؛ غَيْرَ أَنَّ قَلْبَ التَّاجِرِ غَيْرَ التَّاجِرِ، فَلَيْسَ يَزْنُ وَلَا يَقْبِضُ، وَلَا

(٣) سِكَّةٌ : طَرِيقٌ.

(٤) هَذِهِ الْمَفْرَدَةِ تَنَاسِبُ مَا يَسْمُونُهُ الْيَوْمَ (الْبُورَصَةِ).

(١) انْفَضَ : تَفَرَّقَ .

(٢) درَجَتْ : مَضَتْ .

بيع ولا يشتري . أما «تلك» فأصبحت نسياناً ذهب لبسيله في أزمنة !

قال مجاهد : فكيف كنت تراها وكيف عدت تنظر إليها ؟

قال : كنت أنظر إليها بعيني وأفكاري وشهوتي ؛ فكانت بذلك أكثر من نفسها ومن النساء ، وكانت ألواناً ألواناً ما تنقضي ، فلما دخل بياني وبينها أزمنة والعقل ، أبعدها هذا عن قلبي وأبعدها ذاك عن خيالي ؛ فنظرت إليها بعيني وحدهما ، فرجعت أمراً ككل أمراً ؛ وبنزولها من نفسي هذه المنزلة ، رجعت أقل من نفسها ومن النساء ، وهذه القلة فيما عرفت لا ت慈悲 أمراً عند محبتها إلا فعلت بجمالها مثل ما تفعله الشيخوخة بجسمها ، فأدبرت به ثم أدررت وأستمرت تذيرنا

وأنت فإذا أصررت أمراً شيخة قد ذهبت التي كانت فيها . . . وأخطرت في ذهنك زينة مما بين الرجال والنساء ، فهل ترك واحداً شهوة والميل إلا الفرة والمعصية ؟ إن هذا الذي كان الحب والهوى والعشق ، هو بعينه الذي صار الإثم والذنب والضلال !

قال مجاهد : كأنك لما ذهبت قتلت نفسك من جبها قتلتها هي في نفسك ؟

قال : يا رحمة قد رحمت بها نفسي يومئذ ! أما - والله - إن الذي يقتل نفسه من حب أمراً لغبته . ويحك ! فليتخلص من هذا الجزء من الحياة لا من الحياة نفسها . وقد جعل الله للحب طرفيين : أحدهما في اللذة ، والآخر في الحماقة ؛ ما منهما بذل . فهذا الحب يلقي صاحبة في الأحلام ويعشي بها على بصره ، ثم إن هو آتى بطرفه السعيد إلى حظه المقابل وأنفقت اللذة للمحب ، أيقظته اللذة من أحلامه ؛ وإن آتى الحب بطرفه الشقي إلى حظه المذير ، وقع الحماقات فنوناً شئ بين الحبيبين ، وفعلت آخرًا فعل اللذة ، فأيقظت العاشق من أحلامه أيضاً . وهذا تدبير من الرحمة في تلك القوة المدمرة المسماة الحب . أفلأ يدل ذلك على أن الله وهم من الأوهام ما دام تتحققها هو فناءها ؟

خذعني يا مجاهد هذه الكلمة : «ليس الكمال من الدنيا ولا في طبيعتها ، ولا هو شيء يدرك ، ولكن من عظمة الكمال أن استمرار العمل له هو إدراكه» .

قال مجاهد : لقد علمت بعدنا علمًا ، فمين أين لك هذا وعمن أخذت ؟

قال : عن السماء !

قال : ويلك ! أين عقلك ، فهل نزل عليك الوركي ؟

قالَ الرَّجُلُ: لَا، وَلَكِنْ تَعَالَيَا مَعِي إِلَى الْدَّارِ فَأَحْدِثُكُمَا.

\* \* \*

قالَ الْمُسِّيْبُ: وَذَهَبْنَا مَعَهُ؛ فَأَتَيْنَا بِطَعَامٍ نَظِيفٍ فَأَكَلْنَا، وَأَشْعَرْنَا الْدَّارَ أَنَّ رَبَّهَا  
قَدْ وَقَعَ فِيمَا شَاءَ مِنْ دُنْيَاهُ وَتَوَاصَلَتْ عَلَيْهِ النَّعْمَةُ؛ فَلَمَّا غَسَلْنَا أَيْدِيْنَا قَالَ مجاهِدٌ:  
هُوَ يَا أَبا... يَا أَبا مَنْ؟ قَالَ: أَبُو عُبَيْدٍ. قَالَ: هُوَ يَا أَبا عُبَيْدٍ... .

فَأَفْكَرَ الرَّجُلُ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: عَهْدٌ كَمَا بِي مِنْذُ تَسْعَ فِي مَجْلِسِ الْإِمَامِ الشَّعْبِيِّ  
بِالْكُوفَةِ؛ وَقَدْ كَثُرَ فِي بَقِيَّةِ مِنَ النَّعْمَةِ أَتَجْمَلُ بِهَا، وَكَانَتْ تُمْسِكُنِي عَلَى مَوْضِعِي  
فِي أَعْيُنِ النَّاسِ؛ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ الْبَقِيَّةَ تَدْقُّ وَتَنْفَضُ حَتَّى نَكِدَ عِيشِي وَوَقَعْتُ فِي  
الْأَيَّامِ الْمَقْعَدَةِ الَّتِي لَا تَمْشِي بِصَاحِبِهَا، وَأَنْقَلَبَ الزَّمْنُ كَالْعَدُوِّ الْمُغَيْرِ جَاءَ  
لِيَضْطَلِّمَ<sup>(١)</sup> وَيُخْرِبَ وَيُفْسِدَ، فَأَتَرَ فِي أَقْبَحِ آثَارِهِ، فَبِعْتُ مَا بَقِيَ لِي وَتَحْمَلْتُ عَنِ  
الْكُوفَةِ إِلَى الْبَصَرَةِ، وَقُلْتُ: إِنَّ لَمْ تَتَغَيَّرْ حَالِي تَغَيَّرْتُ نَفْسِي، وَلَا أَكُونُ فِي الْبَصَرَةِ  
قَدْ أَنْتَهَيْتُ إِلَى الْفَقْرِ، بَلْ أَكُونُ قَدْ بَدَأْتُ مِنَ الْفَقْرِ كَمَا يَدِأُ غَيْرِي، وَأَدْعُ الْمَاضِيَّ  
فِي مَكَانِهِ وَأَمْضِي إِلَى مَا يَسْتَقْبِلُنِي.

فَالْتَّمَسْتُ رُفْقَةً فَالْتَّأْمَنَا<sup>(٢)</sup> عَشْرِينَ رِجَالًا، فَلَمَّا كَنَّا فِي الْطَّرِيقِ، سَلَبَنَا الْلُّصُوصُ  
وَهَاجَرُوا أَلْقَافَلَةً وَمَا تَحْوِيهِ، وَنَجْوَتْ أَنَا رَاكِبًا فَرْسِيًّا وَعُمْرِي، وَأَدْرَكْتُ حِينَئِذٍ أَنَّ  
الْحَيَاةَ وَحْدَهَا مِلْكٌ عَظِيمٌ، وَأَنَّهَا هِيَ الْأَدَاءُ الْإِلَهِيَّةُ، وَالْبَاقِي كُلُّهُ هُوَ مِنْ أَنْفُسِنَا  
لِأَنْفُسِنَا وَالْأَمْرُ فِيهِ هَيْنَ وَالْخَطْبُ يُسِيرُ.

وَقُلْتُ: لَوْ أَنَّ الْلُّصُوصَ قَدْ مَرُوا بِنَا كَمَا يَمْزِي النَّاسُ بِالنَّاسِ لَمَّا نَكَبُونَا، وَلَكِنَّهُمْ  
عَرَضُوا لَنَا عُرُوضَ الْلَّصِنِ لِلْمَالِ وَالْمَتَاعِ لَا لِلنَّاسِ، فَوَضَعُوا فِيْنَا الْأَيْدِيَ النَّاهِيَةَ؛ وَمِنْ  
هَذَا أَدْرَكْتُ أَنَّ لِيْسَ الشَّرُّ إِلَّا حَالَةً يَتَلَبَّسُ بِهَا مَنْ يَسْتَطِعُ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهَا. فَإِذَا كَانَ  
ذَلِكَ فَأَصْلُ السَّعَادَةِ فِي الْإِنْسَانِ أَلَا يَعْبُأُ<sup>(٣)</sup> بِهَذِهِ الْحَالَاتِ مَتَى عَرَضَتْ<sup>(٤)</sup> لَهُ؛ وَهُوَ لَا  
يَسْتَطِعُ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا، تَمَثَّلَ الشَّرُّ كَمَا يَرَاهُ وَاقِعًا فِي غَيْرِهِ؛ فَالْمَرْأَةُ الْعَفِيفَةُ إِذَا عَرَضَتْ لَهَا  
حَالَةً مِنَ الْفُجُورِ، وَنَظَرَتْ إِلَى نَفْسِهَا وَحْظَ نَفْسِهَا، فَقَدْ تَعْمَى وَتَزِلُّ؛ وَلَكِنَّهَا إِذَا نَظَرَتْ  
إِلَى ذَلِكَ فِي غَيْرِهَا وَإِلَى أَثْرِهِ عَلَى الْفَاجِرَةِ، كَانَتْ كَائِنًا زَادَتْ عَلَى نَفْسِهَا نَفْسًا أُخْرِيًّا  
ثُرِيَّهَا أَلْأَشْيَاءَ مَجْرِيَّةً كَمَا هِيَ فِي حَقَائِقِهَا.

(١) يَصْطَلِمُ: يَسْتَأْصِلُ.

(٢) التَّأْمَنَا: اجْتَمَعْنَا.

(٣) يَعْبُأ: يَهْتَمْ.

(٤) عَرَضَتْ: حَصَلتْ.

قال : ومضينت على وجهي تتقاذفي أبقاءُ والأمكنةُ : وأنا أعاني الأرضَ والسماء ، وأخشى الليلَ والنهار ، وأكابدُ الألمَ والجوع ، حتى دخلتُ البصرةَ دخولَ البعيرِ الرازح ، قطعَ الصحراءَ تأكلُ منه ولا يأكلُ منها ، فأنضاه<sup>(١)</sup> السفرُ وحسرةُ الكلال<sup>(٢)</sup> ونحتهُ الثقلُ الذي يحمله ، فجأةً بيئيةً غير التي كان قد خرج بها . وكانت أيامِي هذه عمرًا كاملاً من الشقاء ، جعلتني أوقنُ أنَّ هؤلاء الناس في الحياة إنهم إلَّا كالدواب تحت أحمالها : لا تخثارُ الدابة ما تحملُ ولا مَنْ تحمل ، ولا يتركُ لها مع هذا أنَّ تختارُ الطريقَ ولا مدةَ السير ؛ وليس للدابة إلَّا شيئاً : صبرُها وقوتها ؛ إنْ فقدتهما هلكت ، وإنْ وَهنا فيها كان ضعفُها بحسبِ ذلك .

إنَّ هناك أوقاتاً من الشقاء والبؤس تُقذفُ بالإنسان وراء إنسانية وإنسانية البشر جميعاً ، لا ثبالي كيف وقع وفي أيِّ وادٍ هلك ، فلا ينفعُ الإنسان حينئذ إلَّا أنْ يعتصم<sup>(٣)</sup> بأخلاقِ الحيوان ، في مثل رِضاه الذي هو أحكمُ الحِكمَة في تلك الحال ، وصبرِه الذي هو أقوى القوة ، وقناعته التي هي أغنى الغنى ، وجهلِه الذي هو أعلمُ العلم ، وتوكُّله الذي هو إيمانُ فطرته بفطرته . لا يُبالي الحيوان مالاً ولا نعيمًا ، ولا متعًا ولا منزلة ، ولا حظًا ولا جاهًا ، ولن تجد حمارَ الملكِ يعرفُ مِنَ الملكِ أكثرَ مما يعرفُ حمارُ السقاء من السقاء ، ولعَلَّك لو سألهما وأطاكا الجوابَ لَقالَ لك الأول : إنَّ الذي فوقَ ظهري ثقيلٌ مقيضٌ؛ ولَقالَ لك الثاني : إنَّ الذي يركبُه خفيفٌ سهلٌ سمح !

ولكنَّ بلاءَ الإنسان أنه حين يُطْوِحُهُ البُؤسُ<sup>(٤)</sup> والشقاء وراءَ الإنسانية ، لا ينظرُ لغيرِ الناس ، فيزيدُ ذلك بُؤساً وحسرة ، ويتحقق<sup>(٥)</sup> في نفسه ما بقيَ من الصبر ، ويقلبُ رِضاه غيظاً ، وقناعته سخطاً ، ويبتليه كلُّ ذلك بالفكرة المهلكة أعجزَها أنْ تهلكَ أحداً فلا تجدُ مَنْ تُدمِّرُهُ غيرَ صاحبِها ؛ فإذا هي وجدت مساغاً<sup>(٦)</sup> إلى الناس فأهلكت وعاشرت وأفسدت ، فجعلت صاحبَها إما لِصاً أو قاتلاً أو مجرماً ، أيَّ ذلك تيسَّر !

\* \* \*

(٤) يُطْوِحُهُ البُؤسُ : أخذه كل مأخذ.

(١) أنساه : أتعبه .

(٥) يتحقق : يمحو .

(٢) الكلال : التعب الشديد .

(٦) مساغاً : سبيلاً .

(٣) يعتصم : يلجاً ويتقوى .

قال : وكُنْتُ أَعْرِفُ فِي الْبَصْرَةِ فَلَانَا النَّاجِرُ مِنْ سَرَاتِهَا<sup>(١)</sup> وَوِجْوَهِ أَهْلِهَا، فَأَسْتَطْرَقْتُهُ<sup>(٢)</sup> ؟ فَإِذَا هُوَ قَدْ تَحَوَّلَ<sup>(٣)</sup> إِلَى خُرَاسَانَ، وَلَيْسَ يَعْرُفُنِي أَحَدٌ فِي الْبَصْرَةِ وَلَا أَعْرِفُ أَحَدًا غَيْرَهُ ؛ فَكَائِنًا نُكِبْتُ مَرَّةً ثَانِيَةً بَغَارَةً شَرًّا مِنْ تَلْكَ، غَيْرَ أَنَّهَا قَطَعَتْ عَلَيَّ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ طَرِيقَ أَيَّامِيِّ، وَسَلَبَتْنِي أَخْرَى مَا بَقِيَ لِنَفْسِيِّ، وَهُوَ الْأَمْلُ !

وَرَأَيْتُ أَنَّهُ مَا مِنْ نَزُولِي إِلَى الْأَرْضِ بَدْءًا، فَأَكُونُ فِيهَا إِنْسَانًا كَالْدَابَةِ أَوِ الْحَشَرَةِ : حَيَّاتُهَا مَا أَتَفَقَ لَا مَا تُرِيدُ أَنْ يَتَفَقَّ؛ وَأَنَّهُ لَا رَأْيَ إِلَّا أَنْ أَسْخَرَ مِنَ الشَّهَوَاتِ فَأَزَهَدَ فِيهَا وَأَنَا الْقَوِيُّ الْكَرِيمُ، قَبْلَ أَنْ تَسْخَرَ هِيَ مُنِيَ إِذَا جَثَثُهَا وَأَنَا الطَّامِعُ الْعَاجِزُ !

وَفِي الْأَرْضِ كِفَايَةٌ كُلُّ مَا عَلَيْهَا وَمَنْ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ بِطَرِيقِهَا هِيَ لَا بِطَرِيقَةِ النَّاسِ؛ وَمَا دَامَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا قَائِمَةً عَلَى التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ وَتَحَوَّلُ شَيْءٌ إِلَى شَيْءٍ، فَهَذَا الطَّبَيْرُ الَّذِي يَأْكُلُهُ الْأَسْدُ لَا تَعْرُفُ الْأَرْضُ أَنَّهُ قَدْ أَكَلَ وَلَا أَنَّهُ أَفْتَرَسَ وَمُزَقَّ، بَلْ هُوَ عِنْدَهَا قَدْ تَحَوَّلَ قُوَّةً فِي شَيْءٍ أَخْرَى وَمُضِىٍّ؛ أَمَّا عِنْدَ النَّاسِ فَذَلِكَ خَطْبٌ<sup>(٤)</sup> طَوِيلٌ فِي حِكَايَةِ أَوْهَامِ مِنَ الْخُوفِ وَالْوَجْلِ<sup>(٥)</sup>، كَمَا لَوْ أَخْتَرْغَتْ قَصَّةَ خَرَائِيَّةَ تَحْكِيَهَا عَنْ أَسْدٍ قَدْ زَرَعَ لَحْمًا... فَتَعْهَدَهُ فَأَبْتَهَ فَحَصَدَهُ فَأَكَلَهُ، فَذَهَبَ الْزَرْعُ يَحْتَجُ عَلَى آكِلِهِ، وَجَعَلَ يَشْكُو وَيَقُولُ : لَيْسَ لِهُذَا زَرْعَتِي أَنْتَ، وَلَيْسَ لِهُذَا خَرْجَتِي أَنَا تَحْتَ الشَّمْسِ، وَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ هَذَا طَلَعَتِ الْشَّمْسُ عَلَيَّ وَعَلَيْكِ !

وَإِلَيْنَا يُرِي بِعِينِيهِ هَذَا التَّغْيِيرِ وَاقِعًا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ عَامِتِهَا وَفِي الْأَشْيَاءِ جَمِيعِهَا؛ فَإِذَا وَقَعَ فِيهِ هُوَ ضَجَّ وَسَخَطٌ، كَأَنَّ لَهُ حَقًا لَيْسَ لَأَحَدٍ غَيْرِهِ، وَهَذَا هُوَ الْعَجِيبُ فِي قَصَّةِ بَنِي آدَمَ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا عَلَى الْأَرْضِ كَلْمَاتٌ مِنَ الْجَنَّةِ لَا تُقَالُ هُنَّا وَلَا تُفَهَّمُ هُنَّا؛ بَلْ مَحْلُ الْاعْتَرَاضِ بِهَا حِينَ يَكُونُ الْإِنْسَانُ خَالِدًا لَا يَقْعُدُ فِيهِ التَّغْيِيرُ وَالْتَّبْدِيلُ. وَمِنْ هَذَا كَانَ خَيْالُ اللَّذَّةِ فِي الْأَرْضِ هُوَ دَائِمًا بَاعِثُ الْحَمَاهَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : وَذَهَبْتُ أَعْتَمِلُ بِيَدِيِّ وَجْسِمِي عَلَى آلَامِ مَنْ الْفَاقَةِ وَالْأَضْرَرِ، وَمَنْ الْخَيْبَةِ وَالْإِخْفَاقِ، وَمِنْ إِلْجَاءِ الْمَسْكَنَةِ، وَإِحْوَاجِ الْخَصَاصَةِ<sup>(٦)</sup>؛ فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنَّ يَدِي كَيْدُ الْعَبْدِ، وَظَهَرِي كَظَهَرِ الْدَّابَةِ، وَرَجْلِي كَرَجْلِ الْأَسْيَرِ، وَعَنْقِي كَعَنْقِيَّ

(٤) خَطْبٌ : بِسْكُونِ الطَّاءِ : الْمَصْبِيَّةِ.

(١) سَرَاتِهَا : أَغْنِيَاهَا.

(٥) الْوَجْلُ : الْخُوفُ.

(٢) اسْتَطْرَقْتُهُ : جَتَّهُ لِيَلَّا.

(٦) الْخَصَاصَةُ : الْفَقْرُ الْمَدْعَقُ وَشَدَّتُهُ.

(٣) تَحَوَّلُ : انتَقَلَ.

المغلول، ويطلع قرص الشمس على الدنيا ويغيب عنها وما أعتمل إلا بقرص من الخبز، ولقد رأيتني أبدل في صيانة كل قطرة من ماء وجهي سحابة من العرق حتى لا أسأل الناس، ويا بوسالي إن سأله وإن لم أسأله!

وما كان يمسكني على هذه الحياة المُرْمَقَة<sup>(١)</sup>، تأتي رمقاً بعد رمق في يوم إلا كلامُ الشعبي - الذي سمعته في مسجد الكوفة، وقوله فيمن قتل نفسه؛ فكان كلامُه نوراً في صدري يُشرق منه كل يوم مع الصبح صبح إيماني. ولكن بقيت أيام نعمتي الأولى ولها في نفسي ضربان من الوجع كالذي يجده المجرور في جره إذا ضرب عليه، فكان الشيطان لا يجد منفذًا إلى إلا منها. فقدت الصديق وعونه، فما كان يُقلّ على صديق إلا في أحلامي من وراء الزمان الأول!

قال مجاهد: والحبib؟

فتبسَم الرجل وقال: إذا فرغت<sup>(٢)</sup> الحياة من الذي هو أقل من الممكن، فكيف يكون فيها الذي هو أكثر من الممكن؟ إن جوع يوم واحد يجعل هذه الحياةحقيقة جافية لا شعر فيها، ويترك الزمان وما فيه ساعة واحدة مُعطرة... والبُؤس يقظة مؤلمة في القلب الإنساني تحرّم عليه الأحلام؛ وما الحب من أوله إلى آخره إلا أحلام القلوب بعضها بعض!

قال أبو عبيد: وتَضَعَضَت<sup>(٣)</sup> لهذه الحياة المخزية وأبرَّمْثني<sup>(٤)</sup> أيامها، وحملت في الميت والحي، ورأيت الشيطان - لعنة الله - كأنما أتخذني وعاء مطرحا على طريقه يُلقي فيه القمامه<sup>(٥)</sup>...، وظهر لي قلبي في وساوسه كالمدينة الخربة ضربها الوباء، فأعمّر ما فيها مقبرتها؛ وعاد البُؤس وقاح الوجه لا يستحيي، فلا أراه إلا في أرذل أشكاله وأبردتها؛ ولقد يكون البُؤس ليضع الناس على شيء من الحياة ف يأتي في أسلوب معتذر كالمرأة الدمية<sup>(٦)</sup> في نقابها<sup>(٧)</sup>.

وقلت لنفسي: ما هو - والله - إلا القتل، فهذا عمر أراه كالأسير أقيمت على النطع<sup>(٨)</sup> وسُلّ عليه السيف، فما ينتقم منه المنتقم بأفطع من تأخير الضربة، وما يرحمه الرحيم بأحسن من تعجيلها!

(٥) القمامه: الزباله.

(١) المرمة: الباقي من الحياة.

(٦) الدمية: البشعة.

(٢) فرغت الحياة: انتهت.

(٧) تضاعضت: تخلخت.

(٣) تضاعضت: تخلخت.

(٨) النطع: الآنية يتزل فيها دم من قطع رأسه.

(٤) أبرمتني: أضجرتني.

وَبِئْتُ أَوَامِرُ هَذِهِ النَّفْسَ فِي قَتْلِهَا وَأَحْدَثُهَا حَدِيثَ الْمَوْتِ، فَسِدَّدْتُ رَأْيِي فِيهِ  
وَقَالَتْ : مَا تَصْنَعُ بِجَسْمِ كَالْمُتَعَفِّنِ أَصْبَحَ كَالْمَقْبُورِ لَا أَيَّامَ لَهُ إِلَّا أَيَّامَ أَنْقَارَاضِيهِ وَتَفْتِيَّهِ؟  
بَيْدَ أَنِّي ذَكَرْتُ كَلَامَ (الشَّعْبِيِّ) فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ وَأَنَا أَحْفَظُهُ كُلَّهُ، فَجَعَلْتُ أَهْذِهِ<sup>(١)</sup> مَا  
أَتَرَكَ مِنْهُ حَرْفًا، وَاتَّخَذْتُهُ مَتَكَلِّمًا مَعَ نَفْسِي لَا كَلَامًا، كَنْتُ كُلُّمَا غَلَبَنِي الْفَضْلُ فَرَغْتُ بِهِ  
صَوْتِي وَأَصْغَيْتُ كَمَا أَصْغَيْتُ إِلَيْهِ إِنْسَانًا يُكَلْمُنِي فَرَأَيْتُ الشَّيْطَانَ بَعْدَ ذَلِكَ كَالْلَصِّ إِذَا  
طَمَعَ فِي رَجُلٍ ضَعِيفٍ مُنْفَرِدٍ، ثُمَّ لَمَّا جَاءَهُ وَجَدَ مَعَهُ رَجُلًا ثَانِيًّا قَوِيًّا فَهَرَبَ!

قَالَ أَبُو عُيَّادٌ : وَنَالَنِي رَوْحٌ مِنَ الْأَطْمَئْنَانِ وَجَدْتُ لَهُ السَّكِينَةَ فِي قَلْبِي فَنَمَتْ،  
إِنَّمَا الفَرْعَوْنَ الْأَكْبَرَ الَّذِي لَا يَنْسَاهُ مَنْ سَمِعَ بِهِ، فَكِيفَ الَّذِي رَأَهُ بَعْنَيْهِ؟

رَأَيْتُنِي مِتَّا فِي يَدِ غَاسِلِهِ يَقْلِبُهُ وَيَغْسِلُهُ كَأَنَّهُ خِرْقَةٌ؛ ثُمَّ حُمِّلْتُ عَلَى النَّعْشِ كَأَنَّ  
الْحَامِلِينَ قَدْ رَفَعُونِي يَقُولُونَ : أَنْظِرُوا إِلَيْهَا أَنْاسُ كِيفَ يَصِيرُ النَّاسُ؟ ثُمَّ صَلَّى عَلَيَّ  
الإِلَامُ الشَّعْبِيُّ فِي مَسْجِدِ الْكَوْفَةِ، ثُمَّ دُلِيْتُ فِي قَعْدَرَ مُظْلِمَةٍ وَهِيلَ التَّرَابُ عَلَيَّ،  
وَرَثِكْتُ وَحِيدًا وَأَنْصَرْفُوا!

وَمَا أَدْرِي كَمْ بَقَيْتُ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ رَأَيْتُ كَأَنَّمَا نُفَخَ فِي الصُّورِ<sup>(٢)</sup> وَبَعْثَرْتُ  
الْأَمْوَاتَ جَمِيعًا، فَطَرَنَا فِي الْفَضَاءِ، وَكَانَتِ النَّجُومُ غَبَارًا حَوْلَنَا كَثْرَابِ الْعَاصِفَةِ فِي  
الْعَاصِفَةِ؛ إِنَّا نَحْنُ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ وَفِي هَوْلِ الْمَوْقَفِ!

وَتَوَجَّهْتُ بِكُلِّ شَعْرٍ فِي جَسْمِي إِلَى الرَّجَاءِ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ؛ وَرَأَيْتُ أَعْمَالِي  
رَؤْيَةً أَحْزَنَتِنِي، فَهِيَ كَمَدِينَةٍ عَظِيمَةٍ كُلُّ أَهْلِهَا صَعَالِيكُ إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْمُسْتَوْرِينَ،  
أَرَى مِنْهُمُ الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ فِي السَّاعَةِ بَعْدَ السَّاعَةِ نَذَرُوا وَتَبَعَّذَوْا وَضَاعُوا  
كَأَعْمَالِي الْصَّالِحةِ!

وَذَكَرْتُ أَنِّي كَدْتُ أَقْتُلُ نَفْسِي فِرَارًا بِهَا مِنَ الْعُمُرِ الْمُؤْلَمِ؛ فَنَظَرْتُ إِنَّا زَمْنُ  
قَدْ ظَهَرَ فِي أَبْدِيَّتِهِ، وَرَجَعَ الْمَاضِي حَاضِرًا بِكُلِّ مَا حَوَى كَأَنَّهُ لَمْ يَمْضِ، وَإِنَّا  
عُمْرِي كُلُّهُ لَا يَكَادُ يَبْلُغُ طُرْفَةَ عَيْنٍ مِنْ دَهْرٍ طَوِيلٍ، فَحَمَدْتُ اللَّهَ أَنِّي لَمْ أَفْتَدِ الْمَ  
اللَّحْظَةَ الْقَصِيرَةَ الْقَصِيرَةَ، بَعْذَابِ الْأَبْدِ الْخَالِدِ الْخَالِدِ.

وَجِيءَ عَلَى أَعْيُنِ الْخُلُقِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَأَكْثَرُهُمْ لَذَّاتِ فِي تَارِيخِ الدُّنْيَا  
كُلَّهُ، فَصَاحَ صَائِحٌ : هَذَا أَنْعَمُ مَنْ كَانَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْذُ خَلَقَهَا اللَّهُ إِلَى أَنْ طَوَاهَا.  
ثُمَّ غَمَسَ هَذَا الْمَنْعَمُ فِي النَّارِ غَمْسَةً خَفِيفَةً كَنْبَضَةِ الْبَرْقِ، وَأَخْرَجَ إِلَى الْمَحْسَرِ،

(٢) الصُّورُ: الْبَوْقُ.

(١) أَهْذِهِ: أَسْرَعَ فِي قِرَاءَتِهِ.

وقيل له والناسُ جمِيعاً يسمعون: هل دُفِتَ نعِيماً قُطْ؟ قال: لا - والله - .

ثُمَّ جَيَءَ بِأَتَعْسٍ أَهْلِ الْأَرْضِ وَأَشَدُهُمْ بُؤْسًا مِنْذُ خُلُقَتِ الْأَرْضِ، فَعُمِسَ فِي الْجَنَّةِ غَمْسَةً أَسْرَعَ مِنَ النَّسِيمِ تَحْرَكَ وَمَرَ، ثُمَّ أُخْرَجَ إِلَى الْمُحْشِرِ وَقِيلَ لَهُ: هَلْ دُفِتَ بُؤْسًا قُطْ؟ قال: لا - والله - .

وسمِعْنَا شهِيقَ جَهَنَّمَ وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ؛ فَأَيْقَنْتُ أَنَّ لَهَا نَفْسًا خُلِقَتْ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ. وَخَرَجَ مِنْهَا عَنْقٌ عَظِيمٌ هائلٌ، لَوْ تَضَرَّمَتِ<sup>(١)</sup> السَّمَاءُ كُلُّهَا نَارًا لَأَشْبَهَهُ، فَجَعَلَ يَلْتَقِطُ صِنْفًا صِنْفًا مِنَ الْخُلُقِ، وَبِدَأَ بِالْمُلُوكِ الْجَبَابِرَةِ فَالْتَقْطُهُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً كَالْمَغْنَاطِيسِ لِثَرَابِ الْحَدِيدِ؛ وَقَدَّفَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ؛ ثُمَّ أَنْبَعَ فَالْتَقْطُهُمُ الْأَغْنِيَاءَ الْمُفْسِدِينَ فَأَطْأَرَهُمْ إِلَيْهَا؛ ثُمَّ جَعَلَ يَأْخُذُ قَوْمًا قَوْمًا، وَقَدْ أَجْمَنِي الْعَرَقُ مِنَ الْفَزَعِ؛ ثُمَّ طَرَزَتْ أَنَا فِيهِ، وَنَظَرْتُ، فَإِذَا أَنَا مُخْتَبِسٌ فِي مُظْلَمَةِ نَارِيَّةِ الْهَاوِيَّةِ، لَيْسَ حَوْلِي فِيهَا إِلَّا قَاتَلُوا أَنفُسِهِمْ. وَلَوْ أَنَّ بِحَارَ الْأَرْضِ جُعِلَ فِيهَا الْبَحْرُ فَوْقَ الْبَحْرِ فَوْقَ الْبَحْرِ، إِلَى أَنْ تَجْتَمِعَ كُلُّهَا فِي كُوْنِ الْعُمَقِ كَبَعْدِ مَا بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، ثُمَّ شُنْجَرَ<sup>(٢)</sup> نَارًا تَلَظَّى، لَكَانَتْ هِيَ الْهَاوِيَّةُ الَّتِي نَحْنُ فِي أَعْمَاقِهَا؛ وَكَنْتُ سَمِعْتُ مِنْ إِيمَانِنَا الشَّعْبِيِّ: أَنَّ عَصَاهَا الْمُؤْمِنِينَ الْمُوْحَدِينَ إِذَا مَاتُوا عَلَى إِيمَانِهِمْ كَانُوا فِي النَّارِ أَحْيَاءً وَجُوَارِخُهُمْ مَوْتَىٰ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْجَوَارَ قَدْ أَطَاعَتِ اللَّهَ وَسَبَّبَتْهُ فَكَرُمَتْ بِذَلِكَ حَتَّىٰ عَلَى جَهَنَّمَ، ثُمَّ يَعْدُبُونَ عَذَابًا فِي الرَّحْمَةِ، ثُمَّ يُخْرَجُونَ وَيَنْتَظِرُهُمْ إِيمَانُهُمْ عَلَى بَابِ النَّارِ، فَكَانَ إِلَى جَانِبِي رَجُلٌ قَتَلَ نَفْسَهُ، فَسَمِعَ قَائِلًا مِنْ بَعِيدٍ يَقُولُ لِمُؤْمِنٍ: أُخْرِجْ فَإِنْ إِيمَانَكَ يَنْتَظِرُكَ. فَصَاحَ الْذِي إِلَى جَانِبِيَ: وَأَنَا، أَفَلا يَنْتَظِرُنِي إِيمَانِي؟ فَقِيلَ لَهُ: وَهُلْ جِئْتَ بِهِ؟

وَرَأَيْتُ رَجُلًا ذَبَحَ نَفْسَهُ يُرِيدُ أَنْ يَصْرَخَ يَسْأَلُ اللَّهَ الرَّحْمَةَ، فَلَا يَخْرُجُ الصَّوْتُ مِنْ حَلْقِهِ، إِذَا كَانَ قَدْ فَرَأَهُ وَبِقَيْ مَفْرِيَا! وَأَبْصَرْتُ آخَرَ قَدْ طَعَنَ فِي قَلْبِهِ بِمِدِيَّةٍ، فَهُوَ هُنَاكَ تَسْلُخُ الزَّبَانِيَّةُ قَلْبُهُ تَبْحَثُ هُلْ فِي نَيَّةٍ صَالِحةٍ، فَلَا تَزَالُ تَسْلُخُ وَلَا تَزَالُ تَبْحَثُ! وَرَأَيْتُ آخَرَ كَانَ تَحْسَى<sup>(٣)</sup> مِنَ السُّمْ فَمَاتَ ظَمَانَ يَتَلَظَّى<sup>(٤)</sup> جَوْفَهُ، فَلَا تَزَالُ تَنْشَأُ لَهُ فِي النَّارِ سَحَابَةً رَوَيَّةً تَبَرُّقُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا دَنَثَ مِنْهُ وَرَجَاهَا، أَنْفَجَرَتْ عَلَيْهِ بِالصَّوْعَقِ ثُمَّ عَادَتْ تَنْشَأُ وَتَنْفَجِرُ!

(١) تَضَرَّمَتْ: اشْتَدَّ اشْتَعَالُهَا.

(٢) شُنْجَر: تَشَعُّل.

(٣) تَحْسَى: شَرَبَ.

(٤) يَتَلَظَّى: يَشَعُّل.

وقالَ رَجُلٌ : إِنَّمَا كُنْتُ مَجْنُوناً ضَعِيفًا عَاجِزًا فَأَزْهَقْتُ نَفْسِي . فَنَوِيَ : أَوْ مَا عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ يُحِاسِبُكَ عَلَى أَنَّكَ عَاقِلٌ لَا مَجْنُونٌ ، وَقَوِيٌّ لَا ضَعِيفٌ ، وَقَادِرٌ لَا عَاجِزٌ ؟ كُنْتَ تَعْقِلُ بِالْأَقْلَلِ أَنَّكَ سَتمُوتُ ، وَكُنْتَ تَقَوَّى عَلَى أَنْ تَصِيرَ ، وَكُنْتَ تَقْدِرُ أَنْ تَرْكَ الشَّرَّ .

وَقَالَ رَجُلٌ عَالَمٌ قَدْ حَرَّ فِي يَدِهِ بِسْكِينٍ فَمَا : « لَمْ يَكُنِ الْكَمَالُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا فِي طَبِيعَتِهَا وَلَا هُوَ شَيْءٌ يُدْرِكُ ». فَصَرَخَ فِيهِ صَوْتُ رَهِيبٍ : « وَلَكُنْ مِنْ عَظَمَةِ الْكَمَالِ أَنَّ أَسْتَمِرَ إِلَيْهِ الْعَمَلُ لَهُ هُوَ إِدْرَاكُهُ ! » .

\* \* \*

قَالَ أَبُو عُيَيْدٍ : ثُمَّ أَنْتَصَبَ بِإِرَائِي شَيْطَانٌ مَارِدٌ أَحْمَرٌ ، يَلْتَمِعُ التَّمَاعُ الْزَّجَاجُ فِيهِ الْخَمْرُ ، فَقَامَ فِي وَجْهِي وَقَالَ : بِمَاذَا جِئْتَ إِلَى هَنَا يَا عَدُوَّ الْخَمْرِ ؟ فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ النَّدَاءَ : شَفَعْتُ فِيْكَ الْخَمْرُ الَّتِي لَمْ تَشْرَبْهَا ، أُخْرَجْتُ ، إِنَّ إِيمَانَكَ يَنْتَظِرُكَ .  
فَصَاحَتْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ! وَتَحْرَكَ بِهَا لِسَانِي ، فَأَنْتَهَتْ .

لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الصَّبَرَ عَلَى الْمَصَابِ نِعْمَةٌ كَبِيرَةٌ لَا يُنْعِمُ اللَّهُ بِهَا إِلَّا فِي الْمَصَابِ .

## وحي القبور

ذهبت في صبح يوم عيد الفطر أحمل نفسي بنفسى إلى المقبرة، وقد مات لي من الخواطر موتى لا ميت واحد؛ فكنت أمشي وفي جنائزه بمشيعها<sup>(١)</sup>؛ من فكري يحمل فكراً، وخارطه يتبع خاطراً، ومعنى يبكي، ومعنى يبكي عليه.

وكذلك دأبى<sup>(٢)</sup> كلما انحدرت في هذه الطريق إلى ذلك المكان الذي تأتيه العيون بدموعها، وتمشي إليه النفوس بأحزانها، وتجيء فيه القلوب إلى بقايا. تلك المقابر التي لا ينادى أهلها من أهليهم بالأسماء ولا بالألقاب، ولكن بهذا النداء: يا أحبائنا، يا أحزاننا!

ذهبت أروراً أمواتي الأعزاء وأتصلُّ منهم بأطرافِ نفسي، لأحياء معهم في الموت ساعةً أغرضُ فيها أمرَ الدنيا على أمر الآخرة، فأنسى وأذكر، ثم أنظر وأعتبر، ثم أتعرف وأنوسم<sup>(٣)</sup>، ثم أستبطئ مما في بطن الأرض، واستظهر مما على ظهرها.

وجلست هناك أشرف من دهر على دهر، ومن دنيا على دنيا، وأخرجت الذكرة أفراخها القديمة ل يجعلها مادةً جديدةً لأحزانها؛ وأنفتح ليَ الزمانُ الماضي فرأيت رجعةَ الأمس، وكأنَّ دهراً كاملاً خلق بحوادثه وأيامه، ورفع لعيبي كما ترفع الصورة المعلقة في إطارها.

أعرف أنهم ماتوا، ولكني لم أشعر فقط إلا أنهم غابوا؛ والحبيب الغائب لا يتغير عليه الزمان ولا المكان في القلب الذي يحبه مهما تراحت به الأيام<sup>(٤)</sup>؛ وهذه هي بقية الروح إذا امترأحت بالحب في روح أخرى: ترك فيها ما لا يمحى لأنها هي خالدة لا تمحى.

ذهب الأموات ذهابهم ولم يقيموا في الدنيا؛ ومعنى ذلك أنهم مرؤوا بالدنيا

(١) مشيعها: مرافقتها.

(٢) دأبى: بسكون الهمزة: عادت.

(٣) توسم: استطلع.

(٤) تراحت به الأيام: امتدت.

ليسَ غيرَ، فهذِه هي الْحَيَاةُ حِينَ تُعبِّرُ عنْهَا النَّفْسُ بِلِسَانِهَا لَا بِلِسَانِ حاجِتِها وَجِرِصِهَا.

الْحَيَاةُ مَدَهُ عَمَلٌ، وَكَأَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنَ الْمُتَنَافِضَاتِ، إِنْ هِيَ إِلَّا مَضْئَعٌ يُسَوِّغُ كُلُّ إِنْسَانٍ جَانِبًا مِنْهُ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: هَذِهِ الْأَدَاءُ فَأَصْنَعْ مَا شِئْتَ، فَضْلِيلَكَ أَوْ رَذْلِيلَكَ.

(١) \* \* \*

جلستُ فِي الْمَقْبَرَةِ، وَأَطْرَقْتُ أَفْكَرِي فِي هَذَا الْمَوْتِ. يَا عَجَبًا لِلنَّاسِ! كَيْفَ لَا يَسْتَشْعِرُونَهُ وَهُوَ يَهْدِمُ مِنْ كُلِّ حَيٍّ أَجْزَاءَ تُحِيطُ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَهْدِمَهُ هُوَ بِجَمْلِتِهِ؛ وَمَا زَالَ كُلُّ بَنْيَانٍ مِنَ النَّاسِ بِهِ كَالْحَائِطِ الْمُسَلَّطِ عَلَيْهِ خَرَابٌ، يَتَأَكَّلُ مِنْ هَنَا وَيَتَنَاثِرُ مِنْ هَنَاكَ؟!

يَا عَجَبًا لِلنَّاسِ عَجَبًا لَا يَنْتَهِي! كَيْفَ يَجْعَلُونَ الْحَيَاةَ مَدَهُ نَزَاعٍ وَهِيَ مَدَهُ عَمَلٌ، وَكَيْفَ لَا تَبْرُخُ تَنْزُرُ التَّوَازِيِّ بِهِمْ فِي الْخِلَافِ وَالْبَاطِلِ، وَهُمْ كُلُّمَا تَدَافَعُوا بَيْنَهُمْ قَضِيَّةٌ مِنَ النَّزَاعِ فَضَرَبُوهَا خَصْمًا بِخَصْصِهِ وَرَدَّوْهَا كَيْدًا بِكَيْدِهِ، جَاءَ حُكْمُ الْمَوْتِ تَكْذِيْبًا قَاطِعًا لِكُلِّ مَنْ يَقُولُ لِشَيْءٍ: هَذَا لِي؟

أَمَّا - وَاللَّهُ - إِنَّهُ لَيْسَ أَعْجَبُ فِي السُّخْرِيَّةِ بِهَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ أَنْ يُعْطِي النَّاسَ مَا يَمْلِكُونَهُ فِيهَا لِإِثْبَاتِ أَنْ أَحَدًا مِنْهُمْ لَا يَمْلِكُ مِنْهَا شَيْئًا، إِذَا يَأْتِي الْآتِي إِلَيْهَا لِحَمَّا وَعَظِيمًا، وَلَا يَرْجِعُ عَنْهَا الرَّاجِعُ إِلَّا لِحَمَّا وَعَظِيمًا، وَبَيْنَهُمَا سَفَاهَةُ الْعَظِيمِ وَاللَّحِمِ حَتَّى عَلَى السَّكِينِ الْقَاطِعَةِ . . .

تَأْتِي أَلْيَامٌ وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ تَفْرُّغُ فِرَارَاهَا؛ فَمَنْ جَاءَ مِنْ عُمْرِهِ عَشْرَوْنَ سَنَةً فَإِنَّمَا مَضَتْ هَذِهِ العَشْرَوْنَ مِنْ عُمْرِهِ. وَلَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تُصَحَّحَ أَعْمَالُ الْحَيَاةِ فِي النَّاسِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ الْأَبْيَنِ، لَوْلَا الْطَّبَاعُ الْمَدْخُولُهُ وَالنُّفُوسُ الْغَافِلَةُ، وَالْعُقُولُ الْمُضَعِّفَةُ، وَالشَّهْوَاتُ الْعَارِمَةُ؛ فَإِنَّهُ مَا دَامَ الْعُمُرُ مُقْبِلًا مُذَبِّرًا فِي اعْتِبَارٍ وَاحِدٍ، فَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَنْتَهِي مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا يُرِضِيَهُ مَحْسُوبًا لَهُ وَمَحْسُوبًا عَلَيْهِ فِي وَقْتٍ مَعَاهُ، وَنَكُونُ الْحَيَاةُ فِي حَقِيقِهَا لِيَسْتَ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ الْإِنْسَانِيُّ هُوَ الْحَيَّ فِي الْحَيَّ.

\* \* \*

وَمَا هِيَ هَذِهِ الْقَبُورِ؟ لَقَدْ رَجَعَتْ عَنْدَ أَكْثَرِ النَّاسِ مَعَ الْمَوْتَى أَبْنِيَةً مِيَةً؛ فَمَا

(١) يَقْصِدُ إِنْسَانِيَّةَ الْحَيَاةِ.

قطُّ رأوها موجودة إلا لينسوا أنها موجودة؛ ولو لا ذلك من أمرِهم لكان للقبر معناه الحي المُتَغَلِّلُ في الحياة إلى بعد؛ فما القبر إلا بناء قائم لفكرة النهاية والانقطاع؛ وهو في الطرف الآخر رد على البيت الذي هو بناء قائم لفكرة البدء والاستمرار؛ وبين الطرفين المُعْبُدُ وهو بناء لفكرة الضمير الذي يحيا في البيت وفي القبر، فهو على الحياة والموت كالقاضي بين خصمين يُصلحُ بينهما صلحًا أو يقضي.

القبر كلمة الصدق مبنية متجسدة، وكل ما حولها يتکذب ويتأنّل، وليس فيها هي إلا معناها لا يدخلُه كذب ولا يعتريه تأويل. وإذا ماتت في الأحياء كلمة الموت من غرورٍ أو باطلٍ أو غفلة أو أثرة، بقي القبر مذكراً بالكلمة شارحاً لها بأظهر معانيها، داعياً إلى الاعتبار بمدلولها، مبيناً بما ينطوي عليه أنَّ الأمر كله للنهاية.

القبر كلمة الأرض ليَعنْ يخدع فيرى العمر الماضي كأنه غير ماضٍ، فيعمل في إفراج حياته من الحياة بما يملؤها من رذائله وحسائسه؛ فلا يزال دائياً في معاني الأرض واستجماعها. والاستمتع بها، يتلو في ذلك تلو الحيوان ويقتاس به، فشرعنته جوفه وأعضاؤه؛ وترجع بذلك حيوانيته مع نفسه الروحانية، كالحمار مع الذي يملكونه ويعلّفه، ولو سُئلَ الحمار عن صاحبه من هو؟ لقال: هو حماري . . .

القبر على الأرض كلمة مكتوبة في الأرض إلى آخر الدنيا، معناها أنَّ الإنسان حيٌ في قانون نهايته، فلينظر كيف ينتهي.

\* \* \*

إذا كان الأمر كله للنهاية، وكان الاعتبار بها والجزاء عليها، فالحياة هي الحياة على طريقةِ الإسلام لا غيرها؛ طريقة إكراء الحيوان الإنساني على ممارسة الأخلاقية الاجتماعية، وجعلها أصلاً في طباعه، وزن أعماله بنتائجها التي تنتهي بها، إذ كانت روحانية في النهايات لا في بداياتها.

في الحياة الدنيا يكونُ الإنسان ذاتاً تعاملُ أعمالها؛ فإذا أنتهت الحياة انقلبَت أعمالُ الإنسان ذاتاً يخلُدُ هو فيها؛ فهو من الخير خالد في الخير، ومن الشر هو خالد في الشر؛ فكان الموت إنْ هو إلا ميلاد للروح من أعمالها؛ ثُلُد مرتين: آتيةً وراجعةً.

وإذا كان الأمر للنهاية فقد وجب أن تَبْطَلَ من الحياة نهيات كثيرة، فلا يُترك

الشُّرُّ يمضي إلى نهايَتِه بل يُخسِّم في بَذئِه ويُقتل في أولِ أنفاسِه، وكذلك الشأنُ في كلٍّ ما لا يَحْسَنُ أَنْ يُبَدِّأ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَمْتَدَّ: كالعداوة والبغضاء، والبخل والأثرة، والكُبْرَاء والغرور، والخداع والكذب؛ وما شابَهَ هذِه أو شابَهُمَا، فَإِنَّهَا كُلُّها أَنْبَاعٌ مِنَ الْوَجُودِ الْحِيَوَانِيِّ وَأَنْفَجَارٌ مِنْ طَبِيعَتِه؛ ويَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ مِنْهَا فِي الإِرَادَةِ قَبْرٌ كَيْ تَسْلُمَ لِلنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ إِنْسَانِهَا إِلَى النَّهَايَةِ.

\* \* \*

يا مَنْ لَهُمْ فِي الْقُبُورِ أُمُوَاتٌ!

إِنَّ رُؤْيَةَ الْقَبْرِ زِيَادَةً فِي الشَّعُورِ بِقِيمَةِ الْحَيَاةِ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْقَبْرِ مِنْ مَعْنَى الْسَّلَامِ الْعُقْلِيِّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

الْقَبْرُ فَمْ يُنَادِي: أَسْرَعُوا أَسْرَعُوا، فَهِيَ مَدَّةٌ لَوْ صُرِفَتْ كُلُّهَا فِي الْخَيْرِ مَا وَفَتَ بِهِ؛ فَكِيفَ يَضِيِّعُ مِنْهَا ضِيَاعُ فِي الشُّرِّ أَوِ الْإِثْمِ؟ لَوْ وُلِّدَ الْإِنْسَانُ وَمَشَ وَأَيقَعَ وَشَبَ وَأَكْتَهَلَ وَهَرَمَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، فَمَا عَسَاهُ كَانَ يُضِيِّعُ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ الْوَاحِدِ؟ إِنَّ أَطْوَلَ الْأَعْمَارِ لَا يَرَا صَاحِبَهُ فِي سَاعَةٍ مَوْتِهِ إِلَّا أَقْصَرَ مِنْ يَوْمٍ.

يُنَادِي الْقَبْرُ: أَصْلِحُوا عِيوبَكُمْ، وَعَلَيْكُمْ وَقْتٌ لِإِصْلَاحِهَا؛ فَإِنَّهَا إِنْ جَاءَتْ إِلَى هَنَا كَمَا هِيَ، بَقَيَّتْ كَمَا هِيَ إِلَى الْأَبْدِ، وَتَرَكَهَا الْوَقْتُ وَهَرَبَ.

هُنَا قَبْرٌ، وَهُنَالِكَ قَبْرٌ أَيْضًا؛ فَلِيَسْ يَنْظُرُ فِي هَذَا عَاقِلٌ إِلَّا كَانَ نَظَرُهُ كَائِنًا حَكْمُ مُحْكَمَةٍ عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ كَيْفَ تَبْغِي وَكَيْفَ تَكُونُ.

فِي الْقَبْرِ مَعْنَى إِلْغَاءِ الزَّمَانِ، فَمَنْ يَفْهَمُ هَذَا أَسْتَطَاعَ أَنْ يَتَصَرَّ عَلَى أَيَّامِهِ، وَأَنْ يُسْقِطَ مِنْهَا أَوْقَاتَ الشُّرِّ وَالْإِثْمِ، وَأَنْ يُمْبِيَتْ فِي نَفْسِهِ خَوَاطِرَ الْأَسْوَءِ؛ فَمِنْ مَعْنَى الْقَبْرِ يَنْشأُ لِلْإِرَادَةِ عَقْلُهَا الْقَوِيُّ الْثَابِتُ؛ وَكُلُّ الْأَيَّامِ الْمُكْرَوَهَةِ لَا تَجِدُ لَهَا مَكَانًا فِي زَمِنِ هَذَا الْعُقْلِ، كَمَا لَا يَجِدُ اللَّيلُ مَحْلًا فِي سَاعَاتِ الْشَّمْسِ.

ثَلَاثَةُ أَرْوَاحٍ لَا تَصْلُحُ رُوحُ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِهَا:

رُوحُ الْطَّبِيعَةِ فِي جَمَالِهَا، وَرُوحُ الْمَعْبُدِ فِي طَهَارَتِهِ، وَرُوحُ الْقَبْرِ فِي مَوْعِظَتِهِ.

# عروسٌ تُرَفُّ إلى قبرها

١

كان عمرها طاقة أزهار تسمى أيامًا.

كان عمرها طاقة أزهار يتشدق في اليوم بعد اليوم كما تنبت الورقة الناعمة في الزهرة إلى ورقه ناعمة مثلها.

أيام الصبا المرحة حتى في أحزانها وهمومها؛ إذ كان مجدها من الزمن الذي حُصّن بشباب القلب، تبدو الأشياء في مجرى حكمها كالمسحورة؛ فإن كانت مفرحة جاءت حاملة فرخين، وإن كانت مخزنة جاءت بنصف الحزن.

تلك الأيام التي تعمل فيها الطبيعة لشباب الجسم بقوى مختلفة: منها الشمس والهواء والحركة، ومنها الفرح والنسوان والأحلام!

\* \* \*

وشبّت العذراء وأفرغت في قالب الأنوثة الشمسي القمري، وأكتسى وجهها ديباجة<sup>(١)</sup> من الزهر الغض<sup>(٢)</sup>، وأودعتها الطبيعة سرها النسائي الذي يجعل العذراء فن جمال لأنها فن حياة، وجعلتها تمثالاً للظرف: وما أعجب سحر الطبيعة عند ما تحمل العذراء بظرف الأطفال الذين ستلدهم من بعد! وأسبغت<sup>(٣)</sup> عليها معانى الرقة والحنان وجمال النفس؛ وما أكرم يد الطبيعة عند ما تمهر العذراء من هذه الصفات مهراها الإنساني!

وخطّبت العذراء لزوجها، وعقد له عليها في اليوم الثالث من شهر مارس في الساعة الخامسة بعد الظهر.

(١) ديباجة: بشرة.

(٢) الغض: الطريء.

(٣) أسبغت: أعطت وشملت.

وماتت عذراء بعد ثلاثة سنين، وأنزلت إلى قبرها في اليوم الثالث من شهر مارس في الساعة الخامسة بعد الظهر !

وكانت السنوات الثلاث عمر قلب يقطعه المرض ، يتظرون به العرس ، ويتظرون بنفسه الرئس !

يا عجائب القدر ! أذاك لحن موسيقي لأنين استمر ثلاثة سنوات ، فجاء آخره موزونا بأوله في ضبط ودقة ؟

أكانت تلك العذراء تحمل سرًا عظيمًا سيغير الدنيا ، فردى الدنيا عليها يوم التهنة والابتسام والزينة ، فإذا هو يوم الولولة<sup>(١)</sup> والدموع والكفن ؟



واهَا لك أيها الزمن ! من الذي يفهمك وأنت مدة أقدار ؟

واليوم الواحد على الدنيا هو أيام مختلفة بعده أهل الدنيا جميعاً ، وبهذا يعود بكل مخلوق سر يومه ، كما أن لكل مخلوق سر روحه ، وليس إليه لا هذا ولا هذا .

وفي اليوم الزمني الواحد أربعين مليون يوم إنساني على الأرض ! ومع ذلك يحصيه عقل الإنسان أربعاً وعشرين ساعة ؛ يا للغباوة ... !

وكل إنسان لا يتعلّق من الحياة إلا بالشعاع الذي يضيء المكان المظلم في قلبه ، والشمس بما طلعت عليه لا تستطيع أن تُنير القلب الذي لا يُضيئ إلا وجهة محبوب .

وفي الحياة أشياء مكذوبة تُكَبِّرُ الدنيا وتُصْغِرُ النفس ، وفي الحياة أشياء حقيقة تُعظِّمُ بالنفس وتُصغر بالدنيا ؛ وذهب الأرض كلُّ فقر مدفع حين تكون المعاملة مع القلب .

أيتها الدنيا ؛ هذا تحقيرك أللهم إذا أكبرك الإنسان !

\* \* \*

(١) الولولة: العويل والبكاء .

ويا عجباً لأهل السوء المغتربين بحياة لا بد أن تنتهي! فماذا يرتبون إلا أن تنتهي؟ حياة عجيبة غامضة؛ وهل أعجب وأغمض من أن يكون أنتهاء الإنسان إلى آخرها هو أول فكره في حقيقتها؟

فعندهما تحين الدقائق المعدودة التي لا ترقمها الساعة ولكن يرقمها صدر المختضر<sup>(١)</sup>... عند ما يكون ملك الملوك جمياً كالتراب لا يشتري شيئاً أبداً... .

.... ماذا يكون أيها المجرم بعدها تفتت الجنائية، ويقوم عليك الدليل، وترى حولك الجناد والقضاء، وتقف أمامك الشريعة والعدل؟

\* \* \*

أعمالنا في الحياة هي وحدها الحياة، لا أعمالنا، ولا حظوظنا. ولا قيمة للمال، أو الجاه، أو العافية، أو هي معاً - إذا سلب صاحبها الأمان والقرار! والأمن في الدنيا من لم تكن وراءه جريمة لا تزال تجري وراءه. والسعيد في الآخرة من لم تكن له جريمة ثطاردة وهو في السموات.

كيف يمكن أن تخدع الآلة صاحبها وفيها (العداد)؛ ما تحرّك من حركة إلا أشعرته فعدها؟ وكيف يمكن أن يكذب الإنسان ربّه وفيه القلب؛ ما يعمل من عمل إلا أشعره فعده؟

٣

ورأيت العروس قبل موتها بأيام.

أفرأيت أنت الغنى عند ما يذهب عن إنسان ليترك له الحسرة والذكرى الأليمة؟ أرأيت الحقائق الجميلة تذهب عن أهلها فلا ترك لهم إلا الأحلام بها؟ ما أتعب الإنسان حين تتحول الحياة عن جسمه إلى الإقامة في فكره!

وما هي الهموم والأمراض؟ هي القبر يستبطئ صاحبها أحياناً فينفض في بعض أيامه شيئاً من ترايه... .

رأيت العروس قبل موتها بأيام، فيالله من أسرار الموت ورهبته! فرغ

(١) المختضر: المنازع سكرات الموت.

جسمها كما فرَّغت عنَّها الأشياء من معانيها! وتخلى هذا الجسمُ عن مكаниه للروحِ  
تَظَهُرُ لأهْلِها وتقفُ بينَهم وِقْفَةً الْوَدَاعِ!

وتحولَ الزَّمْنُ إِلَى فَكِيرِ الْمَرِيْضَةِ؛ فلم تَعُدْ تعيشُ فِي نَهَارٍ وَلَيلٍ، بَلْ فِي فَكِيرِ  
مُضيِّءِ أو فَكِيرِ مُظْلِمِ!

يَا إِلَهِي! مَا هَذَا الْجِنْسُ الْمَتَهَدُّمُ الْمَقْبِلُ عَلَى الْآخِرَةِ؛ أَهُو تَمَثَّلُ بَطَلَّ تَعْبِيرَهُ،  
أَم تَمَثَّلُ بَدَأَ تَعْبِيرَهُ؟

لَقَدْ وَثَقْتُ أَنَّهُ الْمَوْتُ، فَكَانَ فَكْرُهَا إِلَهِيُّ هوَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ؛ وَكَانَ وَجْهُهَا كَوْجَهِ  
الْعَابِدِ؛ عَلَيْهِ طَيْفُ الصَّلَاةِ وَنُورُهَا. وَالرُّوحُ الْإِنْسَانِيَّةُ مَتَى عَرَثَ لَا تُعْبُرُ إِلَّا بِالْوَجْهِ.  
وَلَهَا أَبْسَامَةُ غَرِيبَةُ الْجَمَالِ؛ إِذْ هِيَ أَبْسَامَةُ آلَامٍ أَيْقَنَتْ أَنَّهَا مُوشِكَةُ أَنْ تَتَهَيِّيِ!  
أَبْسَامَةُ رُوحٍ لَهَا مِثْلُ فَرَحِ السَّاجِنِينَ قَدْ رَأَى سَجَانَهُ وَاقِفًا فِي يَدِهِ السَّاعَةُ يَرْقُبُ  
الْدِقْيَقَةَ وَالثَّانِيَةَ لِيَقُولَ لَهُ: اِنْطَلِقِ!

\* \* \*

وَدَخَلْتُ أَعْوَدُهَا فَرَأَتِ كَائِنِي آتِ مِنَ الدُّنْيَا...! وَتَنَسَّمَتْ مَنِيْ هَوَاءُ الْحَيَاةِ،  
كَائِنِي حَدِيقَةً لَا شَخْصَ!

وَمَنْ غَيْرُ الْمَرِيْضِ الْمَدْنَفِ<sup>(۱)</sup>، يَعْرُفُ أَنَّ الدُّنْيَا كَلْمَةً لِيَسَ لَهَا مَعْنَى أَبْدَأَ إِلَّا العَافِيَةِ:  
مَنْ غَيْرُ الْمَرِيْضِ الْمُشْفِي عَلَى الْمَوْتِ، يَعِيشُ بِقُلُوبِ النَّاسِ الَّذِينَ حَوْلَهُ لَا يَقْلِبُهُ؟  
تَلَكَ حَالَةٌ لَا تَنْفَعُ فِيهَا الشَّمْسُ وَلَا الْهَوَاءُ وَلَا الطَّبِيعَةُ الْجَمِيلَةُ، وَيَقُومُ مَقَامُ  
جَمِيعِهَا لِلْمَرِيْضِ أَهْلَهُ وَأَحْبَاؤُهُ!

وَكَانَ ذُوُوهَا مِنْ رَهْبَةِ الْقَدْرِ الْدَّانِيِّ كَائِنَهُمْ أَسْرَى حَرَبِ أَجْلَسُوا تَحْتَ جَدَارٍ  
بُرِيدُ أَنَّ يَنْقُضَ! وَكَانَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ فَزَعِهَا تَنْبِضُ نَبْضًا مِثْلَ ضَرَبَاتِ الْمَعَاوِلِ.

وَبِاقْتِرَابِ الْحَبِيبِ الْمُحَتَضَرِ مِنَ الْمَجْهُولِ، يُصْبِحُ مَنْ يَحْبُّهُ فِي مجْهُولٍ آخَرَ،  
فَتَخْتَلُطُ عَلَيْهِ الْحَيَاةُ بِالْمَوْتِ، وَيَعُودُ فِي مَثْلِ حَيَّرَةِ الْمَجْنُونِ حِينَ يُمْسِكُ بِيَدِهِ الْظَّلَّ  
الْمَتَحْرِكَ لِيَمْنَعَهُ أَنْ يَذْهَبَ وَتَغْرُوْهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ كَابَّهُ عَمْرٌ كَامِلٌ، ثَهِيْئَهُ لَهُ جَلَالُ  
الْحِسَنِ الَّذِي يَشَهُدُ بِهِ جَلَالُ الْمَوْتِ!

\* \* \*

(۱) المَدْنَفُ: الشَّدِيدُ الْمَرْضُ.

وحانَتْ ساعَةٌ مَا لَا يُفهِمُ، ساعَةٌ كُلُّ شَيْءٍ، وَهِيَ ساعَةُ الْلَّا شَيْءٍ فِي الْعُقْلِ الإِنْسَانِيِّ! فَالْتَّفَتَتِ الْعَرْوَسُ لِأَيْهَا تَقُولُ: «لَا تَحْزَنْ يَا أَبِي...» وَلِأَمْهَا تَقُولُ: «لَا تَحْزَنِي يَا أُمِّي...!».

وَتَبَسَّمَتِ لِلْدَمْوعِ كَائِنًا تُحَاوِلُ أَنْ تُكَلِّمَهَا هِيَ أَيْضًا؛ تَقُولُ لَهَا: «لَا تَبْكِي...!» وَأَشْفَقَتِ عَلَى أَحْيَاهَا وَهِيَ تَمُوتُ، فَاسْتَجَمَعَتِ رُوحَهَا لِيَبْقَى وَجْهُهَا حَيًّا مِنْ أَجْلِهِمْ بَضَعَ دَقَائِقٍ! وَقَالَتْ: «سَأَغَادِرُكُمْ مَبْتَسِمَةً قَيْعِيشُوا مَبْتَسِمِينَ، سَأَرْكُ ذَكَارِي بَيْئِكُمْ تَذَكَّارَ عَرْوَسٍ!...».

ثُمَّ ذَكَرَتِ اللَّهُ وَذَكَرَتُهُمْ بِهِ، وَقَالَتْ: «أَشْهُدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». وَكَرَرَتْهَا عَشَرًا! وَتَمَلَّأَتِ رُوحُهَا بِالْكَلْمَةِ التِّي فِيهَا نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَنَطَقَتِ مِنْ حَقِيقَةِ قَلْبِهَا بِالْأَعْظَمِ الَّذِي يَجْعَلُ النَّفْسَ مُنِيرَةً تَتَلَاءِأُ حَتَّى وَهِيَ فِي أَحْزَانِهَا. ثُمَّ أَسْتَقْبَلَتِ خَالِقَ الرَّحْمَةِ فِي الْأَبَاءِ وَالْأَمْهَاتِ وَفِي مُثْلِ إِشَارَةِ وَدَاعِ مِنْ مَسَافِرِ أَنْبَعَتِ بِهِ الْقِطَارِ، أَلْقَتِ إِلَيْهِمْ تَحْيَةً مِنْ أَبْسَامِهَا وَأَسْلَمَتِ الرُّوحِ!



يَا لَعْجَابِ الْقَدْرِ! مَشِينَا فِي جَنَازَةِ الْعَرْوَسِ التِّي تُزَفُّ إِلَى قَبْرِهَا طَاهِرَةً كَالْطَّفْلَةِ وَلَمْ يُبَارِكْ لَهَا أَحَدًا فَمَا جَاؤُنَا أَدَارَ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى أَبْصَرْتُ عَلَى حَاطِطِ فِي الطَّرِيقِ إِعْلَانًا قَدِيمًا بِالْخَطِّ الْكَبِيرِ الَّذِي يَصِحُّ لِلْأَعْيُنِ؛ إِعْلَانًا قَدِيمًا عَنْ (رَوَايَة) هَذَا هُوَ اسْمُهَا: «مَبْرُوكٌ...!».

وَأَخْتَرْفَنَا الْمَدِينَةُ وَأَنَا أَنْظُرُ وَأَتَقْصِي<sup>(١)</sup>، فَلَمْ أَرَهُ هَذَا الإِعْلَانَ مَرَّةً أُخْرَى! وَأَخْتَرْفَنَا الْمَدِينَةُ كُلَّهَا، فَلَمَّا أَنْقَطَعَ الْغَمْرَانُ وَأَشْرَفَنَا عَلَى الْمَقْبَرَةِ، إِذَا آخْرُ حَاطِطٍ عَلَيْهِ الإِعْلَانُ: «مَبْرُوكٌ...!»

(١) أَتَقْصِي: أَبْحَثُ.

## موت أم

رجعت من الجنازة بعد أن غبِرَتْ قدميَّ ساعَةٍ في الطريق التي ترابَ وأشعة، وكانت في العُشِّ لؤلؤة آدمية محظمة، هي زوجة صديق طحطحتها<sup>(١)</sup> الأمراض ففرقتها بين عَلَل الموت، وكان قلبُها يُحييها فأخذَ يُهلكُها، حتى إذا دنا أن يُفْضِي عليها رحْمَهَا اللَّهُ فقضى فيها قضاءه. ومن ذا الذي مات له مريض بالقلب ولم يرَه من قلبه في عَلَتِه كالعصفورَ التي تهتك تحت عيني ثعبان سلطَ عليها سموَّ عينيه!

كانت المسكينة في الخامسة والعشرين من سنِّها، أما قلبُها ففي الثمانين أو فوق ذلك؛ هي في سنِّ الشباب وهو متهدّم في سنِّ الموت.

وكانت فاضلة نقية صالحة، لم تتعلم ولكن علمَها التقوى والفضيلة. وأكمل النساء عندي ليست هي التي ملأت عينيها من الكتب فهي تنظر إلى الحياة نظرات تحلُّ مشاكل وتخلق مشاكل ولكنها تلك التي تنظر إلى الدنيا بعين متلازمة بنور الإيمان تُقِرُّ في كل شيء معناه السماوي، فتؤمن بأحزانها وأفراحها معاً، وتأخذ ما تعطى من يد خالقها رحمة معروفة أو رحمة مجهولة. هذه عندي تسمى امرأة، ومعناها المعبد القديسي؛ وتكون الزوجة، ومعناها القوة المسعدة؛ وتصير الأم، ومعناها التكميلة الإلهية لصغارها وزوجها ونفسها.

ومهما تبلغ المرأة من العلم فالرجل أعظم منها بأئمه رجال، ولكن المرأة حق المرأة هي تلك التي خلقت لتكون للرجل مادة الفضيلة والصبر والإيمان، فتكون له وحياناً وإلهاماً وعزاءً وقوّة، أي زيادة في سروري ونقصاً من آلامه.

ولن تكون المرأة في الحياة أعظم من الرجل إلا بشيء واحد، هو صفاتها التي تجعل رجلاًها أعظم منها.

\* \* \*

(١) طحطحتها: أنهكتها.

ومشيت منَ الْبَيْتِ الَّذِي أَبْسَطَهُ الْمِيَةُ مَعْنَى الْقَبْرِ، إِلَى الْقَبْرِ الَّذِي أَبْسَطَ الْمِيَةَ  
معنِى الْبَيْتِ وَأَنَا مَنْدُ مشيتُ فِي جَنَازَةِ أُمِّي (رَحْمَهَا اللَّهُ) لَا أَسِيرُ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ مَعَ  
الْأَحْيَاءِ، وَلَكِنْ مَعَ الْمَوْتَىِ، فَأَتَيْتُ مِنَ الْمَيِّتِ صَدِيقًا لِيَسَ رَجُلًا وَلَا اُمَّاً، لَأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ  
هَذِهِ الدُّنْيَا؛ وَأَمْشَى فِي سَاعَةٍ لَبَسَتْ سَتِينَ دَقِيقَةً، لِأَنَّهَا خَرَجَتْ مِنَ الْزَّمْنِ؛ وَلَا أَرَى  
الطَّرِيقَ مِنْ طَرِيقِ الْحَيَاةِ، لِأَنِّي فِي صَاحِبَةِ مَيِّتٍ؛ وَتُصْبِحُ لِلأَرْضِ فِي رَأْيِي جُغْرَافِيَّةً  
أُخْرَى عَمِيَ النَّاسُ عَنْهَا لِشَدَّةِ وَضُرْبِهَا، كَالْأُلُوهِيَّةِ خَفَيْتُ مِنْ شَدَّةِ مَا ظَهَرَتْ.

يقولون: إنَّ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعَ الْأَرْضِ يَغْمُرُهَا الْبَحْرُ. أَمَّا أَنَا فَأَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ  
أَنَّ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعَ الْأَرْضِ لَا يَغْمُرُهَا الْبَحْرُ الَّذِي وَصَفُوا، وَلَكِنْ حِضْمٌ آخْرُ زَخَارٌ<sup>(۱)</sup>  
مَتَضَرِّبٌ، هُوَ ذَلِكَ الْبَحْرُ التَّرَابِيُّ الْعَظِيمُ الْمُسَمَّى «الْمَقْبَرَة».

يقولون: إنَّ الْحَيَاةَ هِي . . . هِي مَاذَا - وَيَحْكُمُ - أَيُّهَا الْمَغْرُورُونَ؛ أَفَلَا تَرَوْنَ  
هَذِهِ الصُّلَّةِ الدَّائِمَةِ بَيْنِ بَطْنِ الْأَمْمَ وَبَطْنِ الْأَرْضِ؟

\* \* \*

لَعْمَرِي كَيْفَ تَجْعَلُ هَذِهِ الْحَيَاةُ لِلنَّاسِ قَلُوبَاهُمْ مَعَ قَلُوبِهِمْ، فَيُحِسْنُ الْمَرْءُ بِقُلْبِهِ،  
وَيَعْمَلُ بِقُلْبِهِ آخِرَ: يَعْتَقِدُ ضَرَرَ الْكَذِبِ وَيَكْذِبُ، وَيَعْرِفُ مَعْرَةَ الْإِثْمِ وَيَأْثِمُ، وَيُؤْقِنُ  
بِعَاقِبَةِ الْخِيَانَةِ ثُمَّ يَخُونُ؛ وَيَمْضِي فِي الْعُمُرِ مُنْتَهِيًّا إِلَى رَبِّهِ، مَا فِي ذَلِكَ شَكٌّ،  
وَلَكَنَّهُ فِي الْطَّرِيقِ لَا يَعْمَلُ إِلَّا عَمَلًا مَنْ قَدْ فَرَّ مِنْ رَبِّهِ . . .؟

هَبَّتِ الْرِّيحُ فِي السَّحَرِ عَلَى رُوْضَةِ غَنَّاءَ فَطَابَتْ لَهَا، فَعَدَتْ عَقْدَتَهَا أَنْ تَتَخَذَ  
لَهَا بَيْتاً فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الْطَّيِّبِ لِتُتَقِّيمَ فِيهِ . . . يَا لَهَا حِكْمَةُ مِنَ التَّدِبِيرِ! تَزَعُمُ الْرِّيحُ  
الْإِقَامَةَ عَلَى حِينٍ كُلِّ وجودِهَا هُوَ لَحْظَةُ مَرْوِرِهَا، وَتَحْلُمُ بِالْقَرَارِ فِي الْبَيْتِ وَهِيَ لَا  
تَمْلِكُ بَطِيعَتِهَا أَنْ تَقْفَ.

يَا لَهَا حِكْمَةُ سَامِيَّةٍ، لَا يَسْكُنُهَا مِنَ الْمَعْنَى إِلَّا أَسْخَفَ مَا فِي الْحُمْقِ!

\* \* \*

هَمَدَ الْحَيُّ وَانْطَفَأَتِ عَيْنَاهُ، وَلَكَنَّهُ تَحرَّكَ فِي تَارِيخِهِ مِمَّا ضَيَّقَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ  
وَسَعَ، وَأَصْبَحَ يَنْظُرُ بَعِينَ مِنْ عَمَلِهِ إِمَّا مُبْصِرَةً أَوْ كَالْعُمَيَّاءِ؛ فَلَوْ تَكَلَّمَ يَصِيفُ الْحَيَاةَ  
الْدُّنْيَا لِقَالَ: إِنَّ هَذِهِ النَّجْوَمَ عَلَى الْأَرْضِ مَصَابِحُ مَأْتِمٍ أُقْيِمَ بَلِيلٌ. وَمَا أَعْجَبَ أَنْ  
يَجْلِسَ أَهْلُ الْمَأْتِمِ فِي الْمَأْتِمِ لِيَضْحَكُوا وَيَلْعَبُوا!

(۱) زَخَارٌ: مَلِءَ بِالْحَرْكَةِ وَالضَّجَّةِ.

ولو نطق الموتى لقالوا: أيها الأحياء، إن هذا الحاضر الذي يمرُّ فيكون ماضيكم في الدنيا، هو عينه الذي يكون مستقبلكم في الآخرة، لا تزيدون فيه ولا تنقصون. وإن الدنيا تبدأ عندكم من الأعلى إلى الأدنى: من العظام إلى الفقراء؛ ولكلها تقلب في الآخرة فتبدأ من الفقراء إلى العظام؛ وأنتم ترسمونها بخطوط المطامع والحظوظ، ويرسمها الله بخطوط الحرمان والمُجاهدة؛ إن التأم على الأرض من تم بمتاعها ولذاتها، ولكن التأم في السماء من تم بنفسه وحدها.

\* \* \*

يا أسفًا! لن يقول الميت للحي شئًا، ومن يدري؟ لعلنا ونحن نلحد للموتى وننزلهم في قبورهم، يرون بأرواحهم الخالدة أننا نحن موتهما المساكين، وأننا مدفونون في القبر الذي يسمونه «الكرة الأرضية»! وهل الكرة الأرضية من الالهامية إلا حفرة برجل نملة ليُدفن فيها نملة . . .

الحياة.. أتريد أن تعرفها على حقيقتها؟ هي المُبهمات الكثيرة التي ليس لها في الآخر إلا نفسٌ واحد: حلال أو حرام.

\* \* \*

ورجعنا مع الصديق إلى بيته، وله خمسة أطفال صغارٍ لو أنهم هم الذين انتشروا من أمّهم لتترك كل واحد على قلبها مثل المكوأة المحتمى عليها في النار إلى أن تحرّر؛ ولكن أمّهم هي التي تُزغّت منهم، فكان بقاوئهم في الحياة تخفيفاً لسُكّرة الموت عليها. وغشيتها الغشية فماتت وهي تضحك، إذ تراهم نائمين تحت جناح الرحمة الإلهية الممدود، وقالت: إنها تسمع أحلامهم. وكانوا هم عقلها في ساعة الموت!

تبارك الذي جعل في قلب الأمّ دنيا من خلقه هو، ودنيا من خلق أولادها!  
تبارك الذي أثاب الأمّ ثواب ما تعايني، فجعل فرحها صورة كبيرة من فرح صغارها!

\* \* \*

وجاء أكبر الأطفال الخمسة، وكأنه ثمانية أرطالٍ من الحياة لا ثمانية أعوام من العمر؛ جاء إلينا كما يجيء الفزع لقلوب مطمئنة، إذ كان في عينيه الباكيتين معنى فقد الأم!

وطغت عليه الدموع فتناولَ منديله ومسحها بيده الصغيرة، ولكن روحه

اليتيمة تأبى إلا أن ترسم بهذه الدموع على وجهه معانٍ يُنتميها!  
وظهر الانكسار في وجهه يعبر ببلاغة أنه قد أحسن حقيقة ضعفه وطفولته بازاء المصيبة التي نزلت به، وجلس مستسلماً ترجم هيئته معانٍ هذه الكلمة: «رفقا بي!».

ثمَّ تطير من عينيه نظرات في الهواء، كائناً يُحسّ أنَّ أمَّه حوله في الجنة ولتكنه لا يراها!

ثمَّ يُرْجِي عينيه في إغماضة خفيفة، كائناً يرجو أنْ يرى أمَّه في طويته!<sup>(١)</sup>  
ولا يصدق أنها ماتت، فإنَّ صوتها حيٌّ في أذنيه لا يزال يسمعه من أمس!  
ثمَّ يعود إلى وجهه الانكسار والاستسلام، ويتململ في مجلسه، فينطق جسمه كله بهذه الكلمة: «يا أمي!».

\* \* \*

أحسَّ - ولا ريب - أنَّه قد ضاع في الوجود، لأنَّ الوجود كان أمَّه.  
ولمسَ خشونة الدنيا منذَ الساعة، بعدَ أنْ فقدَ الصدر الذي فيه وحده لِيُنْجِي الحياة لأنَّ فيه قلب أمَّه وروحها.

وشعر بالذلِّ ينساب إلى قلبه الصغير، لأنَّ تلك التي كان يملك فيها حقَّ الرحمة قد أخذت منه وتركته بلا حقٍّ في أحد؛ وليس لأحد أمَّان!  
وليسَتْ المسكنة، لأنَّ له شيئاً عزيزاً أصبح وراء الزمان فلن يصل إلىه!  
وليسَتْ المسكنة، لأنَّه صار وحده في المكان كما هو وحده في الزمان!  
وارتسَم على وجهه التَّعْجُب، كائناً يسأل نفسه: «إذا لم تكون أمِّي هنا، فلماذا أنا هنا؟!».

ثمَّ تَغَرَّرتُ<sup>(٢)</sup> عيناه فيخرج منديله ويمسح دمعه بيده الصغيرة، ولكنَّ روحه اليتيمة تأبى إلا أن ترسم بهذه الدموع على وجهه معانٍ يُنتميها!

\* \* \*

ونهض الصغير ولم ينطق بذات شفقة؛ نهض يحمل رجولته التي بدأث منذَ الساعة!

(٢) تغمرت: دمعت.

(١) طويته: سريرته داخله.

انتَهَىٰ - أَيُّهَا الطَّفْلُ الْمُسْكِنُ - أَيَّامُكَ مِنَ الْأَمْ؛ هَذِهِ الْأَيَّامُ السَّعِيدَةُ الَّتِي كُنْتَ  
تَعْرُفُ الْغَدَّ فِيهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ مَعْرِفَتَكَ أَمْسِ الَّذِي مَضَى؛ إِذْ يَأْتِيَ الْغَدُ وَمَعَكَ أَمْكَ!  
وَبِدَائِثٍ - أَيُّهَا الطَّفْلُ الْمُسْكِنُ - أَيَّامُكَ مِنَ الزَّمْنِ، وَسِيَّاتِي كُلُّ غَدٍ مَحْجَبًا  
مَرْهُوبًا؛ إِذْ يَأْتِيَ لَكَ وَحْدَكَ، وَيَأْتِيَ وَأَنْتَ وَحْدَكَ!  
الْأَمْ...؟ يَا إِلَهِي، أَيُّ صَغِيرٍ عَلَى الْأَرْضِ يَجِدُ كِفَايَةً مِنَ الرُّوحِ إِلَّا فِي  
الْأَمْ؟

## قصةُ أبٍ

حدَثَنِي الْمُسْكِينُ فِيمَا حَدَثَ وَهُوَ يَصْفُ مَا نَزَّلَ بِهِ قَالَ :

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا آبَاءَ فَتَسَاءَ<sup>(۱)</sup> بِالْوَلَدِ فِي آنَارِهِمْ، وَمَدَّ بِالنِّسْلِ فِي وُجُودِهِمْ، وَزَادَ مِنْهُ فِي أَرْوَاحِهِمْ أَرْوَاحًا، وَضَمَّ بِهِ إِلَى قُلُوبِهِمْ قُلُوبًا، وَمَلَأَ أَعْيُنَهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِمَا تَقْرُبُ بِهِ فُرَّةَ عَيْنٍ كَانَتْ لَمْ تَجِدْ ثُمَّ وَجَدَتْ؛ فَهُمْ بِهُؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ يَمْلِكُونَ الْقُوَّةَ الَّتِي تُرْجِعُهُمْ أَطْفَالًا مُثَلَّهُمْ فِي كُلِّ مَا يَسْرُهُمْ، فَيَكِبِّرُ الْفَرَحَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَإِنْ كَانَ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ ضَئِيلًا صَغِيرًا، مَا يَسْرُهُمْ، فَيَكِبِّرُ الْفَرَحَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَإِنْ كَانَ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ ضَئِيلًا صَغِيرًا، وَيَعْظُمُ الْأَمْلُ فِي أَشْيَائِهِمْ وَإِنْ كَانَ هُوَ عَنْ شَيْءٍ حَقِيرٌ لَا يُؤْبِهُ<sup>(۲)</sup> لَهُ.

وَتَلِكَ حَقِيقَةٌ مِنْ حَقَائِقِ السُّعَادَةِ لَا أَسْمَى وَلَا أَعْظَمَ مِنْهَا إِلَّا الحَقِيقَةُ الْأُخْرَى؛ وَهِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي يَتَحَوَّلُ بِهَا الْكَوْنُ فِي قَلْبِ الْوَالِدِينِ إِلَى كَنْزٍ مِنَ الْحُبِّ وَالرَّحْمَةِ وَجَمَالِ الْعَاطِفَةِ، بِسُخْرِيَّةِ مِنَ الْأَبْسَامَةِ طَفَلٌ أَوْ طِفْلَةٌ، أَوْ بِكُلْمَةٍ مِنْهُمَا أَوْ حَرْكَةٍ، عَلَى حِينٍ لَا يَتَحَوَّلُ مِثْلَ ذَلِكَ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ بِمَالِ الدُّنْيَا، وَلَا بِمَلْكِ الدُّنْيَا.

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا آبَاءً، وَلَكِنَّهُ أَبْتَلَانِي بِأَنْ أَكُونَ أَبًا، وَأَخْرَجَ لِي مِنْ أَفْرَاحِ قَلْبِي أَحْزَانَ قَلْبِي! وَلَقَدْ كَثُرَ كَرْجَلُ مَلَكَ دَارًا يَسْتَمْتَعُ بِهَا، فَتَمَّتِي أَنْ يُشَرِّعَ<sup>(۳)</sup> فِي جَانِبِ مِنْهَا غَرْفَةً يَزَّخِرُهَا، فَلَمَّا تَمَّ لَهُ ذَلِكَ وَبَلَغَ الْمُقْتَرَحَ، أَنْهَدَمَتِ الدَّارُ وَبَقِيَتِ الْغَرْفَةُ قَائِمَةً!

عَمْرَكَ اللَّهُ، أَيْشَعُرُ هَذَا الرَّجُلُ فِي نَكْبَتِهِ بِالْغَرْفَةِ أَمْ بِالدَّارِ؟ وَهُلْ تَرَاهُ زَادَ أَوْ نَقْصَ؟ وَيَا لِي تَهْمَا بَيْتٌ وَغَرْفَةٌ مِنْ بَيْتٍ؛ فَإِنَّ الْحِجَارَةَ تُحِيَا بِالْبَنَاءِ إِذَا مَاتَتْ بِالْهَدْمِ، وَلَكِنْ مَنْ ذَا يُحِيِ الْزَّوْجَةَ مَاتَتْ بَعْدَ أَنْ وَضَعَتْ بِكَرَهِهَا الْأَوَّلَ وَالْآخِرِ!

إِنَّهَا طَفْلَةٌ وُلِدَتْ وَكَانَمَا أَخْرِجَتْ مِنْ تَحْتِ الرَّدَمِ، إِذْ وُلِدَتْ تَحْتَ مَاضِ مَنْ

(۱) نَسَأُ: زَادَ.

(۲) يُؤْبِهُ: يَهْتَمُ، يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ.

(۳) أَيْ أَنْ يَفْتَحَ غَرْفَةً تُؤَذِي إِلَى الشَّارِعِ.

الحياة منهدم، وهل فرق بين هذا وبين أن تكون أمّها قد ولدتها في الصحراء ثم أكرهت أن تدعها وحدها في ذلك القفر تصرخ وتبكي! فالمسكينة على الحالين منقطعة أول ما انقطعت من حنان الأم ورحمتها.

طفلة ولدت صارخة، لا صرخة الحياة، ولكن صرخة النوح والنذير على أمّها.

صرخة حزينة معناها: ضعوني مع أمي ولو في القبر!

صرخة ترتعش، لأن المسكينة شعرت أن الدنيا خالية من الصدر الذي يدفعها!

صرخة تتردد في ضراعة<sup>(١)</sup>، لأنها جملة مركبة من هذه الكلمات: «يا رب أرحمني من حياة بلا أم!».

\* \* \*

قال المسكين وهو يبكي أمّاته:

ولما ضربها المخاض، ضاعفت قوتها من شعورها أنها ستكون بعد قليل مضاعفة بمولودها، وستكون روحين لا روحًا واحدة، وتلذلي الحياة والحب الإلهي معاً، وتأتي لقلبي بمثيل طفولته الأولى التي يستحيل أن تأتي الرجل إلا من زوجه. كل ذلك ضاعف قواها ساعة وشد منها؛ ولكن ما أسرع ما تبيّث أنه الموت، إذ عُصِلت وعَسِرَ خروج مولودها.

وجاءها الجراح بمنضمه، وكانت رأته ذابحة لا طبيباً، فجعلت تعبر بعينيها، إذ لم تملك في آلامها القاتلة غير لغة هاتين العينين.

كانت بنظرة تبكي على بؤسي، وبآخرى تبكي على بؤس مولودها وشقايه؛ وبنظرة ثوّدعني، وبآخرى تدعوا الله لي جزاء ما أحست إليها؛ وبنظرة تتوجع لنفسها، وبآخرى تتألم من أنها تراني أكاد أجن.

نظرات نظرات . . .

يا إلهي! لقد خيل إلي أن ملك الموت واقف بين عشرين مرأة تحيط به، فأنا أراها موتاً متعدداً لا موتاً واحداً، وكل نظرة من عيني زوجتي إلي كانت منها هي نظرة، وكانت عندي أنا مرأة الروح للروح.

(١) ضراعة: توسل.

ولكّها لم تنس أثّها تموت لوضع مولودها، وأنّ هذه الآلام الدمويّة الذايحة هي الوسيلة لأنّ تركّ لي بقية حيّة منها؛ فيا للرحمه والحنان والحبّ! لقد أبتسّمت لي وهي تموت؛ وهي تلّد؛ وهي تذبح!

三

ليَسْت رحمةً المرأة المحبةً خيالاً إلَّا إذا كانت حرارةً الشمْسِ التي تُحيي  
الدُّنيا خيالاً أيضاً؛ إنَّ هذا القلب النسوِيُّ المستقرُ فوقَ أحشائِه تحملُ الجنينَ صابرةً  
راضيةً فرحةً بآلامِها، وتغدوه وتنقاسمهُ حيَاةً نفسيها - هذا القلب يحملُ الحُبَّ أيضاً  
صابراً راضياً فرحاً بآلامِه، ويعذوْه وينقاسمهُ حيَاةً نفسه.

وللرحمه الإلهيه أدله كثيرة تدل الإنسان عليها دلالات مختلفة؛ فالشمس تدل عليها بالضوء الذي تطعنه الحياة، والهواء يدل عليها بالضوء الذي تنفسه الحياة، والماء يدل عليها بالضوء الذي تشربه الحياة، وهكذا إلى أن يأتي في الآخر قلب المرأة فيدل على رحمة الله بالحب الذي تقوم به الحياة.

إِيْسَامَةُ الْحُبُّ غَالِبُ زَفَرَاتِ الْمُوْتِ الَّتِي تَعْتَلِجُ مِنْ تَحْتِهَا حَتَّىٰ غَلَبَتْهَا،  
وَأَعَادَتِ الْحَيَاةَ لِحَظَّةٍ إِلَى وَجْهِ زَوْجِي لِأَرَاهَا آخِرَ مَا أَرَاهَا فِي صُورَةِ الْمُحْبَّةِ لِي،  
فَكَانَ كُلُّ جَمَالٍ نَفْسِهَا مُنْتَشِرًا عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ، وَظَهَرَتْ فِيهِ رُوحُهَا وَعِوَاطِفُهَا  
تَوَدَّعْنِي وَدَاعِاً حَزِينًا مَتَبَسِّمًا يَتَكَلَّمُ؛ يَتَكَلَّمُ بِعِجَزِهِ عَنِ الْكَلَامِ.

إِيْسَامَةُ لَا رِيبَ أَنَّ فِيهَا أَشْيَاءٌ لِيَسَتْ مِنْ جَمَالِ هَذِهِ الدُّنْيَا وَلَا مِنْ حَقَائِقِهَا؛  
فَكَانَمَا الْتَّمَعَثْ بِأَشْعَةٍ مِنَ الْخُلُدِ تَرَفُّ رَفِيقَهَا عَلَى وَجْهِ الْحَبِيبِ لِيُظَهِّرَ سَاعَةَ الْمَوْتِ  
أَنَّ حَبَّةَ أَقْوَى مِنَ الْمَوْتِ.

三

قال المِسْكِينُ : وَنَرَّ الْطَّبِيبُ ذَا بَطْنَهَا فَكَانَتْ طِفْلَةً ، وَمَا كَانَتْ زَوْجِي تَقْرَرُ أَنْ يَكُونَ الْجَنِينُ غَيْرَهَا ، بَلْ كَانَتْ مُسْتِيقَنَةً أَنَّهَا تَضَعُهَا أَنْتَيْ ، وَصَعَّبَتْ لَهَا ثِيَابَهَا ، وَوَسَّعَتْهَا بِزِيَّنَةِ الْأُنُوْثَةِ ، وَعَرَضَتْ أَسْمَاءَ الْبَنَاتِ فَأَخْتَارَتْ أَسْمَهَا أَيْضًا ، وَكُنْتُ أَكْرَهُ ذَلِكَ مِنْهَا وَأَرِيدُ ولَدًا لَا بَنَّا ، فَكَانَتْ تُغَايِظُنِي بِعَمَلِهَا وَإِصْرَارِهَا غَيْظَ دُعَائِيَّةً لَا غَيْظَ جَفَاءً .

ومَضَتْ لَا تذَكُرُ إِلَّا بِنَتْهَا مَدَةُ الْحَمْلِ، وَلَا تَكَلَّمُ إِلَّا عَنْ بَنْتِهَا، وَقَدْ كَنْتُ أَعْجَبُ لِذَلِكَ؛ فَلَمَّا قَضَى اللَّهُ فِيهَا قَضَاءَهُ، عَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ الرُّوحِ، فَكَانَ إِلَهَامُ فِيهَا أَنَّهَا عَلَى بَابِ قَبْرِهَا، وَأَنَّهَا لَنْ تَرَى طِفْلَتَهَا، وَلَنْ تَعِيشَ لَهَا،

فعاشت أيام الحَمْل مع ذكرها: تضم ثيابها إلى صدرها وتحملها على يدها، وتناغيها وتقبلها، وتأخذها من الوهم وتردها إليه؛ وكذلك نعمت المسكينة بالمسكينة!

لِكَ اللَّهُ يَا مَعْجِزَةَ الرَّحْمَةِ، يَا نَفْسَ الْأَمَّ!

\* \* \*

ولما قيل: ماتت. جعل يكلمني المتكلّم ولا أعقل؛ فإن الكلمة التي تأتي بالمصيبة المتوقعة طال أرتقابها، لا تأتي بمعانٍ لغوية كغيرها من الكلام، بل بأسلحة تضرّب في النفس وفي العقل، وتشخّصها جراحاً وفتكاً.

وجعلني موتها كائي ميت يحمل نفسه، ما حولة إلا المشيرون؛ وأحسنت كأن قوة أخذت بإحدى رגלי فوضعتها في الآخرة وتركـت الثانية في الدنيا، ولحقني من الجزء ما الله عالم به، ووجدت أخرق الوجود، وبكـت أحر البكاء؛ وجعلـت أفكارـي تنحدرـ من رأسي إلى حلقي فاختنقـ بها ثم لا ينفـسـ عـني إلا الدـمعـ، كـأنـ أـعـضـائـيـ أـخـتـلـتـ مـمـاـ ضـعـطـنـيـ مـنـ الـحزـنـ، فـأـنـاـ أـتـفـسـ بـرـئـيـ وـعـيـيـ.

بموتها شعرت بها؛ ولعله من أجل ذلك لا يشعر الإنسان بذلك الحُبُّ كاملة إلا في آلام الحُبُّ وحدها، وكانت في حياتها تضع من روحها في سوري، وهذا هو سرُّ المرأة المحبوبة: يجد محبـهاـ في كل سرور لمحات روحانية؛ وكذلك فعلـتـ بعد موتها، فجعلـتـ روحـهاـ في أحـزـانـيـ؛ ولوـلاـ أـنـ روـحـهاـ فيـ أحـزـانـيـ لـقتـلـشـيـ المصـيبةـ.

وكـنـتـ أـذـلـفـ<sup>(۱)</sup> وراء النعش وقد بـطـلـ في نفـسيـ الشـعـورـ بالـدـنـيـاـ، وكـانـ النـاسـ يـمـشـونـ حـزـلـيـ بـمـاـ فـيـهـمـ مـنـ الـحـيـاـةـ، وـكـانـواـ ذـاهـبـينـ إـلـىـ الـمـقـبـرـةـ عـلـىـ أـنـهـمـ سـائـرـونـ كـمـاـ يـذـهـبـونـ إـلـىـ كـلـ مـكـانـ؛ أـمـاـ أـنـاـ فـكـنـتـ أـمـشـيـ بـمـاـ فـيـ مـنـ الـحـبـ مـنـكـسـرـاـ مـنـخـلـداـ مـضـعـضاـ، لـأـنـيـ وـحـديـ سـائـرـ وـرـاءـ مـاـ لـيـلـحـقـ.

وـثـقـلـ النـاسـ عـلـىـ قـلـبـيـ، وـرـجـعـ كـلـ أـمـرـهـ عـنـديـ إـلـىـ الـعـيـبـ والنـقـيـصـةـ، إـذـ كـانـ لـيـ عـقـلـ طـارـيـ مـنـ الـحـالـةـ التـيـ أـنـاـ فـيـهـاـ لـيـسـ مـثـلـهـ لـأـحـدـ مـنـهـمـ، وـكـنـتـ وـحـديـ الـمـصـابـ بـيـنـهـمـ، فـكـنـتـ وـحـديـ بـيـنـهـمـ الـعـاقـلـ.

أـنـاـ أـمـشـيـ لـأـنـتـهـيـ إـلـىـ آـخـرـ مـصـيبـيـ، وـهـمـ يـمـشـونـ لـيـنـتـهـوـاـ إـلـىـ آـخـرـ الـطـرـيقـ؛ وـشـتـآنـ<sup>(۲)</sup> مـاـ نـحـنـ وـشـتـآنـ!

(۲) شـتـآنـ: اسـمـ فـعـلـ مـاضـ بـمـعـنـىـ بـعـدـ.

(۱) دـلـفـ: مـشـيـ.

ولمَ رأيْتُ قبَرَهَا أَبْتَدَرَتْ عينَايِ تنظرَانِ بالدموعِ لَا بالنظرِ، ورأيْتُ الترابَ كائِنَهُ  
غَيْوَمٌ ملؤَنَةً بِاللَّوَانِ السُّحُبِ الداكنَةِ تهِيَّأَ فِي سماَئِهَا تَحْتَ الظَّلَامِ لِتُخْفِي كُوكَبًا مِنَ  
الكواكبِ؛ وظَهَرَ لِي القُبُرُ كائِنَةً فِي الْأَرْضِ يُخاطِبُ الإِنْسَانَ بِحَزْمِ صَارَمٍ، يُخاطِبُ الْفَقِيرَ  
وَالْغَنِيَّ، وَالْمُضْعِفَ وَالْقَوِيَّ، وَالْمُلُوكَ وَالصَّاعِلِيكَ: «أَنَّ كُلَّ قَوْةً تَنْزَعُ هَنَا».

\* \* \*

قال المسكين: وكما يجدُ الإِنْسَانُ فِي أَيَّامِ الْمَطَرِ رائحةَ النَّسِيمِ المُبَتَلِّ بِالْمَاءِ،  
كُنْتُ أَسْتَرْوَحُ<sup>(١)</sup> فِي رَجْعِي إِلَى الدَّارِ رائحةَ نَسِيمٍ مُبَتَلٍ بِالْمَدْمُوعِ؛ وَحَضَرَتِي الْمَاتِمَ  
وَعَزَّانِي النَّاسُ، فَكُنْتُ فِيهِمْ كَالْمَأْسُورِ بِيَنْهُمْ: لَا أَتَمَّى إِلَّا أَنْ يَدْعُونِي فَأَنْجُو عَلَى  
وَجْهِي، وَلَا أَرِي إِلَّا أَنَّهُمْ يَجْرِعُونِي الْوِجُودَ غُصَصًا كَمَا تَجْرَغَتِ الْفَقَدَ غُصَصَةً  
غُصَصَةً؛ إِلَى أَنْ تَفَرِّقُوا مَعَ سَوَادِ اللَّيلِ فَأَنْكَفَأُ إِلَى الدَّارِ، فَإِذَا كُلُّ شَيْءٍ قدْ تَغَيَّرَ  
وَلَمَسَهُ الْمَوْتُ لَمَسَةً، وَإِذَا أَدَارُ نَفْسَهَا كَالْعَيْنِ الْمَقْرُوحةِ مِنْ آثَارِ الْبَكَاءِ: مَا ثَمَّ  
شَيْءٌ إِلَّا لِيَطَالِعَنِي بِأَنْ مَسْرَاتِي قدْ مَاتَتِ!

وَلَاحَ الْأَصْبَحُ لِعِينِي السَّاهِرَتِينِ صُبْحًا فَاتَّرَا تَبَيَّنَتِ فِيهِ الْخَجْلُ، كائِنَهُ يَقُولُ: «لَمْ  
أَطْلُعْ لَكَ»، فَانسَلَّتِ مِنَ الْبَيْتِ، وَذَهَبَتِ أَمْشِي فِي دُنْيَا هِيَ الْكَابَةُ الْمُضِيَّةُ سَخِرَتِ  
الْأَقْدَارُ مِنْهَا بِإِاظْهَارِهَا فِي هَذَا الضَّوءِ مَظَهَرٌ وَجْهُ الْعَجُوزِ الْمُتَصَابِيَّ فِي زِينَةٍ لَا  
تَزِيدُهَا إِلَّا قَبْحًا!

وَمَضَيَّتُ عَلَى وَجْهِي لَا غَايَةَ لِي، أَصْرَبَ فِي كُلِّ جَهَةٍ كائِنَمَا أُرِيدُ أَنْ أَهْرُبَ  
مِنْ نَفْسِي! وَمَا خَطَرَ لِي قَطُّ أَنِّي فِي يَوْمِ جَدِيدٍ، بَلْ كُنْتُ عَنْدَ نَفْسِي لَا أَزَالُ.  
أَمْسُ، وَتَغَيَّرَ عَنِّي الزَّمَانُ وَالْمَكَانُ: فَأَحَدُهُمَا سَاعَةً مُوْتٍ لَا تَرْكُ مَا فِيهَا، وَالآخَرُ  
قَبْرٌ مِيَّةٌ لَا يَرْدُّ مَا فِيهِ.

أَوْ مِنَ الْوَقْتِ الَّذِي يَتَهَيَّي فِيهِ الْمَوْجُودُ لِيَعْذِنَا بِالْتَّذَكِيرِ أَنَّهُ كَانَ مَوْجُودًا!

\* \* \*

قال المسكين ثمَّ أعادني قدمائي إلى البيت لأرى طفلي - وما كنْتُ رأيُها - ولقد  
كانتِ ولا دُتها أَوْلَ الْحَيَاةِ لَهَا، وَأَوْلَ الْحَيَاةِ لِي أَيْضًا؛ إِذْ لَوْلَاهَا لَأَتَحْرَثُ غَيْرَ شَكَّ.  
يَا وَيْلَتَا! لَمْ تَلْتَقِ عِينِي بِعِينِ الطَّفْلَةِ حَتَّى أَنْفَجَرَتِ تَبْكِي. أَبْكِيَنَّ لِي يَا أَبْتَنِي  
أَمْ عَلَيَّ؟

(١) أَسْتَرْوَحُ: أَشْتَمْ.

أهذا بكاوٍك أيتها المسكينة، أم هو صوت قلبك أليتيم؟  
 أصواتك أنت، أم هي روح أمك تصرخُ ترثي لي، وتتووجهُ لفزط ما قاسينت!  
 يا أبنتي، إنما أنت الحقيقة الصغيرة التي خرجت لي من كل تلك الحالات  
 الشعرية الجميلة، حالات الأيام السعيدة التي مررت!  
 يخلق المواليد من اللحم والدم! وأراكِ أنت يا مسكينة، خلقت من اللحم  
 والدم والدموع!

بقية حياة ماتت! فهل معنى ذلك إلا أنك بقية موتي يحيا؟  
 مسكينة، مسكينة؛ لو أن نواميس العالم متغيرة لشيء لتغيرت من أجل بؤسك  
 فرددت لك الأم، ولكنها لن تتغير، وما بكاوتنا وألامنا وتعاستنا إلا تراث<sup>(١)</sup> الحياة  
 في أجسامنا الأرضية، كل ذلك طبيعة ولكن بقعة أنظف من بقعة، وأراكِ يا أبنتي  
 كالبيت الذي هدم أول ما بني يملؤه ترابه!  
 لن تتغير النواميس، فلن تجدي عطف الأم، ولكن لن يتغير قلبي أيضاً، فلن  
 تحرمي عطف الآباء.  
 وإذا صبر الناس على الحياة فمن أجلك يا مسكينة! من أجل ضعفك  
 وأنقطع عليك ساعاني الصبر لك، وأعاني الصبر لي، وأعاني الصبر عن أمك، سأصبر  
 على الصبر نفسه!

يا أبنتي، يا أبنتي، لماذا وضعتك الأقدار من هذه الحياة في الناحية التي ليس  
 فيها إلا قبر مظلل مقفل على أمك، وأبت مسكين مقفل على آلامه؟

\* \* \*

قال المسكين: وهكذا كُتبت من أهل البؤس والهم، فلم أتزوج إلا لتصنع لي  
 حبيبي دموعي، ثم لم ثمت إلا بعد أن تركت لي حبيبة أخرى ستظل زماناً طويلاً  
 تصنع لي دموعي!

(١) تراث: وراثة.

## السّمكَة

حدَثَ أَحْمَدُ بْنُ مُسْكِينِ الْبَغْدَادِيُّ قَالَ: حَصَلْتُ فِي مَدِينَةِ (بَلْخ) سَنَةَ ثَلَاثَيْنَ وَمَائَتَيْنَ، وَعَالِمُهَا يَوْمَئِذٍ شِيخُ خُرَاسَانَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْزَاهِدِ صَاحِبُ الْمَوَاعِظِ وَالْحِكْمَمِ؛ وَهُوَ رَجُلٌ قَلْبُهُ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ، وَنَفْسُهُ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَالْفَلَكُ الْأَعْلَى مِنْ وَرَاءِ نَفْسِهِ، كَأَنَّهُ يُلْقَى عَلَيْهِ فِيمَا زَعَمَ.

وَكَانَ يُقَالُ لَهُ عِنْهُمْ: (الْقَمَانُ هَذِهِ الْأُمَّةُ)؛ لِمَا يُعْجِبُهُمْ مِنْ حِكْمَتِهِ فِي الْزَهْدِ وَالْمَوْعِظَةِ، وَقَدْ حَضَرَتِ مَجَالِسُهُ وَحَفِظَتِ مِنْ كَلَامِهِ شَيْئاً كَثِيرًا، كَقُولِهِ: مَنْ دَخَلَ مَذَهَبَنَا هَذَا (يعني الطَّرِيقَ) فَلْيَجُلِّ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ خَصَالٍ مِنَ الْمَوْتِ: مَوْتُ أَبِيْضٍ، وَمَوْتُ أَسْوَدٍ، وَمَوْتُ أَحْمَرٍ، وَمَوْتُ أَخْضَرٍ؛ فَالْمَوْتُ أَبِيْضُ الْجَوْعِ، وَالْمَوْتُ أَسْوَدُ احْتِمَالِ الْأَذَى، وَالْمَوْتُ الْأَحْمَرُ مُخَالَفُ النَّفْسِ، وَالْمَوْتُ أَخْضَرُ طَرْحُ الرَّقَاعِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ (يعني لِبسِ الْمَرْقَعَةِ وَالْخَلْقِ مِنَ الثِّيَابِ).

وَقُلْتُ يَوْمَاً لِصَاحِبِهِ وَتَلَمِيذهِ (أَبِي تُرَابٍ) وَجَارِيَتِهِ فِي تَأْوِيلِ هَذَا الْكَلَامِ: قَدْ فَهَمْنَا وَجْهَ التَّسْمِيَّةِ فِي الْمَوْتِ الْأَخْضَرِ مَا دَامَتِ الْمَرْقَعَةُ خَضْرَاءَ؛ فَمَا الْوَجْهُ فِي الْأَبِيْضِ وَالْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ؟ فَجَاءَ بِقَوْلٍ لِمَ أَرْضَهُ، وَلَيْسَ مَعَهُ دَلِيلٌ، ثُمَّ قَالَ: فَمَا عَنْدَكَ أَنْتَ؟ قَلْتُ: أَمَّا الْجَوْعُ فَيُمِيتُ النَّفْسَ عَنْ شَهْوَاتِهَا وَيَتَرَكُهَا بِيَضَاءِ نَقِيَّةٍ، فَذَلِكَ الْمَوْتُ الْأَبِيْضُ؛ وَأَمَّا احْتِمَالُ الْأَذَى فَهُوَ احْتِمَالُ سَوَادِ الْوَجْهِ عَنْدَ النَّاسِ، فَهُوَ الْمَوْتُ الْأَسْوَدُ؛ وَأَمَّا مُخَالَفُ النَّفْسِ فَهِيَ كَإِضْرَامِ الْأَنَارِ فِيهَا، فَذَلِكَ الْمَوْتُ الْأَحْمَرُ.

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مُسْكِينِ: وَكُثُرَ ذَاتُ نَهَارٍ فِي مَسْجِدِ (بَلْخ) وَالنَّاسُ مُتَوَافِرُونَ<sup>(۱)</sup> يَنْتَظِرُونَ (الْقَمَانَ الْأُمَّةِ) لِيَسْمَعُوهُ، وَشَغَلَهُ بَعْضُ الْأَمْرِ فَرَاثَ<sup>(۲)</sup> عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: مَنْ يَعْطُنَا إِلَى أَنْ يَجِيءَ الشِّيْخُ؟ فَالْتَّفَتَ إِلَيَّ أَبُو تُرَابٍ وَقَالَ: أَنْتَ رَأَيْتَ الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلَ، وَرَأَيْتَ بِشَرَأَ الْحَافِي وَفَلَانَا وَفَلَانَا، فَقُلْتُ فَحَدَّثْ النَّاسَ عَنْهُمْ، فَإِنَّمَا هُؤُلَاءِ وَأَمْثَالَهُمْ هُمْ بِقَيَا النَّبُوَةِ. ثُمَّ أَخْذَ بِيَدِي إِلَى الْأَسْطَوَانِ الَّتِي

(۲) رَاث: تَأْخِر.

(۱) مُتَوَافِرُون: كَثِيرٌ.

يجلس إليها إمام خراسان فأجلسني ثمة<sup>(١)</sup> وقعد بين يدي.

وتطاولت الأعناق<sup>(٢)</sup>، ورمانى الناس بأبصارهم<sup>(٣)</sup>، وقالوا: البغدادي!  
البغدادي! وكأنما ضوعفت عندهم بمجلسي مرة وبنسبتي مرة أخرى، فقلت في  
نفسِي: - والله - ما في الموت الأحمر ولا الأخضر ولا الأسود موعظة، ولو لم يَسْ  
عْزِرائِيلُ قُوْسَ قُرْخَ لِأَفْسَدِ شَعْرَ هَذِهِ الْأَلْوَانِ معناه، وإنما يجب أن يكون كما يجب  
أن يكون؛ ولا موعظة في كلام لم يمتليء من نفس قائله، ليكون عملاً فيتحول في  
النفوس الأخرى عملاً ولا يبقى كلاماً؛ وإنَّه ليس الوعظ تأليف القول للسامع  
يسمعه، لكنه تأليف النفس لنفس أخرى تراها في كلامها، فيكون هذا الكلام كأنه  
قرابة بين النفسين، حتى لكان الدم المتجاذب يجري فيه ويدور في الفاظه.

\* \* \*

وكثُر رأيت رؤيا (بليخ) تَتَصَلُّ بِقَصَّةِ قَائِمَةٍ في بَغْدَادِ، فَقَصَّصْتُهَا عَلَيْهِمْ،  
فَكَانَتِ الْقَصَّةُ كَمَا حَكَيْتُهَا: أَنِّي أَمْتَحَثُ بِالْفَقْرِ فِي سَنَةِ تِسْعَ عَشَرَةِ وَمَائَتَيْنِ؛  
وَأَنْخَسَمَتِ مَادِتِي<sup>(٤)</sup> وَفَجَحَطَ مَنْزَلِي فَحَطَّا شَدِيداً جَمَعَ عَلَيَّ الْحَاجَةَ وَالضُّرَّ  
وَالْمَسْكَةَ؛ فَلَوْ أَنْكَمْتِ الصَّحْرَاءَ الْمُجَدِّبَةَ فَصَغَرَتْ ثُمَّ صَرَرَتْ حَتَّى تَرَجَعَ أَذْرُعاً  
فِي أَذْرَعِ، لَكَانَتِ هِيَ دَارِي يَوْمَئِذٍ فِي مَحْلَةِ بَابِ الْبَصَرَةِ مِنْ بَغْدَادِ.

وَجَاءَ يَوْمَ صَخْرَاوِيَّ كَانَمَا طَلَعَتْ شَمْسُهُ مِنْ بَيْنِ الرَّمْلِ لَا مِنْ بَيْنِ السُّحُبِ،  
وَمَرَّتِ الشَّمْسُ عَلَى دَارِي فِي بَغْدَادِ مَرَوَرَهَا عَلَى الْوَرْقَةِ الْجَافَةِ الْمُعْلَقَةِ فِي الشَّجَرَةِ  
الْخَضْرَاءِ؛ فَلَمْ يَكُنْ عَنْدَنَا شَيْءٌ يُسْيِعُهُ حَلْقُ أَدْمِيٍّ، إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الدَّارِ إِلَّا تَرَابُهَا  
وَحِجَارَتُهَا وَأَجْذَاعُهَا؛ وَلَيَّ أَمْرَأَةٌ وَلَيَّ مِنْهَا طَفْلٌ صَغِيرٌ، وَقَدْ طَوَّيْتَا عَلَى جَوِيعِ  
يَخْسِفُ<sup>(٥)</sup> بِالْجَوْفِ خَسْفاً كَمَا تَهْبِطُ الْأَرْضُ؛ فَلَتَمَيَّتِ حِينَئِذٍ لَوْ كُنَّا جُرْذَانَا فَنَقْرَضَ  
الْخَشْبُ! وَكَانَ جَوْعُ الصَّبِيِّ يَزِيدُ الْمَرْأَةَ أَمَّا إِلَى جَوْعِهَا، وَكَثُرَ بِهِمَا كَالْجَائِعِ  
بِثَلَاثَةِ بَطْوَنِ خَاوِيَةِ.

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: إِذَا لَمْ تَأْكِلِ الْخَشْبَ وَالْحِجَارَةَ فَلَنْ تَأْكِلْ بِشَمْنِهَا. وَجَمَعْتُ  
نِيَتِي عَلَى بَيْعِ الدَّارِ وَالتَّحْوِلِ عَنْهَا، وَإِنْ كَانَ خَرْوَجِي مِنْهَا كَالْخَرْوَجِ مِنْ جَلْدِي: لَا

(١) ثمة: ظرف زمان بمعنى هناك.

(٢) تطاولت الأعناق: اشرأبت.

(٤) انحسمت مادتي: افتقرت.

(٥) يخسف: ينهار.

(٣) رماني الناس بأبصارهم: نظروا إلى.

يسمى إلأ سُلْخاً وموتاً، وبئ ليلتي وأنا كالْمُثْخَنِ حُمِلَ من معركةٍ: فما يتقلب إلأ على جراحٍ تعلمُ فيه عملَ السيفِ والأسْنَةِ التي عملت فيها.

ثم خرجمت بغلس<sup>(١)</sup> لصلاة الصبح؛ والمسجد يكون في الأرض ولكن السماء تكون فيه، فرأيتني عند نفسي كأنني خرجمت من الأرض ساعة. ولما قُضيَت الصلاة رفع الناس أكفهم يدعون الله (تعالى)، وجري لسانني بهذا الدعاء: «للهم بك أعود أن يكون فقري في ديني، أسألك النفع الذي يصلحني بطاعتك، وأسألك بركة الأرضي بقضائك، وأسألك القوة على الطاعة والرضاء يا أرحم الراحمين».

ثم جلست أتأمل شائي، وأطلت الجلوس في المسجد كأنني لم أعد من أهل الزمان فلا تجري علي أحکامه، حتى إذا أرتفع الضحى وأبيضت الشمس جاءتحقيقة الحياة، فخرجمت أتسبب لبيع الدار، وأنبعثت وما أدرى أين أذهب، فما سرت غير بعيد حتى لقيني (أبو نصر الصياد) وكنت أعرفه قديماً، فقلت: يا أبو نصر! أنا على بيع الدار؛ فقد ساعت الحال وأخوّجت الخاصة، فأقرضني<sup>(٢)</sup> شيئاً يمسكني على يومي هذا بالقوام من العيش حتى أبيع الدار وأوفيك.

قال: يا سيدى! خذ هذا المنديل إلى عيالك، وأنا على أثرك لاحق بك إلى المنزل. ثم ناولني منديلاً فيه رقاقاتان بينهما حلوى، وقال: إنهمما والله بركة الشيخ.

قلت: من الشيخ وما القصة؟

قال: وقفْت أمس على باب هذا المسجد وقد انصرف الناس من صلاة الجمعة، فمر بي أبو نصر بشر الحافي فقال: مالي أراك في هذا الوقت؟ قلت: ما في البيت دقق ولا خبز ولا درهم ولا شيء يباع. فقال: الله المستعان؛ إحمل شبكتك وتعال إلى الخندق؛ فحملتها وذهبت معه، فلما أنتهينا إلى الخندق قال لي: توضأ وصل ركعتين. ففعلت، فقال: سَمِ اللَّهُ - تعالى - وآلق الشبكة. فسميت وأقيمتها، فوق فيها شيء ثقيل، فجعلت أجره فش على؛ فقلت له: ساعدنى فإني أخاف أن تنقطع الشبكة، فجاء وجراها معى، فخرجمت سمة عظيمة لم أر مثلها سمناً وعظمةً وفراهة. فقال: خذها وبعها وأشتري بشميتها ما يصلح

(١) غلس: الهزيع الأخير من الليل العتمة قبل الفجر.

(٢) أقرض: دين.

عيالك . فحملتها فأستقبلني رجل أشتراها ، فابتغت لأهلي ما يحتاجون إليه ، فلما أكلت وأكلوا ذكرت الشیخ فقلت أهدي له شيئاً ، فأخذت هاتين الرقاقتين وجعلت بينهما هذه الحلوي ، وأئنی إلیه فطرقت الباب ، فقال : من ؟ قلت : أبو نصر ! قال : افتح وضع ما معك في الدھلیز وأدخل . فدخلت وحدثته بما صنعت فقال : الحمد لله على ذلك . فقلت : إنني هيأت لليبيت شيئاً وقد أكلوا وأكلت ومعي رقاقتان فيهما حلوي .

قال : يا أبو نصر ! لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمسکة ! اذهب كله أنت وعيالك .

\* \* \*

قال أحمد بن مسکین : وكنت من الجوع بحیث لو أصبت رغيفاً لحسنته مائدة أنزلت من السماء ، ولكن كلمة الشیخ عن السمسکة أشبعته بمعانیها شبعاً ليس من هذه الدنيا ، كأنما طعمت منها ثمرة من ثمار الجنة ؛ وطفقت<sup>(۱)</sup> أرددھا لنفسی وأتأمل ما تفتق الشهوات على الناس ، فأيقنت أن البلاء إنما يصيّبنا من آننا نفتر<sup>۲</sup> الدنيا على طولها وعرضها بكلمات معدودة ، فإذا استقر في أنفسنا لفظ من ألفاظ هذه الشهوات ، استقرت به في النفس كل معانیه من المعاصي والذنوب ، وأخذت شیاطین هذه المعانی تحوم على قلوبنا ، فتصبح مهیئین لهذه الشیاطین ، عاملین لها ، ثم عاملین معها ، فتدخلنا مداخل السوء في هذه الحياة ، وتُفحمنا في الورطة<sup>(۳)</sup> بعد الورطة ، وفي الھلکة بعد الھلکة .

وما هذه الشیاطین إلأى كالذباب والبعوض والھوام<sup>(۴)</sup> ، لا تحرم إلأى على رائحة تجذبها ، فإن لم تجذب في النفس ما تجتمع عليه ، تفرقت ولم تجتمع ، وإذا ألمت الورطة منها بعد الورطة لم تثبت . فلو أننا طرذنا من أنفسنا الكلمات التي أفسدت علينا رؤية الدنيا كما حلقت . لكان للدنيا في أنفسنا شکل آخر أحسن وأجمل من شکلها ، ولکانت لنا أعمال أخرى أحسن وأطہر من أعمالنا .

فالشیخ لم يكن في نفسه معنى لكلمة (التلذذ) ، وبطرده من نفسه هذا اللفظ الواحد ، طرد معانی الشر كلها ، وصلح له دینه ، وخلصت نفسه للخير ومعانی

(۱) طفق : شرع ، بدأ .

(۳) الھوام : الحشرات .

(۲) الورطة : المصيبة .

الخير. ولو أنَّ رجلاً وضعَ في نفسهِ امرأةً يُعشقُها، لصارتِ الدنيا كُلُّها في نفسهِ  
كالمُخدَع<sup>(١)</sup>: ما فيهِ إِلَّا المرأةُ وحدهَا بأسبابِها إِليهِ وأسبابِها إِليها... .

وقد كُثُر سمعتُ في درسِ شيخِنا أَحْمَدَ بْنِ حَنْبِلِ هذا الحديثَ: «لَوْلَا أَنَّ  
الشَّيَاطِينَ يَحْمُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَتَظَرُّوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ». فما فهمتُ -  
وَاللَّهُ - معناهُ إِلَّا من كَلْمَةِ الشَّيْخِ فِي السَّمْكَةِ، وَقَدْ عَلِمْنِيهَا هَذَا الصِّيَادُ الْعَامِيُّ؛  
فَالشَّيَاطِينُ تَجَذَّبُ إِلَى الْمَعْانِيِّ، وَالْمَعْانِي يُوجَدُهَا الْفَلْقُ الْمُسْتَقْرُ فِي الْقَلْبِ أَسْتَقْرَارَ  
غَرَضٍ أَوْ شَهْوَةً أَوْ طَمَعًا؛ فَإِذَا خَلَا الْقَلْبُ مِنْ هَذِهِ الْمَعْانِيِّ، فَقَدْ أَمِنَ مُنَازَّعَتَهَا لَهُ  
وَشَغَلَهَا إِيَّاهُ، فَيُصْبِحُ فَوْقَهَا لَا يَبْيَهَا؛ وَمَتَى صَارَ الْقَلْبُ فَوْقَ الشَّهْوَاتِ وَلَمْ يَجِدْ مِنْ  
أَفْنَاطِهَا مَا يُغْمِيَهُ وَيَعْتَرِضُ نَظَرَهُ إِلَى الْحَقَّاقَقِ، أَنْكَشَفَتْ لَهُ هَذِهِ الْحَقَّاقَقُ فَآنَكَشَفَ لَهُ  
الْمَلَكُوتُ؛ فَإِذَا وَقَعَ بَعْدُ فِي وَاحِدَةٍ مِنَ الْلَّذَادِ وَلَوْ (كَالرُّقَاقَتِينَ وَالْحَلَوِيِّ)،  
أَسْتَغْلَطَتِ الْأَشْيَاءُ عَلَيْهِ فَحَجَبَتْ<sup>(٢)</sup>، وَعَادَ بَيْنَهَا أَوْ تَحْتَهَا، وَغَمِيَ عَمِيَ الْلَّذَّةُ؛  
وَالْحِجَابُ عَلَى الْبَصَرِ كَأَنَّهُ تَعْلِيقُ الْعَمَى عَلَى الْبَصَرِ.

وَكُثُرَ لا أَزَالُ أَعْجَبُ مِنْ صَبَرِ شِيخِنَا أَحْمَدَ بْنِ حَنْبِلٍ وَقَدْ ضُرِبَ بَيْنَ يَدِي  
الْمَعْتَصِمِ بِالسَّيَاطِيطِ حَتَّى عُشِيَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْ رَأِيهِ؛ فَعَلِمْتُ أَلَّا نَمَنِي كَلْمَةُ  
السَّمْكَةِ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ فِي نَفْسِهِ لِلضَّربِ مَعْنَى الضرَبِ، وَلَا عَرَفَ لِلصَّبَرِ مَعْنَى الصَّبَرِ  
الْآدَمِيِّ؛ وَلَوْ هُوَ صَبَرٌ عَلَى هَذَا صَبَرَ الْإِنْسَانِ لَجَزَعَ<sup>(٣)</sup> وَتَحَوَّلَ، وَلَوْ ضُرِبَ ضَرَبَ  
الْإِنْسَانِ لَتَأَلَّمَ وَتَغَيِّرَ؛ وَلَكِنَّهُ وَضَعَ فِي نَفْسِهِ مَعْنَى ثَبَاتِ السُّلَّةِ وَبَقاءِ الدِّينِ، وَأَنَّهُ هُوَ  
الْأَمَمَةُ كُلُّهَا لَا أَحْمَدُ بْنَ حَنْبِلَ، فَلَوْ تَحَوَّلَ لَتَحَوَّلَ النَّاسُ، وَلَوْ أَبْتَدَعَ لَأَبْتَدَعُوا؛ فَكَانَ  
صَبَرُهُ صَبَرَ أُمَّةً كَامِلَةً لَا صَبَرَ رَجُلَ فَرْدٍ، وَكَانَ يُضَرِبُ بِالسَّيَاطِيطِ وَنَفْسَهُ فَوْقَ مَعْنَى  
الضرَبِ، فَلَوْ قَرَضُوهُ بِالْمَقَارِيبِ<sup>(٤)</sup> وَنَشَرُوهُ بِالْمَتَاشِيرِ لَمَّا نَالُوا مِنْهُ شَيْئًا؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ  
جَسْمُهُ إِلَّا ثُوَبًا عَلَيْهِ، وَكَانَ الرَّجُلُ هُوَ الْفَكَرُ لِيَسَ غَيْرُ.

هُؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يَرُونَ فَضَائِلَهُمْ فَضَائِلَ، وَلَكِنَّهُمْ يَرُونَهَا أَمَانَاتٍ قَدْ أَثْمَمُوا عَلَيْهَا  
مِنَ اللَّهِ لِتَبَقَّى بِهِمْ مَعَانِيهَا فِي هَذِهِ الدِّينِ؛ فَهُمْ يُزَرِّعُونَ فِي الْأَمَمِ زَرْعًا بِيَدِ اللَّهِ، وَلَا  
يَمْلِكُ الْأَرْزَاعُ غَيْرَ طَبِيعَتِهِ، وَمَا كَانَ الْمَعْتَصِمُ وَهُوَ يُرِيدُ شِيخَنَا عَلَى غَيْرِ رَأِيهِ،  
وَعَقِيدَتِهِ إِلَّا كَالْأَحْمَقِ يَقُولُ لِشَجَرَةِ الْتَفَاحِ: أَثْمَرِي غَيْرَ التَفَاحِ.

(١) المُخدَع: مَكَانُ النَّوْمِ.

(٢) حَجَبَتْ: مَنَعَتْهُ.

(٣) جَزَع: خَافَ.

(٤) قَرْض: قَصَّ.

قال أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينٍ : وَأَخْذَتُ الرُّقَاقِتَيْنِ وَأَنَا أَقُولُ فِي نَفْسِي : لَعْنَ اللَّهِ هَذِهِ الدُّنْيَا ! إِنَّ مَنْ هَوَانَهَا عَلَى اللَّهِ أَنَّ الْإِنْسَانَ فِيهَا يَلْبَسُ وَجْهَهُ كَمَا يَلْبَسُ نَعْلَهُ . فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا كَانَتْ لَهُ نَظَرَةً مَلَائِكَيَّةً ثُمَّ أَعْتَرَضَ الْخُلُقَ يَنْظُرُ فِي وُجُوهِهِمْ ، لَرَأَى عَلَيْهَا وُحُولًا وَأَقْدَارًا كَالَّتِي فِي نَعَالِهِمْ أَوْ أَقْدَرَ أَوْ أَقْبَحَ ، وَلَعْلَهُ كَانَ لَا يَرَى أَجْمَلَ الْوِجْهَهُ أَلَّا تَسْتَهِيمُ النَّاسَ<sup>(١)</sup> وَتَنْصَبَاهَا<sup>(٢)</sup> مِنَ الْرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، إِلَّا كَالْأَحْذِيَّةِ الْعَتِيقَةِ . . .

ولكني أحسست أنَّ في هاتين الرُّقَاقِتَيْنِ سَرَّ الشَّيخِ ، وَرَأَيْتُهُما فِي يَدِي كَالْوَثِيقَتَيْنِ بِخَيْرٍ كَثِيرٍ ؛ فَقُلْتُ : عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ . وَمُضِنْتُ إِلَى دَارِي ؛ فَلَمَّا كَنْتُ فِي الطَّرِيقِ لَقِيتُنِي امْرَأَةٌ مَعْهَا صَبِيٌّ ، فَنَظَرَتْ إِلَى الْمَنْدِيلِ وَقَالَتْ : يَا سَيِّدِي ، هَذَا طَفَلٌ يَتِيمٌ جَانِعٌ وَلَا صَبِرَ لَهُ عَلَى الْجَمْعِ ، فَاطَّعَمْتُهُ شَيْئًا - يَرْحَمُكَ اللَّهُ - . وَنَظَرَ إِلَيَّ الْطَّفَلُ نَظَرَةً لَا أَنْسَاهَا ؛ حَسِبْتُ فِيهَا خُشُوعًا أَلْفَ عَابِدٍ يَعْبُدُونَ اللَّهَ (تَعَالَى) مُنْقَطِعِينَ عَنِ الدُّنْيَا ؛ بَلْ مَا أَظَنَّ أَلْفَ عَابِدٍ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُرُؤُوا النَّاسَ نَظَرَةً وَاحِدَةً كَالَّتِي تَكُونُ فِي عَيْنِ صَبِيٍّ يَتِيمٍ جَانِعٍ يَسْأَلُ الرَّحْمَةَ . إِنَّ شَيْدَةَ الْهَمِّ لَتَجْعَلُ وَجْهَ الْأَطْفَالِ كَوْجُوهِ الْقَدِيسِينَ ، فِي عَيْنِ مَنْ يَرَاهَا مِنَ الْأَبَاءِ وَالْأَمْهَاتِ ، لِعَجْزِ هُؤُلَاءِ الصُّغَارِ عَنِ الشَّرِّ الْأَدْمِيِّ وَأَنْقَطَاعِهِمْ إِلَّا مِنَ اللَّهِ وَالْقَلْبِ الإِنْسَانِيِّ ، فَيُظَهِّرُ وَجْهَ أَحَدِهِمْ وَكَانَهُ يَضْرُبُ بِمَعْانِيهِ يَقُولُ : يَا رَبَّاهُ يَا رَبِّاهَا

قال أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينٍ : وَخَيَّلَ إِلَيَّ حِينَئِذٍ أَنَّ الْجَنَّةَ نَزَّلَتْ إِلَى الْأَرْضِ تَعْرِضُ نَفْسَهَا عَلَى مَنْ يُشْبِعُهَا هَذَا الْطَّفَلَ وَأُمَّهُ ، وَالنَّاسُ عَمَّيْ لَا يُبَصِّرُونَهَا ، وَكَانُوكُمْ يَمْرُونَ بِهَا فِي هَذَا الْمُوْطَنِ مَرَوَّرًا حَمِيرٍ بِقَصْرِ الْمَلَكِ : لَوْ سُئِلْتُ فَضَلَّتْ عَلَيْهِ الْإِضْطَبَلُ الَّذِي هِيَ فِيهِ . . .

وَذَكَرْتُ أُمَّاتِي وَأَبْنَاهَا وَهُمَا جَائِعَانِ مُذْأَمِسْ ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ لَهُمَا فِي قَلْبِي مَعْنَى الْزَّوْجَةِ وَالْأُولَادِ : بَلْ مَعْنَى هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْمُحْتَاجَةُ وَطَفْلَهَا ، فَأَسْقَطْتُهُمَا عَنْ قَلْبِي وَدَفَعْتُ مَا فِي يَدِي لِلْمَرْأَةِ وَقُلْتُ لَهَا : خَذِي وَأَطْعُمِي أَبْنَكَ ، وَ - وَاللَّهُ - مَا أَمْلَكُ بِي ضَاءَ وَلَا صَفَرَاءَ ، وَإِنَّ فِي دَارِي لَمَنْ هُوَ أَحْوَجُ إِلَى هَذَا الطَّعَامِ؛ وَلَوْلَا هَذِهِ الْخَلَّةُ بِي لَتَقْدَمْتُ فِيمَا يُضْلِلُكَ . فَدَمَعَتْ عَيْنَاكُمَا ، وَأَشْرَقَ وَجْهَ الصَّبِيِّ ، وَلَكِنْ طَمَّ<sup>(٣)</sup> عَلَى قَلْبِي مَا أَنَا فِيهِ فَلَمْ أَجِدْ لِلَّدْمَعَةِ مَعْنَى الدَّمْعَةِ ، وَلَا لِلْبَسْمَةِ مَعْنَى الْبَسْمَةِ .

(١) تستهيم الناس: تستهويهم.

(٢) تنصبها: تعشقها.

(٣) طم: ختم.

وقلت في نفسي : أما أنا فأطوي إن لم أصب طعاماً، فقد كان أبو بكر الصديق يطوي<sup>(١)</sup> ستة أيام، وكان ابن عمر يطوي، وكان فلان وفلان ممن حفظنا أسماءهم وروينا أخبارهم؛ ولكن من لِلمرأة وأبنها بمثيل عَقْدِي ونِسْيَ؟ وكيف لي بهما؟

ومشيت وأنا منكسر متقيض، وكأنني كنت نسيت كلمة الشيخ : «لو أطعمننا أنفسنا هذا ما خرجت السمسكة». فذكرتها وصرفت خاطري إليها وشغلت نفسي بتدبّرها قلت : لو أني أسبعت ثلاثة بجوع اثنين لحرمت خمس فضائل وهذه الدنيا محتاجة إلى الفضيلة، وهذه الفضيلة محتاجة إلى مثل هذا العمل، وهذا العمل محتاج إلى أن يكون هكذا، فما يستقيم الأمر إلا كما صنعت.

وكانت الشمس قد أنبسطت في السماء وذلك وقت الضحى الأعلى، فملئت ناحية وجلست إلى حائط أفکر في بيع الدار ومن يبتاعها، فأنا كذلك إذ مر أبو نصر الصياد وكأنه مستطراف فرحاً، فقال : يا أبا محمد، ما يجلسك لهنا وفي دارك الخير والغنى ، قلت : سبحان الله! من أين خرجت السمسكة يا أبا نصر؟

قال : إني لفي الطريق إلى منزلك ، ومعي ضرورة من القوت أخذتها لعيالك ، ودرأهم استدتها لك ، إذا رجل يستدل الناس على أبيك أو أحد من أهله ، ومعه ثقال وأحمال ، فقلت له : أنا أدلك . ومشيت معه أسأله عن خبره وشأنه عند أبيك . فقال : إنه تاجر من البصرة ، وقد كان أبوك أودعه مالاً من ثلاثين سنة ، فأفلس وأنكسر المال ثم ترك البصرة إلى خراسان ، فصلح أمره على التجارة هناك ، وأيسر بعد المحن ، وأستطهر بعد الخذلان ، وأقبل جده بالثراء والغنى ؛ فعاد إلى البصرة ، وأراد أن يتحلل ، فجاءك بالمال وعليه ما كان يربحه في هذه الثلاثين سنة ، وإلى ذلك طرائف وهدايا .

\* \* \*

قال أحمد بن مسakin : وأنقلب إلى داري فإذا مال جم وحال جميلة ! فقلت : صدق الشيخ : «لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجت السمسكة» ! فلو أن هذا الرجل لم يلق في وجهه أبا نصر ، في هذه الطريق ، في هذا اليوم ، في هذه الساعة ، لما أهتدى إلى ؟ فقد كان أبي معمورا لا يعرفه أحد وهو حي ؟ فكيف به ميتا من وراء عشرين سنة ؟

والآتيت ليعلمن الله شكري هذه النعمة ؛ فلم تكن لي همة إلا البحث عن

(١) يطوي : ينام بلا عشاء .

المرأة المحتاجة وأبنها، فكفيتُهما وأجريتُ عليهما رِزقاً، ثُمَّ أتَجَزَّتُ في الْمَالِ، وجعلتُ أرْبَهَ<sup>(١)</sup> بالمعروف والصَّنْعَةِ والإحسانِ وهو مُقْبِلٌ يزدادُ ولا ينفَضُ، حتى تموَّلتُ وتَأَثَّلتَ<sup>(٢)</sup>.

وكأنّي قد أعجبتني نفسي، وسرّني أنّي قد ملأت سِجلاتِ الملائكة بحسناتي، ورجوتهُ أن أكون قد كُتِّبْتُ عندَ اللَّهِ في الصالحين، فنمت ليلةً فرأيتني في يوم القيمة والخلقَ يموجُ بعضُهم في بعضٍ، والهولُ هوُلُ الكونِ الأعظم على الإنسانِ الضعيف، يُسأَلُ عن كلِّ ما مَسَّهُ من هذا الكون. وسمِعْتُ الصائحَ يقول: يا معاشرَ بني آدم! سَجَدَتِ الْبَهَائِمُ شَكْرَا لِلَّهِ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْهُمْ مِنْ آدَمَ. ورأيَتُ النَّاسَ وقد وُسْعَتْ أبدانُهُمْ فَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ مخلوقَةً مجسَّمةً، حتى لَكَانَ الْفَاسِقَ عَلَى ظُهُورِهِ مَدِينَةً كُلُّهَا مُخْزِيَاتٍ!

وقيل: وُضِعَتِ الموازينُ. وجيءَ بي لوزنِ أعمالي، فَجُعِلَتْ سِيَّئاتِي في كفةِ وألقيت سِجلاتِ حسناتي في الأخرى، فطاشَتِ<sup>(٣)</sup> السِّجلاتُ ورَجَحَتِ السِّيَّئاتُ، كائِنًا وزنوا الجَلَّ الصَّخْرِيَّ العظيمَ الضخْمَ بِلُفَافَةِ مِنَ القطنِ . . .

ثُمَّ جعلوا يُلقون الحسنةَ بعدَ الْحَسَنَةِ مِمَّا كُنْتُ أَصْنَعُهُ فَإِذَا تَحَتَ كُلُّ حَسَنَةٍ شَهْوَةٌ خَفِيَّةٌ مِنْ شَهْوَاتِ النَّفْسِ: كالرِّياءُ وَالْغُرُورُ وَحُبُّ الْمُخَمَّدَةِ عِنْدَ النَّاسِ وَغَيْرِهَا، فلِمَ يَسْلِمُ لِي شَيْءٌ، وَهَلْكَتْ عَنِي حُجَّتِي، إِذَا الْحَجَّةُ مَا يُبَيِّنُهُ الْمِيزَانُ، وَالْمِيزَانُ لَمْ يَدَلِ إِلَّا عَلَى أَنِّي فَارَغَ.

وسمِعْتُ الصوتَ: ألم يبقَ لَهُ شَيْءٌ؟ فقيل: يبقى هذا.

وأنظرُ لأرى ما هذا الذي يبقى، فإذا الرُّقاقتانِ اللَّتَانِ أحسَّتُ بهما على المرأة وأبنِها! فـأيَّقْنَتُ أَنِّي هالك؛ فلقد كُنْتُ أَخْسِنُ بِمِائَةِ دِينَارٍ ضَرْبَةً واحِدَةً فَمَا أَغْنَتَ عَنِي، ورأيَتُهَا فِي الْمِيزَانِ مَعَ غَيْرِهَا شَيْئاً مَعْلَقاً، كالغَمَامِ<sup>(٤)</sup> حينَ يَكُونُ ساقِطاً بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ: لَا هُوَ فِي هَذِهِ وَلَا هُوَ فِي تَلْكِ.

ووُضِعَتِ الرُّقاقتانِ، وسمِعْتُ القائلَ: لقد طَارَ نَصْفُ ثوابِهِمَا فِي مِيزَانِ أَبِي نَصْرِ الصِّيَادِ. فـانْخَذَتِ<sup>(٥)</sup> آنذاكَ شَدِيداً، حتَّى لو كُسِّرَتْ نِصْفِيهِنِّ لَكَانَ أَخْفَ عَلَيِّ

(١) أربه: أزيدَهُ.

(٢) تَأَثَّلت: اغْتَنَيْتُ.

(٣) طاشَت: خَفَّتْ وَانْحَرَفَتْ.

(٤) الغمام: الغيم.

(٥) انْخَذَت: شُعرَتْ بالخسْرانِ والهزِيمَةِ.

وأهون . بَيْدَ أَنِّي نظرتُ فرأيتُ كفة الْحَسَنَاتِ قد نزلتْ منزلةً ورَجَحَتْ بعْضَ الْرُّجَاحَانِ .

وسمعتُ الصوت : ألم يقَّ له شيء؟ فقيلَ بقيَ هذا .

وأنظرُ ما هذا الذي بقي ، فإذا جوعُ امرأتي في ذلك الْيَوْمِ ! وإذا هو شيءٌ يُوضَعُ في الميزان ، وإذا هو ينزلُ بكمَّةٍ ويرتفعُ بالأخرى حتى أعتدلَنا بالسوية . وثبتَ الميزانُ على ذلك فكثُرَتْ بينَ الْهَلَاكِ والثَّجاَةِ .

وأسمعُ الصوت : ألم يقَّ لَهُ شيء؟ فقيلَ بقيَ هذا .

ونظرتُ فإذا دموعُ تلك المرأةِ المسكينةِ حينَ بكتْ من أثْرِ المعروفِ في نفسها ، ومن إيثاري<sup>(١)</sup> إياها وأبئتها على أهلي . ووضعَتْ غَرْغَرَةً<sup>(٢)</sup> عينيها في الميزانِ ففَارَثَتْ ، فطمتْ<sup>(٣)</sup> كأنَّها لُجَّةٌ ، من تحتِ اللُّجَّةِ بحرٌ ؛ وإذا سمكةٌ هائلةٌ قد خرجَتْ مِنَ اللُّجَّةِ وقَعَ في نفسي أَنَّها رُوحُ تلك الدموعِ ، فجعلَتْ تعظُّمُ ولا تزالُ تعظُّم ، والكفةُ ترجحُ ولا تزالُ ترجع ، حتى سمعتُ الصوتَ يقولُ : قد نجا ! وصختُ صيحةً أتبهَّ لها ، فإذا أنا أقولُ : «لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجَتِ السُّمْكَةُ ! » .

(١) إيثاري : تفضيلي .

(٢) غرْغَرَة : دموع .

(٣) طمت : فاضت .

## الزاهدان

٢

قال أَحْمَدُ بْنُ مُسْكِينٍ : انتَشَرَ حَدِيثُ الْسَّمْكَةِ فِي أَهْلِ (بَلْخٍ) . وَاسْتَفاضَ<sup>(١)</sup> بَيْنَهُمْ ، وَكَثُرَ قَصَاصُتُهُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْسَّبِيلِ ، فَلَمَّا دَارَ الْسَّبِيلُ مِنْ أَسْبُوعِهِ لَقِيَنِي شِيخُهُمْ حَاتَمُ بْنُ يُوسُفَ (الْقَمَانُ الْأَمْمَةُ ) وَمَعَهُ صَاحِبُهُ أَبُو تَرَابٍ ، فَقَالَ : يَا أَحْمَدَ ! لَكَائِنَكَ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ قَمَرٌ طَلَعَ بِلَيْلٍ فَلَا يَعْلَمُ النَّاسُ فِي يَوْمِ الْسَّبِيلِ غَيْرُكَ ؛ وَمَنْ سَمِعَ فَكَانَهُ عَائِنَ<sup>(٢)</sup> ، وَلَيْسَ عَلَى الْسَّنَةِ أَهْلِ بَلْخٍ مِنْذُ تَحْدِثَ إِلَّا بِشَرْ وَابْنُ حَنْبَلَ ، وَلَا عَلَى بَالِ أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَّا مَوْعِظَتُكَ وَحْدَتُكَ .

وَالْكَلَامُ عَنِ الْصَّالِحِينَ فِي مِثْلِ مَا وَصَفْتَ وَحْكَيْتَ قُرْبُ مِنْ حَقَائِقِهِمْ ، وَسُمِّوْءُ إِلَى مَعَانِيهِمْ ، وَلَيْسَ فِي الْقَوْلِ بَابٌ لَهُ مَوْقِعٌ كَمَوْقِعِ الْقَصَّةِ عَنْ هُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَخْلُقُهُمُ اللَّهُ فِي الْبَشَرِيَّةِ خَلْقُ النُّورِ : يُضَيِّعُ مَا حَوْلَهُ مِنْ حِيثُ يُرَى ، وَيَعْمَلُ فِيمَا حَوْلَهُ مِنْ حِيثُ لَا يُرَى ، وَفِي ظَاهِرِهِ الْجَمَالُ وَالْمَنْفَعَةُ ، وَفِي بَاطِنِهِ الْقُوَّةُ وَالْحَيَاةُ . وَلَسْتُ أَقُولُ لَكَ أَذْهَبَ فَحَدَّثَ النَّاسَ ، وَلَكَنِي أَقُولُ أَذْهَبَ فَأَغْطِ النَّاسَ عَقْلًا مِنَ الْحَدِيثِ .

قَالَ أَبْنُ مُسْكِينٍ : فَلَمَّا صَلَّيْنَا الْعَصْرَ ، قَدَّمْنِي أَبُو تَرَابٍ فَجَلَسْتُ فِي مَجْلِسِي ذَاكَ ، وَهَتَّفَ بِي النَّاسُ يُرِيدُونَ الْحَدِيثَ عَنِ بَشَرِ الْحَافِي وَمَا سَقَطَ لِي مِنْ أَخْبَارِهِ ، عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي حَدَّثَهُمْ بِهَا مِنْ قَبْلِ ، فَابْتَداَتْ بِذِكْرِ مَوْتِهِ (رَحْمَةُ اللَّهِ) وَأَنَّ يَوْمَهُ كَائِنًا أَجْتَمَعَ لَهُ أَهْلُ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً ، إِذْ خَرَجَتْ جَنَازَتُهُ بَعْدَ صَلَاةِ الصَّبَحِ ، فَلَمْ يَحْصُلْ فِي قَبْرِهِ إِلَّا فِي الْلَّيلِ مِمَّا أَحْتَشَدَ<sup>(٣)</sup> فِي طَرِيقِهِ مِنَ الْخَلْقِ ، حَتَّى لَكَأنَّ فِي نَعْشِهِ مِرْءًا مِنْ أَسْرَارِ الْجَنَّةِ يُطَالِعُهُمْ بِهِ الْمَوْتُ فَخَرَجُوا يَنْظَرُونَ إِلَيْهِ ، وَكَانُوا يَصْبِحُونَ فِي جَنَازَتِهِ : هَذَا - وَاللَّهُ - شَرْفُ الدُّنْيَا قَبْلَ شَرْفِ الْآخِرَةِ .

(١) استفاض: انتشر.

(٢) عَائِنَ: رأى.

(٣) احْتَشَدَ: تجمهر، اجتمع.

لَمْ قُلْتُ : حَدَّثَنِي حَسِينُ الْمَعَاذِلِيُّ : أَنَّ بِشْرًا (رَحْمَهُ اللَّهُ) كَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا  
الْخَبَزَ تُورِّعًا عَنِ الشَّبَهَاتِ وَأَكْتِفَاءً لِضَرُورَةِ الْحَيَاةِ بِالْأَقْلَى الْأَيْسِرِ ، وَكَانَ يَقُولُ فِي  
ذَلِكَ : يَدْ أَقْصَرُ مِنْ يَدِهِ ، وَلُقْمَةُ أَصْغَرُ مِنْ لَقْمَةِ الْمَرْءَةِ . وَسُئِلَ مَرْءٌ : بِأَيِّ شَيْءٍ تَأْكُلُ الْخَبَزَ ؟  
فَقَالَ : أَذْكُرُ الْعَافِيَةَ فَأَجْعَلُهَا إِدَامًا . وَقَدْ أَعْانَهُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ ، وَكَانَ يَرَى  
هَذَا نَقْصًا فِي نَفْسِهِ حَتَّى فَضَلَّ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ بِأَشْيَاءَ : مِنْهَا أَنَّ لَهُ أَهْلًا ؛ غَيْرَ  
أَنَّهُ قِيلَ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ : لَوْ تَزَوَّجْتَ تَمْ شُنْكُكَ . فَقَالَ : أَخَافُ أَنْ تَقُومَ الْزَوْجَةُ بِحَقِّي  
وَلَا أَقُومَ بِحَقِّهَا . فَكَانَتْ هَذِهِ النِّيَّةُ فِي نَفْسِهِ أَفْضَلَ مِنْ زَوْجِهِ .

وَكَانَ مَعَ هَذَا لَا يُؤَاكِلُ أَحَدًا ، وَلَا يَسْعَى إِلَى لِقَاءِ أَحَدٍ ، حَتَّى إِنَّهُ لَمَّا رَغَبَ  
فِي مَوَاحِدِ الْرَّاهِدِ الْعَظِيمِ (مَعْرُوفُ الْكَرْخِيِّ) ، أَرْسَلَ إِلَيْهِ (الْأَسْوَدُ بْنُ سَالِمَ) وَكَانَ  
صَدِيقًا لَهُمَا ، فَقَالَ لِمَعْرُوفٍ : إِنَّ بَشَرَ بْنَ الْحَارِثَ يُرِيدُ مَوَاحِدَكَ وَهُوَ يَسْتَحِي أَنْ  
يُشَافِهَكَ<sup>(١)</sup> بِذَلِكَ ، وَقَدْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ يَسْأَلُكَ أَنْ تَعْقِدَ لَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ أَخْوَةً  
يَحْتَسِبُهَا وَيَعْتَدُ بِهَا ؛ إِلَّا أَنَّهُ يَشْتَرِطُ فِيهَا شَرْوَطًا : أُولُوهَا أَنَّهُ لَا يُحِبُّ أَنْ يَشْتَهِرَ ذَلِكَ ،  
وَثَانِيهَا أَلَا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مُزَارَةً وَلَا مُلْاقَاةً . فَقَالَ مَعْرُوفٌ : أَمَّا أَنَا فَإِذَا أَحَبَبْتُ  
أَحَدًا لَمْ أَحَبَّ أَنْ أَفَارِقَهُ لِيَلَا وَلَا نَهَارًا ، وَأَزُورُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، وَأَوْثِرُهُ عَلَى نَفْسِي  
فِي كُلِّ حَالٍ ؛ وَأَنَا أَعْقَدُ لِبِشَرٍ أَخْوَةً بَيْنِهِ وَبَيْنِهِ ، وَلَكِنِّي أَزُورُهُ مَتَى أَحَبَبْتُ ، وَأَمْرُهُ  
بِلِقَائِي فِي مَوَاضِعِ نَلْقَيِ فِيهَا إِذَا هُوَ كَرَةُ زِيَارَتِيِّ .

قَالَ حَسِينُ الْمَعَاذِلِيُّ : وَكَانَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ أَمْرِ بِشْرٍ مَعْرُوفًا فِي بَغْدَادِ ، لَا يَجِهُهُ  
أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِبَغْدَادَ إِمامٌ غَيْرُهُ وَغَيْرُ أَبْنِ حَنْبَلٍ ؛ فَمَا كَانَ أَكْثَرُ عَجَبِي  
حِينَ كَثُرَتْ عَنْهُ يَوْمًا وَقَدْ زَارَهُ (فَتْحُ الْمُؤْصِلِيِّ) ، فَقَامَ فَجَاءَ بِدَارِهِمَ مَلِءَ كَفْهُ وَدَفَعَهَا  
إِلَيْيَ وَقَالَ : أَشْتَرَ لَنَا أَطِيبَ مَا تَجِدُ مِنَ الطَّعَامِ ، وَأَطِيبَ مَا تَجِدُ مِنَ الْحَلْوَى ، وَأَطِيبَ  
مَا تَجِدُ مِنَ الْطَّيْبِ ، وَمَا قَالَ لِي مِثْلُ ذَلِكَ قَطًّا ، وَهُوَ الَّذِي رَأَى الْفَاكِهَةَ يَوْمًا فَقَالَ :  
تَرْكُ هَذِهِ عِبَادَةً ! وَهُوَ الْقَائلُ لِأَبِي نَصِيرِ الصِّيَادِ : لَوْ أَطْعَمْنَا أَنفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجَتِ  
الْسَّمْكَةُ .

فَذَهَبْتُ فَأَشْتَرَيْتُ وَأَنْتَقَيْتُ وَتَخَيَّرْتُ ، ثُمَّ وَضَعْتُ الْطَّعَامَ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا ، فَرَأَيْتُهُ  
يَأْكُلُ مَعَهُ وَمَا رَأَيْتُهُ أَكْلًا مَعَ غَيْرِهِ ، وَرَأَيْتُهُ مُنْبِسطًا إِلَيْهِ وَمَا لَيْ عَهَدَ كَانَ بِأَنْبَسَاطِهِ إِلَى  
أَحَدٍ . وَقَدْ كَثُرَتْ أَخْبَرُهُ فِي ذَلِكَ النَّهَارِ بِخَبْرِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ ، عَلِمْتُهُ مِنْ أَدْرِيسَ

(١) يُشَافِهَكَ : يَحْدَثُكَ .

الحداد: فإنه لما زالت المحنـة بعد أن ضرب بين يدي المعتصم وصـرف إلى بيته، حـمل إليه مـال كثـير من سـروات<sup>(١)</sup> بـغـداد وأـهـل الـخـير فـيهـا، فـرـد جـمـيع ذـلـك وـلـم يـقـبـل مـنـه قـلـيلاً وـلـا كـثـيرـاً، وـهـوـ مـحـتـاجـ إـلـى أـيـسـرـهـ، وـإـلـى الأـقـلـ منـ أـيـسـرـهـ، وـإـلـى الشـيـءـ منـ أـقـلـهـ، فـجـعـلـ عـمـةـ إـسـحـاقـ يـخـسـبـ ماـ وـرـدـ ذـلـكـ الـيـومـ، فـكـانـ خـمـسـينـ أـلـفـ دـيـنـارـ، فـقـالـ لـهـ الـإـلـامـ: يـاـ عـمـ، أـرـاكـ مـشـغـولـاـ بـحـسـابـ ماـ لـاـ يـقـيـدـكـ. قـالـ: قـدـ رـدـدـتـ الـيـومـ كـذـاـ وـكـذـاـ أـلـفـاـ وـأـنـتـ مـحـتـاجـ إـلـى حـبـةـ مـنـ دـانـقـ. فـقـالـ الـإـلـامـ: يـاـ عـمـ، لـوـ طـلـبـنـاـ لـمـ يـأـتـنـاـ، وـإـلـماـ أـتـنـاـ لـمـ تـرـكـنـاـ.

\* \* \*

قال المغازلي: فـنـيـمـتـ تـلـكـ الـلـيـلـةـ وـأـنـاـ أـفـكـرـ فـيـ صـنـيـعـ الشـيـخـ، وـقـدـ تـعـلـقـ خـاطـرـيـ بـهـ: كـيـفـ أـنـقـلـبـتـ الـحـالـ مـعـهـ، وـأـيـ شـيـءـ هـذـهـ الـحـالـ؟ وـجـعـلـتـ أـكـدـ ذـهـنـيـ لـأـعـرـفـ الـحـقـيـقـةـ الـعـقـلـيـةـ الـتـيـ سـلـطـتـ عـلـيـهـ هـذـهـ الـضـرـورـةـ فـتـسـلـطـ أـنـعـيـمـ عـلـىـ نـفـسـهـ، وـأـنـاـ أـعـلـمـ أـنـ لـلـقـوـمـ عـلـوـمـاـ رـوـحـانـيـةـ لـيـسـتـ فـيـ الـكـتـبـ، فـمـنـهـاـ لـاـ يـتـعـلـمـونـهـ إـلـاـ مـنـ الـفـقـرـ، وـمـنـهـاـ مـاـ لـاـ يـتـعـلـمـونـهـ إـلـاـ مـنـ الـبـلـاءـ، وـمـنـهـاـ، وـمـنـهـاـ؛ وـلـكـنـ لـيـسـ مـنـهـاـ مـاـ يـتـعـلـمـونـهـ مـنـ الـلـذـاتـ وـالـشـهـوـاتـ؛ وـذـهـبـ قـلـبـيـ إـلـىـ أوـهـامـ كـثـيرـةـ لـيـسـ فـيـ جـمـيعـهـاـ طـائـلـ وـلـاـ بـهـاـ مـعـرـفـةـ، حـتـىـ غـلـبـتـيـ عـيـنـايـ، وـأـنـاـ مـنـ وـهـجـ الـفـكـرـ نـائـمـ كـالـمـرـيـضـ، وـقـدـ ثـقـلـ رـأـيـيـ وـأـخـتـلـطـ فـيـهـ مـاـ لـاـ يـعـقـلـ بـمـاـ لـاـ يـعـقـلـ.

فرـأـيـتـ أـوـلـاـ مـاـ رـأـيـتـ مـلـكـاـ جـبـارـاـ يـحـكـمـ مـدـيـنـةـ عـظـيمـةـ، وـقـدـ أـطـلـقـ الـمـنـادـيـ فـيـ جـمـعـ كـلـ أـطـفـالـ مـدـيـتـيـهـ، فـجـيـءـ بـهـمـ مـنـ كـلـ دـارـ، ثـمـ رـأـيـتـهـ قـدـ جـلـسـ عـلـىـ سـرـيرـهـ وـفـيـ يـدـهـ مـقـراـضـ عـظـيمـ، قـدـ أـتـخـذـهـ عـلـىـ هـيـثـةـ نـاصـلـيـنـ<sup>(٢)</sup> عـرـيـضـيـنـ لـوـ وـضـعـتـ بـيـنـهـمـ رـقـبـهـ لـفـصـلـاـهـاـ عـنـ جـسـوـمـهـاـ؛ فـكـانـ هـذـاـ جـبـارـ يـتـنـاـوـلـ الطـفـلـ مـنـ أـوـلـئـكـ فـيـضـعـ أـصـابـعـ إـحـدـىـ قـدـمـيـهـ فـيـ شـفـقـيـ الـمـقـراـضـ فـيـقـرـضـهـاـ، فـإـذـاـ هـيـ تـنـاثـرـ أـسـرـعـ مـمـاـ يـقـرـضـ الـمـقـضـ عـالـخـيطـ، ثـمـ يـرـمـيـ بـالـطـفـلـ مـغـشـيـاـ عـلـيـهـ، وـيـتـنـاـوـلـ غـيـرـهـ فـيـبـثـرـ<sup>(٣)</sup> أـصـابـعـهـ، وـالـأـطـفـالـ يـصـرـخـونـ؛ وـأـنـاـ أـرـىـ كـلـ ذـلـكـ وـلـاـ أـمـلـكـ إـلـاـ غـيـظـيـ عـلـىـ هـذـاـ جـبـارـ مـنـ حـيـثـ لـاـ أـسـطـعـ أـنـ أـمـضـيـ فـيـهـ هـذـاـ غـيـظـ فـأـقـرـضـ عـنـقـهـ بـمـقـراـضـهـ.

ثـمـ رـأـيـتـ يـأـخـذـ طـفـلـاـ صـغـيـرـاـ، فـلـمـ جـاءـتـ قـدـمـ الـطـفـلـ بـيـنـ شـفـقـيـ الـمـقـراـضـ صـاحـ: يـاـ

(١) السـروـاتـ: الـأـغـنـيـاءـ.

(٢) بـترـ: قـطـعـ.

(٣) نـصـلـ السـيفـ: الـمـكـانـ القـاطـعـ مـنـهـ.

رب، يا رب. فإذا ألمقراض يلتوي فلا يصنع شيئاً، وكأن فيه حجراً صلداً لا قدمأ رخصة<sup>(١)</sup>. فتميّز الجبار من الغيط وقال: من هذا الطفل؟ فسمعت هاتفاً يهتف: هنا بشر الحافي! لا يبلغ تاج ملك في الأرض أن يكون لقدميه الحافية نعلاً عند الله! وكان إلى يميني رجل يتواضأ وجهه صلاحاً وقوى، فقلت له: من هذا الطاغية<sup>(٢)</sup>؟ ولم أتخد المقاراض لأقدام الأطفال خاصة؟

فقال: يا حسين! إن هذا الجبار هو دلّ العيش، وهذا وسمة لأهل الحياة على الأرض، يتحقق به في الإنسان معنى البهيمة أول ما يدب<sup>(٣)</sup> على الأرض، حتى كأنه ذو حافر لا ذو قدم.

قلت: فما بال هذا الطفل لم يعمل فيه المقاراض؟

قال: إن لله عباداً استخلاصهم<sup>(٤)</sup> لنفسه، أول علامته فيهم أن الذل تحت أقدامهم، وهم يجيئون في هذه الحياة لإثبات القدرة الإنسانية على حكم طبيعة الشهوات التي هي نفسها طبيعة الذل؛ فإذا أطّرخ أحدّهم لشهواته وزهد فيها، وأستيقام على ذلك في عقد نية وقوء إرادة، فليس ذلك بالراهن كما يصفه الناس، ولكنه رجل قوي اختارته القدرة ليحمل أسلحة النفس في معاركها الطاحنة، كما يحمل البطل الأروع أسلحة الجسم في معاركه الدامية: هنا يتعلّم منه فن، وذاك يتعلّم منه فن آخر، وكلاهما يرمي به على الموت لإيجاد النوع المستغر من الحياة، فأول فضائله الشعور بالقوة، وأخر فضائله إيجاد القوة.

\* \* \*

قال المغازلي: وضرّب النوم على رأسي ضربة أخرى، فإذا أنا في أرض خبيثة داخلة، قد أرتفع لها دخان كثيف أسود يتضرب بعضه في بعض رجعت أري شعلاً حمراً تذهب وتتجيء كأنها أجسام حية، فوقع في وهي أن هؤلاء هم الشياطين: ليس وجنوّده، وسمعت صارخاً يقول: يا بشرى! فلتباكي السماء على الأرض، لقد أكل بشر الحافي من أطيب الطعام وأطيب الحلوي بعد أن أستوى عنده حجرها ومدرها<sup>(٥)</sup>، وذهبها وفضتها! فعارضه صائح أسمع صوته ولا أرى شخصه: ويلك يا زلنبور<sup>(٦)</sup>! إن هذا شر علينا من عامة نسكه وعبادته؛ فهذا - ويحك - هو الربّ الأعلى الذي كان لا

(٤) استخلاصهم: استخلاصهم.

(١) رخصة: طريقة لدنة.

(٥) مدرها: مدنها وحضرها.

(٢) الطاغية: الظالم.

(٦) زلنبور: هو اسم لبعض ولد يملبس.

(٣) يدب: يمشي.

بُطْيَقَهُ بِشَرٍ ؟ إِنَّهُ إِعْنَاثٌ<sup>(١)</sup> سُلْطَهُ عَلَى نَفْسِهِ ، فَإِنِّي دَفَعْتُ هَذَا (الْمَغَازِلِيُّ) الْأَعْمَى الْقَلْبِ لِيَرِئَنَّ لَهُ مَا فَعَلَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ مِنْ رَدِّهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ عَلَى حَاجَتِهِ ، زَهْدًا وَوَرَعًا ، وَقُوَّةً عَزْمٍ ، وَنَفَادًا إِرَادَهٗ ؛ وَقَلَّتْ : عَسَى أَنْ تَتَحَرَّكَ فِي نَفْسِهِ شَهْوَةُ الرِّزْهِ فَيَخْسُدَ أَوْ يَعْمَلَ ، أَوْ تَعْجِبَ نَفْسُهُ فَيَكُونُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ لَهُ<sup>(٢)</sup> بِقُلْبِهِ قَارِسُونَ لَهُ ، فَإِنَّا نَأْتَى هُؤُلَاءِ مِنْ أَبْوَابِ الشَّوَّابِ كَمَا نَأْتَى غَيْرَهُمْ مِنْ أَبْوَابِ الْمَعَاصِيِّ ، وَنَتَوَرَّعُ مَعَ أَهْلِ الْوَرَاعِ كَمَا نَتَسْخَفُ مَعَ أَهْلِ السُّخْفِ ؛ وَلَكِنَّ الْرَّجُلَ رَجُلٌ وَفِيهِ حَقِيقَةُ الْزَّاهِدِ ، فَقَدْ أَعْطَى الْقَوْةَ عَلَى جَعْلِ شَهْوَاتِ نَفْسِهِ أَشْخَاصًا صَاحِيَّةً يُعَادِيهَا وَيُقَاتِلُهَا ، فَإِذَا أَنَا جَعَلْتُ شَهْوَةَ فِي اللَّهِ تَعَالَى اللَّهَ ، وَإِذَا جَعَلْتُهَا فِي الْكَابَةِ قَتَلَ الْكَابَةَ ، وَلَيْسَ الْزَّاهِدُ الْعَابِدُ هُوَ الَّذِي يَتَقَشَّفُ وَيَتَعَفَّفُ ، وَيَتَخَفَّفُ وَيَتَلَفَّ ، فَإِنَّ كَثِيرًا مَا تَكُونُ هَذِهِ هِيَ أَوْصَافُ الدُّلُّ وَالْحَمْقِ ، وَيَكُونُ لَهَا حَمْلُ الْعِبَادَةِ وَفِيهَا إِنْمَاءُ الْمَعْصِيَّةِ . وَلَكِنَّ الْزَّاهِدَ حَتَّى الْزَّاهِدِ مَنْ أَدَارَ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عِيَّنًا قَدْ تَعْلَمَتِ الظَّرَرُ بِحَقِّهِ وَالْإِعْصَامِ<sup>(٣)</sup> بِحَقِّهِ ، فَهَذَا لَا يُخْطِئُهُ مَعْنَى الشَّرِّ إِنْ لَبَسَنَهُ<sup>(٤)</sup> عَلَيْهِ فِي صُورَةِ الْخَيْرِ ، وَلَا مَعْنَى الْخَيْرِ إِنْ زَوَّرَنَاهُ فِي صُورَةِ الشَّرِّ ، وَبِلِكَ يَضْعِفُ نَفْسَهُ فِي حِثْ شَاءَ مِنَ الْمُنْزَلَةِ ، لَا فِي حِثْ شَاءَ مِنَ النَّسِيَّاَتِ أَنْ تَضْعَهُ مِنْ مَنَازِلِهِ الْنَّدِيَّةِ .

وَمَأْكُلُ بَشَرٍ هَذِهِ الطَّيَّابَاتِ إِلَّا لِيَبْاَدِرَ بِهَا وَسُوْسَتِي وَبِرَدَسِي عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ الْمَلَّةِ تَقْلِيمِهِ ، فَلَوْ أَنَّهُ أَعْجَبَهُ زَهْدُ ابْنِ حَنْبَلَ وَنَظَرَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى زَهْدِ نَفْسِهِ لَحِيطَ أَجْرُهُ ، فِيهِنَّ الطَّيَّابَاتِ عَالِجُ نَفْسَهُ عَلَاجٌ مَرِيضٌ ، وَقَدْ عَيْرَ عَلَى جَوْفِهِ طَعَامًا بِطَعَامِ كَمَا يَسْلُلُ عَلَى جِلْدِهِ ثُرِيًّا بَثْرَبٍ ؛ وَلَا شَهْرَةُ الْجَلَدِ فِي أَحِيلِهِمَا .

\* \* \*

قَالَ الْمَغَازِلِيُّ : وَتَقْلِلُ النَّوْمُ عَلَيَّ ثَقْلَةً أُخْرَى ، فَرَأَيْتُنِي فِي وَادِ عَظِيمٍ ، وَفِي رِسْطِيِّهِ مِثْلُ الْطَّوْدِ<sup>(٥)</sup> مِنَ الْحَجَارَةِ قَدْ رَوَّكَمْ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ؛ وَرَأَيْتُنِي مَعَ بَشِّرٍ أَقْصُّ عَلَيْهِ خَبَرَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ ؛ فَقَالَ : أَنْظِرْ - وَيَحْكُمُ - إِنَّ النَّاسَ يَسْمُونُهَا خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَهِيَ هَذِهِ فِي وَادِي الْحَقَاتِ خَمْسَوْنَ أَلْفَ حِجْرٍ لَوْ أَصَابَتْ أَحْمَدَ لَقْتَهُ وَلَكَانَتْ قِبْرَهُ آخِرَ الدَّهْرِ .

إِنَّ الْمَالَ يَا بُنَيْهُ هُوَ مَا يَعْمَلُهُ الْمَالُ لَا جَوَهْرَةُ مِنَ الْنَّحْبِ وَالْفِضَّةِ ، فَإِذَا كُنْتَ

(١) إِعْنَاثٌ : إِنْعَابٌ .

(٢) الْلَّهَةُ : مَنْ الْجَنُونُ .

(٣) الْإِعْصَامُ بِحَقِّهِ : الْزَّرَابِيَّةُ وَعِلْمُ تَقْنِيَّرِهِ .

(٤) لَسْنَاهُ : عَوْنَاهُ .

(٥) الْعَلَوَدُ : يَسْكُونُ الْوَارِدُ : الْجَبَلُ .

ِمَفَازَةٍ<sup>(١)</sup> لِيَسَ فِيهَا مِنْ يَبْيَعُكَ شَيْئاً بِذَهِبِكَ، فَالْتَّرَابُ وَالْذَّهَبُ هُنَاكَ سَوَاءٌ؛ وَالْفَضَائِلُ هِيَ ذَهَبُ الْآخِرَةِ؛ فَهُنَا تُجَدِّدُ بِالْمَالِ دِنِيَاكَ الَّتِي لَا تَبْقَى أَكْثَرُ مِنْ بَقَائِكَ، وَهُنَاكَ تُجَدِّدُ بِالْفَضَائِلِ نَفْسَكَ الَّتِي تَخْلُدُ بِخُلُودِهَا.

وَمَعْنَى الْغُنْيِ مَعْنَى مُلْتَبِسٍ عَلَى الْعَقُولِ الْأَدَمِيَّةِ لِاجْتِمَاعِ الشَّهَوَاتِ فِيهِ، فَحِينَ يَرَدُّ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ خَمْسِينَ أَلْفًا، يَكُونُ هَذَا الْمَعْنَى قَدْ صَحَّحَ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْعَمَلِ وَجْهًا مِنَ التَّصْحِيحِ.

\* \* \*

قَالَ حَسِينُ الْمَغَازِلِيَّ: وَغَطَنِي<sup>(٢)</sup> النَّوْمُ فِي أَعْمَاقِهِ غَطَّةً أُخْرَى؛ فَإِذَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ فِي درِسِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَهُوَ يُحَدِّثُ بِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا عَظَمْتَ أَمْتِي الدِّينَارَ وَاللَّدْرَهْمَ، تُزَعَّ مِنْهَا هِيَبَةُ الْإِسْلَامِ؛ وَإِذَا تَرَكْتُ أَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَيْتُ عَنِ الْمُنْكَرِ، حُرِمْتُ بِرَبْكَةَ الْوَحْيِ» وَهُمْ أَنْ يَتَكَلَّمُ فِي تَفْسِيرِهِ وَلَكِنَّهُ رَأَيَ فَأَمْسَكَ<sup>(٣)</sup> عَنْهُ وَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: يَا حَسِينَ! إِذَا أَجْتَرَأْ شِيَخُكَ بِالرَّغْيِ فَهَذَا عِنْدَهُ هُوَ قَدْرُ الْمَرْغُورَةِ؛ فَإِنْ أَكَلَ الطَّبِيعَاتِ فَقَدْ عَرَضَتْ حَالَ جَعَلَتْ هَذِهِ الطَّبِيعَاتِ عِنْدَهُ هُوَ قَدْرُ الْمَرْغُورَةِ؛ وَفِي هَذِهِ النَّفُوسِ السَّمَاوِيَّةِ لَا يَكُونُ الْجَزءُ الْأَرْضِيُّ إِلَّا مَحْدُودًا، فَلَا يَكُونُ مَحْصُولًا إِلَّا مَا تَرَى مِنْ قَدْرِ الْمَرْغُورَةِ.

وَلَمَّا صَغَرَ الْجَزءُ الْأَرْضِيُّ فِي نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِينَ مَلَكُوا الْأَرْضَ كُلُّهَا بِقُوَّةِ الْجَزءِ السَّمَاوِيِّ فِيهَا، إِذَا كَانَتْ إِرَادَتُهُمْ فَوْقَ الْأَطْمَاعِ وَالشَّهَوَاتِ، وَكَانَتْ بِذَلِكَ لَا تَذَلُّ وَلَا تَضَعُّ وَلَا تَنْكَسُ؛ فَالْأَدَمِيَّةُ كُلُّهَا تَنْتَهِي إِلَى بَعْضِ صُورِ، وَهُؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ مَحْلُّهُمْ فِي أَعْلَاهَا

يَا حَسِينَ! أَلَا وَإِنَّ رَدَّ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ هُوَ كَذَلِكَ قَدْرُ الْمَرْغُورَةِ.

قَالَ حَسِينَ: وَذَهَبْتُ أَعْتَرِضُ عَلَى الْإِمَامِ بِمَا كَانَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنَّ هَذَا الْمَالَ وَإِنَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ كُسْبِهِ، فَقَدْ كَانَ يَتَحَوَّلُ فِي يَدِهِ عَمَلاً مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ؛ وَأَثْسَيْتُ أَنَّ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ وَأَقْدَارُ نَفُوسِهِمْ، فَلَمْ أَكُنْ أَفْتَحُ فِيمِي حَتَّى رَأَيْتُ الْكَلَامَ يَتَحَوَّلُ طَيْبَنَا فِي فَمِي لِيذَكَرْنِي بِهَذَا الْمَعْنَى؛ وَكِدْنَا أَخْتَنَقْ فَأَنْفَضْتُ أَنْفَسَ، فَطَارَ النَّوْمُ وَالْحَلْمُ.

(١) المَفَازَةُ: الطَّرِيقُ الضَّيقُ.

(٢) غَطَنِي النَّوْمُ: غَلَبَنِي.

(٣) أَمْسَكَ: تَوَقَّفَ وَانْقَطَعَ.

## إِبْلِيسُ يَعْلَمُ

٣

قالَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ: وَدَارَ السَّبْتُ الثَّالِثُ، وَجَلَسَتْ مَجْلِسِي لِلنَّاسِ وَقِدْ أَنْتَظَمْتَ حَلْقَتَهُمْ؛ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ عَزْضٍ<sup>(١)</sup> الْمَجْلِسِ فَقَالَ: إِنَّ الْحَسَنَ بْنَ شَجَاعَ الْبَلْخِي تَلَمِيذَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلَ، كَانَ مِنْ ذُرِّ قَرِيبٍ يُحَدِّثُنَا بِأَحَادِيثٍ عَنِ الشَّيْطَانِ، حَفَظْنَا مِنْهَا قَوْلَهُ عَلَيْهِ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُنَضِّي<sup>(٢)</sup> شَيْطَانَهُ كَمَا يُنَضِّي أَحْدُوكُمْ بِعِرَةٍ فِي سَفَرِهِ». وَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ فِي تَأْوِيلِهِ: إِنَّ شَيْطَانَ الْكَافِرِ دَهِينٌ سَمِينٌ كَاسٌ، وَشَيْطَانُ الْمُؤْمِنِ مَهْزُولٌ أَشَعَّتْ أَغْبُرُ عَارٍ. فَهُلْ يَأْكُلُ الشَّيْطَانُ وَيَدْهِنُ وَيَلْبِسُ لِيَكُونَ لَهُ أَنْ يَجُوعَ مَعَ الْمُؤْمِنِ وَيَعْرَى وَيَتَشَعَّثَ وَيَغْبَرَ؟

قالَ أَبْنُ مَسْكِينٍ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَا حُولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ! مَا أَرَى السَّائِلَ إِلَّا شَيْطَانٌ هَذَا السَّائِلُ؛ فَإِنَّ إِبْلِيسَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْخَرَ مِنَ الْعَالَمِ وَيُسَمِّعَهُ طَنَزَةً وَتَهْكِمَهُ<sup>(٣)</sup>، حَرَّكَ مَنْ يَسْأَلُهُ عَنِهِ مَا هُوَ وَكِيفُ هُوَ؛ كَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ: تَبَّأْ - وَيَحْكُ - عَلَى مَعْنَايِ، فَأَنْتَ تَتَكَلَّمُ وَأَنَا أَعْمَلُ، وَأَنْتَ صُورَةُ مِنَ الرَّذْدِ عَلَيَّ، وَلَكُنِي حَقِيقَةُ مِنَ الرَّدِّ عَلَيْكُ، وَمَا أَنْتَ فِي مُحَارَبَتِكَ لِي بِالْوَعْظِ إِلَّا كَالَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَضْرِبَ عَنْقَ عَدُوِّهِ بِمَاِثَةِ أَسْمٍ وَضِعَتْ لِلسِّيفِ . . .

قالَ: وَكُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ خَبْرًا عَجِيبًا عَنْ أَبِي عَامِرٍ قَبِيصَةَ بْنِ عَقْبَةَ الْكُوفِيِّ الْمَحْدُثِ الْحَافِظِ الْثَّقَةِ أَحْدِ شِيوْخِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ؛ وَهُوَ الْرَّجُلُ الْصَّالِحُ الْعَابِدُ الَّذِي كَانَ يُقَالُ لَهُ: (رَاهِبُ الْكُوفَةِ)؛ مِنْ زَهْدِهِ وَعِبَادَتِهِ وَاحْتِبَاسِهِ فِي دَاخِلِهِ كَأَنَّمَا جَسَدُهُ جِدَارٌ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ الدُّنْيَا، فَقُلْتُ - وَاللهُ - لَأُغَيِّظَنَّ الْشَّيْطَانَ بِهَذَا الْخَبْرِ، فَإِنَّ أَسْمَاءَ الزَّهَادِ وَالْعَبَادِ وَالصَّالِحِينَ هِيَ فِي تَارِيخِ الشَّيَاطِينِ كَاسِمَاتِ الْمَوَاقِعِ الَّتِي

(١) عَزْضُ بَتْسِكِينِ الرَّاءِ: جَهَةٌ.

(٢) الطَّرْزُ: السُّخْرِيَّةُ وَالتَّهْكِمُ.

(٣) يُنَضِّي: يَتَعَبُ وَيَهْزَلُ.

نهزم فيها الجيوش، وما الرجل العابد إلا صاحب الغمرات<sup>(١)</sup> مع الشيطان، وكانت يتحمل المكاراة عن أمّة كاملة بل عن البشرية كلها حيث كانت من الأرض، فالناس بحسبوئه قد تخلّى من الدنيا وينطون الترك أيسراً شيء، وما علمنا أن الزهد لا يستقيم للزاهد حتى يجعل جسمه كأنه نوع نظام آخر غير نظام أعضائه؛ ولا أشك من ذلك على النفس. ومعجزة الزاهد أنه مكلف أن يخرج للناس أقوى القوة من المعاني التي هي عند الناس أضعف الضعف؛ ولو أن ملكاً عظيماً تعب في جمع الدنيا وفتح الممالك حتى حيزت<sup>(٢)</sup> له جوانب الأرض، لكان عمله هذا هو الوجه الآخر لتعب الزاهد في مواجهة هذه الدنيا وتركها.

\* \* \*

قال أحمد بن مسکین: وقضضت عليهم القصة فقلت: كان أبو عامر قبيصه بن عقبة كثير الفحقر في الشيطان، يوذ لو رأه وناقله الكلام؛ وكان يتذمّر الأحاديث التي صح ورودها فيه، ويفسر معنى الشيطان بأنه الروح الحي للخطأ على الأرض؛ والخطأ يكون صواباً محظياً عن طريقه وجهته، ولهذا كان إبليس في الأصل ملكاً من الملائكة وتحول عن طبيعته حين خلق آدم (عليه السلام)، أي وُجد في الكون روح الخطأ حين وُجد فيه الروح الذي سيخطئ.

فلما هبط آدم من الجنة وحرّمها هو وزوجه وذریته، كان إبليس (لعنه الله) هو معنى بقاء هذا الجرمان وأستمراره على الدهر، فكأن هذه الأديمة أخرجت من الجنة، وأخرجت معها قوة لا تزال تتصدّرها عنها، ليضطربا في الكفاح متلّياً من زمان هو عمر كل إنسان، وهذا هو العدل الإلهي: لم يعرف آدم حق الجنة، فعوقب بالأخذ بها إلا بحقها، وأن يقاتل في سبيل الخير قوة الشر.

وبات أبو عامر ذات ليلة يفكّر في هذا ونحوه بعد أن فرغ من صلاة وقراءته، ثم هوم<sup>(٣)</sup> فكان بين اليقظة والنوم، وذلك حين تكون العين نائمة والعقل لا يزال مستبهما، فكأن العين مترجمة تبصر من تحت أجنفها بصراً يشاركتها في العقل.

فرأى شيخنا أبو عامر صورة إبليس جاءه في زي رجل زاهد، حسن الست<sup>(٤)</sup> طيب الريح، نظيف الهيئة، وكاد يُشبّه عليه لولا أنه قد عرّفه من عينيه.

(١) الغمرات: الحروب.

(٢) حيزت: تحصلت.

(٣) هوم: تخيّر.

(٤) الست: الهيئة والمظهر.

فإِنْ عَيْنِي الْكَاذِبُ تَصْدُقُانِ عَنِهِ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ الْكَاذِبَ آدَمَيْ قَفْرَ<sup>(۱)</sup> كَالْمَتَاهَةَ مِنَ الْأَرْضِ، فَجَعَلَ عَيْنِيهِ كَالْعَلَامَاتِ لِمَنْ خَاضَ الْفَلَةِ.

وَظَهَرَ الشَّيْطَانُ زَاهِدًا عَابِدًا تَقِيًّا كَأَنَّهُ دِينٌ صَحِيقٌ خُلُقٌ بَشَرًا، فَصَرَخَ فِيهِ أَبُو عَامِرٍ: عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللهِ! أَمْعَصِيَّةٌ فِي ثُوبِ الْطَّاعَةِ؟

قَالَ إِبْلِيسُ: يَا أَبَا عَامِرٍ! لَوْ لَمْ تَقُلِّ: الْمَعْصِيَّةُ إِنَّهَا طَاعَةٌ لَمْ يُقَارِفْهَا<sup>(۲)</sup> أَحَدٌ. وَهُلْ خُلِقَتِ الشَّهَوَاتُ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَغَرِيزَتُهُ إِلَّا لِتَقْرِيبِ هَذِهِ الْمَعَاصِي مِنَ النَّفْسِ، وَجَعَلَ كُلُّ مِنْهَا طَاعَةً لِشَيْءٍ مَا؛ فَقَعَ الْمَعْصِيَّةُ بِأَنَّهَا طَاعَةٌ لَا بِأَنَّهَا مَعْصِيَّةٌ؟ أَوْ لَا تَرَى يَا أَبَا عَامِرٍ أَنَّ الْجِيلَةَ مُحَكَّمَةٌ فِي الْأَدَالِلِ مِنَ الْجَسْمِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ مُحَكَّمَةٌ فِي الْخَارِجِ عَنِهِ، وَأَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ هَذَا الْبَاطِنُ بِهَذَا الْمَعْنَى وَهَذَا الْعَمَلِ لَمَّا كَانَ لِظَاهِرِ الْوُجُودِ كُلُّهُ فِي الْأَنْسَانِ مَعْنَى وَلَا عَمَلٌ؟

قَالَ الشَّيْخُ: عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللهِ! فَمَا أَرَى الْمَوْتَ قَدْ خُلِقَ إِلَّا رَدًا عَلَيْكَ أَنْتَ، لِيَتَبَيَّنَ النَّاسُ أَنَّكَ الْمُمْتَلِئُ الْمُمْتَلِئُ، وَلِكُنَّكَ الْفَارَغُ الْفَارَغُ؛ بِلْ كُلُّ شَهْوَاتِكَ سُخْرِيَّةٌ مِنْكَ وَرَدٌ عَلَيْكَ، فَلَا طَعْمٌ لِلنَّذَرِ مِنْ لَذَاتِكِ إِلَّا وَهِيَ تَمْوِتُ، وَإِنَّمَا تَمَامُ وَجُودِهَا سَاعَةٌ تَنْقَضُهُ؛ وَمَتَى قَاتَلَ اللَّذَّةَ: قَدْ أَنْتَهَيْتُ. فَقَدْ وَصَفْتُ نَفْسَهَا أَبْلَغَ الْوَصْفِ.

قَالَ إِبْلِيسُ: يَا أَبَا عَامِرٍ، وَلَكِنَّ اللَّذَّةَ لَا تَمْوِتُ حَتَّى تَلِدَ مَا يُبَقِّيَهَا حَيَّةً، فَهِيَ تَلِدُ الْحَنِينَ إِلَيْهَا، وَهُوَ لَا يَسْكُنُ حَتَّى يَعُودَ لَذَّةَ تَنْقَضُهُ وَتَلِدُ.

قَالَ الشَّيْخُ: مَعْنَى التَّرَابِ، مَعْنَى التَّرَابِ؛ كُلُّ بَيْتَةٍ فِيهَا بَيْرُثُهَا، وَلَكِنَّ (عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللهِ) لِمَاذَا جَثَثَيْتَ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ؟

قَالَ إِبْلِيسُ: لِأَنِّي لَا أَلْبِسُ إِلَّا مَحْبَّةَ الْقُلُبِ الْأَدْمِيَّ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَطَرَدَنِي الْقُلُوبُ كُلُّهَا وَبَطَّلَ عَمَلِي فِيهَا، وَهُلْ عَمَلِي إِلَّا التَّلْبِيسُ وَالتَّزْوِيرُ؛ أَفَتَدْرِي يَا أَبَا عَامِرٍ أَنِّي لَا أَعْتَرُ الْحَيْوَانَ قُطُّ.

قَالَ الشَّيْخُ: لِأَنَّ الْحَيْوَانَ لَا يَنْتَظِرُ إِلَى الشَّيْءِ إِلَّا نَظَرَةً وَاحِدَةً، هِيَ نَظَرَةٌ وَفَهْمَةٌ مَعَا، فَلَا مَحِلٌّ لِلتَّزْوِيرِ مَعَ هَذِهِ النَّظَرَةِ الْواحِدَةِ؛ وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ: «هَلْ أَنْتُمْ كُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الْشَّيْطَانُ تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكِ أَثَيْرٍ». فَأَنْتَ أَيُّهَا الشَّيْطَانُ التَّزْوِيرُ، وَالْتَّزْوِيرُ

(۲) يُقارِفُهَا: يَقُولُ فِيهَا.

(۱) قَفْرٌ: صَحَراءٌ.

موضعه الكذب؛ فمن لم يكذب في الفكر ولا في النظر ولا في الفهم ولا في الرجاء، فليس لك عنده عمل.

قال إبليس: يا أبا عامر! وهل ترى (رحمك الله) أعجب وأغرب وأدعى إلى الهراء والسخرية من أن أعظم العقلاط الزهاد العباد، هو في جملة معانيه حيوان ليس له إلا نظرة واحدة في كل شيء؟

قال الشيخ: عليك وعليك...؛ إن الحيوان شيء واحد، فهو طبيعة مسخنة بنظامها، ولكن الإنسان أشياء متناقضات بطبيعتها، فالوهية أن يقر النظام بين هذه المتناقضات، كأنما أمشجن فأعطي من جسمه كونا فيه عناصر لا اضطراب، وحوله عناصر اضطراب، ثم قيل له دبره.

فضحك إبليس. قال الشيخ: مم ضحكت لعنك الله؟

قال: ضحكت من أنك أعلمته حقيقة الإبليسية، فالزهاد هم الصالحون لأن يكونوا أعظم الأبالسة...

قال الشيخ: عليك لعنة الله، فما هي تلك الحقيقة التي زعمت؟

قال إبليس: - والله - يا أبا عامر، ما غلام إنسان في زعم التقوى والفضيلة إلا كانت هذه هي الإبليسية؛ وسأعلمك يا أبا عامر حقيقة الزهد والعبادة. فلا تقل إنها الوهية تقر النظام بين متناقضات الإنسان ومتناقضات الطبيعة.

قال الشيخ: وتسخر مني لعنك الله؟ فمتى كنت تعلم الحقيقة والفضيلة؟

قال إبليس: أو لم أكن شيخ الملائكة؟ فمن أجدرك من شيخ الملائكة أن يكون عالمها ومعلمها؟

قال: عليك لعنة الله؛ فما هي حقيقة الزهد والعبادة؟

قال إبليس: حققتها يا أبا عامر، هي التي أعجزتني في نبيكم.

قال الشيخ: كذلك؛ فما هي؟

قال إبليس: هي ثلاثة بها نظام النفس، ونظام العالم، ونظام اللذات والشهوات: أن تكون لك تقوى، ثم يكون لك فكر من هذه التقوى، ثم يكون لك نظر إلى العالم من هذا الفكر. ما اجتمعت هذه الثلاث في إنسان إلا قهر الدنيا وفهر إبليس.

فإِنْ كَانَتِ التَّقْوَىُ وَحْدَهَا - كَتَقْوِيُ أَكْثَرُ الْزَّهَادِ وَالْرَّهَبَانِ - فَمَا أَيْسَرَ أَنْ أَجْعَلَ النَّظَرَ مِنْهَا نَظَرَ الْغَفْلَةِ وَالْبَلَادَةِ وَالْفَضَائِلِ الْكَاذِبَةِ، إِنْ كَانَ الْفَكْرُ وَحْدَهُ - كَفْكُرُ الْعُلَمَاءِ وَالشُّعْرَاءِ - فَمَا أَهُونَ أَنْ أَجْعَلَ النَّظَرَ بِهِ نَظَرَ الْزَّيْغِ وَالْإِلْحَادِ وَالْبَهِيمَةِ وَالْأَرْذَائِلِ الْصَّرِيقَةِ .

قالَ الشِّيخُ: صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ: «إِنَّ الَّذِينَ آتَقْوَا إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِّنَ الشَّيْطَنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ».

قالَ إِبْلِيسُ: يَا أَبَا عَامِرٍ! مَا يَضْرُبُنِي - وَاللهُ - أَنْ أَفْسِرَ لَكَ، فَإِنَّ قَارُورَةَ مِنَ الصَّبْغِ لَا تَضْبِغُ الْبَحْرَ، وَأَنَا أَعْدُ الْزَهَادَ وَالْعُلَمَاءِ الْمُصْلِحِينَ فَاضْطَعُ فِي النَّاسِ بِجَانِبِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مائَةً أَلْفِ امْرَأَةٍ مَفْتُونَةٍ، وَمائَةً أَلْفِ رَجُلٍ فَاسِقٍ، وَمائَةً أَلْفِ مَخْلُوقٍ ظَالِمٍ، فَلَوْ أَتَكَ صَبَغْتَ الْبَحْرَ بِمُلْءِ قَارُورَةِ حَمْرَاءٍ لَمَّا صَبَغْتِ الْبَحْرَ إِلَيْنَايَ بِالْزَاهِدِ وَالْمُصْلِحِ، مَا دَامَ الْمُصْلِحُ شَيْئاً غَيْرَ أَلْسِيفٍ، وَمَا دَامَ الْزَاهِدُ شَيْئاً غَيْرَ الْحَاكِمِ .

قالَ الشِّيخُ: لَعْنَكَ اللَّهُ مِنْ شَيْطَانٍ عَارِمٍ، فَإِذَا وَضَعْتَ الْمُصْلِحَ بَيْنَ مائَةِ أَلْفٍ فَاسِدٍ، فَهُلْ هَذِهِ إِلَّا طَرِيقَةُ شَيْطَانِيَّةٍ لِإِفْسَادِهِ؟

قالَ إِبْلِيسُ: وَمائَةً أَلْفِ امْرَأَةٍ فَتَانَةٍ مَفْتُونَةٍ يَا أَبَا عَامِرٍ، كُلُّ وَاحِدَةٍ تَحْسِبُ جَسْمَهَا . . .

فَصَرَخَ الشِّيخُ: أَغْرِبْ عَنِّي عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللهِ!

قالَ إِبْلِيسُ: وَلَكِنَّ الْآيَةَ الْآيَةَ يَا أَبَا عَامِرٍ. لَقَدْ لَقِيتَ الْمَسِيحَ وَجَرِيَتْهُ وَهُوَ كَانَ تَفْسِيرَهَا .

قالَ الشِّيخُ: عَلَيْهِ السَّلَامُ! وَعَلَيْكَ أَنْتَ لَعْنَةُ اللهِ! فَكِيفَ قَالَ؟ وَكِيفَ صَنَعَ؟

قالَ إِبْلِيسُ: أَقْنَيْتُ بِهِ جَائِعًا فِي الْصَّحْرَاءِ لَا يَجِدُ مَا يَطْعَمُهُ، وَلَا يَظْنُ أَنَّهُ يَجِدُ، وَلَا يَرْجُو أَنْ يَظْنَ؛ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: إِنْ كُنْتَ رُوحَ اللَّهِ وَكَلْمَتَهُ كَمَا تَزَعَّمُ فَمُرْ هذا الْحَجَرَ يَنْقُلِبُ خَبِزًا. فَكَانَ تَقِيًّا، فَتَذَكَّرَ فَإِذَا هُوَ مُبْصِرٌ، فَقَالَ: لَيْسَ بِالْخَبِزِ وَحْدَهُ يَحْيَا إِلَيْنَا، فَمُثِلُّ هَذَا لَوْ مَاتَ جَوْعًا لَمْ يَتَحَوَّلْ، لَأَنَّ الْمَوْتَ إِتَّمَ حَقِيقَتِهِ السَّماَوِيَّةِ فَوْقَ هَذِهِ الدُّنْيَا، وَلَوْ مُلِيثَ لَهُ الْدُّنْيَا خَبِزًا وَهُوَ جَائِعٌ لَمْ يَتَحَوَّلْ، لَأَنَّ لَهُ بَصَرًا مِنْ فَوْقِ الْخَبِزِ إِلَى حَقِيقَتِهِ السَّماَوِيَّةِ؛ فَلَيْسَ بِالْخَبِزِ وَحْدَهُ يَحْيَا؛ بَلْ بِمَعْنَى أُخْرَى هِيَ إِشْبَاعُ حَقِيقَتِهِ السَّماَوِيَّةِ الَّتِي لَا شَهْوَةَ لَهَا .

ثم أرتقيت<sup>(١)</sup> به إلى ذروة جبل وأريته ممالك الخافقين<sup>(٢)</sup>، كشفتها كلها لعينيه وقلت له: هذا كلّه لك إذا أنت سجّدت لي. فكان متقياً، فتذكّر فإذا هو مبصراً: أبصر حقيقة الخيال الذي جسمته له، وعلم أنّ الشيطان يعطي مثل معاني هذه الممالك في جرعة خمر، كما يعطيها في ساعة لذة، كما يعطيها في شفاء غبطة بالقتل والأدى؛ ثم لا يبقى من كل ذلك باق غير الإثم، ولا يصح منه صحيح إلا الحرام. ومن ملك الدنيا نفسها لم يبق لها إذا بقيت فهي خيال في جرعة الحياة، كما هي خيال في جرعة الخمر.

يا أبا عامر؛ إنّ هذا النظر، الذي وراءه التذكّر، الذي وراءه التقوى، التي وراءها الله - هذا وحده هو القوة التي تتناول شهوات الدنيا فتصفيها أربع مرات حتى تعود بها إلى حقائقها الترابية الصغيرة التي آخرها القبر، وأخر وجودها الثلاثي.

فالبصر الكاشفُ الذي يحرّد الأشياء من سحرها الوهمي، هذا هو كلُّ السر.

\* \* \*

قال الشيخ: لعنة الله؛ فكيف مع هذا تفتن المؤمن؟

قال إبليس: يا أبا عامر، هذا سؤال شيطاني . . . . ثريد - ويحك - أن تحтал على الشيطان؟ ولكن ما يضرني أن أفسرها لك.

ليس الإيمان هو الاعتقاد ولا العمل، ولو كان من هذين لما شق على أحد ولصلحت الدنيا وأهلها؛ إنما الإيمان وضع يقينٍ خفيٍ يكون مع الغريرة في مقرّها، ويصلح أن يكون في مقرّها ليتصدر عنّه أعمال الغريرة؛ وهذا اليقين لا يصلح كذلك إلا إذا كان يقيناً ثابتاً بما هو أكبر من الدنيا، فيرجع إليه الإنسان فيذكر فينصير. هناك ميراثٌ من الآخرة للمؤمن، فالاليقين بهذا الميراث هو سر الإيمان.

والعمل الشيطاني لا يكون إلا في إفساد هذا اليقين ومحاربة الخيال العظيم الذي فيه بالحقائق الصغيرة التي تظهر للمغفل عظيمة، كما تسبّ نار أكبر من فرق الشمس ثم يقال للأبله: أنظر بعينيك، فيصدق أنها أكبر من الشمس.

ومتي صغر هذا اليقين وكانت الحقائق الدنيوية أكبر منه في النفس؛ فأيسر أسباب الحياة حيث يقصد المعتقد ويسقط الفضيلة؛ وبدرهم واحد يوجد اللص حينئذ.

(٢) الخافقين: المشرق والمغرب.

(١) ارتقيت: صعدت.

أما إذا ثبَتَ اليقينُ فالشيطانُ معَ الإنسَانِ يصغُرُ ثُمَّ يصغُرُ، ويَعْجُزُ ثُمَّ يعجزُ.  
حتى لَيَرْجُعَ مثَلَ الدَّرَهْمِ إِذَا طَمِعَ الطَّامِعُ أَنْ يَجْعَلَ الرَّجُلَ الغَنِيَ الْكَثِيرَ الْمَالِ لِصَاحِبِهِ  
مِنَ الْلَّصُوصِ بِهَذَا الدَّرَهْمِ.

قالَ الشَّيخُ: لَعْنَكَ اللَّهُ! فَإِنْ لَمْ تُسْتَطِعْ إِفْسَادَ هَذَا اليقينِ فَكَيْفَ تُصْنَعُ فِي فِتْنَةِ  
الْمُؤْمِنِ؟

قالَ إِبْلِيسُ: يَا أَبَا عَامِرَ، إِنْ لَمْ تُسْتَطِعْ إِفْسَادَ الْيَقِينِ زَدْهُ يَقِينِيَا فِي فِسْدِهِ،  
وَأَسْتَحْسَنُ الرَّجُلَ لِأَعْمَالِهِ الْأَسَمِيَّةِ قَدْ يَكُونُ هُوَ أَوْلَى أَعْمَالِهِ الْأَسَافِلَةِ؛ وَبِأَيِّ عَجَيبٍ  
يَكُونُ الشَّيْطَانُ شَيْطَانًا إِلَّا بِمُثْلِ هَذَا؟

\* \* \*

قالَ أَحْمَدُ بْنُ مُسْكِينَ: وَغَضِبَ الشَّيخُ، فَمَدَّ يَدَهُ فَأَخْدَى فِيهَا عُنْقَ إِبْلِيسَ وَقَد  
رَأَهُ دَقِيقًا، ثُمَّ عَصَرَهُ عَصْرًا شَدِيدًا يُرِيدُ خَنْقَهُ؛ فَقَهَقَهُ الشَّيْطَانُ سَاخِرًا مِنْهُ. وَيَتَبَّهُ  
الشَّيخُ، فَإِذَا هُوَ يُشَدُّ بِيَدِهِ الْيَمْنِيَّ عَلَى يَدِهِ الْأَيْسِرِيِّ . . . .

## الدنيا والدرهم

٤

قالَ أَحْمَدُ بْنُ مِسْكِينٍ: وَأَزْفَ<sup>(١)</sup> تَرْحُلِي عَنْ (بُلْخَ)، وَتَهْيَأْتُ لِلْخُرُوجِ، وَلَمْ  
بَقَ مِنْ مَدَةٍ مَقِيلٍ بَهَا إِلَّا أَيَّامٌ يَجِيءُ فِيهَا الْسَّبْتُ الرَّابِعُ، وَكَانَ قَدْ وَقَعَتْ مَمَارَةً  
بَيْنِ وَبَيْنِ مَفْتِي (بُلْخَ) أَبِي إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يُوسَفَ الْبَاهْلِيِّ تَلْمِيذَ أَبِي يُوسَفَ  
صَاحِبِ الْإِمامِ أَبِي حَنِيفَةَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ شَحِيقٌ عَلَى الْمَالِ، وَأَنَّهُ يَتَعَلَّلُ مِنْ  
مُسْتَغْلَاتٍ كَثِيرَةً<sup>(٢)</sup>، فَكَائِنًا غَشِيشَةً<sup>(٣)</sup> غَمَامِتِي، فَهُوَ لَا يَرِى أَنْ أَتَكَلَّمُ فِي الزَّهْدِ،  
وَيَحْسِبُ هَذَا الزَّهْدَ تَمَاؤْتَ الْعَبَادَةِ، وَنَفْضَ الْأَيْدِي مِنَ الدُّنْيَا، وَسُوءُ الْمَصَاحَةِ لِمَا  
يُنْعِمُ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْعَبْدِ، وَخَذْلَانُ الْقُوَّةِ فِي الْبَدْنِ، وَمَا جَرِى هَذَا الْمَجْرِي مِنْ تَزوِيرِ  
الْحَيَاةِ بِالْأَبْاطِيلِ الَّتِي زَعَمَ أَنَّهَا أَبْاطِيلُ الْطَّاعَاتِ وَمَا أَقْرَبَهَا مِنْ أَبْاطِيلِ الْمَعْصِيَةِ. وَلَمْ  
يَكُنْ هَذَا الْمَفْتِي قَدْ سَمِعْنِي وَلَا حَضَرَ مَجْلِسِي، وَلَوْلَا الَّذِي لَمْ يَعْرُفْهُ مِنْ ذَلِكَ لَقَدْ  
كَانَ عَرْفٌ.

وَجَادَلَتْهُ<sup>(٤)</sup> فَرَأَيْتُهُ وَاهِنَ<sup>(٥)</sup> الدَّلِيلُ، ضَعِيفُ الْحُجَّةِ، يُخْمَنُ تَخْمِينَ فَقِيهِ،  
وَيَنْظُرُ إِلَى الْخَفَافِيَا مِنْ حَقَائِقِ النَّفْوِ نَظَرَ صَاحِبِ النَّصِّ إِلَى الظَّاهِرِ، كَأَنَّ الْحَقِيقَةَ  
إِذَا أُلْقِيَتْ عَلَى النَّاسِ مَضَتْ نَافِذَةً كَفْتُوِيَ الْمَفْتِي... وَيَزْعُمُ أَنَّ الْوَعْظَ وَعَظُ  
الْفَقَهَاءِ، يَقُولُونَ: هَذَا حَرَامٌ. فَيَكُونُ حَرَاماً لَا يُقَارِفُهُ<sup>(٦)</sup> أَحَدٌ، وَهَذَا حَلَالٌ. فَيَكُونُ  
حَلَالاً لَا يَتَرَكُهُ أَحَدٌ، وَهُوَ كَانَ بَعِيداً عَنْ حَقِيقَةِ الْوَعْظِ وَمَدَاخِلِهِ إِلَى النَّفْسِ وَسِيَاسَتِهِ  
فِيهَا، وَلَا يَعْرُفُ أَنَّ الْحَقِيقَةَ كَالْأَنْشِيِّ: إِنَّ لَمْ تُزَيِّنْ بِزِينَتِهَا لَمْ تَسْتَهِنْ أَحَدًا؛ وَأَنَّ  
الْمَوْعِظَةَ إِنَّ لَمْ تَتَأَدَّ فِي أَسْلُوبِهَا الْحَيِّ كَانَتْ بِالْبَاطِلِ أَشَبَّهُ، وَأَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ النَّفْسَ إِلَّا  
النَّفْسُ الَّتِي فِيهَا قُوَّةُ التَّحْوِيلِ وَالتَّغْيِيرِ، كَنْفُوسُ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ كَانَ فِي طَرِيقِ رُوحِهِمْ،

(٤) جادلته: ناقشه.

(١) أزف: حان.

(٥) واهن: ضعيف.

(٢) المستغلات: أصول الأموال.

(٦) يقارفه: يقع فيه.

(٣) غشيه: غطته.

وأنَّ هذه الصناعة إِنَّما هي وضعُ نورِ البصيرة في الكلام، لا وضعُ أَقْياسٍ وأَحْجَة، وأنَّ الرَّجُلُ الْزَاهِدُ الصَّحِيحُ الرَّهُدُ، إِنَّما هو حِيَاةٌ تلبِسُهَا الحِقْيَةُ لِتَكُونَ بِهِ شَيْئاً فِي الْحِيَاةِ وَالْعَمَلِ. لَا شَيْئاً غَيْرَ القَوْلِ وَالتَّوْهُمِ، فَيَكُونُ إِلَهَامُهَا فِيهِ كَحْرَارَةُ النَّارِ فِي النَّارِ: مَنْ وَاتَّاهَا أَحْسَهَا.

ولِعْنَرِي، كم من فقيه يقول للناس: هذا حرام. فلا يزيدُ هذا الحرام إِلَّا ظهوراً وَانكشافاً ما دام لا ينطقُ إِلَّا نطقُ الْكُتُبِ، ولا يُحْسِنُ أَنْ يَصِلَّ بَيْنَ النَّفْسِ وَالشَّرْعِ، وقد خلا مِنَ الْقُوَّةِ الْتِي تَجْعَلُهُ روحًا تَعْلَقُ أَلْأَرْوَاحُ بِهَا وَتَضَعُهُ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَوْضِعٍ يَكُونُ بِهِ فِي أَعْتَابِهِمْ كَائِنًا أَتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْ قَرِيبٌ، راجعٌ إِلَيْهَا بَعْدَ قَرِيبٍ.

وَالْفَقِيهُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالْمَالِ وَشَهْوَاتِ النَّفْسِ، وَلَا يَجْعَلُ هَمَّهُ إِلَّا زِيادَةَ الرِّزْقِ وَحَظَّ الدُّنْيَا - هُوَ الْفَقِيهُ الْفَاسِدُ الْصُورَةُ فِي خِيَالِ النَّاسِ، يَفْهَمُهُمْ أَوْلَ شَيْءٍ إِلَّا يَفْهَمُوا عَنْهُ؛ إِذْ حِرْصُهُ فَوْقَ بَصِيرَتِهِ، وَلَهُ فِي الْنُفُوسِ رائِحَةُ الْخَبْزِ، وَلَهُ مَعْنَى: خَمْسُ وَخَمْسُ عَشْرَةَ . . .<sup>(١)</sup> وَكَانَ دُنْيَاهُ وَضَعَتْ فِيهِ شَيْئاً فَاسِداً غَرِيباً يُفْسِدُ الْحَقِيقَةَ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا؛ وَلَسْنُ أَدْرِي مَا هُوَ هَذَا الشَّيْءُ، وَلَكُنْيَةُ رَأَيْتُ فَقْهَاءَ يَعْظُونَ وَيَتَكَلَّمُونَ عَلَى النَّاسِ فِي الْحَرَامِ وَالْحَلَالِ وَفِي نَصْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنْنَةِ رَسُولِهِ ﷺ، ثُمَّ لَمْ أَجِدْ لِكَلَامِهِمْ نَفْعًا وَلَا رَدًا، إِذْ يُلْهِمُونَ النَّاسَ بِأَرْوَاحِهِمْ غَيْرَ الْمَعْنَى الَّذِي يَتَكَلَّمُونَ فِيهِ؛ وَتَسْخَرُ الْحَقِيقَةُ مِنْهُمْ - عَلَى خَطْرِهِمْ<sup>(٢)</sup> وَجَلَالِ شَأْنِهِمْ - بِذَاتِ الْأَسْلُوبِ الَّذِي تَسْخَرُ بِهِ مِنْ لِصْ يَعْظُ لِصًا آخَرَ فَيَقُولُ لَهُ: لَا تَسْرِقْ . . .

\* \* \*

قالَ أَبْنُ مُسْكِينِ: فَلَمَّا دَارَ يَوْمُ الْسَبْتِ أَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى الْمَسْجِدِ أَفْوَاجًا، وَكَانُوا قد تَعَالَمُوا إِزْمَاعِي الرِّحْيلَ عَنْ بَلْدِهِمْ - وَجَاءَ (الْقَمَانُ الْأَمَّةِ) فِي أَشْيَاوِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَجَاءَ أَبُو إِسْحَاقَ الْمُفْتَنِي فِي جَمَاعَتِهِ؛ وَأَسْتَقَرَّ بِهِ الْمَجْلِسُ فَنَفَذَتُ النَّاسَ بِنَظَرِي، فَكَانُوهُمْ مِنْ كَثْرَتِهِمْ نَبَاتٌ غَطَّى الْأَرْضَ، فَأَذْكُرْنِي هَذَا شِيخَنَا السَّرِيْ بْنُ مُغْلِسِ السَّقْطَنِ<sup>(٣)</sup>، وَكَانَ قَدْ لَزَمَ دَارَهُ فِي بَغْدَادٍ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَلَا يَرَاهُ إِلَّا مِنْ قَصْدَإِلَيْهِ، وَهَمِمْتُ أَنْ أَجْعَلَ الْمَوْعِدَةَ فِي شِرْحِ كَلْمَتِهِ الْمَشْهُورَةِ: «لَا تَصْحُ الْمَحَبَّةُ بَيْنَ

(١) يقصد من ذلك أن الحياة عملية حسابية.

(٢) السقط: ردِيءِ المتع، وبائعه يسمى السقطي.

(٣) خطرهم: أهميتهم.

اثنين حتى يقول أحدهما للأخر: يا أنا». وما نقلوا عنه من آن قالَ مرّةً لبعضِ أصحابه: منذ ثلاثين سنة وأنا في الاستغفارِ من قوله: (الحمدُ لله). فقالَ صاحبه: وكيف ذلك؟ قال: وقع ببعداد حريق، فاستقبلني رجلٌ فقال: نجا حانتُك. فقلت: الحمدُ لله فأنا نادمٌ من ذلك الوقت على ما قلت؛ إذ أردت لِنفسِي خيراً من الناس!

قالَ ابنُ مسکین: ولكني أحيثُ أن أكلمَ المُفتی وما المُفتی؟ فحدثُهم حديث معرفتي بالسرى: آتى سمعتُ يوماً (عِيلانَ الْخِيَاط) يقول: إنَّ السرى كانَ اشتري كرْ<sup>(۱)</sup> لوز بستين ديناراً، وأتبتهُ في رزنامجه<sup>(۲)</sup> وكتبَ أمامه: ربحة ثلاثة دنانير؛ فلم يلبث أنْ غلا السعرُ فبلغَ تسعين ديناراً؛ فأتاه الدلالُ الذي كانَ اشتري له فقال: أريد ذلك اللوز. قال الشیخ: خذه. قال: بكم؟ فقال: بثلاثة وستين ديناراً. وكانَ الدلال رجلاً صالحاً، فقال للشیخ: إنَّ اللوز قد صارَ الكرْ بتسعين. قال السرى: ولكني عقدتُ بيبي وبينَ الله عقداً لا أحله، فلستُ أبيع إلا بثلاثة وستين ديناراً. فقال الدلال: وأنا قد عقدتُ بيبي وبينَ الله عقداً لا أحله، ألا أغشَّ مسلماً، فلستُ أشتري منك إلا بتسعين؟ فلا الدلال أشتري منه، ولا السرى باعه...!

قالَ أحمدُ بنُ مسکین: فلما سمعتُ ذلك لم تكن لي همةً إلا أنْ ألقى الشیخ وأصحابه وأخذَ عنه، فلم أُرِجع<sup>(۳)</sup> على شيءٍ حتى كثُرتُ في المسجدِ الذي يُصلّى فيه، فأجادُه في حلقتيه وعندَهِ ممَّنْ كنتُ أعرفُهم: عبدُ الله بنُ أحمدَ بنُ حنبل، وإدريسُ الحداد، وعلى بنُ سعيدِ الرازي، وحولَهُ خلقٌ كثيرٌ وهو فيهم كالشجرة الخضراء بينَ الهشيم تعلو نَضْرَةً روحِه، وكانتَ يُمْدُدُ بالنور عرقٌ منَ السماء، فهو يتلألأً للعيين؛ ولا يملُك الناظرُ إليه إِلاَّ أَنْ يُحَسِّنَ في ذاتِ نفسهِ آنَهُ الأدنى، من رؤيته في ذاتِ نفسهِ أَنَّ هذا هُوَ الإنسانُ الأعلى.

ورأيتُ على وجههِ آلامًا تمسحُهُ مسحةُ الأشواقِ لا مسحةَ الآلام، آثارُ ما يجدهُ في روجهِ القويةِ، لا كآلامَ الناسِ التي هي آثارُ الْحِرْمانِ في أرواحِهم الْواهنةِ الضعيفةِ فلا تماسُحُ وجوهِهم إِلاَّ مسحةُ الغمِ والكابةِ.

(۱) الكر، بضم الكاف هو مكيال عظيم يقدرون فيه الحساب، يساوي أربعين إربباً مصرياً.

(۲) رزنامجه: دفتر حساباته.

(۳) أُرِجَّع: أهل، ألو.

وما يُخطئُ النَّظرُ في تمييز آلامِ السماءِ على هذه الوجوهِ السعيدةِ من آلامِ الأرضِ في الوجوهِ الأخرى، فإنَّ الأولى تَشَدُّى على رُوحِ النَّاظرِ بمثَلِ الطَّلْلِ إذا قَطَرَهُ الْفَجْرُ، والأخرى تَشَوُّرُ في رُوحِهِ كما تَهْبِجُ الغَيْرَةُ إذا ضَرَبَتِ الْرِّيحُ أَلْأَرْضَ.

كانَ الشَّيخُ في وُجُودٍ فَوْقَ وُجُودِنَا؛ فَلَا تَتَلَوَّنَ لَهُ الْأَشْيَاءُ وَلَا تَعْدُ عَنْهُ مَا هِيَ فِي نَفْسِهَا، وَلَا يَحْمِلُ الشَّيْءَ لَهُ إِلَّا مَعْنَاهُ مِنْ حِيثِ يَصْلُحُ أَوْ لَا يَصْلُحُ، وَمِنْ حِيثِ يَنْبَغِي أَوْ لَا يَنْبَغِي. فَإِنَّمَا تَتَلَوَّنَ الْأَشْيَاءُ عَنَّهُ مَا يَضُعُ الشَّيْطَانَ عَيْنَهُ فِي عَيْنِ النَّاظِرِ إِلَيْهَا؛ وَإِنَّمَا تَزِيدُ وَتَنْقَصُ فِي الْقَلْبِ عَنِ الدِّلْمَادِيَّةِ يَكُونُ رُوحُ الشَّيْطَانِ فِي الْقَلْبِ؛ وَإِنَّمَا يَشْتَهِي مَا يَنْبَغِي وَمَا لَا يَنْبَغِي عَنَّهُ مَا يَأْتِي الشَّيْءَ مِنْ جَهَتِينَ: جَهَّهُ مِنْ طَبِيعَتِهِ هُوَ، وَجَهَّهُ مِنْ طَبِيعَتِنَا نَحْنُ. وَبِهَذَا قَدْ يَجْمِعُ الْإِنْسَانُ الْمَالَ ثُمَّ لَا يَجِدُ فِي الْمَالِ مَعْنَى الْغَنِّيِّ، وَقَدْ تَقْعِدُ أَسْبَابُ الْنَّعِيمِ وَلَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَّا الذُّلُّ. وَكُمْ مِنْ إِنْسَانٍ يَجِدُ وَكَانَ لَمْ يَجِدْ إِلَّا عَكْسَ مَا كَانَ يَبْغِي، وَآخَرٌ لَمْ يَجِدْ شَيْئًا وَوَجَدَ بِذَلِكَ رَاحَتَهُ.

\* \* \*

قالَ أَبُنُ مُسْكِينٍ: وما كَانَ أَشَدُ عَجَبِي حِينَ تَكَلَّمُ الشَّيخُ، فَقَدْ أَخْدَى يُجَبِّعُ عَمَّا فِي نَفْسِي وَلَمْ أَسْأَلْهُ، كَانَ الَّذِي فِي فَكْرِي قَدْ اتَّقْلَلَ إِلَيْهِ؛ فَرَوَى الْحَدِيثُ: «إِذَا عَظَمْتَ أَمْتِي الْدِينَارَ وَالدرَّهُمَّ، ثُرِّعَ مِنْهَا هِيَةُ الإِسْلَامِ؛ وَإِذَا تَرَكْتُمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَيْتُمُ عَنِ الْمُنْكَرِ، حُرِّمُوا بِرَبَّكُمُ الْوَحْيِ». ثُمَّ قَالَ فِي تَأْوِيلِهِ:

إِنَّ مَلَكَ الْوَحْيِ يَنْزَلُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهِيِّ لِيُخْضَعَ صَوْلَةَ<sup>(۱)</sup> الْأَرْضِ بِصَوْلَةِ الْسَّمَاءِ، فَإِذَا بَقَى الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَايَتُ الْمُنْكَرِ، بَقَى عَمَلُ الْوَحْيِ إِلَّا أَنَّهُ فِي صُورَةِ الْعُقْلِ، وَبِقَيْتُ رُوحَانِيَّةُ الدُّنْيَا إِلَّا أَنَّهَا فِي صُورَةِ النَّظَامِ، وَكَانَ مَعَ كُلِّ خَطاً تَصْحِحُهُ؛ فَيُصْبِحُ الْإِنْسَانُ بِذَلِكَ تَنْفِيذًا لِلشَّرِيعَةِ بَيْنَ أَمْرِ مُطَاعٍ وَمَأْمُورٍ مُطْبِعٍ، فَيَتَعَالَمُ النَّاسُ عَلَى حَالِهِ تَجْعَلُ بَعْضَهُمْ أَسْتَاذًا لِبعْضٍ، وَشَيْئًا مِنْهُمْ تَعْدِيلًا لِشَيءٍ، وَقُوَّةٌ سَنَدًا لِقوَّةٍ؛ فَيَقْوِمُ الْعَزْمُ فِي وَجْهِ الْتَّعَاوُنِ، وَالشَّدَّةُ فِي وَجْهِ الْتَّرَاجِيِّ، وَالْقَدْرَةُ فِي وَجْهِ الْعِجزِ؛ وَبِهَذَا يَكُونُونَ شُرَكَاءَ مُتَعَاوِنِينَ، وَتَعُودُ صِفَاتُهُمُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَكَانَهَا جِيشٌ عَامِلٌ يُنَاصِرُ بَعْضَهُ بَعْضًا، فَتَكُونُ الْحَيَاةُ مُفْسَرَةً مَا دَامَتْ مَعْانِيهَا السَّامِيَّةُ تَأْمُرُ أَمْرَهَا وَتُلْهِمُ إِلَاهَاهَا، وَمَا دَامَتْ مَمْثَلَةً فِي الْوَاجِبِ النَّافِذِ عَلَى الْكُلِّ.

وَالنَّاسُ أَحْرَارٌ مَتَى حَكَمُتْهُمْ هَذِهِ الْمَعْانِي، فَلَيْسْتُ حَقِيقَةُ الْحَرَيْةُ الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَّا

(۱) صَوْلَة: جُولَة.

الخضوع للواجب الذي يحكم، وبذلك لا بغيره ويتصل ما بين الملك والسوقة<sup>(١)</sup>، وما بين الأغنياء والفقراء، اتصال الرحمة في كل شيء، واتصال القسوة في التأديب وحده. فبركة الولي إما هي جعل القوة الإنسانية عملاً شرعياً لا غير.

أما تعظيم الأمة للدنيا والدرهم، فهو استبعاد المعاني الحيوانية في الناس بعضها لبعض، وتقطع ما بينهم من التشابك في لحمية الإنسانية، وجعل الكبير فيهم كبيراً وإن صغرت معانيه، والصغير فيهم صغيراً وإن كبر في المعاني؛ وبهذا تموج الحياة بعضها في بعض، ولا يستقيم الناس على رأي صحيح؛ إذ يكون الصحيح والفالس في ملك الإنسان لا في عمل الإنسان، فيكتنز الغنى مالاً ويكتنز الفقير عداوة، كان هذا قتل مال هذا، وكان أعمالاً قتلت أعمالاً، وترجع الصفات الإنسانية متعادية، وتُباع الفضائل وتشترى، ويزيد من يزيد ولكن في القسوة، وينقص من ينقص ولكن في الحرية، وتكون المنفعة الذاتية هي التي تأمر في الجميع وتنهى، ويدخل الكذب في كل شيء حتى في النظر إلى المال، فيرى كل إنسان كائناً دزهنة وديناره أكبر قيمة من دينار آخر ودرهمه، فإذا أعطى نقص فعش، وإذا أخذ زاد فسرق؛ وتُصبح النفوس نفوساً تجارية تساوم قبل أن تتبع لفضيلة، وتماكس<sup>(٢)</sup> إذا ذعيت لأداء حق، ويتعامل الناس في الشرف على أصول من المعدة لا من الروح، فلا يقال حينئذ، إن رغيفين أكثر من رغيف واحد. كما هي طبيعة العدد، بل يقال: إن رغيفين أشرف من رغيف. كما هي طبيعة النفاق.

أما التجارة - وهي التفسير الظاهر لمعاني النفوس - فتصبح بين الغش والضرر والمماكرة، وتكون يقظة التاجر من غفلة الشاري، وتفسد الإرادة فلا تحدث إلا آثارها الزائفة<sup>(٣)</sup>. وما التاجر في الأمة القوية إلا أستاذ لتعليم الصدق والخلق في الموضوع المتقلب، فكلمة كالرقم من العدد لا يحتمل أزيد ولا أنقص مما فيه، ويمتحن باليمني والدرهم أشد مما يمتحن العباد بصلاته وصيامه. وقد شهدَ رجلٌ عند عمر بن الخطاب في قضية، فقال له عمر: إثنتي بمَنْ يعرفك. فأنا برجل أثني عليه خيراً، فقال له عمر: أنت جارة لأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجَه؟ قال:

(١) السوق: العامة من الناس.

(٢) تماكس: تسامي في البيع والشراء.

(٣) الزائفة: المنحرفة.

لَا . قال : فكنت رفيقة في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا .  
قال : فعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به وراغ الرجل ؟ قال : لا .  
قال عمر : أظلك رأيتك قائما في المسجد يهتمهم بالقرآن ، يخفف رأسه طوراً  
ويرفعه أخرى ؟ قال : نعم .  
قال : فاذهب فلست تعرفه !

وإنما التاجر صورة من ثقة الناس بعضهم ببعض ، وإرادة الخير وأعتقد  
الصدق ، وهو في كل ذلك مظهر توضع اليد عليه كما تجس<sup>(١)</sup> اليد مرض المريض  
وصحته .

فإذا عظمت ألمة الدينار والدرهم ، فإنما عظمت النفاق والطمع والكذب  
والعداوة والقسوة والاستعباد ، وبهذا تقيم الدنانير والدراريم حدوداً فاصلة بين  
أهلها ، حتى تكون المسافة بين غنيٍّ وفقيرٍ كالمسافة بين بلدين قد تباعد ما بينهما .  
وإنما هيبة الإسلام في العزة بالنفس لا بالمال ، وفي بذل الحياة لا في الجرائم  
عليها ، وفي أخلاق الروح لا في أخلاق اليد ، وفي وضع حدود الفضائل بين الناس  
لا في وضع حدود الدراريم ، وفي إزالة النعائص من الطياع لا في إقامتها ، وفي  
تعاون صفات المؤمنين لا في تعاديهما ، وفي اعتبار الغنى ما يُعمل بالمال لا ما  
يُجمع من المال ، وفي جعل أول الثروة العقل والإرادة ، لا الذهب والفضة . . .  
هذا هو الإسلام الذي غلب الأمم ، لأنّه قبل ذلك غلبَ النفس والطبيعة .

(١) تجس : تدنس .

## دُعَابَةُ إِبْلِيسِ<sup>(١)</sup>

أَمَا إِنِّي سَاقِصُ هَذِهِ الْحَكَايَةَ كَمَا اتَّفَقْتُ، لَا أُزِينُهَا بِخِيَالٍ، وَلَا أُتَرَيِّدُ فِيهَا بَخْرٌ، وَلَا أُولَدُ لَهَا مَعْنَى؛ فَإِنَّمَا هِيَ حَكَايَةُ حُبْثٍ الْخَبِيْثِ: فَنَّهَا حِذْفُهُ<sup>(٢)</sup> وَدَهْأُهُ، وَرَقْتُهَا عِلْطَتَهُ وَشَرُهُ، وَمَعَانِيهَا بِلَوْهٌ وَمِحْتَنَهُ؛ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعْنَى.

لَمَّا فَكَرْتُ فِي وَضُعِّفْتُ فِي وَضُعِّفَ مَقَالَةُ (إِبْلِيسَ) مِنْ أَحَادِيثِ (ابْنِ مُسْكِينَ)، وَأَدْرَثُ رَأْيِي فِي نَهْجَهَا وَحَدْوَدَهَا وَمَعَانِيهَا، جَعَلَ فَكْرِي يَتَقْطَعُ فِي ذَلِكَ، يَذْهَبُ وَيَجْهِيُّ كَأَنَّ بَيْنِي وَبَيْنِهِ مَنَازِعَةً، أَوْ كَأَنَّ فِي نَفْسِي شَيْئاً يَتَنَبَّهُنِي وَيَقْطَعُنِي عَنِ الْعَزْمِ؛ وَخُلِّيَ إِلَيْيَ حِينَذِ أَنَّ (إِبْلِيسَ) هَذَا مَنْفَعَةٌ مِنَ الْمَنَافِعِ . . . وَأَنَّهُ هُوَ قَانُونُ الْطَّبِيعَةِ الَّذِي نَصَّ مَادَّتِهِ الْأُولَى: مَا أَعْجَبَكَ فَهُوَ لَكَ . . . وَنَصَّ مَادَّتِهِ الْآخِيرَةِ: مَا أَحْتَاجَتَ إِلَيْهِ فَشَمَّهَ أَنْ تَقْدِرَ عَلَى أَخْذِهِ . . .

وَهَجَسَ فِي نَفْسِي هَاجِسٌ: أَنَّ (إِبْلِيسَ) قَائِمٌ فِي لَفْظِ الْحَرِيَّةِ كَمَا هُوَ قَائِمٌ فِي لَفْظِ الْإِثْمِ، وَأَنَّهُ إِنْ يَكُنْ فِي قُلُوبِ الْفَسَاقِ فَهُوَ أَيْضًا فِي أَدْمَغَةِ الْفَلَاسِفَةِ وَإِنْ كَانَ فِي سُقُوطِ أَهْلِ الرِّذْيَلَةِ إِلَى الرِّذْيَلَةِ، فَهُوَ كَذَلِكَ فِي سُمُّ أَهْلِ الْفَنِ إِلَى الْفَنِ . . . قَالَ الْهَاجِسُ<sup>(٣)</sup>: وَإِنَّ (إِبْلِيسَ) أَيْضًا هُوَ صَاحِبُ الْفَضْلَيَةِ الْعَمَلِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الْمَادِيِّ، فَهُوَ مِنْ ثُمَّ حَقِيقَ أَنْ يَلْقَبُوهُ «صَاحِبُ الْفَضْلَيَةِ».

وَلَكِنِّي لَمْ أَحْفِلُ<sup>(٤)</sup> بِهَذِهِ الْوَسَاوسِ وَلَمْ أَعْجِ<sup>(٥)</sup> عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا، وَأَسْتَعْتَ أَللَّهُ وَأَمْضِيَتُ نَسَيَّتِي عَلَى الْكِتَابَةِ، وَأَخْدَثُتُ أَقْلَبَ الْمَوْضِعَ، وَأَنْبَثَتُ فَكْرِي لِهِ، وَأَسْتَشْرِفُ<sup>(٦)</sup> لِمَا يَؤْدِي إِلَيْهِ النَّظَرُ، وَأَتَطَلَّعُ لِمَا يَجِيَّءُ بِهِ الْخَاطِرُ، وَأَلْتَمِسُ مَا أَبْنَى عَلَيْهِ الْكَلَامَ كَمَا هِيَ عَادِتِي؛ فَلَمْ يَقْعُ لِي شَيْءٌ أَبْتَهَتِهِ، كَأَنَّمَا ذَهَبَ أَوْلُ أَبْتَدَاءِ

(١) الدُّعَابَةُ: المَزَاحُ وَاللَّعْبُ.

(٢) حِذْفُهُ: اتَّقَاهُ.

(٣) الْهَاجِسُ: الْهَاتِفُ.

(٤) أَحْفِلُ: أَهْتَمُ.

(٥) أَعْجِ: أَمْلُ، أَعْرَجُ.

(٦) أَسْتَشْرِفُ: أَسْتَطِلُعُ.

الموضوع فلا أول له ولا سهل إلى اقتحامه، وكأنه من وراء العلم فلا يُلْعَنُ إليه، وكأنه من التعذر كمحاولة تصوير حماقة الحياة كلها في كلمة. وإبليس كلمة فيها حماقة الحياة كلها.

\* \* \*

ومن عادتي في كتابة هذه الفصول التي تشرّها (الرسالة)، أن أدع الفصل منها تقلبة الخواطر في ذهني أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس، وأترك أمره للفورة التي في نفسي، فتولّد المعانٍ من كل ما أرى وما أقرأ، وتتّسّع<sup>(۱)</sup> من هبنا وهبنا، ويكون الكلام كأنه شيءٌ أريد له الوجود فوجد.

ثم أكتب نهار الجمعة، ومن ورائي ليل السبت وليل الأحد كالمدد من وراء الجيش إذا نالثي فترة أو كثي على سفر أو قطعني عن الكتابة شيء مما يغرض. وفي أسبوع إيليس (لعن الله)، مررت الأيام الثلاثة وفيها ثلاثة ألوان: ضجر لا روح فيه، وكسل لا نشاط معه، وأضطراب لا مساك له. وأطلت التفكير يوم الخميس، فكانت تعترني خواطر مضحكة: فيعرض لي مرة أن أصور إيليس أمراً يكون إيليس الجميل... وتأنة أتوهم أن إيليس يريد أن يكون شيئاً كبعض رجال الدين الذين لا تزال تطلع على خائنة منهم، ليقال إيليس التقى المصلي... وحياناً أظن أنه يريد أن يكون كاتباً مؤلفاً شهيراً ليقال إيليس المفكر المصلح... وخطر لي أخيراً الله يريد أن يكون حاكماً ملحداً فاجراً، ليكون إيليس الثامن لا إيليس التاسع... .

\* \* \*

ولما ذهبت الأيام الثلاثة باطلاً، خُلِّي إلى أن إيليس (آخر الله) يسألني عن المقالة: إلى أي شيء أنتَ...؟ فشق<sup>(۲)</sup> ذلك علىي وأغثمت به، غير آتي أطمأنث إلى يوم الجمعة وأن وراءه ليترين. وكانت قد غربت شمس الخميس، فقلت: فلأخرج لأنفَرَجَ مما بي، وعسى أن أجمع نفسي للتفكير إذا جلست في الندي، ولعله يقع ما أستوحيه أو يفتح لي باب في القراءة.

وخرجت، فلم أجاوز الدار حتى أبدرني من هبط عليه الخبر من القاهرة أن نسياناً لنا من العظام توفى أخوه اليوم. قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ ضاع يوم الجمعة. إذ لا بد من السفر لتشييع الجنائز وحضور المأتم ثم قلت: لعل في هذا

(۲) شق: صعب.

(۱) تتّسّع: تنهمر وتتوالى.

السفر استجاماماً<sup>(١)</sup> ونشاطاً فاستدركَ الأسبوع كلهُ في يومين، وإنما الاستكثار بالقوّة لا بالزمن، ولا يد لإبليس في الموت والحياة، فليس إلا اطراحه وقلة المبالاة به، وإنما هي خطرات من وساوسه.

وأصبحت في القاهرة، ومشيت في الجنازة قبل الظهر مسيرة ساعة كاملة؛ وكانت الشمس ساطعة تلألاً، وأنا متقدّم بشياطين الشتاء وكثُرْتُ أتوقع أن يكون اليوم من أيام الريح المجنونة، فلما أنهينا إلى الصحراء، هبت الريح هبوباًلينا، ثم زفت فكانت إلى الشدة ما هي: ولكنها ماضية تسفي<sup>(٢)</sup> الرمل في الأعين فأخذت في أجفاني أكال<sup>(٣)</sup> وتهنّيج، وليس معه شيء أتقىها به؛ غير أنّي شغلت، فكري بروية المقابر، وجعلتها في نفسي كالمقالة المكتوبة سطراً وراء سطراً؛ قلت: هنا الحقيقة في أول تفسيرها، وغير المفهوم في الحياة يفهم هنا.

ثم رجعت متدي الجسم بالعرق وعلّيَّ نضخ منه، وكان القميص من الصوف، وبصدره أثرٌ من النزلة الشعبية<sup>(٤)</sup>، وإذا تندى الصوف وجَّب نزعه وإلا فهي العلة ما منها بد.

ثم لم تكن إلا ساعة حتى انحرقت الريح وجعلت تغصُّف وبرد الجو، فايقنت أنه الزكام، وقلت في نفسي: هذا باب على حدة، والمقالة ذاته لا محالة، فسيختلف الذهن ويبدل؛ والشيطان كريم في الشر يعطي من غير أن يُسأل...

وثقل ذلك علىي فكان الغم به علة جديدة، بيد أنّي لم أزل أرجو الفرصة في أحد أيامين: السبت والأحد. قلت: إنّ من البلاء الفكر في البلاء، ولعل من أسلمة الثقة بالسلامة؛ فإذا نبهت العزيمة رجوت أن يتغلغل أثرها في البدن كله فيكون علاجاً في الدم يخدع به النشاط ويرهف<sup>(٥)</sup> منه الطبع وتجم عليه النفس. وفي قوة العصب كهربائية لها عملها في الجسم إذا أحسن المرض بعثتها في نفسه وأحكام إفاضتها وتصريفها على طريقة رياضية؛ ولهي الدواء حين يعجز الدواء، وهي القوّة حين تُخلد القوّة.

فاعتزمت وصممت، وأحتلت على الإرادة، وتكثرت من أسباب الثقة

(١) استجاماماً: راحة لتجدد النشاط.

(٢) تسفي الرمل: تنشره.

(٤) النزلة الشعبية: الرشح والزكام.

(٥) يرهف: يرقق ويلطف.

(٣) الأكال: الحكاك.

وترصدت لها السوانح العقلية التي تنسج في النفس، وقلت لإبليس: إجهذ جهنمك، فما تذهب مذهبًا إلا كان لي مذهب. ولكن اللعين أخطر في ذهني قول القائل يسخر فيه من ذلك الكاتب البغدادي.

يوماً وليلته يُعْدُ ويُخْسَبُ  
ولئنْ فهنتْ لها، لأمْرِي أَعْجَبُ  
قولانِ قالهِما الْخَلِيلُ ثُلْبُ  
خَمْسٌ وَخَمْسٌ سَتَّةُ، أَوْ سَبْعَةُ

\* \* \*

ثم أجمعت الرجوع من يومي إلى (طنطا)، لأنقى البرد بعلاجه إن نالني أثره، وكان على وقت إلى أن يقوم القطار، فذهبت فقضيت واجباً من زيارة بعض الأقارب في ضاحية (الجيزة)، ثم ركبت الترام الذي أعلم أنه ذاهب إلى محطة سكة الحديد.

وجلست أفكُر في إبليس ومقاليه، وال ترام ينبع في طريقه نحو ثلث الساعة، حتى بلغ، الموضع الذي ينبع<sup>(١)</sup> منه إلى المحطة، وهو بحيال (جمعية الإسعاف)، حيث تشعب<sup>(٢)</sup> طرق أخرى؛ وكثُر منتصراً إلى التفكير مستغرقاً فيه، طائف النظارات على الجوز، فما راعني إلا اختلاف منظر الطريق؛ وأنبه، فإذا الترام يمرق مرور السهم في تلك السبيل الصاعدة إلى (الجيزة) . . . من حيث جئت.

فلعثت الشيطان وتلبثت<sup>(٣)</sup> حتى وقف هذا الترام، فغادرته ورجعت مهرولاً إلى ذلك المنشعب، فصادفت تراماً آخر، فوثبت إليه كأنني أحمل إليه حملًا، ودفعت الأجرة، وأنطلق، فإذا هو منصب في تلك الطريق عينها الذاهبة إلى الجيزة من حيث جئت . . . ولا أستطيع الانحدار منه وهو منطلق، فتسخطت<sup>(٤)</sup> ولعثت الشيطان مرة أخرى، ورأيت أن عبئه قد تراصف؛ فلما سكن الترام رجعت مهرولاً إلى ذلك المنشعب ولم يبق من الوقت غير قليل.

وأنظر ثم، فإذا ترام وراء ترام، وإذا قد وقعت حادثة لأحدى السيارات وأجتمع الناس وسدت الطريق . . . فجعلت أغلي من الغيظ، ولعثت هذا الدعاية الخبيث. وأذكرني اللعين نادرة الأعرابي الذي عصمه ثعلب، فأتى راقياً، فقال له

(٢) تلبث: انتظرت.

(١) ينبع: يتحول، يحيط.

(٤) تسخط: غضب.

(٢) تشعب: تنفرق.

الراقي: ما عصّك؟ فاستحى أن يقول تعلب، وقال: كلب. فلما أبتدأ الرجل برفقية الكلب، قال له الأعرابي: وأخلط بها شيئاً من رفقة العمال...

\* \* \*

ثم إنني لم أر بُدًا من بلوغ المحطة على قدمي الأثيم على عزيمتي في مُراغمة اللعين، فأسرغت أطوي الأرض وكانتما أخوض في أحشائه<sup>(١)</sup> وكان بصدري التهاب فهاج بي، غير أنني تجلذت واتسعت لاحتمالي وتلعث حيث أرددت. ثم ذهبت التمس في القطار عربة خاصةً أعرفها، كانت من عربات الدرجة الأولى فجعلوها في الثانية يرتفعن بها بعض الترفيه على طائفه من المسافرين؛ وأصببت فيها مكاناً خالياً كأنما كان مهياً لي بخاصته... فانحططت فيه إلى جانب رجل أوربي أحسبه ألمانيا لتفاوت حلقه وعنجنهاته؛ وجلست أنفسي عن صدرى، ثم أقبلت أسرح من الميس ونكياته، وجعلت أتعجب مما اتفق من هذا التدبر.

وتحرك القطار وأنبعث، وكان الأوربي إلى جانبي مما يلي النافذة وقد تركها مفتوحة، فأحسنت الهواء ينصب منها الماء أبارد وأنا متند بالعرق؛ وترقبت أن يعلقها الرجل فلم يفعل، فصابرته قليلاً فإذا هو ساكن مطمئن يتزوج بالهواء وكأنما يشربه، وتأملته فإذا شيخ في حدود ستين أو فوقها، غير أنه على بقية من قوة مصارع في اكتنار عضله وأجتماع قوته ووثاقة تركيه، فأيقنت أن الهواء من حاجته، وهمنت أن أباهه أو أقوم أنا فأغلق النافذة، ولو شئت أن أفعل ذلك فعلت، غير أن الشيطان (آخر الله) وسوس لي: أن هذا رجل أجنبي عريبي، وأنت مصرى شرقى، فلا يحسن بك أن تعلمه وتتعلم الحاضرين أمامكما أنك أنت الأضعف على حين أنه هو الأسى، وكيف لا تقوم لما يقوم له وقد كنت ثباكر الماء البارد في صميم الشتاء، وكنت لا تلبس في أشد أيام البرد غير ثياب الصيف، وكنت تحمل كذا وكذا ثقلًا للرياضة، وتعاني كذا وكذا من ضروب القوة، وكنت تلوى بيديك عود الحديد، وكنت وكنت....

فتذممت - والله - مما خطر لي؛ وأنفست أن أنبه الرجل، ورأيت عملي هذا ضعفاً وفسولة<sup>(٢)</sup>، ولم أعب بالهواء ولا بالعرق ولا بالنزلة الشعبية ولا بالزكام، وتركت الأوربي وشأنه، وأقبلت على كتاب كان في يدي، وتناسيت أن هذه النافذة

(٢) فسولة: نذالة لامروءة فيها.

(١) أحشائه: جوفه.

جهةً من تدبير إيليس؛ وكان القطار مزدحماً بالراغعين من المعرض الزراعي الصناعي، وبعض الناس وقوف فلا مطعم في مكان آخر . . .

ولبنت ساعةً ونصف ساعةً في تيار من هواء (فبراير) ينصب أنصاباً، ويغصن عصفاً، وكأنني أصبح منه في نهر تحت ظلمة الليل الماطر، والناس معجبون بي وبالأوري، وهذا الأوري معجب بي أكثر منهم، وقد رأى مكانى وعرف موضعى؛ وكان إلى يميني مجلس بقى خالياً ولم يقدم أحد على أن يجلس فيه خوفاً من الرجل الأوري . . .

ثم تراءيت أنوار محطة (طنطا)، ولم يبق من هذه المحنَّة غير دقيقتين؛ فوالله الذي لا يخلف بغير اسمه - عز وجل -، لقد كان إيليس رقيعاً جلفاً<sup>(١)</sup> بارداً ثقيل المزاح؛ إذ لم أكذ أتهيأ للقيام، حتى رأيت الرجل الأوري قد مد يده فأغلق النافذة . . .

\* \* \*

ورجعت إلى داري وأنا أقول: ثم ماذا يا إيليس؟ ثم ماذا أئها الدعيب<sup>(٢)</sup> وحاولت بجهدي أن أكتب أو أقرأ فلم أتحرّك لشيء من ذلك، وكانت الساعة العاشرة ليلًا، فصلّيْت وأوتيت إلى مضجعي.

ثم أصبحت يوم السبت، فإذا كتّاب من الأستاذ صاحب (الرسالة): أنه سيطبع عددين معاً فيزيد لهما مقالتين، إذ تغلق المطبعة في أيام عيد الأضحى. وكان أملّي في المقالة الواحدة مخدولاً مما قاسيت، فكيف لي باشترين؟ وأختلط في نفسي همّ بهم، وما يفسد على أمري شيء مثل الصيق، فإذا تضايقْت كنت غير من كنت؛ ولكنني تيقظت وتنبهت وأتملت العافية بما أحده من ثقلة البرد وضيقته، وأحدثت طمعاً في الشاطئ إذا جلست للكتابة في الليل، فإني بالنهار أعمل المحكمة.

فلما كان الليل لم أحذ أمري على ما أحبت، وجلست متضرراً مغتلاً، ونقل رأسي من ضرورة النافذة، وتسلط على ظنّ المرض والعجز عن الكتابة، وانتقض الأمر كلُّه فرأيْشى أشوّ على نفسي بلا طائل، فكان من صواب التدبير عندي أن

(١) جلفاً: قاسياً فظاً.

(٢) الدعيب والمداعب والدعابة، بالتشديد، كلها بمعنى واحد.

أستجِم بالنوم ثمْ أنهض في السَّحْر لِلكتابة؛ فـأوصيَتْ من يُوقظني؛ وحرَّرنا أَلْسَاعَةَ المُنبَهَةَ عَلَى تَمَامِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ مَتَصِفِ الْلَّيلِ.

وأحسِنْتُ أَنِي جائع، وآنَ معدتي مَشْحُوذَة<sup>(١)</sup>، ونسِنْتُ كُلَّ مَا أَعْرَفُ مِنْ الْطَّبِ؛ وجاءَونِي بشَوَاءٍ وَخَلْوَى وَمَا بَيْنَهُما، فـحَفَطَتُ فِيهِ وَلَفَقْتُ الْآخَرَ بِالْأَوَّلِ، ثُمَّ قَمَتْ أَرِيدُ النَّوْمَ، فـإِذَا الْطَّعَامُ كَانَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نَافِذَةِ الْقِطَارِ، وَكَانَ الَّذِي فِي الْفَكِيرِ مِنَ الْمَقَالَةِ أَثْقَلَ مِنَ الَّذِي فِي الْمَعْدَةِ مِنَ الْطَّعَامِ، وَسَاءَ الْهَضْمُ فِي الدِّمَاغِ وَالْبَطْنِ جَمِيعاً!

وَجَعَلْتُ أَنْتَاومُ وَأَرْخِي أَعْضَائِي وَأَتَوَهَّمُ الْكَرِي<sup>(٢)</sup> وَأَسْتَدِنِيهِ بِكُلِّ مَا أَعْرَفُ مِنْ وَسِيلَةِ، ثُمَّ لَا أَزْدَادُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا أَرْقاً، وَتَمَرَّدَ الْفَكِيرُ، وَأَحْسَنْتُ رَأْسِي يَكَادُ يَنْفَجِرُ، وَصِرْتُ أَتَمَلَّمُ وَلَا أَتَقَارُ، وَتَوَهَّمْتُ أَنَّ لَوْ كَانَ لِي عَقْلَانِ مَا أَسْتَطَعْتُ كِتَابَةَ الْمَقَالَةِ عَنْ إِبْلِيسِ - لَعْنَةُ اللهِ -؛ وَأَذْكَرْنِي الْخَبِيثُ نَادِرَةً مَضْحِكَةً: أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَرْكَبُ حَمَاراً ضَعِيفاً، وَكَانَ يَبْعُثُ فَلا يَنْبَعِثُ، فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ، فَقِيلَ لَهُ: أَرْفَقْ بِهِ.

فَقَالَ إِذَا لَمْ يَقْدِرْ يَمْشِي فَلَمْ صَارَ حَمَاراً...؟

\* \* \*

وَقَدْفَتُ بِنَفْسِي مِنَ الْفَرَاشِ وَنَظَرْتُ فِي أَلْسَاعَةِ، فـإِذَا هِي مُوشَكَّةَ أَنْ تَبْلُغَ الثَّانِيَةَ وَلَمْ أُحِسَّ الْرِّقَادَ بَعْدَ، فَأَسْرَعْتُ إِلَى الْمُنبَهَةِ وَحَرَرْتُهَا عَلَى تَمَامِ أَلْسَاعَةِ الْرَّابِعَةِ صَبَاحاً، وَأَيْقَنْتُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يُرْهَقُنِي طُغْيَانًا وَكَيْدًا، فَطَفَقْتُ أَلْعَنَةً، وَمَا أَحْسَبْهُ إِلَّا قَدْ رَأَى اللَّعْنَ مَدْحَأً فَهُوَ يَسْتَزِيدُنِي... .

ثُمَّ رَجَعْتُ أَحَادِيلَ النَّوْمِ، فَمَا كَانَ هَذَا الْلَّيلُ إِلَّا شَيْئاً وَاحِدَا أُولَئِكُهُ آخِرَهُ إِلَى أَنَّ طَلَعَ الْفَجْرِ.

وَجَاءَ يَوْمُ الْأَحَدِ وَهُوَ يَوْمُ عُطْلَةِ الْأُورَبَيْنِ، فَمَا أَشَدَّ عَجَبِي إِذْ تَرَكَنِي فِيهِ إِبْلِيسُ كَائِنِهِمْ لَا يَدْعُونَ لَهُ وَقْتاً فِي هَذَا الْيَوْمِ... .

وَالآنَ يُزِينُ لِي الْخَبِيثُ أَنْ أَخْتَمَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ ب.....ب.....ولَكِنْ لَا.

لَا.

(٢) الْكَرِي: النَّعَاسُ وَالنَّوْمُ.

(١) مَشْحُوذَة: خَاوِيَة.

## الشيطان . . .

قال الشيخ أبو الحسن بن الدّقّاقِ: كانَ شيخي أبو عبد الله محمد الأزهري العجمي (رضي الله عنه) رجلاً صاحب آياتٍ وحوارِقَ مِمَّا فوقَ العقلِ، كأنَّما هو سيرٌ منَ الأسرارِ الْجارية في هذا الكون، قد بلغَ بِنفسيه رتبةَ الشِّجَم في أفقِهِ ولألائِهِ مِن إِشراقٍ روحيٍّ وصفائِها؛ وقد ارتفعَ بِآدميَّته فوقَ نفسيها؛ فأصبحَ في الناسِ ومعه سماوَهُ، يجعلُها بينَ قلْبِهِ وبينَ الدُّنيا.

وَالرَّجُلُ إِذَا بلَغَ هذَا المَبْلَغَ كَانَ حَيَا كَالْعِيْتِ سَاعَةً أَحْتَضَارِهِ: يُنْظَرُ إِلَى كُلِّ مَا فِي الْحَيَاةِ نَظَرَةً مَنْ يَتَرَكُ لَا مَنْ يَأْخُذُ، وَمَنْ يَعْتَبِرُ لَا مَنْ يَغْتَرُ، وَمَنْ يَلْفِظُ لَا مَنْ يَنْذُوقُ، وَمَنْ يُدْرِكُ الْأَسْرَرُ لَا مَنْ يَتَعَلَّقُ بِالظَّاهِرِ؛ وَيَرَى الشَّهَوَاتِ كَانَهَا مِنْ لُغَةِ لَا يَعْرِفُهَا، فَهِيَ الْفَاظُ فِيهَا مَعْانِي أَهْلِهَا لَا مَعْانِيهِ، وَإِنَّمَا تُلْبِسُ كُلَّ مَا تُنْهَا مَعَانِيهَا مِنْ أَنفُسِنَا. وَفِي الْأَنْفُسِ مثْلُ الْهَشَيمِ<sup>(١)</sup>: إِذَا وَقَعْتُ فِيهِ الْمَعْانِي الْمُشْتَلَعَةُ أَسْطَارَ حَرِيقَأَ وَتَسْرَمَ، وَفِيهَا عَلَى الْمَجَاهِدَةِ مثْلُ الْأَمَاءِ؛ فَإِذَا خَالَطَتْهُ تَلْكُ الْمَعْانِي أَنْطَفَاثُ بَهْ وَخَمْدَثُ.

وقد سألتُ الشَّيخَ مَرَةً: كَيْفَ تَحدُثُ الْكَرَامَاتُ وَالْحَوَارِقُ لِلإِنْسَانِ؟ فَقَالَ: يَا وَلَدِي إِنَّ إِنْسَانَ مِنَ النَّاسِ الْمَحْجُوبِينَ يَتَصَرَّفُ فِي جَسْمِهِ وَلَا يَكَادُ يَمْلِكُ لِرُوحَانِيَّتِهِ شَيْئًا، إِذَا أَبْلَى فِي الْمَجَاهِدَةِ وَوَقَعَ فِي قَلْبِهِ النُّورُ، تَصَرَّفَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ وَلَا يَكَادُ يَمْلِكُ لِجَسْمِهِ شَيْئًا، فَمَنْ أَطَاقَ أَنْ يَنْسَلِخَ مِنْ بَشَرِيَّتِهِ، وَأَتَسَعَتْ ذَائِنَهُ فِي مَعْانِي السَّمَاءِ بِمَقْدَارِ مَا ضَاقَتْ مِنْ مَعْانِي الْأَرْضِ، وَكَانَ مُعَدًا لِأَنْ يَتَحَقَّقَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ، مَعَانِي عَلَى ذَلِكَ بِطِبِيعَةِ فَوْقَ الْأَعْتَدَالِ - فَقَدْ شَاعَ فِي الْكُونِ، وَأَصَابَ لَهُ وَجْهًا وَمَذْهَبًا إِلَى تَلْكُ الْقُوَّةِ الَّتِي تَهَدِّمُ فِي الْعَالَمِ وَتَبْنِي، وَتُنْرُقُ وَتَجْمِعُ، وَتَنْقُلُ الصُّورَ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ؛ فَإِنَّ الْكُونَ كُلُّهُ جَوَهْرٌ وَاحِدٌ هُوَ النُّورُ، حَتَّى الْجَبَلُ هُو نُورٌ صَخْرِيٌّ، وَحَتَّى الْبَحْرُ هُو نُورٌ مَائِيٌّ، وَحَتَّى الْحَدِيدُ وَالْذَّهَبُ وَالْتَّرَابُ، كُلُّ

(١) الْهَشَيمُ: الْحَشِيشُ الْجَافُ.

ذلك نور صرفة القدرة الإلهية تصرفها المعجز، فكان، على ما نرى: ظاهراً مخيلاً يلائم نقصنا وعجزنا، وحقيقة قارئ على غير مانع. ومن ذا يعقل أن الصخر نور متجمد إذا لم يكن له إلا عقل عينه وحواسه؟ ومن ذا يعطي أن يفهم بحواسه وعيشه قول الله - تعالى -: «وَرَى لِجْلَالَ تَحْسِبَهَا جَاءَتْهُ وَهِيَ كَثُرَ مِنَ السَّحَابِ صَنْعُ اللَّهِ الَّذِي أَنْقَنَ لَهُ شَيْءًا»؟ فالجبال جاملة ثابتة، غير أنها تصر بارضها وتندفع في نفسها؛ ومتي تاذن الله أن ينكشف نور كلامه للعقل الإنساني، فستكون هذه الآية علماً جديداً في الأرض، يبيت أن السحاب والجبيل مادة واحدة وصنع واحد.

ويا لها سخريّة بالإنسان وجهله! فإذا كانت الحقيقة غير مانع، فكل شيء في الدنيا هو رؤى على النظر الإنساني، وبكاد الجبل العظيم يكون كلمة عظيمة يقول للإنسان: «كذبت!»

فالشاذ في الخوارق والكرامات راجع إلى القدرة أن يسلط الإنسان الروحاني ما فيه من سر النور على ما في بعض الأشياء من هذا السر، وتلك هي طاعة بعض الكوادر ليس يصرف عن المائدة وتصل بحالتها.

فإذا بقي في أرجل الروحاني شيء من أمر جسمه يقول: «أنا...». ثم يكن في أرجل من تلك القدرة ذرة، فإن هو حاول أن يخرج في العادة، ألى الكون إلا يعرّف إلا كما يعرف حجرٌ ملقم يحازل أن يصرف بالجبل الذي هو منه فينقله أو يحرجه أو يزيله.

ولا خير على الأرض مطلقاً إلا وهو أحد من حقوق هذه الـ «أنا...» في إنسانيها، ولا شر على الأرض مطلقاً إلا وهو إضافة حقوق إليها. فحين لا ي gritty لها حق في شيء عند نفيها، يجب لها الحق حتى على كل شيء. وهذه هي الكرامة: تحريم الخطيئة من أكرم المخلوق.

فمن أراد أن تصل نفسه بالله، فلا يمكن في نفسه شيء من حظ نفسه، ولا يؤمن إيمان هزلاء العامة: يكون إيمانهم بالله مكرة تذكر وتشتت، أمّا عملهم فهو يمسائهم الراسخ بالجسم وشهواته يذكر ولا ينسى.

وأنت ترى رجال الروح يأكلون ويشربون ويجلسون، ولكن هذا كله ليس فيه ذرة من أرواحهم، على حلف غيرهم من الناس، فهو لاؤ كل أرواحهم في مطاعهم؛ ومن ثم لا يجري الشيطان من الأولين إلا في مهاجر ضيق أشد الضيق لا

يكاد ينفُّد منها إلى فكر أو شهوة أو حلم من أحلام الدنيا، أما الآخرون فالشيطان فيهم هو تيار الدم، يعبّ عباه في الأسفل والأعلى.

\* \* \*

قال أبو الحسن: وكأنا يومئذ في دمشق، فنبهني كلامُ الشَّيخِ عن الشَّيطانِ إلى ما قرأتُ عن كثيرينٍ ممَّن رأوا الشَّيطانَ أو حاوزوهُ أو صارعوه؛ فقلتُ للشَّيخِ: إنَّ من حُقُّكَ علَيَّ أَنْ أَسألكَ حُقُّي عَلَيْكَ، وما في نفسي أَحَبُّ إِلَيْيَّ ولا أَعجَّبُ مِنْ أَنْ أَرَى الشَّيطانَ وَأَكْلَمُهُ وَأَسْمَعُهُ؛ وَأَنْتَ قَادِرٌ أَنْ تَقْلِنِي إِلَيْهِ كَمَا نَقْلَنِي إِلَى مَا دَخَلْتُ بِي عَلَيْهِ مِنْ عَوَالِمَ الْغَيْبِ.

قال الشَّيخُ: وماذا يرُدُّ عَلَيْكَ أَنْ تَرَى الشَّيطانَ وَتَكْلِمُهُ؟

قلتُ: سُبْحَانَ اللهِ لَا يُجْدِي عَلَيَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ أَسْخَرَ مِنْهُ.

قال الشَّيخُ: فَإِنِّي أَخْشَى يَا ولدي، أَنْ يَكُونَ الشَّيطانُ هُنَّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ تَرَاهُ وَتَسْمَعَهُ . . .

قلتُ: فَأَرِيدُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْ سُرُورِهِ، يَكُونُ عَلَيْهِ لَا سُخْرَيَّةً.

قال: لَوْ كَشَفْتَ لَكَ عَنْ سُرُورِهِ لَمَّا كَانَ شَيْطَانًا، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ بِسُرُورٍ لَا سُخْرَيَّةً .

قلتُ: فَأَرِيدُ أَنْ أَرَى الشَّيطانَ لِأَكُونَ قَدْ رَأَيْتُ الشَّيطَانَ!

قال الشَّيخُ: لَا حُولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ لَوْ كُنْتَ يَا أبا الحسن بِأَرْبِعِ أَرْجُلٍ أَهْبَرْتَ مِنْ أَشْيَاطِنَ ثَلَاثَتَ سَهَّا وَتَرَكْتَهُ بِحُرُوكَ مِنْ وَاحِدَةٍ!

قلتُ: يَا سَيِّدِي، فَلَوْ كُنْتَ حَمَارًا لَيُطْلَعَ عَمَلُ الشَّيطَانِ فِي أَرْجُلِي الْأَرْبِعِ كَلَّهَا، إِذَا لَا حاجَةٌ يَهُ إِلَى إِغْوَاءِ حَمَارًا

فَتَسْمِيَ الشَّيخُ وَقَالَ: وَلَا بُدَّ أَنْ تَرَى الشَّيطَانَ وَتَكْلِمُهُ؟

قلتُ: لَا بُدَّ.

قال: إِنَّهُ هُوَ يَقُولُهَا، فَقُلْ:

\* \* \*

قال أبو الحسن: وكانَ الشَّيخُ إِذَا مَشَ إِلَى أَسْرِ خَارِقٍ بَقِيَتْ مَعَهُ خَائِيَّاً عَنِ الْحَسَنِ، كَائِنَةً يَتَطَلَّبُ مَنْ مَنَّا بِهِ أَنْ، فَتَصِيرُ ظَلَّاً آمِيَّاً مَعْلَمَّاً بِهِ، وَلَا تَقْعُدُ الْخَارِقُ إِلَّا لَمَّا وَجَدَ الْقُوَّةَ الْمُكَمَّلَةَ لِرُوحِهِ، وَمَدِّهُ الْقُوَّةَ تَسْتَمَدُ مِنَ الشَّيخِ الْوَاصِلِ، فَلَا بُدَّ

من إمام، كأنها سلسلة نفسية متميزة في الأرض، فتتغير الظاهرة منها بالواحدة، إذ تقع في جوها فتُورق وتشمر؛ كالشجرة: جو يكسوها، وجو يُذبلها، وجو يسلبها سلباً، وكذلك تفعل النفس إذا كان لها جو.

وخرجنا من دمشق وأنا خلف الشيخ كالمحمول، فرأينا وقد أشرفنا على بناء عظيم، ورأيت أقواما يتلقون الشيخ ويسلمون عليه ويتبركون بمقديمه؟ فأنكرتهم نفسياً ووجدت منهم وحشة، فالتفت إلى الشيخ وقال: هؤلاء من الجن، وما إليهم قد صدنا، فلا تشغلي بما ترى وأشتغل بي.

ثم ننتهي إلى البناء العظيم، فتستقبلنا طائفة أخرى، ويدخلون الشيخ وأنا خلفه، ويمررون بنا على دنيا مخبوءة تعجز الوصف، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت؛ فيقولون: هذه كنوز سليمان وذخائره، ويطوفون بالشيخ يعرضونها عليه كنزاً كنزاً فرأينا ثم<sup>(١)</sup> نعيمًا وملكاً كبيراً، ثم انتهينا آخرًا إلى مغاربة خسيفة كأنها عرق من عروق جسم الأرض، يتفرج منها دوي كالرعد القاصف، إلا أنه في السمع كخوار الشور، إلا أنه ثور خيل إلى أن رأسه في قدر جبل عظيم، يعلق به غبَّغَب<sup>(٢)</sup> في قدر جبل آخر، على جسم يسُدُّ الخافقين، فخواره كانه صراخ الأرض، وإذا أنا بأقبع مكاناً منظراً، وأنتبه ريحًا، كأنه سجن بناؤه من الجيف.

قلت: ما هذا؟ قالوا: هذا سجن إيليس، وهو هنا في هذه المغاربة منذ زمن سليمان - عليه السلام - .

قلت: ألمَسْجُون هو؟

قالوا: وإنَّه مع ذلك مُوقَرٌ بِأمثالِ الجبالِ حديداً يَرِبِّضُ به في مَخْبِسِهِ، فلا يترَحَّدُ ولا يَتَحَلَّلُ.

قلت: وإنَّه مع ذلك قد ملاَّ الدنيا فساداً، فكيف به لو كان طليقاً؟

قالوا: فلو أنَّه كان طليقاً لاستحوذ<sup>(٣)</sup> على الناس كافَّةً؛ فيجتمع أهل الأرض على شهوة واحدة لا شيء غيرها، فيبطل مع هذه الشهوة الظاهرة كلُّ تدبير بينهم، فلا تقوم لهم سياسة، ولا يكون بينهم وازع<sup>(٤)</sup>؛ فيرجعون كالكلاب أصابها الكلب

(١) ثم بفتح الثاء ظرف مكان بمعنى هناك.

(٢) غبَّغَب الشور وغبيه هو ما تمنى من لحم ذقنه من أسفل.

(٣) استحوذ: استمال.

(٤) وازع: رادع.

وهاجَ بها، فأنجَبُها في لحمها، لا يزالُ يَعْضُ بعضاً، فليسَ لجميعها إِلَّا عملٌ واحدٌ يُسْلِمُها إلى الْهلاكِ، ويُصْبِحُ ظهُرُ الأَرْضِ أَغْرِيَ من سَرَّةِ أَدِيمِ.

وإِنَّمَا يَصْلُحُ النَّاسُ بِأَخْتِلَافِ شَهْوَاتِهِمْ وَتَنَافِرِهَا وَتَنَازُعِهَا: فَيَعْضُبُهَا يَحْكُمُ بعضاً، وَشَيْءٌ مِّنْهَا يَنْزَعُ شَيئاً، وَمِنْ تَخْلُصِهِمْ مِّنْ نَزْوَةِ قَمَعٍ بِهَا نَزْوَةٌ أُخْرَى؛ كَالْمُتَرْزُوجُ الْمُخْصَنُ: يَحْكُمُ بِالْجَلْدِ وَالْرَّجْمِ عَلَى مَنْ لَيْسَ لَهُ أَمْرًا فَزَنا؛ وَكَالْغُنْيَ الْوَاجِدُ يَحْكُمُ عَلَى الْلَّصِنِ الَّذِي لَمْ يَجِدْ فَسْرَقَ، وَهَلَمْ جَرَا.

وَمَا يَنْشَأُ النَّاسُ فِي ثَلَاثَةِ أَعْمَارٍ، فَيَسْبُونَ وَيَكْتَهِلُونَ وَيَهْرُمُونَ، إِلَّا لِتَخْتَلِفَ شَهْوَاتِهِمْ وَتَخْتَلِفَ مَقَادِيرُ الرَّغْبَةِ فِيهَا، فَتَتَحَقَّقُ مِنْ ثَمَّ تَلْكَ الْحُكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ فِي الْتَّدْبِيرِ وَيَجِدُ الشَّرْعُ مَحْلَهُ بَيْنَهُمْ، كَمَا يَجِدُ الْعَصِيَانُ بَيْنَهُمْ مَحْلَهُ.

وَلَوْ أَنَّ أَمَّةً كُلُّهَا أَطْفَالٌ أَوْ كُهُولٌ أَوْ شَيْوخٌ، لَبَادَتْ<sup>(۱)</sup> فِي جَيلٍ وَاحِدٍ؛ وَإِنَّهُ لَيَسْ أَسْمَحُ مِنَ الْأَرْذِيلَةِ تَكُونُ وَحْدَهَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا الْفَضْيَلَةُ تَكُونُ وَحْدَهَا، فَلَا بدَّ مِنْ شَيْءٍ يَظْهُرُ بِهِ شَيْءٌ غَيْرُهُ كَالْضَّيْدِ وَالْقَضْدِ؛ وَالْمَعْرَكَةُ إِذَا انتَصَرَ كُلُّ مَنْ فِيهَا كَائِنٌ هَزْلًا وَكَانَتْ شَيئاً غَيْرَ الْمَعْرَكَةِ.

قالَ أَبُو الْحَسْنِ: وَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّمَا كَانَ الشَّيْطَانُ سَجِيناً قَدْ رَبَضْتُ بِهِ أَثْقَالُهُ، حَتَّى لَهُوَ فِي سَجْنٍ مِّنْ سَجْنِ مَبَالَعَةٍ فِي كَفَهِ وَالْتَّضِيقِ عَلَيْهِ - فَكَيْفَ يَقْتَنِي النَّاسُ فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ وَيُوْسُوسُ فِي قُلُوبِهِمْ، حَتَّى لَهُوَ يَدْبُّ بَيْنَ كُلِّ يَدَيْنِ، وَحَتَّى لَهُوَ الْعَيْنُ الْثَّالِثُ لَعِينِي كُلُّ إِنْسَانٍ؟

قالُوا: إِنَّ فِي رُوحِهِ النَّارِيَّةِ قُوَّةٌ تَفْصِلُ مِنْهَا وَتَنْتَشِرُ فِي الْأَرْضِ، كَشْعَاعُ الشَّمْسِ مِنَ الشَّمْسِ: هَذِهِ كُرْكَةُ نَارِيَّةٍ مِيَّتَةٍ مَعْلَقَةٌ عَلَى الْأَجْسَامِ مُرْصَدَةٌ لَهَا، وَتَلِكَ كُرْكَةُ نَارِيَّةٍ حَيَّةٌ مَعْلَقَةٌ عَلَى الْفُنُوسِ مُرْصَدَةٌ لَهَا، وَبِهَذِهِ وَتَلِكَ عَمَارُ الدُّنْيَا وَأَهْلُ الدُّنْيَا.

قُلْتُ: لَعَلَّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَقُولُوا: خَرَابُ الدُّنْيَا وَأَهْلُ الدُّنْيَا. فَعَلِطْتُمْ، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَجِيءَ بَدْلُ الغَلْطِ . . .

فَقَالَ أَحَدُهُمْ: يَا أَبَا الْحَسْنِ، حَرَقَ الْثُوبُ الْمَسْمَارِ. جَازَ هُنَا لِأَمْنِ الْلَّبَسِ أَنْ يَكُونَ الْمَفْعُولُ بِهِ - وَهُوَ الْثُوبُ - مَرْفُوعاً وَفَاعِلُهُ - وَهُوَ الْمَسْمَارُ - مَنْصُوباً، هُلْ جَيْشٌ - وَيَحْكُمُ - تَطْلُبُ النَّحْوَ أَوْ تَطْلُبُ الشَّيْطَانَ . . .؟

(۱) بَادَتْ: فَيَبْيَسْتُ.

قال أبو الحسن: فقطعني الجنـيـ - والله - وأخجلـيـ، ونظرت خلسة إلى الشـيخـ أراهـ كـيفـ يـسـخـرـ مـنـيـ، فإذا الشـيخـ وقد أـمـلسـ فلا أـرـاءـ، وإذا أنا وـحدـيـ بينـ الجنـ وـبـإـزـاءـ هذا السـاخـرـ وـضـعـثـ عـيـنـهـ في جـهـتـهـ وـشـقـ فـمـهـ في قـفـاهـ..! فـسـرـيـ عنـيـ وزـالـ ما أـجـدـهـ، وـقـلـتـ في نـفـسيـ: الآـنـ أـبـلـغـ أـرـبـيـ<sup>(١)</sup> مـنـ الشـيـطـانـ ويـكـونـ الـأـمـرـ عـلـىـ ما أـرـيدـ، فـلاـ أـجـدـ مـنـ أـحـشـمـ ولاـ تـقـطـعـنـيـ هـيـةـ الشـيـخـ..!

وـوـقـعـ هـذـاـ الخـاطـرـ فـيـ نـفـسـيـ، فـأـسـعـدـتـ بـالـلـهـ وـلـعـنـتـ الشـيـطـانـ وـقـلـتـ: هـذـاـ أـولـ عـبـيـهـ بـيـ وـجـعـلـهـ إـيـابـيـ مـنـ أـهـلـ الـرـيـاءـ، كـأـنـ لـيـ شـائـنـاـ فـيـ حـضـورـ الشـيـخـ وـشـائـنـاـ فـيـ غـيـابـهـ، وـكـأـنـيـ مـنـافـقـ أـعـلـنـ غـيرـ مـاـ أـسـرـ، وـقـلـتـ: إـنـاـ لـلـهـ! كـذـتـ يـاـ أـبـاـ الـحـسـنـ تـسـيـطـنـ! ثـمـ هـمـمـتـ أـنـ أـنـكـصـ<sup>(٢)</sup> عـلـىـ عـقـبـيـ، فـقـدـ أـيـقـنـتـ أـنـ الشـيـخـ إـنـماـ تـخـلـىـ عـنـيـ لـأـكـوـنـ هـنـاـ بـنـفـسـيـ لـأـبـهـ، وـمـاـ أـنـاـ هـنـاـ إـلـاـ بـهـ لـأـبـنـفـسـيـ، فـيـوـشـكـ إـذـاـ بـقـيـتـ فـيـ مـوـضـعـيـ أـنـ أـهـلـكـ! بـيـنـدـ أـنـ الـمـغـارـةـ أـنـكـشـفـتـ لـيـ فـجـأـةـ فـمـاـ مـلـكـتـ أـنـ أـنـظـرـ؛ وـنـظـرـتـ فـمـاـ مـلـكـتـ أـنـ أـقـفـ، وـوـقـفـتـ أـرـىـ، إـذـاـ دـخـانـ قـدـ هـاجـ فـأـرـتفـعـ يـثـوـرـ ثـوـرـانـهـ حـتـىـ تـمـلـأـ الـمـكـانـ بـهـ، ثـمـ رـقـ وـلـطفـ.

وـأـسـتـضـرـمـتـ<sup>(٣)</sup> مـنـ نـارـ عـظـيمـةـ لـهـ وـهـجـانـ شـدـيدـ يـتـضـرـمـ بـعـضـهاـ فـيـ بـعـضـ، وـيـسـمـعـ مـنـ صـوـتـهاـ مـعـمـعـةـ<sup>(٤)</sup> قـوـةـ، ثـمـ حـمـدـتـ.

وـأـنـفـجـرـ فـيـ مـوـضـعـهاـ كـالـسـدـ الـمـثـيقـ مـنـ مـاءـ كـثـيـفـ أـبـيـضـ أـصـفـرـ أحـمـرـ، كـأـنـهـ صـدـيدـ<sup>(٥)</sup> يـتـقـيـحـ فـيـ دـمـ، ثـمـ غـاضـ.

وـتـبـيـعـتـ فـيـ مـكـانـهـ حـمـاءـ مـتـبـتـهـ جـعـلـتـ تـرـبـوـ وـتـعـظـمـ حـتـىـ حـفـتـ أـنـ تـبـلـغـنـيـ وـأـذـهـبـ فـيـهـ، فـسـمـيـتـ اللـهـ - تـعـالـىـ - فـغـارـثـ فـيـ الـأـرـضـ.

ثـمـ نـظـرـتـ إـذـاـ كـلـبـ أـسـوـدـ مـخـمـرـ الـحـمـالـيـقـ، هـاـئـلـ الـخـلـقـةـ مـسـتـأـسـدـ<sup>(٦)</sup>، قـدـ وـقـفـ عـلـىـ جـيـفـ قـدـرـةـ غـابـ فـيـهـ حـظـمـهـ يـعـبـ مـمـاـ تـسـيلـ بـهـ.

فـقـلـتـ: أـيـهـاـ الـكـلـبـ، أـنـتـ الشـيـطـانـ؟

وـأـنـظـرـ إـذـاـ هوـ مـسـخـ شـائـهـ كـأـنـهـ إـنـسـانـ فـيـ بـهـيـمـةـ قـدـ أـمـتـزـجـاـ وـطـعـنـ مـنـهـمـاـ شـيـءـ عـلـىـ شـيـءـ، وـأـمـاـ وـجـهـهـ فـاقـبـحـ شـيـءـ مـنـظـراـ، تـخـسـبـ قـدـ لـيـسـ صـورـةـ أـعـمالـهـ..

(٤) مـعـمـعـةـ: مـعـرـكـةـ.

(١) أـرـبـيـ: غـايـيـ.

(٥) صـدـيدـ: قـيـحـ الـجـوـاحـ.

(٢) أـنـكـصـ: أـتـوـاجـعـ.

(٦) مـسـتـأـسـدـ: يـتـخـلـقـ بـأـخـلـاقـ الـأـسـوـدـ.

(٣) اـسـتـضـرـمـتـ: اـشـتـعـلـتـ.

ونطق فقال : أنا الشيطان !

قلت : فما تلك الجِيفَة ؟

قال : تلك دنياكم في شهواتها ، وأنا أنتقمُ قلب الفاسقِ أو ألاّثمِ منكم ، كما أنتقم دودةً من هذه الجِيفَة .

قلت : عليك لعنة الله وعلى الفاسقين والأثمين ، فكيف كنت دخاناً ، ثم أنقليت ناراً ، ثم رجعت قيحاً ، ثم صررت حماء<sup>(١)</sup> ، ثم كنت كلباً على جِيفَة ؟

قال : لا تلعن الفاسقين والأثمين ! فإنهم عباد الصالحون بأحد المعنين ، وأنت وأمثالك عباد صالحون بالمعنى الآخر ، أليس في الدنيا حياة وواقحة ؟ فأولئك يا أبا الحسن هم وقاحتني أنا على الله ! أنا منكم في زهدكم حِرمانُ الحرمان ، وفقرُ الفقر ، ولقد أهلكتموني بؤساً ، غير أنني معهم لذة اللذة ، وشهوة الشهوة ، وغنى الغنى ، لاتتم لذة في الأرض ، ولا تحلو لذائقها وإن كانت حلالاً ، إلا إذا وضعت أنا فيها معنى من معاني أو وقاحة من وقاحتني ! حتى لأجعلُ الزوجة لزوجها مثل الشعر البليغ إذا استعار لها معنى مبني ، وكل ما فسّدت به المرأة فهو مجازي وأستعارتي لها أجعلُها به بليغة . . .

وأنت يا أبا الحسن تقطعون حياتكم كلها تُجاهدون إثم ساعة واحدة من حياة عبادي ، فأنظر - رحمك الله - لئن كانت ساعة من حياتهم هي جهنّمكم أنت ، فكيف تكون جهنّم هؤلاء المساكين ؟

إنك رأيتني دخاناً لأنني كذلك أنبعث في القلب الإنساني ، فمتى تحركت فيه حركة الشر كنت كالاحتياط لإضرام النار بالتفخ إليها ؛ فمن ثم أكون دخاناً ، فإذا غفل عني صاحب القلب تضررت في قلبه ناراً تطلب ما يطفئها ؛ ثم يُوقع الإثم والمعصية ويقضي نَهْمَتَه<sup>(٢)</sup> فابرد عن قلبه ، فيكون في قلبه مثل الحرق الذي يردد فتأكل موضعه فتقيق ، ثم يختلط قبح أعماله بمادته الترابية الأرضية ، فينقذ هذا المسكين حماء إنسانية لا تزال تربو وتنفتح كما رأيت .

قلت : أعود بالله منك ! أفلأ تعرف شيئاً يرذك عن القلب وأنت دخانٌ بعد ؟ فقهة اللعين وقال : ما أشد غفلتك يا أبا الحسن ، إذ تسأل الشيطان أن يخترع

(١) نَهْمَتَه : جوعته .

(٢) حماء : ناراً .

التوبة! أما لو أن شيئاً يخترغ التوبة في الأرض لاختر عها القبر الذي يدفن فيه بعضكم بعضاً كل طرفة عين من الزمن، فتنزلون فيه الميت المسكين قد انقطع من كل شيء وتركونه لآثامه، وجحاب آثامه، والهلاك الأبدي في آثامه؛ ثم تعودون أنتم لا يقراف هذه الآثام بعينها!

قلت : عليك وعليك أيها اللعين؛ ولكن ألا يتبدّل هذا الدخان إذا ضربتهُ  
الريح أو انطفأ ما تحته!

قال : أوه ! لقد أوجعتني كائناً ضربتني بجبل من نار ، إنّ نبيّكم عرفها ولكنكم أغبياء؛ تأخذون كلام نبيّكم كائناً هو كلام لا عمل ، وكائنة كلام إنسان في وقته لا كلام النبوة للدهر كله وللحياة كله؛ ولهذا غلبت أنا الأنبياء على الناس ، فإنّي أضيع المعانى التي تعمل ، لا الحكمة المتروكة لمن يعمل بها ومن لا يعمل .

أتدرى يا أبا الحسن ، لماذا أعجزني أسلافكم الأولون مثل : عمر وأبي بكر ؟ حتى كان إسلامهم من أكبر مصائبى ، فتركوني زماناً - وأنا الشيطان - أرتات في أني أنا الشيطان . . . .

قلت : لماذا ؟

قال : أراك الآن لم تلعن ، فلست قائلها إلا إذا ترحمت على .

قلت : عليك وعليك من لعنت الله ! قل لماذا ؟

قال : أسائل ويأمر وطفئلي ويشرح ؟ لا بد أن ترحم !

قلت : يرحمنا الله منك ! قل لماذا ؟

قال : وهذه لعنة في لفظة رحمة ؛ لا ، إلا ترحم علي أنا إبليس الرجيم <sup>(١)</sup> !

قلت : فيعني الله عن علّمك ؛ لقد ألمتنيها روح النبي ﷺ : إن النبوة كانت هي بأعمالها وصفاتها تفسيراً للألفاظ على أسمى الوجوه وأكملها ، فكان روح النبي ﷺ لتلك الأرواح كالآم لأبنائها ؛ وقد رأوه لا يغضب لنفسه ولا حظ نفسه ، وذلك لا يستقيم إلا بالقصد في أمر النفس ، وجعل ناحية الإسراف فيها إسرافاً في العمل لسعادة الناس . وكلما أرتد الإنسان لنفسه وحظوظها أرتد إليك - أيها اللعين - وأقبل على شقاء نفسه ، وكلما عمل لسعادة غيره أبتعد عنك - أيها الرجيم - وأقبل

(١) الرجيم : المطرود

على سعادةٍ نفسيٍّ، وترُك الغضبِ وحظوظِ النفس هوَ الصبر؛ وصبرُ الأنبياء والصادقين ليس صبراً على شيءٍ بعينه في الحياة، بل هوَ الصبرُ على حوادثَ الْعمر كلّه، كصبر المسافر إنْ كانَ عزيمَةً مدةً الْطريقِ كلّها، وإنْ لا كانَ فساداً في القوّة ووقعَ به الخدلان.

فهذا الصبرُ المُعتزِمُ المصممُ، الذي يُوطّنُ به الرجلُ نفسه أن يكونَ رجلاً إلى الآخر - هو تعبُّ الدنيا، ولكنهُ هو روحُ الجنة مع الإنسان في الدّنيا. والمؤمنُ أصابرُ رجلٍ مُفلِّحٍ عليهِ بأفعالِ الملائكة التي لا يُفتخِّمها الشيطانُ ولا تفتخها مصائبُ الدنيا؛ ولذلك قالَ النبي ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُنْضِي شَيْطَانَهُ كَمَا يُنْضِي (١) أحَدَكُمْ بِعِيرَةٍ فِي سَفَرِهِ». كأنَّه يقولُ: لو لم يصبرِ المسافرُ دائمًا معتزِمًا مدةً سفرِه كلّها لَمَا أُنْضِي شَيْطَانَهُ.

فصاحَ الشيطان: أَوَهُ، أَوَهُ! ولكنْ قلْ لي يا أبا الحسن: ما صبرُ رجلٍ مؤمنٍ قويٍ الإيمان، قد استطاع بقوّة إيمانه أنْ يُفيقَ من سُكُرِ الْغُنى، فتخلصَ من نزواتِ الشاطئِ الذهبيَّةِ الصغيرةِ التي تسْمُونَها الدّنارِ؟ وقد أرذلهُ على أنْ يكذبَ، فرأى الإيمانَ أنْ يَصُدُّ؛ وجَهَذَتْ بِهِ يغضُّبُ، فرأى الحِكمَةَ أنْ يهْدأ؛ وحاولَتْ منهُ أنْ يطمعَ، فرأى الراحةَ أنْ يرضي؛ وسَوَّلتْ لَهُ أنْ يَخْسُدَ، فرأى الفضيلةَ ألا يُبالي؛ وأخذَ لنفسِه من كُلِّ شيءٍ في الحياةِ بما يثُقُّ أَنَّهُ الإيمانُ والصبرُ والهدوءُ والرضا والقناعة؛ وأحاطَ نفسهُ من هذه الأخلاقِ بالسعادةِ القلبيةِ وأجتنَّ بها؛ وقصَرَ نظرَهُ على الحقيقة؛ ووَجَدَ الجمالَ في نفسهِ الطيبةِ الصافية؛ وأجرى ما يُؤْلِمُهُ وما يَسُرُّهُ مجرىً واحدًا؛ ونظرَ إلى العُمرِ كلهُ كأنَّهُ يومٌ واحدٌ يَرْقُبُ مغربَ شمسِه؛ وأخذَ من إرادته قوَّةً أَنْسَثَهُ ما لمْ تُعطِهُ الدّنيا، فلمْ يَحْفَلْ بِمَا أَعْطَتِ الدّنيا وما مَنَعَتْ؛ وعاشَ على فقرِه بكلِّ ذلكِ كما يعيشُ المؤمنُ في الجنة: هذا في قصرِ من لؤلؤةٍ أو ياقوٍ أو زَبَرْ جَدَةٍ، وذاك في قصرِ من الحِكمَةِ أو مِنَ الإيمانِ أو مِنَ العُقلِ.

قالَ الشيطان: فلَمَّا أَعْجَزَنِي صلاحًا ورضيَّ وصبراً وقناعةً وإيماناً وأحتساباً، وكانَ رجلاً عالماً فقيها - سَوَّلتُ<sup>(٢)</sup> لهُ أنْ يخرجَ إلى المسجدِ ليعظَ الناسَ فينتفعوا بهِ، ويُبصِّرُهمْ بدينِهمْ - ويتكلَّمُ في نصِّ كلامِ اللهِ؛ فَعَدَ المجلسَ ووَعظَ، وأنصروا وبقيَ وحدهُ.

(٢) سَوَّلت: وسوست له.

(١) يُنْضِي: يهزل، يضعف.

فجاءت امرأة تسأله عن بعض ما يحتاج إليه النساء في الدين من أمر طبيعتهن؛ وكانت امرأة جذلة غضة رابية، يهتز أعلاها وأسفلها، وتمشي قصيرة الخطوة مُشائلاً كالمتضايق من حمل أسرار جمالها وأسرار بدنها الجميل؛ فبعض مشيتها يقعّة وبعضها نوم فاتر تُخالطه اليقظة؛ ولا يراها الرجل الفحل التام الفحولة إلا رأى الهمواه نفسه قد أصبح من حولها أثني، مما تغصن به ريحها العطرة عطر زينتها وجسمها.

وكان الواقع قد ترمل من أشهر، وكانت المرأة قد تأيمت<sup>(١)</sup> من سنوات؛ فلما رآها غض طرفه<sup>(٢)</sup> عنها؛ ولكنها سألته بالفاظها العذبة عن أمور هي من أسرار طبيعتها، وسألته عن طبيعتها بالفاظها؛ فسمع منها مثل صوت الببور، ينكسر بعضه على بعض.

وتحديث له وكأنها تحدث فيه: فسمع بأذنه ودمه، ثم كان غض عينه أقوى لرؤيه قلبه وجمع خواطره.

ورأى صوتها يشتئي؛ وعائقته رائحتها العطرية النفاذة؛ وأحاطته بجو كجو الغراش؛ وعادت أنفاسها كأنها وسوسه قبل؛ وصارت زفراتها كالقدْر إذا استجمعت غلينا، وطلعت في خاليه غريانة كما تطلع للسكنى من كأس الخمر حوريه غريانة، لها جسم يبدو من اللين والبضاصة والنعمة كأنه من زبد البحر؟

قال أبو الحسن: وكنت كالنائم، فما شعرت إلا بصوت كصك الحجر بالحجر، لاكتسّر الببور بعضاً على بعض، وسمعت شيخي يقول: أَفَسَقْتَ . . .

(٢) غض طرفه عنها: مال بنظره عنها.

(١) تأيمت: مات عنها زوجها.

## تارِيْخُ يَتَكَلَّمُ . . .

أيعرف القراء أن في الأحلام أحلاماً هي قصص عقلية كاملة الأجزاء محكمة الوضع مُسقّفة التركيب بديعة التأليف، تجعل المرأة حين ينام كأنه أسلم نفسه إلى (شركة من الملائكة)، تسيّح به في عالم عجيب كأنما سحر فتحول إلى قصة؟ إن يكن في القراء من لا يعلم هذا فليعلمه مني؛ فإني كثيراً ما أكتب وأقرأ في النوم؛ وكثيراً ما يُلقي على من بارع الكلام، وكثيراً ما أرى ما لو دوّنته لعد من الخوارق والمعجزات.

وهذه القصة التي أرويها اليوم، كانت المعجزة فيها أني مشيت في التارِيْخ كما أمشي في طريق ممتد؛ فتقدّمت إلى أهل سنة ٣٩٥ للهجرة وما يليها، فعشت معهم وتحجّرت من أخبارِهم، ثم رجعت إلى زمني لأقصى ما رأيته على أهل سنة ١٣٥٣ . . .  
أمشيت أبارحة كالغموم في أحوالٍ ثقيلة على النفس ما تنطلق النفس لها، أولها سوء الهضم؛ ومتى كان البدء من هنا لم تكن الحركة في النفس إلا دائرةً تذهب ما تذهب ثم لا تنتهي إلا في سوء الهضم عينه. فجلست في الثدي الذي أسمّه<sup>(١)</sup> فيه أحياناً، فكان لجوء وزن أحسنته كما يحسن الغاصض في الماء يُثقل الماء عليه؛ ودخلت الكزكزة<sup>(٢)</sup> فلم تكن هواء ودخانًا يتরّوح، بل كانت من يُثقلها كالطعام يدخل على الطعام؛ ونظرت ناحية فأخذت عيني رجلاً فيلي الخلقة<sup>(٣)</sup>، مُطلاً البطن<sup>(٤)</sup> كأنما يُفتح بطيئةً بالألات، يحمل منه مقدار أربعة من بطون البدنات الحوامل كل منها في الشهر التاسع من حملها . . . وكان معه إلى كل هذا البلاء خمس صحّيف يومية أريد قراءتها . . . !

ثم جئت إلى الدار والمعركة حامية في أعصابي؛ وما كان سوء الهضم مثوّمة فيدعا إلى النوم، فدخلت بيت كتبي وأردت كتاباً أني كتبته بيدي، فخرج لي كتاب

(١) نفي الخلقة: ضخها كالفيل.

(٢) أسمّره: أقضى لبالي السمر فيه.

(٤) مُطلاً البطن: منفتح البطن.

(٢) الكزكزة: النargile.

في خرافات الأولين وأساطيرهم وهذياتهم وسوء هضمهم العقلي... كالكلام عن أدونيس وأرطاميس وديونيس وسميراميسي وآيسيس وأثيرغيس... فاستعدت بالله وقلت: حتى الكتب لها في هذه الليلة أعصاب قد نالتها القلة والألم؟

وبات الليل يقطن معي، وبقيت متملماً أتقلب حتى أخذ الصداع في رأسي، فانقلب التعب نوماً، وجاء من النوم تعب آخر، وقدرت إلى عالم الأحلام في قبلي تستقر بي حيث تريده لا حيث أريد:

\* \* \*

ورأيتنى في قوم لا أعرف منهم أحداً قد اجتمعوا جمادير، وسمعت قائلاً منهم يقول: «الساعة يمر مولانا العالى». فقلت لمن يليني: «من يكون مولانا العالى؟» قال: «أو أنت منهم؟» قلت: «مِنْ؟» فألهاه عن جوابي شفوف الناس وأنصاراً لهم إلى رجل أقبل راكباً حماراً أشهب؟ فصاحوا: «القمر القمر<sup>(١)</sup>» ورفع الرجل الذي ينادي صوته يقول: «البركات والعظمات لك يا مولانا العالى!».

قلت: إن الله! لقد وقعت في قوم من الزنادقة، يعارضون «التحيات والصلوات والطيبات لله»؛ ثم مر صاحب الحمار بحذائي، وغمزة الرجل على، فقال: ما بالك لا تقول مثله؟ قلت: أعود بالله من كفر بعد إيمان. فكأنما أراد أن يلطماني فرفع يده، فصخت فيه: كما أنت - ويلك - وإن قبضت عليك، وأسلمتكم للبوليس، وشكوتكم إلى النيابة، ورفعتكم إلى محكمة الجنح<sup>(٢)</sup>!

قال: ماذا أسمع؟ الرجل مجنون فخذوه! وأحاط بي جماعة منهم، ولكته ترجل عن حماره وأخذ بيدي ومشينا، فقلت: من أنت يا هذا؟ قال: أراك من غير هذا البلد؛ أما تعرف المحاكم بأمر الله؟ فأنا هو. قلت: انظر - ويحك - ما تقول. فما أظنك إلا ممزوراً؛ لقد كتبت أمسي كتاباً إلى مجلة (الرسالة) أرّخته ١٣ من ذي الحجة سنة ١٣٥٣ و١٨ من مارس سنة ١٩٣٥، وأرسلت به مقالة «الخروفين»..

قال: ماذا أسمع؟ نحن الآن في سنة ٣٩٥؛ فالرجل مجنون، أولاً فأنت أية الرجل من معجزاتي. لقد جئت بك من التاريخ، فسترى وتكلّم، ثم تعود إلى التاريخ فتكون من معجزاتي، وتقصّ عنّي وتشهد لي...!

قلت: فإني أعرف أعمالك إلى أن قُتلت في سنة ٤١١...!

(٢) الجنح، مفردة جنحة وهي الجريمة.

(١) القمر اسم لذلك الحمار.

قال: أَوْ إِلَهٌ أَنْتَ فَتَخْلُقَ سَتَّ عَشْرَةَ سَنَةً بِحَوَادِثِهَا؟ لَقَدْ كَذَّتْ مِنْ أَفْنِكَ  
وَغَبَاوْتِكَ تُفْسِدُ عَلَيَّ دُعَوَى الْمَعْجَزَةِ!

وهاجَ الصَّدَاعُ فِي رَأْسِيِّ، وَبَلَغَ سُوءَ الْهَضْمِ حَدَّهُ، وَأَشْتَبَكَتْ سِينَاتِ إِيسَيْسَ  
وَأَتُوبِيسَ إِلَيْخَ بَسِينِ إِيلِيَّسَ، وَمَرَثَ بَيْنَ كُلِّ هَذَا حَوَادِثَ الْطَّاغِيَّةِ الْمُعْتَوِّهِ<sup>(١)</sup> الْمَتَجْبَرِ،  
فَرَأْيَتُهُ يَبْتَدَعُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِدَعَا، وَيَخْتَرُ أَحْكَامًا يُكْرِهُ النَّاسَ عَلَى أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا،  
وَيَعَاقِبُهُمْ عَلَى الْخَرْوَجِ مِنْهَا، ثُمَّ يَعُودُ فَيَنْقُضُ أَمْرَهُ، وَيَعَاقِبُ عَلَى الْأَخْذِ بِهِ، كَأَنَّ  
الَّذِي نَقْضَ غَيْرَ الَّذِي أَنْزَمَ، وَكَأَنَّهُ حِينَ يَتَبَلَّدُ فَيُعَجِّزُهُ أَنْ يَخْتَرَ جَدِيدًا - يَجْعَلُ  
أَخْتَرَاعَهُ إِبْطَالَ أَخْتَرَاعِهِ.

وَرَأَيْتُهُ كَائِنًا يَعْتَدُ نَفْسَهُ مُخَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَقْلًا لِعَقْولِهَا، ثُمَّ  
لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَعْلَمَ النَّاسَ وَيَسْتَبَدُ بِهِمْ أَسْتَبَادَ الشَّرِيعَةِ فِي أَمْرِهَا وَنَهْيِهَا، فَكَانَتْ  
أَعْمَالُهُ فِي جُمْلَتَهَا هِيَ نَقْضَ أَعْمَالِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَظَرَّ أَنَّهُ مُسْتَطِيعٌ مُحَوِّلٌ  
ذَلِكَ الْعَصْرِ مِنْ أَذْهَانِ النَّاسِ وَقَتْلَ الْتَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ بِتَارِيخِ قَاتِلِ سَفَاكِ.

وَسَوْلَ<sup>(٢)</sup> لَهُ جُنُونُهُ أَنَّهُ خَلَقَ تَكْذِيبًا لِلنَّبُوَّةِ؛ ثُمَّ أَفْرَطَ عَلَيْهِ الْجَنُونُ فَحَصَّلَ  
فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ خَلَقَ تَكْذِيبًا لِلْأَلْوَهِيَّةِ؛ وَفِي تَكْذِيبِهِ لِلنَّبُوَّةِ وَالْأَلْوَهِيَّةِ يَحْمِلُ الْأُمَّةَ  
بِالْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ عَلَى الْأَتْصِدَقَ إِلَّا بِهِ هُوَ؛ وَفِي سَبِيلِ إِثْبَاتِهِ لِنَفْسِهِ صَنَعَ مَا صَنَعَ،  
فَجَاءَ تَارِيخُهُ لَا يَنْفِي الْوَهِيَّةَ وَلَا نَبُوَّةَ، بَلْ يَنْفِي الْعُقْلَ عَنْ صَاحِبِهِ؛ وَجَاءَ هَذَا  
الْتَّارِيخُ فِي الْإِسْلَامِ لِيَتَكَلَّمَ يَوْمًا فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ . . .

\* \* \*

رَأَيْتُهُ أَصْبَحَتْ كَاتِبًا لِهَذَا الْحَاكِمِ، فَجَعَلَتْ أَشْهُدُ أَعْمَالَهُ وَأَدُونَ تَارِيخَهِ،  
وَأَقْبَلَتْ عَلَى مَا أَفْرَدَنِي بِهِ وَقَلَّتْ فِي نَفْسِي: لَقَدْ وَضَعَنِي الدُّنْيَا مَوْضِعًا عَزِيزًا لِمَ  
يَرْتَفَعُ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ كُتَّابِهِ وَأَدِبِهِ، فَسَأَكْتُبُ عَنْ هَذَا الدَّهْرِ بِعْقَلٍ بَيْنِهِ وَبَيْنِ هَذَا  
الْدَّهْرِ ٩٦٨ سَنَةً صَاعِدَةً فِي الْعِلْمِ .

وَدَوَنْتُ عَشْرَةَ مَجَلَّدَاتٍ ضِخْمَةً أَنْتَهَيْتُ وَأَنَا أَحْفَظُهَا كُلَّهَا، فَإِذَا هِيَ  
جُمْلٌ صَغِيرَة، جَعَلَ الْحَلْمُ كُلَّ نَبْذَةٍ مِنْهَا سِفْرًا ضِخْمًا كَمَا يُخَيِّلُ لِلنَّاسِ أَنَّهُ  
عَاشَ عَمَراً طَوِيلًا وَأَحْدَثَ أَحْدَاثًا مُمْتَدَّةً، عَلَى حِينَ لَا تَكُونُ الرُّؤْيَا إِلَّا  
لَحْظَةً .

(٢) سَوْل: سَوْغٌ وَأَوْحِي لَهُ وَسَمْحٌ.

(١) الْمَعْتَوِّهُ: الْمَخْبُولُ.

وهذه هي المجلدات التي قلت : إن التاريخ يتكلّم بها في التاريخ . . .

## المجلد الأول

ابتلي هذا الطاغية بنيصتين : إحداهما من نفسه ، والأخرى من غيره ؛ فاما التي من نفسه فإني أرأة قد خلق وفي مخه لفافة عصبية من يهودية جده رأس هذه الدعوة ؛ فهو الحاكم بن العزيز بن المعز بن القاسم المهدى عبيد الله ، ويقولون : إن عبيد الله هذا كان ابن امرأة يهودية من حداد يهودي ، فاتفق أن جرى ذكر النساء في مجلس الحسين بن محمد القداح ، فوصفو له تلك المرأة اليهودية ، وأنها آية في الحسن ؛ وكان لها من الحداد ولد ، فتزوجها الرجل وأدب ابنته وعلمه ، ثم عرفة أسرار الدعوة العلوية وعهد إليه بها .

ومن بعض اللفائف العصبية في المخ ما ينحدر بالوارثة مطبوعاً على خيره أو شره ، لا يأدى للمزع فيه ولا حيلة له في دفعه أو الانتفاء منه ، فيكون قدرًا يتسلسل في الخلق ليحدث غاياته المقدورة ، فمتى وقع في مخ إنسان فالدنيا به كالحبلى ولا بد أن تتمحض <sup>(١)</sup> عنه .

هذه اللفافة اليهودية في مخ هذا الطاغية ستحقق به قول الله تعالى : «لَتَجِدَنَ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا أَلِيهِمْ» فهو لن يكون العدو ل الإسلام دون أن يكون الأشد في هذه العداوة ، ولن يكون فيها الأشد حتى يفعل بها الأفاعيل المنكرة . وما أرى هذه المآذن القائمة في الجو إلا تخرق بمنظرها عينة من بغضه ل الإسلام وأنطواه على عدوانيه ؛ فويل لها منه ! .

واما النقيصة الثانية فقد ابتلي بقوم فتنوه بآرائهم ومذهبهم ، وهم حمزة بن علي ، والأخرم ، وفلان ، وفلان . وقد لفقو للدنيا مذهبًا هو صورة عقولهم الطائشة ، لا يجيء إلا للهدم ، ثم لا يضع أول معاوله إلا في قبة السماء ليهدمها . . . ولو أنا جمعت هذا المذهب في كلمة واحدة لقلت : هو حماقة حمقاء تُريد إخراج الله من الوجود لإدخال الله في بعض الطغاة !

ويتلقيون في مذهبهم بهذه الألقاب : العقل ، الإرادة ، الإمام ، قائم الزمان ، علة العلل . . . !

(١) تتمحض عنه : تتبع عنه .

## المجلد الثاني

أظهرَ الطاغيةُ أنَّ اللهَ يُؤيِّدُ بِهِ الإِسْلَامَ، لِيَتَأَلَّفَ الْجَنْدُ وَالشَّعَبُ وَيُسْتَمِيلُهُمْ إِلَيْهِ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ لَثِيمَ الْكَيْنِدُ، دُنْيَ الْجِيلَةِ، يَهُودِيُّ الْمُكْرُرُ؛ فَأَمَرَ بِعِمَارَةِ الْمَدَارِسِ لِلْفَقِهِ وَالْتَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفُتْنَى، وَبَذَلَ فِيهَا أَلْأَمْوَالَ، وَجَعَلَ فِيهَا الْفَقَهَاءَ (وَالْمَشَايخَ)، وَبِالْغَيْرِ فِي إِكْرَامِهِمْ، وَالتَّوْسِعَةِ عَلَيْهِمْ، وَالْتَّخَصِّصِ لَهُمْ، وَدَخَلَ فِي ظَلَالِ الْعَمَائِمِ . . . وَاحْضَرَ لِنَفْسِهِ فَقِيهِينَ مَالِكِيَّيْنَ (اثْنَيْنِ لَا وَاحِدَ) يَعْلَمَانِهِ وَيُفْقَهَانِهِ، وَكَانَ أَشْبَهَ بِمُرِيدٍ مَعَ شِيخِ الْطَّرِيقَةِ يَتَسَعَدُ<sup>(١)</sup> بِهِ وَيَتَمَّنُ<sup>(٢)</sup>؟ أَشْرَفُ أَقْبَابِهِ أَنَّهُ خَادُمُ الْعِمَامَةِ الْحَضْرَاءِ، وَأَسْعَدُ أَوْقَاتِهِ الْيَوْمَ الَّذِي يَقُولُ لَهُ فِي الشِّيخِ: رَأَيْتَكَ فِي الْأَرْوَيَا وَرَأَيْتَ لَكَ . . . !

وَكَانَتْ هَذِهِ الْمُعَالَمَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ هَذَا الطَّاغِيَةِ، هِيَ بِعِينِهَا رِبَا الْلُّفَافَةِ الْيَهُودِيَّةِ فِي مُخْهَهِ؛ تُصْلِحُ بِإِقْرَاضِ مَائِهِ، وَفِيهَا نِيَّةُ الْخَرَابِ بِالسَّتِينَ فِي الْمَائَةِ . . . ! فَإِنَّهُ مَا كَادَ يَتَمَكَّنُ مِنَ النَّاسِ وَيَعْرُفُ إِقْبَالَهُمْ عَلَيْهِ وَيُقْتَلُهُمْ بِهِ، حَتَّى طَلَبَتِ الْلُّفَافَةُ الْيَهُودِيَّةُ رَأْسَ الْمَالِ وَالرِّبَا؛ فَأَمْرَهُمْ بِهَدْمِ تَلْكَ الْمَدَارِسِ وَإِخْرَاهِهَا، وَأَبْطَلَ الْعِيَدَيْنِ وَصَلَاةَ الْجَمَعَةِ، وَقَتَلَ الْفَقَهَاءَ وَقَتَلَ مَعَهُمْ فَقِيهِيَّهُ وَأَسْتَادِيَّهُ، وَعَادَ كَالْمُرِيدِ الْمُنَافِقِ مَعَ شِيخِ الْطَّرِيقَةِ، يَقُولُ فِي نَفْسِهِ: إِنَّ هَنَاكَ ثَلَاثَةَ تَعْمَلُ عَمَلاً وَاحِدَأَ فِي الصَّيْدِ: الْفَخْ، وَالْعِمَامَةُ، وَاللَّحِيَّةِ . . . !

إِنَّ هَذِهِ الطَّاغِيَةَ مَلِكُ حَاكِمٍ، يُسْتَطِيعُ أَنْ يَجْعَلَ حَمَاقَتَهُ شَيْئاً وَاقِعاً، فَيَقْتَلَ عُلَمَاءَ الدِّينِ بِإِهْلَاكِهِمْ، وَيَقْتَلَ مَدَارِسَ الدِّينِ بِإِخْرَاهِهَا، وَلَوْ شَاءَ لَأَسْتَطَاعَ أَنْ يَشْتُقَّ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ كُلَّ ذِي عِيَّامَتِهِ . . . وَيَبْلُغُ مِنْ كُفْرِهِ أَنْ يَتَبَجَّحَ<sup>(٣)</sup> وَيَرِيَ هَذِهِ قُوَّةَ، وَلَا يَعْلَمُ أَنَّهُ لِهُوَنِهِ عَلَى اللَّهِ قَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ كَالذِبَابَةِ الَّتِي تُصِيبُ النَّاسَ بِالْمَرْضِ، وَالْبَعْوَضَةِ الَّتِي تَقْتُلُ بِالْحَمَىِ، وَالْقَمَلَةِ الَّتِي تَضْرِبُ بِالْطَّاعُونِ، فَلَوْ فَخَرَثَ ذِبَابَةُ، أَوْ تَبَجَّحَتْ قَمَلَةُ، أَوْ أَسْتَطَالَتْ بَعْوَضَةُ، لَجَازَ لَهُ أَنْ يَطْنَّ طَنِيَّةَ فِي الْعَالَمِ . . . وَهَلْ فَعَلَ أَكْثَرُ مِمَّا تَفْعَلُ؟

لَقَدْ أَوْدَى بِأَنْاسٍ يَقُولُ إِيمَانُهُمْ عَلَى أَنَّ الْمَوْتَ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ هُوَ الَّذِي يُخْلِدُهُمْ فِي الْحَقِّ، وَأَنَّ انتِزَاعَهُمْ بِالسَّفِيفِ مِنَ الَّذِي يَضْعُفُهُمْ فِي حَقِيقَتِهَا، وَأَنَّ هَذِهِ الرُّوحُ الْإِسْلَامِيَّةُ لَا يَطْمِسُهَا الْطَّغْيَانُ إِلَّا لِيَجْلُوهَا .

(١) يَسَعَدُ: يَجْعَلُهُ سَبِيلَ سَعَادَتِهِ.

(٢) يَتَمَّنُ: يَتَفَاءَلُ.

إِنَّهُ - وَاللَّهُ - مَا قَتَلَ وَلَا شَقَّ وَلَا عَذَّبَ، وَلَكِنَّ الْإِسْلَامَ أَحْتَاجَ فِي عَصْرِهِ هَذَا إِلَى قَوْمٍ يَمْوتُونَ فِي سَبِيلِهِ، وَأَعْزُزُهُ ذَلِكَ الْأَنْوَعُ السَّامِيُّ مِنَ الْمَوْتِ الْأَوَّلِ الَّذِي كَانَ حَيَاةً لِلْفَكِيرِ وَمَادَةً لِلتَّارِيخِ، فَجَاءَتِ الْقَمْلَةُ تَحْمِلُ طَاعُونَهَا..!

لَقَدْ أَحْيَاهُمْ فِي الْتَّارِيخِ، أَمَّا هُمْ فَقَتَلُوهُ فِي الْتَّارِيخِ، وَجَاءُهُمْ بِالرَّحْمَةِ مِنْ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، أَمَّا هُمْ فَجَاءُوهُ بِاللَّعْنَةِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا!

### المجلد الثالث

يُرَى هَذَا الطَّاغِيَّةُ أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ خُرَافَةٌ وَشَغْوَذَةٌ عَنِ النَّفْسِ، وَأَنَّ مُحَوَّلَ الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَظِيمَةَ هُوَ نَفْسُهُ إِيجَادُ أَخْلَاقٍ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ كَانَ جَرِيَّةً حِينَ جَاءَ فَاحْتَلَّ هَذِهِ الدُّنْيَا؛ فَلَا يَطْرُدُهُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا جَرَاءَةُ شَيْطَانٍ كَالَّذِي تَوَقَّعَ عَلَى اللَّهِ حِينَ قَالَ: «فَيَعْرِزُكَ لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ»<sup>(١)</sup>. وَلِهَذَا أَمْرَ النَّاسَ بِسَبِّ الصَّحَابَةِ، وَأَنَّ يُكْتَبَ ذَلِكَ عَلَى حِيطَانِ الْمَسَاجِدِ وَالْمَقَابِرِ وَالشَّوَارِعِ!

أَخْزَاهُ اللَّهُ! أَهِيَ رَوَايَةٌ تَمِيَّلِيَّةٌ يُلْصِقُ الْإِعْلَانَ عَنْهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ؟ لَوْ سَمِعَ لِسَمْعَ الْمَسَاجِدِ وَالْمَقَابِرِ وَالشَّوَارِعَ تَقُولُ: أَخْزَاهُ اللَّهُ...!

### المجلد الرابع

هَذَا الْفَاسِقُ لَا يَرْكِبُ إِلَّا حِمَارًا أَشَهَبَ يُسْمِيهِ: (القمر)، وَقَدْ جَعَلَ نَفْسَهُ مُحْتَسِبًا لِغَيَايَةِ خَبِيثَةٍ؛ فَهُوَ يَدُورُ عَلَى حِمَارِهِ هَذَا فِي الْأَسْوَاقِ وَمَعْهُ عَبْدُ أَسْوَدِ، فَمَنْ وَجَدَهُ قَدْ غَشَّ؛ أَمْرَ أَسْوَدَ فَ...! وَوَقَفَ هُوَ يَنْظُرُ وَيَقُولُ لِلنَّاسِ: اَنْظُرُوا...!

وَمَنْ عَلَيْهِ الْفَسُوقُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى شَيْعَتِهِ أَنَّ دَاعِيَتَهُ (حُمَزَةُ بْنُ عَلَيِّ) نَوَّهَ<sup>(٢)</sup> بِالْحِمَارِ فِي كِتَابِهِ وَأَوْمَأَ إِلَيْهِ بِالثَّنَاءِ، لِخَصَالِ: مِنْهَا أَنَّ...! وَكَتَبَ حُمَزَةُ هَذَا فِي بَعْضِ رَسَائِلِهِ: أَنَّ مَا يَرْتَكِبُهُ أَهْلُ الْفَسَادِ بِجُوارِ الْبَسَاتِينِ الَّتِي يَمْرُّ بِهَا (الْفَاسِقُ) مِنَ الْمُنْكَرِ وَالْفَحْشَاءِ - إِنَّمَا يُرْتَكِبُ فِي طَاعِتِهِ...!

هَذِهِ طَبِيعَةُ كُلِّ حَاكِمٍ فَاسِقٍ مُلْحَدٍ، يُرَى فِي نَفْسِهِ رِذَائِلُهُ عُرِيَانَةً، فَلَا يَكُونُ كَلَامَةً وَعَمَلَةً وَفِكْرَةً إِلَّا فُحْشَأَ يَتَعرَّى؛ وَإِنَّ فِي هَذَا الرَّجُلِ غَرِيَّةً فَسقٌ بِهِيمِيَّةٌ مُتَصَلِّهٌ بَطَوْرٍ<sup>(٢)</sup> الْحَيْوَانِ الْإِنْسانيِّ الْأَوَّلِ؛ فَمَا مِنْ رَيْبٍ أَنَّ فِي جَسْمِهِ خَلِيَّةً عَصَبِيَّةً مُهْتَاجَةً،

(٢) طُور بتسكين الواو: المرحلة.

(١) نَوَّهَ: ذَكَرْ فَضَائِلهِ.

ما زالت تَسْبِحُ بالوارثة في دماء الأحياء، متلتفة على خصائصها، حتى استقرت في أعصاب هذا الفاسق، فانفجرت بكل تلك الخصائص.

ولست أرى أكثر أعماله ترجمة في مردّها إلا إلى طغيان هذه الغريزة فيه؛ فهو يحاول هدم الإسلام، لأنّه دين العفة ودين صون المرأة، يُلزّمها حجاب عفتها وإيابها، ويمنعها الابتداء والخلاعة، ويعينها أن تتخلص ممّن يشتهيها، ولو كان الحاكم... إنّه يمقّت هذا الدين القوي، كما يمقّت اللص القانون؛ فهو دين يُثقل على غريزته الفاسقة، ولكلّ غريزة في الإنسان شعور لامهناً لها إلا أن يكون حراً حتى في التوهم؛ وهل يُعجب السكير شيء أو يُرضيه أو يلده، كما يُعجبه أن يرى الناس كلّهم سكارى؛ فَيَشْتَشِي هو بالآخر، وتُسْكِرُ غريزته بروية السكر؟ وما زال رأي الفساق في كلّ زمن أن الحرية هي حرية الاستمتاع، وأن تقييد اللذة إفساد لذذة.

### المجلد الخامس

يزعم الطاغية أنّه يعزّ قومه، وما أراه يعزّهم، لكنّه يمتحن ذلّهم وضيقهم وهو أنهم على الأمم؛ يتجرّأ شيئاً فشيئاً، مُنتظراً ما يتسلّل، مترقباً ما يمكن؛ وهو يرى أنّ أخلاقينا الإسلامية هي أمواتنا دفنوا أنفسهم فيها؛ فمن ذلك يهدّم أخلاقي ويفتنّ عند نفسه أنّه يهدّم قبوراً لا أخلاقاً.

ولقد سخر منه المصريون بنكتة من ظرفهم البديع، وجاءوه من غريزته، فصنعوا امرأة من الورق الذي يُشبة الجلد، وألبسوها خفّها وإزارها، حتى لا يشكّ من رآها أنها آدمية، ثمّ وضعوا في يدها قصّة وأقاموها في طريقه؛ فلما رآها عدل إليها<sup>(١)</sup> وأخذَ من يدها القصّة وقرأها، فإذا فيها سبّ له ولا يبأه؛ وسخرية من جنونه ورعنونه المضحك؛ فغضّب وأمر بقتل المرأة؛ فكانت هذه سخرية أخرى حين تحقّق أنّها من الورق، وأخذته النكتة الظرفية بمثيل البرق والرعد؛ فاستشاط<sup>(٢)</sup> وأمر عبيده من السودان بتحرير الدور ونهب ما فيها وسبّي النساء والجحور بهن؛ حتى جاء أزواج يشترون زوجاتهن من العبيد، بعد أن طارت الروبعة السوداء في بياض الأعراض.

إندلعت ثورة الفجور في المدينة، لا من العبيد، ولكن من الحيوان العتيق المستقر في هذا الطاغية.

(٢) استشاط: اشتعل غضباً.

(١) عدل إليها: مال وعجز عليها.

## المجلد السادس

وهذه رُعونةٌ من أقبح رُعونةِهِ، كأنَّ هذا الحيوان لا يحسب نساءَ الأُمَّةِ كلُّها إلَّا نساءً، فیأْمُرُهُنَّ بأمرِ امرأةٍ، وكأنَّ النساء في رأيهِ إِنْ هُنْ إلَّا أَسْتَجَابَاتُ عصبيةٌ تُطْلُقُ وثَرَدًا.

إِنَّ لِمَوْجَةِ الْفَسقِ فِي الْغَرِيزَةِ الْطَاغِيَةِ جَزْرًا وَمَدَا يَقْعَدُ فِي تَارِيخِ الْفَسَاقِ؛ فَهَذَا الطَاغِيَةُ قَدْ جَرَأَ فِي الْمَوْجَةِ، فَأَمَرَ أَنْ يُمْنَعَ النِّسَاءُ مِنَ الْخُرُوجِ لِيَلَّا وَنَهَارًا، لَا تَطُأُ أَرْضَ الْمَدِينَةِ قَدْمًا امْرَأَةً، وَأَمَرَ الْخَفَافِينَ أَلَا يَصْنَعُوا لَهُنَّ الْأَخْفَافَ وَالْأَحْذِيَةَ؛ وَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ بَعْضَ النِّسَاءِ خَرَجَنَ إِلَى الْحَمَامَاتِ هَدَمَ الْحَمَامَاتِ عَلَيْهِنَّ!

وَلَوْ مَدَّتِ الْمَوْجَةُ فِي تَفْسِيقِ الْفَاسِقِ لَفَرَضَ عَلَى النِّسَاءِ الْخُرُوجَ وَالاتِّصالَ بِالْرِجَالِ وَالْتَعْرُضَ لِلِإِبَاحَةِ.

إِنَّ الْصَلَاحَ وَالْفَسَادَ كَلاهُمَا فَسَادٌ مَا لَمْ يَكُنْ الْصَلَاحُ نَظَافَةً فِي الْأَرْوَحِ وَسَمْوًا فِي الْقَلْبِ.

## المجلد السابع

يَرْعُمُ الْطَاغِيَةُ أَنَّهُ سَيَهْدُمُ كُلَّ قَدِيمٍ؛ وَإِنِّي لِأَخْشَى - وَاللهُ - أَنْ يَأْمُرَ النَّاسَ فِي بَعْضِ سَطْوَاتِ جَنُونِهِ: أَنْ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ أَبٌ أَوْ أُمٌّ بَلَغَ الْسَّتِينَ فَلِيُقْتَلُهُ، لِتَخْلُصَ الْأُمَّةُ مِنْ قَدِيمِهَا الْإِنْسَانِيَّةِ . . .

كَائِنَهُ لَا يَعْرُفُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَتَسَلَّطُ عَلَى أَيَّامِ مُعَاصرِيهِ لَا عَلَى التَّارِيخِ؛ وَيَحْكُمُ عَلَى طَاعَةِ قَوْمِهِ وَعِصَيَانِهِمْ لَا عَلَى قُلُوبِهِمْ وَطَبَاعِهِمْ وَمِيرَاثِهِمْ مِنَ الْأَسْلَافِ؛ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَهْلِكَ حَتَّى يَنْبَعُثَ فِي الْأَرْضِ شَيْئًا: تَنْنُ رَمَتِهِ<sup>(١)</sup> فِي بَطْنِ الْأَرْضِ، وَنَشَّ أَعْمَالِهِ عَلَى ظَهِيرِ الْأَرْضِ. إِنَّ هَذَا الرَّجُلُ الْمُسْلَطُ، كَالْغُبَارِ الْمُسْتَطَارِ لَا يُكَنْسُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَقْعَ . . .

وَلَقَدْ رَأَى الْمَأْفُونُ أَنَّ أَكْلَ النَّاسِ الْمَلُوخِيَّا الْخَضْرَاءَ وَالْفَقَاعَ، وَالثُّرْمَسَ وَالْجِرْجِيرَ، وَالْزَبِيبَ وَالْعَنْبَ - هُوَ قَدِيمٌ فِي طَبَاعِ النَّاسِ، فَنَهَى عَنْ كُلِّ ذَلِكِ، لَا يُبَاعُ وَلَا يُؤْكَلُ، وَظَهَرَ عَلَى أَنَّ جَمَاعَةً بَاعُوا أَشْيَاءً مِنْهَا فَضَرَبُوهُمْ بِالسِّيَاطِ، وَأَمَرَ فَطِيفَ بِهِمْ فِي الْأَسْوَاقِ، ثُمَّ ضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ؛ كَائِنَ الَّذِي يَحْمِلُ الْمَلُوخِيَّا الْخَضْرَاءَ عَلَى رَأْسِهِ لِيَبْعَثَهَا يَلْبِسُ عِمَامَةَ خَضْرَاءَ . . .

(١) رِمَتْهُ: جَيْفَتْهُ.

أهذا - وَيْحَه - تجديدٌ في الأمة، أم تجديدٌ في المعدة...؟

### المجلد الثامن

لا يرضى الطاغية إلّا أن يمحق<sup>(۱)</sup> روحانية كلّها، فلا يترك شيئاً رُوحانياً له في أعياد الناس أثراً من الوقار، ويمنّ يسْتَظْهُرُ - وَيْلَه - إذا مُحِقَّت روحانية الأمة وأشرفَت ترْعُتها الدينية على الانحلال؟ كائنة لا يعلم أنَّ حقيقة الوجود للأمة من الأمم إنما تُسْتَمدُ من إيمانها بالمثلِ الأعلى الذي يدفعها في سُلُّمِها إلى الحياة بِقُوَّة، كما يدفعها في حربها إلى الموت بِقُوَّة؛ وكائنة لا يعلم أنَّ التاريَّخ كله ثَقَرَة في الأرض بِضَعْفِ مبادئ دينية.

هذا الحاكمُ الآخرُ هو عندي كَالذِي يقولُ لِنَفْسِه: لم أستطع أنْ أفتح دولة، فلأفتح دولة في مملكتي... لقد أمرَ بهدم الكنائس والبيع، حتى بلغَ ما هَدَمَ منها ثلاثينَ ألفاً ونِيَّفاً.

أيُّ مجنونٍ أَسْخَفَ جنوناً من هذا الذي يحسب النُّفُوسَ الإنسانية كالأَخْشَاب؛ تَقْبَلُ كُلُّها بغيرِ أَسْتِثناءٍ أنْ تُدَقَّ فيها أَلْسَامِير...؟  
سيعلمُ إذا نشبَتْ حربٌ بينَ دُولَةٍ أخرى، أنَّه كسرَ أشدَّ سِيوفِه مضاء حينَ كسرَ الدِّين!

### المجلد التاسع

هذه هي الطامةُ الْكُبْرَى؛ فلا أدرِي كيف أكتبُ عنها: لقد تطاولَ المجنون إلى الألوهية فادَّعاها، وصارَ يكتبُ عن نفسه: باسمِ الحاكم الرحمن!  
لو كان أغبيَ الأَغْبَيَاء في موضعه لاتَّقى شيئاً، لا أقولُ تقوى الدينِ والضمير، ولكن تقوى الْفَقَاقِ السياسي؛ فكانَ يحملُ الناسَ على أنْ يقولوا عنه: «أبانا الذي في الأرضين...!».

وإلا فأيُّ جهلٍ وخَبْطٍ، وأيُّ حُمْقٍ وتهُورٍ، أنْ يكونَ إلهٌ على حمارٍ، وإن كانَ أَسْمُ حمارِه القمر!

### المجلد العاشر

سيأخذُه اللهُ بأمرأة؛ ولكلّ شيءٍ آفةٌ من جنسِه؛ لقد بلغَ من وقاحةً غريزته أن

(۱) يمحق: يسحق، يمحو.

أَتَتَفَكَ<sup>(١)</sup> أُخْتَهُ الْأُمِيرَةَ (سُتُّ الْمُلْكِ)، وَرَمَاهَا بِالْفَاحِشَةِ، وَهِيَ مِنْ أَزْكَى النِّسَاءِ وَأَفْضَلِهِنَّ، وَاتَّهَمُهَا بِالْأَمِيرِ (سَيفُ الدِّينِ بْنِ الدَّوَاسِ) وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهَا تُدْبِرُ قَتْلَهُ، وَأَنَّهَا أَجْتَمَعَتْ لِذَلِكَ بِسَيفِ الدِّينِ. فَسَأَمِسَكُ عَنِ الْكِتَابَةِ فِي هَذَا الْمَجْلِدِ، وَأَدْعُ سَائِرَةَ بِيَاضًا حَتَّى أَذْهَبَ إِلَيْهِمَا فَأُعْنِيَهُمَا بِمَا عَنِيَ مِنْ أَرْأِيٍّ، ثُمَّ أَعُودُ لِتَدوِينِ مَا يَقُولُ مِنْ بَعْدِ . . .

\* \* \*

وَرَأَيْتُ أَنِّي أَجْمَعْتُ بِهِمَا وَأَطْمَانَّا إِلَيْيَّ، فَأَخْدَنَا نُدِيرُ الْأَرَأِيِّ :  
قَالَتِ الْأُمِيرَةُ لِسَيفِ الدِّينِ فِيمَا قَالَتِهِ : «وَالْأَرَأِيُّ عَنِي أَنْ تُشْبِعَ غِلْمَانًا يَقْتَلُونَهُ إِذَا خَرَجَ فِي غَدٍ إِلَى جَبَلِ الْمَقْطَمِ، فَإِنَّهُ يَنْفَرُ بِنَفْسِهِ هُنَاكَ!». فَقَلَّتْ أَنَا : «لَيْسَ هَذَا بِالْأَرَأِيِّ وَلَا بِالْتَّدْبِيرِ». قَالَتِهِ : «فَمَا الْأَرَأِيُّ وَالْتَّدْبِيرُ عَنِدَكَ؟».

قَلَّتْ : «إِنَّ لَنَا عِلْمًا يَسْمُونَهُ (عِلْمُ النَّفْسِ)، لَمْ يَقْعُ لِعِلْمَائِكُمْ، وَقَدْ صَحَّ عَنِي مِنْ هَذَا الْعِلْمِ أَنَّ الرَّجُلَ طَائِشُ الْغَرِيزَةِ مَجْنُونُهَا، وَأَنَّ الْأَشْعَةَ الْلَّطِيفَةَ السَّاحِرَةَ الَّتِي تَبْعَثُ مِنْ جَسْمِ الْمَرْأَةِ هِيَ الَّتِي تَنْفَجِرُ فِي مُخْهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةً؛ إِذَا خَبَثَتْ<sup>(٢)</sup> هَذِهِ الْأَشْعَةَ، وَبَطَلَتْ الْغَرِيزَةُ، بَطَلَّتْ دَوَاعِي أَعْمَالِهِ الْخَبِيثَةِ كُلُّهَا، وَكَفَّ<sup>(٣)</sup> عَنِ مَحَاوِلَتِهِ أَنْ يَجْعَلَ الْأَمَمَةَ مَمْلُوَةً مِنْ غَرَائِزِ جَسْمِهِ وَشَهْوَاتِهِ، لَا مِنْ فَضَائِلِهَا وَدِينِهَا. فَلَوْ أَخْدَثْتُمْ بِرَأْيِي وَأَمْضَيْتُمُوهُ فَإِنَّهُ سَيُنْكِرُ أَعْمَالَهُ إِذَا عَرَضَهَا عَلَى نَفْسِهِ الْجَدِيدَةِ، وَبِهِذَا يُصْلِحُ مَا أَفْسَدَ، وَتَكُونُ حَيَاتُهُ قَدْ نَطَّقَتْ بِكَلْمَتِهَا الصَّحِيقَةِ كَمَا نَطَّقَتْ بِكَلْمَتِهَا الْفَاسِدَةِ؛ إِذَا . . . . .».

قَالَ الْأَمِيرُ : «إِذَا مَاذَا؟».

قَلَّتْ : «إِذَا خُصِيَ . . . . .».

فَضَحِّكَتْ سُتُّ الْمُلْكِ ضَحْكَةَ رَئِسِ رَنِينَا.

قَلَّتْ : «نَعَمْ إِذَا خُصِيَ هَذَا الْحَاكِمُ».

فَغَلَبَهَا الضَّحْكُ أَشَدَّ مِنَ الْأَوَّلِ، وَرَمَثَنِي بِمَنْدِيلٍ لَطِيفٍ كَانَ فِي يَدِهَا أَصَابَبَ وَجْهِيِّ، فَأَنْتَهَيْتُ وَأَنَا أَقُولُ :

«نَعَمْ إِذَا خُصِيَ هَذَا الْحَاكِمُ . . . . .».

(٣) كَفْ : تَوْقِفٌ.

(١) اَتَتَفَكَ : اَتَهُمْ بِالْفَجُورِ.

## كُفْرُ الْذِبَابَةِ . . .

قالَ كَلِيلَةُ وَهُوَ يَعْظُمُ دِمْنَةً وَيُحَذِّرُهُ وَيَقْضِي حَقَّ اللَّهِ فِيهِ؛ وَكَانَ دِمْنَةُ قَدْ دَاهِلَةُ  
الْغَرُورُ وَزَهَاءُ النَّصْرِ، وَظَهَرَ مِنْهُ الْجُفَاءُ وَالْغِلْظَةُ، وَلَقِيَ الشَّاعِلُ مِنْ زِيَغِهِ<sup>(١)</sup> وَإِلْحَادِهِ  
عَنْتَأَا شَدِيدًا:

... وَأَعْلَمُ يَا دِمْنَةَ أَنَّ مَا زَغَمْتَهُ مِنْ رَأْيِكَ تَامٌ لَا يَعْتَرِيهُ النَّقْصُ، هُوَ بِعِينِهِ  
النَّاقْصُ الَّذِي لَمْ يَتَمَّ؛ وَالْغَرُورُ الَّذِي ثَبَثَ بِهِ أَنَّ رَأْيَكَ صَحِيحٌ دُونَ الْآرَاءِ، لَعَلَّهُ هُوَ  
الَّذِي يُثْبِتُ أَنَّ غَيْرَ رَأْيِكَ فِي الْآرَاءِ هُوَ الصَّحِيحُ.

وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا يَتَخَيلُ كُلُّ ذِي خِيَالٍ، لَصَدَقَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِيمَا يَزْعُمُ،  
وَلَوْ صَدَقَ كُلُّ إِنْسَانٍ فِيمَا يَزْعُمُ، لَكَذَبَ كُلُّ إِنْسَانٍ؛ وَإِنَّمَا يَدْفَعُ اللَّهُ أَنَّاسًا بَعْضَهُمْ  
بِعِصْرٍ، لِيَجِيءَ حَقُّ الْجَمِيعِ مِنَ الْجَمِيعِ، وَيَبْقَى الصَّغِيرُ مِنَ الْخَطَأِ صَغِيرًا فَلَا يَكُبرُ،  
وَيُثْبِتُ الْكَبِيرُ مِنَ الْصَّوَابِ عَلَى مَوْضِعِهِ فَلَا يُنْتَقَصُ، وَيَصْحَّ الصَّحِيحُ مَا دَامَتِ  
الشَّهَادَةُ لَهُ، وَيَفْسُدُ الْفَاسِدُ مَا دَامَتِ الشَّهَادَةُ عَلَيْهِ، وَمَا مَثَلُ هَذَا إِلَّا مَثَلُ الْأَرْنَبِ  
وَالْعُلَمَاءِ.

قالَ دِمْنَةُ: وَكِيفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قالَ: زَعْمُوا أَنَّ أَرْنَبًا سَمِعَتِ الْعُلَمَاءِ يَتَكَلَّمُونَ فِي مَصِيرِ هَذِهِ الدُّنْيَا، وَمَتَى  
يَتَأَذَّنُ<sup>(٢)</sup> اللَّهُ بِأَنْقَرَاضِهَا، وَكِيفَ تَكُونُ الْقَارِعَةُ<sup>(٣)</sup>؟ فَقَالُوا: إِنَّ فِي النَّجُومِ نَجُومًا  
مُذَبَّةً، لَوْ أَلْتَفَ ذَبَّتْ أَحَدِهَا عَلَى جَرْمٍ أَرْضَنَا هَذِهِ لَطَارَثُ هَوَاءً كَائِنًا نَفْخَةً الْنَّافِخِ،  
بَلْ أَضْعَفُ مِنْهَا كَائِنًا زَفَرَةً صَدِرَ مَرِيضٌ، بَلْ أَوْهِي كَائِنًا نَفْثَةً مِنْ شَفَتَيْنِ. فَقَالَتِ  
الْأَرْنَبُ: مَا أَجْهَلُكُمْ أَيُّهَا الْعُلَمَاءُ! قَدْ وَاللَّهِ حَرْفُكُمْ وَتَكَبَّدُكُمْ وَأَسْتَخْمَفُكُمْ؛ وَلَا تَرَأَلُ  
الْأَرْضُ بِخَيْرٍ مَعَ ذَوَاتِ الْأَذْنَابِ؛ وَالْدَّلِيلُ عَلَى جَهْلِكُمْ هُوَ هَذَا - قَالُوا: وَأَرْتُهُمْ  
ذَبَّهَا . . .

قالَ كَلِيلَةُ: وَكُمْ مِنْ مَغْرُورٍ يُنْزَلُ نَفْسَهُ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ مِنْزَلَةُ هَذِهِ الْأَرْنَبِ مِنْ

(٣) الْقَارِعَةُ: الْقِيَامَةُ.

(٢) يَتَأَذَّنُ: يَسْمَعُ.

(١) زِيَغٌ: روْغَانٌ.

أولئك العلماء؛ فيقول: كذبوا وصدقوا أنا، وأخطاؤا جميعاً وأصبت، والتبس عليهم وأنكشف لي، وهم زعموا وأنا المستيقن. ثم لا دليل له إلا مثل دليل الأرنبي الخرقاء من هذه تحرّك في ذنبها.

وكان يُقال: إنَّه لا يُجاهِر<sup>(١)</sup> بالكفر في قوم إلا رجل هان عليهم فلم يَعْبُثوا به، فهو الأذلُّ المستضعف؛ أو رجل هانوا عليه فلم يعبأ بهم، فهو الأعزُّ الطاغية؛ ذلك لا يخشوئه فيدعونه لنفسه وعليه شهادة حُمْقِه، وهذا يخشوئه فيترون معارضته وعليه شهادة ظلمِه؛ وما شرّ من هذا إلا هذا.

وقالتُ العلماء: إنْ كُنْتَ حاكِماً تُشْتَقُّ مِنْ يُخالِفُكَ في الرأيِّ، فليس في رأسِكَ إلا عقلُ أسمُّهُ الْخَبْل؛ وإنْ كُنْتَ تَقْتُلُ مَنْ يُنْكِرُ عَلَيْكَ الْخَطَا، فليس لَكَ إِلَّا عقلُ أسمُّهُ الْحَدِيد؛ وإنْ كُنْتَ تُخْبِسُ مَنْ يُعَارِضُكَ بِالنِّظَرِ، ففيك عقلُ أسمُّهُ الْجِدار؛ أما إِنْ كُنْتَ تُنَاطِرُ<sup>(٢)</sup> وتجادِلُ، وتقنُعُ وتقتنعُ، وتدعُو النَّاسَ على بصيرَةٍ ولا تأخذُهم بالعَمَى - ففيك العقلُ الذي أسمُّهُ العقل.

\* \* \*

قالَ كليلة: وأنا يا دمنة، فلو كُنْتَ قائداً مطاعاً، وأميراً مُتَّبِعاً، لا يُعَصِّي لي أمر، ولا يُرُدُّ عَلَيَّ رأيَّ، ولا يُنْكِرُ مِنِّي ما يُنْكِرُ مِنَ الْمُخْلُوقِ إِذَا أَخْطَأَ، ولا يُقالُ لي دائمًا إِلَّا إحدى الكلمتين: أصبتَ، ثمَّ هي دائمًا أصبتَ؛ ولا يلقاني أحدٌ من قومي بالكلمة الأخرى، رَهْبَةً مِنْ سَخْطِي<sup>(٣)</sup>، رَهْبَةً الْجُبْنَاءِ، أو رغبةً في رِضَايَ رغبةَ الْمُنَافِقِينَ، وزعموا أنَّهُمْ على ذلك قد صَحَّتْ نِيَاتُهُمْ وخلَصَ لِي باطُونَهُمْ جمِيعاً - فلو كُنْتَ وكانوا على هذا، لأحالني نقضُهم إلى نقص العقل بعد كماله، ورددتني فُسولُهُمْ إلى فُسولة الرأي بعد جَوْدِهِ، فأخْلِقَ<sup>(٤)</sup> بي أنْ أعتَبَ وضَعُهم إِيَّايَ في موضع الْآلهَةِ، هو إِنَّزَاهِم إِيَّايَ في مِنْزَلَةِ الشَّيَاطِينِ؛ إِلَّا كُنْتُ حَقِيقَاً أَنْ يُقْصِيَنِي مَا أصَابَ الْعَنْزَةِ الَّتِي زعموا لها أَنَّهَا أَنْثَى الفيل . . .

قالَ دمنة: وكيفَ كانَ ذلك؟

قال: زعموا أنَّهُ كانَ فِي إِحدى خَرَائِبِ الْهَنْدِ جماعةً مِنَ الْعَظَاءِ<sup>(٥)</sup>، وكانَ

(١) يُجاهِر: يعلن على الملايين الناس.

(٢) تُنَاطِر: تجادل وتحاور.

(٣) سخْطِي: غضبي.

(٤) أخْلِقَ بي: أجدر بي.

(٥) الْعَظَاءُ، مفرد عِظَاءَةٍ وعَظَاءَةٍ، وهي السحلية.

فيها عضر فوط كبير<sup>(١)</sup>، فملكته الجماعة وذهب تأثير<sup>(٢)</sup> على أمره وتنتهي. فمر بهذه الخربة فيل جسيم من الفيلة الهندية العظيمة، لم يحس بالعظاء، ولم يميز فرقاً بين هذه الأمة من الحشرات وبين الحصى منتشرأ يلتamu في الأرض هنا وهنا؛ قالوا غضب العضرفوط، وكان قائداً عظيماً، ثم تدبّر أمر الفيل ينظر كيف يصنع في مدافعته<sup>(٣)</sup>، وكيف يحتال في هلاكه، فرأة لا يتحرك إلا بأقدامه ينقلها واحدة واحدة؛ فقدر عند نفسه أنه لو أزال قدماً الفيل عن الأرض زال الفيل نفسه؛ فجاء فأعترض الطريق، ودبّ دببه؛ فلما رفع الفيل قدمه اهتبّل<sup>(٤)</sup> هذه الغفلة منه. وأندس<sup>(٥)</sup> تحتها، فاندس مقبوراً في التراب!

ثم إن العظاء افتقدت أميرها. فلما مضى الفيل لسبيله ورأى ما نزل بها، نفرت إلى أحجارها<sup>(٦)</sup>، وأستكثت<sup>(٧)</sup> فيها ترتقب وتترقب<sup>(٨)</sup>، فدخلت إلى الخربة عثر جعلت تتقمّ منها وترفع فيها، ورأتها العظاء فاجتمعن يأتمنن<sup>(٩)</sup> . . .  
فقال منها قائل: هذه أنتي الفيل. فسألت عظاءة منه: وأين النابان العظيمان؟

قالت الأولى: إن الإناث دون الذورة في خلقها، والأنثى هي الذكر مقلوبة أو مختبراً أو مشوهاً، ولذلك هن يقلبن الحياة أو يختصرنها أو يشوهنها، أفلا ترين النابين العظيمين البارزين في ذلك الفيل الجسيم، كيف نبتا صغيرين منقلبين فوق رأس أشاه . . . ؟

قالت واحدة: إن جاز قوله في الرأي فأين الخرطوم؟

قالت الأخرى: هو هذه الرئمة المتبدلة من خلقها، وذلك خرطوم على قدر أنوثة الأنثى . . . !

قالوا: ثم أجمعوا رأيهن على أن يملّكن أنتي الفيل هذه؛ وأن يهبن لها الخربة وأمّتها. وسمعت الماعزة كلامهن فقالت في نفسها: لا جرم أن تكون العنة فيلة في أمة من العظاء، فقد قالت العلماء: إنّه لا كبير إلا بصغر، ولا قوي إلا بضعف،

(١) العضرفوط هو ضرب من العظاء يكون أكبر منها.

(٢) تأثير: تتصاع لأمره.

(٦) أحجارها: أو كارها.

(٧) استكثت: كمنت.

(٨) تترقب: تتظر غفلة.

(٩) يأتمن: يتناقش.

(٢) مدافعته بإعاده بالحيلة.

(٤) اهتبّل: انتهز.

(٥) اندس: دخل خلسة.

ولَا طاغيَةٌ إِلَّا بَذَلِيلٌ؛ وَإِنَّ الْعَظَمَةَ إِنْ هِيَ إِلَّا شَهادَةُ الْحَقَارَةِ عَلَى نَفْسِهَا، وَإِنَّ رَبَّ عَظِيمٍ طاغيَّةً مُتَجَبِّرٍ مَا قَامَ فِي النَّاسِ إِلَّا كَمَا تَقْوُمُ الْجِيلَةُ، وَلَا عَاشَ إِلَّا كَمَا يَعِيشُ الْكَذَبُ، وَلَا حَكْمٌ إِلَّا كَمَا يَحْكُمُ الْخِدَاعُ. وَهَذِهِ الدِّنِيَا لِلْمُحَظَّوْطِ كَأَنَّهَا دِنِيَا لَهُ وَحْدَهُ، فَمَتَى جَاءَتْ إِلَيْهِ فَقَدْ جَاءَتْ، وَلَوْ أَنَّهَا أَدْبَرَتْ<sup>(۱)</sup> عَنْهُ مِنْ نَاحِيَةِ لَرْجَعَتْ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، لَيَشِّتَّ الْحَظْ أَنَّهُ الْحَظْ.

وَتَقْدَمُ الْعَطَاءُ إِلَى الْعَزْنِ، فَقُلْنَاهَا: أَيْتَهَا الْفِيلَةُ الْعَظِيمَةُ، إِنَّ قَرِينَكِ الْعَظِيمَ قدْ مَسَّ أَمْيَرَنَا الْعَضْرَفُوتَ بِقَدْمِهِ فَغَيْبَهُ تَحْتَ سَبْعِ أَرْضِينَ، وَأَنْتَ أَنْثَاهُ وَسِيدُهُ، فَقَدِ اخْتَرْنَاكِ مَلِكَةَ عَلَيْنَا، وَوَهَبْنَا لَكَ الْخَرْبَةَ وَمَا فِيهَا.

قَالَتِ الْعَزْنُ: فَإِنِّي أَتَهْبُ مِنْكُنَّ هَذِهِ الْهِبَةَ، وَنِعْمًا صَنَعْنَّ؛ غَيْرَ أَنَّ بَيْنُكُنَّ وَبَيْنِي مَا بَيْنَ الْعَظَائِيَّةِ وَالْفَيلِ. وَمَا بَيْنَ الْحَصَّاءِ وَالْجَبَلِ، إِنَّا قُلْتُ، فَأَنَا قُلْتُ؛ وَإِنَّا أَمْرَتُ، فَأَنَا أَمْرَتُ؛ وَإِنَّا فَعَلْتُ، فَأَنَا فَعَلْتُ. هَنَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كُلُّهَا (أَنَا) وَاحِدَةٌ لَيْسَ مَعَهَا غَيْرُهَا؛ لَأَنَّ هُنَّا فِي هَذَا الرَّأْسِ دِمَاغٌ فِيلَةُ، وَفِي هَذَا الْجَسْمِ قُوَّةُ فِيلَةُ، وَفِي الْخَرْبَةِ كُلُّهَا فِيلَةٌ وَاحِدَةٌ؛ فَلَا أَغْرِفُنَّ مِنْكُنَّ عَلَى الْصَّوَابِ وَالْخَطَا إِلَّا الْطَّاعَةُ طَاعَةً الْأَعْمَى لِلْبَصِيرِ. أَلَا وَإِنَّ أَوْلَ الْحَقَائِقِ أَنِّي فِيلَةُ وَأَنْكُنَّ عَظَاءُ؛ وَمَتَى بَدَا الْيَقِينُ مِنْ هَنَا سَقَطَ الْخِلَافُ مِنْ بَيْنِنَا وَبَطَلَ الْاعْتَرَاضُ مِنْكُنَّ، وَقَوْتِي حَقٌّ لِأَنَّهَا قُوَّةٌ، وَبَاطِلِي كَذَلِكَ حَقٌّ لِأَنَّهُ مِنْ قُوَّتِي؛ وَقَدْ قَالَ أَسْلَافُنَا<sup>(۲)</sup> حَكْمَاءُ الْفِيلَةِ: إِنَّ الْقَوِيَّ بَيْنَ الْأَسْعَافِ مَشِيَّةٌ مُطْلَقَةٌ، فَهُوَ مُضْلِخٌ حَتَّى بِالْإِفْسَادِ، حَكِيمٌ حَتَّى بِالْحِمَاقَةِ، إِمَامٌ حَتَّى بِالْحِرَافَةِ، عَالَمٌ حَتَّى بِالْجَهَالَةِ نَبِيٌّ حَتَّى بِالشَّعْوَدَةِ . . . . !

قَالُوا: وَتُنَكِّرُ عَلَيْهَا عَظَائِيَّةَ صَالِحَةِ عَالَمَةِ كَانَتْ ذَاتُ رَأْيٍ وَدِينٍ فِي قَوْمِهَا، وَكُنَّ يُسَمِّيَنَّهَا: (الْعِمَامَةُ)، لِبِيَاضِهَا وَصَلَاجِهَا وَطَهَارَتِهَا، فَقَالَتْ: وَلَا كُلُّ هَذَا أَيْتُهَا الْفِيلَةُ؛ لَقَدْ تَخَرَّضَتِ<sup>(۳)</sup> غَيْرَ الْحَقِّ؛ فَإِنَّكِ تَحْكِيمَنَا مِنْ أَجْلِنَا لَا مِنْ أَجْلِكِ، وَمَا قَوْلُكِ إِلَّا كَلْمَاتٌ تُحَقِّقُهَا أَعْمَالُنَا نَحْنُ؛ فَلَكِ الْطَّاعَةُ فِيمَا يُضْلِلُنَا، وَمَا كَانَ مِنْ غَيْرِهِ فَهُوَ رَدٌّ عَلَيْكِ، وَرَأْيُكِ شَيْءٌ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مَعَهُ آرَاؤُنَا، لِتَتَبَيَّنَ الْأَسْبَابُ أَسْبَابُ الْمُوافَقَةِ وَالْمُخَالَفَةِ، فَنَأْخُذُ عَنْ بَيْتِنَا وَنَتْرُكُ عَنْ بَيْتِنَّهُ؛ وَقَدْ كَانَ يُقَالُ فِي قَدِيمِ الْحِكْمَةِ: إِنَّهُ يَجُبُ عَلَى مَنْ يُقْدِمُ رَأِيًّا لِلْأُمَّةِ الْحَازِمَةِ كَيْ تَأْخُذَ بِهِ، أَوْ يَضَعَ لَهَا شَرْعًا لِيَحْمِلَهَا عَلَيْهِ، أَوْ يَسْنُ لَهَا سَنَةً لِتَتَبَعَهَا - إِنَّهُ يَجُبُ عَلَى هَذَا الْمُتَقْدِمِ لِتَحْوِيلِ

(۱) أَدْبَرَتْ: رَحِلتْ.

(۲) أَسْلَافُنَا: أَجْدَادُنَا.

الأمة أو تحريرها يتقدم لأهل الشورى وفي رأسه الرأي، وفي عنقه حبل؛ ثم يتكلم برأيه ويسطعه ويدفع عنه، ويجادلهم ويجادلونه؛ فإن كان الرأي حقاً أخذوا الرأي، وإن كان باطلًا أخذوا الحبل فشققا فيه هذا المتهور.

وفي ديننا أن الطاعة في المعصية معصية أخرى؛ ولقد كان لنا عصر فوط بحاثة في الأديان دراسة لكتابها علام نقاد؛ فكان مما علمنا: أن المخلوق مبني على النقص إذ هو ماض إلى الفناء، فيجب ألا يتم منه شيء إلا بمقدار، وألا تكون القوة فيه إلا بمقدار؛ ولهذا كان العقل التام في الأرض هو مجموع العقول العظيمة كلها، وكان أتم الآراء وأصحها ما ثبتت الآراء نفسها أنه أصحها وأنتمها. فلا الدين أتبغت أيتها الفيلة، ولا أتبغت العقل، وليس إلا هذا (التفيل) الكاذب.

فلما سمعت العذر ذلك تنقضت غضبتي، وقالت: إياكم وهذه الترهات من السنن لكم، وهذه الأباطيل في عقولكم؛ لا أسمع منكم كلمة الدين ولا كلمة الأنبياء ولا العصافيط... فذلك وحي غير وحي أنا؛ وإذا كان غير وحي أنا فأنما لست فيه، وإذا لم أكن أنا فيه لا يصلح للحكم الذي شرطه أن الدولة ليس فيها إلا أنا واحدة. وذلك إن لم يجعلكم غرباء عنِّي جعلني غريبة عنكم، ما بد من إحدى الغربتين، فهو أول القطيعة، والقطيعة أول الفساد. وما دام في الدين أمر غير أمري، ونهي غير نهي، وتحليل وتحريم لا يتغيران على مشيئتي - فأنا مجنونة إن رضيتم لكم هذا...!

فضحكت (العمامة) وقالت للماعزه: بل قولي: أنا مجنونة بـ (أنا)؛ أفال يجوز وأنت خلق من الخلق أن يغتر بي عقلك شيء مما يتعري العقول؟ ولست أنسنة أنت قوية الرأي في ناحية القوة، حسنة التدبير في ناحية الشجاعة، متباوقة المقدار في ناحية الحزم والجزء على صالح الدولة؛ ولكن ألم يقل الحكماء: إن الزيادة المسنفة في جهة من العقل، تأتي من النقص المتخيّف<sup>(١)</sup> لجهة أخرى؛ وإنه رب عقل كان تماماً عبقرياً في أمور، لكنه ضعيف أبله في غيرها؛ يحسن في تلك ما لا يحسنه أحد، ويحكم منها ما لا يحكمه أحد، ثم يغلط في الأخرى ما لا يغلط أحد فيه؟

قالوا: فجاشت<sup>(٢)</sup> العنْز وفارث من الغضب فوراً الجبار، وخيل إليها من

(٢) جاشت: استشاطت غضاً.

(١) المتخيف: الجائر، الظالم.

عَمَى الْغَيْطِ أَنَّهَا ذَهَبَتْ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَأَنَّ زَنْمَتَهَا أَمْتَدَّ مِنْهَا حُرْطُومٌ طَوِيلٌ،  
وَأَنَّ قَرْنِيهَا أَتَبَعَجَّ مِنْهُمَا نَابَانِ عَظِيمَانِ؛ وَقَالَتْ: وَيَحْكُمُ! خَذُوا هَذِهِ (الْعِمَامَةِ)  
فَأَشْقَوْهَا؛ فَإِنَّهَا كَمَا قَالَتْ؛ تَقْدَمَتْ إِلَيْنَا بِالرَّأْيِ وَالْحَلِّ...!

وَكَانَ فِي الْعَظَاءِ ضِعَافٌ وَمَهَازِيلُ وَجْبَنَاءُ، وَمَأْكُولُونَ لِكُلِّ آكَلٍ؛ فَتَشَبَّحَ<sup>(١)</sup>  
لَهُمْ أَنَّ أَنْشَى الْفَيْلَ هَذِهِ... سَتَخْلُقُهُمْ فِي لَهَّ إِنْ هُمْ أَطَاعُوهَا؛ فَإِذَا مَرَدُوا<sup>(٢)</sup> عَلَيْهَا  
فَإِنَّهَا مِنْ صِرَاطِ الْبَأْسِ بِحِيثِ تَجْعَلُ كُلَّ ظَلْفٍ مِنْ أَظْلَافِهَا جَبَلاً فَوْقَهُمْ كَائِنَةُ ظُلَّةٌ  
فَتَسُوخُ بِهِمُ الْأَرْضَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ أَنْخَزَلُوا وَتَرَاجَعُوا، وَأَخِذَتِ (الْعِمَامَةُ) الصَّالِحَةُ  
فَشُنِّقَتْ، وَخَمَدَ الرَّأْيُ مِنْ بَعْدِهَا، وَأَنْقَطَعَ الْخِلَافُ وَالْدِينُ وَالْعُقْلُ الْحَرَّ...؛  
وَأَقْبَلَتْ دُولَةُ الْعَظَاءِ عَلَى الْعَنْزِ تُجْرِيُّ أَذِيَالَهَا.

قَالُوا: وَأَغْتَرَتِ الْمَاعِزَةُ وَأَحْسَتْ لَهَا وِجُودًا لَمْ يَكُنْ، وَعَرَفَتْ لِنَفْسِهَا وَهِيَ  
مَاعِزَةٌ نَبَاهَةٌ شَأْنِ الْفَيْلِ الْقَوِيِّ، فَلَجَّتْ<sup>(٣)</sup> فِي عَمَائِهَا وَكَفَرَتْ بِجَنْسِهَا، وَقَالَتْ: لَمْ  
يَخْلُقْنِي اللَّهُ فِي لَهَّ وَخَلَقْتُ نَفْسِي؛ فَأَنَا لَا هُوَ...

وَبَثَتْ عَنَّهَا أَنَّهَا لِيَسَتْ بِعَنْزٍ وَإِنْ أَشْبَهَتْهَا كُلُّ عَنْزٍ فِي الْأَرْضِ؛ وَذَهَبَتْ تُقْلِدُ  
وَتَعِيشُ عَلَى مَذَاهِبِ الْفِيلَةِ بَيْنَ الْعَظَاءِ؛ فَإِذَا مَسَتْ أَرْتَجَتْ وَتَخَطَّرَتْ كَائِنَهَا بِنَاءً  
يَتَقْلِلُ، وَإِذَا أَضْطَجَعَتْ أَنْذَرَتِ الْأَرْضَ أَنْ تَسْمَكَ لَا تَدْكُنَهَا بِجَنِّهَا...!

وَمَرَّ ذَلِكَ الْفَيْلُ بِهَذَا الْخَرَابِ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَادَتِ الْعَظَاءُ كُلُّهُنَّ بِالْفِيلَةِ...  
وَتَأْهَبَتْ هَذِهِ لِلْقَتَالِ، وَتَحْصَنَتْ فِي الْمَبَارِزَةِ وَالْمَنَاجِزَةِ... (وَالْمَعَاذَةُ) فَنَصَبَتْ  
قَرْنِيهَا، وَحَرَّكَتْ زَنْمَتَهَا، وَطَأَطَاثُ، وَشَدَّتْ أَظْلَافَهَا فِي الْأَرْضِ، وَثَبَّتْ قَوَائِمَهَا،  
وَصَلَّبَتْ عَظَامَهَا، وَنَفَشَتْ شَعْرَهَا، وَتَشَوَّكَتْ<sup>(٤)</sup> كَالْقُنْفَذِ، وَأَصْرَتْ بِكُلِّ ذَلِكَ  
إِصْرَارَهَا، وَكَانَتْ عَنْزًا نَطِيقَةً مِنْذَ كَانَتْ تَتَبَعُ أَمَّهَا وَتَتَلُوْهَا، فَكَيْفَ بِهَا وَقَدْ  
تَقَيَّلَتْ...؟

ثُمَّ إِنَّهَا ثَبَّتْ فِي طَرِيقِ الْفَيْلِ لِيَرِى بَعِينِيهِ هَذَا الْهُوْلُ الْهَاهِيلِ... فَأَقْبَلَ فَمَدَّ  
خُرْطُومَهُ، فَنَالَهَا بِهِ، فَلَفَّهَا فِيهِ، فَقَبَضَهُ، فَرَفَعَهُ، فَطَوَّهَا<sup>(٥)</sup>، فَكَائِنًا ذَهَبَتْ فِي  
السَّمَاءِ...!

(١) تَشَبَّحُ: خَيْلَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ شَبَحٌ.

(٢) مَرَدُوا: تَمَرَدُوا.

(٣) لَجَّتْ: تَمَادَتْ.

(٤) تَشَوَّكَتْ: أَظْهَرَتْ فِي جَلْدِهَا مَا يُشَبِّهُ الشَّوْكَ.

(٥) طَوَّهَا: تَحَركَ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الْيَسَارِ.

وتهارَبَتِ العَظَاءُ وَلَذْنَ<sup>(١)</sup> بِأجْهَارِهِنَّ، ثُمَّ عَدَوْنَ عَلَى رِيقِهِنَّ؛ فَإِذَا جِيفَةُ الْعَنْزِ  
غَيْرِ، بَعِيدٍ، فَذَبَّبَنَ عَلَيْهَا وَأَرْتَعَيْنَ فِيهَا، وَعَلِمْنَ أَنَّهَا كَانَتْ مَا عِزَّةً فَيَلَّهَا جَنُونُهَا،  
وَأَدْرَكَنَ أَنَّ الْكَذْبَ عَلَى الْحَقَّاتِيْنَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ حَقَّاتَ أَخْرِيَ تَقْتُلُهُ، وَأَنَّ مَنْ غَلَبَ  
أَمَّةَ الْعَظَاءِ عَلَى أُمْرِهَا فَلِيَسْتِ أَلْيَامُ وَاللَّيَالِي عَظَاءَ فِي غَلَبَهَا؛ وَأَنَّ تَغْيِيرَ الْمَخْلوقَاتِ،  
إِنَّمَا يَكُونُ بِتَحْوِيلِ بَاطِنِهَا لَا بِتَحْوِيلِ ظَاهِرِهَا، وَأَنَّ الْإِنَاءَ الْأَحْمَرَ يُرِيكَ الْمَاءَ مُحَمِّراً  
وَالْمَاءُ فِي نَفْسِهِ لَا حُمْرَةَ فِيهِ، حَتَّى إِذَا أَنْكَسَ الْإِنَاءَ ظَهَرَ كَمَا هُوَ فِي نَفْسِهِ؛ وَكُلُّ مَا  
يُخْفِي الْحَقُّ هُوَ كَهْنَا الْإِنَاءِ: لَوْنٌ عَلَى الْحَقِّ لَا فِيهِ؛ ثُمَّ أَيْقَنَ أَنَّ مُحاوَلَةَ إِخْرَاجِ أَمَّةٍ  
كَاملَةٍ مِنْ نَزَعَاتِ مَا عِزَّةٌ مَأْفَوْنَة<sup>(٢)</sup>، هِيَ كَمُحاوَلَةٍ أَسْتِيَلَادُ الْفَيْلِ مِنْ الْمَاعِزَةِ...!

\* \* \*

قَالَ كَلِيلَةُ: وَأَعْلَمُ يَا دِمْنَةُ أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ هَذِهِ الْعَنْزَ الْحَمْقَاءَ قَدْ كَفَرَتْ كُفَرَ  
الْذَّبَابَةَ، لَمَا أَخْذَهَا اللَّهُ أَخْذَ الذَّبَابَةَ.

قَالَ دِمْنَةُ: وَكِيفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَ: زَعَمُوا أَنَّ ذَبَابَةَ سُودَاءَ كَانَتْ مِنْ حَمْقَى الْذَّبَابَانِ، فَدُرِّرَتِ الْحَمْمَاقَةُ عَلَيْهَا  
أَبْدِيَّةً، فَلَوْ أَنْقَلَبَتْ نَقْطَةُ حَبْرٍ فِي دَوَّاَةٍ لَمَّا كُتِبَتْ بِهَا إِلَّا كَلْمَةٌ سُخْفَ.

وَوَقَعَتْ هَذِهِ الذَّبَابَةُ عَلَى وَجْهِ امْرَأَةٍ زَنْجِيَّةٍ ضَخْمَةٍ، فَجَعَلَتْ تُقَابِلُ بَيْنَ نَفْسِهَا  
وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ؛ وَقَالَتْ: إِنَّ هَذَا لَمِنْ أَدْلُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ فَوْضَى لَا نِظَامَ فِيهِ، وَأَنَّهُ  
مُرْسَلٌ كَيْفَ يَتَقْنُ عَلَى مَا يَتَقْنُ، عَبَثًا<sup>(٣)</sup> فِي عَبَثٍ، وَلَا رِيبَ أَنَّ الْأَنْيَاءَ قَدْ كَذَبُوا النَّاسَ،  
إِذَا كَيْفَ يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ خَلْقِيْنَ (أَنَا) وَخَلْقُ هَذِهِ الذَّبَابَةِ الْضَّخْمَةِ الَّتِي أَنَا فَوْقَهَا...؟

ثُمَّ نَظَرَتْ لِيَلَةَ فِي السَّمَاءِ، فَأَبْصَرَتْ نَجْوَمَهَا يَتَلَّأُ وَبَيْنَهَا الْقَمَرُ؛ فَقَالَتْ:  
وَهَذَا دَلِيلٌ آخَرٌ عَلَى مَا تَحْقَقَ عَنِّي مِنْ فَوْضَى الْعَالَمِ، وَكَذِبِ الْأَدِيَانِ، وَعَبَثِ  
الْمَصَادِفَاتِ؛ فَمَا الإِيمَانُ بِعِينِي إِلَّا إِلَاحَادٌ بِعِينِهِ، وَوَضْعُ الْعُقْلِ فِي شَيْءٍ هُوَ إِيجَادُ  
الْأَلْوَهِيَّةِ فِيهِ، وَإِلَّا فَكِيفَ يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ وَضَعِيْ(4) (أَنَا فِي الْأَرْضِ وَرَفِعْ هَذَا  
الْذَّبَابِ الْأَبْيَضِ وَيَعْسُوبِهِ<sup>(٤)</sup>) الْكَبِيرِ إِلَى السَّمَاءِ...؟

(١) لَذْنَ: لِجَانٌ.

(٢) مَأْفَوْنَةُ، الْمَتَمَدَّحَةُ بِمَا لِيْسَ عَنْهَا، ذَاتُ الرَّأْيِ الْمُضِيَّفِ.

(٣) عَبَثًا: لَعْبَا.

(٤) الْيَعْسُوبُ: أَمِيرُ الذَّبَابِ وَالنَّحلِ وَنَحْوُهُمَا.

ثُمَّ إِنَّهَا وَقَعَتْ فِي دَارِ فَلَاحٍ، فَجَعَلَتْ تَمُورَ<sup>(۱)</sup> فِيهَا ذَهَابًا وَجِيئَةً، حَتَّى رَجَعَتْ بَقَرَةُ الْفَلَاحِ مِنْ مَرْعَاهَا، فَبُهْتَتِ<sup>(۲)</sup> الْذَّبَابَةُ وَجَمِدَتْ عَلَى غُرْتَهَا<sup>(۳)</sup> مِنْ أَوْلِ الْنَّهَارِ إِلَى آخِرِهِ، كَأَنَّهَا تُزَوِّلُ عَمَالًا؛ فَلَمَّا أَمْسَتْ قَالَتْ: وَهَذَا دَلِيلٌ أَكْبَرُ الدَّلِيلِ عَلَى فَوْضَى الْأَرْزَاقِ فِي الْأَنْدَنِيَا، فَهَاتَانِ ذَبَابَتَانِ قَدْ ثَقَبَتَا ثَقْبَيْنِ فِي وَجْهِ هَذِهِ الْبَقَرِ... وَأَكْتَبَتَا فِيهِمَا تَأْكِلَانِ مِنْ شَحْمِهَا فَتَعْظِمَانِ سِيَّمَا؛ وَالنَّاسُ مِنْ جَهِيلِهِمْ بِالْعِلْمِ الْذَّبَابِيِّ يَسْمُونَهَا عَيْنِيْنِ. وَأَنَا قَضَيْتُ الْيَوْمَ كُلَّهُ أَخْمِشُ وَأَعْضُ وَالْسَّمْعُ لِأَنْقَبَ لِي ثَقْبًا مِثْلَهُمَا فَمَا أَنْزَعْتُ شَعْرَةً؛ فَهَلْ يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ رَزْقِيْ (أَنَا) وَرَزْقُ هَاتِينِ الْذَّبَابَتَيْنِ فِي وَجْهِ الْبَقَرِ...؟

ثُمَّ إِنَّهَا رَأَتْ خُنْفُسَاءَ تَدِبُّ دَبِيبَهَا فِي الْأَرْوَاثِ<sup>(۴)</sup> وَالْأَقْذَارِ؛ فَنَظَرَتْ إِلَيْهَا وَقَالَتْ: هَذِهِ لَا تَضُلُّ دَلِيلًا عَلَى الْكُفَّرِ؛ فَإِنِّي (أَنَا) خَيْرٌ مِنْهَا؛ (أَنَا) لِي أَجْنَحَةٌ وَلَا يَسِّرُ لَهَا، (وَأَنَا) خَفِيفَةٌ وَهِيَ ثَقِيلَةٌ؛ وَمَا كَأَنَّهَا إِلَّا ذَبَابَةٌ قَدِيمَةٌ مِنْ ذَبَابِ الْقَرْوَنِ الْأَوْلَى، ذَلِكَ الَّذِي كَانَ بِلِيدًا لَا يَتَحَرَّكُ فَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ الْحَرْكَةُ جَنَاحًا. ثُمَّ إِنَّهَا أَضَغَتْ فَسَمِعَتْ الْخُنْفُسَاءَ تَقُولُ لِأَخْرِيٍّ وَهِيَ تُحَاوِرُهُ: إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمَخْلُوقُ أَنَّهُ كَمَا يَشْتَهِي فَلْيُكْفُرْ كَمَا يَشْتَهِي؛ يَا وَيَحْنَا! لَمْ نَكُنْ جَامِوسًا كَهَذَا الْجَامِوسِ الْعَظِيمِ، وَمَا بَيْنَا وَبَيْنَهُ فَرْقٌ إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ مَنْ يَنْقُضُهُ وَلَمْ نَجِدْ...؟

فَقَالَتِ الْذَّبَابَةُ: إِنَّ هَذَا دَلِيلُ الْعُقْلِ فِي هَذِهِ الْعَاقِلَةِ، وَلَعْمَرِي إِنَّهَا لَا تَمْشِي مَشَاقِلَةً مِنْ أَنَّهَا بَطِينَةٌ مُرْهَقَةٌ بَعْجَزِهَا، وَلَكِنْ مِنْ أَنَّهَا وَقُوَّةٌ مُشَقَّلَةٌ بَأْنَكَارِهَا، وَهِيَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنِّي (أَنَا) أَلْسَابِقَةُ إِلَى كَشْفِ الْحَقِيقَةِ...!

وَجَعَلَتِ الْذَّبَابَةُ لَا يُسْمِعُ مِنْ دَنْدَنَتِهَا إِلَّا، أَنَا، أَنَا، أَنَا... مِنْ كُفَّرِ إِلَى كُفَّرِ غَيْرِهِ، إِلَى كُفَّرِ غَيْرِهِمَا؛ حَتَّى كَأَنَّ الْسَّمَاوَاتِ كُلُّهَا أَصْبَحَتْ فِي مَعرِكَةٍ مَعَ ذَبَابَةِ... ثُمَّ جَاءَتِ الْحَقِيقَةُ إِلَى هَذَا الْإِلْحَادِ الْأَحْمَقِ تَسْعَى سَعْيَهَا؛ فَبَيْنَا الْذَّبَابَةُ عَلَى وَجْهِ حَائِطٍ، وَقَدْ أَكَلَتْ بَعْوضَةً أَوْ بَعْوضَتَيْنِ، وَأَعْجَبَتْهَا نَفْسُهَا، فَوَقَفَتْ تَحْكُمُ ذَرَاعَهَا بِذَرَاعِهَا - ذَرَّتْ بَطْءًا صَغِيرَةً قَدْ أَنْفَلَقَتْ عَنْهَا الْبَيْضَةُ أَمْسِ، فَمَدَّتْ مِنْقَارَهَا، فَالْتَّقَطَنَتْهَا.

وَلَمَّا أَنْطَبَقَ الْمِنْقَارُ عَلَيْهَا قَالَتْ: آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَ الْبَطْءَةِ...!

(۱) تَمُورٌ: تَحْرِزُكَ فِي كُلِّ اِتِّجَاهٍ.

(۲) غُرْتَهَا: مَفَاجَأَتْهَا.

(۳) الْأَرْوَاثُ: السَّوَادُ وَالسَّمَادُ.

(۴) بُهْتَتْ: دَهَشَتْ.

## يا شباب العرب!

يقولون: إنَّ في شبابِ العربِ شيخوخةَ الْهِمَمِ والعزائم؛ فالشبابُ يمتدون في حياةِ الْأَمَمِ وهم ينكحشون.

وإنَّ اللَّهُو قد خَفَّ بهم حتى ثَقَلَتْ عليهم حياةُ الْجَدِّ، فَأَهْمَلُوا الْمُمْكِنَاتِ فرجعَتْ لهم كَالْمُسْتَحِيلَاتِ.

وإنَّ الْهَزَلَ<sup>(١)</sup> قد هَوَّنَ عليهم كُلَّ صَعْبَةٍ فَأَخْتَصَرُوهَا؛ فَإِذَا هَزَأُوا بِالْعَدُوِّ فِي كُلِّ مُكَانٍ هَزَمُوهُ فِي مُعْرِكَةِ . . .

وإنَّ الشَّابَّ مِنْهُمْ يَكُونُ رَجُلًا تَامًا، وَرَجُولَةُ جَسْمِهِ تَحْتَاجُ عَلَى طَفُولَةِ أَعْمَالِهِ.

ويقولون: إنَّ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ عِنْدَ شَابِّ الْعَربِ أَلَا يَحْمِلُوا أَبْدًا تَبِيعَةَ<sup>(٢)</sup> أَمِيرِ عَظِيمٍ.

\* \* \*

ويزعمون أنَّ هَذَا الشَّابَّ قد تَمَّتِ الْآفَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَغْلَاطِهِ، فَحِيَاتُهُ حِيَاةُ هَذِهِ الْأَغْلَاطِ فِيهِ.

وأنَّ أَبْرُعَ مُقلِّدِ لِلْغَرْبِ فِي الْرَّذَائِلِ خَاصَّةً؛ وَبِهَذَا جَعَلَهُ الْغَرْبُ كَالْحَيْوَانِ مَحْصُورًا فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، وَلَذَاتِهِ.

ويزعمون أنَّ الزَّجاَجَةَ مِنَ الْخَمْرِ تَعْمَلُ فِي هَذَا الشَّرْقِ الْمُسْكِنِ عَمَلَ جَنْدِيٍّ أَجْنبِيٍّ فَاتِحٍ . . .

ويتوَاصُونَ بِأَنَّ أَوْلَ السِّيَاسَةِ فِي أَسْتَعْبَادِ أَمِمِ الْشَّرْقِ، أَنْ يُثْرَكَ لَهُمْ الْاِسْتِقْلَالُ الْأَنَّامُ فِي حَرَيَةِ الْرَّذِيلَةِ . . .

ويقولون: إِنَّهُ لَا بَدَّ فِي الْشَّرْقِ مِنْ آتَيْنِ لِلتَّخْرِيبِ: قَوْةُ أُورَبَا، وَرَذَائِلُ أُورَبَا.

\* \* \*

(٢) تَبِيعَة: مَسْؤُلِيَّة.

(١) الْهَزَل: اللَّعْبُ وَالْمَزَاحُ.

يا شباب العرب! من غيركم يكذب ما يقولونَ ويزعمونَ على هذا الشرقِ  
المسكين؟

من غير الشبابِ يضعُ القوَّةَ بإزاءِ هذا الضعفِ الذي وصفُوهُ ليكونَ جواباً عليه؟  
من غيركم يجعلُ النفوسَ قوانينَ صارمةً<sup>(١)</sup>، تكونُ المادَّةُ الأولى فيها: قَدْرُنا  
لِأَنَّا أَرْذَنا؟

ألا إنَّ المعركةَ بيَتَنا وبينَ الاستعمارِ معركةٌ نفسيةٌ، إنْ لم يُقتلْ فيها الْهَزَلُ قُتلَ  
فيها الواجبُ!

والحقائقُ التي بيَتَنا وبينَ هذا الاستعمارِ إنَّما يكونُ فيكم أنتم بحثها التحليلي،  
تُكَذِّبُ أو تَضُدُّ.

\* \* \*

الشبابُ هوَ القوة؛ فالشمسُ لا تملأُ النهارَ في آخرِه كما تملؤُه في أولِه.  
وفي الشبابِ نوعٌ منَ الحياةِ تَظَهُرُ كلامَةُ الموتِ عنَّهَا أَخْتُ كلمةِ النومِ.  
وللشبابِ طبيعةُ أولِ إدراكِها الثقةُ بالبقاءِ، فأولُ صِفاتِها الإصرارُ علىَ العزمِ.  
وفي الشبابِ تَصْنَعُ كُلُّ شجرةٍ منَ أشجارِ الحياةِ أثمازَها؛ وبعدَ ذلك لا تَصْنَعُ  
أشجاراً كُلُّها إِلَّا خَسَباً... .

يا شبابَ العربِ! اجعلوا رسالتَكم: إِمَّا أَنْ يَحيَا الشرقُ عزيزاً، وإِمَّا أَنْ  
تموتوا.

\* \* \*

أنقذوا فضائِلَنا من رذائلِ هذه المدينةِ الأوروبيَّةِ، تُنقذوا استقلالَنا بعدَ ذلك،  
وتُنقذوه بذلك.

إنَّ هذا الشرقَ حينَ يدعُو إِلَيْهِ الغربُ؛ «يدُعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ منْ نفعِهِ؛  
لِبَشَّنَ الْمُولَى وَلِبَشَّنَ الْعَشِيرَ».

لبشَّنَ المولى إذا جاءَ بقوَّتهِ وقوانينِهِ، ولبشَّنَ العشيرِ إذا جاءَ برذائلِهِ وأطْماعِهِ.  
أيها الشرقيُّ! إنَّ الدينارَ الأجنبيَّ فيهِ رصاصةٌ مخبوعةٌ، وحقوقُنا مقتولةٌ بهذهِ  
الدنانيرِ.

(١) صارمة: حازمة.

أيها الشرقي! لا يقول لك الأجنبي إلا ما قال الشيطان: «وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَنٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَأَسْتَجِبُ لَمُنْتَهِيٍّ».

\* \* \*

يا شباب العرب! لم يكن العسير يُعسر على أسلافكم الأولين، كأنَّ في يدهم مفاتيح من العناصر يفتحون بها. أثريدون معرفة السر؟ السرُّ أنَّهم أرتفعوا فوق ضعف المخلوق، فصاروا عملاً من أعمالِ الخالق. غلبوا على الدنيا لَمَّا غلبوا في أنفسِهم معنى الفقر، ومعنى الخوف، والمعنى الأرضي.

وعلمُهم الدينُ كيف يعيشون باللذات السماوية التي وضعت في كل قلب عظمته وكبرياءه. وأخترعُهم الإيمانُ أختراعاً نفسيًا، علامته المسجلة على كلِّ منهم هذه الكلمة: لا يذلّ.

\* \* \*

حين يكون الفقر قلة المال، يفتقرُ أكثرُ الناس، وتنحدل<sup>(۱)</sup> القوة الإنسانية، وتلهكُ المواهب. ولكن حين يكون فقر العمل الطيب، يستطيع كلُّ إنسان أن يُغتنى، وتبعدُ القوة وتعمل كل موهبة. وحين يكون الخوف من نقص هذه الحياة وألامها، تفسرُ كلمة الخوف مائةً رذيلة غير الخوف.

ولكن حين يكون من نقص الحياة الآخرة وعدايتها، تصبح الكلمة قانون الفضائل أجمع.

هكذا أخترع الدين إنسانه الكبير النفس الذي لا يقال فيه: انهزمت نفسه.

\* \* \*

يا شباب العرب! كانت حِكمةُ العرب التي يعملون عليها: أطلب الموت ثوَّهُ لك الحياة.

(۱) تنحدل: تنهرم.

وَالنَّفْسُ إِذَا لَمْ تَخْشَ الْمَوْتَ كَانَتْ غَرِيْزَةُ الْكِفَاحِ أَوْ غَرَائِبِهَا تَعْمَلُ.  
وَلِلْكِفَاحِ غَرِيْزَةٌ تَجْعَلُ الْحَيَاةَ كُلُّهَا نَصْرًا، إِذَا لَا تَكُونُ الْفِكْرَةُ مَعَهَا إِلَّا فَكْرَةٌ  
مُقَاتِلَةً.

غَرِيْزَةُ الْكِفَاحِ يَا شَبَابَ، هِيَ الَّتِي جَعَلَتِ الْأَسَدَ لَا يُسْمَنُ كَمَا تَسْمَنُ الْشَّاةُ  
لِلْدِبَحِ.

وَإِذَا أَنْكَسَرَتْ يَوْمًا، فَالْحَجَرُ الْصَّلْدُ<sup>(۱)</sup> إِذَا تَرَضَرَضَتْ<sup>(۲)</sup> مِنْهُ قِطْعَةً كَانَتْ دَلِيلًا  
يُكَشِّفُ لِلْعَيْنِ أَنَّ جَمِيعَهُ حَجَرٌ صَلْدٌ.

\* \* \*

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ! إِنَّ كَلْمَةً (حَقِيقَى) لَا تَحْيَا فِي الْأُسْبَابِ إِلَّا إِذَا وَضَعَ قَائِلُهَا  
حَيَاةً فِيهَا.

فَالْقَوْةُ الْقَوْةُ يَا شَبَابَ! الْقَوْةُ الَّتِي تَقْتُلُ أَوْلَ مَا تَقْتُلُ فَكْرَةً أَتَرَفَ وَالْتَّخَثُّ.  
الْقَوْةُ الْفَاضِلَةُ الْمُتَسَامِيَّةُ الَّتِي تَضُعُ لِلْأَنْصَارِ فِي كَلْمَةٍ (نَعَمْ) مَعْنَى نَعَمْ.  
الْقَوْةُ الْصَّارِمَةُ الْنَّفَادِهُ الَّتِي تَضُعُ لِلْأَعْدَاءِ فِي كَلْمَةٍ (لَا) مَعْنَى لَا.  
يَا شَبَابَ الْعَرَبِ إِجْعَلُوهُ رِسَالَتَكُمْ: إِمَّا أَنْ يَحْيَا الْشَّرْقُ عَزِيزًا، وَإِمَّا أَنْ  
تَمُوتُوا.

(۲) تَرَضَرَضَتْ: تَكَسَّرَتْ.

(۱) الْصَّلْدُ: الْصَّلْبُ، الْقَاسِيُّ.

## لُؤْ...!

رأيتني جالساً في مسرح هزلي بمدينة اسكندرية، كما يجلس القاضي في جريمة يحمل أهلها بين يديه أثامهم وأعمالهم، ويحمل هو عقله وحكمه.  
وقد ذهبت لأرى كيف يتتساخف<sup>(١)</sup> أهل هذه الصناعة؛ فكان حكمي أنَّ  
السخافة عندنا سخيفةً جداً....

رأيتمهم هناك ينقذون العيوب بما يُنسِّي عيوباً جديدة، ويسبحون بأيديهم سباحةً ماهرةً؛ ولكن على الأرض لا في البحر، وتکاد نظرتهم إلى الحقيقة الهزلية تكون عمى ظاهراً عمما هي به حقيقة هزلية؛ ولا غایة لهم من هذا التمثيل إلا الرقاعة<sup>(٢)</sup> والإسفاف والخلط والهذيان، إذ كان هذا هو الأشبه بجمهورهم الذي يحضرهم، وكان هو الأقرب إلى تلك الطباع العامية البليدة التي اعتادت من تكليف الهزل ما جعلها هي في ذات نفسها هزواً يُنسِّرُ منه.  
ولا سخاف من تكليف النكتة الباردة قد خلت من المعنى، إلا تكليف الضحك المصنوع يأتي في عقيبها كالبرهان على أنَّ في هذه النكتة معنى.

فالفن المضحك عند هؤلاء، إنما هو السخاف الذي يُواافقون به الروح العامية الضئيلة الكاذبة المكذوب عليها، التي يبلغ من بلاهتها أحياناً أن تضحك للنكتة قبل إلقائها، لفرط خفتها ورعنونتها<sup>(٣)</sup>، وطول ما تكلف وأعتادت. فما ذلك الفن إلا ما ترى من التخليط في الألفاظ، والتضريب<sup>(٤)</sup> بين المعاني، وإيقاع الغلط في المعقولات؛ ثم لا ثم بعد هذا. فلا دقة في التأليف، ولا عمق في الفكرة، ولا سياسة في جمع النقائص، ولا تفاص في أسرار النفس، ولا جدٌ يؤخذ من هزلية الحياة، ولا عظمة تُستخرج من صفاتِها، ولا فلسفة تُعرف من حماقاتها.

(١) يتتساخف: ييدي ما به من حماقة.

(٢) الرقاعة: الحماقة.

(٣) الرعنون: التصرف بحماقة.

(٤) التضريب: التخليط.

والفرقُ بعيدٌ بينَ ضحْكٍ هو صناعةُ ذهنِ لتحريلِ النفس، وشحذِ الطبع،  
وتصويرِ الحقيقةِ صورةً أخرى، وبينَ ضحْكٍ هو صناعةُ الْبلاهَةِ لِلْهُوِ والْعَبَثِ،  
والمَجَانَةِ لا غيرَ.

\* \* \*

وكأنَّ معي قريباً من أذكياءِ الْطَّلَبَةِ المُتَخَصِّصِينَ لِلآدَابِ الإنجليزيةِ، فلم تلبِ  
إلا يسيراً حتى جاءَ ثلَاثَةٌ من ضبَاطِ الأسطولِ الإنجليزيِّ، فجلسوا بحذايَنَا صفاً  
تلرُحُ عليهم مَحَايِلُ الظَّفَرِ، ولهُم وَقَارَبُ الْبُطْوَلَةِ، وفيهم أرواحُ الْحَرَبِ؛ وهم يبدون  
في ثيابِهِمُ الْبَيْضِ الْمَطَرَّأَةَ<sup>(١)</sup> كأنَّهُمْ ثلَاثَةُ نُسُورٍ هبَطُوا منَ الْغَمَامِ إِلَى الْأَرْضِ،  
فلا يُعْنِيهَا نظراتُ تدورُ هنا وهناك شُكُرٌ وَتُعرَفُ.

وأعجبني أنَّ أراهم في هذا المكانِ الْهَزَلِيِّ الْمَمْتَلَىءَ بِالْمُضْعَفَاءِ، كأنَّهُمْ ثلَاثَ  
حقائقَ بَيْنَ الْأَغْلَاطِ، أو ثلَاثَ أَغْلَاطٍ كَبِيرَةَ... . وَكَانَ أَبْدَعُ مَا أَرَاهُ عَلَى هِيَةِ  
وَجُوهِهِمْ وَأَسْرُهُمْ، تواضعُ هَذَا الْأَسْتَعْدَادُ الْحَرَبِيُّ وَتَحُولُهُ إِلَى أَسْتَعْدَادٍ لِلسُّخْرِيَّةِ... .  
ثُمَّ تَأْمُلُهُمْ طَويلاً؛ فَإِذَا صَرَاماً وَشَهَاماً، وَسَكِينَةً وَوَدَاعَةً، وَحُسْنُ سَمْتِ  
وَحَلَوةُ هِيَةِ فِي جَلْسَةِ رِزْيَةٍ مَتَوْفَرَةٍ، لَا يُشَبِّهُهَا فِي حُسْنِ النَّفْسِ الَّتِي تَعْرُفُ مَعْنَى  
الْقُوَّةِ إِلَّا وَضُعُّ ثلَاثَةَ مَدَافِعَ مُصَوَّبةً.

وَجَعَلْتُ أَقْلَبَ عَيْنَيَ فِي النَّاسِ الْمُوْجُودِينَ وَمَلَامِحِهِمْ وَهَيَنَاتِهِمْ، ثُمَّ أَرْجَعَ  
الْبَصَرَ إِلَى هُؤُلَاءِ الْثَّلَاثَةِ، فَأَرَى الْمَصْرِيُّ كَالْمَقْتُنَعِ بِأَنَّهُ مَحْدُودٌ بِمَدِينَةِ أَوْ قَرْيَةِ لَا  
يَعْرُفُ لِنَفْسِهِ مَكَانًا فِي غَيْرِهِمَا، فَهُوَ مِنْ ثُمَّ لَا يَرْحَلُ وَلَا يُغَامِرُ، وَلَا تَتَقَادَّهُ الدُّنْيَا؛  
وَأَرَى الإِنْجِلِيزِيُّ كَالْمَقْتُنَعِ بِأَنَّ كُلَّ مَكَانٍ فِي الْعَالَمِ يَنْتَظِرُ الإِنْجِلِيزِ... .

وَخَيْلَ إِلَيَّ - وَاللَّهُ - أَنَّ رَجُلًا مِنْ هُؤُلَاءِ الإِنْجِلِيزِ الْأَقْوَيَاءِ الْمُعْتَدِلِينَ  
بِأَنفُسِهِمْ<sup>(٢)</sup> لَا يَهَاجِرُ مِنْ بَلَادِهِ إِلَّا وَمَعَهُ نَفْسُهُ وَأَسْتَقْلَالُهُ، وَتَارِيَخُهُ وَرُوحُ دُولَتِهِ،  
وَطَبِيعَةُ أَرْضِهِ؛ فَهُوَ مُسْتَقِنُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَرْزُقُهُ رِزْقًا أَيَّ الْرِزْقِ كَانَ عَلَى مَا يَتَّقِنُ، بَلْ  
رِزْقًا إِنْجِلِيزِيًّا: أَيْ فِيهِ كِفَايَتُهُ.

وَرَأَيْتُ شَيْئًا عَجِيبًا مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ طَابِ الْسُّلْمِ عَلَى وَجْهِهِ، وَبَيْنَ طَابِ الْحَرَبِ  
عَلَى وَجْهِهِ أُخْرَى؛ فَفِي تُلُكَ مَعْنَى السَّهُولَةِ وَالْمَلَائِيَّةِ وَالْجَرْحِصِ عَلَى مَادَّةِ الْحَيَاةِ،

(١) المطرأة: المكواة.

(٢) المعتدين بأنفسهم: المعتزين، الواثقين من أنفسهم.

وفي هذه معاني العزم والمقاومة والحرص على مجده الحياة لا على مادتها.

وتبيّن أسلوبين من الأساليب الاجتماعية: أحدهما في فرد قد بنى أمره على أن أمّة تحمله، فهو يعيش بأضعف ما فيه: والآخر في فرد قد وضع الأمر على أنه هو يحمل أمّة فلا يدع في نفسه قوة إلا ضاعفها.

وعرفت وجهين من وجوه التربية السياسية: أحدهما بالطنطنة، والتهويل والصرار، واستعارة ألفاظ غير الواقع للواقع، وتحميل ألفاظ غير ما تحمل؛ والآخر بالهدوء الذي يقهر الحوادث، والصبر الذي يغلب الزمن، والعقيدة التي تفرض أعمالها العظيمة على صاحبها وتجعل أعظم أجره عليها أن يقوم بها.

وميّزت بين أثرين من آثار الأرض في أهلها: أحدهما في المصري السّمّح الوداع الألوف الحبيبي الذي هو كرم الطبيعة، والآخر في الإنجليزي العسّير المغامر التّفوار الملحق على الدنيا كأنه تطلّ الطبيعة...

\* \* \*

وألقي ابن العم الذي كان معه سمعة إلى هؤلاء الضباط، وهم من فلاسفة الرأي على ما يظهر من حديثهم، ثم نقل إلى عنهم، فقال كبارهم: لقد فرغت من بحثي الذي وضعته في فلسفة خمول الشرقيين، وأفضيتك منه إلى حقائق عجيبة، أظهرها وأخفاها معًا أنّ أمّة من هذه الأمم لا يمكن للأجنبي فيها، ولا تشغل وطأتها<sup>(١)</sup> عليهم، ولا يطول ثواؤه<sup>(٢)</sup> في أرضهم، ولا يحتلها من يطمع فيها، ما لم يكن سادتها وأمراؤها وكبارها كأنهم فيها دولة محالة.

وهؤلاء الكبار هم آفة الشرق؛ فمن أعظم واجباتنا أن نزيد في تعظيمهم، وأن نمد لهم في المال والجاه، وتبسط لهم اليمين والشمال، ونؤهّمهم أن عظمتهم هكذا ولدّت فيهم وهكذا ولدوا بها من أمهاطهم كما ولدوا بأيديهم وأرجلهم... وخاصة عظام رجالي الأديان المفتونين بالدنيا؛ فإنّنا نصنع بغرور الجميع وسخافاتهم وجحودهم وطمعهم أشياء اجتماعية ذات خطر لا يصنع لنا مثلها إلا الشياطين ومن لنا بالحكم على الشياطين؟ وهذا ما تنبأ له (غاندي) ذلك المهزول الهندي الذي تُقْوَم دنياه بأربعة شلنات، ولا يزن أكثر من بضعة أرطال من الجلد والعظم، ولا بطش عنده ولا قوة فيه، وهو مع ذلك جبار

(٢) ثواؤه: بقاوه.

(١) وطأته: سطوه.

سماويٌ في يده البرقُ والرعدُ يُرى ويسمعُ في أرجاءِ الدنيا.

قال ضابطُ اليمين: وبصناعةِ الكبارياء هذه الصناعة يكونُ رجلُ الشعب من هؤلاء الشرقيينَ رجلٌ تقليد بالطبيعة، ورجلٌ دُلُّ بالحالة، ورجلٌ خُضوع بالجملة؛ فليسَ في نفسهِ أنه سيدُ نفسهِ ولا سيدُ غيرهِ، بل أكبرُ معانيهِ أنَّ غيرَهُ سيدٌ عليهِ فيكونُ معهُ دائمًا خيالً استعبادهِ.

وتكلمَ ضابطُ اليسار: ولكنَ المترجم لم يميزُ أقوالهِ، لأنَّ ثلثَ عشرةَ أمراً كنَّ يصرخُون في الروايةِ الهزليةِ بلحن طويل يقللُ في أوله: «عاوزين رجالة تدلّغنا...» وكانتِ الموسيقى تصرخُ معهمْ وتولوّلُ كأنَّها هي أيضًا أمراً محرومة... .

\* \* \*

ثمَ أرهفَ<sup>(١)</sup> المترجمُ أذنهُ فقالَ كبيروهم: إنَّ لهؤلاء الشرقيينَ ستَ حواسٌ: الخمسُ المعروفةُ، وحساستُ الخمولِ الذي خدعُتهم عنِ الطبيعةِ البليدةِ فسمموهُ الترفُ والهزلُ واللهو؛ والأمةُ الأوربيةُ التي تحتلُ بلادًا شرقيةً تجدُ فيها لصعائِرُ الحياةِ جيشًا أقوى من جيشها؛ فعشرةُ آلافِ جنديٍ بعتادِهم وألاتِهم، لا يصنعون شيئاً إلَّا استفزاز<sup>(٢)</sup> والتحدى وإثباتِ أنَّهم غاصبون؛ ولكنَ ما أنت قادرٌ في عشرةِ آلافِ مكانٍ كهذا المسرح براقصاتهِ ومومساتهِ وخمورهِ ورواياتهِ، وبهؤلاء الرجالِ المختفينَ الهزليينَ الرقعاً الذين هم وحدَهم معاهدَةً سياسيةً ناجحةً بيننا وبينَ شبابِ الأمةِ... .

قال ضابطُ اليمين: نعم إنَّ الاحتلالِ فنٌ عسكريٌ في الأول، ولكنهُ فنٌ أخلاقيٌ في الآخر؛ وبهذا يجبُ تعينُ نقطةِ اتجاهِ للشبابِ تكونُ مضيئةً لامعةً جذابةً مُغريةً؛ ولكنهَا في ذاتِ الوقتِ مُحرقةً أيضًا، وهذه هي صناعةُ إهلاكِ الشبابِ بالضوءِ الجميلِ، وما على السياسيِ الحاذقِ في الشرقِ إلَّا أنْ يحمي الرذيلةَ، فإنَّ الرذيلةَ سترى لهُ صنيعهُ وتحميَهِ.. .

فتكلمَ ضابطُ اليسار، ولكنَ صوتهُ ذهبَ في عشرينَ صوتًا من رجالِ المسرحِ ونسائهِ يصيحونَ جميعًا: «يا حلوةُ يا خفافي، يا مجنة الشبان... .

\* \* \*

(٢) الاستفزاز: إثارة الغضب.

(١) أرهف السمع: دقق.

ولَمَّا ألمَتْ<sup>(١)</sup> بحوارِ الضباطِ الشَّلَاثَةِ قُلْتُ لِصَاحِبِي : إِسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِمْ أَكْلَمُهُمْ . فَفَعَلَ وَعَرَّفَنِي إِلَيْهِمْ ، وَتَرَجَّمَ لَهُمْ مَقَالَةً (يَا شَبَابَ الْعَرَبِ) وَكَانَ يَحْمِلُهَا . فَكَائِنًا رَمَاهُمْ مِنْهَا بِالجِيشِ وَالْأَسْطُولِ .

ثُمَّ قُلْتُ لِكَبِيرِهِمْ : لَسْتُ أُنْكِرُ أَنَّ الإِنْجِليزِيَّ لَوْ دَخَلَ جَهَنَّمَ لَدَخَلَهَا إِنْجِليزِيَا . وَلَا أَجَحُّ أَنَّ لَهُ فِي الْحَيَاةِ مِثْلَ هِدَايَةِ الْحَيَاةِ ، لَأَنَّهُ رَجُلٌ عَمَلِيٌّ : دَلِيلُ مَنْفَعَتِهِ أَنَّهَا مَنْفَعَتُهُ وَحَسْبُ ، ثُمَّ لَا دَلِيلٌ غَيْرُ هَذَا وَلَا يَقْبِلُ إِلَّا هَذَا . فَإِذَا قَالَ الشَّرْقِيُّ : حَقِّي ، وَقَالَ الإِنْجِليزِيُّ : مَنْفَعَتِي ، بَطَلَتِ الْأَدَلَّةُ كُلُّهَا ، وَرَأَى الشَّرْقِيُّ أَنَّهُ مَعَ الإِنْجِليزِيِّ كَالذِّي يُحَاوِلُ أَنْ يَقْنِعَ الْذَّئْبَ بِقَانُونِ الْفَضْيَلَةِ وَالرَّحْمَةِ .

وَقَدْ عَرَفْنَا أَنَّ فِي الْسِّيَاسَةِ عَجَابٌ ، مِنْهَا مَا يُشَبِّهُ أَنَّ يَلْقَى إِنْسَانٌ إِنْسَانًا فَيَقُولَ لَهُ : يَا سَيِّدِي الْعَزِيزِ ، بِكُلِّ احْتِرَامٍ أَرْجُو أَنْ تَتَلَقَّنِي مِنِي هَذِهِ الصَّفَعَةِ . . .

وَفِي الْسِّيَاسَةِ مَوَاعِيدُ عَجِيبَةٌ ، مِنْهَا مَا يُشَبِّهُ غَرَسَ شَجَرَةً لِلْفَقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْتَّوْكِيدُ لَهُمْ بِالْأَيْمَانِ أَنَّهَا سُتُّمَرَ رُغْفَانًا مُخْبُوزَةً . . . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تُطَعَّمُ فَتُشْمَرُ الرُّغْفَانُ الْمُخْبُوزَةُ حَشُوْهَا لَلَّحْمُ وَالْإِدَامُ . . .

وَفِي الْسِّيَاسَةِ مَحَارَبَةُ الْمَسَاجِدِ بِالْمَرَاقِصِ ، وَمَحَارَبَةُ الْأَرْزُوْجَاتِ بِالْمَوَمَسَاتِ ، وَمَحَارَبَةُ الْعَقَائِدِ بِأَسَاذَنَةِ حَرَيَّةِ الْفَكَرِ ، وَمَحَارَبَةُ فَنُونِ الْقَوَّةِ بِفَنُونِ الْأَلْذَّةِ . وَلَكِنْ لَوْ فَهِمَ الْشَّبَابُ أَنَّ أَمَاكِنَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَعَانِيهَا لِيَسْتَ إِلَّا غَدْرًا بِالْوَطَنِ فِي كُلِّ مَعَانِيهِ !

وَلَوْ عَرَفَ الْشَّبَابُ أَنَّ مَحَارَبَةَ اللَّهِ هِيَ أُولُو الْمُعْرِكَةِ الْسِّيَاسِيَّةِ الْفَاصِلَةِ !

وَلَوْ أَدْرَكَ الْشَّبَابُ أَنَّ أَوَّلَ حَقَّ الْوَطَنِ عَلَيْهِ أَنْ يَحْمِلَ فِي نَفْسِهِ مَعْنَى الْشَّعبِ لَا مَعْنَى نَفْسِهِ !

وَلَوْ رَجَعَ الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ كَمَا هُوَ فِي طَبِيعَتِهِ آلَهَ حَرَبَيَّةٌ تُصْنَعُ مِنَ الْشَّابِ رِجَالَ الْقَوَّةِ !

وَلَوْ عَلِمَ الْشَّابُ أَنَّ رُوحَ هَذَا الدِّينِ لَيْسَتْ : اعْتَقِدْ وَلَا تَعْتَقِدْ . وَلَكِنْ أَفْعَلْ وَلَا تَفْعَلْ !

وَلَوْ أَيْقَنَ الْشَّابُ أَنَّ فَرَائِضَ هَذَا الدِّينِ لَيْسَتْ إِلَّا وَسَائِلَ عَمَلَيَّةٌ لِأَمْتَلَاءِ النَّفْسِ بِمَعْنَى الْتَّقْدِيسِ !

(١) ألمَتْ : اطَّلَعَتْ .

ولو فِهِمَ الشُّبَابُ أَنْ لِيَسَ فِي الْكَوْنِ إِلَّا هَذِهِ الْمَعْانِي تَجْعَلُ النَّفْسَ فَوْقَ الْمَادَةِ  
وَفَوْقَ الْحَوْفِ وَفَوْقَ الْذَّلِّ وَفَوْقَ الْمَوْتِ نَفْسِهِ!  
ولو بَحَثَ الشُّبَابُ النَّفْسَ الْإِنْجِليزِيَّةَ الْقَوِيَّةَ لِيَعْرُفَ بِالْبَرْهَانِ أَنَّهَا نَصْفٌ مُسْلِمَةٌ  
فَكَيْفَ بِهَا لَوْ كَانَتْ مُسْلِمَةً؟ . . .

\* \* \*

وَكَانَ الْمُتَرَجِّمُ يَنْقُلُ إِلَيْهِمْ كَلَامِيِّ، فَمَا بَلَغْتُ إِلَى حِيثُ بَلَغْتُ، حَتَّى شَدَّ  
الضَّابطُ عَلَى يَدِي وَهَرَّهَا؛ فَنَظَرْتُ، فَإِذَا أَنَا قَدْ كَثُرْتُ نَائِمًا بَعْدَ سَهْرَةَ طَوِيلَةٍ فِي ذَلِكَ  
الْمَسْرَحِ، وَإِذَا يَدُ الْمُتَرَجِّمِ نَفْسِهِ هِيَ الَّتِي تَهْزُنِي لِأَتَبِهِ . . .

## في محنّة فلسطين

### أيها المسلمون!

نهضت فِلَسْطِينُ تَحْلُّ الْعَقْدَةَ الَّتِي عَقَدَتْ لَهَا بَيْنَ السِّيفِ، وَالْمَكْرِ، وَالْذَّهَبِ.  
عَقْدَةُ سِيَاسِيَّةٍ خَبِيَّةٍ، فِيهَا لِذَلِكَ النَّعْبُ الْحَرُّ قُتْلُ وَتَخْرِيبٌ، وَفَقْرٌ.  
عَقْدَةُ الْحُكْمِ الَّذِي يَحْكُمُ بِثَلَاثَةِ أَسَالِيبٍ: الْوَعْدُ الْكَذْبُ، وَالْفَنَاءُ الْبَطِيءُ،  
وَمَطَامِعُ الْيَهُودِ الْمُتَوَحِّشَةِ.  
أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! لِيَسْتَ هَذِهِ مَحَنَّةُ فِلَسْطِينِ، وَلَكِنَّهَا مَحَنَّةُ إِلْسَلَامٍ؛ يُرِيدُونَ  
أَلَا يُبَيِّنَ شَخْصِيَّةُ الْعَزِيزَةِ الْحَرَّةِ.  
كُلُّ قَرْشٍ يُدْفَعُ إِلَيْهِ لِفِلَسْطِينِ، يَذْهَبُ إِلَى هَنَاكَ لِيَجَاهِدَ هُوَ أَيْضًا.

\* \* \*

أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا الْمُجَاهِدُونَ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ أَخْلَاقَنَا هِيَ حَلَفاُؤُهُمْ فِي هَذَا  
الْجَهَادِ.

أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا الْمُنْكَوِّبُونَ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ فِي نَكْبَتِهِمْ أَمْتَحَانٌ لِضَمَائِرِنَا  
نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا.

أُولَئِكَ إِخْوَانُنَا الْمُضْطَهَدُونَ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْسِيَاسَةَ الَّتِي أَذَلَّهُمْ تَسْأَلُنَا  
نَحْنُ: هَلْ عَنَّنَا إِقْرَارٌ لِلذَّلِّ؟

مَاذَا تَكُونُ نَكْبَةُ الْآخِرِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ أَسْمَاً آخَرَ لِمَرْوِعَةِ سَائِرِ إِخْوَتِهِ أَوْ مَذَلَّتِهِمْ؟  
أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! كُلُّ قَرْشٍ يُدْفَعُ لِفِلَسْطِينِ، يَذْهَبُ إِلَى هَنَاكَ لِيَفْرَضَ عَلَى  
الْسِيَاسَةِ احْتِرَامَ الشَّعْورِ إِلْسَلَامِيِّ.

\* \* \*

إِنْتَلُوهُمْ بِالْيَهُودِ يَحْمِلُونَ فِي دِمَائِهِمْ حَقِيقَتَيْنِ ثَابِتَتِينِ: مِنْ ذُلُّ الْمَاضِي وَتَشْرِيدِ  
الْحَاضِرِ.

وَيَحْمِلُونَ فِي قُلُوبِهِمْ نِقْمَتَيْنِ طَاغِيَتِينِ: إِحْدَاهُمَا مِنْ ذَهَبِهِمْ، وَالْأُخْرَى مِنْ  
رِذَائِلِهِمْ.

وَيُخْبِئُونَ فِي أَدْمَعْتِهِمْ فَكْرَتِينِ خَبِيثَتِينِ: أَنْ يَكُونَ الْأَرْبَعُ أَقْلَيَةً، ثُمَّ أَنْ يَكُونُوا  
بَعْدَ ذَلِكَ خَدَمَ الْيَهُودَ.

فِي أَنْفُسِهِمْ الْحَقْدُ، وَفِي خَيَالِهِمُ الْجَنُونُ، وَفِي عَقُولِهِمُ الْمَكْرُ، وَفِي أَيْدِيهِمُ  
الْأَذْهَبُ الَّذِي أَصْبَحَ لَيْمَاءً لِأَنَّهُ فِي أَيْدِيهِمُ .  
أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! كُلُّ قَرْشٍ يُدْفَعُ لِفِلَسْطِينِ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيَتَكَلَّمَ كَلْمَةً تَرْدُ  
إِلَى هُؤُلَاءِ الْعُقُولِ .

\* \* \*

إِتَّلَوْهُمْ بِالْيَهُودِ يَمْرُؤُونَ مَرْوَرَ الْدَّنَانِيرِ بِالرَّبَا الْفَاحِشِ فِي أَيْدِي الْفَقَرَاءِ .  
كُلُّ مَائَةٍ يَهُودِيٌّ عَلَى مَذْهَبِ الْقَوْمِ يَجْبُ أَنْ تَكُونَ فِي سَنَةٍ وَاحِدَةٍ مَائَةَ  
وَسَعْبَيْنِ . . .

حَسَابُ خَبِيثٍ يَبْدُأُ بِشَيْءٍ مِنَ الْعُقُولِ، وَلَا يَنْتَهِي أَبَدًا وَفِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْعُقُولِ .  
وَالسِّيَاسَةُ وَرَاءَ الْيَهُودِ، وَالْيَهُودُ وَرَاءَ خَيَالِهِمُ الْدِينِيِّ، وَخَيَالُهُمُ الْدِينِيُّ هُوَ طَرْدُ  
الْحَقِيقَةِ الْمُسْلِمَةِ .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! كُلُّ قَرْشٍ يُدْفَعُ لِفِلَسْطِينِ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِتَبَيَّنَ الْحَقِيقَةَ  
الَّتِي يُرِيدُونَ طَرَدَهَا .

\* \* \*

يَقُولُ الْيَهُودُ: إِنَّهُمْ شَعْبٌ مُضطَهَدٌ فِي جَمِيعِ بَلَادِ الْعَالَمِ .  
وَيَزْعُمُونَ: أَنَّ مَنْ حَقَّهُمْ أَنْ يَعِيشُوا أَحْرَاراً فِي فِلَسْطِينِ، كَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ  
جَمِيعِ بَلَادِ الْعَالَمِ . . .

وَقَدْ صَنَعُوا لِلإنْجِلِيزِ أَسْطُولًا عَظِيمًا لَا يُسْبَحُ فِي الْبَحَارِ، وَلَكِنْ فِي  
الْخَزَائِنِ . . .

وَأَرَادَ الْإنْجِيلِيزُ أَنْ يَطْمَئِنُوا فِي فِلَسْطِينَ إِلَى شَعْبٍ لَمْ يَتَعَوَّذْ قُطُّ أَنْ يَقُولَ: أَنَا .  
وَلَكِنْ لِمَاذَا كَسَّتُكُمْ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْ أَرْضِهَا بِمَكْنَسَةِ أَيُّهَا الْيَهُودِ؟

\* \* \*

أَجَهِلْتُمُ الْإِسْلَامَ؟ الْإِسْلَامُ قُوَّةٌ كَتَلَكَ الَّتِي تُوجِدُ الْأَنْيَابَ وَالْمُخَالَبَ فِي كُلِّ  
أَسْدٍ .

قوه تخرج سلاحها بنفسها، لأن مخلوقها عزيز لم يوجد لثوكل، ولم يخلق ليذل.

قوه تجعل الصوت نفسه حين يزمح، كأنه يعلن ألسديه العزيزة إلى الجهات الأربع.

قوه وراءها قلب مشتعل كالبركان، تحول فيه كل قطرة دم إلى شرارة دم ولئن كانت الحوافر تهين مخلوقاتها ليركبها الراكب، إن المخالف والأنياب تهين مخلوقاتها لمعنى آخر.

\* \* \*

لو سُئلت ما الإسلام في معناه الاجتماعي؟ لسألت: كم عدد المسلمين؟ فإن قيل: ثلاثة مليون. قلت: فالإسلام هو الفكرة التي يجب أن يكون لها ثلاثة مليون قوه.

أيجوع إخوانكم أيها المسلمين وتشبعون؟ إن هذا الشبع ذنب يعاقب الله عليه.

والغنى اليوم في الأغنياء الممسكين عن إخوانهم، هو وصف الأغنياء باللؤم لا بالغنى.

كل ما يبذل المسلمون للفلسطينين، يدل دلالات كثيرة، أقلها سياسة المقاومة.

\* \* \*

كان أسلافكم أيها المسلمين يفتحون الممالك، فافتتحوا أنتم أيديكم . . .

كانوا يرمون بأنفسهم في سبيل الله غير مكترين<sup>(١)</sup>، فارموا أنتم في سبيل الحق بالدنانير والدرام.

لماذا كانت القبلة في الإسلام إلا لتعتاد الوجوه كلها أن تحول إلى الجهة الواحدة؟

لماذا أرتفعت المآذن إلا ليعتاد المسلمون رفع الصوت في الحق؟  
أيها المسلمون! كونوا هناك. كونوا هناك مع إخوانكم بمعنى من المعاني.

\* \* \*

(١) مكترين: مهتمين.

لو صَامَ الْعَالَمُ إِلَسْلَامِيًّا كُلُّهُ يَوْمًا وَاحِدًا وَبِذَلِّ نَفَقَاتِ هَذَا الْيَوْمِ الْوَاحِدِ  
لِفَلَسْطِينَ، لَأَغْنَاهَا.

لو صَامَ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ يَوْمًا وَاحِدًا لِإِعْانَةِ فَلَسْطِينَ، لَقَالَ النَّبِيُّ مُعَاخِرًا  
الْأَنْبِيَاءَ: هَذِهِ أُمَّتِي!

لو صَامَ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا يَوْمًا وَاحِدًا لِفَلَسْطِينَ، لَقَالَ أَلِيَهُودُ الْيَوْمَ مَا قَالَهُ  
آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلٍ: إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ . . .

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! هَذَا مَوْطَنٌ يَزِيدُ فِيهِ مَعْنَى الْمَالِ الْمَبْذُولِ فَيَكُونُ شَيْئًا  
سَمَاوِيًّا.

كُلُّ قِرْشٍ يَبْذُلُهُ الْمُسْلِمُ لِفَلَسْطِينَ، يَتَكَلَّمُ يَوْمُ الْحِسَابِ يَقُولُ: يَا رَبَّ، أَنَا  
إِيمَانٌ فَلَانَ!

## قصة الأيدي المتوضّلة . . .

قال راوي الخبر : ذهبت إلى المسجد لصلاة الجمعة ، وألمسجد يجمع الناس بقلوبيهم ليخرج كل إنسان من دنيا ذاته ، فلا يفكّر أحد أنة أسمى من أحد ، ولقد يكون إلى جانبك الصانع أو الأجير أو الفقير أو العاجل ، وأنت الرئيس أو العظيم أو الغني أو العالم ، فتنظر إليه وإلى نفسك فتحس كأن خواطرك متوضّلة متطرّفة ، وترى كلمة الكبارباء قد فقدت روحها ، وكلمة التواضع قد وجدت روحها ؛ وتشعر بالنفس المجتمعية قد نصب الحرب للنفس المنفردة ؛ ولو خطرك شيء يخالف ذلكرأيتك الفقير إلى جانبك توبيخا لك ، ونظرت إليه ساكتا وهو يتكلّم في قلبك ، وشعرت بالله من فوقكما ، واستعلنت لك روح المسجد كأنها تهُم بطردك منه ، وخيل إليك أن الأرض سلطان وجهك إذا سجّدت عليها ، وأيقنت من ذات نفسك أن لست هناك في دنياك وليس صاحبك في دنياه ، وإنما أنتما هناك في إنسانية ميزانها بيد الله وحده ؛ فلا تدرى أيكما الذي يخف وأيكما الذي ينفل .

قال : والعجيب أن هذا الذي لا يجهله أحد من أهل الدين ، يعرفه بعض علماء الدين على وجه آخر ، فتراه في المسجد يمشي مختالاً ، قد تحلّي بحليلته ، وتتكلّف لزهوه ، فليس الحبة تسعم اثنين ، لا وتطاول كأنه المئذنة ، وتصدر كأنه القبلة ، وانتفع كأنه ممتليء بالفروق بينه وبين الناس ؛ وهو بعد كل هذا لو كشف الله تمويهه لأنكشف عن تاجر علم بعض شروطه على الفضيلة أن يأكل بها ، فلا يجد دنيا ذاته إلا في المسجد ، فهو نوع من كذب العالم الديني على دينه .

\* \* \*

قال راوي : وصعد الخطيب المنبر وفي يده سيفه الخشبي يتوّكأ عليه ؛ فما استقر في الذروة حتى خيل إلى أن الرجل قد دخل في سر هذه الخشبة ، فهو يبدو كالمريض ثقيمه عصاه ، وكالهرم يمسكه ما يتوّكأ عليه ؛ ونظرت فإذا هو كذب صريح على الإسلام وال المسلمين ، كهيئة سيفه الخشبي في كذبها على السيف ومدعنهما وأعمالها .

وتالله ما أدرى كيف يستحل عالم من علماء الدين الإسلامي في هذا العصر، أن يخطب المسلمين خطبة جمعتهم وفي يده هذا السيف علامه الذل والضعة والترابع والانقلاب والإدبار والهزل والسخرية والفضيحة والإضحاك؛ ومتى كان الإسلام يأمر بتجنر السيف من الخشب وتحتها وتسويتها وإرهاف حدها الذي لا يقطع شيئاً، ثم وضعها في أيدي العلماء يعتلون بها ذئابة<sup>(١)</sup> كل منبر، لتعلق بها العيون، وتشهد فيها الرمز والعلامة، وتستوحى منها المعنوية في الدينية التي يجب أن تجسم لترى؟

أفي سيف من الخشب معنوية غير معنى الهزل والسخافة، وبلاهة العقل وذلة الحياة، ومنسخ للتاريخ الفاتح المتصدر، والرمز لخضوع الكلمة وصيانته الإرادة؟

قال: وكان تمام الهزء بهذا السيف الخشبي الذي صنعته وزارة أوقاف المسلمين، أنه في طول صمصامة<sup>(٢)</sup> عمرو بن معدني كرب الزبيدي فارس الجahليه والإسلام، فكان إلى صدر الخطيب، ولو لا أنه في يده لظهر مقبضه في صدر الرجل كأنه وسام من الخشب . . .

قال: وكان الخطيب إذا تكلّف وتصنّع وظهر منه أنه قد حمي وثار ثائرة، أرتع وغفل عن يده، فتضطرب فيها قبضة السيف فتليكتزه في صدره كأنما تذكره أن في يده خشبة لا تصلح لهذه الحماسة . . . !<sup>(٣)</sup>

\* \* \*

قال: وخطب العالم على الناس، وكان سيفه الخشبي يخطب خطبة أخرى: فاما الأولى فهي محفوظة معروفة ولا تنتهي حتى ينتهي أثرها، إذ هي كالقراءة لإقامة الصلاة؛ وكانت في عهدها الأولى كالدرس لإقامة شأن من شؤون الاجتماع والسياسة، فيبينها وبين حقيقتها الإسلامية مثل ما بين هذا السيف من الخشب وبين حقيقته الأولى. وأمام الخطبة الثانية فقد عقلتها أنا عن تلك الخشبة وكتبتها، وهذه هي عبارتها:

ويحكم أيها المسلمون! لو كثُرت بقية من خشب سفينه نوح التي أنقذ فيها

(١) ذئابة: رأس.

(٢) صمصامة: اسم للسيف.

(٣) كانت القاعدة الشرعية تبيح للخطيب المسلم، إذا ما افتح بلداً غضباً بالسيف أن يخطب وبيده سيفه.

الجنس البشري، لَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تَضَعُونِي هَذَا الْمَوْضِعُ؛ وَمَا جَعَلَكُمُ اللَّهُ حِثْ أَنْتُمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَعَلْتُمُونِي حِثْ أَنَا، تَكَادُ شَرَارَةً تَذَهَّبُ بِي وَبِكُمْ مَعَا، لِأَنَّ فِي وَفِيكُمُ الْمَادَةُ الْخَشِيَّةُ وَالْمَادَةُ الْمَتَخَشِّبَةُ.

وَيَحْكُمُ! لَوْ أَنَّهُ كَانَ لِخَطِيبِكُمْ شَيْءٌ مِّنَ الْكَلَامِ الْنَّارِيِّ الْمُضْطَرِمِ، لَمَا بَقِيَتِ الْخَشِيَّةُ فِي يَدِهِ خَشِبَةً. وَكَيْفَ يَمْتَلِئُ الرَّجُلُ إِيمَانًا بِإِيمَانِهِ، وَكَيْفَ يَصْعُدُ الْمِنْبَرُ لِيَقُولَ كَلْمَةُ الدِّينِ مِنَ الْحَقِّ الْغَالِبِ، وَكَلْمَةُ الْحَيَاةِ مِنَ الْحَقِّ الْوَاجِبِ - وَهُوَ كَمَا تَرَوْنَهُ قَدِ اَنْتَهَى مِنَ النَّذْلِ إِلَى أَنْ فَقَدَ السَّيفَ رُوحَهُ فِي يَدِهِ؟

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! لَنْ تُفْلِحُوا<sup>(١)</sup> وَهَذَا خَطِيبُكُمُ الْمُتَكَلِّمُ فِيهِمْ، إِلَّا إِذَا أَفْلَخْتُمْ وَأَنَا سَيْفُكُمُ الْمَدَافِعَ عَنْكُمْ. أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، عَيْرُوهُ وَغَيْرُونِي.

\* \* \*

قَالَ رَاوِيُ الْخَبَرِ: وَلَمَّا قُضِيَتِ الْأَصْلَاحَ مَاجَ<sup>(٢)</sup> الْنَّاسُ إِذَا نَبَغَتِ فِيهِمْ جَمَاعَةٌ مِّنَ الشَّبَانِ يَصِيحُونَ بِهِمْ يَسْتَوْقِفُونَهُمْ لِيَخْطُبُوهُمْ؛ ثُمَّ قَامَ أَحَدُهُمْ فَخَطَبَ، فَذَكَرَ فَلَسْطِينَ وَمَا نَزَلَ بِهَا، وَتَغَيَّرَ أَحْوَالُ أَهْلِهَا، وَنَكَبَتِهِمْ وَجْهَاهُمْ وَأَخْتَلَالُ أُمُرِّهِمْ، ثُمَّ أَسْتَنْجَدَ وَأَسْتَعَنَ، وَدَعَا الْمُوسَرَ<sup>(٣)</sup> وَالْمُخْفَ<sup>(٤)</sup> إِلَى الْبَذْلِ وَالْتَّبْرِعِ وَإِقْرَاضِ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَتَقْدَمَ أَصْحَابُهُ بِصَنَادِيقَ مَخْتُومَةٍ، فَطَافُوا بِهَا عَلَى النَّاسِ يَجْمِعُونَ فِيهَا الْقَلِيلُ وَالْأَقْلَلُ مِنْ دَارِهِمَّ هِيَ فِي هَذِهِ الْحَالِ دَارُهُمُ أَصْحَابُهَا وَضَمَائِرُهُمْ.

قَالَ: وَكَانَ إِلَى جَانِبِي رَجُلٌ قَرُوئِيٌّ مِنْ هُؤُلَاءِ الْفَلاَحِينَ الَّذِينَ تَعْرِفُ الْخَيْرَ فِي وُجُوهِهِمْ، وَالصَّبَرَ فِي أَجْسَامِهِمْ، وَالْقَنَاعَةَ فِي نَفْوِهِمْ، وَالْفَضْلَ فِي سَجَایِهِمْ؛ إِذَا أَمْتَزَجَتْ بِهِمْ رُوحُ الْأَطْبَعَةِ الْخِصْبَةِ فَتُخْرُجُ مِنْ أَرْضِهِمْ زُرْوَعًا وَمِنْ أَنفُسِهِمْ زُرْوَعًا أُخْرَى - فَقَالَ لِرَجُلٍ كَانَ مَعَهُ: إِنَّ هَذَا الْخَطِيبَ خَطِيبُ الْمَسْجِدِ قَدْ غَشَّنَا وَهُؤُلَاءِ الشَّبَانُ قَدْ فَضَحَوْهُ؛ فَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ خَطْبَةُ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا فِي أَخْصَّ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ.

قَالَ: وَنَبَهَنِي هَذَا الرَّجُلُ السَّادُوجُ إِلَى مَعْنَى دَقِيقِ فِي حِكْمَةِ هَذِهِ الْمَنَابِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ فَمَا يُرِيدُ الْإِسْلَامُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ كَمْحَطَاتِ الإِذَاعَةِ، يَلْتَقِطُ كُلُّ مِنْبَرٍ أَخْبَارَ الْجَهَاتِ الْأُخْرَى وَيُذْيِعُهَا فِي صِيَغَةِ الْخَطَابِ إِلَى الْرُّوْحِ وَالْعُقْلِ وَالْقُلْبِ، فَتَكُونُ

(١) تُفْلِحُوا: تَسْجُحُوا.

(٢) الماج: الغني.

(٣) الموسر: الفقير.

(٤) المخف: الفقير.

خطبة الجمعة هي الكلمة الأسبوعية في سياسة الأسبوع أو مسألة الأسبوع؛ وبهذا لا يجيء الكلام على المنابر إلا حيًّا بحياة الوقت، فيُصبح الخطيب ينتظره الناس في كل جمعة انتظار الشيء الجديد؛ ومن ثم يستطيع المنبر أن يكون بينه وبين الحياة عمل.

قال : وخُيلَ إِلَيَّ بَعْدَ هَذَا الْمَعْنَى أَنَّ كُلَّ خَطِيبٍ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ ناقصٌ إِلَى النَّصْفِ، لِأَنَّ السِّيَاسَةَ تُكَرِّهُهُ أَنْ يَخْلُغَ إِسْلَامِيَّتَهُ الْوَاسِعَةَ قَبْلَ صَعْدَوْهُ الْمَنْبَرَ، وَأَلَا يَصْدُعَ إِلَّا فِي إِسْلَامِيَّتِهِ الْضَّيقَةِ الْمَحْدُودَةِ بِحَدَّدَوْهُ الْوَعْظَ هُوَ مَعَ ذَلِكَ نَصْفٌ وَعَظٌ ... فَالْخَطْبَةُ فِي الْحَقِيقَةِ نَصْفٌ لِخَطْبَةٍ، أَوْ كَأَنَّهَا أَثْرٌ لِخَطْبَةٍ مَعَهَا أَثْرٌ لِسِيفٍ ...

قال : وأخْرَجَ الْقَرْوَى كِيسَةً فَعَزَّلَ مِنْهُ دِرَاهِمٍ وَقَالَ : هَذِهِ لِطَعَامٍ أَتَبْلُغُ بِهِ وَلِأَوْبَتِي<sup>(١)</sup> إِلَى الْبَلَدِ، ثُمَّ أَفْرَغَ الْبَاقِي فِي صَنَادِيقِ الْجَمَاعَةِ؛ وَأَفْتَدَنِي أَنَا بِهِ فَلَمْ أَخْرُجْ مِنَ الْمَسَاجِدِ حَتَّى وَضَعَّتْ فِي صَنَادِيقِهِمْ كُلَّ مَا مَعِيَ؛ وَلَقَدْ حَسِبْتُ أَنَّهُ لَوْ بَقَيَ لِي دِرْهَمٌ وَاحِدٌ لَمْضِي يَسْبُّنِي مَا دَامَ مَعِيَ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ عَنِّي .

\* \* \*

قالَ الْرَّاوِيُّ : ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَى ضَرِيعِ صَاحِبِ الْمَسَاجِدِ أَزُورَهُ وَأَقْرَأْ فِيهِ مَا تِيسَرَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَإِذَا هُنَاكَ رِجَالٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، إِثْنَانِ أَوْ ثَلَاثَةَ : (الشُّكُّ فِي ثَالِثِهِمْ لَاَنَّهُ حَلِيقُ الْلِّحَيَةِ). ثُمَّ تَوَافَى<sup>(٢)</sup> إِلَيْهِمْ آخَرُونَ فَتَمُوا سَبْعَةَ؛ وَرَأَيْتُهُمْ قَدْ خَلَطُوا بِأَنفُسِهِمْ صَاحِبَ (اللَا لِحَيَةِ)، فَعْلَمْتُ أَنَّهُ مِنْهُمْ عَلَى الْمَذَهِبِ الشَّائِعِ فِي بَعْضِ الْعَصْرَيْنِ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَالْقَضَاءِ الْشَّرِعَيْنِ، أَحْسَبُهُمْ يَحْتَجُونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ فِي أَكْثَرِنَا تَوَوِّيْرٌ<sup>٣</sup>؛ وَكُلُّ أَمْرَى إِنَّمَا تَبَصِّرُهُ مَرَأَتُهُ كَيْفَ يَظْهُرُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، أَبْلُحِيَّةُ أَمْ بِلَا لِحَيَةَ ... ؟

وَأَدْرَكْتُ عَيْنِي فِي وُجُوهِهِمْ، فَإِذَا وَقَازْ وَسَمْتُ وَنُورَ لَمْ أَرَ مِنْهَا شَيْئًا فِي وَجْهِ صَاحِبِ (اللَا لِحَيَةِ)؛ وَأَنَا فَمَا أَبْصَرْتُ قُطُّ لِحَيَةَ رَجُلٍ عَالَمٌ أَوْ عَابِدٌ أَوْ فِي لِسُوفِ أَوْ شَاعِرٍ أَوْ كَاتِبٍ أَوْ ذِي فَنٍ عَظِيمٍ، إِلَّا ذَكَرْتُ هَذَا الْمَعْنَى الْشَّعْرَى الْبَدِيعَ الَّذِي وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ، مِنْ أَنَّ لِلَّهِ (تَعَالَى) مَلَائِكَةً يُقَسِّمُونَ: وَالَّذِي زَيَّنَ بْنِي آدَمَ بِاللُّحْنِ .

وَكَانَ مِنَ السَّبْعَةِ رَجُلٌ تَرَكَ لِحَيَتَهُ عَافِيَةً عَلَى طَبِيعَتِهَا؛ فَأَمْتَدَتْ وَعَظَمَتْ حَتَّى

(٢) تَوَافِي : جاءَ.

(١) أَوْبَتِي : عَوْدَتِي .

نَسَرَتْ حَوْلَهَا جَوَّا رُوحَانِيًّا مِنَ الْهَبِيَّةِ تُشْعِرُ الرِّقِيقَةَ بِتَيَارِهِ عَلَى بُعْدٍ، فَكَانَ هَذَا أَبْلَغَ رَدًّا عَلَى ذَلِكَ.

\* \* \*

قال؛ وأنصَتَ الشَّيْخُ جَمِيعًا إِلَى خَطْبِ الشَّيْخِ، وَكَانَتْ أَصْوَاتُ هُؤُلَاءِ جَافِيَّةً<sup>(١)</sup> صَلْبَةً حَتَّى كَانَهَا صَحْبٌ<sup>(٢)</sup> مَعْرُوكَةً لَا فُنْ خَطَابَةً، وَعَلَى قَدْرِ ضَعْفِ الْمَعْنَى فِي كَلَامِهِمْ قَوْيَّ الصَّوْتِ؛ فَهُمْ يَصْرُخُونَ كَمَا يَصْرُخُ الْمُسْتَغْيَثُ فِي صَيْحَاتِ هَارِبَةٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

فَقَالَ أَحَدُ الشَّيْخِ الْفَضَلَاءِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ! جَاءَ فِي الْخَبَرِ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينِ إِنَّهُ تَعَسَّ عَبْدُ الدِّرَهْمِ». وَوَاللَّهِ مَا تَعَسَّ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا مِنْذُ تَعَبَّدُوا لِهَذِينَ حِرْصًا وَشُحًّا؛ «وَمَنْ يُوَقَّعْ شَعَّ نَفْسِهِ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»<sup>(٣)</sup>، وَلَوْ تَعْرَفْتُ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْحَوَادِثِ لَمَا أَنْكَرْتُهُمُ الْحَوَادِثِ.

فَقَالَ آخَرُ: وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ الْلَّهَفَانِ»، وَلَكِنْ مَا بَالُ هُؤُلَاءِ الشَّيْخَانِ لَا يُورِدونَ فِي خَطْبِهِمْ أَحَادِيثَ مَعَ أَنَّهَا هِيَ كَلِمَاتُ الْقُلُوبِ؟ فَلَوْ أَنَّهُمْ شَرَحُوا لِلْعَامَةِ هَذَا الْحَدِيثَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ الْلَّهَفَانِ» لَأَسْرَعَ الْعَامَةَ إِلَى مَا يُحِبِّهُ اللَّهُ.

قَالَ الْثَالِثُ: وَلَكِنْ جَاءَنَا الْأَثْرُ فِي وَصْفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ: «إِنَّهَا فِي أُولِي الْزَمَانِ يَتَعَلَّمُ صَغَارُهَا مِنْ كِبَارِهَا، فَإِذَا كَانَ آخَرُ الْزَمَانِ تَعْلَمُ كِبَارُهُمْ مِنْ صَغَارِهِمْ». فَنَحْنُ فِي آخِرِ الْزَمَانِ، وَقَدْ سُلْطَ الصَّغَارُ عَلَى الْكِبَارِ يُرِيدُونَ أَنْ يَقْلُوُهُمْ عَنْ طِبَاعِهِمْ إِلَى صِبَيَانِيَّةٍ جَدِيدَةٍ.

قَالَ الْرَّاوِيُّ: فَقُلْتُ لِصَدِيقِي مَعِي: قُلْ لِهَذَا الشَّيْخَ: لَيْسَ مَعْنَى الْأَثْرِ مَا فَهَمْتَ، بَلْ تَأْوِيلُهُ أَنَّ آخَرَ الْزَمَانِ سَيَكُونُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ زَمْنُ جِهَادٍ وَاقْتِحَامٍ، وَعَزِيزَةٍ وَمُغَالِبَةٍ عَلَى أَسْتِقلَالِ الْحَيَاةِ؛ فَلَا يَصْلُحُ لِوَقَايَةِ الْأُمَّةِ إِلَّا شَبَابُهَا الْمُتَعَلَّمُ الْقَوِيُّ الْجَرِيءُ، كَمَا نَرَى فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ، فَيَنْزَلُونَ مِنَ الْكِبَارِ تَلَكَ الْمُنْزَلَةَ؛ إِذْ تَكُونُ الْحَمَاسَةُ مُتَمَمَةً لِقُوَّةِ الْعِلْمِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «أَمْتَي كَالمَطَرِ: لَا يُدْرِى أُولُهُ خَيْرٌ أَمْ آخْرُهُ».

\* \* \*

قَالَ الْرَّاوِيُّ: وَلَمْ يَكُدْ لِصَدِيقِي يَحْفَظُ عَنِّي هَذَا الْكَلَامَ وَيَهُمْ بِتَبْلِيغِهِ، حَتَّى

(١) جَافِيَّة: قَاسِيَّةٌ صَلْبَةٌ.

(٢) صَحْب: ضَجْجِيَّ.

(٣) شَعَّ: بَخْلٌ.

وقعت الصيحة في المكان؛ فجاء أحد الخطباء ووقف يفعل ما يفعله الرعد: لا يكرر إلا زمرة واحدة؛ وكان الشیوخ الأجلاء قد سمعوا كلَّ ما قيل، فأطروا يسمعونه مرة رابعة أو خامسة؛ وفرغ الشباب من هدیره فتحول إليهم وجلس بين أيديهم متأدباً متخشعاً ووضع الصندوق المختوم.

فقال أحد الشیوخ: لم يخف علينا مكانك، وقد بذلت ما أستطيعت؛ فبارك الله فيك وفي أصحابك.

وسكت الشاب، وسكت الشیوخ، وسكت الصندوق أيضاً... .

ثم تحركت النفس بوخي الحالة؛ فمدد أولئم يده إلى جيده، ثم دسها فيه، ثم عيَّث<sup>(١)</sup> فيه قليلاً؛ ثم... أخرج الساعة ينظر فيها.

وانتقلت العدوى إلى الآباقين، فأخرج أحدهم منديله يتمخضُ فيه، وظهرت في يد الثالث سبحة طويلة، وأخرج الرابع سواكاً فمر به على أسنانه، وجر الخامس كراسة كانت في قبائه، ومدد صاحب اللحية العريضة أصابعه إلى لحيته يخللها؛ أما السابع صاحب (اللاحية)، فثبتت يده في جيده ولم تخرج، كان فيها شيئاً يستحب إذا هو أظهره، أو يخشى إذا هو أظهره من تخجيل الجماعة.

وسكت الشاب، وسكت الشیوخ، وسكت الصندوق أيضاً... .

قال الراوي: ونظرت فإذا وجوهُم قد لبست للشاب هيئة المدرس الذي يقرؤ لـ تلميذه قاعدة قررها من قبل ألف مرة لألف تلميذ؛ فخجل الشاب وحمل صندوقه ومضى... .

\* \* \*

أقول أنا: فلما أنهى الراوي من (قصة الأيدي المتوضعة)، قلت له: لعلك أيها الراوي أستيقظت من الحلم قبل أن يملأ الشیوخ الأجلاء هذا الصندوق، وما ختم عقلك هذه الرواية بهذا الفصل إلا بما كدَّت<sup>(٢)</sup> فيه ذهنك من فلسفة تحول السيف إلى خشب؛ ولو قد أمند بك النوم لسمعت أحدهم يقول لسايرهم: بمن ينهض إخواننا المجاهدون وبمن يصلوون؟ لهذا قال رسول الله ﷺ: «جاهر سخي<sup>(٣)</sup> أحب إلى الله من عالم بخيل». ثم يملئون الصندوق... .

(١) عيَّث فيه قليلاً: أي بحث بأصبعه.

(٢) كدَّت: أتعنت.

(٣) سخي: كريم.

## نحوى التمثال

أيها المفترش الصخرة يشد ذراعيه أقوى الشد كأنما يريد أن يقتلع الصخرة  
فيهما،

مُتَاهِضًا بصدره<sup>(١)</sup> ليدل على أنه وإن ربع فإن الوثبة في يديه، متمطياً<sup>(٢)</sup>  
بصلبه ليشير من جسمه الهادئ إلى معانبه المفترسة، مقيعاً على ذنبه<sup>(٣)</sup> ومتحفزاً  
بسائره كأنه قوة اندفاع تهم أن تنفلت من جاذبية الأرض.

وأنت أيتها الهيفاء<sup>(٤)</sup> تمثل الإنسانية المتمدنة في حفافتها وهي بهذه الإنسانية  
ضاربة بذراعيأسد في غلظ مدفعين . . . .

حكيمة في النظر كأنما تمد في سرائر الأمم نظرة المتأمل، ولكن يدها كيد  
الحكمة السياسية على تركيب عقلي تحته المخالف . . . .

ساكنة كأنها تمثال السلام على أنها في جوار الأسد كسلام بين الشعوب:  
تلمح فيه إنسان العالم ووحش العالم . . . .  
يا أبا الهول.

الآن جواب عن ذلك اللغز القديم الذي هو كلام لا يتكلّم وسكت لا  
يسكت.

والذي أشار برأس الإنسان على جسم الليث<sup>(٥)</sup> أنه قوة عمياء كالضرورة  
ولتكنها مبصرة كالأختيار.

والذي أخرج من فني الغريبة والعقل فنا ثالثا لا يزال في الأرض يتظاهر المرأة  
التي تلد إنسانا عظامه من الحجر؟

(١) متاهضاً بصدره: مرتفعاً.

(٢) متمطياً: متمدداً، وذلك بعد النوم.

(٣) مقيعاً على ذنبه: جالساً.

(٤) الهيفاء: الفتاة الممتشقة الطول.

(٥) الليث: الأسد.

وأنت يا مصر:

أواقفة ثمة للشرح والتفسير، تقولين للمصري: إن أجدادك يسألونك من  
آلاف السنين بهذا الرمز: ألا معجزة من القوة تمط عضلات الحجر؟  
الا بسطة<sup>(١)</sup> من العلم يجعلك أيها المصري وكأنك رأس لجسم الطبيعة؟ ألا فن  
جديد ترفع به أبا الهول في الجو فتزبده على قوة الوحش وذكاء الإنسان خفة أظير؟  
أم تقولين للمصري: إن أجدادك يوصونك بهذا الرمز أن تكون كالظاهر  
الأسدي لا يركب مطاها، وكالرأس الإنساني لا تقيده حريته، وكالرئضة الجبلية لا  
تشهل إزاحتها، وكالإبهام المركب من غامضين لا يتيسر به عبث العابث،  
وكالصراحة المجتمعية من عنصر واحد لا يغلط في حقيقتها أحد؟  
أم تقولين يا مصر: إن تفسير أبي الهول الأول أن النهضة المصرية إنما تكون  
يوم تخرج البلاد من يصنع أبا الهول الثاني؟

\* \* \*

تمثال النهضة أم صحفة من الحجر قد صور الشعب عليها، ودون فيها  
إحساسه بتاريخه، ووصف بها إدراكه حياة المعانى السامية؟  
أم هو كتابه فصل من التاریخ بقلم الحياة وعلى طریقة من بلاغتها، خشیث  
عليه الفتاء فدوتته في أسلوب من أساليب البقاء الحجري الصلدى؟  
أم ذاك يوم من أيام الأمة أحالة الفن من زمن إلى مادة؛ ومن معنى إلى  
حسن، ومن خبر إلى منظر، وكانوا يتكلمون عنه فجعله الفن يتكلم عن نفسه؟  
أم هو تعبير عن تلك المعانى التي خلقتها نفوس هذا الجيل تُخاطب به  
النفوس الآتية ليتعمّم عليها، وتُضيف فيه إلى المعنى سرّ المعنى، وتوضع الكلمة  
الإنسانية على لسان الطبيعة تتكلم بالتمثال كما تتكلم بالجيل؟  
أم تركيب سياسي إذا فسرته اللغة كان معناه أن الثابت إذا احتاج إلى من  
يثبته... فلن يمحوه من ينكره، وأن الظاهر إن احتاج إلى من يدل عليه... فلن  
يخفيه من لا يراه؟

\* \* \*

(١) بسطة: سعة.

بل أراك لا هول<sup>(١)</sup> فيك يا أبا الهول الجديد.

أفذاك من رقة داخلك ورحمة جاءتك من مس يد المرأة...؟

أم الهول اليوم قد أصبح في العقل والعاطفة ومد العين النسائية إلى  
بعد...؟

أم لا يتم في هذه المدينة رأس رجل وجسم سبع إلا... إلا بتأمل أمراة؟  
ألا من يعلمني بهذه المرأة منك هي تهذيب لإنسان والوحش أم تكلمة  
عليهما؟

ألا من يأتيني بالحكمة فيك من وضع الرجل القوي رأساً ولا جسم، والأسد  
المفترس جسماً ولا رأس، ثم لا يكمل دونهما إلا المرأة وحدها.

إنما كنت يا أبا الهول لغز الصمت، فلما أضيقت المرأة إليك أصبحت لغز  
النطق... فيا للهول!

---

(١) هول: قرة.

## فاتحُ الْجَوَّ الْمَصْرِيٌّ

يا طيرَ المثلِ الأعلى!

لقد انقلت<sup>(١)</sup> من رذيلة الخوف وتركتها في الترابِ موطئَ القدم، وقلت لها: ويحكِ، لقد آن للشبابِ المصري؛ فهو مغامس<sup>(٢)</sup> في ماءِ الصواعق<sup>(٣)</sup>، مُتَطَرَّخٌ<sup>(٤)</sup> في اللُّجَةِ الأَزْلِيَّةِ<sup>(٥)</sup> التي تغوصُ فيها الكواكبُ<sup>(٦)</sup>، يطيرُ بروحِ الشَّرارةِ، ويهبطُ بروحِ الغيث<sup>(٧)</sup>، ويُلْجِمُ<sup>(٨)</sup> الْجَوَّ ويسريجه<sup>(٩)</sup>، ويتعلمُ كيف يشوي عدوه في عينِ الشمسِ.

وكنت بطلًا مغامراً فخطوتَ في طريقِ الملائكةِ بهذهِ الفضيلةِ وحملَكَ الْجَوَّ؛ ولو أنكِ حفَتَ وكنتَ على جناحيِ جبريلٍ لا على طيارَةِ لَخَافَ جبريلٌ على جناحيِه من حَطْمَةِ هذا المعنى الترابيِّ الطاغيَّةِ الذي يَحْكُمُ على الأحياءِ بالموتِ بلا موتِ، لأنَّهُ أَذْلُّ والخضوعُ والرذيلةِ.

وحملَكَ الْجَوَّ إلى قبةِ السماواتِ، وهنالكَ نظرَ العالَمِ فرأى لمصرَ الناهضةِ علَمَها الإنسانيَّ يتَنَفسُ تحتَ الكواكبِ.

وحملَكَ الْجَوَّ إلينا، فلما رفعتَ رؤوسَنا لِنراكَ، رفعتها في الْوَقْتِ بين شعوبِ الأرضِ.

\* \* \*

وضربت يا جنَاحَ مصرَ في الهواءِ، وأعنانُ السماءِ<sup>(١٠)</sup> مملوءةٌ بالزَّعْزَعِ<sup>(١١)</sup> والهوجاءِ والعاصفِ، والسماءُ في فصلِها المُكْفَهِرُ الذي تخلعُ فيه كلُّ ساعةٍ وتلبسُ

(١) انقلت: تخلَّصت.

(٢) مغامس: مبلل.

(٣) تلك كنایة عن السحاب.

(٤) متَطَرَّخ: متماثل في كل اتجاه.

(٥) اللُّجَةِ الأَزْلِيَّةِ: السماء.

(٦) تلك كنایة عن أجوازِ الفضاء.

(٧) الغيث: المطر.

(٨) يُلْجِم: يضع اللجام للحصان.

(٩) يُسْرِجِه: يضع السرج للحصان.

(١٠) أعنان، مفرده عنان، بالفتح: نواحيها.

(١١) الزَّعْزَع: تردد الصوت كالجلجلة.

وَسَمِّقَ<sup>(١)</sup> وَتَطْوِي، فَزِدْتَ بِجُرْأَتِكَ فِي بِرَاهِينِ الْقَضِيَّةِ الْمُصْرِيَّةِ بِرَهَانَ قَوَّةِ الْمُخَاطِرَةِ، وَأَضَفْتَ إِلَى مَنْطِقَهَا وَضِعَّاً جَدِيداً مُفْحِماً مِنْ رُوحِ التَّضْحِيَّةِ.

وَطَرِّتَ بَيْنَ حَيَاةِ وَمَوْتٍ فَجَعَلْتَهُمَا يَسْتَوِيَانِ فِي أَعْتَاقِكِ؛ إِذْ وَصَلْتَ فَكْرَةَ الْمَوْتِ بِسَرِّ الْإِيمَانِ، وَالْحَيَاةِ بِسَرِّ الْعَزِيمَةِ.

وَكُنْتَ رَجُلَ أَمْتَكَ بِإِنْكَارِ دَاتِ نَفْسِكَ مِنْ أَجْلِهَا.

وَأَنْسَغْتَ لِلتَّارِيخِ بِوَضِعِكَ عُمْرَكَ الْمَحْدُودَ عَلَى الْطَّيَّارَةِ، وَقَذَفْتَ بِهَا وَبِهِ فِي مَسْبَحِ الْأَجْلِ.

وَتَجَرَّذْتَ لِلْأَبْدِيَّةِ لِتُعْطِي بِلَادَكِ: إِنَّمَا شَهِيدَ مَجْدِ فِي الْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا شَهَادَةُ فَخِيرِ فِي الدُّنْيَا.

وَكُنْتَ عَلَى طَيَّارِتِكَ الْصَّغِيرَةِ الْمُتَطَارِدَةِ تَحْتَ الْرِّيحِ، وَحَوْلَكَ رُوحُ الْهَرَمِ الْأَكْبَرِ الْقَائِمِ بِإِرَادَةِ مَصْرٍ وَكَانَهُ مِسْمَارٌ مَدْقُوقٌ فِي كُرْتَةِ الْأَرْضِ بَيْنَ الْقَطْبِ وَالْقَطْبِ.

\* \* \*

وَأَنْتِ يَا «فَائِزةَةُ» يَا هَذِهِ الْصَّغِيرَةِ الْخَارِجَةِ مِنْ مَالِ صَاحِبِهَا وَجُهْدِهِ وَعَزِيزِتِهِ كَمَا تَخْرُجُ الْقَوَّةُ مِنْ ضَعْفِهِ، أَعْلَمْتِ إِذْ أَنْتِ تَرْتَفِعِينَ وَتَهْبِطِينَ بَيْنَ السُّبُّبِ كَمَا تَتوَاثِبُ الْفَرَاشَةُ عَلَى النَّوَارِ فِي رَوْضَةِ مُرْهَرَةِ، وَإِذْ أَنْتِ تَفْتَقِينَ وَتَحُوكِينَ فِي مُلَاءَةِ الْسَّحَابِ كَائِنَكِ بِمُحْرِّكِ الدَّوَارِ تَسْبِيْجِينَ فِي السَّمَاءِ بِمَغْرِلِ، وَإِذْ أَنْتِ بَيْنَ صَفَقِ الْرِّيَاحِ الْهُوَّجِ<sup>(٢)</sup>، تَحْتَ السَّمَاءِ الْمُدَجَّجَةِ<sup>(٣)</sup>، فِي كُبَّةِ الشَّتَاءِ<sup>(٤)</sup>، كَائِنَكِ مَنَاظِرَةً تَجْرِي بَيْنَ الْعَزِيزَةِ فِي الْإِنْسَانِ وَالْعَزِيزَةِ فِي الْطَّبِيعَةِ، وَإِذْ أَنْتِ بَيْنَ ذَنَابِ الْأَعْاصِيرِ، وَثَمُورِ الْسَّحَابِ<sup>(٥)</sup> وَسِبْعَ الْغَيْمِ ذَوَاتِ الْلَّبْدَةِ الْكَثِيفَةِ الْمُتَسَعَّةِ، كَائِنَكِ بِصُوتِكِ وَأَزِيزِكِ ثُطُلْقِينَ عَلَى وَحْوشِ الْجَوَّ مِدْفَعاً رَشَاشَا يَتَرَكُها صَرَعَى،

وَإِذْ تَرَاكِ الْرِّيَحُ فَتَقُولُ عَنِّكِ: رِيَحٌ صَنَعَهَا إِلَّا إِنْسَانٌ. وَيَرَاكِ النَّجْمُ فَيَقُولُ: نَجْمٌ أَفْلَتَ مِنَ النَّظَامِ الْأَرْضِيِّ. وَتَرَاكِ الْمَلَائِكَةُ فَتَقُولُ: وَيَحْكَ يَا أَبْنَ آدَمَ، كَائِنَكَ بِمَا

(١) كِتَابَةُ عنِ الْمَطَرِ وَطَبِيعَةِ الشَّتَاءِ.

(٢) الْهُوَّجُ، مَفْرِدُهُ هُوَجَاءُ أَيِّ الْمَجْنُونَ الَّتِي لَا تَسْقَرُ وَلَا تَهَدُ.

(٣) الْمَدَجَّجَةُ: الْمَفْعُومَةُ.

(٤) كُبَّةُ الشَّتَاءِ: عَنْهُ وَغَزَارَتِهِ.

(٥) السَّحَابُ: الْغَيْمُ.

خَلْقَهُ الْعُقْلُ تَطْمَعُ مِنَّا فِي سَجْدَةٍ أُخْرَى كَالَّتِي سَجَدْنَاهَا لِأَدَمَ يَوْمَ خَلْقَهُ اللَّهُ .  
 ... أَعْلَمْتِ إِذْ أَنْتِ كَذَلِكَ يَا «فَائِزَة»، أَنَّ الْتَّارِيخَ الْمَصْرَى سِيَحُولُكَ مِنْ  
 طَيَّارَةٍ إِلَى آيَةٍ كَآيَةٍ بَدْءَ الْخَلْقِ، لَأَنَّ فِيكَ بَدْءُ الطَّيْرَانِ فِي مَصْرَ؟

\* \* \*

سَلَامًا بِا فَاتَّحْ أَلْجُوَ الْمَصْرَى . لَقْدْ أَجَالَتِ الْأَيَامُ قِدَاحَهَا<sup>(۱)</sup> فَخَرَجَتِ الْقُرْعَةُ  
 عَلَيْكَ، وَأَوْحَى إِلَيْكَ الْوَاجِبُ آيَةً: بِسْمِ اللَّهِ مَضْعُدُهَا وَمَجْرَاهَا .  
 وَطَرِّظَتِ فَإِذَا أَنْتِ بِهَا عَابِرٌ فَوْقَ الْحَاضِرِ لِتَجِيَّنَا مِنْ جَانِبِ الْمُسْتَقْبَلِ .  
 وَهَبَطَتِ عَلَيْنَا كَائِنَكَ فِي بَرِيدِ الْسَّمَاءِ كِتَابٌ مَجْدٌ حَيٌّ لِلْوَطَنِيَّةِ الظَّافِرَةِ .  
 بَلْ كِتَابٌ قَصَّةٌ رَائِعَةٌ أَلْفَثَهَا الْعَوَاصِفُ مِنْ فَتَّينِ: ثُورَةُ الْجُوَوْ وَثُورَةُ نَفْسِكَ  
 الْمَصْرَيَّةِ . وَحَكَّتُهَا فِي صَوْتَيْنِ: زَفِيفِ الْطَّيَّارَةِ وَصَرْخَةِ ضَمِيرِكَ الْوَطَنِيِّ . وَجَعَلْتُهَا  
 فَصَلِينِ: أَنْتَ وَالْمَجْهُولُ . أَلَا حَسِبُكَ مَجْدًا أَنْ يَحِيَا الْشَّعْبُ كُلُّهُ بَضْعَةُ أَيَّامٍ فِي قَصْتِكِ!

\* \* \*

فَعَلَى مَهْدِ الْجُوَوْ، وَفِي حَرِيرِ الشَّعَاعِ، وَتَحْتَ كَلَّةِ السَّحَابِ - وُلَدَ لِمَصْرَ يَوْمَ  
 تَارِيْخِيَّ .

وَخَرَجَتِ الْتَّهَانِيَّةُ الَّتِي طَالَ احْتِبَاسُهَا<sup>(۲)</sup> فِي الْقُلُوبِ الْمَصْرَيَّةِ لَا يُفَرِّجُ عَنْهَا  
 لَأَنَّ سَجَانَهَا ظُلْمُ السِّيَاسَةِ .

وَأَتَجَهَتْ أَفْرَاحُ شَعْبٍ كَامِلٍ إِلَى الْفَتْنَى الْجَرِيِّ الَّذِي رَمَتْ بِهِ هِمَمَتُهُ فَوْقَ هَاوِيَّةِ  
 الْمَوْتِ فَتَخَطَّطَهَا .

وَتَلَقَّى شَعُورُ الْأَمَّةِ رَسُولَهُ الْمِقْدَامَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ مَلْجَأً فِي خِطَارِهِ إِلَّا  
 شَعُورَهُ بِهَذِهِ الْأَمَّةِ .

وَأَرْتَجَ الْوَادِي كَلَّهُ كَائِنَهُ غِمْدٌ يَتَقَلَّلُ حِينَ يُسَلُّ مِنْهُ السِّيفِ .  
 ثُمَّ أَهْدَيَتْ كَلْمَةً مِصْرَ لَاتَّبِعْنَا الَّذِي كَتَبَ فِي جُوْهَا الْكَلْمَةُ الْسَّمَاءُوَيَّةُ الْأَوْلَى .  
 وَكَانَتْ سَاعَةً تَلَاشَى عَنْدَهَا الْزَّمْنُ فَأَرْتَفَعَتْ مِنْهُ أَرْبَعَةُ آلَافٍ سَنَةٍ وَهَتَّفَ مَعْنَا  
 الْفَرَاعِنَةُ: بُورْكَتْ يَا «صِدْقَى»!

\* \* \*

(۱) قِدَاحَهَا: كَأسَهَا لِتَرْقَعَ فِيهَا عَلَى طَرِيقَةِ الْجَاهِلِيَّةِ .

(۲) احْتِبَاسُهَا: سِجْنَهَا .

لِلَّهِ دُرُكٌ أَيْمَا أَبْنَى عَزِيمَةً! كَائِنًا كَشْفَتْ أَهَاوِيلَ الْوَخْيِ وَهَبَطَتْ فِي سَحَابَةِ  
مُجَلِّجَةً إِنْ لَمْ تَحْمِلْ كِتَابًا مُتَزَلَّاً فَكَائِنًا حَمَلَتْ شَخْصًا مُتَزَلَّاً.  
وَلَعَلَّكَ رَسُولُ الْغَيْمِ الْعَالِسِ لِهَذَا الْجَوِّ الْمَصْرِيِّ الَّذِي يَضْحَكُ دَائِمًا ضَحْكَةَ  
الْفِيلِسُوفِ السَّاحِرِ فِي حِينٍ أَصْبَحَتِ الْحَيَاةُ قُوَّةً لَا فَلْسَفَةً...  
وَلَعَلَّكَ مَبْعُوثُ الْبَرْقِ وَالرَّدُّ لِهَذَا السَّكُونِ الْأَنَاءِ الَّذِي يَطْوِي كُلَّ يَوْمٍ فِي طَيِّ  
الْنَّسِيَانِ مَا حَدَثَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي قَبْلَهُ...  
وَلَعَلَّكَ نَبِيُّ الْجِدِيدَةِ وَالْمَرَارَةِ لِهَذِهِ الْحَلاوةُ الْأَنْيَلِيَّةُ الْمُفَرِّطَةُ الَّتِي كَادَ مِنْهَا  
الْشَّعْبُ أَنْ يَكُونَ سُكَّرَ أَخْلَاقِ يُذَابُ وَيُشَرِّبُ...  
وَلَعَلَّكَ تَفْسِيرُ مَصْحَحٍ لِعِقِيدَتِنَا الْمَغْلُوْطَةِ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ، أَنَّ الْقَضَاءَ أَنْ  
تَقْدِمَ بِلَا خَوْفٍ، وَأَنَّ الْقَدْرَ أَنْ تَثْقَلَ بِلَا مُبَالَةٍ.  
أَمَّا - وَاللَّهُ - لَقْدْ غَمَرَتِ الشَّعْبَ بِمَوْجَةٍ هَوَاءً جَدِيدَةً جَهَنَّمَتْ بِهَا فِي جَنَاحِنِكَ،  
وَنَفَخْتَ رُوحَ طَيَّارِتِكَ الْمَجِيدَةَ فِي الْقُلُوبِ فَجَعَلْتَهَا كُلَّهَا تَرْفِرُ كَأَنَّ لَكَ فِي ضَلَوعِ  
كُلِّ مِصْرِيِّ طَيَّارَةً.

## أجنحة المدافع المصرية

استجنجي<sup>(١)</sup> يا مدافع مصر وطيري، إنَّ المجد يطلب مِنَ إنسانه البرقى. لقد مَدَث لُغة القوَّةِ في هذا العصر مَدَها حتى أصبح الطيران بعضَ معاني المشنى، ولم يَعِد العالم يدرى كيف تكون الصورة الأخيرة التي يستقرُ فيها معنى إنسانه.

فَلَتَتَمَجَّذْ مصر بِإنسانِها البرقى الذي تخرج النارُ بيده من أغراضِ السحاب، وتُفرقُ في أصابعِه هَزَّات الرعد، ويجعلُ في قبة السماء صَلْصَلةً وجَلْجلةً، ويحملُ ألاسمَ المصري إلى مُعلقِ النجم، فيُضْعَلُ له هناك التعريف الناري الذي وضعَه الدولُ العظمى لأسمائِها.

ولَتَتَمَجَّذْ مصر بِإنسانِها البرقى الذي يُشَعِّرُها حقيقةَ الْعلُوِّ العالِيِّ، والْعُمقِ العميق، والسُّعْدَةُ التي لا تُحدُّ؛ وَيُزيِّدُ في معاني أحيايَنا معنى جديداً لأحياءِ السُّحبِ، وفي معاني أمواتِنا معنى جديداً لموتَى الكواكب.

إِنَّا مَنْ بُرِقَ يُتَمَّمُ بِشجاعَتِه في السماء بُطْولَةً فَلَاحَنا إِنْسَانُ الشَّمْسِيِّ في الأرضِ، وَيَعْلُو بِكَبْرِيَاءِ مصر في ذِرْوَةِ العَالَمِ، فَتَظَهُرُ طَيَّارَاتُها العظيمةُ قدرَةً في الجَوِّ كَمَا ظَهَرَتْ آثارُها العظيمةُ قدرَةً في الْأَثْرَى.

إنَّها مصر، مصرُ الْقَادِرَةُ الَّتِي سَحَرَتِ الْقِدَمَ بِقُوَّتها وَفَنَّها، فَبِقِيَّ فيها على حالِهِ وَجَلَالِهِ، وَأَنْهَمَ الدَّهْرَ عَنْهُ كَائِنَهُ قوَّةً على قوَّةِ الزَّمْنِ نَفْسِهَا.

فَاستَجَنْجِي يا مدافع مصر وطيري. إنَّ المجد يطلب مِنَ إنسانه البرقى.

\* \* \*

ولَمَّا فُتحَ السَّجْلُ ذاتَ صِبَاحٍ لِتَكْتَبَ مصرُ أسماءَ الْفَوْجِ الْأَوَّلِ منْ نُسُورِها الْحَرَبَيْنِ، صَاحَ مَجْدُها الْخَالِدُ منْ أعمَقِ الْتَّارِيخِ:

«أَضْرَمَيِ الشَّعلَةَ الْأَدْمِيَّةَ الْأَوَّلِيَّةَ يا مصر، وَأَفْتَحَيِ الْقَبْرَ الْجَوَيِّ الْأَوَّلِ، وَالْجِدِيدِ

(١) استجنجي: أجعلني لنفسك جناحين.

فيه من عنصريك المسلمين والأقباط، وضعى الحياة في أساس الحياة، وأستقبلني عصرِك الجديد بأذان المسجد ودق الناقوس ليباركه الله، وليتلق الشعب أول طياريه بقلوب فيها روح المعركة، وأكباد عرفت مس النار؛ ولا ينظرن إلى طياراته الأولى إلا بعد أن ينظر النعشين فيرى مجد الموت في سبيل الوطن، فتسقط نظراته ببريق الكبriاء، ولمعة العزيمة، وشعاع الإيمان؛ ويأتلق فيها النور السماوي الذي يجعل الناس في بعض ساعاتهم كواكب، نور صلاة الشعب على موته الشهداء».

\* \* \*

وأستجاب القدر لصوت المجد، فالنج<sup>(١)</sup> الظلام في وضح الصبح، وأنطفأ سراج في النهار قبة الفلك، وأطبقت نواحي الجو إطباقي ليلة ساقط أركانها وأقبل الضباب يعترض اعتراض جبل عائم يتذبذب<sup>(٢)</sup> في بحر، وأستأرض<sup>(٣)</sup> السحاب فتخلى عن طبيعته السماوية الرقيقة، وتذامت<sup>(٤)</sup> العناصر على القتال يحضر بعضها بعضاً، وتغشت<sup>(٥)</sup> السماء بوجه الموت: كلح فاريد<sup>(٦)</sup> وانتفخ، وتكسرت فيه الغضون كل غضنٍ كسفنة ظلام، وعاد أوسع شيء أضيق شيء، فكان الفضاء كصدر المحتضر: ليس معه إلا عمر ساعة وأنفاسها.

وابتدأرت إلى مجد الموت الطيارة المصرية الأولى؛ وكان فيها إنكلزيزان يقودانها فأباهما الموت، فذهبت فانحرفت أسفًا وتردّت متحطمـة، وأنسل آل الرجال من مخالب الردى<sup>(٧)</sup>، وكانا في الطيارة كورقتين من الثنيت في فم جرادة همت تقصيمها ...

وتسبّق الثانية فإذا فيها وديعة الكرم من عنصري مصر: «حجاج ودوس» وكان سراً من أسرار مصر أجتماعهما في مداحض الغمام ومزالقه، ليكونا هدية مصر الأولى إلى مجدها الحربي، ثم ليكونا هدية المجد إلى إحساس هذا الشعب يحسّ منهما العالم المنطوي له في مستقبل النصر.

واعتسفت<sup>(٩)</sup> طيارة الشهيدين طريق الفتاء ومتاهة<sup>(١٠)</sup> الحياة، فذهبـت عنها

(٦) تغشت: تغطّت.

(١) النج: أصبح لجة.

(٢) يتذبذب: يتزدد لوجوده في الهواء، ويتحرّك. (٧) اربد: تلبد.

(٣) استأرض: تحول إلى أرض.

(٨) الردى: الموت.

(٩) اعتسفت: مالت وخبطت على غير هدایة.

(٤) تذامت: تداعت للاجتماع.

(١٠) متاهة: صعوبة الحياة ومتطلباتها.

(٥) يحضر: يبحث.

مَعَارِقُ الْأَرْضِ، وَعَمِيَّتْ عَلَيْهَا مَعَالِمُ السَّمَاءِ، وَخَرَجَتْ مِنْ تَصْرِيفِ أَيْدِي  
الْبَطَلِينِ إِلَى تَصْرِيفِ أَجْلِهِمَا، وَأَصْبَحَتْ كَانَهَا تَطِيرُ فِي الْأَنفَاسِ الْبَاقِيَةِ لَهُمَا؛  
فَمَا تَقْدَمُ وَلَا تَتَأْخِرُ؛ وَلَمْ تَكُنْ طِيَارَةً تَحْمِلُهُمَا، بَلْ جَنَاحًا مَمْدُودًا لَهُمَا مِنْ  
رَحْمَةِ اللَّهِ.

ثُمَّ أَجْتَرَهَا الْمَوْتُ إِلَى غَوْرٍ، فَانْحَطَتْ مِنَ الْهُوَاءِ جَانِحةً كَالْطَّائِرِ يَطْلُبُ مَلْجَأً  
فِي الْعَاصِفَةِ، ثُمَّ أَنْهَضَتْ وَاثِبَةً، وَتَمْطَرَتْ مِنْقِلَبَةً، فَأَشْتَعَلَتْ فَأَسْتَرَغَتْ فَأَنْضَجَتْ  
رَاكِيَّهَا، رَحِيمُهُمَا اللَّهُ أَعُولَى.

وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ مَنْظُرُ الْحَزَنِ فِي الْحَيَاةِ هُوَ أَنْهَمَكَ الْحَيَاةُ فِي عَمَلٍ جَدِيدٍ تُبدِعُ  
مِنْهُ السُّرُورَ وَالْقُوَّةَ. أَحْتَرَقَ الْبَطَلَانِ لِتَسْلُمِ مَصْرَ فِي نُعْشِيهِمَا رَمَادًا لَنْ يُبْنِيَ تَارِيخُ  
الْعِزَّةِ الْوُطَنِيَّةِ إِلَّا بِهِ.

فَأَسْتَجْنِحِي يَا مَدَافِعَ مَصْرَ وَطِيَري. إِنَّ الْمَجَدَ يَطْلُبُ مَنَّا إِنْسَانُهُ الْبَرْقِيِّ.

\* \* \*

صَنَعَتِ النَّارُ الْأَدَمِيَّةُ الْحَقِيقَةَ، وَوَضَعَتْ لَنَا الْأَسْمَاءَ الْبَدِيعَ الَّذِي نُطْلَقُهُ عَلَى  
طَيَّارِنَا الْأَبْطَالِ، فَلَا سُمُومُهُمْ سُوْرَ الْجَوَّ، وَلَكُنْ سَمَوْهُمْ «جَمَرَاتُ الْجَوَّ».

صَنَعَتِ نَارُنَا الْحَقِيقَةَ، وَأَوْحَثْتِ إِلَيْنَا أَنْ نَسْتَبَدَّ مِنْ أَنْفُسِنَا حَالَةً بِحَالَةٍ، وَأَنْ  
نُفَاجِئَ شَعُورَنَا الْحَالَمَ فَنَصَدِّمَهُ بِالْأَلَمِ الْيَقِظَةِ الْمَرَّةِ، وَأَنْ نُغَيِّرَ قَاعِدَةَ الْحَيَاةِ فِي الْتَّرِيَّةِ  
الْمَصْرِيَّةِ فَلَا تَكُونُ : الْعِيشُ الْعِيشُ، وَلَكُنْ الْقُوَّةُ الْقُوَّةُ.

صَنَعَتِ النَّارُ الْحَقِيقَةَ، وَأَثَبَتَتْ لَنَا أَنَّ الْحَيَاةَ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَدَاءً لِلْحَيَّ، وَلَيْسَ  
الْحَيَّ أَدَاءً لِلْحَيَاةِ، فَلَيُتَصَرَّفَ بِهَا عَلَى قَوَانِينِ الْرُّوحِ وَآمَالِهَا فَيُسَمُّ وَتُسْمَوُ، وَلَا  
يَدْعُهَا تَتَصَرَّفُ عَلَى مَذَاهِبِ أَقْدَارِ الْمَادَّةِ وَتَصَارِيفِهَا فَيُذْلَلُهَا وَتُذَلَّهُ. وَفِي قَانُونِ  
الْرُّوحِ: لَا قِيمَةٌ لِعَالَمِ الْأَشْيَاءِ إِلَّا كَمَا تَصْلُحُ لَنَا؛ وَفِي قَانُونِ الْمَادَّةِ وَضَعْطَةِ الْحَيَاةِ:  
كَمَا تَصْلُحُ لَنَا وَكَمَا نَصْلُحُ لَهَا... .

بَلَى، قَدْ صَنَعَتِ النَّارُ الْأَدَمِيَّةُ الْحَقِيقَةَ، وَأَعْطَنَا قَصَّةَ الْحَرِيَّةِ كَامِلَةً فِي مَعْنَى  
وَاحِدٍ: وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ الْحَرِيَّةَ لِعَاشِقِيهَا كَأَجْمَلِ الْجَمِيلَاتِ لِلْمُتَنَافِسِينَ عَلَيْهَا: جَمَالُهَا  
مُتَوَحِّشٌ، وَخَلَاعُهَا مُفْتَرِسَةٌ، وَظَرْفُهَا سَفَاكٌ لِلَّدَمِ.

فَأَسْتَجْنِحِي يَا مَدَافِعَ مَصْرَ وَطِيَري. إِنَّ الْمَجَدَ يَطْلُبُ مَنَّا إِنْسَانُهُ الْبَرْقِيِّ.

\* \* \*

وإلى السماء يا «جمراتِ الجو»، فإذا أستويتم<sup>(١)</sup> على السحاب، فليست الطيارة ثم طيارة، بل حقيقة حية عاملة للمجد، فلتتحمل معناها المصري من بطليها المصري.

وإذا سبختم في مهبط القدر، فليس الطيارة ثم طياراً، بل حياة عقرية أرسلتها مصر تستنزل للحياة أقداراً سعيدة.

وإذا خضتم في المغرِّك الضئل<sup>(٢)</sup> تبعثر فيه الآجال على الرياح، فليس الجسم المصري هناك من لحم ودم، بل ناموساً طبيعياً ماضياً إلى غاية.

وإذا تقافتُم في بحر الشمس، فأنتم هناك على شبابك طرختموها لصيد أيام مضيئة تلتلمع في تاريخ مصر.

وإذا نفذتم من أقطار السماوات، فأنظروها بأعينكم معالي مصر، وأفهموها بقلوبكم ذاتية الوطن المصري تعلو وتعلو ولا تزال أبداً تعلو.

إنما الطيارة وسلاخها وطياراتها تأليفٌ من الإنسانية والعناصر، معناه في العزيمة «لا بد». ومتى هدرت الطيارة هدیرها فإنما تقول للبطل منكم: هلم من عال إلى أعلى، إلى أكثر علواً، إلى أقصى حدود الواجب على النفس حين يأخذ الواجب الكل وحين تعطي النفس الكل.

فاستجنحي يا مدافع مصر وطيري. إن المجد يطلب من إنسانه البرقى.

(٢) الضئل: ضيق العيش.

(١) أستويتم: ركبتم.

## أحاديث الباشا:

### الطماطم السياسي . . .

كان (م: باشا رحمة الله - داهية من دهاء السياسة المصرية، يلتوي مرة في يدها أتواء الحبل، ويستوي في يدها مرة أستواء السيف، ولا يرى أبداً إلا منكمشاً مُتَحرِّزاً<sup>(١)</sup> لأنَّ له عدوًّا لا يدرى أين هو ولا متى يقتتحم عليه، ولكنه كغيره من الرؤساء الذين كانوا آلات للكذب بين طالب الحق وغاصب الحق - يعرف أنَّ عدوه كامنٌ في أعماله.

وكان ذكياً أريباً<sup>(٢)</sup>، غير أنَّ ملابسته للسياسة الدائرة على محورها، جعلت نصف ذكائه ونصفه من المكر؛ فكان في مُراوغته لأنَّ له ثلاثة عقول: أحدها مصرى، والأخر إنجليزى، والثالث خارج من الحالين.

وبهذا تقدَّم وعاش أثيراً عند الرؤساء من الإنجليز، وأستمرَّت مجاريه مطردة<sup>(٣)</sup> لديهم حتى بلغوا به إلى الوزارة، إذ كان حسناً الفهم عنهم، سريع الاستجابة إليهم؛ يفهم معنى ألفاظهم، ومعنى النية التي تكون وراء ألفاظهم، ومعنى آخر يتبرع هو به لألفاظهم . . . فكان هو وأمثاله في رأي تلك السياسة القديمة، رجالاً كالأفكار: يُوضع أحدهم في مكانه من الحكم كما تُوضع صيغة الشك لإفساد اليقين، أو صيغة الوهم لتوليد الخيال، أو صيغة الهوى لإيجاد الفتنة.

\* \* \*

وكان صديقي (فلان) - رحمة الله - صاحب سرِّه (السكرتير)، وقد وثق به الباشا حتى إله كأنَّ يُعالنه<sup>(٤)</sup> بما في نفسه، وبئته<sup>(٥)</sup> همومه وأحزانه، ويرى فيه دنيا حرَّة يخرج إليها كلَّما ضاقت به دنيا وظيفته، ويستعيضُ منه اليقين أحياناً بائنة لا يزال مصرياً لم يتم بعد تحويله في الكرسي . . .

(١) متحرِّزاً: محترساً.

(٢) أريباً: ذكياً.

(٤) يعالنه: يطلعه على ما في نفسه.

(٥) بئته: يشكُّ له ما يعانيه.

فحَدَثَنِي الصَّدِيقُ بَعْدَ مَوْتِ هَذَا الْبَاشَا قَالَ: إِنَّهُ دُعَاءً يَوْمًا لِيُقَاتِلَهُ الرَّأْيُ فِي أَمْرٍ مِنْ أَمْوَارِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِنَّ الرَّئِيسَ الْإِنْجِلِيزِيَّ غَيْرُ مُطْمَئِنٍ إِلَيْكَ لِأَنَّ حَقِيقَةً مِنَ الْحَقَائِقِ الصَّرِيحَةِ ظَاهِرَةً عَلَى وَجْهِكَ، فَأَنْتَ تَنْظَرُ إِلَيْهِ وَكَانَكَ تَقُولُ لَهُ بَعْنِيكَ إِنَّكَ مَصْرِيٌّ مُسْتَقْلٌ.

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ: لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ مَا يُغْضِبُهُ إِنَّ الْخُطْبَ لَهُمْ، فَلَسْنُ أَنْظَرُ إِلَيْهِ بَعْدَ الْيَوْمِ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ نَظَارَةِ سُودَاءِ . . .

فَضَحِكَ الْبَاشَا وَقَالَ: يَا بُنْيَ، هَذَا الْإِنْجِلِيزِيُّ عِنْدَنَا كَالشَّيْطَانِ: «إِنَّهُ يَرَنُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَهُمْ»<sup>(۱)</sup>، وَوَاللَّهِ يَا بُنْيَ إِنِّي لَأَشُدُّ أَنْفَافَةً مِنْكَ، وَإِنَّ صَدْرِي لَشَجِيٌّ مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنْ هَذَا الْكَرْبِ<sup>(۲)</sup>، وَلَكُنْنَا - نَحْنُ الْشَّرْقَيْنَ - قَدْ ضَيَعْنَا مِنْذُ فَقَدْنَا الْشَّخْصِيَّةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ.

أَثْرَاكَ تَفَهُّمُ شَيْئًا لَوْ قُلْتُ لَكَ: رَجُلٌ، أَسْدٌ، جَبَلٌ، مَدِينَةٌ، أَسْطَوْلٌ؟ إِنَّ تَرْكِيَّنَا الْاجْتِمَاعِيَّ شَيْءٌ كَهَذَا الْكَلَامِ: فِيهِ مِنْ ضَخَامَةِ الْلَّفْظِ بَقْدَرِ مَا فِيهِ مِنْ أَنْحَالٍ الْمَعْنَى وَأَضْصَمَحَالِهِ . وَلِكُلِّ كَلْمَةٍ إِذَا أَفْرَدَتْ مَعْنَى صَحِيقٍ يَقُولُ بَهَا وَتَقْوُمُ بِهِ، غَيْرُ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ فِي الْجَمْلَةِ إِلَى مَعْنَى كَلَامَ مَعْنَى .

أَصْبَحَ الْشَّرْقِيُّ يَعِيشُ فِي أَمْتَهِ عَلَى قَاعِدَةِ أَنَّهُ مُنْفِرٌ لَا صِلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَطْرَافِ لَا فِي الزَّمَانِ وَلَا فِي الْمَكَانِ، وَنَسِيَ مَعْنَى الْحَدِيثِ الْشَّرِيفِ: «إِعْمَلْ لِدِنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا». فَمَاذَا كَانَ يُرِيدُ أَعْظَمُ الْمُصْلِحِينَ الْاجْتِمَاعِيَّينَ مِنْ قَوْلِهِ: «كَأَنَّكَ تَعِيشَ أَبَدًا»؟ إِلَّا أَنْ يُقَرِّرَ لِأَمْتَهِ أَنَّ الْفَرَدَ يَنْبُوْعُ الْأَجَيَالِ الْمُقْبِلَةِ كُلُّهَا، فَلْيَعْمَلْ لَهَا وَلِنَفْسِهِ كَأَنَّهَا مَوْقَفَةٌ عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ مَسْتَمِرٌ فِيهَا .

هَذِهِ حِكْمَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ دِقِيقَةٌ، عِنْدَنَا نَحْنُ لَفْظُهَا وَلَسْنُنَا نَعْرُفُ مَعْنَاهَا، وَعِنْدَ الْإِنْجِلِيزِ مَعْنَاهَا وَلَا يَعْرُفُونَ لَفْظَهَا . أَهُمُ الْمُسْلِمُونَ أَمْ نَحْنُ؟

وَعَلَى قَاعِدَةِ الْأَنْفَرَادِ أَنْفَرَادٌ كُلُّ شَيْءٍ؛ فَأَتَرَ الْشَّرْقِيُّ حَيَاةً عَلَى وَطَنِهِ، وَقَدَمَ لَذَّتَهُ عَلَى وَاجِبهِ، وَتَعَامَلَ بِالْمَالِ فِي مَوَاضِعِ الْمُعَامَلَةِ بِالْأَخْلَاقِ؛ وَكَانَ طَبِيعَيَا مَعَ هَذَا أَنْ يَخْتَصِرَ الْدِينَ أَخْتَصَارًا يَجْعَلُهُ مِقْدَارًا بَيْنَ مِقْدَارِيْنِ، فَلَا هُوَ دِينٌ وَلَا هُوَ غَيْرُ دِينٍ؛ وَبِذَلِكَ يُنَاسِبُ فَرْدِيَّتَهُ وَيَقْعُدُ تَحْتَ حُكْمِهِ وَهُوَ خَارِجٌ عَلَيْهِ؛ فَتَرَى الْرَّجُلُ مِنْ

(۲) الْكَرْبُ: الْفَيْقِ.

(۱) شَجِيٌّ: حَزِينٌ.

هذه الملايين يؤمن بالله وهو يحلف به كذباً على درهم، ويصلّي ويُفجّر في يوم واحد، ويتبعه في نفسه ويخون سواه في وقت معاً.

ومتى كانت الحالة النفسية للأمة هي هذه الفردية ومصالحها ودعائياها، كان الكذب أظهر خلال هذه الأمة، إذ هو أنفراد أكاذب بحظه ومصلحته وداعيته؛ ولا يكذب عليك إلا من يرجو أن تكون مغفلأ، أو من قدر في نفسه أن المعاملة العامة في الأمة هي على قاعدة المغفلين .. ويكتذبون في هذا أيضاً فيسمونه حذاقاً وبراعة (وشطارة).

وإذا عم الكذب فشا منه الهرزل؛ فكل كاذب هازل، وهل يوجد الكاذب وهو يكذب إلا إذا كان مجئنا؟ ومن الهرزل ضرب هو المbasطة بالكذب، ومنه ضرب من كذب الحقائق، ومنه من كذب الخيال، وكيفما دارت الحال لا تجد إلا كذباً.

ومتى صار الكذب أصلاً يعمّل عليه، تقرر عند الناس أن الكلام إنما يقال ليقال فقط. أفلست ترى الرجلين إذا أخبر أحدهما صاحبـة بالخبر فيه شيء من الغرابة أو البعد، لا يكلمه الآخر أول ما يتكلـم إلا أن يسألـه: صحيح؟ صدق؟

ولا أضر على الأمة من هذه العقيدة - عقيدة أن الكلام يقال ليقال فقط - فإنـها هي طابع الهرزل على أخلاق الأمة، وعلى كل أحوالـها، وعلى حكمـتها أيضاً.

ومن الهرزل والكذب ترانا وبالغـين في كل شيء، حتى ليكون لنا الواحد كالحادـ في غيرـنا فنجعلـ مائـة بـصـفـرـينـ، نجيـء بأحدـهماـ منـ اـعـتـيـادـ الـكـذـبـ علىـ الـحـقـيـقـةـ، ونجـيءـ بالـآخـرـ منـ حـقـيـقـةـ إـفـلـاسـناـ.

هذه مبالغـةـ خطـرـةـ، وأخطرـ ماـ فيهاـ آنـناـ بهاـ نـرـيدـ المـبالغـةـ فيـ الدـلـالـةـ علىـ الأـسـيـاءـ، فـتـنـقـلـبـ مـبالغـةـ فيـ الدـلـالـةـ عـلـيـنـاـ نـحـنـ، وـعـلـىـ كـذـبـ طـبـاعـنـاـ، وـعـلـىـ فـوـضـيـ العـقـلـ فـيـنـاـ. نـعـمـ وـحـتـىـ ثـبـتـ آنـناـ لـاـ عـزـمـ لـنـاـ، مـنـ كـوـنـهـ مـبالغـةـ لـاـ تـدـقـيقـ فـيـ معـنـاهـ؛ وـأـنـ لـاـ صـبـرـ لـنـاـ، مـنـ آنـهـ لـاـ ثـابـتـ لـحـقـيـقـتـهـ الـمـهـرـوـمـةـ؛ وـأـنـ لـاـ شـدـدـةـ لـنـاـ فـيـ طـلـبـ الـحـقـ، لـآنـناـ بـهـاـ مـنـ أـهـلـ الـغـفـلـةـ فـيـ وـصـفـ الـحـقـ؛ وـآنـناـ لـاـ نـتـمـثـلـ الـعـوـاقـبـ إـذـ نـرـسلـ الـكـلامـ إـرـسـالـاـ وـلـاـ نـخـشـيـ مـاـ يـكـوـنـ مـنـ عـاقـبـتـهـ.

وأيسـرـ ماـ يـفـهـمـ منـ هـذـهـ الـمـبالغـاتـ الـتـيـ أـصـبـحـتـ طـرـيـقـةـ مـنـ طـرـقـ الشـعـبـ فـيـ التـعبـيرـ، أـنـ هـذـاـ الشـعـبـ لـاـ يـصـلـحـ فـيـ شـيـءـ إـلـاـ بـالـحـكـوـمـةـ، فـهـوـ نـفـسـهـ كـالـمـبالغـةـ، وـالـحـكـوـمـةـ لـهـ كـالـتـصـحـيـحـ؛ وـهـذـهـ هـيـ آلـيـةـ فـيـ أـنـ الشـعـبـ الـكـذـوبـ يـلـجـأـ إـلـىـ حـكـوـمـتـهـ

في كلٍّ كبيرةٍ وصغيرةٍ في العمل، كما أنها هي أَعْلَةٌ في أنَّ حُكُومَتَهُ تُكذِّبُ عليهِ  
بكلٍّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في السياسة.

ومن أثُرِ الكذبِ الشعبيِ والمُبالغةِ الشعبيةِ، ما نراهُ من اهتمامِ كلِّ فردٍ بما  
يقولُ النَّاسُ عنِ أَعْمَالِهِ، فيُدِيرُهَا على ذلك وإنْ قَلَّ مَنْفَعُهَا، وإنْ فَسَدَتْ  
حَقِيقَتُهَا، وإنْ جَلَبَتْ عَلَيْهِ مِنَ الضررِ في مالِهِ ونَفْسِهِ مَا هِيَ جَالِبَةٌ؛ فَقَاعِدُهُمْ هِيَ  
هَذَا: لِيَسَ الْشَّأْنُ فِي الْحَيَاةِ لِلْعَمَلِ فِي نَفْسِهِ، وَلَكِنْ فِيمَا يُقَالُ عَنْهُ؛ فَإِنْ لَمْ يَقُلْ  
شَيْءٌ فَلَا تَعْمَلْ شَيْئًا . . .

هَذَا يَا بُنَيَّ أَمَّةٌ لَا يَكُونُ حَكَامُهَا إِلَّا مُبَالِغَاتٍ أَيْضًا . . .

\* \* \*

قالَ صاحِبُ الْسَّرِّ: وَأَرْتَفَعَ مِنَ الطَّرِيقِ صَوْتُ بَائِعٍ يُنَادِي عَلَى سَلْعَتِهِ: أَحْسَنُ  
مِنَ التَّفَاحِ يَا طَمَاطِمَ . . .

فَضَحِّكَ الْبَاشَا وَقَالَ: هَكَذَا يَقُولُونَ لَنَا عَنِ الْطَّمَاطِمِ السِّيَاسِيِّ الْغَافِنِ: إِنَّهُ لَيْسَ  
تَفَاحًا وَخَسْبًا، بَلْ هُوَ أَحْسَنُ مِنَ التَّفَاحِ . . .

إِنَّ الْأُمَّةَ لَنْ تَكُونَ فِي مَوْضِعِهَا إِلَّا إِذَا وَضَعَتِ الْكَلْمَةَ فِي مَوْضِعِهَا، وَإِنَّ أَوَّلَ  
مَا يَدْلُّ عَلَى صِحَّةِ الْأَخْلَاقِ فِي أَمَّةٍ كَلْمَةُ الصَّدْقِ فِيهَا، وَأَلَّمَّةُ الَّتِي لَا يَحْكُمُهَا  
الصَّدْقُ لَا تَكُونُ مَعَهَا كُلُّ مَظَاهِرِ الْحُكْمِ إِلَّا كَذِبًا وَهَزْلًا وَمُبَالَغَةً.

## البك والباشا

وحدثني صاحب سر (م) باشا قال: جاء يوماً إلى زيارة البشا رجل دخل على متهللاً مُشرقاً الوجه كأنه مضاء من داخله بشمعة... ويتربع عطفاه كأنما تهزه أسرار عظمته؛ ويمشي متخلعاً كالمرأة الجميلة التي أثقلتها لحمها وأثقلتها المعاني الكثيرة من أعين الناظرين إليها، وعلى شفتيه خيال من فكرة هؤلاء الكُبراء المغرورين الذين لا يأمر أحدُهم رجلاً صغيراً إلا ليعلمَه أنه هو كبير، فيكون في الأمر شيئاً: الأمر واللؤم؛ وأقبل على في هيئة شامخة لو نطقَت لقالت: سبحانَ ربِّكَ الأعلى. سبحانَ الله الذي خلقَ في الأسدِ شعرة جبارَة خرج منها الأسد كلُّه.

سبحانَ الله ولا إله إلا الله. هذا (فلان باشا) الذي قرأْت في الصحف أمس أنعموا عليه بربطة الباشوية؛ خلقَه الله من ترابٍ وحوَّلت الرتبة هذا التراب الذي فيه إلى ذهبٍ خالص... ينظرُ إليَّ ويرغمُه أنْ تقفَ عيناه علىَ وعلى الحائط؛ ولا تجدُ نفسَه المزحمة سبيلاً إلى التعبير عن الرتبة إلا هذا الازدراة المنبعث من شخصِه العظيم لمن لم يكنْ كشخصه. ما بينَ أمس وأليوم زادَ هذه الزيادة الأدمية، أو كأنما كانت صورته خطوطاً فقط فوضعت فيها الألوان...

(باشا)! هذه أباء وهذه ألف وهذه الشين الممدودة ليست حروفًا خارجة من الأبجدية العامة؛ فإنَّ الأبجدية قد تجعلَ أباء في بليدٍ مثلاً، والألف في أبله، والشين الممدودة في شاهدٍ زورٍ مثلاً... بل تلك حروفٌ من حروفِ الدولة، منتزةٌ من قوَّة قادرةٌ على أنْ يجعلَ لحياة صاحبها من الشكل ما يُسْبِغُه الفنُ على الحجرِ من شكلٍ تمثاليٍ يتضَبَّ للتعظيم.

قال: وكنت أعرفُ هذا الرجل، وهو رجلٌ أميٌ لا يحسن إلا كتابة اسمه كما تكتب الدجاجة في الأرض... فكانت الرتبة عليه كإطلاق لفظِ الحديقة على صخرةٍ من الصخورِ الصَّلدة؛ وهذا مما يحتمله المجازُ بعلاقة ما؛ ولكنَّ الذي لا يُسْوِغُ في المجاز، ولا في مبالغات الاستعارة، ولا في خرافاتِ المستحيلِ، أنْ

تزعّم الصخرة للناس أَن لفظ الحديقة الذي أطلق عليها قد أنتَ فيها أشجار  
الحديقة . . .

\* \* \*

قال صاحب السر: وأستاذُتْ لَهُ عَلَى الباشا فسَهَلَ لَهُ الإذن وقال: هذا رجلٌ  
أصبح كالورقة المبصومة بخاتم الدولة، فلتُكُنْ مَا هي كائنة فإن لها اعتبارها. ثُمَّ  
تلقاء تلقّي الهازل المتهم و قال له: أهنتَ بالثخوي . . . مباركون يا باشا. وأقبلَ  
عليه وبسطَ لَهُ وجهه.

وكان في الباشا دعاية طريفة يُعرف بها، وهو كثير النوادر والمُلح، ولَهُ  
خصيصة عجيبة، فيكونُ بين يديه كُدُسٌ من الأوراق التي تُعرض عليه ينظرُ فيها  
ويقرؤُها ويتدبرُها، وهو في ذلك يستمع إلى محدثه ويراجعه ويرد عليه، فيُصرفُ  
الناس والأوراق في وقت واحد، ويستعمل ناحيتين من فكره استعمالاً واحداً لا  
يُخلُ بالإصابة<sup>(١)</sup> في شيءٍ من هذه ولا من تلك.

ثم قال للباشا الحديث وعيته إلى ما بين يديه: هذه أوراق سرقة ثور عظيم،  
فكم يساوي الثور العظيم الآن . . . ؟

قال صاحبنا الذي أَفْطَنَ: إذا كان من الشيران التي تُعرض في المعارض  
وتناول المداليل الذهبية فقد يتعذر سرعة ويعالى به.

قال الباشا: نعم نعم، إنَّ من الشiran ثيراً يُنْتَعِمُ عليها بالأوسمة، ولكنَّ هذا  
الثور الذي سألك عنه يا باشا هو ثور محارث لا ثور معرض . . .

قال الآخر: إذا كان ثور محارث فمثله كثير فلا يكون ثوراً عظيماً كما قلت  
وليسَتْ لَهُ إِلَّا قيمةٌ مثله.

قال الباشا: أراني أخطأتُ، ولعنة الله العجلة، وهذه أوراق سرقة حمار!

\* \* \*

قال صاحب السر: وأنصرفت عنهما بأوراقي، وقد رأيت يد الباشا مملوءة  
لصاحبنا بتحيات كلها صفات؛ فلم يكن إلَّا يسير حتى خرج متھجاً يميد السرور  
بعطفيه. ثُمَّ دعاني الباشا ودفع إليَّ بطاقة بالحاجة التي جاء فيها الرجل، ثُمَّ قال:

(١) لا يخل بالإصابة: لا يخطيء.

يا ليت لنا في ألقاب الدولة لقب (رحمه الله) ... ينفع به على مثل هذا.  
أتدري يا بني أن هذه الرتب وهذه الألقاب لم تكن في القديم إلا كوضع علامه  
الشر على أهل الشر ليهابهم<sup>(١)</sup> الناس، حتى كأنما يكتب على أحديهم من لقب بك  
أو باشا: ملحق بالدولة ...

وكأن الشعب أمياً جاهلاً لا يستطيع الإدراك ولا يحسن التمييز، فكانت  
الألقاب كالقوانين الشخصية الم موضوعة في صيغة موجزة مفهومه متعينه الدلالة،  
وكان كل من يحمل لقباً من الحكومة يستطيع أن يقول للناس: لقد وضعت  
الحكومة كلمة الأمير في شفتي ...

وكأن اللقب إعلان من الحكومة المستبدة لشعبها الجاهل: إن هذا البك  
والباشا من يحق له أن يحترم.

من الهزل أن يشتري أسم النصر العربي أو يوهب أو يعار؛ وأصبح منه في  
باب الهزل أن ينعم على مثل هذا الأمي بلقب باشا. وأنا أعرف أنه قد يذلل في  
سبيله ما يذلل، وأضع ما أضع، فكان الذين منحوه إياه لم يفعلوا شيئاً إلا وضع  
توقيعهم على أحد الثمن.

ولقد أصبح الرجل تحت تأثير الكلمة العظيمة مخولاً بسخرها الوهمي،  
فحسب ذلك إدخاله في وظيفة كل حاكم، وإشراكاً له في الحكم متى أقتضته  
مجاري أمره وأحواله، أو حاجات أسياده وأتباعه؛وها هو ذا قد جاء يطلب حقه،  
فإإن مثله لا يفهم من لقب (باشا) إلا أن الحكومة قد سوّغت سلطنته الظهور  
والعمل، فمدّت باعه وقوّت أمره ونوهت<sup>(٢)</sup> باسمه لمصالحها وعماليها؛ فهو عند  
نفسه قد التحّمَّ من آل يوم بالنسبة الحكومي، وفي كلمة واحدة، هو قد ولد من  
طن الحكومة ...

الا ترى أن الشعب لو استرد سلطنته الكاملة، وأن الناس لو أيقنوا أن الألقاب  
اللفاظ فارغة من الأمير والنهي والوسيلة والشفاعة، لما بقي من يعبأ بها، ولكان  
حامليها هو أول من يسخر منها؟

فهي إذن شعيبة<sup>(٣)</sup> من الحكومة وتضليل في مثل هذا الرجل الأمي، وهي

(١) يهاب: يخاف.

(٢) الشعيبة: الشعروة والدلج.

(٣) نوه: دل على فضلها.

ضربٌ من التهويل والمبالغة في سواه من الكبار والعظماء، كان الوزير الذي يلقب بالبasha، يجعل فيه لقب وزيرين، وكان مثل هذا الأمي المغفل، يجعل فيه لقبه شخصاً آخر غير الأمي المغفل ..

أنا قلما رأيت رجلاً يحتاج إلى القاب يتعظم بها إلا وهو لا يحتاج إليها؛  
فأين يكون موضع هذه الرتب والألقاب؟

## ساكنو الشباب ..

قالَ صاحبُ سرٍ (م) باشا: وجاءني يوماً أثناًنِ من شيوخ الدينِ من ذوي هيناتِهم وأصحابِ المنزلةِ فيهم، كلاهما هامةً وقامةً، وجُبَّةً وعِمامَةً، ودرجةً من الإمامة؛ ولهم نسيمٌ ينفعُ عطراً حَسِيبَةً من ترويعِ أجنحةِ الملائكة؛ وعليهمَا من الوقارِ كظلِّ الشجرةِ الخضراءِ في لَهَبِ الشَّمْسِ تفِيَّةً بِهِ يَمْنَةً وَيَسْرَةً. فتوَجَّهَتْ إلَيْهِمَا بِبَنْظَرِيِّيِّ، وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِمَا بِنَفْسِيِّيِّ، وَوَضَعَتْ حَوَاسِيَّ كُلُّهَا فِي خَدْمَتِهِمَا؛ وَقُلْتُ: هُؤُلَاءِ هُم رِجَالُ الْقَانُونِ الَّذِي مَادَتْهُ الْأَوَّلِيُّ الْقُلُوبُ.

ما أَسْخَفَ الْحَيَاةَ لَوْلَا أَنَّهَا تَدْلُّ عَلَى شَرِفَهَا وَقَدْرِهَا بِبَعْضِ الْأَحْيَاءِ الَّذِينَ نَرَاهُمْ فِي عَالَمِ الْتَّرَابِ كَأَنَّ مَادَتْهُمْ مِنَ السُّخْبِ، فِيهَا لِغَيْرِهِمُ الظُّلُلُ وَالْمَاءُ وَالنَّسِيمُ، وَفِيهَا لِأَنْفُسِهِمُ الطَّهَارَةُ وَالْعَلُوُّ وَالْجَمَالُ؛ يُشْبِتُونَ لِلضَّعْفَاءِ أَنَّ غَيْرَ الْمُمْكِنِ مُمْكِنٌ بِالْفَعْلِ، إِذَا لَا يَرِي النَّاسُ فِي تَرْكِيبِ طِبَاعِهِمْ إِلَّا الْإِخْلَاصُ وَإِنْ كَانَ حِرْمَانًا، وَإِلَّا الْمَرْوِعَةُ وَإِنْ كَانَتْ مَشَقَةً، وَإِلَّا مَحْبَّةُ الْإِنْسَانِيَّةِ وَإِنْ كَانَتْ أَلْمًا، وَإِلَّا الْجَدُّ وَإِنْ كَانَ عَيَّاءً، وَإِلَّا الْقَنْعَةُ وَإِنْ كَانَتْ فَقْرًا.

هُؤُلَاءِ قَوْمٌ يَؤْلَفُونَ بِيَدِ الْقَدْرَةِ، فَهُمْ كَالْكِتَبِ قَدِ انْطَوَتْ عَلَى حَقَائِقِهَا وَخَتَّمَتْ كَمَا وُضَعَتْ، لَا تُسْتَطِعُ أَنْ تُخْرِجَ لِلنَّاسِ مِنْ حَقِيقَةِ نَصْفِ حَقِيقَةٍ وَلَا شِبَّهَ حَقِيقَةٍ وَلَا تَزُورِيَا عَلَى حَقِيقَةِ.

وَمَا أَعْجَبَ أَمْرَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى النَّوَامِيسِ<sup>(١)</sup> الْاِقْتَصَادِيَّةِ! فَالسَّمَاءُ نَفْسُهَا تَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى سَمَاسِرَةٍ لِعَرْضِ الْجَنَّةِ عَلَى النَّاسِ بِالثَّمَنِ الَّذِي يَمْلُكُهُ كُلُّ إِنْسَانٍ وَهُوَ الْعَمَلُ الْطَّيِّبُ.

قال: وَنَظَرْتُ إِلَى الشِّيخِيْنِ عَلَى أَعْتَبَارِ أَنَّهَا مِنْ بَقِيَّةِ النَّبُوَّةِ الْعَامِلَةِ فِيهَا شَرِيعَةُ نَفْسِهِمَا. تَلَكَ الْشَّرِيعَةُ الَّتِي لَا تَتَغَيِّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ كِيلًا يَتَغَيِّرُ النَّاسُ وَلَا يَتَبَدَّلُوا. ثُمَّ سَأَلْتُهُمَا عَنْ حَاجَتِهِمَا، فَإِذَا أَحَدُهُمَا قَدْ عَمَلَ أَبِيَاتًا مِنَ الشِّعْرِ جَاءَ يَمْدُخُ بِهَا الْبَاشَا

(١) النَّوَامِيسُ، مَفْرَدَهُ نَامُوسٌ وَهُوَ الْقَانُونُ.

ليردلي إليه؛ فقلت في نفسي: «ما أشبه حجل الجبال بالوان صخريها!» هذا عالم دنيا يحدُّها من الشرق الرغيف، ومن الغرب الدينار، ومن الشمال الجاه، ومن الجنوب الشيطان... .

ثم نشر ورقة في يده وأخذ يسرد<sup>(١)</sup> على القصيدة، وهي على روبي الهاء، تنتهي أبياتها: ها. ها. ها. فكان يقرؤها شعراً - أو كما يسميه هو شعراً - وكنت أسمعها أنا قهقهة من الشيطان الذي ركب أكتاف هذا العالم الديني: ها. ها. ها... .

\* \* \*

قال صاحب السر: وأدخلتهم على البasha، فوق المداح يمدح بقصيده، وأخذت لحيته الوفرة تهتز في إنشاده كأنها منفحة ينفض بها الملل عن عواطف البasha.. وكان لآخر صمت عامل في نفسه كصمت الطبيعة حين تنفطر<sup>(٢)</sup> البدرة في داخلها، إذ كانت الحاجة حاجته هو، وإنما جاء بصاحبه رافداً وظهيراً يحمل الشمس والقمر والليل والنيل، لتقلب الأشياء حول الممدوح فيأخذة السخر، فيكون جواب الشمس على هذه اللغة أن تضيء يوم الشيخ، وجواب القمر أن يملأ ظلامه، وجواب الليل أن يفترس عدوه، وجواب الغيث أن يهطل على أرضه. والبasha لا يدع<sup>(٣)</sup> ظرفه وذاته، وكان قد لمح في أشاديق العالم المتشاجر أسناناً صناعية، فلما فرغ من نظمه الركيك قال له: يا أستاذ، أحسبني لا أكون إلا كاذباً إذا قلت لك: لا فُصَّ فوك.

ثم ذكر الآخر حاجته: وهي رجاؤه أن يكون عمدة القرية من ذوي قرابته لا من ذوي عداوته. فقال له البasha: ولقيتكم أيضاً أبو جهل... ?

\* \* \*

ولما انصرف قال لي البasha: لأمر ما جعل هؤلاء القوم لأنفسهم زياً خاصاً يتميزون به في الناس، كان الدين باب من التحرف والتصرف، بعض آلته في ثيابه؛ فهو لاء يسكنون الجب والقفاطين وكأنها دواوينهم لا ثيابهم... .

قد أفهم لهذا معنى صحيحاً إذا كان كل رجل منهم محصوراً في واجبات

(١) يسرد: هنا بمعنى ينشد.

(٢) تنفطر: تشنق.

(٣) يدع: يترك.

عمله كالجندي في معاني سلامه، فيكون العظيم والتوقير لثوب العالم الديني كأداء التحية لـلثوب العسكري: معناه أن في هذا الثوب عملاً سامياً أوله بيع الروح وبذل النفس وترك الدنيا في سبيل المجتمع؛ هذا ثوب الموت يفرض على الحياة أن تعظمها وتجلّها، وثوب الدفاع تجب له الطاعة والانقياد، وثوب القوة ليس له إلا المهابة والإعزاز في الوطن.

ولكن ماذا تصنع الجبهة اليوم؟ إنها تطعم صاحبها...

أثر الجيش معروف في دفاع الأمم العدوة عن البلاد، فأين أثر جيش العلماء في دفاع المعاني العدوة عن أهل البلاد، وقد أحتجز هذه المعاني وضررت وتملكت وتركت هذا العالم الديني في ثوبه كالجندي المنهمز: يحمل من هزيمته فضيحة ومن ثوبه فضيحة أخرى؟

أنت يابني قد رأيت (الشيخ محمد عبده) وعرفته؛ فرحم الله هذا الرجل، ما كان أعجب شأنه! لكأنه - والله - سحابة مطوية على صاعقة. ولو قلت إنك قد كان بين قلبه ورأسه طريق لبعض الملائكة. لأنك أنت يكون هذا قوله.

كان يزورني أحياناً فأراني مرغماً على أن أقدم له مجلسين أحدهما قلبي. وكان له وجه يأمره، إذ لا تراه إلا شعرت به يرفعك إلى حقيقة سامية.

رجل نَبَتَ على أعرق<sup>(١)</sup> فيها إبداع المبدع العظيم الذي هيأه لرسالته، فعواصفه كالعطر في شجرة العطر الشديدة، وشمائله كجمال السماء في زرقة السماء الصافية، وعظمته كروعة البحر في منظر البحر الصاخب. وكثيراً ما كان يتوجه من هذا أستاذة (السيد جمال الدين الأفغاني) فيسألة مندهشاً: بالله قل لي: ابن أي ملك أنت؟

لم يكن ابن ملك ولا ابن أمير، ولكنه ابن القوات الروحية العاملة في هذا الكون؛ فهي أعدته، وهي ألهمته، وهي أنطقته، وهي آخر جنته في قومهإعلاناً غير كتمان، ومصارحة غير مخادعة، وهي جعلت فيه أسدية الأسد، وهي ألقث في كلامه تلك الشهوة الروحية التي تذاق وتحب، كالحلوة في الحلوي.

هذا هو العالم الديني: لا بد أن يكون ابن القوات الروحية، لا ابن الكتب

(١) أعرق: أصول.

وحدها، ولا بد أن يخرج بعمله إلى الدنيا، لا أن يدخل الدنيا تحت سقف  
الجامع ...

وأنا فما ينقضي عجبي من هؤلاء العلماء الذين هم بقایا تضاءل بجانبِ  
الأصل؛ يبحثون في سُنَّة النَّبِي ﷺ: كيف كان يأكلُ ويشربُ ويلبسُ ويمشي  
ويتحدث؟ كائهم من الدنيا في قانون المائدة، وأداب الولائم، ورسوم  
المجتمعات؛ أمّا تلك الحقيقة الْكُبْرَى، وهي كيف كان النَّبِي ﷺ يُقاتِلُ ويعارِبُ  
لهداية الخلق، وكيف كان يسمُّ على الدنيا وشهواتها؟ وكيف كان يطْبَاعُه القوَّة  
الصريحة تعديلاً فعَالاً في هذه الإنسانية للنوايسِ الجائرة؟ وكيف كان يحملُ الفقرَ  
ليُخَسِّرَ به شرَّة<sup>(١)</sup> النوايسِ الاقتصادية التي تقضي بجعلِ الأخلاقِ أثراً من آثارِ السُّعَةِ  
والضيق، فتُخرجُ مِنَ الْغُنْيِ مُتَعَفِّفاً ومنَ الْفَقِيرِ لِصَا؟ وكيف أَسْتَطَعَ ﷺ بفقرِه  
السامي أنْ يُحَوِّلَ معنى الْغُنْيِ في نفوسِ أصحابِه، فيجعلُه ما أَسْتَغْنَى عنهُ الإِنْسَانُ  
من شهواتِ الدُّنيا وتَرَكَ، ما نالَ منها وجَمَعَ؟ أمّا هذا ونحوُه من حقائقِ النبوةِ  
العاملةِ في تنظيمِ الحياة، فقد أهملُوه، إذ هو لا يُوجَدُ في الْكُتُبِ وشروحها  
وحواشيه<sup>(٢)</sup>، ولكنَّ في الحياةِ وأثقالِها وأكدارِها؛ وبذلك أصبحَ شيوخُنا مِنَ الْأُمَّةِ  
في مواضعِ لم يضعُهم فيها الدينُ ولكنَّ وضعَتْهم فيها الوظيفة.

ألا ليَتَهُم يكتبونَ على أبوابِ الأزهر هذه الحِكمة: سُئلَ بعضُ الْعَرَبِ: يَمْ  
سادَ فلانُ فيكم؟ قالوا: أَحْتَجْنَا إِلَى عِلْمِهِ وَأَسْتَغْنَى عَنْ دُنْيَا ...

(١) شرَّة: شدة وقسوة.

(٢) حواشيه، مفرد حاشية، وهي مكان يوجد في ذيل الصفحة، تكتب شروحات على ما غمض من  
المعاني في الصفحة.

## الأخلاقُ المحاربة

وَحْدَثَنِي صاحبُ سِرِّ (م) باشاً بِهذا الْحَدِيثِ قَالَ: كَنَّا فِي ثُورَةِ سَنَةِ ١٩١٩ سَنَةَ الْهَزَاهِرِ<sup>(١)</sup> وَالْفِتَنِ، وَقَدْ تَفَاقَمَتِ<sup>(٢)</sup> الشُّوَرَةُ، وَأَخْذَ الشَّابُّ يَعْمَلُ وَيُفْكَرُ فِيمَا يُسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ، وَمَا يَجْبُ أَنْ يَعْمَلُ؛ وَكَانَ السَّخْطُ الْعَامُ هُوَ مِيرَاثُ الْوَقْتِ، فَكَانَتْ قُلُوبُ الشَّعْبِ تُلَهَّمُ وَاجْبَاتِهَا إِلَيْهَا، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الْقُلُوبِ كُلُّهَا إِلَّا لَذْعَةُ الدَّمْ تُعِينُ أَتْجَاهَ أَعْمَالِهَا وَتُحَدِّدُهُ.

كَانَتِ الْشُّوَرَةُ زِلْزَلَةً وَقَعَتْ فِي الْتَّارِيخِ، فَجَاءَتْ تَحْتَ زَمْنِ رَاكِدٍ لَا يَتَغَيِّرُ إِلَّا بِأَنْ يَنْسَفَ، وَلَا يَنْسِفُ إِلَّا مَادَةً إِلَهِيَّةً كَالْحَرْكَةِ الْكُوَنِيَّةِ الَّتِي تُخْرِجُ الْيَوْمَ الْجَدِيدَ مِنَ الْيَوْمِ الْقَدِيمِ؛ فَكَانَ الْقَدَرُ يَعْمَلُ بِأَيْدِي الإِنْجِلِيزِ عَمَلاً مِصْرِيَّاً، وَيَعْمَلُ بِأَيْدِي الْمُصْرِيَّينَ عَمَلاً آخَرَ.

وَتَعْلَمُ الشَّعْبُ مِنْ دُفْنِ شُهَدَائِهِ كَيْفَ يَسْتَثْبِتُ الدَّمُ فِي ثَبَتِهِ بِالْحَرَيَّةِ، وَكَيْفَ يَزْرُعُ الدَّمَعَ فِي خُرُجِهِ مِنْهُ الْعَزْمِ، وَكَيْفَ يَسْتَثِيرُ الْحَزْنَ فِي ثَمُرِّهِ الْمَجْدِ.

وَكَانَ رَصَاصُ الإِنْجِلِيزِ يُصِيبُ هَدَفِينِ مَعًا: فَيَصْرُعُ شَهَدَاءَنَا، وَيَقْتُلُ الْمَوْتَ الْسِيَاسِيَّ الَّذِي أَحْتَلَّ مَعْهُمْ هَذِهِ الْبَلَادِ. وَقَدْ أَنْعَمُوا عَلَى الشَّعْبِ بِالصَّدَمةِ الْأُولَى، فَنَشَبَتِ الْمُرْعَكَةُ الَّتِي تُقَاتِلُ فِيهَا الْأَخْلَاقُ الْقَوْمِيَّةُ لِتُنْتَصِرَ؛ وَشَعَرَتْ مَصْرُ فِي جِهَادِهَا بِأَنَّهَا مِصْرُ، فَالْتَّمَسَ رُوحُهَا الْتَّارِيْخِيَّةُ رَمَزُهُ الْعَظِيمُ فِي الْأُمَّةِ لِيُظَهِّرَ فِيهِ عَاتِيَا جَبَارَا؛ فَكَانَ هَذَا الرَّمْزُ الْجَلِيلُ الْعَظِيمُ هُوَ سَعدُ زَغْلُول.

\* \* \*

قَالَ صاحبُ السِّرِّ: وَكَانَ الْطَّلَبَةُ قَدْ غَدَوْا مِنْ أُولِي الْنَّهَارِ يَتَظَاهِرُونَ، وَقَدْ جَعَلُتُهُمُ الْشُّوَرَةُ كَالْأَرْوَاحِ تَخْلَصَتْ مِنَ الْمَوْتِ بِالْمَوْتِ فَلَا تَخْشَاهُ وَلَا ثُبَالِيهُ، وَاسْتَقْلَلَتْ عَنِ الْعُقْلِ بِتَحْوِلِهَا إِلَى شَعُورٍ مَخْضَعٍ، وَخَرَجَتْ عَنِ الْقَوَانِينِ كُلُّهَا إِلَّا الْقَانُونَ الْخَفِيِّ الَّذِي لَا يُعْلَمُ مَا هُوَ.

(١) الْهَزَاهِرُ: الْثُّورَاتُ وَعَدْمُ الْاسْتِقْرَارِ السِّيَاسِيِّ. (٢) تَفَاقَمَتْ: امْتَدَّتْ وَعَظَمَتْ.

كَانُوا فِي مَعْنَى قَلْوِيهِمْ لَا فِي غَيْرِهَا، فَلَسْتَ تَرَاهُم إِلَّا عَظِيمَةٍ  
الْمَبْدأُ الَّذِي يَتَصَرَّفُونَ لَهُ، أَقْوَيَاءٍ فِي قُوَّةِ الْإِيمَانِ الَّذِي يَعْمَلُونَ بِهِ، أَجْلَاءٍ فِي جَلَالِ  
الْوَطَنِ الَّذِي يَحْيَوْنَ وَيَمْتُوْنَ فِي سَبِيلِهِ.

وَكَانُوا فِي النَّاسِ هُمْ خِيَالَ الْأُمَّةِ الْعَالِمَ الْمُدْرَكُ، وَشَعُورُهُمُ الْحَيَّ الْمُتَوَّبُ،  
وَقُوَّاهُمُ الْبَارِزَةُ مِنْ أَعْمَاقِهَا، وَأَمْلَاهُمُ الْزَّاحِفُ لِيَقْهَرَ الصُّعُوبَةَ.

يُقَادُونَ بِأَنفُسِهِمُ الْغَالِيَةِ وَيُؤْثِرُونَ عَلَيْهَا، وَلَيْسَ فِي أَحَدٍ مِنْهُمْ ذَاتَةٌ وَلَا أَغْرِضُ  
شَخْصِهِ . فَمَا أَجْلَ وَمَا أَعْظَمَ ! وَمَا أَرْوَعَ وَمَا أَسْمَى ! أَيْتُهَا الْحَيَاةُ ! هَلْ فِيكُ أَشْرَفُ  
مِنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ إِلَّا حَقِيقَةُ النَّبَوَةِ؟

\* \* \*

قال: وكان أخي هو زعيم هؤلاء الطلبة في مدینتنا؛ قويٌ على الرّعامةِ وفيهِ  
بها؛ يحمل قلباً كالجمرة الملتئبة، وله صوت بعيدٌ تحسبُ الرعدَ يُقْعِدُ<sup>(١)</sup> بِهِ . إذا  
مشي في جهاده كان كلُّ ما على الأرض تراباً تحت قدميه، فلا يمشي إلَّا محترقاً  
هذه الدنيا وما فيها، غير مقدس منها إلَّا دينه ووطنه؛ وسلامٌ أنَّ كُلَّ شيءٍ فيهِ هو  
سلامٌ على الظلمِ وضدُّ الظلمِ .

وكان في ذلك اليوم يقود «المظاهر»، وحوله جماعةٌ من خالصاته وصفوة  
إخوانه، يمشون في الطليعة تحت جوًّا متقدّماً كأنَّ فيهِ غضبَ الشباب، عنيفٌ كائناً  
امتزج به السخطُ الذي يفورون بِهِ، رهيبٌ كأنَّه متهيئٌ لينفجر؛ فلما بلغوا موضعًا  
من الطريق ينبعطرون عندهُ أنصبَ عليهم المدفعُ الرشاش . . .

قال: فإني لجالسٌ بعد ذلك في الدبيان إذ دخلَ علَيَّ أخي هذا ينتفضُ غضباً  
كأنَّ المعاني تبعتُ من جسده لقتالِ، ورأيتُ له عينين ينظرُ الناظرُ فيهما إلى النارِ  
التي في قلبه؛ فخشيتُ أن يكونَ القومُ أطلقوا عليهم الجنونَ والرصاصَ معاً.

وأستبانته<sup>(٢)</sup> خبرَ أصحابِه فقال: إن الذين كانوا حوله وقعوا يتشحطون<sup>(٣)</sup> في  
دمائهم، فوقفَ هو شاصاً إليهم كأنَّه ميتٌ معهم، وقد أحسَّ كائناً خلَعَ عن  
جسمهِ نواميسَ الطبيعةِ، فلا يعرفُ ما هي الحياةُ ولا ما هو الموتُ؛ وكان الرصاصُ  
يتطايرُ من حوله كأنَّ أرواحَ الشهداء تتلقأهُ وتُبَعْثَرُهُ لا ينالُهُ بسوءٍ . قال: وما أنسى لا

(١) يقعق: يصدر أصواتاً عنيفة راعدة.

(٢) استبانته: سأله عن أصحابه.

أنسى ما رأيتها في تلك الساعة بين الدنيا والآخرة؛ فلقد رأيت بعيني رأسي الدم المصري يُسلم على الدم المصري، ويسعى إليه فيعانق عناق الأحباب.

ثم قال: أين هذا البasha؟ وما باله لم يصنع شيئاً في الاحتياط لهذه الفورة؟ يكاد الخزي - والله - يكون في هذه الوظائف على مقدار المرتب ...

\* \* \*

قال صاحب السر: ولم يتم كلّمه حتى خرج علينا البشا متكسراً الوجه من الحزن قد تغعرت عيناه، فأخذ بيدي أخي إلى غرفته وتبعتهما، ثم قال: هؤنَا ما يابني، إن العلة فيكم أنتم يا شباب الأمة، فكل ما أبتعلنا أو ثبتلى به هو مما يستدعيه خمولكم وتستوجبه أخلاقكم المتداولة؛ إننا من غيركم كالمدافع الفارغة من ذخيرتها: لا تصلح إلا شكلاً، وبهذه العلة كان عندنا شكل الحكومة لا الحكومة.

أندرى يا فتى ما هي الحكومة الصحيحة في مثل حالتنا؟ هي أن تحكموا أنتم في الشعب حكومة أخلاقية نافذة القانون، فتضطربوا أخلاق النساء والرجال، وتردوها كلها أخلاقاً محاربة لا تعرف إلا الجد والكرامة وصرامة الحق؛ وإنما تكونون يولى عليكم ...

هذا وحده هو الذي يعيد الأجانب إلى رشدهم وإلى الحقيقة، فما أراهم يعاملونا إلا كأننا ثياب معلقة ليس فيها لابوها ...

كيف يتضليلك<sup>(١)</sup> المصري للأجنبي لو أن في المصري حقيقة القوة النفسية؟ أترى بارجة حربية تتضليلك لزورق صيد جاء يرتق؟

إن في بلادنا المسكنة الأجانب، وأموال الأجانب، وغطرسة<sup>(٢)</sup> الأجانب؛ لأن فيها الاحتلال، كلا، بل لأن فيها ضعف أهلها، وغفلة أهلها، وكرم أهلها ... بعض هذا يا بني شيبة بعض، وإنما هو كرم الشاة الضعيفة إلا لذة لحمها ...؟

تريد لهذا الشعب طبيعة جدية صارمة، ينظر من خلالها إلى الحياة فيستشعر ذاته التاريخية المجيدة فيعمل في الحياة بقوانينها؛ وهذا شعور لا تحدثه إلا طبيعة الأخلاق الاجتماعية القوية التي لا تساهل من ضعف، ولا تستسمح من كذب، ولا تترخص من غفلة. والحقيقة في الحياة كالحقيقة في المنطق: إذا لم يصدق البرهان

(٢) غطرسة: تكبر وتجبر.

(١) يتضليلك: يتضاغر.

على كل حالاتها، لم يصدق على حالة من حالاتها؛ فإذا كان ضعفاءُ كرماء، أعزاء، سادة على التاريخ القديم، فنحن ضعفاءٌ فقط ...

إنَّ الْكُبَرَاءِ فِي الْشَّرْقِ كُلَّهُ لَا يَصْلِحُونَ إِلَّا لِلرَّأْيِ، فَلَا تُسْوِمُوهُمْ غَيْرَ هَذَا، فَهُمْ قَدْ تَلَقُّوا الْدَّرْسَ مِنْ أَغْلَاطِهِمُ الْكَثِيرَةِ، وَبِهِذَا لَنْ تُفْلِحَ حُكْمَةُ سِيَاسَيَّةٍ فِي الْشَّرْقِ الْنَّاهِضِ مَا لَمْ يَكُنْ شَبَابُهَا حُكْمَةً أَخْلَاقِيَّةً يُمْدُدُهَا مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ الشَّعَبِ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ بِالْأَخْلَاقِ الْمُحَارِبَةِ.

يا بُنَيَّ، إنَّ الْقَوِيَّ لَوْ أَتَفَقَ مَعَ الْأَسْعِيفِ عَلَى كَلْمَةٍ وَاحِدَةٍ لَا تَتَغَيَّرُ، لَكَانَ مَعْنَاهَا لِلْأَقْوَى أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ لِلْأَضْعَفِ؛ فَإِنَّ هَذَا الْقَوِيَّ الَّذِي يَعْمَلُ مَعَ الْأَسْعِيفِ يَكُونُ فِيهِ دَائِمًا شَخْصٌ آخَرُ مُخْتَفِ، هُوَ الْقَوِيُّ الَّذِي يَعْمَلُ مَعَ نَفْسِهِ. هَكُذا هِيَ الْسِيَاسَةُ؛ أَمَّا فِي الْإِنْسَانِيَّةِ فَلَا، إِذْ يَكُونُ الْحَقُّ دَائِمًا بَيْنَ أَثْنَيْنِ أَقْوَى مِنَ الْأَثْنَيْنِ.

## خضع بخضع ...

وقالَ صاحبُ سرِّ (م) باشا فيما حَدَثَني بِهِ: جاءَ ذاتَ يوْمٍ قنصلُ (الدولَةِ الفلايَّةِ) من هذهِ الدُولَةِ الصغِيرَةِ؛ الَّتِي لَوْ عَلِمَ الْذَّنَابُ فِي بَلَادِهَا أَنَّ فِي مِصْرَ أَمْتِيازَاتِ أَجْنبِيَّةَ، لَطَمِعَتْ كُلُّ ذَبَابَةَ أَنْ يَكُونَ لَهَا فِي بَلَادِنَا أَسْمُ الْطَّيَّارَةِ الْحَرَيَّةِ . . . .

ورأيَتُهُ قد دخلَ عَلَيَّ شامِخًا باذْخَانًا متجَبِّرًا، كَائِنَهُ قَبْلَ أَنْ يَجْعِيَ إِلَى هَذَا الْدِيَوَانِ لِمَقَابِلَةِ الْحَاكِمِ الْمِصْرِيِّ - قد تكلَّمَ فِي (التَّلْفُونِ) مَعَ إِسْرَافِيلَ يَأْمُرُهُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعِدًا لِلنَّفَخِ فِي الصُّورِ . . . .

جَنِيَ صُعلُوكُ من رَعَايَا دُولَتِهِ عَلَى مِصْرِيِّي، فَأُخِذَ كَمَا يُؤْخَذُ أَمْثَالُهُ، وَقَضَى سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ بَيْنَ أَيْدِي الْمُحَقِّقِينَ يَسْأَلُونَهُ الْأَسْتَلَةُ الْهَلَيَّةُ الْلَّيْنَةُ الَّتِي تُحيِّطُ بِتَعرِيفِهِ مِنْ ظَاهِرِهِ، وَلَا يُشَهِّدُهَا فِي سَخَافَةِ الْمَعْنَى إِلَّا أَنْ يَسْأَلُوهُ عَنْ ثَيَّبِهِ مِنْ أَيِّ مَصْنَعٍ هِيَ فِي أُورُبَا . . . . فَزَعَمَ الْقَنْصُلُ أَنَّهُ كَانَ يَجْبُ أَنْ يَكُونَ حَاضِرًا يَشَهُدُ التَّحْقِيقَ، لِأَنَّ جِنِيَّةَ أَجْنبِيَّ عَلَى مِصْرِيِّي تَقْعُدُ أَجْنبِيَّةَ . . . فَلَهَا شَأنُ وَرِعَايَةُ وَأَمْتِيازٍ، وَأَدَعَى أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ ضَايِقُوا الْمُجْرِمَ وَعَاسِرُوهُ وَتَجَهَّمُوهُ بِالْكَلَامِ، وَلِهَذَا جَاءَ يَحْتَاجُ.

ورأيَتُهُ جَلَسَ مُتَوَقِّرًا كَائِنًا يَشْعُرُ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ أَثْقَلُ مِنْ مَدْفَعِ ضَخْمٍ، لِأَنَّ فِي نَفْسِهِ وَهُمَ الْقَوَّةُ؛ وَخَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَرِي مَوْضِعَهُ بَيْنَ السَّقْفِ وَالْأَرْضِ؛ إِذَا يَحْمِلُ فِي رَأْسِهِ فَكَرَّةَ أَنَّهُ الْأَعْلَى، وَكَانَتْ لَهُ هِيَّةٌ صَرِيقَةٌ فِي أَنَّ الْأَجْنبِيَّ الْمُقَيَّمَ هُنَّ لَيْسَ هُوَ كُلُّ الْأَجْنبِيِّ، بَلْ لَا تَرَازُ مِنْهُ بَقِيَّةٌ تُتَمَّمُهَا دُولَتُهُ، وَفِي الْجَملَةِ كَانَ الْرَّجُلُ كَلْمَةً وَاضْحَىَ مُفَسَّرَةً تَنْطَقُ بِأَنَّ لِلْقَانُونِ الْمِصْرِيِّ قَانُونًا يَحْكُمُهُ فِي بَلَادِهِ!

وَأَنَا قَدْ درَسْتُ الْقَانُونَ الدُولِيَّ، وَعَرَفْتُ مَا هِيَ الْأَمْتِيازَاتُ وَمَا أَصْلُهَا، وَهِيَ لَا تَعْدُ كَرَمَ الْأَرْنَبِ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا كَائِنَتْ تَمْلِكُ حَمَارًا تَرْكِيَّهُ وَتَرْتَفِعُ بِهِ، فَسَأَلَّهَا أَرْنَبُ أَخْرَى أَنْ تُرِدَ فَهَا خَلْفَهَا، فَلَمَّا أَنْدَفَعَ بِهِمَا الْحَمَارُ أَسْتَوْطَأَهُ، فَقَالَتْ لِصَاحِبِتِهِ: يَا أَخْتِي، مَا أَفْرَأَهُ حِمَارَكَ! ثُمَّ سَكَتَتْ مَدَةً وَأَعْجَبَهَا الْحَمَارُ فَقَالَتْ: يَا أَخْتِي، مَا أَفْرَأَهُ حِمَارَنَا! . . .

وكنا - نحن الشرقيين - من الضعف والغفلة؛ بحيث لم يبلغ مبلغ الأرنب في حكمتها وتدبرها وحذرها، فإنها أسرعث ودفعث صاحبتها وقالت لها: إنزي - ويلك - قبل أن تقولي : ما أفرة حماري .

قال: غير أني في تلك الساعة نسيت القانون الدولي وكنت في إلهام مصرتي وحدها، فظهر لي ظهوراً يبينا أن لا شيء اسمه القانون الحق في هذه الدنيا؛ ولكن هناك اتفاقاً بين كلّ خضوع وكلّ سلط ، هو قانون هاتين الحالتين بخصوصهما.

وأسرعت إلى الباشا فأنبأته ، وأسرع البasha فغيّر وجهه ، وتبسط ، وتهلل ، وتهيأً بهذا لاستقبال القايد العزيز ، كأنه أخّص محببه يتطلع إلى مؤاساته ، وقد جاء يزوره في داره . ثم دخل القنصل ، ولم أسمع مما دار بينهما إلا الكلمة الأولى ، وهي قول البasha: لبداً يا سidi من الآخر ...

\* \* \*

وكانت في البasha موهبة عجيبة في اختلاط<sup>(١)</sup> الأجانب خاصة ، يُديرهم بلباقة كالخاتم في إصبعه؛ حتى قال لي أحدهم: إن لهذا البasha حاسة زائدة ، لو سميت حاسة الإرضاء لكان هذا اسمها الطبيعي ، وإنّه يعمل بها كما يعمل المفكّر بتفكيره؛ فهو يبتكر الأساليب الغريبة التي يصعب ويهبط بها ميزان الحرارة النفسية ، وإن جليسه يكاد يشعر من مهاراته في التمثيل أنّ في جو المكان ستاراً يُرفع وستاراً يُسدل بين الفصول .

فما لبث القنصل أن خرج بغير الوجه الذي دخل به ، ولكنه عبس في وجهي أنا وتكرة لي كأنه أضغر شأني ؛ فازدرتني عينه ، فوثبت إلى رأسه فكرة الامتيازات . وهذه القوة الظالمة (الامتيازات)؛ لو أنها كانت قوة قاهرة نافذة ، وأعين بها طفيلي ليقتحم ذور الناس آمناً مطمئناً - لاستحي هذا الطفيلي أن يأكل بها؛ إذ تجمع عليه التطفل والمقت<sup>(٢)</sup> معاً ، ولو قيل لحسام بتار: إن لك أمتياراً على بعض السيف ألا تقارعك<sup>(٣)</sup> ، وإنك محظي أن تناولك سلطتها إذا قارعتها<sup>(٤)</sup> - لأنف أن يسمى سيفاً بهذا أو بمثل هذا ، فإن القوة الظالمة التي يعيرونها إليها ، ليست إلا مهانة لشرف القوة العادلة التي هي فيه .

(١) اختلاط: خداع.

(٢) المقت: الكراهة.

(٣) تقارعك: تقاتلك.

(٤) قارعتها: غالبتها.

قال صاحب السرّ: ووصفت للباشا هيئة القنصل التي انصرف بها، وقطبيه في وجهي، وقلت له: إنَّ الذبابة وقعت في صحفتي أنا من هذه الوليمة... فضحك بملء فيه، ثم قال:

ستبطل هذه الامتيازات، وليس بيئنا وبين نهايتها إلا أن ينتهي الشعب إلى حقيقته القومية، فما تركها في مكانتها إلا نزول الشعب عن مكانه، وتالله لكأن هؤلاء الأجانب يسألوننا بهذه الامتيازات: أين مكانكم في بلادكم...؟

أتدري ما قاله هذا القنصل حين تجادلنا الحديث<sup>(١)</sup> فيها، بعد أن وضعت نفسي منه في موضع المحامي الذي يخذه<sup>(٢)</sup> الدليل، فيحاول أن يستنزل كرم القضاة بعرض بوسائهم على شفقتهم، ليستعطف القانون الذي في أيديهم بالقانون الذي في أنفسهم؟

إنه قال: لا يلومُّ الشرقيون إلا أنفسهم، فهم علموا الأجانب أن نتفريح الطير أول أكله. وهذه الامتيازات إن هي إلا معاملة بيننا وبين طبيعة الخضوع في الشعب. نعم إنها مضرّة ومغرة، وظلم وقسوة؛ ولكنها على ذلك طبيعية في الطبيعة؛ فما دام هذا الشعب لين المأخذ، فإنَّ هذا يُوجَدُ له من يأخذُه؛ وما دامت الكلمة الأولى في معجم لغته السياسية هي مادة (خَضَعَ يَخْضَع)، فهذه الكلمة تحمل في معناها الواحد ألف معنى، منها: ظلم يظلم، وركب برگب، وملك يملك، وأسبد يستبدُّ، ودخل يدخل، وخداع يخداع؛ فهل يكثير أن يكون منها للأجانب أمتاز يمتاز؟

\* \* \*

قال صاحب السرّ: ثم زمَّ البasha فمه وسكت: ففهمت الكلمات التي انطبقَ فمه عليها وإن لم يتكلّم بها، ثم غلبه الصحق فقال: - والله - يا بنى لو أنْ بُرغوثاً طمرَ من ثوبِ صعلوكِ أجنبيٍّ، فوقع في ثوبِ صعلوكِ وطنيٍّ، فتقاتلا فقبضَ عليهما، فأخذَا - لما رضي بُرغوث لأجنبيٍّ أن يحاكم إلَّا في المحاكم المختلطة... .

ثم سكت البasha مرة أخرى كأنه يقول كلاماً آخر لا يجوز نشره، ثم قال: يا بنى، إنَّ الأجانب لا يضعون الحمل إلَّا على من يحمل؛ فإذا نحن توخيينا مُرادهم

(٢) يخذه: يعزوه.

(١) تجادلنا الحديث: تداولناه.

أرادوا لأنفسهم لا لنا؛ وإذا وافقنا لهم غرضاً جعلوه كالدينار فيه مائة قرش، وأبوا إلا أن نصارفهم عليه بمائة. هم - ويحلك - يمتازون في معاملتنا لا في سطور القوانين والمعاهدات، فلتبتطل هذه المعاملة يتطل هذا الامتياز.

إن الحق يا بني استحقاق لا دعوى؛ وهذا التنازع على الحياة يجعل وسائله ألطبيعةَ الانتزاع والمطالبة والتجزئة والدأب فيه والإصرار عليه. وكل الأقواء يعلمون أنَّ موضع الاعتدال بين غضب الحق وبين أسترداده موضع لا مكان له في الطبيعة: والأجنبي يعتمد علينا نحن في جعله أكبر منا وأوفر حرمة؛ فإذا أنسقط الشعب هذه الامتيازات من فكره، وروجه وأعصابه، وثارت فيه كبراءة الوطنية فأستنكمَّ من الاستخداة، ونفرَّ من الاختضاع، وأبى إلا أن يعلن كرامته، وصرف اهتمامه إلى حقوق هذه الكرامة، وأصرَّ إلا يعامل أجنبياً برى لنفسه أمتيماً على وطني، وقرر ذلك في نفسه، ومكنته في روعه، وأجمع عليه إجماعاً على الدين - إذا جاءت (إذا) هذه بشرطها من الشعب، جاءَ جواب الشرط من الأجانب بـنزاولهم عن الامتيازات وأنحلت المشكلة. إننا يا بني لا نملك ضغط السياسة، ولكنَّ نملك ما هو أقوى؟ نملك ضغط الحياة.

لهم الامتياز بأنهم أجانب عنا، فليكن لنا الامتياز الآخر بأننا أجانب عنهم في المعاملة، مثلاً بـممثل، وما يقلُّ الحديد إلا الحديد.

يقولون: النظام الاقتصادي والمال الأجنبي. ولكن أرأيت المال في يد الأجنبي إلا مالاً وتديراً وسلطة وسيادة، من آنَّه في يد الوطنِ دينٌ وإسرافٌ ورقٌ وذل؟

لم يظهر لي إلا الساعة أنَّ من حكمة تحريم الربا في شريعتنا الإسلامية، وقاية الأمة كلها في ثروتها وضياعها ومستغلاتها، وحماية الشعب وملوكه من الإسراف والتخرُّق والكرم الكاذب، وردة الاستعمار الاقتصادي، وشلل التفود الأجنبي.

أما لو أننا كتبنا من الأول على أبواب «البنك العقاري» وأبواب ذريته: «يَمْحَى اللَّهُ أَرْبَوَا» فهل كانت تقرأ هذه الكلمات الثلاث على أبواب تلك البنوك الأجنبية إلا هكذا: «محال خالية لإيجار»...؟

## فُلْتَعَصِّبُ . . . !

وقال صاحب سر (م) باشا: جاءني يوماً صحفياً إنجليزياً من هؤلاء الكتاب المتعصبين الذين تطلقهم إنجلترا كما تطلق مدافعها؛ غير أن هذه للبارود والرصاص والقنابل وأولئك للكذب والتهم والمغالطات.

وهو أدنى وعین<sup>(١)</sup> ولسان وقلم لجريدة إنجليزية كبيرة، معروفة بثقل وطأتها على الشرق والإسلام؛ تصلح بإفساد، وتداوي الحمى بالطاعون، وتعمل في نهضة الشرقيين واستقلالهم ما يُشبة قطع ثدي الأم وهو في شفتي رضيعها المسكين.

ودخل على هذا الكاتب في الساعة التي خرج فيها من غرفتي صاحب جريدة أسبوعية في مديتها؛ كان قد نفح الصندوق ليجعلها ثوراً، فحوال صحيفته إلى جريدة يومية، وهو لا يجد مادتها ولا يستطيع أسبابها، إلا أنه كدأ<sup>(٢)</sup> الناس عندنا كان يحسب الكذب في العمل سهلاً مهلاً<sup>(٣)</sup> كالكذب في القول، فلم يتعاظمه الأمر العظيم، وأفترض لعمله كل الفاظ النجاح من اللغة . . .

وظنَّ عند نفسه أنه سيُخوَّف بجريدة الكُبراء والأعيان والمباسير حتى يغلب على جميعهم، ويُشرِّك أصابعه مع أصابعهم في استخراج ما يحتاج إليه من جيوبهم؛ فلم تعُشْ جريدة إلا أياماً وأتلفت ما جمع، ورهن فيها دارة التي لا يملك غيرها؛ وعلم آخرأ أنَّ الذي يكذب فيسمى الخروف جملأ، لا يقبل منه أن يكذب على الكذب نفسه، فيزعم أنَّ الناقة هي التي تَسْجُن هذا الخروف . . .

ولما انقلبت هذه الجريدة يومية كان الباشا هو ملحاً الرجل وزرره، وكان لكل يوم في الجريدة أخبار عن البasha لا تقع في الدنيا ولا تجمع من الحوادث، ولكن تقع في ذهن الكاتب، وتجمع من صناديق الحروف؛ حتى قال لي البasha مرة: إنَّ أسمى قد أصبح موظفاً في هذه الجريدة لجمع الاشتراك . . .

(١) يقصد بذلك أنه جاسوس.

(٢) هذا من الاتباع بلغة العرب.

(٣) دأب، بسكون الهمزة: العادة.

وتحرّى هذا الصحفى أن يستأذن يوماً على ألباشا وفي مجلسه حشد عظيم من السّرة والأعيان والعمد، وكان جمّعهم لأمر، فما هو إلا أن دخلَ الصحفى حتى ابتدأه ألباشا بهذا السؤال: يا أستاذ، ما هي تلغرافاتُ أوربا عن الحوادث التي ستقع غداً...؟

فضحَ المجلس بالضحك، وفقدَ المسكين بهذه النكتة أربعين ديناراً كان يؤمّل أن يخرج بها، وأعلنَ ألباشا في أطرفِ إعلانٍ وأبلغه كذب الرجل ونفاقه وإسفافه، وأنه من رجال الصحافة المدورّة تدوير الرغيف... .

\* \* \*

قال: ونظرتُ إلى الصحفى الإنجليزى نظرةً أكشفه بها، فإذا أول الفرق بينه وبين أمثاله عندنا - شعوره أن بلاده قد ربّته (للخارج)، فهو عند نفسه كأنه إنجليزى مرتين؛ وبأتي من ذلك إحساسه بعزة المالك وقرة المستعمر، فلا يكون حيث يكون إلا في صراحة الأمر النافذ، أو غموض الحيلة المبهمة؛ ويستحكم بهذا وذاك طبعة العملى، فهو بغير زبه مقاتلٌ من مقاتلة الفكر، يتّمس ميدانه بين القوى المتضاربة لا يبالى أن يكون فيه الموت ما دام فيه العمل؛ وبهذا كلّه تراه نافذ البصيرة قائماً على سواء الطريق، لأنَّ الإنجليزى أباطئَ فيه يوجّه الإنجليزى الظاهر منه ويسانده؛ وفي أعماقِ الآثنين تجد إنجلترا، وليس غير إنجلترا.

ثم تفرّشت في الرجل أريد كنهه<sup>(1)</sup> وحقيقةه، فإذا له نفسٌ مفتوحةٌ مفقلةٌ معاً، كعرف الدار: الواحدة يفتح بعضها لِمَا فيه كيما يرى، ويُفْقِلُ بعضها على ما فيه كيلا يرى.

وله وجه عملٍ يكاد يُحسبُ على نظراتك إليه؛ تدورُ في هذا الوجه عينان قد اعتادتا وزن الأشياء والمعاني؛ يتلاولاً في هاتين العينين شعاع النفس القوية الممرنة، قد نفتَّ الشقة بها نصف هموم الحياة عن صاحبها، ثمّ هذه النفس طبيعة مؤمنة بأنَّ أكبر سرورها في أعمالها، فواجّبها في الحياة أن تعمل كلَّ ما يحسنُ بها وكلَّ ما يحسُّ منها.

لقد خُيل إلي، وأنا أنظرُ إلى نفسَة هذا الإنجليزى أنَّ كلمة الخيبة عند هؤلاء الإنجليز غيرَ كلمة الخيبة عندنا - نحن الشرقيين -، فإنَّ خيبة النفس لا تتمُّ معانيها

(1) كنه: سره وكونه.

أبداً في النفس العاملة الدائبة، التي يُشعرُها الواجبُ أنَّه شيءٌ إلهيٌ لا يخيب، وأنَّ ما يُرفضُ على هذه الأرضِ من العملِ الطيبِ لا يُرفضُ في السماءِ.

وكأنَّ الرجلَ قد أدركَ غرضي بملائكتِي الصحافية الدقيقة، فأجباني عن السؤال الذي لم أسأله، وقال لي مبتدئاً: إنَّ أساسنا الشخصية وحاسة الواجب؛ وإنَّ فيكم أنتم كلَّ شيءٍ إلا هذين؛ فأخلاقنا تظهرُ دائماً في العمل، وأخلاقكم تظهرُ دائماً في الكلام الفارغ؛ ونحن نطلبُ الحقيقة، وأنتم تطلبوُنَ الألفاظ، حتى إنَّه لو خسِرَ المِصريُّ ألفَ دينار، ثمَّ أعلَنَ أنها مائةٌ فقط، وصدقَ الناسُ أنها مائة؛ لكانَ عندَ نفسهِ كأنَّه ربحَ تسعمائة... .

\* \* \*

قالَ صاحبُ السرِّ: وأستاذُتُ له على الباشا فسهَلَ ورَحِبَ؛ ثمَّ همَتْ بالانصرافِ عنهمَا، ولكنَّ الإنجلizيَّ قالَ: يا باشا! إنَّه قد تمكَّنَ في رُوعي أنَّ صاحبَ سرِّكَ هذا متَعصبٌ دينيًّا، وقد علِمْتُ أنَّه ابنُ فلان القاضي الشرعيِّ، فطربوشهُ ابنُ العمامة؛ ولقد كانَ ينظرُ إلىيَّ، وكأنَّه يتَأمِّلُ من أين يذهبُني... .

فضحِكَ الباشا وقالَ لي: يا فلان! إنَّ هذا الكاتبَ مِنْ تلاميذِ برناردشُو، فهو كأستاذِه يجعلُ لكلَّ حقيقةٍ ذنباً كذيلَ الهرَّ، ثمَّ يمسُّكُها منهُ فإذا هي تعَضُّ وتتلَوَّ... .

وألتفتَ بعدَ ذلك إلى الإنجلizيَّ ثمَّ قالَ له: جاءَني كتابُك فإذا كنتَ تُريدُ رأيِّي فيما تُسميهُ التَّعصُّبُ الدينيَّ عندَ المسلمينِ، فعجبَتُ أنَّ تضعوا أنتمَ الغلطَةَ ثمَّ تسألونَا نحنَ فيها! إنَّك لتتعلَّمُ أنَّ هذا التَّعصُّبُ الكذبُ الذي أكثرتُمُ الكلامَ فيهِ، إنما هو لفظٌ مِنَ الفاظِ السياسةِ الوربيَّةِ، أرسلتُمُوهُ إلينا ليقاتلُ لفظَ التَّعصُّبِ الحقيقِيِّ؛ ومن قبيلِ هذا آخرُ عشم لفظةِ (الأقلِيَّاتِ)، وأجريتموها في لغتِكمُ السياسيَّةِ، ليجعلُوا بها لتعصُّبِنا الوطنيِّ شكلًا آخرَ غيرَ شكلِهِ فتفسدوهُ علينا بهذهِ المادَّةِ المُفسدةِ؛ وبذلكَ تضرِبونَ أيدِيَ اليمنيِّ من غيرِ أنْ تلمسوها، إذ تضرِبونَها بشلَّ أيدِيَ اليسريِّ.

إنَّ الإسلامَ في نفسهِ عدوٌ شديدٌ على التَّعصُّبِ الذي تفهمونَهِ، فهو يقولُ لأهلهِ في كتابِهِ العزيزِ: «كُوْنُوا قَوْمَيْنَ بِالْقِسْطِ شَهِدَاهُ اللَّهُ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوْ الْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبَيْنِ». .

إذا كانَ العدلُ في هذا الدينِ عدلاً صارِماً، وحقاً مخضاً لا يُميِّزُ بشيءٍ أبَةَ،

لَا ذَاتُ النَّفْسِ الَّتِي فِيهَا أَشْتَهَاءُ الدَّمِ، وَلَا أَصْلَاهَا مِنَ الْأَبْوَابِ الَّذِينِ جَاءَتْ مِنْهُمَا  
وِرَاثَةُ الدَّمِ، وَلَا أَطْرَافُهَا مِنَ الْأَقْرَبِينَ الَّذِينَ يُلْتَفَوْنَ حَوْلَ نَسَبِ الدَّمِ - إِذَا كَانَ هَذَا،  
فَأَيْنَ فِي هَذَا الْعَدْلِ مَحْلُ الظُّلْمِ؟

لَعَلَّكَ تُشَرِّيْ إِلَى هَذِهِ الرُّعُونَةِ الَّتِي تَعْرُفُهَا فِي الْأَغْمَارِ وَالْأَغْفَالِ مِنَ الْعَامَّةِ، فَهَذِهِ  
لَيَسْتُ مِنْ أَثْرِ الْدِيْنِ، بَلْ هِيَ أَثْرُ الْجَهَلِ بِالْدِيْنِ؛ إِنَّ هَذَا لَيْسَ تَعْصِيْاً، بَلْ هُوَ مَعْنَى مِنْ  
مَعْنَى الْحَمِيَّةِ الْنَّفْسِيَّةِ الْخَرْقَاءِ لَمْ تَجِدُوا أَنْتُمْ لَهُ لَفْظاً، وَكَانَ أَقْرَبَ الْأَلْفَاظِ إِلَيْهِ عِنْدَكُمْ  
هُوَ التَّعْصِيْبُ، فَأَطْلَقُتُمُوهُ عَلَيْهِ لِلْمَعْنَى الَّذِي فِي نَفْسِهِ وَالْمَعْنَى الَّذِي فِي أَنْفُسِكُمْ. أَلَا  
فَاعْلَمُ أَنَّ إِسْلَامَ الْعَامَّةِ الْيَوْمَ هُوَ كَالْدَعْوَى الْمَقْبُولَةِ شَكْلًا وَالْمَرْفُوضَةِ بَعْدَ ذَلِكِ.

قَالَ الْإِنْجِلِيزُ: وَلَكِنَّ لِهُؤُلَاءِ الْعَامَّةِ عُلَمَاءُ دِيْنِنَا يُدَبِّرُونَهُمْ مِنْ وِرَائِهِمْ. وَهُمْ  
عِنْدَكُمْ وِرَثَةُ النَّبِيِّ ﷺ أَيْ مَنْبِعُ الْفَكْرَةِ وَقُوَّتُهَا.

قَالَ الْأَبْشَا: غَيْرُ أَنَّ هُؤُلَاءِ قَدْ أَصْبَحُوا كُلُّهُمْ أَوْ أَكْثُرُهُمْ لَا يَنْدَسُ<sup>(١)</sup> فِيهِمْ عَزْقٌ  
مِنْ تَلْكَ الْوِرَاثَةِ، وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي بَلَغَ بِنَا مَا تَرَى؛ فَالْقَوْمُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ كَالْأَسْلَاكِ  
الْكَهْرَبَائِيَّةِ الْمَعْتَلَةِ: لَا فِيهَا سَلْبٌ وَلَا إِيجَابٌ؛ وَلَوْ أَنَّ هُؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ كَانُوكُمْ فِيهِمْ  
كَهْرَبَاءُ الْتَّبُوْةِ، لَكَهْرَبَوْا الْأَمْمَ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي أَقْطَارِهَا الْمُخْتَلِفَةِ. إِذْنَ لَقَامَ فِي وِجْهِ  
الْأَسْتَعْمَارِ الْأَوْرُبِيِّ أَرْبِعَمِائَةِ مِلْيُونِ مُسْلِمٍ جَلْدٌ<sup>(٢)</sup> صَارَمَ شَدِيدٌ، مَتَظَاهِرِيْنَ مَتَعَاوِنِيْنَ،  
قَدْ أَعْدُوا كُلَّ مَا أَسْتَطَاعُوا مِنْ قُوَّةِ الْعِلْمِ، وَقُوَّةِ الْأَنْفُسِ، وَهُمْ لَوْ قَدَّفَ كُلُّ مِنْهُمْ  
بِحَجْرِيْنِ لَرَدَمُوا الْبَحْرِ.

أَتَرِيدُ مَعْنَى التَّعْصِيْبِ فِي إِسْلَامِ؟ إِنَّهُ بَعْيَنِهِ كَتَعْصِيْبِ كُلِّ إِنْجِلِيزِيِّ لِلْأَسْطُولِ؛  
فَهُوَ شَابِيْكُ الْمُسْلِمِيْنَ فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ قَاطِبَةَ، وَأَخْذُهُمْ بِأَسْبَابِ الْقَوَّةِ إِلَى آخرِ  
الْأَسْتَطِعَةِ، لِدُفْعِ ظُلْمِ الْقَوَّةِ بَآخِرِ مَا فِي الْأَسْتَطِعَةِ.

وَهُوَ بِذَلِكَ يَعْمَلُ عَمَلِيْنِ: أَسْتَكْمَالُ الْوِجُودِ إِلَيْسَ الْإِسْلَامِيِّ، وَالْأَدْفَاعُ عَنْ كَمَالِهِ.

وَإِذَا أَنْتَ تَرَجَّمْتَ هَذَا إِلَى مَعْنَى الْسِّيَاسَيِّ، كَانَ مَعْنَاهُ إِصْرَارُ جَمِيعِ الْمُسْلِمِيْنَ  
عَلَى نَوْعِ الْحَيَاةِ وَكَرَامَتِهَا، لَا عَلَى أَسْتِمرَارِ الْحَيَاةِ وَوُجُودِهَا فَقَطْ. وَذَلِكَ هُوَ  
مِبْدُؤُكُمْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْإِنْجِلِيزُ: لَا تَقْبِلُونَ إِلَّا حَيَاةَ السِّيَادَةِ وَالْحُكْمِ وَالْحُرْيَةِ، فَأَنْتُمْ  
مُسْلِمُوْنَ فِي هَذَا الْمَبْدَأِ لَوْ عَدَلْتُمْ.

(٢) جَلْد، بِسْكُونِ الْلَّامِ: صَبُورٌ فِي الْقَتَالِ.

(١) يَنْدَسُ: يَدْخُلُ فِي السَّرِّ.

أليس من البلاء أن المسلمين آليوم لا يدرُّس بعضهم بلادَ بعض إلَّا على الخريطة... معَ أنَّ الحجَّ لم يُشَرِّع في دينهم إلَّا لِتعمودِهم دراسةً للأرض في الأرض نفسها لا في الورق، ثُمَّ ليكونَ من مبادئِهم العمليَّة أنَّ العالم مفتوح لا مغلَّ؟

إنَّ التعصبَ في حقيقته هو إعلانُ الأُمَّةِ أنها في طاعةِ الشريعةِ الكاملة، وأنَّ لها أُرْوَحُ الحادَّة لا البَلِيْدَة، وأنَّ أساسَها في السياسةِ الاحترامُ الذاتيُّ لا تقبلُ غيرَه، وأنَّ أفكارَها اجتماعيةٌ حقائقُ ثابتَةٌ لا أشكالٌ نظريةٌ، وأنَّ مبدأَها هوَ الحقُّ ولا شيءٌ غَيْرُ الحقِّ، وأنَّ قاعدتها «لا يضرُّكم مَنْ ضَلَّ إِذَا أَهَدَيْتُمْ». فالهدايةُ أولاً والهدايةُ آخرًا: الهدايةُ في القوَّة، والهدايةُ في السياسة، والهدايةُ في الاجتماع. فقلْ لي بحياتِك وحياةِ إنجلترا: أيُعبُ ذلك على المسلمين إلَّا بالآفاظِ التي يعيَّبُ اللصُّ بها أهلَ الدارِ لِأنَّهم يُخْكِمونَ في وجهِه إقفالَ الباب...؟

قالَ: فوَاجَمَ الإنجليزيُّ حتى ذُهِلَ عن نفسهِ وصاحَ:  
إذا كانَ هذا فلتتعصَّبْ، فلتتعصَّبْ.

## وزنُ الماضي

وقال صاحب سر (م) باشا: إنني لجالس ذات يوم وفي يدي كتاب لبعض المتكلفـة من ملـاحـدة أورـبا الـذـين يـرـيدـون أـنـ يـفـهـمـوا مـا لـا يـفـهـمـ؛ وـكـانـ الـبـاشـا قد رـأـيـ مـرـةـ أـنـظـرـ فـيـهـ وـأـتـدـبـرـ مـسـائـلـ الـغـامـضـةـ، فـقـالـ لـيـ: يـا بـنـيـ، إـنـ أـحـدـ الـكـلـابـ كـانـ شـاعـرـاـ فـيـلـسـوـفـاـ، فـنـظـرـ لـيـلـةـ فـيـ النـجـومـ فـرـاغـتـهـ وـحـيـزـتـهـ؛ فـالـىـ أـنـ يـفـهـمـهـاـ بـعـقـلـهـ وـتـفـرـغـ لـدـرـسـهـاـ مـدـةـ طـوـيـلـةـ، ثـمـ وـضـعـ فـيـهـاـ كـتـابـاـ نـفـيـساـ ضـخـماـ، كـانـ أـعـظـمـ كـتـبـ الـفـلـسـفـةـ وـأـشـدـهـاـ غـمـوـضاـ عـنـدـ الـكـلـابـ، وـكـانـ أـسـمـهـ: الـعـظـامـ الـمـبـغـثـةـ فـوـقـنـاـ.

قال: فأنا جالس أقرأ هذا الكلام الذي لا صحيح فيه إلا أنه غير صحيح. إذ دخل عليَّ كاتب متكلفـ مـلـاحـدـ من هـؤـلـاءـ الـمـدـخـولـينـ فـيـ عـقـولـهـمـ، الـمـفـتوـنـينـ بـأـورـباـ وـمـذـاهـبـهـاـ وـعـلـوـيـاتـهـاـ... وـهـوـ يـكـتـبـ فـيـ الـصـحـفـ، وـيـؤـلـفـ الـرـسـائـلـ، وـقـدـ جـاءـ يـسـتـضـرـ الـبـاشـاـ عـلـىـ فـلـاحـ شـارـكـهـ فـيـ زـرـاعـةـ أـرـضـهـ، فـزـرـعـهـ الـفـلـاحـ فـيـهـ وـحـصـدـهـ، وـدـهـاـ بـكـيـدـهـ، وـأـبـلـاـهـ بـغـلـظـتـهـ، وـتـهـدـدـهـ بـالـقـمـةـ.

وـكـانـ هـذـاـ الـفـلـاحـ السـادـجـ الـغـرـيرـ قدـ سـبـقـهـ إـلـيـ وـعـرـفـهـ لـيـ تـعـرـيـفـاـ قـامـوسـاـ مـحـيطـاـ مـنـ مـادـةـ كـفـرـ يـكـفـرـ... ثـمـ قـالـ بـعـدـ ذـلـكـ: إـنـهـ (بيـاعـ كـلامـ) يـضـدـقـ وـيـكـذـبـ حـسـبـ الـطـلـبـ... وـأـلـدـمـةـ نـفـسـهـاـ لـيـسـتـ عـنـدـهـ إـلـاـ (عـمـلـيـةـ حـسـابـيـةـ)؛ وـهـوـ فـيـ أـقـوىـ جـهـاتـهـ لـاـ يـنـفـعـ الـدـنـيـاـ بـمـاـ تـنـفـعـهـ بـهـ الـبـهـيـمـةـ مـنـ أـضـعـفـ جـهـاتـهـ.

أـمـاـ الـكـاتـبـ فـيـقـولـ عـنـ هـذـاـ الـفـلـاحـ: إـنـهـ لـاـ يـدـرـيـ أـهـوـ يـتـمـ بـهـائـمـهـ أـمـ بـهـائـمـهـ هـيـ الـتـيـ تـئـمـهـ، وـإـنـ الـذـيـ يـرـفـعـ الـقـضـيـةـ عـلـىـ مـثـلـ هـذـاـ الـمـخـلـوقـ إـلـىـ مـحـكـمـةـ لـاـ يـكـوـنـ إـلـاـ كـالـذـيـ يـقـعـقـعـ بـالـعـصـاـ عـلـىـ جـحـرـ فـيـ الـحـيـةـ السـامـةـ.

وـرـأـيـ الـمـتـكـلـفـ الـكـتـابـ عـلـىـ يـدـيـ، فـتـهـلـلـ وـأـسـبـشـ وـقـالـ لـيـ: هـذـاـ نـسـبـ بـيـنـنـاـ... فـأـدـرـكـتـ مـنـ كـلـمـتـهـ هـذـهـ جـمـلـتـهـ وـتـفـصـيـلـهـ، وـخـيـلـ إـلـيـ أـنـيـ أـرـىـ فـيـ نـفـسـهـ الـشـرقـيـةـ كـالـمـرـأـةـ الـمـطـلـقـةـ... فـقـلـتـ لـهـ: أـنـاـ أـشـتـرـيـتـ هـذـاـ الـكـتـابـ مـنـ أـورـباـ، وـلـكـنـيـ لـمـ أـشـتـرـ مـنـهـ دـمـاغـيـ.

وكُلُّمَتَهُ أَسْتَخْرُجُ مَا عِنْدَهُ؛ فَإِذَا هُوَ فِي قَوْمٍ وَتَارِيَخٍ قَوْمٍ كَالسَّائِحِ فِي بَلَادِ  
أَجْنبِيَّةٍ: يَفْتَحُ لَهَا عَيْنَهُ وَلَا يَفْتَحُ لَهَا قَلْبَهُ.

\* \* \*

وَكَانَ جَرِيَّنَا فِي كَلَامِهِ مَعَ الْبَاشَا: يَطْرُدُ الْقَوْلَ حِيثُ شَاءَ حَقًّا وَبَاطِلًا، ثُمَّ  
لَا سِنَادٌ لِرَأْيِهِ وَلَا تَشْبِيهٌ لِحُجَّتِهِ إِلَّا قُولُ فُلَانٍ وَرَأْيُ فُلَانٍ، كَأَنَّ فِي رَأْسِهِ عَقْلًا  
شَحَادًا... ثُمَّ ذَكَرَ آخَرَ الْأُمْرِ مَا جَاءَ لَهُ، فَخَجَّلَهُ الْبَاشَا وَقَالَ: هَذِهِ مَسَأَلَةٌ كُلُّ  
مَسَائِلِكَ: تَحْتَاجُ إِلَى رَأْيِ فِيْلِسُوفٍ أُورْبِي... وَأَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ يَدْخُلْ فِي شَيْءٍ  
مِنْ أَمْرِهِ.

وَلَمَّا أَنْصَرَفَ قَالَ الْبَاشَا: يَحْسُبُ هَذَا نَفْسَهُ عَالَمًا، وَهُوَ صُعْلُوكٌ عِلْمِيٌّ..  
وَإِنَّمَا يَكُونُ دِمَاغُهُ وَأَدْمَغَهُ أَمْثَالِهِ عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ وَالْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَذَكُرُونَهُمْ كَمَا تَكُونُ  
سَلَةُ الْمَهَمَّلَاتِ عِنْدَ الصَّحَافِينَ.

إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ يُتَمَّ ضَعْفَ عَقْلِهِ فِي الرَّأْيِ بِقَوْءَةِ عِنَادِهِ، لِيَجْعَلَ لَهُ ثَبَاتَ  
الْحَقِيقَةِ فِيْظِنَّ حَقِيقَةً، كَأَنَّ خَصْخَاصَةَ الْمَاءِ بِالْيَدِ فِي وَعَاءٍ صَغِيرٍ يَنْقُلُ إِلَى هَذَا  
الْوَعَاءِ طَبِيعَةَ الْمَوْجَ؛ وَعِنْدَ أَمْثَالِهِ هَذَا الْمُفْتَوِنُ مِنَ الْصَّعَالِيْكِ الْعَلَمَيْنِ، أَنَّكَ إِذَا  
تَنَاوَلْتَ مَسَأَلَةً فَأَخْطَأْتَ فِيهَا خَطَأً جَرِيَّنَا، فَقُدْ جَعَلْتَهَا بِخَطْبِكَ الْجَرِيَّ مَسَأَلَةً مِنَ  
الْعِلْمِ... وَأَنَّكَ إِذَا عَانَدْتَ فَثَبَتَ الْخَطَأُ فِي وَجْهِ النَّاقِدِينَ سَنَةً، كَانَ حَقِيقَةً مَدَةً  
سَنَةً... .

هُمْ مُفْتَوِنُونَ زَانِغُونَ، وَمَنْ فَتَنَتْهُمْ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الْبَعْدَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْفَضَائِلِ  
الشَّرِقِيَّةِ، كَالْبَعْدُ بَيْنَ الْعَالَمِ وَالْجَاهِلِ؛ وَلَوْ حَقَّوْا لِرَأْوَهُ بُعْدًا فِي الْغَرَائِزِ لَا فِي  
الْعُقْلِ، أَيْ كَالْبَعْدِ بَيْنَ الْفَجُورِ وَمَا أَشْبَهُ الْفَجُورَ، وَبَيْنَ التَّقْوَى وَمَا أَشْبَهُ التَّقْوَىِ.

زَعَمَ الْأَحْمَقُ أَنَّ خَصْمَةَ الْفَلَاحِ رَجُلٌ رَاسِخٌ فِي الْمَاضِيِّ، كَأَنَّهُ باقٍ فِي أَمْسِ  
لَمْ يَنْتَقِلْ مِنْهُ، مَعَ أَنَّ أَمْسَ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ الزَّمْنِ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ الْأَمَّةَ  
يَجْبُ أَنْ تَنْبَذَ مَاضِيَّهَا، ثُمَّ أَدَعَى أَنَّ الْإِسْلَامَ يَتَعَصَّبُ لِلْمَاضِيِّ. هَذِهِ ثَلَاثُ كَلْمَاتٍ  
تَخْرُجُ مِنْهَا الْأَرْبَاعَةُ الَّتِي سَكَتَ عَنْهَا... .

وَأَنَا لَوْ شِئْتُ أَنْ أَسْخَرَ مِنْ مَثَلِ هَذَا الْصُّعْلُوكِ الْعِلْمِيِّ، لَمَّا وَجَدْتُ فِي  
أَسَابِيلِ الْسُّخْرِيَّةِ أَبْلَغَ مِنْ أَنْ أَبْعَثَ إِلَيْهِ بِقَارُورَةً فَارِغَةً وَأَقُولُ لَهُ: امْلَأْهَا لِي مِنْ آرَاءِ  
الْفَلَاسِفَةِ... .

يَغْفُلُ هَذَا وَمَثَالُهُ عَنْ أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ لَا يَعْرُفُ الْمَاضِيَّ بِمَعْنَى مَا مَضِيَ عَلَى إِطْلَاقِهِ؛ بَلْ هُوَ يُشَرِّطُ فِيهِ أَلَا يُخَالِفَ الْعُقْلَ وَلَا الْعِلْمَ، وَأَلَا يَنَاقِضَ الْهُدَىَّ؛ «فَالْوَابِلُ تَشَعَّبُ مَا أَفْتَنَاهُ عَلَيْهِ إِبَاءَةً أَوْلَوْ كَانَ، إِبَاءَةُهُمْ لَا يَقْلُوْكُ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: «فَالْوَابِلُ حَسْتَنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ إِبَاءَةً أَوْلَوْ كَانَ، إِبَاءَةُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ»؟ وَفِي الْأَثَلَةِ: «فَالْوَابِلُ تَنَعَّبُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ إِبَاءَةً أَوْلَوْ كَانَ الشَّيْطَنُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ الْسَّعِيرِ»؟ وَفِي الْرَّابِعَةِ: «إِنَّا وَجَدْنَا إِبَاءَةً نَاعِلَ أُمَّةً وَإِنَّا عَلَىٰ مَأْثِرِهِمْ مُقْتَدُورُكُ قَلَّ أَوْلَوْ جَنِثُكُمْ يَأْهَدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ إِبَاءَةً كُمْ»؟

فَانظُرْ كِيفَ صَوْرَ مَا نُسَمِّيُّ الْيَوْمَ بِالْجَمُودِ فِي قَوْلِهِ: (حَسِبْنَا)، وَكِيفَ صَوْرَ مَا نُسَمِّيُّ بِالرَّجْعِيَّةِ فِي قَوْلِهِ (نَتَّعِبُ)، وَتَأْمُلْ كِيفَ رَفَضَ الْجَمُودَ وَالرَّجْعِيَّةَ مَعًا فِي الْعِلْمِ وَالْعُقْلِ وَالْهُدَىَّ، أَيْ فِي آثَارِهَا مِنَ الْعُلُومِ وَالْمُخْتَرَعَاتِ وَالْفَضَائِلِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَكِيفَ أَبْطَلَ فِي تَلْكَ الْثَّلَاثِ الْاحْتِجاجَ بِالْمَاضِيِّ بِهَذَا الْأَسْلُوبِ الْدَّقِيقِ الْعَالِيِّ، وَهُوَ قَوْلُهُ فِي كُلِّ آيَةٍ أَوْلَوْ، أَوْلَوْ. لَمْ يَغْيِرْهَا؛ بَلْ كَرَرَهَا بِلِفْظِهَا أَرْبَعَ مَرَاتٍ.

فَالْمَعْجِزُ هُنَا مُجِيءُ الْآيَاتِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ الْمُنْطَقِيَّةِ لِإِسْقاطِ حُجَّتِهِمْ، وَنَفِيَ مَعْنَى التَّقْدِيسِ عَنِ الْمَاضِيِّ فِيهِنَّ؛ إِذَا كَانَ الْعِلْمُ دَائِمَ التَّغْيِيرِ، وَكَانَ الْعُقْلُ دَائِمَ التَّجْدِيدِ وَالْإِبْدَاعِ، وَكَانَتِ الْهُدَىَّ شَدِيدَةً عَلَى الْطَّبِيعَةِ الْحَيْوَانِيَّةِ الَّتِي هِي مَاضِيُّ النَّفْسِ؛ فَكَانَهَا جَدِيدَةً عَلَى النَّفْسِ عِنْدَ كُلِّ شَهْوَةٍ.

إِنَّ الْإِنْسَانَ بِمَاضِهِ وَحَاضِرِهِ كَأَنَّهُ مَقْسُومٌ قَسْمَيْنِ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا: أَرِيدُ أَنْ أَكُونَ. وَيَقُولُ الْآخَرُ: أَنَا قَدْ كَنْتُ. فَالْإِسْلَامُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ قَدْ أَوْجَبَ وَزْنَ الْكَلِمَتَيْنِ فِي كُلِّ زَمِنٍ بِمَا هُوَ الْأَصْحُ، وَبِمَا هُوَ الْأَنْفَعُ، وَبِمَا هُوَ الْأَهْدَى؛ وَبِاشْتِرَاطِهِ الْهُدَىَّ فِي جُمِيعِهَا أَشَارَ إِلَى أَنَّ الْكَمَالَ النُّفْسِيَّ لِلْفَرْدِ يَجْبُ أَنْ يَكُونَ مَرْتَبِطًا بِالْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ لِلْجَنْسِ.

وَهَذَا مَعْنَى عَجِيبٍ، وَأَعْجَبُ مِنْهُ مَا تَرَى مِنْ أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ أَصْلَحَ فَكْرَةَ الْمَاضِيِّ؛ فَنَقَلَهَا مِنْ مَعْنَى الْآبَاءِ وَالْأَجَادِيدِ لِلنَّاسِ، إِلَى الْمَعْنَى الَّتِي هِي كَالْآبَاءِ وَالْأَجَادِيدِ لِإِنْسَانِيَّةِ النَّاسِ. وَالْأَخْذُ (بِالْأَهْدَى) فِي اجْتِمَاعِ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمُّمِ، إِنَّمَا هُوَ بِعِينِهِ نَامُوسُ التَّرْقِيِّ وَالتَّطْوُرِ.

وَمِنْ أَدَقِ الْأَسْرَارِ قَوْلُهُ: «إِنَّا وَجَدْنَا إِبَاءَةً نَاعِلَ أُمَّةً» فَكَلِمَةُ (أُمَّةً) هَذِهِ لَمْ يَعْرِفَهَا أَحَدٌ عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَلَمْ تُفْسِرْهَا إِلَّا عِلْمُ هَذَا الزَّمْنِ، فَهِيَ الْمَشَاعِرُ الْنُّفْسِيَّةُ

التي يتكون منها مزاج الشعب، وفيها يستقر الماضي؛ كان الآية قد عبرت باخر ما أنهى إليه علماء النفس: من أن الإنسان ابن أبيه وأبن شعيب أيضاً.

فالتعصب في الإسلام هو للعلم النافع، ولل Mage الصحيح، وللهداية الباعثة على الكمال؛ وتعصب الجيل لمثل هذا في ماضيه، هو في أسمه تعصب، غير أنه في معناه إنما هو العمل لتسليم مجد الأمة إلى الجيل التالي.

## المعجم السياسي

وحدثني صاحب سر (م) باشا قال: كنا في سنة ١٩٢٠، وهي بنت سنة ١٩١٩؛ وقد اجتمعَت الأمة على مقاطعة لجنة (ملنر) لا تكلُّمها، فجعلت السكوت ثورة، وأعلنَ الشعب أنَ الكلمة في لسان الوفد ينطُقُ الوفد بها نطق النبي بما يوحى إليه، فما يكون لأحد غيره أن يقولها، ولا أن يقول أُوحى إلى. وأبى اللورد ملنر أن يصدق أنَ للمصريين إجماعاً يعتد به، وأنهم دخلوا في السياسة دخولاً ثابتاً فرسخوا<sup>(١)</sup> فيها، وأنهم أصبحوا مع الإنجلiz كالإنجلiz الذين يقولون عن أنفسهم في مثلهم السائر: ينبغي أن تكون أحراراً مثل أعملنا.

وزعم اللورد لنفسه، أنَ هذه الأحزاب المصرية لا يتفرق منها أثناان أبداً إلا كان بينهما ثالث يختلف عليه، وهو الطمع في مناصب الحكم؛ واستخرج من ذلك أنَ المصري والمصري كشقي المقاوض<sup>(٢)</sup>: لا يتحركان في عمل إلا على تمزيق شيء بينهما؛ فإن لم يكن بينهما (الشيء) لم يكن منهما شيء.

وذهب الرجل يتظئن ويخذل على ما يُخيّل له الظن، وقد حسِب أنَ إنجلترا يحق لها أن تقول في المصريين ما يقول الله في خلقه كما ورد في الأثر: «إنما يتقلّبون في قبضتي». وكما تقول آليوم لأهل فلسطين من العرب: «إن يشاء يذهبون وبأيّت يخلق جديراً...» وكان اللورد هذا رجلاً مُمارساً لمشاكل السياسة، دخالاً فيها، ذاهية من ذهابة القوم، له في قلبه عينان وأذنان غير ما في وجهه كحذاق السياسيين؛ وهو يعرف أنَ سياسة قومه لا تدخل في شيء إلا دخول الإبرة بخيطها في الثوب، إن خرجت هي تركت الخيط وقد جمع وشد... فراراً أن يمتحن مذهب المصريين في إجماعهم على الاستقلال، وقدر أنه واحد من الفلاحين عزنا له ومادة لمكره السياسي، وحسِب الوفد صورة جديدة من طبقة (الباشوات) القديمة، ينزلون من الشعب منزلة أيدٍ التي تمسك القيد، من الرجل الذي فيها

(٢) المقاوض: المقص.

(١) رسخوا: استقرروا.

القيد، ويضعونَ معنى كلمة الحاجة في كلمة السياسة، ويقولون: الوطن وهم يُريدونَ الجاه، ويُقيِّمونَ الشعب كالسلم ينتصب قائماً بأيديهم ليحمل أرجلهم الصاعدة عليه.

فجاء اللورد إلى مصر، فوجد الأمة كلها قد حذرت منه وتيقظت له، حتى نصَّحة رشدي باشا بأنَّه لَن يجد في مصر هرَّة تفاوضه؛ ولكنَّه كان مستيقناً أنَّ أذنَّ السياسة الإنجليزية (كارلديو) لصوتين: صوت الدنانيِّر وصوت الجماهير، فمرَّ في البلاد يرسم على الهواء علاماتِ استفهام، وانْصَفَ<sup>(١)</sup> عنه الناس وأهملوه، وكان يسيراً في دائرة الصمت التي مركُّزها أبو الهول، فبدأ وظلَّ يبدأ حتى انتهى وما زال يبدأ... وساحَ في البلاد سياحة طويلة، وكأنَّه لم يسافر إلَّا من شقة أبي الهول السُّفلَى إلى شفتِه العُلَى.

\* \* \*

قال صاحب السر: وجاء الورُّد لِمُقابلة البشا، فمرَّ عليَّ مرورَ كتابِ مُقفلٍ: لا أعرف منه إلَّا العنوان؛ غيرَ أَنَّهُ رجلٌ بمقدارِ الرجل الذي يُخالفُ أُمَّةً كاملةً تكاد تحسُّبُه مطويَاً على زوبعة، وترى له قوَّتين تُحْسُّ من أثريهما الرهبة والإعجاب، وإذا تأمَّلتُ قلْتُ إِنَّ اللطفَ والظرفَ أضعفُ شمائله، وإنَّ الدَّهاءَ والجحيلَةَ أقوى مواعيده. فلما لقيتُ البشا من الغد، سألي: كيف رأيتَ اللورد ملنر؟ فقلتُ: والله يا باشا إنَّه كالضرورة: ما يمتَّها أحدٌ ولكنَّها تجيء...

فضحَكَ البشا وقال: يا لينٌ لنا - نحنُ الشَّرقين - كلَّ يوم ضرورةً تصنُّعُ ما صنعَ اللورد؛ إِنَّه كشفَ لنا في ذاتِ أنفسِنا عن حقيقةٍ من أسمى الحقائق السياسية: وهي أنَّ الشعب الذي يُصرُّ ولا يزالُ يُصرُّ يجعلُ الإغراءَ لا يُغري والخوفَ لا يُخفِّ.

ويا لينٌ الأممِ الشَّرقيةَ تتعلَّمُ هذا الصَّمتَ السياسيَّ عن مجاوبةِ الكلمةِ الاستعماريَّةِ أحياناً؛ فإنَّ صمتَ الأمةِ المصريَّةِ عن جوابِ (ملنر) كانَ معناه أنَّ قدرَةَ الأمةِ هي المتكلمةُ كلامَها بذا الصَّمت، تُعلِّمُ للعالمِ أنَّ الواجبَ الشعبيَّ قد وضعَ قُفلَه على كلِّ فم.

وقد فسَّرَ اللورد هذا السكوتَ بتفسيِّره السياسيِّ، فأدركَ منه أنَّ في الشعب

(١) انْصَفَ عنه الناس: تفرقوا.

أنفَةً وحَمِيَّةً وقوَّةً، وأنَ حِسَابَ الضَّمِيرِ الْوُطَنِيِّ أَصْبَحَ لِهِذِهِ الْأَفْنَدَةِ كَالْحِسَابِ الْإِلَهِيِّ  
لِلنُّفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ: كِلَاهُمَا مُسْتَعْلِنٌ يُخَافُ وَيُتَقَنُ، وَكِلَاهُمَا كَلْمَةٌ مَحَرَّمةٌ.

أيَّةً مَعْجَزَةً هَذِهِ الَّتِي جَعَلَتْ كَلْمَةَ الْأَجْنبِيِّ تَشَدُّدُ فِي أَذْهَانِ أَمَّةٍ كَامِلَةٍ شَكْلَ  
قَائِلِهَا، فَاجْتَمَعَتْ لَهَا الْبَلَادُ عَلَى مَعْنَى الرُّفْضِ، وَأَصْبَحَ كُلُّ فَرِيدٍ يَعْرُفُ مَحْلَهُ مِنَ  
الْكُلِّ، وَخَضَعَتِ الْطَّبَاعُ بِجَمِيلِهَا لِقَانُونِ الْعَزَّةِ الْقَوْمِيَّةِ، الَّذِي يُلْزِمُهَا أَلَا تَخْضُعُ  
لِلْأَجْنبِيِّ؟

إِنَّ الْأَمَّمَ بَعْضُ مَسَائِلَ نَفْسِيَّةٍ كَهَذِهِ الْمَسَأَلَةِ؛ فَلَوْ أَنَّ لَنَا خَمْسَةَ دُرُوسٍ سِيَاسِيَّةٍ  
مُخْتَلِفَةٍ كَدُرُوسِ (مُلْنِر)، لَكَانَتْ لَنَا فِي الْإِيمَانِ الْوُطَنِيِّ كَالصَّلَواتِ الْخَمْسِ.

وَالآنَ تَعْلَمَتِ الْأَمَّةُ أَنَّ الشَّعَبَ الْعَزِيزَ هُوَ الَّذِي يَنْظُرُ فِي فَضْلِ مَشَاكِلِهِ<sup>(۱)</sup> إِلَى  
الْحَلِّ إِلَى طَرِيقَةِ الْحَلِّ أَيْضًا، وَقَدْ كَانَ (مُلْنِر) هُوَ أَوَّلُ أَساتِذَتِنَا فِي تَعْلِيمِنَا  
الْطَّرِيقَةِ.

وَهَذَا الْدُرُسُ يَجُبُ أَنْ يَكُونَ درَسًا لِلشَّرْقِ كُلِّهِ، فَإِنَّ السِّيَاسَةَ الْاستِعْمَارِيَّةَ  
قَائِمَةُ فِيهِ عَلَى خَدَاعِ الْطَّرِيقَةِ فِي حَلِّ مَشَاكِلِهِ، فَيَحْلُونَهَا وَيَعْقُدُونَهَا فِي نَصٍّ وَاحِدٍ؛  
وَيُبَثِّتُ الْكَلَامُ الَّذِي يَتَفَقَّدُونَ عَلَيْهِ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ زَوَالُ الْخَلَافِ، وَيُبَثِّتُ الْعَمَلُ بَعْدَ  
ذَلِكَ أَنَّ الْمُرَادَ كَانَ زَوَالَ الْمُقاوَمَةِ.

وَفِي السِّيَاسَةِ الْأَوْرَبِيَّةِ مَوْافِقَاتٌ دَمِيَّةٌ<sup>(۲)</sup> كَالنِّسَاءِ الْمُشَوَّهَاتِ، فَإِذَا عَرَضُوا  
وَاحِدَةً مِنْهَا عَلَى مَنْ يُرِيدُونَ أَنْ يَزْوِجُوهُ... فَأَبَاهَا وَفَتَحَ لَهَا عَيْنِيهِ بِكُلِّ مَا فِيهِمَا مِنْ  
قُوَّةِ الْإِبْصَارِ، أَعْفَوْهُ مِنْهَا وَقَالُوا لَهُ: سَنَأْتِيكَ بِالْجَمِيلَةِ، ثُمَّ يَذْهَبُونَ بِهَا إِلَى مَعْهِدِ  
الْتَّجَمِيلِ الْلُّغُويِّ، فَيَصْقِلُونَهَا وَيَصْبِغُونَهَا، وَيَضْعُونَ لَهَا أَحْمَرَ السِّيَاسَةِ وَأَبْيَاضَهَا، ثُمَّ  
يَعْرَضُونَهَا جَدِيدَةً عَلَى صَاحِبِهِمْ ذَاكَ، وَمَا صَنَعُوا مَا بِهِ صَارَتِ الْدَّمِيَّةُ غَيْرَ دَمِيَّةً،  
وَلَكِنَّ مَا بِهِ رَجَعٌ غَيْرُ الْأَعْمَى كَالْأَعْمَى.

وَلَهُمْ عَقُولٌ عَجِيَّةٌ فِي أَخْرَاعِ الْأَلْفَاظِ، حَتَّى لَتَكُونُ شِدَّةُ الْوَضُوحِ فِي عِبَارَةِ،  
هِيَ بَعْينِهَا الْطَّرِيقَةُ لِإِخْفَاءِ الْغَمْوُضِ فِي عِبَارَةِ أُخْرَى. وَكَثِيرًا مَا يَأْتُونَ بِالْفَاظِ مُتَفَخَّةَ  
تُحَسَّبُ جَزَلَةً بَادِنَةً قَدْ مَلَأُهَا مَعْنَاهَا، وَهِيَ فِي السِّيَاسَةِ الْفَاظُ حُبَالٌ، تَسْتَكِمُ  
حَمْلَهَا مَدَةً ثُمَّ تَلِدُ.

(۲) دَمِيَّة: بَشَّعَة.

(۱) فَضْلِ مَشَاكِلِهِ: حَلَّهَا.

ولهم من بعض الكلمات السياسية، كما لهم من بعض الرجال السياسيين؛ فيكون الرجل من دهائهم رجالاً كالناس، وهو عندهم مسمار دقوه في أرضِ كذا أو مملكة كذا، ويكون اللفظ لفظاً كاللغة، وهو مسمار دقوه في وثيقة أو معاهدة.

ثم ضحك أباشا وقال: إن أرضنا تخرج القطن، وسياستنا تخرج الفاطمة كالقطن: لا توضع في المغزل إلا مدّت وتحوّلت. وإذا ذهبنا خالفهم في آتاوين والتفسير، لم نجد عندنا المعجم السياسي الذي ي ملي النص. أتدرى يا بني ما هو المعجم السياسي؟

أما إنّه لو كان كتاباً يتّألفُ من مليون كلمة، لذهبَت كلُّها عبثاً وباطلاً وهراء، ولكتّه ذلك المعجم الحي، ذلك المعجم الذي يتّألفُ من مليون جندي . . .

## اللسان المُرَقَّع

وقال صاحب سر (م) باشا: جاء «حضره صاحب السعادة» فلان لزيارة أباشا؛ وهو رجل مصري ولد في بعض القرى، ما نعلم أن الله (تعالى) ميزة بجوهر غير الجوهر، ولا طبع غير الطبع، ولا تركيب غير التركيب، ولا زاد في دمه نقطة فهو، ولا وضعه موضع الوسط بين فئن من الخليقة. غير أنه زار فرنسا، وطاف بإنجلترا، وساح في إيطاليا، وعاج على ألمانيا، ولوّن نفسه ألواناً، فهو مصري ملوّن. ومن ثم كان لا يرى في بلاده وقومه إلا الفروق بين ما هنا وبين ما هناك. فما يظهر له دين قومه إلا مقابلًا لشهوات أحبابها وغامر فيها، ولا لغة قومه إلا مقرونة بلغة أخرى ودّ لو كان من أهلها، ولا تاريخ قومه إلا مغمى عليه.. كالميت بين تواريخت الأمم.

هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعمين: مصري أمال فقط، إذ كانت أسبابهم ومستغلاتهم في مصر؛ عربى الاسم لا غير، إذ كانت أسماؤهم من جنایة أهليهم بالطبعية؛ مسلم ما مضى دون ما هو حاضر، إذ كان لا حيلة في أسبابهم التي انحدروا منها.

هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعمين المفتونين بالمدنية: لِكُلِّ منهم جنسة المصري ولفکره جنس آخر.

قال: وكان حضره صاحب السعادة يكلّم أباشا بالعربية التي تلعنها العربية، مرتفعاً بها عن لغة الفصيح أرتفاعاً منحطاً.. نازلاً بها عن لغة السوق نزواً عالياً.. فكان يرتضخ لكتة أعمجية<sup>(١)</sup>، بينما هي في بعض الألفاظ جرس عال يطن، إذا هي في لفظ آخر صوت مريض يئن، إذا هي في كلمة ثلاثة نغم موسيقي يرن. ورأيته يتتكلّف نسيان بعض الجمل العربية ليلوي لسانه بغيرها من الفرنسية، لا تزداد ولا تملأ ولا إظهاراً لقدرة أو علم، ولكن استجابة لشعور الأجنبي الخفي

(١) يرتضخ لكتة أعمجية: يلهج لهجة أوروبية.

المتمكن في نفسه. فكانت وطنية عقله تابى إلا أن تُكذب وطنية لسانه، وهو بإحداهم زائف على قومه، وبالآخر زائف على غير قومه.

\* \* \*

فلما أنصرف الرجل قال الباشا: أَفْ لِهذا وأمثالِ هذا! أَفْ لِهِم ولِمَا يصنعون! إِنَّ هَذَا الْكَبِيرَ يُلْقَبُونَهُ «حُضْرَة صَاحِبُ السَّعَادَة»، وَلَا شَرْفٌ مِنْهُ - وَاللَّهُ - رَجُلٌ قَرُوئٌ سَاذِجٌ يَكُونُ لِقَبْيَهُ «حُضْرَة صَاحِبُ الْجَامِوسَة»... نَعَمْ إِنَّ الْفَلَاحَ عِنْدَنَا جاَهِلٌ عِلْمٌ، وَلَكِنَّ هَذَا أَقْبَحُ مِنْهُ جَهَلًا، فَإِنَّهُ جَاهِلٌ وَطَنِيَّةً.

ثُمَّ إِنَّ الْجَامِوسَةَ وصَاحِبَهَا عَامِلَانِ دَائِبَانِ مُخْلِصَانِ لِلْوَطَنِ؛ فَمَا هُوَ عَمَلُ حُضْرَةِ (صَاحِبِ اللِّسَانِ الْمَرْفَعِ) هَذَا؟ إِنَّ عَمَلَهُ أَنْ يُعْلِنَ بِرْ طَانِتَهُ<sup>(١)</sup> الْأَجْنبِيَّةَ أَنَّ لِغَةَ وَطَنِيَّهُ ذَلِيلَةً مَهِينَةً، وَأَنَّهُ مُتَجَرِّدٌ مِنَ الرُّوحِ الْسِّيَاسِيِّ لِلْلُّغَةِ قَوْمِهِ؛ إِذَا لَا يَظْهُرُ الرُّوحُ الْسِّيَاسِيُّ لِلْلُّغَةِ مَا، إِلَّا فِي الْجِرْحِصِ عَلَيْهَا وَتَقْدِيمِهَا عَلَى سِواهَا.

كَانَ الْوَاجِبُ عَلَى مُثْلِ هَذَا أَلَا يَتَكَلَّمُ فِي بَلَادِهِ إِلَّا بِلِغَتِهِ، وَكَانَ الَّذِي هُوَ أَوْجَبُ أَنْ يَتَعَصَّبَ لَهَا عَلَى كُلِّ لُغَةٍ تُزَاحِمُهَا فِي أَرْضِهَا، فَتَرَكَ هَذَا وَكَانَ هُوَ الْمَزَاحِمُ بِنَفْسِهِ؛ فَهُوَ عَلَى أَنَّهُ «حُضْرَةُ صَاحِبِ سَعَادَة»، لَا يُنْزَلُ نَفْسَهُ مِنَ الْلُّغَةِ الْقَوْمِيَّةِ إِلَّا مَنْزِلَةُ خَادِمِ أَجْنبِيٍّ فِي حَانَةٍ.

أَتَدْرِي مَا هُوَ سِرُّ هُؤُلَاءِ الْكُبَرَاءِ وَهُؤُلَاءِ السَّرَّاءِ الَّذِينَ يُطْمَطِمُونَ<sup>(٢)</sup> إِذَا تَكَلَّمُوا فِيمَا بَيْتُهُمْ؟ إِنَّهُمْ عِنْدَنَا طَبَقَاتٌ:

أَمَا وَاحِدَةُ، فَإِنَّهُمْ يَصْنَعُونَ هَذَا الصُّنْبِعَ مُنْجَذِبِينَ إِلَى أَصْلِ رَاسِخٍ فِي طَبَاعِهِمْ، مِمَّا تَرَكَهُ الْظُّلْمُ وَالْأَسْبِدَادُ وَالْحُمُقُّ فِي زَمِنِ الْحُكْمِ الْتُّرْكِيِّ؛ فَهُمْ يُبَدِّلُونَ جَوْهَرَ نَفْوِيهِمْ لِأَعْيُنِ النَّاسِ، كَانَ الْلُّغَةُ الْأَجْنبِيَّةُ فِيمَا بَيْتُهُمْ عَلَامَةُ الْحُكْمِ وَالسُّلْطَةِ وَاحْتِقارُ الشَّعَبِ وَاسْتِمْرَارُ ذَلِكَ الْحُمُقِ فِي الدَّمِ... وَهُمْ بِهَا يَتَبَلَّوْنَ<sup>(٣)</sup>.

وَأَمَا طَبَقَةُ، فَإِنَّهُمْ يَتَكَلَّفُونَ هَذَا مَمَّا فِي نَفْوِيهِمْ مِنْ طَبَاعِ أَحَدِثَهَا الْنَّفَاقُ وَالْخُضُوعُ وَالذُّلُّ الْسِّيَاسِيُّ فِي عَهْدِ الْاِحْتِلَالِ الْإِنْجِلِيزِيِّ؛ فَالْلُّغَةُ الْأَجْنبِيَّةُ بَيْتُهُمْ تَشْرِيفٌ وَاعْتِبَارٌ، كَانُوهُمْ بِهَا مِنْ غَيْرِ الشَّعَبِ الْمُحْكُومِ الَّذِي فَقَدَ السُّلْطَةَ، وَهُمْ بِهَا يَتَمَجَّدُونَ.

(١) رطانة: لهجة.

(٢) يططمدون: يجعلون في ألسنتهم عجمة وكلمات منكرة.

(٣) يتبلّون: يرتفعون.

وأمام جماعة، فإنهم يعتمدون هذا يريدون به عيب اللغة العربية وتهجinya<sup>(١)</sup>، إذ اتخذوا من عداوة هذه اللغة طريقة انتحلوها<sup>(٢)</sup> ومذهباً انتسبوا إليه، وفيهم العالم بعلوم أوربا، والأديب بأدب أوربا؛ وذلك من عداوتهم للدين الإسلامي، إذ جعل هذه اللغة حكومة باقية في بلادهم مع كل حكومة فوق كل حكومة؛ وهم يزدرون هذا الدين ويسقطون عن أنفسهم كل واجباته. وهؤلاء قد خلطوا عملاً صالحاً وأخر سيئاً، إذ يغلون في مصرتهم غلواً قبيحاً ينتهي بهم إلى سفه الآراء، وخفة الأحلام، وطيش النزعات، فيما يتصل بالدين الإسلامي وأدابه ولغته. وما أرى الواحد منهم إلا قد غطى وصفه من حيث هو رقيق، على وصفه من حيث هو عالم أو أديب أو ما شاء. إن هذا لمقت «كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا».

ومن أثر تلك القيادات الثلاث نشأت فئة رابعة، تحول فيها ذلك الخلط من الكلام إلى طريقة نفسية في النفس؛ فهم يُقْحِمُون<sup>(٣)</sup> في كتابتهم وحديثهم الكلمات الأجنبية، ويحسبون عملهم هذا تزييناً ومعابدةً ومجوناً، على أنه هو الذي يُظْهِرُ لعين البصیر مواضع القطع التاریخی في نفوسهم، وأماكن الفساد القومي في طبعتهم، وجهات التحلل الديني في اعتقادهم. هؤلاء يكتب أحدهم: (النرفزة) وهو قادر أن يقول الغضب، (والفلير) وهو مستطیع أن يجعل في مكانها المغازلة، (وسکالنس) وهو يعرف لفظة أنواع وألوان، وهكذا وهكذا؛ ولا - والله - أن تكون المسافة بين اللفظين إلا المسافة بعینها بين قلوبهم ورشد قلوبهم.

وما برح التقليد السخيف لا يعرف له باباً يلتج منه إلى السخفاء إلا بباب التهاون والتسامح؛ ونحن قوم أبْتَلَيْنا بتزوير العيوب على أنفسنا وعددها في المحسن والفضائل، من قلة ما فينا من الفضائل والمحاسن. وبهذه الطبيعة المعكoseة تحاول أن نقتص من مزايا الأوربيين، فلا نأخذ أكثر ما نأخذ إلا عيوبهم، إذ كانت هي الأسهل علينا، وهي الأشكال بطبعنا الضعيف المتسم بـ المتهاون.

(١) تهجينا: تقييدها.

(٢) انتحلوها: اتخاذها بحلة وعملاً.

(٣) يُقْحِمُون: يدخلون بالقوة.

ومن هذا تجد مشاكلنا الاجتماعية - على أنها أهون وأيسر من مشاكل الأوربيين، وعلى أنّ في ديننا وآدابنا لِكُلّ مُشكّلة حلّها - تجدُها هي علينا أصعب وأشدّ، لأنّنا ضعفاء ومتخاذلون ومقلدون ومفتونون، وكلّ ذلك من شيء واحد: وهو أنَّ أكثر كُبرائنا هم أكبر بلاينا.

\* \* \*

قالَ صاحبُ السرِّ: ثُمَّ ضحكَ الباشا ضحكتُهُ الساخرةً وقالَ: كيف تصنعُ أمَّةً يكونُ أكثر العاملين هم أكبر العاطلين، إذ يعملون ولكن بروحٍ غير عاملةٍ ..

## سر القبعة

وحدثني صاحب سر (م) باشا، قال: نجمت<sup>(١)</sup> في مصر حركة يعقب أيام البدعة التركية، حين لم تبق لشيء هناك قاعدة إلا القاعدة الواحدة التي تقررها المشانق... فمن أبى أن يخلع العمامات عن رأسه خلعوا رأسه؛ ومن قال (لا) انقلب (لا) هذه مشنة فغلق فيها.

وكانت فكرة اتخاذ القبعة في تركيا غطاء للرأس، قد جاءت بعد ثرثارات من مثلها كما يجيء الجذاء في آخر ما يلبس اللابس، فلم يشك أحد أنها ليست قبعة على الرأس أكثر مما هي طريقة لتربيه الرأس المسلم تربية جديدة، ليس فيها ركعة ولا سجدة؛ وإنما نرى هذه القبعة على رأس الزنجي والهمجي، وعلى رأس الأبله والمجنون، فما رأيناها جعلت الأسود أبيض، ولا عرفناها نقلت همجياً عن طبيعه، ولا زعم أحد أنها أكملت العقل الناقص أو ردت العقل الذاهب، أو انقلب الله لحل مشكلات الرأس البليد، أو غضبت الطبيعة شيئاً وقالت: هذا لحاملي دون حامل الطربوش والعمامة.

وقد أحتجوا يومئذ لصاحب تلك البدعة أنه لا يرى الوجه إلا المدنية، ولا يعرف المدنية إلا مدينة أوربا، فهو يمثلها كما هي في حسناتها وسعيتها، وما يحمل وما يخرّم وما يكون في حاجة إليه وما يكون في غنى عنه؛ حتى لو أن الأوروبيين كانوا عوراً بالطبيعة، لجعل هو قوماً عوراً بالصناعة ليشبهوا الأوروبيين. نعم إنها حجة تامة لو لا نقص قليل في البرهان، يمكن تلافيه بإخراج طبعة جديدة من كتاب الفتوح العثمانية، يظهر فيها الخلفاء العظام والأبطال المعاوين الذين قهروا الأوروبيين لبسن قبعات، ليشبهوا الأوروبيين...

قال صاحب السر: وتهوّز في هذه الضلاله رهف من قومنا، وأخذوا يدعون إلى التقيّع في مصر أحذاء لتركيا، وذهب بعضهم إلى سعيد باشا (رحمه الله) يطلب

(١) نجمت: ظهرت.

رأيه، فكان رأيه (لا) بمدّ ألف... وعهدَ إلىَ بعضُهم أنَّ أسألَ الباشا، فقال: وينحِّمُ؟ ألا يخجلونَ أنْ تكونَ - نحنُ المصريين - مقلّدين للتقليدِ نفسِه؟ إنَّ هذه بِذُعْنَةٍ تنحطُ عنَّا درجةً عنِّ الأصلِ، فكأنَّها بِدعْتَانِ... ثمَّ ضحكَ الباشا وقالَ: كانَ في القديمِ رجُلٌ سمعَ أنَّ الْبَصَلَ بِالْخَلِ نافعٌ لِلصُّفَرَاءِ، فذهبَ إلىَ بُستانِ يملُكُهُ وقالَ لِوكيلهِ: إزرغْ لي بصلًا بخل... هكذا يُريدُونَ منَ القبَعاتِ: أنْ تُخْرِجَ لهمْ تُركَا بأوربيينِ.

ليَسَّتْ هذه القبعةُ في تركيا هيَ القبعةُ، بل هيَ كُلُّ الكلمةِ سبُّ للعربِ وردَّ علىَ الإسلامِ. ضاقتُ بِها كُلُّ الأساليبُ أنَّ تُظْهِرَها واضحةً بيَّنةً، فلمْ يَفِ بها إلَّا هذا الأسلوبُ وخدَّهُ. وهيَ إعلانٌ سياسِيٌّ بالمناوأةِ والمخالفَةِ والانحرافِ عنَّا وأطْرَاحِنا. فإنَّ الذي يخرجُ منْ أمْمَتهِ لا يخرجُ منها وهو في ثيابِها وشِعَارِها؛ فبِهذا انتفَحَ لهمْ بابُ الخروجِ في القبعةِ دونِ غيرِها مِمَّا يجري فيَهُ التقليدُ أو يُبَدِّعُهُ الابتكارُ؛ وإلَّا فَإِيُّ سُرٌّ فيَهُ هذه القبَعاتُ، وممَّا كَانَتِ الأُمُّ تُقاسُ بِمقاييسِ الآخِيَاطِينِ...؟

لَهُنَا سيفُ أرادَ أنْ يكونَ مَقْصًا فعملَ أولاً ما يَعْمَلُ الْحُسَامُ الْبَتَّارُ، فأجادَ وأبدَعَ وأَكَبَرَهُ النَّاسُ وأَعْظَمُوهُ؛ ثُمَّ صنَعَ مَا يَصْنَعُ الْمَقْصُ، فما زالَ عَسَاهُ يَأْتِي بِهِ إلَّا مَا يُنْكِرُهُ الْأَبطَالُ والْخَيَاطُونَ جَمِيعًا؟

أَكْتَبَ علينا أنَّ نظلَّ دهْرَنا نبحثُ في التقليدِ الأعمى، وألا يَخِيَا الشَّرقيُّ إلَّا مستَبعِدًا يَنْتَظِرُ في كُلِّ أُمورِهِ مَنْ يَقُولُ لَهُ: اشْرَعْ لي...؟ إنَّ بحثَنا فلنَنْتَجِثُ في زَيِّ جَدِيدٍ نَتَمَيَّزُ بِهِ، فلتَكُونَ الْقُوَى الْكَامِنَةُ فِينَا وَفِي طَبِيعَةِ أَرْضِنَا وَجُونُنَا هيَ الَّتِي أَخْتَرَعْتُ لِظَاهِرِهَا مَا يَجْعَلُهُ ظَاهِرَها. كما يُخْرِجُ زَوْزِرُ الْأَسِدِ لِيَدَةَ الْأَسَدِ... غَايَةُ الْمَنْفَعَةِ وَالْجَمَالِ وَالْمُلَاءَةِ.

أنا أَلْبَسُ مَا شَتَّتَ، ولَكُنِّي عَنْدَ السَّعْدَةِ أَجِدُ حَدًّا تَقْفَ إِلَيْهِ ذَاتِيَّيَّ الْفَرْدَيَّةِ، فَلَا أَرِي ثَمَّةَ مَوْضِعَ أَنْفَرَادٍ وَلَكِنْ مَوْضِعَ مُشَاكِلَةٍ، وَلَا أَعْرِفُ صِفَةً مَنْفَعَةً لِي بِلِ صِفَةٍ حَقِيقَةٍ مِنِّي، وَيَعْتَرُضُنِي مِنْ هَنَاكَ الْمَعْنَى الَّذِي يَصِيرُ بِهِ النَّوْعُ إِلَى الْجِنْسِ. وَالْواحِدُ بِلِ الْجَمَاعَةِ وَمَا دَفَتُ مُسِلِّمًا أَصْلِي وَأَرَكُعُ وَأَسْجَدُ، فَالْقَبْعَةُ نَفْسُهَا تَقُولُ لَيْ: دَعْنِي فَلَسْتُ لَكَ.

وَهُؤُلَاءِ الرِّجَالُ الَّذِينَ لَبَسُوهَا فِي مَصْرِ، إِنَّمَا أَشْتَقُوهَا مِنَ الْمَصْدِرِ نَفْسِ

المصدر الذي يخرج منه تهتك في النساء، وكلاهما متزع من المخالفه، وكلاهما ضد من صفة اجتماعية تقوم بها فضيلة شرقية عامة. وليس بعدم قائل وجهاً من القول في تزيين القبعة، ولا مذهباً من الرأي في الاحتجاج لها، غير أن المذاهب الفلسفية لا يعجزها أن تقيم لك البرهان جدلاً<sup>(١)</sup> محضاً على أن حياة المرأة وعفتها إنها إلا رذيلتان في الفن... وإنها إلا مرض وضعف، وإنها إلا كيت وكيت، ثم تنتهي الفلسفة إلى عدهما من البلاهة والغفلة، وما الغفلة والبلاهة إلا أن تُريد فلسفه من فلسفات الدنيا أن تُفحِّم في كتاب الصلاة مثلاً فصلاً في... في... في الدعاية.

لا يهولك<sup>(٢)</sup> ما أقر لك: من أن القبعة الأوروبية على رأس المسلم المصري، تهتك أخلاقي أو سياسي أو ديني أو من هذه كلها معاً، فإنك لتعلم أن الذين لبسوها لم يلبوها إلا من قريب، بعد أن تهتك أخلاق الشرقي الكريمة وتحلل أكثر عقدها، وبعد أن قاربت الحرية العصرية بين النقائص حتى كادت تختلط الحدو اللغوية؛ فحرية المنفعة مثلاً تجعل الصادق والكافر بمعنى واحد، فلا يقال: إلا أنه وجد منفعته فصدق، ووجد منفعته فكذب؛ وعنده حرية العصرية أنه ما فرق بين اللفظين وجعل لكل منهما حدوداً إلا جهل القدماء، وفضيلة القدماء، ودين القدماء. وهذه الثلاثة: الجهل والفضيلة والدين، هي أيضاً في المعجم اللغوي الفلسفي الجديد مترادات لمعنى واحد، هو الاستبعاد أو الوهم أو الحرافة.

ومتن أزيلت الحدو بين المعاني، كان طبيعياً أن يتبس شيء بشيء وأن يحل معنى في موضع معنى غيره، وأصبح الباطل باطلًا بسبب وحده بسبب آخر، فلا يحكم الناس إلا مجموعة من الأخلاق المتنافرة، تجعل كل حقيقة في الأرض شبهة مزورة عند من لا تكون من أهواه ونزاعاته، فيحتاج الناس بالضرورة إلى قوة تفصل بينهم فضلاً مسلحاً، فيكسبون القانون بمدينتهم قوة همجية تضطره أن يُعد لليوحشية الإنسانية، وتدفع هذه الوحشية أن تُعد له.

ومن اختلاط الحدو تجيء القبعة على رأس المسلم، وما هي إلا حد يطمسه حداً، وفكرة تهزء فكرة، ورذيلة تقول لفضيلة: هأندي قد جئت فاذهي.

(٢) لا يهولك: لا يُرعبك.

(١) جدلاً محضاً: نقاشاً خالصاً.

ما هو الأكبير من شيئين لا حد بينهما لتعيين الصغر؛ وما هو الأصغر من شيئين لا حد بينهما لتعيين الكبير؟ إنها الفوضى كما ترى ما دام الحد لا موضع له في التمييز ولا مقر له في العرف ولا فصل به في العادة؛ ومن هنا كان الدين عند أقوام أكبر كلمات الإنسانية في عامة لغاتها وأملأها بالمعنى، وكان عند آخرين أصغرها وأفرغها من المعنى؛ وما كبر عند أولئك إلا من أنه يسع الاجتماع الإنساني وهو محدود بغاياته العليا، وما صغر عند هؤلاء إلا بأن الاجتماع لا يسعه فلا حد له، وكانت معنى متوهم لا وجود له إلا في أحرف كلمته.

فجماعة القبعة لا يردون لأنفسهم حدًا يحدونها به من أخلاقينا أو ديننا أو شرقيتنا، وقد مرقوا من كل ذلك وأصبحوا لا يردون في زيننا الوطني ما فيه من قوة السر الخفي الذي يلهمنا ما أودعه التاريخ من قوميتنا ومعانينا أسلافنا.

وأنا أعرف أن مينا قوماً يرى أحدهم في ظن نفسه أنه قانون من قوانين التطور؛ فهو فيما يلابسه لا ينظر إلى أنه واحد من الناس، بل واحد من النوميس... ومن هنا الشغل والدعوى الفارغة، وما هو أكبر من الشغل وفراغ الدعوى. فإنه لحق أن يكون بعض الناس أنبياء، ولكن أقبح ما في الباطل أن يظن كل إنسان نفسهنبياً.

وأعلم أن كثيراً مما يزينونه للشرقي من رذائل المدنية الأولبية، فترى كلاماً تتحمه معانٍ ومعانٍ لا يعدها غير الجائع إلا حماقة ساعتها...

## سعد زغلول

وقال صاحب سر (م) باشا: ألقى إلى أباشا ذات يوم أنَّ (سعداً) مُصَبْحُنا زائراً، وكانت بين الرجُلين خاصَّة وأسبابٌ وطيدة<sup>(١)</sup>. وللباشا موقعٌ أعرفُه من نفسِ سعدٍ كما أعرفُ الشُّعلة في بركانها؛ أمّا سعد فكان قد أنتهى إلى النهاية التي جعلته رجلاً في إحدى يديه السحر وفي الأخرى المعجزة، فهو من عُظماء هذه البلاد قاموسِ اللغة من كلماتِ اللغة: يُرَدُ كلُّ مفرِّدٍ إليه في تعريفِه، ولا تصحُ الكلمة عند أحدٍ إلَّا إذا كانت فيه الشهادة على صحتها.

وجاءنا سعدٌ غدوة، فأسرغت إلى تقبيل يده قبلة لا تُشَبِّهُها القبلات، إذ مثُلت لي من فرجها كأنَّها كانت منفيَّة ورجعت إلى وطنها العزيز حين وُضعت على تلك اليد.

إنَّ الرجل العظيم إذا كان بارئاً بأبيه عارفاً قدرةً مُدرِكاً عظمته، يشعر حين يُقبلُ يد أبيه كأنَّه يسجد بروحه سجدةً لله على تلك اليد التي يُقبلُها، ويجد في نفسه اتصالاً كهربائيَاً بين قلبه وبين سر وجوده، ويَخُصُّه العالم بلمسةٍ كأنَّ قُبلته نبضَث في الكون: وكلُّ هذا قد أحسسته أنا في تقبيلي يد سعد، وزُذُت عليه شعوري بمثل المعنى الذي يكونُ في نفسِ البطل حين يُقبلُ سيقه المتصير.

وضحكَ لي سعد باشا ضحكته المعروفة، التي يبدأها فمه، وتُتمُّها عيناه، ويشرحُها وجهه كله، فتجدُ جوابها في روحك كأنَّه في روحك القاها.

والرجل مِن الناس إذا نظر إلى سعد وهو يتسم، رأى له أبتسامة كأنَّها كمالٌ يتواضع، فيُحسُّ كأنَّ شيئاً غيرَ طبيعيٍ يتصل منه بشيءٍ طبيعيٍ، فينتعشُ ويُثبُّت في وجوده الروحي وثبة عالية تكونُ فرحاً أو طريراً أو إعجاباً أو خُشوعاً أو كلَّها معاً. غيرَ أنَّ الرجل مِن الحكماء إذا تأملَ وجهَ سعد، وهو يضحكُ ضحكته المطمئنةَ المتمكَّنةَ من معناها المقرُّ أو المنكَرِ أو الساخرِ أو أيِّ المعاني - حسِبَ نفسهُ يرى

(١) أسباب وطيدة: علاقات ووشائج قوية.

شكلاً مِنَ القول لا مِنَ الضحك، وظهرت لَهُ تلك الابتسامة الفلسفية متكلمة، كأنَّها مرأة تقول: هذا حقيقيٌ. ومرة تقول: هذا غير حقيقيٍ.

إِنَّ سعداً العظيمَ كانَ رجلاً ما نظرَ إِلَيْهِ وطَبِّعَ عينَ فِيهَا دلائلَ أحَلامِهَا، كأنَّما هو شخصٌ فكرَةٌ لا شخصٌ إِنسانٌ؛ فإذا أَنْتَ رأَيْتَهُ كَانَ فِي فِكْرِكَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ فِي نَظَرِكَ؛ فَأَنْتَ تَشَهَّدُ بِنَظَرِيْنِ: أَحَدُهُمَا الَّذِي تُبَصِّرُ بِهِ، وَالآخَرُ ذَاكُ الَّذِي تُؤْمِنُ بِهِ.

عَبْرِيَّ كَالْجَمْرَةِ الْمُلْتَهِبَةِ لَا تَحْسِبُهُ يَعِيشُ بِلْ يَحْتَرِقُ وَيُحْرِقُ؛ ثَائِرُ كَالْزَلْزَلَةِ فَهُوَ أَبْدَا يَرْتَحُ وَهُوَ أَبْدَا يَرْجُ مَا حَوْلَهُ؛ صَرِيحُ كَصْرَاحَةِ الرُّسْلَلِ، تَلْكَ الَّتِي مَعْنَاهَا أَنَّ الْأَخْلَاقَ تَقُولُ كَلْمَتَهَا.

رَجُلُ الشَّعْبِ الَّذِي يُحِسْنُ كُلُّ مِصْرِيَّ أَنَّهُ يَمْلِكُ فِيهِ مِلْكًا مِنَ الْمَجْدِ. وَقَدْ بَلَغَ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ مَبْلَغَ الشَّرِيعَةِ، فَأَسْتَطَاعَ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: ضَعُوا هَذَا الْمَعْنَى فِي الْحَيَاةِ، وَأَنْزِعُوا هَذَا الْمَعْنَى مِنَ الْحَيَاةِ.

\* \* \*

قالَ صاحِبُ السَّرِّ: وَأَنْقَضَتِ الْزِيَارَةُ وَخَرَجَ سَعْدٌ وَالْبَاشَا إِلَى يَسَارِهِ، فَلَمَّا رَجَعَ مِنْ وَدَاعِهِ قَالَ لِي: - وَاللَّهِ - يَا بُنْيَيْ لِكَانَمَا زَادَ هَذَا الرَّجُلُ فِي الْقَابِ الْأَدْوَلَةِ لِقَبَّاً جَدِيدًا، ثُمَّ ضَحَّكَ وَقَالَ: أَتَدْرِي مَا هُوَ هَذَا الْلَّقْبُ؟ قَلْتَ: فَمَا هُوَ يَا بَاشَا؟

قالَ: - وَاللَّهِ - يَا بُنْيَيْ مَا مِنْ (بَاشَا) فِي هَذِهِ الْأَدْوَلَةِ يَكُونُ إِلَى جَانِبِ سَعْدِ إِلَّا وَهُوَ يَشْعُرُ أَنَّ رَتْبَتَهُ (نَصْفُ بَاشَا) . . .

هَذَا رَجُلٌ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعَظَمَةِ مَبْلَغاً تَصَاغِرَ مَعَهُ الْكَبِيرُ، وَتَضَاءَلَ الْعَظِيمُ، وَتَقَاصَرَ الشَّامِخُ؛ نَعَمْ وَهَتَّى تَرَكَ أَقْوَاماً مِنْ خَصْوَصِهِ الْعَظِيمَاءِ، كَفَلَانِ وَفَلَانِ، وَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَيَلوُحُ لِلشَّعْبِ مِنْ فَرَاغِهِ وَضَعْفِهِ وَتَنَطُّرِهِ، كَانَهُ ظَلُّ رَجُلٍ لَا رَجُلًا.

وَقَدْ أَصْبَحَ قَوَّةً عَامِلَةً لَا بَدَّ مِنْ فَعْلِهَا فِي كُلِّ حَيٍّ تَحْتَ هَذَا الْأَفْقِ، حَتَّى كَانَ مَعَانِي نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ تَتَشَبَّهُ فِي الْهُوَاءِ عَلَى النَّاسِ، فَهُوَ قَوَّةٌ مَرْسَلَةٌ لَا تُمْسِكُ، مَاضِيَّةٌ لَا تُرَدُّ، مَقْدُورَةٌ لَا يُحْتَالُ لَهَا بِحِيلَةٍ.

هَذَا وَضْعُ الْهَيْيِ خَاصٌ لَا يُشَبِّهُهُ أَحَدٌ فِي هَذِهِ الْأَمْمَةِ، كَمَيْدَانُ الْحَرْبِ لَا تُشَبِّهُهُ الْأُمْكَنَةُ الْأُخْرَى؛ فَقَدْ غَامَرَ سَعْدٌ فِي الثُّورَةِ الْعَرَابِيَّةِ وَخَرَجَ مِنْهَا، وَلَكِنَّهَا هِيَ لَمْ تَخْرُجْ مِنْهُ، بَلْ بَقَيَّتْ فِيهِ؛ بَقَيَّتْ فِيهِ تَعْلُمُ الْقَانُونَ وَالْسِيَاسَةِ، وَتُصْلِحُ أَغْلَاطَهَا، ثُمَّ ظَهَرَتْ مِنْهُ فِي شَكْلِهَا الْقَانُونِيَّ الْدَّقِيقِ. وَبِهَذَا تَرَاهُ يَعْمَرُ الْرِجَالَ مِهْمَا كَانُوا أَذْكِيَاءٌ؛

لأنَّ فِيهِ مَا لِي سَفِيهِمْ، وَتَرَاهُمْ يَظْهَرُونَ إِلَى جَانِبِهِ أَشْيَاءَ ثَابِتَةً فِي مَعْنَاهَا، أَمَّا هُوَ فَنَرَاهُ مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهِ يَتَلَاطِطُ كَالْأَمْوَاجِ الْعَاتِيةِ.

وَتَلَكَ الْثُورَةُ هِيَ الَّتِي تَتَكَلَّمُ فِي فِيمَا أَحْيَا نَاسًا فَتَجْعَلُ لِبَعْضِ كَلْمَاتِهِ قُوَّةً كَقُوَّةِ النَّصْرِ، وَشَهْرَةً كَشْهَرَةِ مَوْقِعَةِ حَرْبِيَّةٍ مَذَكُورَةٍ.

وَلَمَّا كَانَ هُوَ الْمُخْتَارُ لِيَكُونَ أَبَا لِلثُورَةِ - حِرْمَثَةَ الْقَدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْأَنْسَلَ، وَصَرَفَتْ نَزْعَةُ الْأَبْوَةِ فِيهِ إِلَى أَعْمَالِهِ الْأَتَارِيَّةِ، فِيهَا عِنَايَتُهُ وَقُلْبُهُ وَهَمُومُهُ، وَهِيَ نَسْلُ حَيٌّ مِنْ رُوحِهِ الْعَظِيمَةِ، وَيَكَادُ مَعَهَا يَكُونُ أَسْدًا يَزُورُ حَوْلَ أَشْبَالِهِ. وَلَنْ يُذَكَّرْ أَسْيَاسِيُّونَ الْمِصْرَيُّونَ مَعَ سَعْدٍ، وَلَنْ يُذَكَّرْ سَعْدٌ نَفْسُهُ إِذَا أَنْقَلَبَ سِيَاسِيًّا، فَإِنَّ الْمَكَانَ الْخَالِيَّ فِي الْطَبِيعَةِ الْأَلَآنَ هُوَ مَكَانُ رَجُلِ الْمَقاوِمَةِ لَا رَجُلِ الْسِيَاسَةِ، وَهَذَا هُوَ السَبِبُ فِي أَنَّ سَعْدًا يُشَعِّرُ الْأَمْمَةَ بِوُجُودِ لَذَّةِ كَلَذَّةِ الْفُوزِ وَالْأَنْتَصَارِ، إِنَّ لَمْ يَفْزْ بِشَيْءٍ وَلَمْ يَنْتَصِرْ عَلَى شَيْءٍ؛ فَأَطْمَثَنَا نَاسُ الْشَّعَبِ إِلَى زَعْيمِ الْمَقاوِمَةِ، هُوَ بِطَبِيعَتِهِ كَأَطْمَثَنَانِ حَامِلِ السَّلَاحِ إِلَى سِلاَحِهِ.

وَسَعْدٌ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي أَفْلَحَ فِي أَنْ يَكُونَ أَسْتَاذَ الْمَقاوِمَةِ لِهَذِهِ الْأَمْمَةِ؛ فَنَسْخَ قَوْانِينَ، وَأَوْجَدَ قَوْانِينَ، وَحَمَلَ الْشَّعَبَ عَلَى الإِعْجَابِ بِأَعْمَالِهِ الْعَظِيمَةِ، فَنَبَّهَ فِيهِ قُوَّةً إِلَيْهِ احْسَاسِ بِالْعَظِيمَةِ فَجَعَلَهُ عَظِيمًا، وَصَرَفَهُ بِالْمَعْنَى الْكَبِيرَةِ عَنِ الصَّغَافِرِ، فَدَفَعَهُ إِلَى طَرِيقِ مُسْتَقْبَلِهِ يُدْعِي إِبْدَاعَهُ فِيهِ.

إِنَّ هَذَا الْشَّرْقَ لَا يَحْيَا بِالْسِيَاسَةِ وَلَكِنَّ بِالْمَقاوِمَةِ وَمَا دَامَ ذَلِكَ الْغَرْبُ بِيَازِيهِ؛ وَالْفَرِيسَةُ لَا تَتَخَلَّصُ مِنَ الْحَلْقِ الْوَحْشِيِّ إِلَّا بِاعْتَرَاضِ عِظَامَهَا الْصَّلَبَةِ الْقَوِيَّةِ فِي هَذَا الْحَلْقِ.

وَكَمْ فِي الْشَّرْقِ مِنْ سِيَاسِيٍّ كَبِيرٍ يَجْعَلُونَهُ وزِيرًا، فَتَكُونُ الْوَظِيفَةُ هِيَ الْوَزِيرُ لَا نَفْسُ الْوَزِيرِ، حَتَّى لَوْ خَلَعُوا ثِيَابَهُ عَلَى خَشْبَةِ وَنَصَبُوهَا فِي كَرْسِيهِ، لَكَانَتْ أَكْثَرُ نَفْعًا مِنْهُ لِلْأَمْمَةِ، بَأَنَّهَا أَقْلُ شَرًّا مِنْهُ . . .

يَا بُنْيَتِي، كُلُّ النَّاسِ يَرْضَوْنَ أَنْ يَتَمَتَّعُوا بِالْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْسِيَادَةِ وَالْحُكْمِ، فَلَيَسْتَهُذِهِ هِيَ مَسَأَلَةُ الْشَّرْقِ، وَلَكِنَّ الْمَسَأَلَةَ: مَنْ هُوَ النَّبِيُّ السِيَاسِيُّ الَّذِي يَرْضِي أَنْ يُضْلَبَ . . . ؟

## حماسة الشعب

وحدثني صاحب سر (م) باشا قال: لما رجع سعد باشا من أوربا في سنة ١٩٢١، كانت الأمة في استقباله كأنها طائر مدار جناحيه، لا خلاف لشيء منه على شيء منه، بل كلُّه هو كله؛ وكانت المعارضة في الاستحالة يومئذ كاستحالة وجود رقعة في ريش الطائر.

على أن ثوب السياسة المصرية كثير الرفع دائماً بالجديد والخلق<sup>(١)</sup>، فرقعة من المعارضين، وأخرى من المتعتدين<sup>(٢)</sup>، وثالثة من المتخاذلين<sup>(٣)</sup>، ورابعة من المعادين، وخامسة وسادسة سابعة من الحاسدين والمنافسين والمختلفين لشهوة الخلاف؛ ورقاع بعد ذلك مما نعلم وما لا نعلم، فإنَّ من العجيب أنَّ هذا الجرو الذي لا يتقلب إلا بطيناً، يتقلب أهله بسرعة؛ وهذه الطبيعة التي لا تكاد تختلف، لا يكاد أهلها يتتفقون.

ولكنَّ سعداً (رحمه الله) رجع من أوربا رجعة الكرامة لأمة كاملة، ففاز بأئمه لم يخسر شيئاً من الحق، وانتصر بأئمه لم يُهزم، ودلَّ على ثباته بأئمه لم يتزعزع، وذهب صولة ورجع صولة وعزيمة؛ فكان إيمان الشعب هو الذي يتلقاه، وكانت الثورة هي التي تحفل به، وبطلي العلل كلها فلم يجد الاعتراض شيئاً يعترض عليه، وافتقت الأسباب فاجتمعت الكلمة، وظهرَ سعد كأنَّه روح الأمة متمثلاً في قدرة، حاكماً بقوَّة، متسلطاً بيقين.

نعم لم ينتصر البطل، ولكنَّ الأمة احتفت به لأنَّه يمثل فيها كمالاً من نوع آخر هو سر الانتصار؛ فكانت حماسة الشعب في ذلك اليوم حماسة المبدئ المتمكن: يُظهر شجاعة الحياة، وفورة العزائم، وفضيلة الإخلاص، وشدة الصولة، وعناد التصميم؛ ويثبت بقوَّة ظاهره قوَّة باطنِه، وكان فرج الأمة عناداً

(١) الخلق، بالفتح: البالي.

(٢) المتعتدين: المنهزمين.

(٣) المتخاذلين: المشددين.

سياسيًا يفرخ بائنة لا يزال قويًا لم يضعف، وكان أبتهاجها مجددًا يشعر بائنة لا يزال وافرًا لم ينتقص، وكان المجتمع رداء على اليأس، وكانت الحماسة رداء على الضعف.

إنبعثت صولة الحياة في الشعب كله، وأبتدأ المستقبل من يومئذ، فلو نزلت الملائكة من السماء في سحابة مجلجلة<sup>(١)</sup> يسمع تسبيحهم ليريدوا سعداً - لما زادوه شيئاً؛ فقد كان محله من القلوب كائنة العقيدة، وكان التصديق مبذولاً له كائنة الكلمة الأخيرة، وكانت الطاعة موقوفة عليه كائنة الباعث الطبيعي، وكان البطل في كل ذلك يُشَيَّهُ نبياً من قبل أن كلاً منها صورة كاملة لسمو في أفكار أمة.

\* \* \*

قال صاحب السر: ورجع البasha من القاهرة وقد رأى ما رأى من مسامحة النفوس، وصحة العهد، وأجتماع الكلمة، وإعداد الشعب للمراس والمعاناة، فقال:

تالله لقد أثبتت (سعد) للدنيا كلها أن مصر الجباره متى شاءت بنت الرجال على طريقة الهرم الأكبر في العظمة والشهرة والمنزلة والقوة. ولقد صنع هذا الرجل العظيم ما تصنع حرب كبيرة، فجمع الأمة كلها على معنى واحد لا يتناقض، ودفعها بروح قومية واحدة لا تختلف، وجعل عرق السياسة يفور كما يفور العرق المجرور بالدم.

إن هذه الأمة بين شieيين لا ثالث بينهما: إما الحزن إلى الآخر وإما الإضاعة. ولا حزن إلا أن يبقى الشعب كما ظهر اليوم: طوفاناً حيّاً، مُستوى الطبيعة، مندفع في الحركة، غامراً كل ما يعترضه، إلى أن يُقضى الأمر ويقول أعداؤنا: يا سماء أفعلي.

هكذا يعمل الوطن مع أهله كائنة شخص حي بينهم، حين يستوي الجميع في الثقة، ويتأزر الجميع في الأمل، ويشترك الجميع في العطف الروحي، ولا يبقى لجماعة منهم حظ في رغبة غير الرغبة الواحدة للجميع؛ وهكذا يعمل الوطن بأهله حين يعمل مع أهله.

كان أعداؤنا يحسبوننا ذباباً سياسياً لا شأن له إلا بفضلات السياسة، ولا عمل

(١) مجلجلة: مدوية.

لَهُ فِي أَزْهارِهَا وَأَثْمَارِهَا وَعَطْرِهَا وَحَلْوَاهَا؛ فَأَسْمَعَهُمُ الْشَّعْبُ الْيَوْمَ طَنِينَ النَّحلِ،  
وَأَرَاهُمْ إِبْرَاهِيمَ النَّحلَ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْأَزْهَارَ وَالْأَثْمَارَ وَالْعَطْرَ وَالْحَلْوَى هِيَ لَهُ بِالظِّبْعَةِ .  
وَكَانُوا يَتَخَرَّصُونَ<sup>(١)</sup> أَنَّ مَذْهَبَنَا فِي الْحَيَاةِ لِمَصْلَحةِ الْمَعَاشِ فَقْطَ، وَأَنَّ الْمَصْرِيَّ،  
حَاكِمًا أَوْ مُحَكَّمًا، لَا يَمْدُدُ آمَالَهُ الْوَطَنِيَّةَ إِلَى أَبْعَدَ مِنْ مَدَدِهِ عُمُرِهِ سِبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ سَنَةً،  
فَإِذَا أَطْلَقُوا أَيْدِيهِنَا فِي حَاضِرِ الْأُمَّةِ أَطْلَقُنَا أَيْدِيهِمْ فِي مُسْتَقْبِلِهِمَا . وَمِنْ ثُمَّ طَمِيعُوا أَنْ يَكُونَ  
الْحَقُّ الْنَّاقِصُ فِي نَفْسِهِ حَقًّا تَامًّا فِي أَنْفُسِنَا لِهَذِهِ الْعِلْلَةِ؛ وَحَسِيبُوا أَنَّ الْسَّيِّاسِيَّ الْمَصْرِيَّ لَا  
يَتَجَرَّأُ أَنْ يَقُولَ مَا يَقُولُهُ الْسَّيِّاسِيُّ الْأَوْرَبِيُّ: مِنْ أَنَّهُ لَا يَخْشِيُ الْمَوْتَ وَلَكِنَّهُ يَخْشِيُ الْعَارَ .  
فَإِنَّهُ إِذَا مَاتَ وَحْدَهُ، وَإِذَا جَلَبَ الْعَارَ جَلَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى أُمَّتِهِ وَعَلَى تَارِيخِ أُمَّتِهِ، بَيْدَ أَنْ  
سَعْدًا قَالَهَا؛ وَفِي مِثْلِ هَذَا يَكُونُ قَوْلُ (لا) مَعْرَكَةَ .

وَهَا هِيَ ذِي مَعْرَكَةِ الْيَوْمِ الْتَّارِيْخِيَّةِ، فَإِنَّ الْذَّرَاثَاتِ الْحَيَّةِ الَّتِي تُخْلُقُ مِنْ دِمَائِنَا -  
نَحْنُ الْمَصْرِيُّونَ - قَدْ ثَارَتْ فِي هَذِهِ الْدَّمَاءِ، فِي هَذَا النَّهَارِ، ثَلَعْنَا أَنَّهَا لَا تَرْضِي أَنْ  
تُولَّدَ مَقِيَّدَةً بِقِيُودِ .

أَتَدْرِي مَاذَا عَرَضُوا عَلَى سَعْد؟ إِنَّهُمْ عَرَضُوا عَلَيْهِ مَا يُشَبِّهُ فِي الْسُّخْرِيَّةِ  
طَاحُونَةً تَامَّةً أَلَادَاتِ وَالْأَلَالَاتِ مِنْ أَخْرِ طَرَازِ، ثُمَّ لَا تَقْدُمُ لَهَا إِلَّا حَبَّةُ قَمِحٍ وَاحِدَةٍ  
لِتُطْحَنُهَا... نَتْيَاجَةً تَسْخِرُ مِنْ أَسْبَابِهَا، وَأَسْبَابُ تَهْزَأُ بِالْتَّيْجَةِ .

إِنَّ أُورِبَا لَا تَحْتَرِمُ إِلَّا مَنْ يَحْمِلُهَا عَلَى أَحْتَرَامِهِ، فَمَا أَرَى لِلْسَّيِّاسِيِّينَ فِي هَذَا  
الشَّرْقِ عَمَلًا أَفْضَلَ وَلَا أَقْوَى وَلَا أَرْدَدَ بِالْفَائِدَةِ مِنْ إِحْيَا الْحَمَاسَةِ الْدَّائِمَةِ الْقَوِيَّةِ  
الْبَصِيرَةِ، هِيَ قُوَّةُ الْرُّفْضِ لِمَا يُجَبُ أَنْ يُرْفَضَ، وَقُوَّةُ التَّأْيِيدِ، لِمَا يُجَبُ أَنْ يُقْبَلَ،  
وَهِيَ بَعْدَ ذَلِكَ وَسِيلَةُ جَمْعِ الْأَمْرِ، وَإِحْكَامِ الشَّأنِ، وَإِقْرَارِ الْعَزِيمَةِ فِي الْأَخْلَاقِ،  
وَتَرْبِيَةِ الْثَّقَةِ بِالنَّفْسِ، وَبِهَا يَكُونُ إِذْكَاءُ الْجَحْسِ وَتَعْوِيْدُ إِدْرَاكِ الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ،  
وَالْتَّحْمِسَ لَهَا، وَالْبَذَلَ فِيهَا .

وَمَا عِلْلَةُ الْعِلْلَلِ فِينَا إِلَّا ضَعْفُ الْحَمَاسَةِ الْشَّعْبِيَّةِ فِي الْشَّرْقِ، وَسُوءُ تَدْبِيرِهَا،  
وَقَبْحُ سِيَاسَتِهَا؛ وَإِنَّا لَنَأْخُذُ عَنِ الْأُورَبِيِّينَ مِنْ نِظَامِهِمْ وَأَسَالِيهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَعِلْمَوْهُمْ  
وَفَنْوِنَهُمْ؛ فَنَأْخُذُ كُلَّ ذَلِكَ بِرُوحِنَا الْفَاتِرَةِ فِي خَمْوَلٍ وَإِهْمَالٍ وَتَوَاکِلٍ وَتَفَرِّدٍ  
بِالْمَصْلَحةِ وَأَسْتَبْدَادِ بِالرأْيِ، فَإِذَا دِينَارُهُمْ فِي أَيْدِينَا دَرْهَمٌ، وَإِذَا نَحْنُ وَإِيَّاهُمْ فِي  
الشَّيْءِ الْوَاحِدِ كَالنَّحْلَةِ وَالْذَّبَابَةِ عَلَى زَهْرَةِ . . .

(١) يَتَخَرَّصُونَ: يَتَقَوَّلُونَ .

ليَسْتُ لِنَا حِمَاسَةُ الْحَيَاةِ، وَبِهَا تَخْلُفُ أَعْمَالُنَا وَأَعْمَالُهُمْ، وَذَلِكَ هُوَ السُّرُّ  
أيضاً فِي أَنَّ أَكْثَرَ حِمَاسَتِنَا كَلَامِيَّةٌ مَخْضُوضَةٌ؛ إِذَا يَكُونُ الْصَرَاخُ وَالصَيَاخُ وَالتَّشَدُّقُ<sup>(۱)</sup>  
وَنَحْوُهَا مِنْ هَذِهِ الْمَظَاهِرِ الْفَارَغَةِ - تَقْيِيقاً لِلطَّبِيعَةِ الْسَاكِنَةِ فِينَا، وَتَنوِيعاً مِنْهَا بَغْيَرِ أَنْ  
تَجَهَّدَ فِي الْتَنْقِيقِ وَالْتَنْوِيعِ. وَمِنْ هَذَا كَانَتْ لَنَا أُنْوَاعٌ مِنَ الْكَلَامِ يَنْطَلِقُ إِلَى اللُّسَانِ فِيهَا  
لِلْخُرُوجِ مِنَ الصِّمَتِ لَا غَيْر... . وَمِنْهُ كَثِيرٌ مِنْ هَذَا الْهُرَاءُ الْسِيَاسِيُّ الَّذِي يَدُورُ فِي  
الْمَجَالِسِ وَالْأَحْزَابِ وَالصُّحفِ.

إِنَّ حِمَاسَةَ الشَّعَبِ لَا تَكُونُ عَلَى أَعْدَائِهِ فَقْطُ؛ بَلْ عَلَى مَعَابِيهِ أَيْضًا، وَعَلَى  
ضَعْفِهِ بِخَاصَّةٍ، وَالشَّعَبُ الْفَاتَرُ فِي حِمَاسَتِهِ لَوْ نَالَ حَقِيقَتِنَا مَخْصُوبِينَ لِعَادَ فَخَسِرَ  
أَحَدَهُمَا أَوْ كَلِيْهِمَا، أَمَّا الشَّعَبُ الْمَتَحْمَسُ الْقَوِيُّ فِي حِمَاسَتِهِ، فَلَوْ غُصِبَ حَقِيقَتِنَا  
وَنَالَ أَحَدَهُمَا لِعَادَ فَأَبْتَرَ<sup>(۲)</sup> الْآخَرَ.

(۱) التَّشَدُّقُ: التَّصْنِيْعُ فِي الْكَلَامِ وَالْقُرْعَ فِيهِ.  
(۲) ابْتَرَ: اسْتَحْوِذَ: وَأَخْلَدَ بِقَرْءَةِ.

## الجمهور

وقال صاحب سر (م) باشا: كان من بعض عملي في الحكومة سنة ١٩٢٢ أن أرقيت الحركات والسكنات، وأثبت العيون والأرصاد، وأعرف المضطرب والمنتقل في أيام الفتنة ونوازل المحن، محافظة على الأمن، ومبادرة لِمَا يُتوَقَّع؛ فكنت كالمرصد المهيأ بالآلات لِتدوين حركات الزلزال.

وأنتهى إلينا يوماً أن راجفة من هذه الزلزال سترجف بفلان من أهل الرأي الحر؛ الذي يستقل ولا يتبع، وينتقد ولا يُحابي، ويصرخ ولا يُجمجم<sup>(١)</sup>، وأن قوماً ثوروا عليه الغبار الأدمي من العامة، وأنهم يتحينون الوقت لِتوجيه المكيدة له في شكلها المفترس من هذا الجمهور النائم.

أما فلان هذا فرجل سياسى عنيد أضاع الحق كله لأنه لا يرضى بنصف الحق... وكلمته في السياسة كائناً تلقى على لسانه من الغيب؛ فلا يتحول عنها ولا يملك أن يتكلم إلا بما يتكلم؛ وقد ذهب بصوته أنه في قوم لا يسمعون إلا ما أردوا، فهو بينهم كالحق المغلوب: لا يموث لأنه غير باطل، ثم لا يحيا لأنه لا ينتصر. وقد كان رجلاً كالمصباح الوهاج<sup>(٢)</sup> فألقوا عليه الغطاء، فإذا هو في طبيعته وبيده للناس بغير طبيعته، وتركه رأيه الحر الصريح كالنبي المكذب يردد صدفه؛ لأنه غير صدق، ولكن لأنه غير مستطاع، أو غير ملائم.

ومن آفاتنا - نحن الشرقيين - أننا نستمرىء العداوة، ونقاذ لأسبابها، ونطأوغ لها تطاوغ الصغار بأنفسهم لما في أنفسهم؛ كان المستبدون الذين كانوا في تاريخنا قد انتقلوا إلى طبائعنا؛ فردد الفكر على الفكر في مناقشة تجري بيننا - لا يكون من دفع الحقيقة للحقيقة، ولكن من رد الاستبداد على الاستبداد، ومن توسيب الطغيان على الطغيان؛ فهو الثلب<sup>(٣)</sup>؛ والطعن والتجريح، وهو الجفوة والخصومة

(١) يجمجم: يتكلم في داخله بما لا يفهم.

(٢) الثلب: التجريح بستء الكلام.

(٣) الوهاج: الوضاء.

وَالْلَّدَدُ، وَهُوَ الْمُنَازِعَةُ وَالْعُنْفُ وَالْتَّحَالُ؛ وَهُوَ بِهَذِهِ وَتْلِكَ شَرُّ وَفَسَادٌ وَسَقْطٌ.  
وَالْجِدَالُ بَيْنَ الْعُقْلَاءِ يَبْعَثُ الْفَكَرَ فِي نَتْهَى إِلَى الْحَقِّ، وَلَكِنَّا فِينَا نَحْنُ يَهْبِطُ الْخُلُقُ  
فِي نَتْهَى إِلَى الشَّرِّ، وَالرُّدُّ عَلَى عَظِيمِ مَنْ كَانَ يَرُدُّ عَلَى مَنْزِلَتِهِ فِي الرَّأْيِ، وَكَشْفُ  
الْخَطَا عِنْدَنَا تَعْيِيرٌ بِالْخَطَا لَا تَبْصِيرٌ بِالصَّوَابِ، وَاسْتِلَابٌ<sup>(۱)</sup> الْحُجَّةِ مِنْ صَاحِبِها  
وَإِفْسَادُهَا عَلَيْهِ كَاسْتِلَابِ الْمُلْكِ مِنْ مَالِكِهِ وَطَرِدُهُ مِنْهُ . . . وَمِنْ ثُمَّ كَانَ الدَّفَاعُ  
بِالْمَكَابِرِ أَصْلًا مِنْ أَصْوَلِ الْطَّبِيعَةِ فِينَا، وَكَانَ الْأَضْطَهَادُ حُجَّةً لِلْحُجَّةِ الْعَاجِزَةِ،  
وَكَانَ الْإِعْنَاتُ<sup>(۲)</sup> دِلْيَالًا لِلدَّلِيلِ الَّذِي لَا يَنْهَضُ بِنَفْسِهِ، وَمَتَى أُعْتَبَرَ كُلُّ إِنْسَانٍ نَفْسَهُ  
إِمْبَاطُورًا عَلَى الْحَقِّ . . . فَلَا جَرَمَ لَا تَرُدُّ كَلْمَةً عَلَى كَلْمَةٍ إِلَّا بِحَرْبٍ.

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ الْأَسْرَ: وَكَبُرَ الْأَمْرُ عَلَى الْبَاشَا، فَجَمَعَ رُؤُوسَ الْمُؤْتَمِرِينَ بِذَلِكَ  
الرَّجُلِ الْحَرَزِ، وَأَخْذَ يَقْلُبُهُمْ تَقْلِيَّةً بَيْنَ التَّوْدِ وَالْمَلاطِفةِ، وَقَالَ لَهُمْ فِيمَا قَالُوا: إِنَّ  
فَضْيَلَةَ الْجَمَهُورِ هِيَ الَّتِي تَضْمِنُ تَرْبِيَةَ الْفَضْيَلَةِ وَحَفْظَهَا وَغَلَبَتْهَا عَلَى الْرَّذَائِلِ، وَإِنَّ  
كُلَّ صَحِيحٍ يَكُونُ فَاسِدًا إِذَا لَمْ يَكُنْ الْجَمَهُورُ صَحِيحًا، وَإِنَّ غَيْرَ الْعُقْلَاءِ هُمُ الَّذِينَ  
يَقْبِلُونَ الْحَقِيقَةَ فِي يَوْمٍ ثُمَّ يَرْفَضُونَهَا هِيَ ذَاتُهَا فِي يَوْمٍ آخَرَ، فَإِنَّ ذَهَبَتْ تُجَادِلُهُمْ  
وَتَحْتَجُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ قَبَلُوهَا - قَالُوا: هَذَا كَانَ أَمْسِ . . . فَكَانَمَا الْفَاصِلُ بَيْنَ زَمْنِينِ  
يَجْعَلُ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ صِدَّيْنِ.

ثُمَّ سَأَلُوهُمْ: مَا هُوَ ذَنْبُ الرَّجُلِ؟ فَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ: إِنَّهُ خَارِجٌ عَلَيْنَا فِي الرَّأْيِ.  
فَقَالَ الْبَاشَا: إِنَّ الْمَعْنَى فِي أَنَّهُ يُخَالِفُكُمْ هُوَ أَنَّكُمْ أَنْتُمْ تُخَالِفُونَهُ؛ فَقَدْ تَكَافَأْتُمُ  
النَّاهِيَاتِ، وَخَلَافُ بِخَلَافِ؛ فَمَا الَّذِي جَعَلَ حَقَّ رَدِّهِ عَنِ الرَّأْيِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ  
مُثُلُ هَذَا الْحَقِّ فِي رَدِّكُمْ أَنْتُمْ؟

قَالُوا: إِنَّا الْكَثِرَةُ. قَالَ الْبَاشَا: يَا أَصْدِقَائِي، إِنَّ خَوْفَ الْكَثِيرِ مِنْ رَأْيِ فَرِيدٍ أَوْ  
أَفْرَادٍ هُوَ أَسْوَأُ الْمَعْنَيَيْنِ فِي تَفْسِيرِ رَأْيِهَا هِيَ؛ وَعَشْرَةُ جِنِيَّهَا لَا تَعْبُأُ بِالْجِنِيَّةِ  
الْوَاحِدِ، فَإِنَّهَا تَسْتَغْرِفُهُ؛ بَيْنَ أَنَّ هَذِهِ لَيْسَ حَالًا عَشْرَةُ قَرْوَشِ يَا أَصْدِقَائِي . . .

نَعَمْ إِنَّ قَطْعَ الْخِلَافِ ضَرُورَةٌ مِنْ ضَرُورَاتِ الْوُطْنِيَّةِ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي  
ظَاهِرِهِ وَبِأَطْنَاهِهِ كَالْخِلَافِ فِي أَيِّهِمَا أَطْوُلُ: الْعَصَا أَوِ الْمَئِذَنَةِ . . .؟ فَذَلِكَ جِدَالٌ  
مَحْسُومٌ مِنْ نَفْسِهِ بِلَا جِدَالٍ.

(۲) الْإِعْنَاتُ: الْإِعْنَابُ.

(۱) اسْتِلَابٌ: سَرْقَةٌ.

إِنَّ أَسَاسَ اتَّخِذَالنَا<sup>(١)</sup> - نَحْنُ الْشَّرْقِيُّونَ - فِي قَلْوِبِنَا، إِذَا لَا نَعْتَبُ الْمُعَانِي الْعَامَةَ إِلَّا مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا قَائِمَةٌ بِالرِّجَالِ، ثُمَّ نَعْتَبُ الرِّجَالَ إِلَّا مِنْ نَاحِيَّةِ مَا فِي أَنفُسِنَا مِنْهُمْ، ثُمَّ لَا نَعْتَبُ أَنفُسَنَا إِلَّا مِنْ جِهَةِ مَا يُرْضِيُنَا أَوْ يُغْضِبُنَا، وَقَدْ لَا يُغْضِبُنَا إِلَّا الْحَقُّ وَالْجِدُّ، وَقَدْ لَا يُرْضِيُنَا إِلَّا الْبَاطِلُ وَالْتَّهَاوُنُ، وَلَكِنَّا لَا نُبَالِي إِلَّا مَا نَرَضَى وَمَا نَغْضَبَ .

لَسْنُمُ أَحْرَارًا فِي أَنْ تَجْعَلُوا غَيْرَكُمْ غَيْرَ حَزَّ، فَإِنْ يُكْنِي الرَّأْيُ الَّذِي يُعَارِضُكُمْ رَأْيًا حَقًّا وَتَرْكُتُمْ مُنَابِذَتَهُ<sup>(٢)</sup> فَقَدْ نَصَرْتُمُ الْحَقَّ؛ وَإِنْ يَكُنْ بَاطِلًا إِفَاظَهَا بَاطِلًا هُوَ بُرْهَانُ الْحَقِّ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ؛ وَلَنْ تُجَرِّدُوا<sup>(٣)</sup> أَحَدًا مِنْ أَخْتِيَارِ الرَّأْيِ إِلَّا إِذَا تَجَرَّدْتُمْ أَنْتُمْ مِنْ أَخْتِيَارِ الْعَدْلِ، فَإِنْ فَعَلْتُمْ فَهَذِهِ كَبْرِيَاءُ ظَالِمَةٍ، تَدْعِي أَنَّهَا الْحَقُّ، ثُمَّ تَدْعِي لِنَفْسِهَا حُكْمَهُ، فَقَدْ كَذَبْتُ مَرْتَينَ.

إِسْمَاعِيلُ أَيُّهَا السَّادَةُ: قَامَتْ بَيْنَ أَثْنَيْنِ مِنْ فَلَاسِفَةِ الرَّأْيِ مَنَاظِرَةٌ فِي صَحِيفَةِ مِنَ الصَّحْفِ، وَتَسَاجَلَا<sup>(٤)</sup> فِي مَقَالَاتٍ عِدَّةٍ، فَلَمَّا عَجَزَا أَصْعَفُوهُمَا حُجَّةً وَكَعْمَهُ<sup>(٥)</sup> الْجَدَالُ، كَتَبَ مَقَالَةً أُخْرَيَّةً فَجَاءَتْ سَقِيمَةً، فَلَمْ تُرْضِهِ فِيهَا وَنَامَ عَنْهَا عَلَى أَنْ يَرْسِلَهَا مِنَ الْغَدَاءِ بَعْدَ أَنْ يُرَدَّدَ نَظَرَهُ فِيهَا وَيُصْحَّحَ آرَاءَهُ بِالْحُجَّاجِ الَّتِي يُفْتَحُ بَهَا عَلَيْهِ. قَالُوا: فَلَمَّا نَامَ تَمَلَّتْ لَهُ الْمَقَالَةُ فِي أَحْلَامِهِ جِسْمًا حِيًّا مَوْهُونًا مَتَرْضِضًا<sup>(٦)</sup>، مَخْلُوقًا مِنْ هَنَا مَكْسُورًا مِنْ هَنَاكُ، مَجْرُوكًا مِمَّا بَيْنَهُمَا؛ ثُمَّ كَلَمَتُهُ فَقَالَتْ لَهُ: وَيَحْكُ أَيُّهَا الْأَبْلَهُ! إِنْ أَرْدَتَ أَنْ تَغْلِبَ صَاحِبَكَ وَتُسْكِنَهُ عَنْكَ، فَاحْمِلْ مَقَالَتَكَ إِلَى رَأْسِهِ فِي الْعَصَا لَا فِي الْجَرِيدَةِ . . .

\* \* \*

قَالَ صَاحِبُ الْسَّرِّ: وَضَحَّكَ الْقَوْمُ جَمِيعًا، وَأَذْعَنُوا<sup>(٧)</sup> وَأَنْصَرُوا مَقْتَنِعِينَ، قَدْ خَلَصَتْ دَخْلَتُهُمْ لِذَلِكَ الْرَّجُلِ الْحَرِّ وَتَنَصَّلُوا<sup>(٨)</sup> مِنْ جَرِيمَةِ كَائِنَتْ فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا

(١) اتَّخِذَالنَا: انْهَزَامُنَا.

(٢) مُنَابِذَتَهُ: مُخَالَفَتَهُ وَمُجَادَلَتَهُ.

(٣) تُجَرِّدُوا: تَعَرَّوا.

(٤) تَسَاجَلَا: تَحَاوَرَا وَتَجَادَلَا وَتَارَةً يَرْبِعُ هَذَا وَتَارَةً أُخْرَى يَرْبِعُ ذَاكَ.

(٥) كَعْمَهُ: شَدَّاهُ لَثَلَاءُ يَعْضُّ أَوْ يَأْكُلُ وَهُوَ يَقْصِدُ أَسْكَتَهُ.

(٦) مَتَرْضِضًا: مَصَابًا بِالرَّضْوضِ فِي جَسْمِهِ.

(٧) أَذْعَنُوا: خَضَعُوا.

(٨) تَنَصَّلُوا: تَبَرَّأُوا.

جاء أباشا بمُعجزٍ مِنَ القول، ولكن تصويره للمسألة كان حلاً لها في نفوسهم. فلما أدبروا<sup>(١)</sup> تنفس أباشا كائناً خرج مِنَ البحر وكان يتعاطى إنقاذَ غريقٍ ويُعاني فيه حتى نجا؛ ثم قال لي: إن هذا كان جواباً عن شيءٍ في أنفسهم، ولكنَّه هو سؤالٌ عن شيءٍ في أنفسنا: ما الذي يجعل الناس عندنا يخشون المُعارضَة في الرأي الْوطَنِي حتى إنهم ليجذبون عليها بهذه العقوبة الشعيبة المُنكَرَة؟ وما بالهم لا يعطون الرأي حُكْمَه وحقيقةَه، بل يعطونه من حُكْمِ أنفسهم وحقائقها وشهواتها المُتقلبة، حتى لترجع الفروقُ الضعيفةُ المتجانسةُ في أبناء الوطن الواحدِ وكأنَّها مِنَ الْخِلَافِ والمُبَايَنَة فروقٌ جنسيةٌ كالتي تكونُ بين إنسانٍ من أُمَّةٍ، وإنسانٍ من أُمَّةٍ أخرى تُعاديهَا.

قلت: إنَّ رأيَ الْكثرة قانونٌ يا بasha.

قال: هذا صحيحٌ، ولكن بشرطين لا بشرط واحد: الأولُ آلا يخرج الرأي على القانون، والثاني آلا تكون الحقيقةُ في الرأي الذي يُنَاقِضُه؛ ومُحاولة إثارة المُعارضَة نقصٌ للشريدين معاً؛ ثم إنَّ أساسَ الْوطَنِيَّة سلامَةُ القلوبِ وصفاءُ النياتِ، وأستواءُ المُوافِق والمُخالِف في هذا الحكم، ومتى وقع الْخِلافُ بينَ اثنينِ وكانت آنية صادقةٌ مُخلصَة، لم يكن اختلافهما إِلا من تنوعِ الرأي، وأنهيا إلى الاتفاق بغلبة أقوى الرأيين، وما من ذلك بُدَّ.

الحقيقة يا بُنَيَّ أنَّ الجماهيرَ الْشَرقيَّةَ ليسَت في تربيتها مِنَ الجماهيرَ السياسيَّة التي يُعتَدُ بها، إذ لا تزالُ في أولِ عمرِها السياسيِّ، وبهذا السبِّ وحده كان اختلافُ الْكُبَرَاء في السياسة لا يُشَبِّهُ إِلَّا نزاعُ الخصمين بغير شهودٍ ولا قاضٍ نافذٍ للحكم، فهو نزاعٌ قوَّةٌ تفوقُ بوسائِلها، لا نزاعٌ حقٌّ يُسْتَغْلِي بأدلهِ.

وهذه المجالسُ النيابيَّةُ الْشَرقيَّةُ كلُّها صورٌ ممثَلةٌ جافةٌ، منقطعةُ السماءِ من أسبابِها، كالفرعُ المقطوعُ مِنَ الشجرةِ، وإنما يتضَرُّ الفرعُ ويُشَمِّرُ أثمارَه إذا قام بشجرته لا بنفسِهِ، وما شجرةُ الفرعُ السياسيِّ إِلَّا الجمهورُ السياسيِّ.

فسبيلُ الإصلاح في كلِّ مملكةٍ شرقيةٍ أنْ ينهضَ أهلُ الرأي من كلِّ مدينةٍ فيها بينَ عالمٍ وأديبٍ ومحامٍ وسريريٍّ، ومنْ كان بسبيلِ من هؤلاءِ، فيجعلوا لمدينتهم دارَ ندوةٍ للأجتماعِ والبحثِ والمُشورة، وقولُ (نعم) بِالْحُجَّةِ وقولُ (لا) بِالْحُجَّةِ. ثمَّ

(١) أدبروا: تراجعوا إلى الوراء.

يُعلنون ذلك في جمهورِهم وينزلونَ منه منزلةَ الأستاذِ والأبِ والصديقِ في تعليمهِ وهدايتهِ وإرشادِهِ؛ وتتَّصلُ هذه الدورُ في كلِّ مملكةٍ بعضاًها ببعضٍ، وتنتهي بالمجالسِ النيابيةِ. وبغيرِ ذلك لا يُملاً الفراغُ الذي نراهُ خاويَا<sup>(١)</sup> بينَ الشعبِ والحكومةِ، وبينَ الكُبراءِ والجماهيرِ، وإنَّما أكثرُ مصادِينا من هذا الفراغِ؛ فهو الذي يضيئُ فيهِ ما يضيءُ فيهِ، ويختفي ما يختفي.

منْأى قومٌ موظفونَ في الحكومةِ؛ لكنَّ أينَ القومُ الذين تكونُ الحكومةُ نفسُها موظفةً عندَهم؟

\* \* \*

(اعتذار): بهذا المقالِ أنتهتُ أحاديثُ ألباشا؛ فقد أنبأنا صاحبُ السرِّ أنه سيكتُمُ السرَّ . . .

---

(١) خاويَا: فارغاً.

## المجنون

### ١

جاء يمشي هادئاً يتخيّل في مشيّته، يرتجفُ بينَ الخطوة والخطوة كأنَّه من كبرِه يشعرُك أنَّ الأرض مُدركة<sup>(١)</sup> آنَّه يُمشي فوقها... ولا ينفلُ قدمه إذا خطأ حتى ينهض برأسه يحرّكُه إلى أعلى، فما تدري أهو يُريدُ أنْ يطمئنَ إلى أنَّ رأسه معه... أم يُخيّل إليه أنَّ هذا الرأس العظيم قد وُضعَ على جسمه في موضع رأيه الْدُولَة، فهو يهُزُّ هَذِهِ الرأيَة... .

وأخذتُه عيني وليس ببني وبنته إلا طول غرفة وعرضها - فإذا هو زانع البصرِ كأنَّما وقع في صحراء يُقلب عينه في جهاتِها متخيّراً متربّداً، ثمَّ كأنَّما رفعَ له في أقصاها جبلٌ فأخذَ إلى ناحيته... .

ورَحَبْتُ به، وأجلسْتُه إلى جانبي، فأخذَ يستَغْرِفُ إلى<sup>(٢)</sup> بذكرِ اسمِه وجماعتهِ وبليدهِ، لا يزيدُ على ذلك شيئاً، كأنَّ عترة بنى عَبْسٍ : لأرضِه من طبيعتها جغرافياً، ومنِ اسمِه جغرافياً على حدة... . فلما رأني لا أُثِبُّه مَعْرِفَةً قال : إنَّ بك نِسِياناً. قلتَ : وكثيراً ما أُسَى غيرَكَ أَنَّ أسمَكَ ليسَ من هذه الأسماء التي تُذَكَّرُ بتاريخِه قال : هذه غلطةُ الجرائد... . ومهما تنسَ من شيءٍ فلا تنسَ أنَّكَ أستاذُ «نابغة القرن العشرين»... .

فسرَخْتُ فيه نظري<sup>(٣)</sup> ، فإذا أنا بِمَجْنُونٍ ظريفِ أمرَةِ أهيفَ، يكادُ برخاوتهِ وتفكِّكهِ لا يكونُ رجلاً، ويكادُ يبدو أمراًةً بجمالِ عينيهِ وفتورِهما. وتوسَّمتُ فإذا وجه ساكنٌ منبسطُ الأساريرِ ممسوحُ المعاني، يُنبئُ بِانقطاعِ صاحبهِ مِمَّا حولَهِ، كأنَّ دنياه لِيسَتْ دنياَ الناسِ، ولِكَنَّها دنيا رأسِه... .

(١) مدركة : عارفة.

(٢) أي نظرت إليه ملياً أتأمله.

(٣) يستَغْرِفُ إلى : يقدم نفسه.

وتأنّقت فإذا طفولة متلبدة قد ثبّت في هذا الوجه لِتُخْرَج من بينَ الرِّجلِ  
وَالْطَّفْلِ مجنوناً لا هو طفلٌ ولا رجلٌ .  
وتفرّشت<sup>(١)</sup> فإذا آثارُ معركةٍ باديةٍ في هذه الصّفحة، قتلّها أفكارُ المُسْكِنِ  
وعواطفُهُ .

وتبيّنت فإذا رجلٌ مُسْتَرْخٌ، مُتَفَرِّطٌ أَلْبَدَن<sup>(٢)</sup>، حائزٌ النَّفْسِ، كائِنُ قائمٌ لِتُوَهُّ مِنَ  
النَّوْمِ فَلَا تزالُ فِي عَيْنِهِ سِيَّةٌ، وَكَائِنُ يَتَكَلَّمُ مِنْ بَقَايَا حُلْمٍ كَانَ يَرَاهُ . . .  
وَخُيُّلٌ إِلَيْيَّ مِنْ هَذَا الْخُمُولِ فِي هَذَا الشَّابِ، أَنَّ عَلَيْهِ جُوَّاً مِنْ تَشَاؤِيهِ، وَأَنَّ  
الْمَكَانَ كُلَّهُ يَتَشَاءَبُ، فَتَشَاءَبَتْ . . .

\* \* \*

فَلَمَّا رأى ذَلِكَ مَتَّيْ ضَحَّاكَ وَقَالَ: إِنَّ «نَابِعَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ» رَجُلٌ مُغَناطِيسِيٌّ  
عَظِيمٌ؛ فَهَا هُوَ ذَا قَدْ أَلْقَى عَلَيْكَ النَّوْمِ . . . وَحَسِيبُكَ فَخْرًا أَنْ تَكُونَ أَسْتَادَهُ وَأَخَاهُ  
وَثِيقَتَهُ، «فَلِيسَ عَلَى ظَهَرِهِ أَلْيَوْمَ أَدِيبٌ غَيْرِيْ وَغَيْرُكَ . . .» .

قُلْتُ فِي نَفْسِي: إِنَّا لِلَّهِ، مَا يَعْتَقِدُ الرَّجُلُ أَنَّ عَلَى ظَهَرِهِ مجنوناً غَيْرَهُ  
وَغَيْرِيْ، وَكَائِنًا أَلْمَ بِذَلِكَ فَقَالَ: لَسْتُ مجنوناً؛ وَلَكِنِي كُنْتُ فِي الْبِيمَارِسْتَانِ . . .  
قُلْتُ: أَهُوَ الْبِيمَارِسْتَانُ الَّذِي يُسَمَّى مُسْتَشْفِيَ الْمُجَاذِبِ؟

قَالَ: لَا؛ إِنَّ هَذَا الَّذِي تُسَمِّيَ أَنْتَ، هُوَ هُوَ مُسْتَشْفِيَ الْمُجَاذِبِ؛ أَمَّا الَّذِي  
سَمِيَّتُهُ أَنَا فَهُوَ مُسْتَشْفِيٌّ فَقَطَ . . .

وَذَكَرْتُ عِنْدِيْ أَنَّ مِنَ الْمُجَانِينِ قَوْمًا ظُرْفَاءَ يَذْخُلُهُمُ الْفَسَادُ فِي عَقْوَلِهِمْ مِنْ نَاحِيَّةِ  
فِكْرَةِ مَلَازِمَةِ لَا تَبَرَّحُ، فَلَا يَكُونُ جَنُونُهُمْ جَنُونًا إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَسَائِرُ أَحْوَالِهِمْ  
كَأَحْوَالِ الْعُقَلَاءِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ طَيَاشُونَ<sup>(٣)</sup> مُتَقلَّبُونَ، إِذَا أَزْدَهَيْتَ لَمْ يُطْفَئُهُمْ لَنَاسُ مِنْ زَهْوِهِ  
وَكَبْرِيَّاهُ وَتَنْطِعِهِ، كَائِنُوا وَاحِدُ الْأَدْنِيَّا فِي هَذِهِ الْفِكْرَةِ، وَكَانُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ أَسْرَارًا؛ وَيَظْنُ  
عَنْ دِنْفِسِهِ أَنَّهُ أَعْقَلُ النَّاسِ فِي أَرْقَى طَبَقَاتِ عَقْلِهِ، وَمَا جَنُونُهُ إِلَّا فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ وَحْدَهَا.

وَمَثْلُ هَذَا لَا بَدَلَهُ مَمْنَ يَسْتَجِيبُ لِهَذِيَانِهِ كِيمَا يُحِرِّكُ فِيهِ حِفْتَهُ وَطَيْشَهُ وَزَهْوَهُ،  
وَلَيَكُونَ عِنْدَهُ الشَّاهَدَةُ عَلَى هَذَا الْوَجْدَ الْخَيَالِيُّ الْمُبَدِّعُ الَّذِي لَا يُوجَدُ إِلَّا فِي عَقْلِهِ  
الْمُخْتَلَّ. فَإِذَا هُوَ ظَفِيرٌ بِمَنْ يُحَاسِنُهُ، أَوْ يُصَانِعُهُ، أَوْ يُجَارِيهُ، حَسِيبٌ مُذْعِنٌ<sup>(٤)</sup> مُؤْمِنًا

(٣) طَيَاشُون: لَا يَتَصَرَّفُونَ بِوَعِيٍّ .

(٤) مُذْعِنًا: خَاضِعًا، مُسْتَلِمًا .

(١) تَفَرَّس: نَظَرُ يَامِعَانَ .

(٢) مُنْقَرِ الْبَدَن: كَسُولٌ .

مصدقًا، فلا يدعه من بعدها ويتعلق به أشد التعلق، ويرأه كأنه في ملوكه.. فیتخدُ صفيًا وهو يعتقد أنه رقيق، وقد يزعمه أستاذة لفهمه من ذلك بحساب عقله... الله تلميذه.

وخشيت أن يكون (نابغة القرن العشرين) لم يسمني أستاذة إلا بحساب من هذا الحساب، فهو سيعطي الأستاذية حقها، ولكن كما هو حقها في لغة جنونه... فأصبح في رأيه تلميذه وصنعيته، ومحدث هذينه، وثقته وملجأه، والمحامي من ورائه.

قلت في نفسي: إذا أنا تركته جالساً كان هذا المجلس مثابته<sup>(١)</sup> من بعد، فلا يعرف له محلًا غيره، ويصبح كما يقال في تعبير القانون «محله المختار»، فيتطرأ إلى لسبب ولغير سبب، ويقع في أوقاتي وقوع السهو لا حساب عليه، ويضيع فيه ما يضيع. فأجمعت أن أصرفة راضياً باليسار؛ وقد أنتهت نفسي من معرفتي، وأنتهى عقله إلى الرأي أنني لا أصلح له أستاذًا، لا بحسابه هو ولا بحساب الناس.

فقلت له: ظنني بك أنك أستاذ نفسيك، ولا يحسن بنابغة القرن العشرين أن يكون له في القرن العشرين أستاذ؛ وأراك قد فرغت للأدب، أما أنا فمشغول بأعمال وظيفتي، وقد جاء من العمل ما تراه، وتکاد لا تفي به الساعات الباقيه من الوقت ... .

فقطع علي وقال: إن الوقت ليس في الساعة؛ والدليل أنني أعطلها فيتعطل الوقت، ولا يكون فيها يوم ولا ساعة ولا ثانية ولا دقيقة.

فقلت: ولكنك إذا عطلتها لم تتتعطل الشمس التي تعين منازل النهار، فسيمر الظهر ويحين العصر ... .

قال: ويأتي غد، وإنما أنا معكاليوم فقط... ويجب أن تغطي<sup>(٢)</sup> بأنك أستاذ (نابغة القرن العشرين)، فقد قرأتك الكثير في الأدب وقرأتك، فما كان لي رأي إلا رأيته لك... ولا صحت عندي نظرية إلا رأيتها قد أبديتها، وأنا لا أعتقد أدباً في مصر إلا ما ثوافينا عليه معاً «ولا أسلم جدلاً، ولا جدلاً أسلم أنّ في مصر أدباء ينالون مني شيئاً، فهو أنا وأنا هو»، ولئن لم يذعنوا (نابغة القرن العشرين) فليعلمُ أنهم «وقدعوا ميّ موقع نملة على صخرة... هذا من جهة، ومن جهة أريد سجائر وليس معي ثمنها»... .

(٢) تغطي: تسرّ.

(١) مثابته: ملجاه.

فتنهللت وأستبشرت، قلت له: هذا قرشٌ فهلم فأشترِ به دخائنك، وفي رعاية الله، ثمَّ أستويت للقيام، ولكنه لم يقم؛ بل تمكَّن في مجلسه... \*

\*\*\*

وكرهت أنْ أتغير له وما أشكَّ أنه في هذا صحيح التمييز؛ فما أسرع ما قال: إنَّ «نابغة القرن العشرين» فتى قوي الإرادة؛ فإذا هو لم يصبر عن التدخين ساعتين مما هو بصبور... وإذا لم يُثبِّت لك هذا الأمر عن معاينته... فما أعطيته حقه.

قلت في نفسي: لقد غرست الرجل من حيث أرذت اقلاعه، وأيقنت أنه من عقلاه المجانين الذين تتغيَّر فيهم العاطفة أحياناً فتلهمهم آياتٍ من الذكاء لا يتقدَّم مثلها إلا لنوابغ المنطق؛ وذكرت (بهلوان) المجنون الذي حكوا عنه أنَّ إبراهيم الشيباني مرَّ به وهو يأكل خبيصاً<sup>(١)</sup> فقال له: أطعمني. قال: ليس هو لي، إنما هو لعاتكَة بنت الخليفة بعثته إليَّ لأكله لها... .

وقالوا: إنَّه من بسوق البازارين فرأى قوماً مجتمعين على باب وكان قد نُقِبَ، فنظرَ فيه وقال: أتعلمونَ مَنْ عملَ هذا؟ قالوا: لا. قال: فأنا أعلم.

قالوا: هذا مجنونٌ يراهم بالليل ولا يتحاشونه<sup>(٢)</sup>، فالطفوا<sup>(٣)</sup> به لعلة يخبرُكم. ثمَّ قالوا: أخْبِرْنا. قال: أنا جائع. فجاءوهُ ب الطعام سنيٌّ وحلواء؛ فلما شبع قام فنظرَ في النقبِ وقال: هذا عملُ اللصوص... .

وكانت مجلة (الرسالة) في يد (نابغة القرن العشرين)، فوصلَ الكلام بها وقال: إنَّه يقرأ كلَّ مقالاتي، وإنَّه وإنَّه، وإنَّها وإنَّها. قلت: فما أستحسنت منها؟ قال: (مقالة السيما)... .

قلت: متى كان آخرَ عهديك برؤيه السيما؟ قال: أمس.

قلت: فأنا لم أكتب مقالاً عن السيما، ولكنه أعجبت بما رأيت أمس فتحولَ ما رأيته حلماً في مقالة.

فأعجبَه هذا التأويلُ وقال: بمثيلٍ هذا أنا (نابغة القرن العشرين)، فأقرأ مقالتك في الغيبِ من قبلِ أنْ تكتبهها... .

(١) الخبيص: ضرب من الأطعمة يصنع من التمر والسمن.

(٢) يتحاشونه: يتجنبونه.

(٣) الطفو: تلطقو وأحسنوا معاملته.

قلت: إنك تُكثِّر أن تقول عن نفسك (نابغة القرن العشرين)، وهذا يحصر نبوغك في قرن بعينيه؛ فلو قطعت الكلمة وقلت: (نابغة القرن)، لصَحَّ أن تكون نابغة القرن التاسع عشر وأثمانِ عشر، وما قبلهما وما بعدهما.

فرأيْتُ به شَدَهَة<sup>(١)</sup> كأنَّهُ يُفكِّرُ في جنوبيه، ثمَّ أفَاقَ وقال: لا، وإنَّ هاهنا موضعَ نظر، فلو رضيْت بنابغة القرن فقط، لجاءَ مَنْ يقول: إني نابغة قرن خروف... .

\* \* \*

فقلت في نفسي: حمَّاءٌ مُدَثٌ بماء، وإنَّ هذه الوساوسَ لا تنفكُ تعرو<sup>(٢)</sup> هذا المسكين ما وجدَ من يُكلِّمه؛ والأفكارُ في ذهنه مجتمعةً مختلطةً مسترسلةً كأنَّها ثورةً مِنَ الكلامِ لا نظامٍ لها، فلأَسْكُتْ عنه ولأَشاغلْ بما بينَ يديَ.

وسَكَتْ وأعرضتُ عنه؛ فجعلَ طائفَهُ يعتريه، وكأنَّ السكتَ قد سَلَطَ أفكارَه عليه، وكأنَّها أخذَتْ تصيحَ بِه في رأسِه كما يصبحُ غلماً الطرقَ بالمحاجنون، لا يزالونَ بِه حتى يُخْرِدُوه<sup>(٣)</sup> ويُفْقِدوهُ الْبَقِيَّةَ من صبرِه وعقلِه معاً. فغضِبَ (نابغةُ القرن العشرين) ونقلَهُ الغضبُ إلى حالةٍ زَمَهَرَتْ فيها عيناه<sup>(٤)</sup>، وكَلَحَ وجْهُه<sup>(٥)</sup> حتى خفتَ أنْ يشَوَّرَ بِه الجنون، فأقبلَتْ عليه وتعلَّلتْ بسؤالِه: أَلَّك إخوة؟ ألم ينبعُ فيهم نابغة...؟

قال: إنَّ له أخَا يُعذِّبه، ويُوقِعُ بِه ضرباً، ويُغَلِّلهُ بالسلالِ، ويُشَدِّدُ «بأمرِ اسْكَتَانِ إلى صُمْ جَنْدَل»، وأنَّه أنزَلَ بِه العذابَ ما لو أنزَلَه بحجرِ لتألمِ.

قلت: فأنت في حاجةٍ إلى راحةٍ، ويحسنُ بك أنْ تأويَ إلى مكانٍ تتمدَّدُ فيه.

قال: إني منصرفٌ وسأجلسُ في نَدِي<sup>(٦)</sup> كذا «هذا من جهة، ومن جهةٍ ليسَ معِي ثمنُ القهوة».

قلت: فهذا قرشٌ تدفعُه ثمناً لها، فأذهبْ فاستمتع بها وبالتدخين وبالراحة في ذلك النَّدِي، فالمكانُ هنا كثيرُ الضجيجِ والحركة. وأستوفِرْتُ للقيام<sup>(٧)</sup>؛ ولكنه لم يتَحَلَّحْ من مجلسِه.

(١) شَدَهَة: اندهاشاً واستغراباً.

(٢) تَعْرُو: تصيب.

(٥) كَلَحَ وجْهُه: تغير لونه حتى بدا كالحَمَّام.

(٦) نَدِي: مقهى.

(٣) يُخْرِدُوه: يشجعوه على فعل ما يستحقُ.

(٧) استوفِرْتُ للقيام: تحفَّزت.

ثم قال: أراك آلان مستبصراً أَتَيْ (نابغة القرن العشرين) بعيشه.

قلت: بل بعيشه اليمني وأليسري معاً . . .

قال: لا، إِنَّكَ نسيَتَ أَنَّ الْعَرَبَ تقولُ فِي التوكيد: عينُهُ ونفْسُهُ وذَاهَهُ.  
أَيْ أَنَا نابغةُ القرنِ العشرين بعيشهِ ونفسهِ وذاهِهِ، فليسَ غيري نابغةُ القرنِ العشرين». وقادَتْ نفسي تخرُجُ غيظاً، ولكتئي رأيُتُ الْحَلَمَ عَلَى مثْلِ هَذَا يجري مجرِي الصَّدَقة؛ وقلت: إِنَّ أَدْبَاءَ الْمُجَانِينَ كثِيرًا مَا يَتَقَوَّلُ لَهُمُ الْإِبْدَاعُ الْطَّرِيفُ<sup>(١)</sup> إِذَا عَلَّلُوا شَيْئاً، كَذَلِكَ الْقَاصِدُ الَّذِي كَانَ يَقْصُّ عَلَى الْعَامَّةِ سِيرَةُ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، فَقَالَ لَهُمْ فِيمَا قَالُوا: إِنَّ الْذَّئْبَ الَّذِي أَكَلَ يُوسُفَ كَانَ أَسْمَهُ كَذَا، فَرَدُّوْا عَلَيْهِ: إِنَّ يُوسُفَ لَمْ يَأْكُلْ الْذَّئْبَ. قَالَ: فَهَذَا هُوَ أَسْمُ الْذَّئْبِ الَّذِي لَمْ يَأْكُلْ يُوسُفَ.

فقلت لِلمجنون: فما أَعْلَمُهُ عَنْدَكَ فِي أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَقُولُوا فِي التوكيد: عينُهُ وأذنهُ وأنفهُ وفمهُ ويدُهُ ورجلُه؟

فنظرَ نظرةً في الفضاءِ ثُمَّ قال: ليسوا مجانينَ فيخلطُوا هذا الخلطَ، وإلا وجبَ أَنْ يقولوا مع ذلك: وعِمَامَتُهُ وثُوبَهُ ونُعلَّهُ وبعيرَهُ وشائِهُ ودارِهِمَهُ. «هذا من جهَّةِ، ومن جهةٍ ليسَ معي أجرةُ السيارةِ إِلَى بَلْدِي وَهِيَ قَرْشَانَ».

قلت: هذه هي أجرةُ السيارةِ وصَحِبِتَكَ السَّلَامَةُ، ونهضْتُ واقفاً؛ ولكتئي لم يتحرَّكَ.

\* \* \*

ثُمَّ قال: إِنَّكَ لَمْ تعرِفْ بَعْدُ «أَتَيْ أَقُولُ الشِّعْرَ فِي الْغَزْلِ وَالنَّسِيبِ وَالْمَدِحِ وَالْهِجَاءِ وَالْفَخْرِ؛ وَأَتَيْ فِي الْخَطَابَةِ قُسْ بْنُ سَاعِدَةَ أَوْ أَكْثُمُ بْنُ صَيْفِي، وَأَتَيْ صَخْرَ لَا يَنْفَجِرُ . . . يَابْسَ لَا يَنْعَصِرُ، لَسْتُ كَالْحَجَاجَ بْلَ كَعْمَرَ».

قلت: هذا شيءٌ يطولُ بيننا ولا حاجةٌ لك بهذه البراهينِ كلُّها، فقد آمنتُ أنَّكَ نابغةُ القرنِ العشرينَ فِي الْأَدِبِ وَالشِّعْرِ وَالْخَطَابَةِ وَالْتَّرْسُلِ.

قال: وَالْفَلْسُفَةُ؟

قلت: وَالْفَلْسُفَةُ وَكُلُّ مَعْقُولٍ وَمَنْقُولٍ؛ وقد أَنْتَهِنَا عَلَى ذَلِكَ.

قال: ولكتئي تحسُبُنِي مجنوناً أو ممروراً «كما حسبتني الجرائدُ الَّتِي زعمَتْ

(١) الطريف: الجديد.

أنَّ أختفائِي في البِيمارستانِ كانَ لِجُنونِي الْفَكْرِيُّ أو لِذِكائِي الطَّبِيعِيُّ وهو الأَصْحُ . . . فِيَنْ لِهَذِهِ الْجَرَائِدِ أَيْ خَرْجَتْ، وَأَنِي سَاطِبُ الْأَدْبَ بِطَابِعِ جَدِيدٍ».

قُلْتَ: وَلَكُثُّي لَسْتُ مَرَاشِلَ جَرَائِدَ . . . وَقَالَ: «فَاجْعَلْنِي رِسَالَةً وَرَاسِلْهَا عَنِّي أَوْ أَكْتُبْ لَكَ أَنَا مَا تُرْسِلُهُ، وَمَا جَئْنُكَ إِلَّا لِهَذَا؛ وَيَجِبُ أَنْ تُلْحِنْنِي بِجَرِيدَةٍ كَبِيرَةَ، وَهَذِهِ الْجَرَائِدُ تَعْرِفُنِي كُلُّهَا، وَقَدْ تَنَاهَىَنِي مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي الْأَدْبِيَّةِ؛ فَضَلَّاً عَنِّي كَاتِبٌ فَدُّ، وَخَطِيبٌ فَدُّ، وَشَاعِرٌ فَدُّ، وَهَذَا قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ، فَهَلْ أَعُولُ عَلَيْكَ فِي صِلَّتِي بِالْجَرَائِدِ أَوْ لَا؟».

قُلْتَ: إِنَّكَ تَعْرِفُهُمْ وَيَعْرُفُونِكَ، وَقَدْ بَلَوْتَهُمْ<sup>(۱)</sup> وَبَلَوْنَا مِنْكَ، فَلَسْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِمْ عَنْهُمْ . . .

قَالَ: إِنَّهُمْ يَخْشُونَ بِأَسِيِّ، وَقَدْ حَسْبُونِي مَجْنُونًا أَسْتَهْوَتُهُ الشَّيَاطِينُ؛ وَمَا عَلِمْنَا أَنَّ شَيْطَانَ الشِّعْرِ هُوَ الَّذِي أَسْتَهْوَانِي، كَمَا أَنَّ شَيْطَانَ الْحُبِّ هُوَ الَّذِي أَسْتَهْوَاكَ . . . هَذَا مِنْ جِهَةِ، وَمِنْ جِهَةِ لَيْسَ مَعِي ثُمَّنُ الْغَدَاءِ، وَلَا أَكْلُفُكَ شَيْئًا . . .».

قُلْتَ: فَهَذَا قِرْشُ لِلْغَدَاءِ فِي مَطْعَمِ الْشَّعْبِ . . . وَهُمْ أَلآنَ يَتَعَدَّوْنَ وَيُوْشِكُ إِذَا أَبْطَأْتَ أَنْ تُوَافِقُهُمْ وَقَدْ اسْتَنْفَدُوا الْطَّعَامَ، وَأَنْتَ لَا تَجَهَّلُ أَنَّ الْقِرْشَ فِي مَطْعَمِ الْشَّعْبِ هُوَ قِرْشَانِ فِي الْقِيمَةِ . . .

قَالَ: صَدَقْتَ؛ يُوْشِكُ أَنْ أَوْفِقُهُمْ وَقَدْ فَرَغُوا مِنْ طَعَامِهِمْ وَغَسَلُوا آلَانِيَّةَ . . . فَلَأَبْتِقُ هَذَا لِلْعَشَاءِ وَسَاطُوي<sup>(۲)</sup> إِلَى اللَّيْلِ . . .

قُلْتَ: فَمَعَكَ أَلآنَ ثُمَّنُ الدَّخَانِ، وَالْقَهْوَةِ، وَالْغَدَاءِ، وَأَجْرَةُ الْسِيَارَةِ إِلَى بَلْدِكَ . . . وَقَدْ كَانَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْثَالِثِ لِلْهِجَرَةِ وَأَسْمَهُ (طَاقُ الْبَصَلِ)<sup>(۳)</sup> يُغَنِّي بِقِيرَاطٍ وَلَا يَسْكُنُ إِلَّا بِدَانِقٍ . . . هَذَا مِنْ جِهَةِ، وَمِنْ جِهَةِ فَخُذْ هَذَا الْقِرْشَ ثُمَّنَا لِسْكُوتِكَ وَأَنْصَرِفْ .

\* \* \*

فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَقَامَ مُعَضَّبًا وَتَنَفَّسَ بَعْدَهُ الْصَّعَدَاءَ الْطَوِيلَةَ . . . وَفَتَحَتْ النَّافِذَةَ وَاسْتَقْبَلَتْ الْهَوَاءَ النَّقِيِّ وَأَخْذَتْ فِي رِيَاضَةِ الْتَنَفِسِ الْعَمِيقِ، ثُمَّ زَاغَتْ عَيْنِي إِلَى الْبَابِ؛ فَإِذَا (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشِيرِينَ) مَقْبِلٌ مَعَ نَابِغَةِ قَرْنٍ آخِرٍ . . . . .

(۱) بَلَوْتَهُمْ: اخْتَبَرْتَهُمْ .

(۲) أَطْوَوِي: أَنَامُ بِلَا عَشَاءَ .

(۳) هَذَا أَحَدُ مَجَانِينِ الْقَرْنِ الْثَالِثِ فِي الْكُوفَةِ .

## المجنون

٢

رأيت المجنونين يدخلان معاً، فكأنما سداً أباب وسواه بالبناء وتركا العرفة  
حائطاً مضمتاً لا باب فيه، مما اعتراني<sup>(١)</sup> من الضيق والحرج؛ وقلت في نفسي:  
إنه لا مذهب للعقل بين هذين إلا أن يعين كلاهما على صاحبه، فأرى أن أدعهما  
وأكون أنا أصرّهما؛ ويا ربما جاء من التوارد في المجتمع مجنونين مالا يأتي مثله  
من عقلين يجتمعان على ابتكاره؛ غير أنني خشيت أن أكون أنا المجنون بينهما، ثم  
لا أمن أن يثبت أحدهما بالآخر إذا خطّ به الخطرة<sup>(٢)</sup> من شيطانه، فرأيت أن  
يكون لي ظهيرٌ عليهما، إن لم يحق به العون فلا أقل من أن يطول به الصبر...  
وكان إلى قريب مثي الصديق (أ.ش) فأرسلت في طلبه.

أما هذا المجنون الثاني الذي جاء به (نابغة القرن العشرين) فقد رأيته من  
قبل، وهو كالكتاب الذي خلطت صحفه بعضها في بعض فتدخلت وفسد ترتيبها،  
 وأنقلب بذلك العلم الذي كان فيها جهلاً وتخلطاً، يثبت الكلام بعد كل صفحة إلى  
صفحة غريبة لاصلة لها بما قبلها ولا ما بعدها.

وهو طالب أزهرى كان أكبر همه أن يصير حافظاً كالحافظين الأقدمين من  
الرواة والفقهاء، فجعل يستظهراً كتاباً بعد كتاباً ومتن بعد متن؛ وكانت له أذن  
واعية، فكل ما أفرغ فيها من درس أو حديث أو خبر، نزل منها كالثغر على آلة  
كاتبة، فينطبع في ذهنه انطباع الكتابة: لا تمحى ولا تنسى.

ثم الثالث هذه اللوحة وهو يحفظ متناً في فقه الشافعى (رضي الله عنه)، فغير  
سنين يتحفظه، كلما أنهى إلى آخره نسيه من أوله؛ فيعود في حفظه وربما هذا دأبه

(١) اعتراني: أصابني وداخلني.

(٢) الخطرة: الفكرة.

لَا يمْلُّ وَلَا يجِدُ لِهَا الْعَنَاءَ مَعْنَى، وَلَا يَرَأُ مُقْبَلًا عَلَى الْكِتَابِ يَجْمِعُهُ، ثُمَّ لَا يَرَأُ الْكِتَابَ يَتَبَدَّلُ فِي ذَكْرِهِ.

وَتَرَكَ الْمَعْهَدَ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَتَخَلَّى فِي دَارِهِ<sup>(١)</sup> لِلْحَفْظِ، وَأَجْمَعَ أَلَا يَدْعُ هَذَا الْمَتَنَ أَوْ يَحْفَظُهُ، وَكَانَ فِيهِ الْمَوْضِعُ الَّذِي فَارَقَهُ عَقْلُهُ عَنْهُ، وَبِذَلِكَ رَجَعَ الْمِسْكِينُ إِلَهَ حَفْظِ لِيَسَ لَهَا مِسَاكٌ<sup>(٢)</sup>؛ وَأَصْبَحَ كَالَّذِي يَرْفَعُ الْمَاءَ مِنَ الْبَحْرِ، ثُمَّ يُلْقِيَهُ فِي الْبَحْرِ، لِيُنْزَحَ الْبَحْرُ . . .

\* \* \*

وَجَاءَ (١. ش) فَقُلْتُ لَهُ، وَأَوْمَأْتُ إِلَى الْمَجْنُونِ الْأَوَّلِ: هَذَا نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ .

قَالَ: وَهُلْ أَنْتَ أَنْتَ الْقَرْنُ الْعَشْرُونَ فَيُعْرَفُ مَنْ نَابَغَهُ؟

فَقُلْتُ لِلْمَجْنُونِ: أَجْبَهُ أَنْتَ. فَسَأَلَهُ: وَهُلْ بَدَا الْقَرْنُ الْوَاحِدُ وَالْعَشْرُونَ؟ قَالَ: لَا .

قَالَ: فَإِنَّ هَذَا الَّذِي إِلَى جَانِبِي نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْوَاحِدِ وَالْعَشْرِينَ . . . . فَكَمَا جَازَ أَنْ يَكُونَ هُوَ نَابِغَةُ قَرْنٍ لَمْ يَبْدُأْ، جَازَ أَنْ يَكُونَ أَنَا نَابِغَةُ قَرْنٍ لَمْ يَتَّهِ .

قُلْتُ: وَلَكِنَّكَ زِدْتَ الْمَشْكُلَةَ تَعْقِيْدًا مِنْ حِيثُ تَوَهَّمْتَ حَلَّهَا؛ فَكِيفَ يَكُونُ مَعَكَ فِي آنِ وَبِيَنَكَ وَبِيَتِكَ خَمْسُ وَسِتُّونَ سَنَةً؟

فَنَظَرَ نَظَرَةً فِي الْفَضَاءِ، وَهُوَ كُلَّمَا أَرَادَ شَيْئًا عَسِيرًا نَظَرَ إِلَى الْلَّا شِيءِ . . .

ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ الْأَمْوَرُ لَا تَشْتَبِهُ إِلَّا عَلَى غَيْرِ الْعَاقِلِ . . . وَكَيْفَ لَا يَكُوْنُ بَيْنِي وَبِيَتِي خَمْسُ وَسِتُّونَ سَنَةً وَأَنَا أَتَقْدَمُهُ؛ النَّبُوغُ بَأَكْثَرٍ مِنْ عِلْمِ الْعُلَمَاءِ فِي خَمْسِ وَسِتِّينَ سَنَةً . . .

قُلْتُ لِلآخرِ: أَكَذَّلَكَ؟

قَالَ: مِمَّا حَفَظْنَاهُ عَنِ الْحَسَنِ: أَدْرَكْنَا قَوْمًا لَوْ رَأَيْتُمُوهُمْ لَقْلَتْمَ: مَجَانِينَ. وَلَوْ أَدْرَكْتُكُمْ لَقَالُوا: شَيَاطِينِ . . .

فَصَحَّحَكَ الْأَوَّلُ وَقَالَ: إِنَّهُ تَلَمِيْدِي.

قَالَ الْآثَانيِ: لَقَدْ صَدَقَ فَهُوَ أَسْتَاذِي، وَلَكِنَّهُ حِينَ يَنْسِى لَا يَذْكُرُهُ غَيْرِي . . .

قُلْتُ: لَا غَرَوْ «فَمَمَا حَفَظْنَاهُ» عَنِ الزُّهْرِيِّ: إِذَا أَنْكَرْتَ عَقْلَكَ فَأَقْدَحْهُ بِعَاقِلٍ . . .

فَغَضِبَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ وَقَالَ: وَيْحُ لِهَا الْجَاهِلُ، الْأَحْمَقُ، الْجَاهِدِ لِلْفَضْلِ،

(١) تَخَلَّى فِي دَارِهِ: اِنْزَوَهُ وَانْعَزَلَ.

(٢) مِسَاكٌ: بَقِيَّةُ حَفْظِ.

ومع جنونه وخبله . أيدِّكُنِي وهو منْ كذا وكذا سنة يحفظُ متناً واحداً لا يمسكُ عقله إلَّا كما يمسكُ الماءَ الغرابيل؟ صدق - والله - مَنْ قال : عدوُ عاقلٌ خيرٌ؛ خير . فقال الثاني : خبرٌ من صديقِ جاهل ، هأنذا قد ذكرتُك من نسيان ، وهانت ذرائتِ .

فضحكَ النابغةُ وقال : ولكنِي لم أرِدْ أَنْ أقولَ هذا ، بل أَرِيدُ أَنْ أُولفَ كلاماً آخر . . . عدوُ عاقلٌ خيرٌ ، خيرٌ؛ خيرٌ من مجنونٍ جاهل . . . . .

\* \* \*

ورأيْتُ أَنَّ الْتقاءَ مجنونين شيءٌ طريفٌ غيرٌ جنونِهما ، وصحٌّ عندي أَنَّ الْمجنونَ الواحدَ هُوَ الْمجنون ؛ أَمَّا الْاثنانِ فقد يكونُ مِنْ أَجْمَاعِهِما وتحاورِهِما فَنَّ ظريفٌ مِنَ الْتمثيل ، إِذَا وَجَدَا مِنْ يُصْرَفُهُمَا فِي الْحَدِيثِ ، ويستخرجُ مَا عندهِما ، ويستكشِّفُ مِنْهُمَا قِصَّتِهِما الْعُقْلِيَّةِ . . . . .

ولم أكنْ أعرفْ أَنَّ (نابغةَ الْقَرْنِ الْعَشِيرِينَ) مِنَ الْمجانينِ الَّذِينَ لَهُمْ أَدْنُ فِي غِيرِ الْأَدْنِ ، وعيْنٌ فِي غِيرِ الْعَيْنِ ، وأَنْفٌ بغيرِ الْأَنْفِ ؛ إِذَا تَلَقَّى أَدْمَغُهُمْ أَصْوَاتًا وأَشَبَّاحًا ورَائِحَةً مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا لَا مِنَ الْوُجُودِ ، وَتُدْرِكُهَا بِالْتَّوْهُمِ لَا بِالْحَاسَةِ ، فَتَتَخَلَّقُ<sup>(١)</sup> هُوَاجْسُهُمْ خَلْقًا بَعْدَ خَلْقٍ ، وَتَخَطُّرُ الْكَلْمَةُ مِنَ الْكَلَامِ فِي ذِهْنِ أَحَدِهِمْ فَيَخْرُجُ مِنْهَا مَعْنَاهَا يَتَكَلَّمُ فِي دِمَاغِهِ أَوْ يَمْشِي أَوْ يُلَاطِفُهُ أَوْ يُؤْذِيهِ أَوْ يَفْعُلُ أَفْعَالًا أُخْرَى .

وبياناً أَدِيرُ الرأيَ في إخراجِ فصلِ مِنَ الْحِوارِ بَيْنَ هَذِينِ الْمجنونينِ ، إِذَا قالَ (نابغةُ الْقَرْنِ الْعَشِيرِينَ) : صَهْ ، إِنَّ جَرْسَ «التَّلْفُون» يَدْقُ .

قال (أ. ش) : لا أسمعُ صوتاً ، وليسَ هُنَّا «تَلْفُون» .

فاغتاظَ الْمجنونُ الْآخِرُ وَقَالَ : إِنَّكَ تَتَقَحَّمُ<sup>(٢)</sup> عَلَى النَّوَابِعِ وَلَسْتَ مِنْ قَدْرِهِمْ ، وَمَا عَمْلُكَ إِلَّا أَنْ تُنْكِرَ ؛ وَالْإِنْكَارُ ، وَبِلَّكَ ، أَيْسَرُ شَيْءٍ عَلَى الْمجانينِ وأَشَبَّاهِ الْمجانينِ ، وَالْعَامَّةِ وَأَشَبَّاهِ الْعَامَّةِ ؛ وَقَدْ أَنْكَرْتَ نبوغَهُ أَنْفَا ، وَأَرَاكَ الآنَ تُنْكِرُ «تَلْفُونَهُ» . . . .

قال (أ. ش) : وأين «التَّلْفُون» وَهَذِهِ هِيَ الْغَرْفَةُ بِأَعْيُنِنَا؟ فَضَحِّكَ (نابغةُ الْقَرْنِ الْعَشِيرِينَ) وَقَالَ : صَهْ - وَيُحَكَ - لَقَدْ خَلَطْتَ عَلَيَّ ؛ إِنَّ الْجَرْسَ يَدْقُ مَرَّةً أُخْرَى ، وَأَنَا لَا أَرِيدُ أَنْ أَكْمَلَهَا حَتَّى يَطُولَ انتظارُهَا ، وَهَتَّى تَدْقُ ثَلَاثَ مَرَاتٍ ، وَأَخْشِي أَنْ تَكُونَ قَدْ دَقَّتِ الْثَالِثَةَ وَذَهَبَ رِئِنُّهَا فِي صُوتِكَ وَلَعْطِيكَ . . .

(٢) تَقَحَّم : تحشر نفسك ، تدسها .

(١) تَخَلَّفَ : تتشكل .

قالَ الْمَجْنُونُ الْآخِرُ : هي صاحبَتُهُ الَّتِي يَهْوَاهَا وَتَهْوَاهُ ؛ وَقَدْ أَسْتَهَمَهَا<sup>(١)</sup> وَتَيَمَّهَا وَحِيرَهَا وَخَبَلَهَا ، حَتَّى لَا صَبَرَ لَهَا عَنْهُ ، فَوَضَعَتْ لَهُ تَلْفُونًا فِي رَأْسِهِ . . . .

قالَ «التابعة» : وَهَذَا التَّلْفُونُ لَا يُسْمِعُنِي صُوتَهَا فَقَطُّ ، بَلْ هُوَ يُتَشَقِّنِي عِطَرَهَا أَيْضًا . وَقَدْ تُكَلِّمُنِي فِيهِ الْمَلَائِكَةُ أَحْيَانًا ، وَأَنَا سَاحِطٌ عَلَى هَذِهِ الْحَبِيبَةِ فَإِنَّهَا غَيْرُ تُخَشِّنِي سَطْوَاتُهَا عَلَى الْلَّالَّيِّ تَغَارِي مِنْهُنَّ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَلَّمْتُنِي فِي هَذَا التَّلْفُونِ إِحْدَى الْحُورِ الْعَيْنِ . . . .

قُلْنَا : أَوْ تَغَارِي مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ؟

قالَ الْمَجْنُونُ الثَّانِي : بَلِ الْأَمْرُ فَوْقَ ذَلِكَ ، فَإِنَّ الْحُورَ الْعَيْنَ يَشْتَمِّنُهَا وَيَلْعَنُهَا ؛ «فَمَمَّا حَفِظَنَا» هَذَا الْحَدِيثُ : لَا تَؤْذِي امْرَأَةً زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجُهُ مِنَ الْحُورِ الْعَيْنَ : لَا تَؤْذِيَهُ قاتِلُكَ اللَّهُ ؛ فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوْشِكُ أَنْ يَفَارِقُكَ إِلَيْنَا .

قالَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشِرِينَ) : وَيُلِي عَلَى الْمَجْنُونِ إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخْلُوَ لَهُ مَوْضِعِي فَهُوَ يَتَمَّنِي هَلَاكِي وَأَنْتِقَالِي وَشِيكَا مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا . وَهُوَ يَقُولُ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِإِنَّهُ أَحْمَقُ لِيَسَ لَهُ عُقْدَةٌ مِنَ الْعُقُولِ ، فَيُزَعِّمُ أَنَّهَا تُؤْذِنِي ، وَلَوْ هِيَ آذَنِي لَغَضِيبَتِ قَبْلِ ذَلِكَ ، وَلَوْ غَضِيبَتِ لَرَفَعَتِ الْتَّلْفُونَ . صَدَّهُ إِنَّ الْجَرْسَ يَدْقُ .

\* \* \*

قالَ ا.ش: إِنَّ لِلنَّوَابِغِ لَشَانًا عَجَبًا ، فَفِي مَديْرِيَّةِ الْشَّرْقِيَّةِ رَجُلٌ نَابِغَةُ مَائِتَ زَوْجَتُهُ وَتَرَكَتْ لَهُ عَلَامًا ، فَتَزَوَّجَ أَخْرِي وَهُوَ يَعِيشُ فِي دَارِ أَبِيهِ . فَلَمَّا كَانَ عِيدُ الْأَضْحَى سَأَلَ أَبَاهُ مَا لَا يَبْتَاعُ بِهِ الْأَضْحَى فَلَمْ يُعْطِهِ . وَهُوَ رَجُلٌ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ ، فَذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَرَوْيَاهُ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ يَذْبَحُ أَبْنَاهُ ، فَخَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّ هَذَا بَاتُ إِلَى النَّبِيَّةِ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْحَى إِلَيْهِ ، فَأَخَذَ الْغَلامَ فِي صَبِيحةِ الْعِيدِ وَهُمْ بِذَبْحِهِ ، وَلَوْلَا أَنَّ صَرَخَ الْغَلامُ فَأَدَرَكَهُ النَّاسُ فَأَسْتَنْقَذُوهُ . . . .

قالَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشِرِينَ) : هَذَا مَجْنُونٌ وَلَيْسَ بِنَابِغَةٍ ؛ بَلْ هَذَا مِنْ جُهْلَاءِ الْمَجَانِينِ ؛ بَلْ هُوَ مَجْنُونٌ عَلَى حِدَتِهِ . وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي الْبَيْمَارِسْتَانِ فِي حِينٍ كَثُرَ أَنَا فِي الْمُسْتَشْفَى . . . فَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَتَمَرَ فِي ذَبْحِ غَلامٍ بِإِرَادَةِ اللَّهِ . وَلَوْ كَانَتْ إِرَادَةُ اللَّهِ لَنَفَدَتْ بِالذِّبْحِ ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ وَحْيًا لَتَنَزَّلَ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ كَبِشْ يَذْبَحُهُ . . . وَهَكَذَا أَنَا فِي الْمَنْطَقِ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشِرِينَ) .

(١) أَسْتَهَمَهَا: حَمَلَهَا عَلَى حَبَّهُ .

ثُمَّ إِنَّهُ أَشَارَ إِلَى الْمَجْنُونَ الثَّانِي وَقَالَ: وَأَنَا أَتَقْدَمُ هَذَا فِي النَّبِيُّغِ بِأَكْثَرِ مِنْ عِلْمِ الْعُلَمَاءِ فِي خَمْسِ وَسِتِّينَ سَنَةً كَامِلَةً.

قُلْتَ: وَلَكُنْكَ ذَكَرْتَ هَذَا مِنْ قَبْلِ فَلِمْ عَذْتَ فِيهِ آلَآن؟

قَالَ: إِنَّ السَّبَبَ قَدْ تَغَيَّرَ فَتَغَيَّرَ مَعْنَى الْكَلَامِ؛ وَقَدْ بَدَالَيْتُ أَنَّهُ يَتَمَمَّ هَلَاكِي لِيَكُونَ هُوَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ. فَمَعْنَى الْكَلَامِ الْآنَ: أَنَّهُ لَوْ عَاشَ خَمْسًا وَسِتِّينَ سَنَةً «يَحْفَظُ الْمُتَنَ» لَمَّا بَلَغَ مَبْلَغِي مِنَ الْعِلْمِ. هَذَا رَجُلٌ نِصْفُهُ مِيتٌ جَنَوْنًا مَوْتًا حَقِيقِيًّا، وَنِصْفُهُ الْآخَرُ مِيتٌ جَهَلًا بِالْمَوْتِ الْمَعْنَوِيِّ.

قَالَ ا. ش: حَسْبُهُ أَنْ يَقْلِدَكَ تَقْلِيدَ الْعَامِيِّ لِإِمامِهِ فِي الصَّلَاةِ وَعَسَى أَلَا تَسْتَكِنَ عَلَيْهِ هَذَا فَإِنَّهُ تِلْمِيْدُكَ.

قَالَ الْمَجْنُونُ الثَّانِي «مِمَّا حَفِظْنَا»: لَوْ صُورَ الْعُقْلُ لِأَضَاءَ مَعْهُ الْلَّيلِ، وَلَوْ صُورَ الْجَهَلُ لِأَظْلَمَ مَعْهُ الْنَّهَارِ... وَنَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ هَذَا لَا يَعْرُفُ كَيْفَ يُصْلِيِّ، فَقَدْ وَقَفَ مِنْذُ أَيَّامٍ يُصْلِيِّ بِالشِّعْرِ... وَلَمَّا رَأَيْتُهُ نَاسِيًّا فَذَكَرْتُهُ وَنَبَهْتُهُ أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَجُوزُ بِالشِّعْرِ، إِنَّتَفَتَ إِلَيَّ وَهُوَ رَاكِعٌ فَسَبَّيِّ وَشَتَمَنِي وَصَرَخَ فِيَّ وَقَالَ: مَا شَائِكَ بِي؟ هُلْ أَنَا أُصْلِي لَكَ أَنْتَ...؟

فَعَصِبَ «النَّابِغَةُ» وَقَالَ: - وَاللَّهِ - إِنْ تَحْسِبُنِي إِلَّا مَجْنُونًا فَتُرِيدُونَ أَنْ يَقْلِدَنِي هَذَا الْأَحْمَقُ الَّذِي لِيَسْ لَهُ رَأْيٌ يُمْسِكُهُ. وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَّا أَعْتَقْدُتُمُ أَنَّ تَقْلِيدِي مِنَ السَّهْلِ الْمُمْكِنِ، وَلَعْرَفْتُمُ أَنَّ نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ نَفْسَهُ لَمْ يَسْتَطِعْ تَقْلِيدَ نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ.

قُلْنَا: هَذَا عَجِيبٌ، وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

فَضَحِّكَ وَقَالَ: لَا أَعْدُكُمْ مِنَ الْأَذْكِيَاءِ إِلَّا إِذَا عَقْلَتُمْ كَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟ قَالَ ا. ش: هَذَا لَمْ يُعْرَفْ مَثُلُهُ فَكَيْفَ نَعْرُفُهُ؟ وَلَمْ يَتَوَهَّمْ أَحَدٌ، فَكَيْفَ نَتَوَهَّمُهُ؟

قَالَ: لَوْلَمْ تَكُنْ أَسْتَادًا نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ لَمَّا عَرَفْتَهَا؛ وَهَذَا نَصْفُ الْصِّوَابِ؛ وَمَادِمْتُ أَسْتَادِي، فَلَوْلَا أَنَّنَا أَخْتَلَفْنَا فِي رَأْيِ لَكَانَ خِلَافُكَ لِي صَوَابًا لِأَنَّهُ مِنْكَ، وَكَانَ خِلَافِي لَكَ صَوَابًا لِأَنَّهُ مِنِّي؛ فَأَنْتَ (غَيْرُ مُخْطَبِي) وَأَنَا مُصِيبٌ، وَإِذَا أَسْقَطْنَا كَلْمَةً (غَيْرِ) أَظْلَلْ أَنَا مُصِيبًا وَتَكُونُ أَنْتَ مُخْطَبَنِاً... .

أَنَا لَمْ أَرْ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) فِي الْرَّؤْيَا، وَلَكُنْكَ رَأَيْتُهُ فِي الْمَرَأَةِ عِنْدَ الْحَلَاقِ... وَرَأَيْتُهُ يَقْلِدُنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي الإِشَارَةِ وَالْقَوْمَةِ وَالْقَعْدَةِ وَلَكُنْكَ صَرَخْتُ فِيهِ وَسَبَبْتُهُ فَفَتَحَ فَمَهُ، ثُمَّ خَافَيَ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ... .

وأومأ إلى المجنون الآخر وقال: وأنا أتقدّم هذا في النبوغ بأكثر من علّم  
العلماء في خمس وستين سنة.

قال أ. ش: لقد قتلتها مرتين كلتاها بمعنى واحد، فما معناك في هذه الثالثة؟

قال: هذا الغرّ يزعم أنّي لا أعرف كيف أصلّي، ويستدلّ لذلك بأنّي  
صلّي بالشعرٍ وأنّي شتمتهُ وأنا راكع؛ ولو كان عاقلاً لعلّم أنّ شتمي إيه وأنا  
راكع ثواب له... ولو كان نابغةً لعلّم أنّ الشعرَ كان في مدح دولة النحاسِ باشا  
وأوليّاتهِ.

قلنا: ولكنّ الشعرَ على كلّ حالٍ لا تجوز به الصلةُ ولو في مدح دولة  
النحاسِ باشا.

قال: لم أصلّ به، ولكنّ خطّر لي وأنا أصلّي أنّي نسيت القصيدة فأردّث أنّ  
تحقّقَ أنّي لم أنسّها... فإذا أنا نابغةُ القرنِ العشرين في الحفظ، وهي ستةُ أبيات.  
لا كهذا المعتمه الذي صبر على المتن صبر الغريب على الغرية الطويلة، ومع ذلك  
لم يحفظه.

قال أ. ش: فأفلّ علينا هذا الشعر. فأملّى عليه.

يا حليفَ الشهدِ قلْ لي      أيَّنَ مَنْ فِي الدهرِ خالِ  
إِنْ تَكُنْ تَهْوِي غَزاً      أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ مَالِ  
أَنَا أَهْوَاهَا وَلَكِنْ      لَا سَبِيلَ إِلَى الْوِصَالِ  
مَنْذُولَتْ قُلْتُ مَهْلَأً      مَنْذُغَابَتْ فِي خِيَالِ  
أَنَا مَجْنُونٌ بِلِيلِي      لِيلِيَالِيلِي! تَعَالَ

قلنا: ولكنّ ليس هذا مدحاً، فضحكَ وقال: أردّت أنّ تعرّفوا أنّي أقولُ في  
الغزل، أمّا المديح فهو:

شغفَ الورى<sup>(1)</sup> بمناصبِ وأماني      وشُغْفَتْ يانحاسُ بِالأوطانِ  
حسبوا الْحَيَاةَ تفاخراً وتنعّماً      حسِبَتْهَا لِلْأَوْطَانِ  
ثم أُزْتَيجَ<sup>(2)</sup> عليهِ فسكتَ. قالَ المجنونُ الآخر: إنّها ستةُ أبياتٍ، وقد نسيتُ  
أربعة، ولستُ أريدُ أن أذكرَكَ:

(2) أربع: أغلى.

(1) شغف الورى: اشتَدَ حُبُّ الناس.

فقالَ (النابغة): أظُنْتُه قد حان وقت الصلوة وأريد أن أصلِّي... ونظرَ إلى اللاشيء في القضاء، ثم قال. وأليست الأخيرة:

لا أبتغي في المدح غير أولى الْهَمَى أو صادي أو شوقي أو مطران  
ثم أمر أ. ش. أن يقرأ عليه الشعر فقرأه، فقال: أحسنت، انظر إلى فوق.  
فنظر، ثم قال: انظر إلى تحت. فنظر ثم سكت.

قال أ. ش: وبعد؟ قال: وبعد فإن الناس ينظرون إما إلى فوق وإما إلى تحت... .

\* \* \*

وكان الضجر قد نال مثني، فرجوثر أ. ش. أن يلبي معهما وأذن ليتابعه القرن العشرين أن يلقاني في الندى وأنصرفت..

قال أ. ش. وهو ينبعني: فما غبت عنّا حتى أخذ المجنون يشكو ويتوجع ويقول: لقد حاق بي الظلم، وإن (الرافعي) رجل عسوف ظالم، لأنّي أكتب له كل مقالاته التي ينشرها في (الرسالة)... وأجمع نفسي لها، وأجهد في بيانها، وأذيب عقلي فيها، وهو مستريح وادع، وليس إلا أن يتخلّها<sup>(١)</sup> ويضع توقيعه عليها، ويعيّث بها إلى المجلة، ثم هو يقبض فيها الذهب وبينال شهرة، ولا يدفع لي عن كل مقالة إلا قرشين... .

قال أ. ش: فما يمنعك أن ترسل أنت هذه المقالات إلى المجلة فتقبض فيها الذهب؟ قال: إن هناك أسراراً أنا مخضبها وكتامها، ولا ينبغي أن يعلمهها أحد فإنهما أسرار... قال له: فدع (الرافعي) وأكتب لي أنا هذه المقالات، وأنا أعطيك في كل مقالة ذهبي لا قرشين.

قال هذه أسرار ولا أستطيع أن أكتب إلا للرافعي، لأن (نابغة القرن العشرين) لا يجوز أن يدعى كلامه إلا أستاذ نابغة القرن العشرين، ولو أدعاه غيره لكان هذا خطأ من قدر نابغة القرن العشرين، وهذا بعض الأسرار لا كل الأسرار... .

قلت: ثم جاء المجنونان في العشية إلى الندى.

(١) يتخلّها: ينسبها لنفسه.

## المجنون

٣

وكنا في الندي ثلاثة: أنا، وا. ش. وس. ع؛ وقد هيأنا تدبيراً توافقنا عليه لتحرير هذين المجنونين، وتدوين ما يجيء منهما. فلما أقبلنا تحفينا<sup>(١)</sup> بهما وألطفتاهما، وقمنا ثلاثتنا ببساطهما وإكراههما، حتى حسبنا أنّ في كلمة «مجنون» معنى كلمة أمير أو أميرة.. ورأيْت في عيني «نابغة القرن العشرين» - وهو أغين أنجل<sup>(٢)</sup> - ما لو ترجمته لما كانت العبارة عنه إلا أنه يعتقد أن له نفساً أثني عشرة أباً.. فكان مسداً<sup>(٣)</sup> فكه اللسان، تستملح له أناדרه، وشنطَرَ منه الحركة.

ولما تمكّن منه الغرور، وأحتاج الجنون كما يحتاج الجمال إلى كبرياته إذا حاطته الأعين - أدار بصره في المكان، ثم قال: أُف لكم ولما تصبرون عليه من هذا الندي في ضوضائه ورُعاعيه وغوغائه. إن هؤلاء إلا أخلاط وأوشاب وحشائط. هذا الجالس هناك. هذا الواقف هناك. هذا المستوفز. هذان المتقابلان. هؤلاء المجتمعون. هذا كلُّ خيالٍ حقيقة في رأسي. ما هي؟ ما هي؟

هذا التصريح المنكر. هذا الضرب بحجارة الترد. هذه الزحمة التي انغمستنا فيها. هذا المكان الهائج من حولنا. هذا كلُّ خيالٍ حقيقة في رأسي. هي، هي، هي.

فائزعَ المجنون الآخر، ووقع في تهاويِ خياله، ونظر إلينا تدور عيناه، وتوجّس<sup>(٤)</sup> شرّا، ثم زاغ بصره إلى أباب، وأستوفرَ وجمع نفسه لليقىام؛ فلما رأى صاحبها ما نزل به، قهقهة وأمعن في الضحك وقال: إنما خوفتُه الصبيان والضربي ليثبت لكم أنه مجنون..

(٣) مسداً: موقفاً.

(٤) توجّس: احتسب الشّرّ قبل وقوعه.

(١) تحفنا: رحينا.

(٢) أعين أنجل: واسع العين أنجلها.

فحرَّ الآخرُ وأغتاظَ وجعلَ يُتمِّمُ بينَهُ وبينَ نفسهِ.

قالَ «النابغة»: ما كلامٌ تَطْنَّ به طنيَّ الذبابةِ أَيُّها الْخَبِيث؟

قال: «مِمَّا حفظَنَا»: أَنَّ من علاماتِ الْأَحْمَقِ أَنَّهُ إِذَا أَسْتُنْطِقَ تَجَلَّفَ، وَإِذَا بكَى خارِ، وَإِذَا ضَحِكَ نَهَقَ. كما فعَلتَ أنتَ السَّاعَةَ، تقولُ: هَاءُ، هُوَ، هِيَ... فَتَغَيَّرَ وجْهُ «النابغة»، ونظرَ إِلَيْهِ نظرَةً منكرةً، وهمَّ أَنْ يقتَحِمَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَيُّهَا الْمَجْنُونُ، لِمَاذَا تُضْطَرُّنِي إِلَى أَنْ أُجْبِبَ جَوَابَ مَجْنُونٍ... لا نجُوتُ إِنْ نجُوتَ مَنِي!

فأسرعَ ا. ش، وأمسكَ بِه؛ واعتراضَ مِنْ دُونِهِ س. ع، وَقَالَ لَهُ: أَنْتَ بِدَائِتَهُ وَأَبَادِيَّهُ أَظْلَمْ.

قال: ولكن - ويَحْمَهُ - كَيْفَ قَالَ هَذَا؟ كَيْفَ لَمْ يَقُلْ إِلَّا هَذَا؟ كَيْفَ لَمْ يَجِدْ إِلَّا هَذَا يَقُولُهُ؟ أَنَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشِيرَتِ أَحْمَقُ، وَقَدْ أَوْحَدَ اللَّهَ فِي الْقَرْنِ الْعَشِيرَتِ لَهُمْنَتُ - وَاللَّهُ - أَنَّ أَكْسِرَ الْذِي فِيهِ عَيْنَاهُ؛ فَمَا يَقُولُ إِلَّا أَنِّي أَحْمَقُ الْقَرْنِ الْعَشِيرَتِ...

\* \* \*

قلَّتْ: إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الَّذِي أَغْضَبَكَ مِنْهُ؛ فَفِي الْحَدِيثِ الْشَّرِيفِ: «لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَفِيهِ حَمْقَةٌ، فَبِهَا يَعِيشُ». وَالْحَيَاةُ نَفْسُهَا حِمَاقةٌ مَنْظَمَةٌ تَنْظِيمًا عَاقِلًا؛ وَمَا يَقْبِلُ إِلَيْهِ إِلَّا مِنْ لَذَاتِهِ إِلَّا هُوَ مَقْبُلٌ عَلَى شَيْءٍ مِنْ حِمَاقاتِهِ، وَأَمْتَعَ اللَّذَّةَ مَا طَاشَ فِيهِ الْعُقْلُ وَخَرَجَ مِنْ قَانُونِهِ؛ وَلَوْلَا هَذَا الْحَمْقُ فِي طَبِيعَةِ إِلَيْهِ إِلَيْهِ أَحْتَمَلَ طَبِيعَةَ الْحَيَاةِ، أَلِيْسَ يُخَيِّلُ إِلَيْكَ أَنَّ أَكْرَكَ غَائِبَ عنَ الدُّنْيَا وَأَقْلَكَ حَاضِرَ فِيهَا، وَأَنَّ يَقَظَّنَكَ الْحَقِيقَةُ إِنَّمَا هِيَ فِي الْحَلْمِ وَمَا يُشَبِّهُ الْحَلْمَ، كَائِنَكَ خَلِفَتِ فِيهَا، كَوْكِبٌ وَهَبْطَتِ مِنْهُ إِلَى كُوكِبِنَا هَذَا، فَمَا فِيكَ لِلأَرْضِ وَلَا فِيهَا لَكَ إِلَّا أَقْلَلِيلٌ يَلْتَثِمُ بَعْضُهُ بَعْضِهِ، وَأَكْثُرُكُمَا مُتَنَافِرُ أَوْ مُتَنَاقِضُ أَوْ مُتَرَاجِعٌ؟

قال: بَلَّ.

قلَّتْ: فَهَذَا أَقْلَلِيلٌ هُوَ الْحَمْقَةُ الَّتِي بِهَا تَعِيشُ، وَهُوَ أَرْضِيَّ الْأَرْضِ فِيكُ؛ أَمَا سَمَاوِيَّ السَّمَاءِ فَبَعِيدَةٌ لَا تَحْتَمِلُهَا طَبِيعَةُ الْأَرْضِ؛ وَلِهَذَا يَعِيشُ أَهْلُ الْحَقِيقَةِ عِيشَ الْمَجَانِينَ فِي رَأْيِ الْمَغْرُورِيْنَ الَّذِينَ غَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الْفَانِيَةُ، أَوْ الْمَخْدُوعِيْنَ الَّذِينَ خَدَعُتْهُمُ الظَّواهِرُ الْكَاذِبَةُ؛ فَكُلُّمَا أَتَوْا عَمَلاً مِنْ الْأَعْمَالِ السَّامِيَّةِ أَنْتَهُوا إِلَى الْحَمْقَى

معكوساً أو محولاً أو معدولاً به؛ ولعلَّ هذا أصحُّ تفسيرٍ للحديثِ الشريفِ: «أكثُرُ أهلِ الجنةِ البُلْهِ».

قالَ المجنونُ الآخرُ: «مِمَّا حفظناه»: أكثُرُ أهلِ الجنةِ البُلْهِ.  
فقالَ (النابغة): المصيبةُ فيك أَنَّكَ أنتَ هو أنتُ؛ ألا فلتعلَّمْ أَنَّكَ من بُلْهاءِ  
البِيمارستانِ لا من بُلْهِ الجنةِ . . .

قلتُ: ثُمَّ إِنَّ الْمَوْتَ لَا يَدْأَبُ عَلَى النَّاسِ جَمِيعًا، فَيُسْلِبُهُمْ كُلُّ مَا نَالُوهُ مِنْ  
الْدُنْيَا، وَيُلْحِقُ مَنْ نَالَ بِمَنْ لَمْ يَنْلِ؛ فَمَنْ ذَا الَّذِي يُسْرُرُ بِأَنْ يَنْلِ مَا لَا يَبْقَى لَهُ، إِلَّا  
أَنْ يَكُونَ سَرُورُهُ مِنْ حَمَاقَتِهِ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَحْزُنُ عَلَى أَنْ يَفْوَتَهُ مَا لَا يَبْقَى لَهُ، إِلَّا  
أَنْ يَكُونَ حُزْنُهُ حَمَاقَةً أُخْرَى؟ وَأَيُّ شَيْءٍ فِي الْحُبِّ بَعْدَ أَنْ يَنْقُضِي الْحُبُّ إِلَّا أَنَّهُ  
كَانَ حَمَاقَةً ضَرَبَتْ فِي الْحَوَاسِنِ كُلُّهَا مَلَأَتِ النَّفْسَ؛ ثُمَّ مَلَأَتِ النَّفْسَ حَتَّى فَاضَتْ  
عَلَى الْزَّمْنِ؛ ثُمَّ فَاضَتْ عَلَى الْزَّمْنِ حَتَّى خَبَلَتِ الْعَاشِقَ تَخْبِيلًا لِذِيَّادًا تَصَعَّرَ فِيهِ  
الْأَشْيَاءُ وَتَكَبُّرُ، وَيَجْعَلُ الْوَاقِعَ فِي النَّفْسِ غَيْرَ الْوَاقِعِ فِي دُنْيَاها؟ يُشَبِّهُ كُلُّ عَاشِقٍ  
حَبِيبَتِهِ بِالْقَمَرِ: فَهَبِّ الْقَمَرَ سَمِعَ هَذَا وَفَهَمَهُ وَعَنَاهُ أَنْ يُجِيبَ عَنْهُ، فَمَاذَا عَسَاهُ يَقُولُ  
إِلَّا أَنْ يُعْجِبَ مِنْ هَذَا الْحَمَقِ فِي هَذَا التَّشِيهِ؟

\* \* \*

فَهَدَأُ (النابغة) وَسَكَنَ غَضْبُهُ وَقَالَ: صَدِقْتُ، وَلِهَذَا أَنَا لَا أُشَبِّهُ حَبِيبَتِي  
بِالْقَمَرِ .

قلتُ: فِيمَاذَا تُشَبِّهُهَا؟

قالَ: لَا أَقُولُ لَكَ حَتَّى أَعْلَمَ بِمَاذَا تُشَبِّهُ أَنَّتِ حَبِيبَتِكَ . قَلْتُ: وَأَنَا كَذَلِكَ لَا  
أُشَبِّهُهَا بِالْقَمَرِ .

قالَ: فِيمَاذَا تُشَبِّهُهَا؟ قَلْتُ: حَتَّى أَعْلَمَ بِمَاذَا تُشَبِّهُ أَنَّتِ . . .

قالَ: هَذَا لَا يُرْضِي مِنْكَ وَأَنْتَ أَسْتَاذُ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشِرِينَ)، وَلَكَ حِبَابُ  
كَثِيرَاتُ عَدَدٍ كَتِبَكَ، وَقَدْ أَعْجَبَنِي مِنْهُنَّ تَلْكَ الْأَلْتِي فِي (أُورَاقِ الْوَرْدِ)، وَأَظَلْنِكَ  
أَحْبَبَهَا فِي شَهْرِ مَايُو مِنْ سَنَةٍ . . . مِنْ سَنَةٍ . . .

قالَ المجنونُ الآخرُ: مِنْ سَنَةٍ ١٩٣٥؛ هَانِذَاكَ قَدْ نَبَهْتُكَ .

قالَ: يَا وَيلَكَ! إِنَّ (أُورَاقِ الْوَرْدِ) ظَهَرَتْ مِنْ بَضْعِ سَنِينَ، إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ بُلْهاءِ  
الْبِيمارستانِ لَا مِنْ بُلْهِ أُورَاقِ الْوَرْدِ . . . مَاذَا كَثُرْ أَقُولُ؟

قال أ. ش: كنَتْ تقول: هذا لا يُرضي منك ولد حبَّ كثيرات.

قال: نعم، لأنك إذا شبَّهْت واحدةً منها بالقمر، انتهى القمر وفرع التشبيه فيظلُّ الآخريات بلا قمر.. ثم إن كلمة القمر لا تُعجبني، فلو أنها أدقَّ<sup>(١)</sup> مُعبر يضرِّبُ أحياناً إلى السواد.. فإذا عشِّقت زنجيَّة فهنا محلُّ التشبيه بالقمر.. أما البعض الرعاعيُّ فتشبيهُه بالقمر من فساد الذوق.

قال س. ع: وللألفاظ لوانٌ عندك؟

قال: لو كنَتْ نابغةً لأبصرت في داخلِكَ أخِيلَةً من الجنة؛ ألم يقلُّ أستاذنا آنفًا عن (نابغة القرن العشرين): إنَّه هبطَ من كوكبٍ إلى كوكب؟ ففي كوكبنا الأول يكُون لنا سمعٌ ملونٌ؛ وجسُّ ملؤُنٌ نسمعُ فرعَ الطبلِ أزرق، ونفخَ البوقي أحمر، وزينَ النغمَ الحلوِّ أخضر، والوجودُ كلهُ صورٌ ملونة، سواه منه ما يُرى وما يُحسَّ، وما هو مُستَخفٍ وما هو ظاهر.

ثمَّ أومأَ إلى المجنونِ الآخرِ وقال: وأسمُّ هذا الأبلهِ كلفظُ الحبر: لا أسمعُ إلا أسود..

\* \* \*

وسَكَّتْ «النابغة» وسكتنا؛ فقال له س. ع. مالكَ لا تتكلَّم؟ قال: لأنَّي أريدُ السكوت. قال: فلِمَاذا تُريدُ السكوت؟ قال: لأنَّي لا أريدُ أن أتكلَّم.. وتحركَ في نفسه الغيظُ من المجنونِ الآخر، فرمى بعينيه الفضاء ينظرُ اللاشيء وقال: إذا أصبحَ كُلُّ النساءِ ذواتِ لحى أصبحَ هذا عاقلاً.. فدقَّ الآخرُ برجلِه دقَّاتٍ معدودة؛ فثارَ (النابغة) وقال: من هذا يشتمُّني؟

قال: س. ع: لم يشتمك أحد، هذا خفقُ رجلٍ على الأرض.

قال: بل شتمَّني هذا الخبيثُ، وسَمِعَني لا يكذبُني أبداً، وأنا رجلٌ ظئنونُ، أسيِّءُ الظنَّ بكلِّ أحد، وعلامةُ الحازم «العادل» سوءُ ظنهُ بآنسٍ. فهو كما قلتَ قد خفقَ بتعلمه، أو خبطَ برجلِه؛ فهو ما يعني من ذلك، وأنا أسمعُ ما يعنيه. لقد طفحَ<sup>(٢)</sup> الشعُرُ على قلبي فلا بدَّ لي من هجائه، ولا بدَّ لي أنْ أذبحَه ولو بالكلام، فإني إذا هجَوْته رأيتُ دمَّهُ في كلماتي، وأريدُ أن أجعلَه كالعنزِ التي كانتْ عندنا وذبحناها.

ثمَّ انتزعَ قلم س. ع، وقال: هذه هي السكين. ولكنْ أسألك يا أستادي أنْ

(٢) طفح: فاض.

(١) الدكَنة: اللون ما بين الحمرة والسود.

تدبّحْ أنت بكلمتيْن وتصفَ لَه جنوَّه، فقد عَزَّ<sup>(١)</sup> عَنِي أَلْشُعْر... إِنَّ حَقْقَةَ رِجْلٍ  
عَلَى الْأَرْضِ تُسْتَطِيْرُ الْأَرَانِبَ فَرَعَا؛ فَيَنْفَرِزُ إِلَى أَجْحَارِهِنَّ وَيَتَهَارِبُنَّ، وَمَا كَانَ  
أَبْيَاتُ الشُّعْرِ فِي ذُهْنِي إِلَّا أَرَانِبَ..

أَنْتُمْ لَا تَعْرُفُونَ أَنَّ مَنْ كَانَ حَصِيفَاً<sup>(٢)</sup> ثَيَّبَا مِثْلِيِّ، كَانَ دَقِيقَ الْجِنْسِ؛ وَمَنْ كَانَ  
فَذَمَا<sup>(٣)</sup> غَيْبًا مِثْلَ هَذَا، كَانَ بِلِيدَ الْجِنْسِ غَلِيظًا كَثِيفًا؛ فَإِذَا أَنَا أَسْتَشْعِرُنَّ الْأَبْرَدَ رَأَيْتُنِي  
قَدْ سَافَرْتُ إِلَى الْقَطْبِ الشَّمَالِيِّ؛ أَمَا هَذَا الْمَجْنُونُ فَهُوَ إِذَا أَسْتَشْعِرُ بِرْدًا سَافَرَ إِلَى  
عَبَائِتِهِ أَوْ لِحَافِهِ.. إِذْ هُوَ لَا يَعْرُفُ جُغرَافِيَا، وَلَا يَدْرِي مَا طَحَاهَا.

قُلْتَ: هَذَا مِنْكَ أَظْرَفُ مِنْ نَادِرَةِ أَبِي الْحَارِثِ. قَالَ: وَمَا نَادِرَةُ أَبِي الْحَارِثِ؟  
وَهُنَّ هُوَ نَابِغَةٌ؟

قُلْتَ: جَلَسَ يَتَعَدَّى مَعَ الرَّشِيدِ وَعِيسَى بْنِ جَعْفَرَ، فَأُتَيَ بِخَوَانِ<sup>(٤)</sup> عَلَيْهِ  
ثَلَاثَةُ أَرْغَفَةٍ، فَأَكَلَ أَبُو الْحَارِثِ رَغِيفَةَ قَبْلَهُمَا، وَالرَّشِيدُ مَلِكٌ عَظِيمٌ: لَا يَأْكُلُ أَكَلَ  
الْجَائِعِ، وَإِنَّمَا هُوَ التَّشْعِيبُ مِنْ هَنَا وَهُنَاكَ؛ فَكَانَ رَغِيفُهُ لَا يَزَالُ باقِيًّا؛ فَصَاحَ أَبُو  
الْحَارِثُ فَجَاءَهُ: يَا غَلامُ، فَرَسِيِّ. فَفَزَعَ الرَّشِيدُ وَقَالَ: وَيْلَكَ مَا لَكَ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ  
أَرْكِبَ إِلَى هَذَا الرَّغِيفِ الَّذِي بَيْنَ يَدِيكِ..

قَالَ (النَّابِغَةُ): وَلَكِنَّ فَرْقًا بَيْنَ أَبِي الْحَارِثِ وَبَيْنَ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشَرِينَ)، فَإِنَّ  
مِنَ الْعَجَابِ أَتَيَ رَبِّيْنَا نَظَرَتْ إِلَى الرَّجُلِ وَهُوَ يَأْكُلُ فَأَجَدُ الشَّبَّاعَ، حَتَّى كَانَهُ يَأْكُلُ  
بِبَطْنِهِ لَا بِبَطْنِهِ، وَلَكِنَّ مِنَ الْعَجَابِ أَنَّ هَذَا لَا يَتَقْنُ لِي أَبْدًا حِينَ أَكُونُ جَائِعًا...  
أَمَّا هَذَا الْمَجْنُونُ الَّذِي أَمَامَنَا، فَرِبَّمَا أَبْصَرَ الْحِمَارَ عَلَى ظَهِيرَةِ الْجِهَنَّمِ، فَيَشْعُرُ  
كَانَ الْجِهَنَّمَ عَلَى ظَهِيرَهِ هُوَ لَا عَلَى ظَهِيرَةِ الْحِمَارِ.

قَالَ الْآخَرُ: «مِمَّا حَفَظْنَا»: أَنَّهُ سُرِقَ لِأَعْرَابِيِّ حِمَار، فَقُتِيلَ لَهُ أُسْرِقَ حِمَارُكِ؟  
قَالَ: نَعَمْ، وَأَحْمَدُ اللَّهَ. فَقَتِيلَ لَهُ: عَلَى مَاذَا تَحْمِدُهُ؟ قَالَ: عَلَى أَنَّمَا لَمْ أَكُنْ عَلَيْهِ  
حِينَ سُرِقَ.. فَأَنَا إِذَا رَأَيْتُ حِمَارًا مُثْقَلَ الْظَّهِيرَةِ، حَمَدَتُ اللَّهَ عَلَى أَنَّ الْجِهَنَّمَ لَمْ  
يَكُنْ عَلَيَّ، لَا كَمَا يَقُولُ هَذَا. ثُمَّ دَقَ بِرِجْلِهِ دَقَاتٍ..

فَأَسْتَشَاطَ (النَّابِغَةُ) وَقَالَ أَسْمَعْتُمْ كَيْفَ يَقُولُ إِنِّي مَجْنُونٌ، ثُمَّ لَا يَكْتَفِي بِهَذَا  
بَلْ يَقُولُ إِنِّي حِمَارٌ عَلَى ظَهِيرَةِ الْجِهَنَّمِ؟

(١) عَزَّ: غَرب.

(٢) حَصِيفَاً: عَاقِلًا رَزِينَا.

(٣) فَذَمَا: جِبَانًا غَيْبًا.

(٤) خَوَان: مَائِدَةِ الطَّعَامِ.

قلت: ينبغي أن تتكافأ، وهذا لا يعييك منه ولا يعييه منك، فإنّ من توافع «النوابغ» أن يشعروا ببؤس الحيوان، فإذا شعروا ببؤسِه دخلتهم الرقة له، فإذا دخلتهم الرقة صار خيال العمل حملاً على قلوبهم الرقيقة؛ وقد يصنعون أكثر من ذلك: حتى يلاحظ عن ثمامه قال: كان (نابغة) يأتي ساقية لنا سحراً؛ فلا يزال يمشي مع دابتها ذاهباً ورائعاً في شدة الحر أيام الحر، وفي البرد أيام البرد، فإذا أمسى توضأ وقال: اللهم أجعل لنا من هذا أللهم فرجاً ومخرجاً. فكان كذلك إلى أن مات!

قال المجنون الآخر: «مِمَّا حفظناه»: ثمرة الدنيا السرور، ولا سرور للعقلاء، فلو لم يكن هذا أعقل العقلاء لما محق سرور في الدنيا هذا المحقق إلى أن مات غماً، رحمة الله!

\* \* \*

قال: س. ع: فأعف آلان عن صاحبك ولا تذبحه بالهجاء.

قال: لقد ذكرتني من نسيان، وهذا المجنون يرى نسياني من مرض عقلي، وكان الوجه - لو تهدى إلى الحقيقة - أن يراه شذوذًا في العقل، أي نوعاً عظيماً كنبيوغ ذلك الفيلسوف الذي أراد أن يتثبت في كم من الزمن تسلق البيضة؛ فأخذ بيده الساعة وبهذه الأخرى بيضة، ثم نسي نسيان النبيوغ، فالقى الساعة في الماء على النار، وثبتت عينه على البيضة ينظر فيها على أنها هي الساعة. ولو قد رأه هذا الأبله لزعمه مجنوناً كما يزعموني، فإن المجانين يرون العقلاً مرضى بمواهبهم وأعمالهم التي يعلمونها.

وأنا فليس يهيجني شيءٌ ما تهيجني كلماتٌ ثلاثة: أن يقال لي مجنون، أو أبله، أو أحمق. فمن رغب في صحبتي فليتجثب هذه الثلاثة كما يتجثب الكفر والكفر والكفر . . .

قال ا. ش: فإذا قيل لك مثلاً. مثلًا. أي على التمثيل: مغفل.

فحكَ رأسه قليلاً وقال: لا، هذه ليست من قدرِي . .

قلت: بعض الكلمات إذا قطعت عندك غيرت الحقيقة، كذلك القرن الذي قطع فرداً البقرة فرساً؟

قال: وكيف كان ذلك؟

قلت : زعموا أنَّ أعرابياً خرج إخوته يشترون خيلاً، فخرج معهم فجأة بعجلٍ يقوده؛ فقيلَ لَهُ : ما هذا؟ قال : فرسٌ أشتريته . قالوا : يا مائق<sup>(١)</sup> هذه بقرة ، أما ترى قرنيها؟

فرجع إلى منزله فقطع قرنيها ، ثمَّ قادها إليهم وقال لهم : قد أعدتها فرساً كما تُريدون ..

قال (النابغة) : هذا غيرُ بعيد ، فقد رأيْتُنا حين ذبحنا العَنَزَ وكسرنا قرنينا  
أعدناها كلبة سوداء ، فتقذرَتْها وعفَتْ لحمها ولم أطعم منها .

ثمَّ أومأَ إلى الآخرِ وقال : هذا لا يدرِي ما طَحَاهَا ، وهو مثل العَنَزَ : تحسب  
قرنيها للقتال والنطاح ومنهما تمسكُ للذبح ؛ فقل في هذا يا أستاذ (نابغة القرن  
العشرين) .

قلت لِلآخرِ : أيرضيكَ أنْ أقولَ في المعنى لا فيك أنت ..؟ قال : نعم .  
فكتبَ هذه الأبيات على ما يُريدُ النابغة :

قُلْ لِعَنْزِ نَاطِحَاهَا لِقَتَالِ سَلَحَاهَا  
مَا لَهَا قَدْ طَرَحَاهَا فِي يَدَيِنِ ذَبَحَاهَا؟

\* \* \*

شِيمَةُ مِئِيَّ تَحَاهَا عَقْلُ غَرِّ<sup>(٢)</sup> فَلَحَاهَا  
لَبِسَ يَدْرِي مَا طَحَاهَا<sup>(٣)</sup> بْلَ يَرِى شَمْسَ ضُحَاهَا  
حَجَراً مِثْلَ رَحَاهَا وَيَرِى الْلَّيلَ مَحَاهَا  
ظُلَماً طَالَثَ لَحَاهَا

\* \* \*

وَسُرَّ (النابغة) وأزدهى ، وجعلَ يقول : طالث لِحَاهَا ، طالث لِحَاهَا . وما كانَ  
هذا إلَّا سرورَ الأصغر ؛ أمَّا سرورُهُ الأكْبَرُ فمجيءُ ساعي (البريد المستعجل) إلى  
الندي ، وفي يده رسالَة عنوانُها : نابغةُ القرنِ العشرين فلان ، بندىٰ كذا .

وَجَعَلَ الرَّجُلُ يهتفُ بالعنوانِ يسأَلُ عن صاحِبِه ؛ فتطاولَتْ أعناقُ الناس ،  
ورفعوا أبصارَهُم ينظرون إلى (نابغةُ القرنِ العشرين) وقد مدَّ يَدَهُ يتناولُ الرسالَة

(١) مائق : أحمق .

(٢) غر : أحمق ، لا تجرية له .

(٣) طحاهما : بسطها وسهلها ومدَّها .

وكانَه ملْكٌ مِنَ الْقَدِمَاءِ أُسْقِطَ لَهُ كِتَابٌ بِالْفَتْحِ الْعَظِيمِ وَبِضُمْنَى دُولَةٍ إِلَى دُولَتِهِ .  
لَمْ ترَكَ الرِّسَالَةَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ يَقْلِبُهَا وَلَا يُفْضِّلُهَا<sup>(١)</sup> وَنَحْنُ فِي دَهْشَةٍ مِنْ أَمْرِهِ ؛  
فَنَظَرَ فِيهَا الْمَجْنُونُ وَقَالَ لَهُ : هَذَا عَجِيبٌ يَا أَخِي ، كَيْفَ هَذَا ؟ إِنَّ هَذَا لَا يُصَدِّقُ ؛  
إِنَّكَ لَمْ تُلْقِهَا فِي صَنْدُوقِ الْبَرِيدِ إِلَّا مِنْذُ سَاعَةٍ ..

---

(١) يُفْضِّلُهَا : يُفْتَحُهَا .

## المجنون

٤

وضاقَ «نابغةُ القرنِ العشرين» بِحُمّقِ المجنونِ الآخر؛ ورآهْ داهيَةً دَوَاء، كُلُّما تَعَاقَلَ أو تَحَاذَقَ<sup>(١)</sup> لم يأتِ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِأَنْ يَكْسِفَ عَنْ جُنُونِهِ هُوَ: فَلَا يَبْرُخُ يُجْرِعُهُ الغَيْظَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَلَا يَزَالُ كَانَهُ يَسْبُبُهُ فِي عَقْلِهِ؛ فَأَرَادَ أَنْ يَحْتَالَ لِصُرْفِهِ عَنِ الْمَجْلِسِ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ الرِّسَالَةُ الَّتِي جَاءَ بِهَا (الْبَرِيدُ الْمُسْتَعْجِلُ) وَقَالَ لَهُ: خَذْ هَذِهِ فَأَذْهَبْ فَأَلْقِهَا فِي دَارِ الْبَرِيدِ، فَسِيجِيَءُ بِهَا السَّاعِيَ مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ تَذَهَّبُ الْثَّانِيَةُ فَتُلْقِيَهَا، وَيَعْوُدُ فِي جِيَءُ بِهَا، وَتَكُونُ أَنْتَ تَذَهَّبُ وَيَكُونُ هُوَ يَجِيءُ، فَنَضَحَكُ مِنْهُ وَيَضْحِكُونَ.

قال س. ع: ولكنكم يذهبون هذا وكم يجيء ذاك؟

فَغَمْزَةُ (النابغة) بَعْنَيْهِ أَنْ أَسْكُتُهُ، فَتَعَاقَلَ س. ع، وَقَالَ: كُمْ تُرِيدُ أَنْ يَجيءُ السَّاعِي لِيَهْتَفَ بِنَابغةِ القرنِ العشرين؟

قال المجنونُ الآخر: هَذَا هُوَ الرأِيُ، فَلَسْتُ قَائِمًا حَتَّى أَعْرِفَ كُمْ مَرَّةً أَذْهَبُ؛ فَإِنَّ السَّاعِيَ لَا يَجيءُ إِلَّا رَاكِبًا، وَأَنَا لَا أَذْهَبُ إِلَّا رَاجِلًا، وَإِنَّ لِي رَجْلَيْ إِنْسَانٌ لَا رَجْلَيْ دَابَة.. .

قال (النابغة): سُبْحَانَ الله؟ بِقَلِيلٍ مِنَ الْجِنُونِ يَخْرُجُ مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْنُونٌ كَامِلٌ مُسْتَلِبُ الْعُقْلِ. يَبْدُ أَنَّهُ لَا يَأْتِي النَّابِغَةُ إِلَّا مِنْ كَثِيرٍ وَكَثِيرٍ، وَمِنَ النَّبِيِّ كُلُّهُ بِجَمِيعِ وَسَائِلِهِ وَأَسْبَابِهِ عَلَى تَعْدِدِهَا وَتَفْرِيقِهَا وَصَعْوَدِهَا أَجْتَمِعُهَا لِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ (نَابِغَةُ القرنِ العشرين)، فَهُوَ الَّذِي تَوَافَتْ إِلَيْهِ كُلُّ هَذِهِ الْأَسْبَابِ، وَتَوَازَنَتْ فِيهِ كُلُّ تَلْكَ الْخِلَالِ. إِنَّهُ لِيَسَ الشَّأْنُ فِي الْعِلْمِ وَلَا فِي الْتَّعْلِيمِ؛ وَلَكِنَّمَا الشَّأْنُ فِي الْمُوْهِبَةِ الَّتِي تُبَدِّعُ

(١) تَحَاذَقُ: تَذَاكِي.

أَابْكَارٌ، كِمُوهِبَةٌ (نَابِغَةُ الْقَرْنِيَّةِ الْعَشْرِينَ)، فِيهَا تَجِيءُ أَعْمَالُهُ مُنْسَجِمَةً دَالَّةً بِنَفْسِهَا عَلَى نَفْسِهَا؛ وَمُتَمِيَّزَةً مَعَ كَوْنِهَا مُنْسَجِمَةً دَالَّةً بِنَفْسِهَا عَلَى نَفْسِهَا . . .

هَذَا سَعْيٌ، كَانَ الْأَوَّلَ بَيْنَ خَرِيجِيِّ مَدْرَسَةِ دَارِ الْعِلُومِ، مَدْرَسَةِ الْأَدَبِ وَالْعَرَبِيَّةِ، وَالْمَنْطَقِ وَالْتَّحْذِلَقِ، وَبِلَاغَةِ الْلِسَانِ وَصِحَّةِ الْأَنْظَرِ؛ وَهُوَ يَعْرُفُ أَنَّ الْكِتَابَ يُلْقَى فِي الْبَرِيدِ وَعَلَيْهِ طَابِعٌ وَاحِدٌ، فَيَصِلُ إِلَى غَايَتِهِ بِهَذَا الْطَابِعِ، ثُمَّ يَرَى بِعِينِي رَأْسِهِ أَرْبَعَةَ طَوَابِعَ عَلَى هَذِهِ الرِسَالَةِ الْمُعْتَوِّنَةِ بِاسْمِ (نَابِغَةُ الْقَرْنِيَّةِ الْعَشْرِينَ)، فَلَا يُدْرِكُ بِعْقَلِهِ أَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ مِنْ حَقِّ هَذِهِ الرِسَالَةِ أَنْ تَصِلَ إِلَيَّ أَنَا أَرْبَعَ مَرَاتٍ . .

فَطَرِبَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ، وَاهْتَزَّ فِي مَجْلِسِهِ، وَصَفَّقَ بِيَدِيهِ، وَقَالَ: «إِمَّا حَفْظُنَا» هَذَا الْحَدِيثُ: «يُحَاسِبُ اللَّهُ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عِقْوَلِهِمْ». فَلَا تَؤَاخِذْ سَعْيَ، فَإِنَّ مَدْرَسَةَ دَارِ الْعِلُومِ تَعْلَمُهُمْ: «فِيهَا قَوْلَانٌ»، وَفِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ، وَفِيهَا أَرْبَعَةُ أَرْجُهُ، وَلَكِنَّهَا لَا تَعْلَمُهُمْ فِيهَا أَرْبَعَةُ طَوَابِعَ . .

ثُمَّ التَّفَتَ إِلَى سَعْيٍ، وَقَالَ لَهُ: لَا عَلَيْكَ، فَأَنَا صَاحِبُهُ وَخَلِيلُهُ، وَحَامِلُ عِلْمِهِ وَرَوَايَةِ أَدِبِهِ، وَأَكْبَرُ دُعَائِهِ وَثِقَاتِهِ، وَمَا عَلِمْتُ هَذِهِ الْحِكْمَةَ مِنْهُ إِلَّا فِي هَذِهِ السَّاعَةِ.

قَالَ اسْتَشْرِيفُ: إِنَّمَا كَانَ هَذَا، فَإِنَّ لِقَائِلَ أَنْ يَقُولَ: لِمَاذَا لَمْ يُضْعَفْ عَلَى كِتَابِهِ عَشَرَةً مِنَ الْطَوَابِعِ، فَيَجِيءُ بِهِ الْسَاعِي عَشَرَ مَرَاتٍ.

قَالَ (النَّابِغَةُ): وَهَذَا أَيْضًا . . .؟

وَمَا شَرُّ الْثَلَاثَةِ أُمَّ عَمْرِي وَبَصَاحِبِكَ الَّذِي لَا تَصْبِحِينَ؟؛ إِنَّ الشَّمْعَةَ فِي يَدِ الْعَاقِلِ تَكُونُ لِلضَّوءِ فَقَطْ، وَلَكِنَّهَا فِي يَدِ الْمَجْنُونِ لِلضَّوءِ وَلِإِحْرَاقِ أَصَابِعِهِ. كِمْ الْسَاعَةُ الْآنُ؟

قُلْنَا: هِيَ التَّاسِعَةُ.

قَالَ: وَمَتِينَرْفُ أَهْلُ هَذَا الْنَّدِيِّ؟

قُلْنَا: لِتَعْمَلِ الْثَانِيَةَ عَشَرَةً.

قَالَ: إِنَّمَا كَانَ الْسَاعِي يَتَرَدَّدُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ مَرَةً، فَهِيَ أَرْبَعُ مَرَاتٍ إِلَى أَنْ يَنْفَضُّ الْمَجَمِعُونَ<sup>(۱)</sup> هَنَا، وَبَيْنَ ذَلِكَ مَا يَكُونُ قَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ عَرَفُوا (نَابِغَةُ الْقَرْنِيَّةِ الْعَشْرِينَ

(۱) يَنْفَضُّ الْمَجَمِعُونَ: يَتَفَرَّقُونَ.

العشرين)، وجاء قومٌ غيرُهم فيعرفونه. وأمّا بعد ذلك فلا يجدُ الساعي هنا أحداً؛ فلا تكونُ فائدةٌ من مجئهِ.

فصفقَ المجنونُ الآخرُ وقال: هذا وأبيك هو التهدي إلى وجه الرأي وسداده، وهذا هو الكلامُ الرصينُ الذي يقومُ على أصول الحساب والجغرافيا.. «ومما حفظناه» هذا الحديث: «لا مالَ أعودُ مِنَ الْعُقْلِ». فأربعة طوابع، لأربع مرات، في أربع ساعات؛ وما عدا هذا فإسرافٌ وتبذيرٌ؛ ولا مالَ أعودُ مِنَ الْعُقْلِ..

\* \* \*

ورضيَ (النابغة) عن صاحبهِ وقال له: لَئِنْ كَانَتْ فِيكَ ضَعْفَةٌ إِنَّ فِيكَ لَبْقَيَّةٌ تَعْقِلُ بِهَا... ثُمَّ أَخْذَ مِنْهُ الْرِسَالَةَ ودَسَّهَا فِي ثُوبِهِ. قلنا: ولكنَّ ألا تَفْصِّلُهَا لِنَعْرَفَ مَا فِيهَا؟

فضحَكَ وقال: أئِنْ جَارِيَّكُمْ فِي بَابِ الْمُطَابِيَّةِ وَالنَّادِرَةِ، وَجَارِيَّتُ هَذَا الْأَبْلَهُ فِي بَابِ جُنُونِهِ وَحُمْقِهِ - تَحْسِبُونَ أَنَّ الْأَمْرَ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنَّ الْرِسَالَةَ فَارَغَةٌ إِلَّا مِنْ عَنوانِهَا، وَأَنَّ نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشِرِ هُوَ [مِنْ] أَرْسَلَهَا إِلَى نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشِرِ، كَمَا قَالَ سعدُ باشا: (جورج الخامس يُفاوضُ جورج الخامس)...؟ لَحَقَّ - وَاللهُ - أَنَّ الْعُقْلَ الْكَبِيرَ الَّذِي يَأْبِي الصَّغَائِرَ، هُوَ الَّذِي تَأْتِي مِنْ الصَّغَائِرِ أَحِيَانًا لُتَبَثِّتَ أَنَّهُ عُقْلٌ كَبِيرٌ، وَهَكُذا تَسْخَرُ الْحَقِيقَةَ مِنْ كِبَارِ الْعَقُولِ (كتاب نابغة القرن العشرين)..

فغضَبَ المجنونُ الآخرُ وَهُمْ أَنْ يَتَكَلَّمُ: فَقَالَ لَهُ (النابغة): أَنْتَ كَاذِبٌ فِيمَا سَقَوْلُهُ.

قلنا: ولَكَهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئاً بَعْدُ، فَكَمَا يَحْوِزُ أَنْ يَكُونَ كَاذِبًا يَحْوِزُ أَنْ يَكُونَ صَادِقاً.

قال: وسيُخْطِئُ فِي رَأْيِهِ الَّذِي يُدِيهِ..

قلنا: وَلَمْ يُدِي شَيْئاً مِنْ رَأْيِهِ..

قال: وَلَا يَعْرِفُ الْحَقِيقَةَ الَّتِي سِيَكَلُّ عَنْهَا.

قلنا: وَيَحْكُ، أَدْخَلْتَ فِي عَقْلِ الرَّجُلِ أَمْ تَغْلِمُ الْغَيْبَ؟

قال: لَا هَذَا وَلَا ذَاكُ، وَلَكَهُ قِيَاسٌ مُنْطَقِيٌّ يُتَوَهَّمُ أَطْرَادُهُ<sup>(۱)</sup>. إِنَّهُ سِيَقُولُ: إِنَّهُ مُجْنَوْنٌ..

(۱) أطْرَادُهُ: استمرار حدوثه.

فأخرج الآخر لسانه.. قال: (النابغة): تبا لك، لقد رأيت الكلمة في لسانك كأنها مكتوبة بحروف المطبعة. ويحك يا مرقعان<sup>(١)</sup>، ألا تعرف أن لك دماغاً مخروقاً تسقط منه أنكارك قبل أن تتكلم بها، ولو لا الله مخروقاً لحفظت المتن! إن كل خطئتك لي منك هي اعتراف لي منك بصواب.

فنظر الآخر إليه نظرة كان تفسيرها في حواجه، إذ مط<sup>(٢)</sup> حواجه ورقصها. فقال (النابغة): ونظراً لها خبيثة ملحمة الطعم، مزاعقة كماء البحر المز أخذ من البحر وأضيف إلى ملحه الطبيعي ملح، أكاد أتهوع<sup>(٣)</sup> من هذه النظرة فأقيء.

الآن فهمت معنى قولهم: «ملحة في عين الحسود». فإن الملح لا يغلب إلا الملح، كالحديد بالحديد يُقلح<sup>(٤)</sup>. هاتوا كأساً من معتقدة الخمر، ثم لينظر فيها أليبيث هذه النظرة، فإن الخمر لا بد مستحيلة «شربة ملح إنجليزي»... هذا الأبله ثقيل الدم كان دمه مأخوذ من مستنقع... وهذا الذي لا يستطيع أن يقول لشيء في الدنيا: هو لي، إلا الفقر والجنو والخرافة - يكذب ما في الرسالة التي جاء بها البريد المستعجل، ولا يصدق أنها مرسلة إلى نابغة القرن العشرين من صاحب السمو الأمير؟

هذا الذاهب العقل هو كالجبان المنقطع في وحشة الفقر، في ظلام الليل: إذا توجس حركة ضعيفة انقلب في وهمه قصة جريمة ماؤها الرعب وفيها القتل والذبح؛ ولهذا يخشى ما في الرسالة التي جاءت من صديقي صاحب السمو. هاروا أقرعوا الرسالة.

وفضضنا<sup>(٥)</sup> الغلاف، فإذا ورقتان ممهورتان بتتوقيع أمير معروف، إحداهما صك بألف جنيه تدفع (نابغة القرن العشرين)، والثانية أمر بالقبض على المجنون الآخر.. وإرساله إلى المارستان...

\* \* \*

وذهبت أصلح بينهما صلحًا قلت: إن في الحديث الشريف: «بينما رسول

(١) المرقع والمرقعان: هو الأحمق الذي يرتفع عليه رأيه.

(٢) مط حواجه: رفعها استغراها واستفهمها.

(٤) يُقلح: يُشنق.

(٥) فضضنا: فتحنا.

(٣) تهوع القيء: تكلفة.

الله في أصحابه إذ مر به رجل، فقال بعض القوم: هذا مجنون. فقال رسول الله: هذا مصاب؛ إنما المجنون المقيم على معصية الله».

قال صاحب المتن: «مِمَّا حفظناه» إنما المجنون المقيم على معصية الله.

قلت: وليس فيكما مقيم على معصية الله... .

قال المجنون: «مِمَّا حفظناه»: وليس فيكما مقيم على معصية الله... .

قلت: هذا ليس من الحديث ولكنه من كلامي... .

قال (النابغة): أربأكم أن هذا الأبله يضل في داره كما يضل الأعرابي في الصحراء؛ وأن الأسطول الإنجليزي لو استقر في ساقية يدور فيها ثور، لكان ذلك أقرب إلى التصديق من استقرار العقل في رأس هذا الأبله؟... .

فأخذَم<sup>(١)</sup> الآخر وهم أن يقول: «مِمَّا حفظناه»، ولكنني أسكنته وقلت (للنابغة): إنك دائمًا في دروة العالم، فلا غرر أن ترى المحيط الأعظم ساقية. «والنوابع» هم في أنفسهم نوابع، ولكنهم في رأي الناس مرضى بمرض الصعود الخيالي إلى ذروة العالم. ومن هذا يكون المجانين هم المرضى بمرض النزول الحقيقى إلى حضيض الأدمية؛ فهناك يعملون فتكون أفكارهم من أعمالهم، ثم تكون عقولهم من أفكارهم، فيكون هذا هو الجنون في عقولهم، وذلك معنى الحديث: «إنما المجنون المقيم على معصية الله».

قال (النابغة): لعمري إن هذا هو الحق؛ فنبوغ العقل مرض من أمراض السمو فيه؛ فالشاعر العظيم مجنون بالكون الذي يتخيله في فكره، والعاشق مجنون بكون آخر له عينان مكحولتان؛ والفيلسوف مجنون بالكون الذي يتأدب في معرفته؛ ونابغة القرن العشرين مجنون... لا. لا. قد نسينا. ش، فهو مجنون، وس. ع فهو مجنون.

وكل الناس مجنون بليلي وليس لي لا تقر لهم بذلك  
ومن حق ليلى إلا تقر لهم، إذ هي لا تقر إلا لنابغة القرن العشرين وحده؛  
وما أعجب سحر المرأة في الكون الإنساني للرجال! أما في الكون الحقيقي فهي  
أنسى إلئانات البهائم ليس غير. وأعقل الرجال من كان كالجمار أو الثور أو غيرهما

(١) احتم: استشاط غضباً.

من ذكرِ البهائم. فالجمار لا يعرفُ الجمارَ إلا أنها جمار، والثور لا يعرفُ البقرة إلا أنها بقرة؛ ولا ينظرون شعراً، ولا يكتبون «أوراق الورد»... وإناث البهائم أمات<sup>(١)</sup> لا غير، ولكن العجيب أن ذكورها ليسوا آباء؛ فهذه الذكورة طفيليَّة في الدنيا، والطفيلي لا يأكل إلا بحيلة يحتال بها، فيكون صاحب نوادر وأضاحيك وأكاذيب. ولهذا كان عشق الرجال للنساء ضرورياً من الجداع والأكاذيب والأضاحيك والجحيل والغفلة والبلهاء؛ وإذا نظرنا إليه من أوله فهو عشق، أما آخره فهو آخر الحينة والأكذوبة، وهو قول الطفيلي: قد شبعت وقد رفعت.. وينحكم، أين أول الكلام؟

قلنا: أوله ما أعجب سحر المرأة في الكون النفسي للرجال!

قال: نعم هذا هو. إنه سحر لا أعجب منه في هذا الكون النفسي إلا سحر الذهب؛ فلو مسخت المرأة الجميلة شيئاً من الأشياء لكانَت سبيكة ذهبية تلمع؛ ولهذا يوجد الذهب اللصوص في الدنيا، وتوجد المرأة الجميلة لصوصاً آخرين، فيجب أن يُصان الذهب وأن تُصان<sup>(٢)</sup> المرأة.

قلت: ولكن أليس من المالِ فضة، وهي تُوجَد اللصوص كالذهب؟

قال: نعم، وفي النساء كذلك فضة، وفيهن الشحاس؛ ولو أنت أقينت ريالاً في الطريق لأحدثت معركة يختصُّ فيها رجلان، ثم لا يذهب بالريال إلا الأقوى، ولو تركت قرشاً لتضارب عليه طفلان، ثم لا يفوز به إلا من عَضَ الآخر... ولكن (فورد) الغني الأميركي العظيم الذي يجمع يده على أربعين مليون جنيه، لا يتكلم عن القرش؛ (نابغة القرن العشرين) الذي يملك (ليلي)، لا يتكلم عن غيرها من قروش النساء...

قلت: فإني أحسبك أعلمتي أن اسمها فاطمة لا ليلي.

قال: هل يستقيمُ الشعر إذا قلت: وكل الناس مجنون بفاطمة، وفاطمة لا تقرُ لهم؟ قلت: لا.

قال: إذن فهي (ليلي) ليست قيم الشعر... أما حين أقول: أفاطمة مهلاً بعض هذا التدلل، فهي فاطمة ليصحَّ الوزن.

(١) جمع يقال في غير العاقل، أمات، وفي العاقل: أمهات.

(٢) تصان: تحفظ.

قلت : يُشَبِّهُ - والله - ألا يكون اسمها ليلي ولا فاطمة ؛ وإنما هي تسمى حَسَبَ الْوَزْنِ وَالْبَحْرِ، فَاسْمُهَا فَعُولُنْ أَوْ مُقَاعِلَتْنِ . . .

\* \* \*

ثم قلنا له : فما رأيك في الحب ، فإنه ليقال : إنك أعشق الناس وأغزل الناس ؟ قال : إن ذلك ليقال (وهو الأصح) ، ثم أطرق يفكّر . وبدا عليه أنه مدهوش ذاهب العقل ، كأنه من قلبه على مسافةً أبعد من المسافة التي بينه وبين عقله . وخيل إلى أن النساء قد حُشِّرنَ<sup>(١)</sup> جمِيعاً في رأسه ، ومرث كل واحدة تعرض مفاتنها وغزلها ، وثلاثم هذيان بهذيان<sup>(٢)</sup> من جمالها ، فهو يرى ويسمع ويغرس ويتخير . ثم أضطرب كالذى يحاول أن يمسك بشيء أفلت منه ؛ فلم يبنه إلا قول المجنون الآخر : «مِمَّا حفظناه» أن أعراضه سُلِّثَت عن العشق فقالت : إنه داء وجنون . . .

قال : اسكت يا ويلك لقد أطفأك الأنوار بكلمتك المجنونة . كان في رأسي مرقص عظيم تستطع الأنوار فيه بين الأحمر والأخضر والأبيض ؛ وترقص فيه الجميلات من الطويلة والقصيرة والممشوقة والبادنة ، فجئت بالداء والجنون - ببحك الله - فأخرجنني عنهن إلينك . أحسب أنك لو انتحرت لصلح العالم أو صلحت أنا على الأقل . . . فإذا أردت أن تشتق نفسك فأنا آتيك بالحل الذي كنت مقيداً فيه أي الحل الذي عندي في الدار . على أن رأسك الفارغ مشتوق فيك وأنت لا تدرى .

قال الآخر : ما أنت مُنْدُ الْيَوْمِ إِلَّا في شنقى وتعذيبى أو في شنق عقلي (على الأصح) . «ومِمَّا حفظناه» قول الأحنف بن قيس : إنِّي لِأَجَالِسُ الْأَحْمَقَ سَاعَةً فَأَتَيْنُ ذلك في «عقلي» . . .

فلم يرعننا إلا قيام المجنون مسلحاً بحذائه في يده . . . وهو حذاء عتيق غليظ يقتل بضربة واحدة ؛ فحلنا بيتهما وأثبتناه في مكانه . وقلنا : هذا رجل قد غلب على عقله فلا يدرى ما يقول ؛ فإذا هو دل على أنه مجنون ، أفلا تدل أنت على أنك عاقل ؟ ما سألناك في انتحراره وجنته ، بل سألك رأيك في الحب ؛ وما نشك أنك قد أطلت التفكير ليكون الجواب دقيقاً ، فإنك (نابغة القرن العشرين) ، فانظر أن يكون الجواب كذلك .

(٢) الهذيان : الجنون .

(١) حُشِّرْنَ : جمعن .

قال : نعم إن العاقل إذا ورَّأَ عليه السؤال أطَّالَ الفَكَرَ في الجواب . فاكتُب يا فلان (س . ع) :

(جلس نابغة القرن العشرين مجلس الإملاء مُرتجلًا فقال : قصة الحب هي قصة آدم ، خلق الله المرأة من ضلعيه . فأول علامات الحب أن يشعر الرجل بالألم كأن المرأة التي أحبها كسرت له ضلعاً . . وكل قديم في الحب هو قديم بمعنى غير معقول ، وكل جديد فيه هو جديد ، بمعنى غير مفهوم ؛ غير المعقول وغير المفهوم هو الحب .

والجمرة الحمراء إذا قيل إنها انطفأ ثم بقيت جمرة فذلك أقرب إلى الصدق من بقاء الحب حيًا بمعناه الأول إذا انطفأ أو برأ .

والعاشق مجنون . وجنوبيه مجنون أيضًا ، فهو كالذى يرى الجمرة منطقته ، ويرى مع ذلك أنها لا تزال حمراء ، ثم يُمْعِنُ في خياله فيراها وردة من الورد . . وإذا سألته أن يصف الجمال الذي يهواه كان في ذلك أيضًا مجنون الجنون ، كالذى يرى قمر السماء أنه قد تفشت وتناثر ووقع في الروضة ، فكان نثاره هو الياسمين الأبيض الجميل الذكي . .

والمجنون يرى الدنيا بجنونه والعاقل يراها بعقله ؛ ولكن العاشر المخبوء لا ينظر من يهواه إلا بحقيقة من هذا وبقية من ذلك ، فلا يخلص مع حبيبه إلى جنون ولا عقل .

(والمجهول) إذا أراد أن يظهر في دماغِ بشري لم يسعه إلا أحد رأسين : رأسِ المجنون ورأسِ العاشر . . .

ولا صعوبة في الحكم على شيء بأنه خير أو شر إلا حين يكون الخير والشرُّ امرأة معشقة . أمّا أوصاف الشعراُء والكتاب للجمال والحب فهي كلها تقليد قد توسعوا فيه ؛ والأصل أن ثوراً أحب بقرة فكان يقول لها : يا نجمة القطب التي نزلت من السماء لتدور في الساقية كما دارت في الفلك .

قال (النابغة) : هذارأيي في حب العاشقين ؛ أمّا حبّي أنا (نابغة القرن العشرين) فيجمعه قوله : فل ، ورد ، زهر . . .

قلنا ما هذه الألغاز ؟ وهل للحب متنٌ كقولهم : حروف القلقلة يجمعها قوله (قطب جيد) ، وحروف الزيادة يجمعها قوله (سألتموني بها) ؟

فتضاحك (النابغة)، وقال: تكاثرت الظباء على خراش، فلكيلا ننسى... إن كل حرف هو بدءُ أسم، الفاء فاطمة، والألام ليلي، والأواو وردة، والراء رباب، والأدال دلال، والأزاي زكية، والأهاء هند، والراء رباب...  
قلنا: رباب قد مضت في (ورد).

قال: كئاً تهاجرنا مدة ثم أصطلحنا بعد هند...

\* \* \*

قلت: هكذا «النوابغ» فإنَّ رجلاً أديباً كانت كُنيته (أبا العباس) فلما «نبغ» صيرها (أبا العَيْر)<sup>(١)</sup> وفتقَ لَهُ نوعُهُ أن يجعلها تاريخاً يَعرفُ منها عمره. قالوا فكان يزيدُ فيها كلَّ سنة حرفاً حتى مات وهي هكذا:  
أبو العَيْر طَاز طِيل طَلِيري بك بك بك...

\* \* \*

---

(١) العَيْر: الحمار.

## المجنون

٥

ثم إنَّ (نابغة القرن العشرين) استخفَّهُ الطرفُ لذكرِ صواحبِهِ وجميلاتِهِ من فاطمةَ إلى ربَّاب؛ ومن طبع المجنونِ أَنَّهُ إذا كَذَبَ صَدَقَ نفْسَهُ، فإنَّ قَوَّةَ الضَّبْطِ في عقلِهِ إِمَّا مَعْدُومَةٌ إِمَّا مَخْتَلَةٌ؛ وكُلُّ وجْهٍ تَحَيَّلُ مِنْهُ خِيالًا فَهُوَ وجْهٌ مِنْ وجوهِ الْعِلْمِ عِنْدَهُ، إِذْ كَانَ عَالَمُهُ أَكْثَرُهُ فِي دَاخِلِهِ لَا فِي الْعَالَمِ، فَإِذَا تَوَهَّمَ أَوْ أَحْسَنَ أَوْ شَعَرَ، فَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِطْرِيقَتِهِ هُوَ لَا بِطْرِيقَةِ النَّاسِ الْعُقَلَاءِ؛ فَلَيْسَ يَحْتَمِلُ عَقْلُهُ إِلَّا فِكْرَةً وَاحِدَةً تَمْضِي مُنْفَرِذَةً بِنَفْسِهَا مُسْتَقْلَةً بِمَعْنَاهَا كَأَنَّهَا قَدَرَ غَالِبٌ عَلَى جَمِيعِ أَفْكَارِهِ الْأُخْرَى، فَلَا شَأْنَ لِلْوَاقِعِ بِهَا، وَإِنَّمَا هِيَ تُحْقِقُ مَعْنَاهَا كَمَا تَخْطُرُ لَهُ، لَا كَمَا تَتَمَثَّلُ فِيهَا حَوْلَهُ.

فَبَيْنَ كُلِّ مَجَنُونٍ وَبَيْنَ مَا حَوْلَهُ دِمَاغُهُ الْمُتَدَجِّي<sup>(١)</sup> بِالْغَيْوَمِ الْعُقْلَيَّةِ، لَا تَزَالُ تَغْرِبُ لَهُ الْغَيْمَةُ بَعْدَ الْغَيْمَةِ مِنْ أَخْتَالِ بَعْضِ الْمَرَاكِزِ الْعَصَبِيَّةِ فِيهِ، وَفَسَادِ أَعْمَالِهَا بِهَذَا الْأَخْتَالِ، وَقِيَامِ الْطَّبَيْعَةِ فِيهَا عَلَى هَذَا الْفَسَادِ.

وَمِنْ ذَلِكَ تَنَقْلُبُ الْكَلْمَةِ مِنَ الْكَلَامِ، وَإِنَّهَا لِحَادِثَةٍ تَامَّةٍ فِي عَقْلِ الْمَجَنُونِ كَالْقَصْةِ الْوَاقِعَةِ لَهَا زَمَانٌ وَمَكَانٌ، وَبَدْءُ وَنِهايَةُ، لَا يُخَامِرُهُ فِيهَا الشَّكُّ، وَلَا يَعْتَرِيَهَا التَّكْذِيبُ؛ وَكَيْفَ وَهِيَ قَائِمَةٌ فِي ذَهَنِهِ مِنْ وَرَاءِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ قِيَامُ الْحَقِيقَةِ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ؟

وَلِحُواصِّ الْمَجَنُونِ جِهَتَانِ فِي الْعَمَلِ، لَأَنَّهَا بَيْنَ كَوْئَيْنِ؛ أَحْدُهُمَا الْكُوْنُ الْخَرْبُ الْذِي فِي دِمَاغِهِ؛ وَفِي هَذَا يَقُولُ (نابغةُ القرن العشرين): إنَّ فِي دَاخِلِ عَيْنِيهِ مِنْظَارًا يَرِي بِهِ الْأَشْيَاءَ فِي غَيْرِ حَقَائِقِهَا، أَيْ فِي حَقَائِقِهَا..

وَحدَّثَنَا الدَّكْتُورُ مُحَمَّدُ الْرَّافِعِيُّ قَالَ: إِنَّ فِي دَارِ الْمَجَانِينِ بِمَدِينَةِ لِيُونَ بِفَرْنَسَا

(١) المتدجى: المظلوم.

نابغة كتابة القرن العشرين، ذكرت أمامة قيصرة روسيا وخبر مقتلها، فأحفظه<sup>(١)</sup> هذا وأرمضه<sup>(٢)</sup> وقال يا وينهم! كذبوا عليها وعلىي. فسألة الدكتور: وكيف ذلك؟

قال: كان من خبر القيصرة أنها رأته فأحببتني، وعلمت من كل وجه يمكن أن يعلم منه قلبها أني أنا رجلها لا القيصر؛ فما زالت بعدها تناكدي<sup>(٣)</sup> القيصر وتلوي عليه ولا تصلح له في شيء حتى يئس منها فطلقها، فحملت كنوزها وحلاها ولجأت إلى حبيبها، ثم تبعتها نفس القيصر ولم يُطِق العيش بعدها فانتحر... ثم طلبتها الشيوعيون لما معها من كنوز، فأخفاها هو في مكان حرizer<sup>(٤)</sup> لا يعلم إلا هو؛ ثم إنَّه هو لا يصل إلى هذا المكان الذي أحرزها فيه إلا إذا نام... كيلا يراه أحد من الشيوعيين فيتعقبه فيعلم مقرها؛ ولهذا كان من الحكمة أن ينسى المكان إذا استيقظ... فقد يزيل مرة فيخبر به أو يغلبه الشوق مرة على «عقله»... فيذهب إليه؛ فعسى أن يراه من يئم بذلك، فتفتح عينيه وتوخذ منه.

قال: وإن القيصرة هي تحتاط أيضاً مثل ذلك فترسله كل يوم باللاسلكي رسائل تقع من الجو في دماغه فيقرؤها وحده، وإن أخوف ما يخافه أن يغلبها جنون الحب يوماً فتطيش طيش المرأة، فتزوره في هذا المارستان... فقد تقتل إذا رأها الشيوعيون.

قال الدكتور: وهاك (نابغة) آخر ثبت في ذهنه أنَّ امرأة من أجمل النساء قد استهامت<sup>(٥)</sup> به وأنَّها مبتلة في حبها إيه بجنون الغيرة، وقد تناهت فيه حتى إنَّها لتقتل نفسها إذا علمت أنَّ لصاحبيها هو في أمراً أخرى. وخلال هذه الفكرة، فاعتقد أنَّ حبيبته من جنون غيرتها واقعة بين الإسلام والتلف؛ ثم توهم ذات يوم أنَّ واشيا قد أعلمهما أنَّ النساء أفتتن به؛ فطار صوابها، فهي آتية إليه في المارستان ليتبخه وتشفيه غيظهها منه، ثم تتحرّك أمام عينيه... وأدار (نابغة) الفكر في إقناعها بتعلم أنَّه لم يخُنها بالغيب.. فلم يهتم إلى مفْتَحَ سُرْتِيقْنِ به المرأة أن لا أرب للنساء فيه إلا أن... فعل وجَبَ خصيتيه بيده ليقدمهما برهاناً أنَّ لها وحدها....

\* \* \*

(١) أحفظه: أغضبه.

(٢) أرمضه: ألهبه.

(٣) تناكدي: تحاصلـ.

(٤) مكان حرizer: مصون لا يصل إليه أحد.

(٥) استهامت: عشتـ.

قلنا: وطربَ (نابغةُ القرنِ العشرين) لذكرِ صواحبِه وجميلاتِه، فجعلَ يترئَّسُ  
بها هذا الشعْرُ:

قالوا جُشتَ بِمَنْ تهوى فقلتُ لهم مالَذَّهُ العيشِ إلَّا لِلمجانين  
فقالَ المجنونُ الآخر: «مِمَّا حفظناه»: ما لذَّهُ «الخبز» إلَّا لِلمجانين... .

فضحَّكَ (النابغة): وقال: ما أَسْخَفَكَ مِنْ أَحْمَقٍ. إذا كانَ هَذَا هُوَ الْمَعْنَى  
فَقُلْ: ما لذَّهُ (الكعكِ). ألم أقلُّ لكم إِنَّ هَذَا أَأَبْلَهُ لَوْ تَهَجَّأَ كَلْمَةً خَبِزٌ قَالَ إِنَّهَا لَهُ  
حَمَّا. ولو تَهَجَّأَ كَلْمَةً لَحْمٌ لَقَالَ فَوْ. ل... .

إِنَّهُ طِفْلٌ عُمْرُهُ ثَلَاثُونَ سَنَةً وَفِيهِ دَائِمًا غَضْبُ الْطَّفْلِ وَنَرْقَهُ<sup>(۱)</sup> وَحِمَاقَتُهُ، وَفِيهِ  
كَذَلِكَ سُرُورُ الْطَّفْلِ وَطِيشُهُ وَأَحْلَامُهُ؛ غَيْرَ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ عَقْلُ الْطَّفْلِ.. . وَهُوَ مِنَ  
الْأَسْعَفِ، وَشِدَّةُ الْحَاجَةِ إِلَى الْعِنَاءِ فِي حِيَاتِهِ وَسِيَاسَتِهِ وَالْبِرِّ بِهِ كَطْفَلٌ صَغِيرٌ -  
بِحِيثِ يُخَيِّلُ إِلَيَّ أَحْيَا نَانِي أَنَّنِي أَمْهُ.. .

قلنا: وَتَسْسَى فِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَنَّكَ رَجُلٌ؟

قال: وَأَنْتُمْ كَذَلِكَ تَتَهَمُونِي بِالنِّسَيَانِ، وَهُوَ شَرْعًا جِهَةً مُلْزَمَةً لِلْحُكْمِ بِالْجَنُونِ  
فَمَا النِّسَيَانُ إلَّا الْكَلْمَةُ الْأُخْرَى لِمَعْنَى ضَعْفِ الْعُقْلِ؟ وَضَعْفُ الْعُقْلِ هُوَ الْفَلْظُ  
الْأُخْرَى لِمَعْنَى جُنُونِي؛ وَقَدْ أَعْلَمْتُكُمْ مَا أَكْرَهُ مِنَ الْكَلَامِ.

قلتُ: لا، النِّسَيَانُ لَا يَكُونُ مِنْكَ نِسَيَانًا بِمَعْنَاهُ فِي الْمَجَانِينِ، بلْ بِمَعْنَاهُ فِيكَ  
أَنْتَ مِنْ تَوَاثِبِ الْأَفْكَارِ الْنَّابِغَةِ وَتَزَاحُمِهَا فِي تَوَازِدِهَا عَلَى الْعُقْلِ. فَإِذَا تَوَاثَبْتُ  
وَتَزَاحَمْتُ كَانَ أَمْرُهَا إِلَى أَنْ يُنْسَيَ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَلَا يَنْطَلِقُ مِنْهَا إلَّا الْقَوْيُ الْنَّابِغُ  
حَقَّ نِبْوَغَهُ، فَيُجِيَّءُ كَالْمُنْقَطِعِ مِمَّا قَبْلَهُ؛ فَيُخَسِّبُ ذَلِكَ نِسَيَانًا وَمَا هُوَ بِهِ. وَقَدْ  
تَصَطَّلُخُ الْأَفْكَارُ فِي هَذِهِ الْمَعْرِكَةِ الْذَّهْنِيَّةِ إِذَا كَانَ الْنَّابِغَةُ مَسْرُورًا مَحْبُورًا يَرْقُضُ  
طَرَبًا.. . فَيَكُونُ أَمْرُهَا إِلَى أَنْ تَجِيءَ كُلُّهَا مَعًا عَلَى أَخْتِلَافِ مَعَانِيهَا وَتَنَاقِضِهَا؛  
فَيُخَسِّبُ ذَلِكَ ضَرْبًا مِنَ الْذَّهُولِ عِنْدَ مَنْ يَجْهَلُ الْعِلْمَ «النِّبْوَغِيَّةُ»؛ وَعَذْرًا جَهْلُ هَذِهِ  
الْعِلْمَةِ، وَهِيَ فِي دَلَالِ الْعُقْلِ لَيْسَ نِسَيَانًا وَلَا ذَهُولًا.

قال: فَأَعْلَمُنِي كَيْفَ نِسَيَانُ الْمَجَانِينِ، فَقَدْ خَفِيَ عَلَيَّ أَنْ أُدْرِكَ هَذَا الْأَمْرُ  
الْعَجِيبُ فِيهِمْ، وَلَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ يَفْوِتُهُمْ مَا أَسْتَدِنِي لَهُمْ مِنَ الْفَكِّرِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُ  
قَدِ اسْتَقَرَّ وَحَصَّلَ فِي عَقْولِهِمْ؟

(۱) نَرْقَهُ: طِيشُهُ.

قلت: لا يكون النسيان تهمة بالجنون إلا في أحوالٍ ثلث، جاءت بكلّها  
الرواية الصحيحة المحفوظة:

فأيّاً الأولى: فما يُروى عن رجلٍ كان سريراً غنياً وعمره حتى أدركه الخرف؛  
فجاءه كاتبه يوماً يستعينه على تجهيز أمّه وقد ماتت، فدفع إلى غلامٍ له دنانير  
يشتري بها كفناً، ودنانير أخرى يتصدق بها على القبر، ثمَّ قال لغلام آخر؛ امضِ  
إلى صاحبنا وغازيل موتنا فلان فاذْعُه بِغسلها. قالُ الكاتب: فاستحييت منه وقلت:  
يا سيدِي إيهُ خلف فلانة وهي جازة لـنا بـغسلها. قالَ: يا فلان: ما دفع عقلك في  
حزنٍ ولا فرح. كيف ندخل عليها من لا نعرفه؟

قالُ الكاتب: نعم تأذن بذلك. قالَ: لا - والله - ما بـغسلها إلا فلان.

فضاقَ الكاتبُ بهذا الحمقِ وقالَ: يا سيدِي كيف يغسلُ رجلُ امرأة؟

قالَ: وإنما أُمك امرأة؟ .. - والله - لقد أنسنت..

وأيّاً الحالُ الثانية: فما يُروى عن رجلٍ كان نائماً في ليلةٍ باردةٍ فخرجَت يدُهُ  
من الفراش فبردَتْ، فأدناها إلى جسدهِ وهو نائم فاحسَّ بردها فرأيقظته، فانتبهَ فزعاً  
فقبضَ عليها بيدهِ الأخرى وصاح: اللصوص.. هذا اللص قد قبضَ  
عليهِ، أدركوني لئلا تكونَ في يديهِ حديدةٌ يضرُّبني بها، فجاءوا بـالسراجِ فوجدوهُ  
قابضاً بيدهِ على يدهِ وقد نسيَ أنها يدهُ ..

وأيّاً الثالثة: فهي رواية عن رجلٍ قد ورثَ نصفَ دارٍ، ففكَّر طويلاً كيف  
تخلُصُ الدارُ كلُّها لهُ ثمَّ أهتدى إلى الوسيلة؛ فذهبَ إلى رجلٍ وقالَ لهُ: أريدُ أنْ  
أبيعَ حِصْتي مِنَ الدارِ وأشتري بـشمنها النصفَ الباقي لـتصيرَ الدارُ كلُّها لي ..

\* \* \*

قالَ (النابغة): لعمرِي إنَّ هذا لـهـ الجنون، وما يُذكَرُ مع هؤلاءِ مجنونُ المتنِ  
ولا «غيره» ..

فقالَ الآخر: «تاللهِ لولا أنَّ (نابغة القرن العشرين) يرفعُ نفسهُ عنِ الجنونِ  
لـجاء في الجنونِ بما يذهلُ «العقل» ..

ثمَّ نظرَ فإذا النابغة يتـحفـزـ<sup>(1)</sup> لهـ .. فأسرعَ يقولَ: «يمما حفظناهـ» كـنـ حـذـراـ

(1) يـتحـفـزـ: يستعدـ.

كأنك غرّ، وكُن ذاكراً كأنك ناسٍ. فهذا هو نسيانٌ نابغة القرن العشرين، نسيانٌ حكماء لا نسيانٌ مجانيين.

قال (النابغة): ولكن قد فسَد قولُ الشاعر: ما لذَّةُ العيشِ إلَّا للمجانين؛ فما بقيَتْ مَعَ الْجُنُونِ لذَّةً.

قلت: إنَّ الشاعرَ لا يُريدُ المجانيَنَ الَّذِينَ هُم مجانينُ بِالْمَرْضِ، وإنَّما يُريدُ العاشقَ المُجانيَنَ بِالْجَمَالِ؛ وجنونُ العاشقِ في هذا البابِ كعيوبِ العظيمِ من أهلِ الفنِّ، وهي عيوبٌ تُدفعُ عن نفسها بِحَسَنَاتِ الْعَظِيمَةِ، فليستْ كغيرِها مِنَ الْعِيوبِ.

قال: فيجبُ أنْ أصنعَ بيَتاً آخرَ يفسِّرُ ذلكَ الشِّعْرَ لِيُستَقِيمَ لِيَ التَّمَثِيلُ بِهِ، ثُمَّ فَكَرَ وَهُنْهُمْ، ثُمَّ كَتَبَ فِي وَرْقَةٍ ثُمَّ طَوَاهَا وَقَالَ: اصْنُعْ أَنْتَ أَوْلُ، وَسَأَتَمَّنُ سَعَةً. عَلَى عَشْرِي وَدَفَعَ إِلَيْهِ الْوَرْقَةَ:

فَنَظَرْتُ وَقُلْتُ: يَجْبُ أَنْ يَكُونَ الشِّعْرُ هَكَذَا:

قالوا: جَنِيتُ بِمَنْ تَهُوِي فَقُلْتُ لَهُمْ مَالَذَّةُ الْعَيْشِ إلَّا لِلْمُجانيَنِ  
الْعَقْلُ إِنْ حَكَمَ الْعَشَاقَ أَنْقُلُ مِنْ فَقِيرٍ تَحْكُمَ فِي رِزْقِ الْمَسَاكِينِ  
وَنَشَرْ سَعَةً. عَلَى الْوَرْقَةِ فَإِذَا فِيهَا:

قالوا: جَنِيتُ بِمَنْ تَهُوِي فَقُلْتُ لَهُمْ مَالَذَّةُ الْعَيْشِ إلَّا لِلْمُجانيَنِ  
إِنَّ الْعِيوبَ عَنِ الْمَجْنُونِ دَافِعَةً بِأَئْمَانِهِ «نابغة في القرن العشرين»...  
وَضَحَّكَنَا جَمِيعًا؛ فَقَالَ النَّابغةُ: أَبْعَدْكَ اللَّهُ يَا سَعَةً. إِنَّ مَنْ أَتَمَّنَ الْمَجْنُونَ  
عَلَى سَعَةٍ وَقَالَ لَهُ أَكْمَهُ فَكَانَمَا قَالَ لَهُ: أَشْزَهَ... .

ثُمَّ قَالَ: وَدِدْتُ - وَاللَّهُ - أَنْ يَكُونَ سَعَةً. عَلَى «نابغة»، ولَكَيْ سَاجَعْتُهُ  
نابغةً، فَقَدْ صَارَ لَهُ عَلَيَّ حُقُوقُ الصَّدِيقِ وَهُوَ حُقُوقٌ لَا أُضِيقُعُهُ وَلَا أُخْلِيَّهُ. فَإِذَا أَحْتَجْتُ  
يَا سَعَةً. عَلَى خطابِ رَنَانِ ثُلْقِيَّهِ فِي حَفْلِ عَظِيمٍ، أَوْ قَصِيدَةٍ تَمْدُخُ بَهَا وزِيرُ  
الْمَعْارِفِ، فَالْجَأِيَّ إِلَيَّ فَإِنِّي مَلْجَأُ لَكَ. وَمَتَى أَنْتَلْتَ شِعْرِي كَثُرَ عَنْدَ النَّاسِ الْمُتَنَبِّيِّ  
أَوِ الْبَحْتَرِيِّ. أَوِ أَبْنَ الرُّومِيِّ، فَإِنَّ هُؤُلَاءِ الْقَدَامِيِّ لَمْ يَنْفَعْهُمْ إِلَّا أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ،  
وَلَمَّا لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ أَعْجَبُوا النَّاسَ إِذَا أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ... .

قُلْنَا فَمَا حُكْمُكُ عَلَيْهِمْ فِي الْأَدَبِ؟

قال: إِذَا حَكَمْتُ عَلَيْهِمْ فَقَدْ جَعَلْتُ نَفْسِي بَيْنَهُمْ، . فِمَنْ الْطَّبِيعِيُّ أَلَا يُعْجِبَنِي  
مِنْهُمْ أَحَدٌ. إِنَّ «نابغة القرن العشرين» لَا يَقُولُ لِمَعْنَى هَذَا أَحْسَنُ، فَإِنَّهُ هُوَ فَوْقَ

الأحسن، ولا يقول عن نابغة هذا أشهر، فإنه هو فوق الأشهر.

قلت: كان الدنيا تحت قدميك وأنت فيها الزاهد العظيم الذي لا يقول في حسن هذا أحسن لانه فوق الشهوة، ولا في نعيم هذا أطيب لانه فوق الطمع، ولا في مال هذا أكثر لانه فوق الحرص. وأحسبك لو كنت ترعي غنماً لكنت الحقيق في عصرنا بقول تلك الراعية الزاهدة: أصلحت شأني بيني وبينه فأصلاح بين الذئب والغنم.

قال: وكيف ذلك؟

قلت: حكي عن بعض الصالحين أنه فكر ذات ليلة فقال في نفسه: يا رب. من زوجتي في الجنة؟ فأري في منامي ثلاث ليالٍ أنها جارية سوداء في أرض كذا. فجاء تلك الأرض فسأل عن الجارية، فقال له رجل ما هذا؟ تسأل عن جارية سوداء مجنونة كانت لي فأعتقها؟ قال وماذا رأيتم من جنونها؟ قال: كانت تصوم النهار فإذا أعطينها فطورها تصدق به، وكانت لا تهدأ الليل ولا تسام فضجنا منها.

قال: فاين هي؟ قال ترعي غنماً للقوم في الصحراء:

فذهب إلى الصحراء فإذا هي قائمة في صلاتها، ونظر إلى الغنم فإذا ذئب يدلها على المرعى وذئب يسوقها. فلما فرغت من صلاتها سلم عليها فأنبأته أنه زوجها في الجنة وأنبأها أنه بشر بها؛ ثم سألهما ما هذه الذئب مع الأغنام؟ قالت: نعم أصلحت شأني بيني وبينه فأصلاح بين الذئب والغنم.

قال (النابغة): هذا كذب لأنه عجيب، وهو عجيب لأنه كذب.

قلت: وأي عجيب في هذا؟ إن الذئب والشاة، والأسد والغزال، والثعبان والعصفور، وكل آكل وماكول من الأحياء، لو هي دخلت في دائرة الصلة الحقيقة لانتظمت كلها صفاً واحداً يركع ويسجد. فهذه الجارية نشرت روح الصلة والتقوى على كل ما حولها من قلبهما أطاهر المطمئن بالإيمان فوق الذئب منها في دائرة مغناطيسية، فسلبت وحشيتها ورجع مسخراً لفكرة الصلاح والخير إذ تجاءست فيه الحياة بما حولها، وأنسجم النوع والنوع في حركة متجيبة أنسجام الرجل المغناطيسي هو ومن ينومه في إرادة واحدة وفكرة واحدة.

قال (النابغة): فإذا دخل الذئب مسجداً يزتاج بالمصلين، أثره يصفع أربعة ويقف بينهم للصلوة، أم يصلّي صلاته الذئبية في لحومهم؟

قلت: وأين هم الذين يصلون بحقيقة الصلاة، فيخرجون بها من النفس إلى الكون، ومن الزمن إلى الأبد، ومن الأسباب إلى مسببها، ومهما في القلب إلى ما فوق القلب؟ إن هؤلاء جميعاً يصلون بجوار جهم وبينهم وبين أرواحهم طول الدنيا وعرضها؛ وما منهم إلا من يتصل فكره بما يغلب عليه، كما يتصل فكر اللص بيده، وفكرا العاشق بعينه، وفكرا الطفيلي بمعدته. فاسمها عندهم الصلاة، وحقيقةها عند الله كما ترى.

قال (النابغة): ولكنه ذئب من طبيعته أن يأكل الشاة لا أن يرعاها، فلا أنهما شيئاً.

وقال آخر: «مِمَّا حفظناه» رتع<sup>(١)</sup> الذئب في الغنم، ولم يقولوا صلى الذئب في الغنم، فلا أنهما شيئاً.

قلت: سأزيدكم عدماً فهم... إن قلب تلك المرأة العظيمة الظاهرة ملتتص بالله، وليس فيه شيء من طباعها الإنسانية ولا ظلٌ من ظلام الدنيا؛ وقد تجلَّ فيه سر الحياة، وهو السر الذي لا يطعم ولا يشرب ولا يلبس ولا يشتهي ولا يطعم في شيء ولا يحرز شيئاً، وإنما طبيعته أشواقة الكونية، واتصاله بنفحات القوة الأزلية المسخّرة للوجود كله. فانتشرت هذه الموجة الكهربائية الأثيرية حول الجارية من قلبيها، وجاء الذئب فالتجأ فيها وغمرتُ الروحانية الغالية، فإذا هو يفتح عينه على كوني غريب قد تجلَّ السلام عليه، فليس فيه إلا قوة أمراً لها باتفاق كل شيء مع كل شيء، وأجتماع المتناقضين في حالة معروفة لا في حالة إنكار. فصار الذئب مستيقظاً، ولكنه في روح النوم، وشُلِّث في الذئبية الطبيعية، فإذا هو يحمل الأنابيب والأظافر وقد أنسني استعمالها؛ وبقيت حركته الحيوانية، ولكن تعطلت بواعتها ببطء معناها.

ومن كل ذلك أختفى الذئب الذي هو في الذئب، وبقي الحيوان حيَا ككل الأحياء، فناسب الشاة وفرز إليها إذ لم تكن العلاقة بينهما علاقة جسم الأكل بجسم الأكيل، بل علاقة الروح الحي بروح حي مثله.

\* \* \*

قال (النابغة): أما أنا فقد فهمت ولكن هذا المجنون لم يفهم. أكتب يا س.

(١) رتع: أكل وشرب ما شاء في خصب.

ع: جلس نابغة القرن العشرين مجلسه للفلسفة على غير إعداد ولا تمكّن، وبدون كُتب ألبتة... وكان هذا أجمع لرأيه وأذهن له وأدعى لأن يتوفّر على الإملاء بكل «مواهيَّة العقلية»؛ ولما أن فكر النابغة أعطى النظر حقةً وجمع في عقله ألف جزء من الرأي إلى قوَّة التفتقن والابتкар، قال مرتجلًا: إنَّ فلسفة الذئب والشاة حين لم يأكلها ولم تُطْخِه، هي بالنص وبالحرف كما قال أستاذ نابغة القرن العشرين.

(حاشية) وإنَّ مجنوَّن المتن لم يفهم هذه الفلسفة.

فامتعرض الآخر وقال «مِمَّا حفظناه»:

وبات يقدح<sup>(١)</sup> طول الليل فـكـرـتـهـ وفسـرـ الـماءـ بـعـدـ الـجـهـدـ بـالـماءـ  
قال (النابغة): ويلك يا أبله! أما - والله - لو كنت تفطوني أو سيبوني لما  
كنت عندي إلا جـخـسوـنـهـ أو بـغـلوـيـهـ . . .

لقد كثُر أرى الكلام في تلك الفلسفة طریقاً نزِهاً جميلاً حفته آلاشجار  
والأزهار عن جانبيه، وأندفعت في سوائِه (ثمبيلاث) الأفكار خاطفة كالبرق. فلما  
تكلمت أنت أنتهينا من سخافتك إلى طريق حجري ثُقْعَقُ<sup>(٢)</sup> فيه عربات النقل  
تجرُّها أبغالُ البطيئة.

قال: الآخر وهو يعتذر إليه: ما أرذُ - والله - مسأتك<sup>(٣)</sup> ولو أرذُتها لقلت  
وسر الماء بعد الجهد بالسبerto... فهذا هو الخطأ، أما تفسير الماء بعد الجهد  
بالماء فهو صحيح.

قال (النابغة): ولكنَّ تفسير مُفْرط السقوط كتفسير المجانيين، فهو يقول إنَّ  
مجنوَّن.

قلت: كلا، إنَّ تفسير المجانيين يكون على غير هذا الوجه، كالذي حكاهُ  
الجاحظ قال: سمعت رجلاً يقول لآخر: ضربنا ألساعة زنديقاً. قال الآخر: وأيُّ  
شيء زنديقاً؟ قال الذي يقطع المزيفاً. قال: وكيف علِمْتَ أنه يقطع المزيفاً؟  
قال: رأيته يأكلُ التيَنَ بالخل... .

\* \* \*

(١) يقدح: يُشعَّل ويُعمل.

(٢) ثُقْعَقُ: تصدر صوت التعلقة.

(٣) مسأتك: الإساءة إليك.

## المجنون

٦

### تنمية

وطالَ المجلسُ بنا وبالمجنونين، وألكلامُ على أنيابِه يندفعُ من وجهِه إلى وجهِه، ويمرُ في معنى إلى معنى؛ فأردتُ أن أبلغَ به إلى الغايةِ التي جمعتُ من أجلها بين هذينِ المجنونين، بعدَ ما أنطلقنا في القولِ وأنفتحَ القفلُ الم موضوعُ على عقلِ كلِّ منها.

وكانَ قد مَرَ في الندي بائعُ روایاتِ مترجمة «بوليسية وغرامية ولصوصية!» يحملُ الرجلُ منها مَزْيَلَةً أخلاقِ أوربيةً كاملةً ليُنفَضِّها في نفوسِ الأحداثِ من فتايانا وفياتنا، فقلتُ (لتابعةِ القرنِ العشرين): أتقراً الروایات؟ قال: لا، إلَّا مرةً واحدةً ثمَ لم أعاودُ، إذ جعلتني الروایةُ روايةً مثلها.

قلنا: هذا أعجبُ ما مرَّ بنا منذُ الْيَوْمِ، فكيفَ صرَّتْ روايةً؟

قال: أنتُم لا تعرفون طبيعةَ التوابعِ، إذ ليسَ لكم حُسْنُ المرفَفِ، ولا طبُعُهمُ المستحِكمِ، ولا خصائصُهمُ الغيبةِ، ولا خواطِرُهُمُ المتعلقةُ بما فوقَ الطبيعةِ.

قلتُ: نعم أعرفُ ذلك؛ وما من (نابعة) إلَّا وهو بينَ عالَمَيْنِ على طرفِ مِمَّا هنا وطرفِ مِمَّا هناكُ، فهو خَرَاجٌ ولَاجٌ<sup>(١)</sup> بينَ الْعالَمَيْنِ؛ ولَهُ نفسٌ مركبةٌ تركيبَها على نواميسِ معروفةٍ وأخرى مجهولةٍ؛ فهي تأخذُ مِنَ الظاهرِ والباطنِ معاً، ويحصرُها المكانُ مرةً ويُفلِّتها مرةً، وتكونُ أحياناً في زمانِ الأرضِ، وأحياناً في زمانِ الكواكبِ منَ الْقُمَرِ فصاعداً... ولكن...

فقطَعَ عليَّ وقال: أضفْ إلى ذلك أنَّ هذهِ العقولَ التي تَحصُّرُ مِنْ يسمونَهُمْ

(١) ولَاج: دخال.

العقلاء في الزمان والمكان، لا تُوجَدُ أهلها إلَّا أَهْموم وَالْأَحزان، والمطامع السافلة، والأفعال الدنيئة، فإنَّهم يعيشون فوق التراب.

قلت: نعم، وإذا عاشوا فوق التراب بِفَاضْطَرَارٍ أَنْ تكونَ معانِي التراب فِوقَهُمْ وتحتَهُمْ وَمِنْ حَوْلِهِمْ وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَلَيْسُوا يَقْطَعُونَ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ إلَّا عَمِراً تَرَابِيًّا فِي كُلِّ مَعَانِيهِ وَلَكِنْ . . .

قال: وَزِدْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ مَقْيَدُونَ تَقيِيدَ الْمَجَانِينِ، غَيْرَ أَنَّ جِبَالَهُمْ وَسَلاسلَهُمْ عَقْلَيَّةٌ غَيْرُ مَنْظُورَةٌ؛ وَبِتَغْلِيلِهِمْ تَغْلِيلَ الْمَجَانِينِ يَسْمُونَ أَنفُسَهُمْ عُقَلاءُ، وَأَعْقَلُهُمْ أَثْقَلُهُمْ قِيَوَاً، وَهَذَا مِنَ الْغَرَابَةِ كَمَا تَرَى.

قلت: نعم، أَمَّا العُقَلاءُ بِحَقِيقَةِ الْعُقْلِ، فَهُمُ الَّذِينَ يَضْحَكُونَ عَلَى هُولَاءِ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، إِذَا كَانُوا فِي حَالٍ كَحَالِ الْمَنْطَلِقِ مِنَ الْمَقْيَدِ، وَفِي مَوْضِعٍ كَمَوْضِعِ الْمَعَاوَى مِنَ الْمُبْتَلِيِّ وَلَكِنْ . . .

قال: وَفَوْقَ هَذَا وَذَاكَ، إِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ السَّعَادَةَ، إِذَا لَيْسَ لَهُمُ الْعُقْلُ الْضَّاحِكُ الْسَّاخِرُ الْعَابِثُ الَّذِي خُصَّ بِهِ النَّوَابِعُ وَكَانَ الْأَوْحَدُ فِيهِ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ).

قلت: نعم، وإذا ملَكُوا السَّعَادَةَ لَمْ يَشْعُرُوا بِهَا، أَمَّا (النَّوَابِعُ) فَقَدْ لَا يَمْلِكُونَهَا، وَلَكِنْ لَا يَفْوَتُهُمُ الشَّعُورُ بِهَا أَبْدًا فِي جَهَنَّمِ الْفَرَحِ مِنْ أَسْبَابِهِ وَمِنْ غَيْرِ أَسْبَابِهِ مَا دَامَ لَهُمُ الْعُقْلُ الْضَّاحِكُ الْسَّاخِرُ الْعَابِثُ الَّذِي دَأْبَهُ أَبْدًا أَنْ يَنْسَى لِيَضْحِكَ، وَلَا قَانُونَ لَهُ إلَّا إِرَادَةُ صَاحِبِهِ، عَلَى مُشَيَّةِ صَاحِبِهِ، لِمُنْفَعَةِ صَاحِبِهِ. وَلَكِنْ . . .

قال: وَالَّذِي هُوَ أَهْمَّ مِنْ كُلِّ مَا سَبَقَ؟ أَنَّ أَعْظَمَ خَصَائِصِ هَذَا الْعُقْلِ الْضَّاحِكِ الْسَّاخِرِ الْعَابِثِ أَنْ يَطْرُدَ عَنْ صَاحِبِهِ مَا لَا يُحِبُّ وَيُجَنِّبُهُ أَنْ يَخْسِرَ شَيْئًا مِنْ نَفْسِهِ؛ فَهُوَ لِذَلِكَ يَجْعَلُ حِسَابَهُ مَعَ الْأَشْيَاءِ حِسَابًا يَهُودِيًّا لَا بدَ فِيهِ مِنْ رِبْعِ خَمْسِينَ فِي الْمِائَةِ ..

قلت: نعم، وَهُوَ دَائِمًا كَالطَّفْلِ؛ وَمَا أَظْرَفَ بِلَاهَةَ الطَّفْلِ وَمَا أَجْدَاهَا عَلَيْهِ!، إِذَا يَضْعُ بِلَاهَتَهُ دَائِمًا فِي أَرْوَاحِ الْأَشْيَاءِ وَأَسْرَارِهَا فَتَخْرُجُ بِلَاهَاءَ مَثَلَهُ، وَتَنْقِلُبُ لَهُ الدُّنْيَا كَأَنَّهَا أُمُّ ثُضَاحِكَ أَبْنَاهَا وَتَلَاعِبُهُ وَلَكِنْ . . .

قال: وَلَكِنْ هَذَا مَبْلَغٌ لَا تَبْلُغُهُ الْإِنْسَانِيَّةُ إلَّا شَذْوِذًا فِي أَفْرَادِهَا مِنْ جِبَابِرَةِ الْعُقُولِ (كَنَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ).

قلت : نعم (ولكن) كيف صار (نابغة القرن العشرين) رواية حين قرأ الرواية !

قال : هذه نكتة النبوغ ؛ فلو أن مؤلفها كان نابغاً مثلنا يتلقى في نفسه وهي الأثير وإشارات الروح الأعظم ؛ لعل من الغيب أن (نابغة القرن العشرين) سيقرأ روايته ، فكان يتحرى<sup>(١)</sup> معانٍ غير معانيه ويتوخى بهذه القصة وضعاً آخر لا تكون فيه حبيبة خائنة ، ولا لصّ عارم ، ولا قاتل سفاح ، ولا سجين مظلوم ، ولا محكمة تقول حيث وحيث ...

قلت : وما عليك من حبيبة خائنة في الورق ، ولص بين الحروف المطبوعة وقاتل لا يقتل إلا كلاماً ، وسجين ومحكم على الصحيفة لا على الأرض ؟

قال : هذه نكتة النبوغ ، فما أستواعته القصة حتى عمر ثني أشخاصها ، وأفحمت<sup>(٢)</sup> منها على هولٍ هائل ، فخانتي الخائنة لعنها الله .. ولو لا خوف السجن والمحكمة لقتلتها أشنع قتلة ، ومثلت بها أقبح تمثيل . ونبع الخائنة كيف استمالها ذلك الدميم الطويل العملاق المشبوح العظام المفتول العضل ؟ ولكني لست عملاً ولا مبنياً بناء الحائط ، ثم كان مجئنا بشهواته جنون الفيل الهائج ، وكنت في شهواتي عاقلاً عقل الإنسان ، ثم كان غنياً غنى الجھال ، وكنت فقيراً فقر العلماء . والنساء ؟ قبح الله النساء . إنهم زينة تطلب زينة مثلها وإن المرأة لتمنُ وجهها للقرد يقبّله إذا كان الذهب يتسلط من قبلاته . أما من كان مثلي ، أمواله الشباب والجمال والنبوغ ، فهو مفلس عندهن إفلاس القرد في الغابة ، فهو عندهن قرذ لهذه الشابهة .

قلت : هذا ليس عجياً فإن اللغويين يُجررون على الشيء أسم ما يقاربه في المعنى .

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه أن اللغويين يُجررون على الشيء أسم ما يقاربه في المعنى ..

فتربد<sup>(٣)</sup> وجه (النابغة) غضباً وقال : أبي يلعب هذا المجنون ؟ إنّه يزعم أنّ اللغويين يسمونني قرداً ، فهاتوا القواميس كلّها وأرجعوا إلى مادة (قرد) ومادة (نابغة) ... سؤأة عليك أيها الصبي المعمّر .. لا فدعوني أوذبه أدب الصبيان فإن اللطمة القوية على وجه الطفل المكابر في حقيقة تلمسه الحقيقة التي يكابر فيها إذ تدخلها إلى عقله من أقرب طريق ..

(١) يتحرى : يبحث .

(٢) أفحمت : أدخلت .

(٣) تربد : تلبّد .

قال . ش : أنت قلت ، لا هو . على أنك لست قدراً أبداً إلا عند امرأة جميلة فاتنة متخيلة متماجنة ، قد تضع البردعة على ظهر الأمير وتجعله حمارها ، فيعجب الأمير أن يكون حمارها . ولست قدراً مع فرادي إلى جانب عز وكتب .

قال : الآن علمت السبب ، فإن الخائنة كانت متخيلة مؤلفة كتب وروايات ، والمرأة التي تؤلف الكتب ، غير بعيد أن تؤلف الرجل أيضاً ، وتجعله قصة هو فيها قد .. لا وهذا إن كانت جميلة كأميرة الرواية . أما إن كانت دمية مجموعة من المتناقضات ، أو عجوزاً مجموعة من السنين ؛ فهذه وهذه كل أيامها كيوم الأحد عند النصارى ... يوم للعطلة لا بيع فيه ولا شراء ولا مساومة . هذه وهذه كلتا هما تجعل الرجل كالماء في سبيل التجمد . لا يشتعل ، فضلاً عن أن يستعر ، فضلاً عن أن يحترق .

ومؤلفة الكتب لا يكون وجهها إلا إحدى وثيقتين : فإما جميلة ، فوجهها وثيقة بأن لها ديناً على الرجال ، وإما غير جميلة ، فوجهها (مخالصة) من كل الديون ...

قلنا : هذا في الخائنة . فكيف سرقك اللص ولست غنياً ؟

قال : هذه هي نكتة النبوغ ؛ وفي النبوغ أشياء لا ينكشف تفسيرها ، وليس في جهلها مضرّة على أحد ، وجهل لا يضرّ هو علم لا ينفع ، لكنه علم . والبحث في بعض أعمال (النابغة) هو كالبحث عن سر الحياة فيه ، إذ يعمل أعماله تلك بسر الحياة لا بسر العقل ، أي بالعقل النابغ الخاص به وحده لا بالعقل الطبيعي المشترك بين الناس .

\* \* \*

قلت : ومن عجائبك أنك لا تقرأ الروايات ، ولكنك مع ذلك تؤلفها ...

قال : إن ذلك ليكون ، وإن لم أؤلفها أنا تألفت هي لي . فإذا تقدم الليل ونام الناس جميعاً أنتبهت أنا وحدي لرواية العالم فأرى ما شئت أن أرى . وفي ضوء النهار أجده الناس عقلاً ولكنّي في ظلمة الليل أبصرهم مجانيين . فهذا الليل برهان الطبيعة على جنون الناس وضعف عقولهم إذ هو يثبت حاجة هذه العقول إلى ضرب من النساء الأبله التام لولاه ما عقلت في نهارها ولا استقام لها أمر .

يصرخ الناس في الليل صرخة المجانين فيغمضون أعينهم ولا يرون شيئاً . أما أنا فأرى العالم في الليل مسرحاً هزلياً يصبح بالضحكون من الإنسان الأحمق الذي

يقطع سرّاً نهاره، وهو معتقد أنّه قابض على الوجود بالأعين والأذان والأنف.. .  
أئن رأيت الأسد بعينك أيها الأحمق وسمعت في أذنيك زئيره، أدعينت الداعي  
العربيّة، وزعمت أنك ملكته وقضت عليه، ولا تدرى في هذا أنك كالمعتوه إذا  
قبض على الظل بيده، وصاخ هاتوا الجبل لاقيده لا يُقلّت؟ . . .

قلت: فإذا كان العالم كله روایتك فأخرج لنا فصلاً من الرواية.

قال: أيما أحّب إليكم، أن أكتب أو أمثل؟

قلنا: بل أتمثيل أحّب إلينا. فنظر إلى المجنون الآخر وقال: إن المجنون في  
طبيعته ينبع من الأشخاص يفيض حالاً بعد حال، كينبوع الماء يسخّ<sup>(١)</sup> الدفعه بعد  
الدفعه، فهنا المسرح، وألرواية الآن رواية الطبيب والمجنون . . .

\* \* \*

أنت يا س. ع. عم هذا المجنون. فإذا قال لك يا عم. قل له: أنا لست  
عمك ولكنني أخو أبيك . . . لتنظر أيتبه على الفرق بين الصيغتين أم لا؛ فإنّه فرق  
عقليّ دقيق ثمتحن به العقول . . .

تعال أيها المريض فإنّي أرجو أن يكون شفاوك على يدي، وفي يدي هذه لمسة  
من لمسات المسيح، لأنّ (نابغة القرن العشرين) هو الآن طبيب القرن العشرين . . .  
إنّتموا أن تغضبوه أو تخيفوه، وأقيموا له كلّ ما يحتاج إليه، وتحرّوا<sup>(٢)</sup> مسرته  
دائماً، فإنّ إدخال بعض السرور إلى نفس المجنون هو إدخال بعض العقل إلى رأسه.  
متى أنكرت يا س. ع عقل ابن أخيك وما كان السبب؟ وكيف غلب على  
عقله؟ وهل أ. ش. هو خاله أو أخو أمّه؟

لطف الله لك أيها المسكين. قل لي: أتذكّر أمس؟ أتذكّر غداً؟ . . إن  
الأمس والغد ساقطان جميعاً من حساب المجانين؛ ومن الرحمة بهم أنّ الدنيا تبدأ  
لهم كلّ يوم فقد أستراحو من ثلثي هموم الزمان في العقلاه. وهم لا يصلحون أن  
ينفعوا الناس كالعقلاء، غير أنّهم صالحون أكثر من العقلاه للاستفادة بأنفسهم في  
الضحك والمرح والطرب، وهذا حسبهم من النعمة عليهم.

قل لي أيها المجنون: أتحس أنّ الدنيا تصنع لك نفسك، أم نفسك هي تصنع

(٢) تحرّوا: فتشوا واكتشفوا.

(١) يسخ: يسيل وينهر.

لَكَ الْدُّنْيَا؟ إِنَّ هَذِهِ مَسَأَةً يَحْلُّهَا كُلُّ مَجْنُونٍ عَلَى طَرِيقِهِ الْخَاصَّةِ بِهِ، فَمَا هِي طَرِيقَتُكَ فِي حَلَّهَا؟

مَالِكَ لَا تُجِيبُ أَيَّهَا الْأَبْلَهُ؟ (هَذَا مِنْ جِهَةٍ وَمِنْ جِهَةٍ) أَعْطُوهُ قِرْشًا لِيُنْطَلِقَ لِسَانُهُ، وَاتَّوَا الطَّبِيبَ أَجْرَهُ وَافِيًّا وَهُوَ لَا يَقُولُ عَنْ قِرْشَيْنِ . . .

ثُمَّ مَالَ (النَّابِغَةُ) عَلَى مَجْنُونِ الْمَنْ وَسَارَهُ بِشَيْءٍ. فَقُلْنَا مَا أَمْرُ الْمَالِ بِسِرَّ؛  
هَذَا قِرْشٌ لِلْمَرِيضِ وَهَذَا قِرْشٌ لِلْطَّبِيبِ.

فَقَالَ الْمَجْنُونُ: «مِمَّا حَفَظْنَا» كَفِي بِالسَّلَامَةِ دَاءً.

قَالَ «الطَّبِيبُ»: هَذَا مَرِيضٌ بِنَوْعٍ مِنَ الْجَنُونِ أَسْمَهُ «مِمَّا حَفَظْنَا» وَهُوَ جَنُونُ النَّسِيَانِ الَّذِي يَضِعُ فِي مَكَانِ الْعُقْلِ كَلْمَةً ثَابِتَةً لَا يَتَذَكَّرُ الْمَجْنُونُ إِلَّا بِهَا؛ وَمِنْ أَعْرَاضِهِ جَنُونُ الشَّكِّ فَكُلُّ مَا حَوْلَ الْمَرِيضِ مُشْكُوكٌ فِيهِ، وَقَدْ يَتَرَامَى إِلَى جَنُونِ الْلَّمْسِ، فَلَوْ  
لَمْسْتَهُ بِاِصْبَاعِكَ تَوَهَّمَهَا عَقْرِبًا فَخَافَ مِنَ الْإِاصْبَعِ تَلْمِسَهُ خَوْفَهُ مِنَ الْعَقْرُبِ تَلْدُغَهُ، وَلَكِنْ  
بَقِيَّتْ أَشْيَاءٌ لَا بُدَّ مِنَ التَّدْقِيقِ فِي فَحْصِهَا، فَلَيْسَ هَذَا مِنْ مَجَانِينِ الْعَبْرِيَّةِ الَّتِي أَنْحَرَفَتْ  
عَنْ طَرِيقِهَا أَوْ شَدَّتْ فِي قَوْتِهَا؛ وَلَا هُوَ مِمَّنْ يَتَجَانَّ<sup>(۱)</sup> وَيَتَحَمَّقُ الْتَّمَاسًا لِلرِّزْقِ وَالْعِيشِ  
كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: حَمَاقَةٌ تَعْوَلُنِي خَيْرٌ مِنْ عَقْلٍ أَعْوَلَهُ.

فَقَالَ الْمَجْنُونُ: «مِمَّا حَفَظْنَا» حَمَاقَةٌ تَعْوَلُنِي . . .

فَضَحِّكَ (النَّابِغَةُ) وَقَالَ: هُوَ كَمَا بَيَّنْتُ لَكُمْ مَصَابُ بِجَنُونِ (مِمَّا حَفَظْنَا) وَهُوَ أَقْلُ الْجَنُونِ وَأَهُونُهُ، وَعِلَاجُهُ الْبَسِطُ وَالسَّرُورُ وَالْقِرْشُ؛ وَالْضَّرْبُ أَحْيَانًا . . . إِنَّ ثَابَرَ  
عَلَيْهِ الدَّاءَ تَحَوَّلُ إِلَى جَنُونٍ (مِمَّا ضَرَبْنَا). . . فَيَعْتَدِي الْمَصَابُ عَلَى كُلِّ مَنْ يَرَاهُ أَوْ  
يُوقَعُ بِهِ ضَرِبًا، وَعِلَاجُهُ حِينَئِذٍ الْقَمِيصُ الْمَرْقُومُ<sup>(۲)</sup>؛ إِنَّ فَدَحَتِ<sup>(۳)</sup> الْعَلَةَ أَنْقَلَبَ  
الْمَرْضُ إِلَى جَنُونٍ (مِمَّا قَتَلْنَا). وَعِلَاجُهُ يَوْمَئِذٍ السَّلَاسُلُ وَالْأَغْلَالُ.

وَالْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ آخَرَ مَا أَنْتَهَتْ إِلَيْهِ فَلْسَفَةُ الْطَّبِّ في الْقَرْنِ الْعَشِيرِينَ أَنَّ النَّاسَ  
جَمِيعًا مَجَانِينُ وَلَكِنْ بَعْضُهُمْ أَوْفَرُ قِسْطًا<sup>(۴)</sup> مِنْ بَعْضٍ. كَانَ سُلْبُ الْعُقْلِ هُوَ أَيْضًا حَظْوَظٌ  
كَحَظْوَظِ مَوْهِبَةِ الْعُقْلِ. وَأَهْلُ الْمَرِيضِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يَسْمُونَ الْأَرْضَ بِيَمَارِسْتَانَ الْفَلَكِ.  
وَلَكِنْ بَقِيَّتْ أَشْيَاءٌ لَا بُدَّ مِنَ التَّدْقِيقِ فِي فَحْصِهَا؛ وَعِنْدِي فِي الْدَارِ عَاطُوسٌ

(۱) يَتَجَانَّ: يَصْطَنِعُ الْجَنُونَ.

(۲) الْقَمِيصُ الْمَرْقُومُ هُوَ قَمِيصُ السَّجْنِ يَلْبِسُهُ الْمَسْجُونُ.

(۳) فَدَحَتِ: عَظَمَتِ الْمَصِيَّةَ.

(۴) قِسْطًا: قَدْرًا، حَظًا.

إذا أشمتُهُ هذا المجنونَ عَطَسَ بِهِ عَطْسَهُ قَوِيَّةً فَخَرَجَ جَنُونُهُ مِنْ أَنفِهِ . . . قُلْ لِي أَيُّهَا الْمُسْكِينُ : أَتَخَافُ إِذَا سِرَزْتَ وَحْدَكَ فِي مَيْدَانٍ وَاسِعٍ كَأَنَّ الْمَيْدَانَ سِيلَتْفُ عَلَيْكَ ؟ أَتَضْطَرِبُ إِذَا مَشَيْتَ فِي مَضِيقٍ كَأَنَّ الْمَكَانَ سِينَطَبِقُ عَلَيْكَ ؟ وَإِذَا كَثُتَ فِي عَرَبَةِ الْقِطَارِ فَهَلْ يُخَيِّلُ إِلَيْكَ أَنَّ الْبَيْمَارِسْتَانَ قَدْ جَرَأَ الْقِطَارُ وَأَنْطَلَقَ بِهِ هَارِبًا ؟ وَهُلْ شَعَرْتَ مَرَةً أَنَّهُ أَوْحَى إِلَيْكَ أَنْ تَتَجَرَّ ؟

أَرْنِي هَذَا الْقِرْشَ الَّذِي فِي يَدِكَ . فَمَدَ إِلَيْهِ الْمُجْنُونُ يَدَهُ بِالْقِرْشِ .

قَالَ (النَّابِغَةُ) : أَنْظِرِ أَلَّاَنَ هَلْ تُحَدِّثُكَ نَفْسُكَ أَنْ تَغْصِبَنِي هَذَا الْقِرْشَ أَوْ تَسْرِقَهُ مَنِّي ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ (النَّابِغَةُ) : إِذْنَ يَجْبُ أَنْ أُحْرِزَهُ فِي جَيْهِ . . . وَأَسْرَعَ فَأَخْفَاهُ فِي جَيْهِ . . .

\* \* \*

فَصَاحَ الْآخِرُ وَشَغَبَ<sup>(۱)</sup> ، وَقَالَ سَلَبَتِي وَنَهَبَتِي . قُلْنَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَصَلَّ بِيَنْكَمَا شَرُّ فِي تَمْثِيلِ الْرَّوَايَةِ فَهَذَا قِرْشٌ آخِرُ ، وَلَكِنْ أَفِي الْفَلْسَفَةِ عِنْدَ (النَّابِغَةِ) إِبَاحةُ السُّرْقَةِ وَالْغَضْبِ ؟

قَالَ : فَالرَّوَايَةُ أَلَّاَنَ هِي رَوَايَةُ الْفِيلِسُوفِ الْعَظِيمِ أَفْلَاطُونَ وَتَلَمِيذهِ أَرْسَطُو . قَلَّ لِي وَيَحْكَ يَا أَرْسَطُو . أَعْلَمَ أَنَّ فِي الْمَجَانِينَ أَغْنِيَاءَ يَسِرُّقُونَ الشَّيْءَ الْقَلِيلَ لَا قِيمَةَ لَهُ وَهُمْ أَغْنِيَاءَ وَلَيْسُوْ بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ . فَمَا عِلْمُهُ ذَلِكَ عِنْدَكَ وَمَا وَجْهُهُ فِي مَقْوِلَةِ الْجَنُونِ ؟

أَعْجَزْتَ عَنِ الْجَوابِ ؟ إِذْنَ فَاعْلَمْ يَا أَرْسَطُو أَنَّ الْمُصَابَ بِهَذَا الضَّرَبِ مِنَ الْجَنُونِ إِذَا أَسْتَرَى هَذَا الشَّيْءَ بِدِرْهَمٍ كَائِنَ قِيمَتُهُ مِنَ الدِّرْهَمِ وَحْدَهُ ، وَهُوَ غَنِيٌّ لَا قِيمَةَ لِلدِّرْهَمِ فِي مَالِهِ فَلَا يَحْفَلُ بِالشَّرَاءِ بَيْنَ أَنَّهُ إِذَا سَرَقَهُ كَائِنَ قِيمَتُهُ عِنْدَهُ مِنْ عَقْلِهِ وَحِيلَتِهِ فِي جِيَهُ بَلَذَةٌ لَا تَشْتَرِيهَا كُلُّ أَمْوَالِهِ وَلَا كُلُّ أَمْوَالِ الدُّنْيَا . فَهَذَا جَنُونٌ بِاللَّذَّةِ لَا بِالْسُّرْقَةِ ، وَهُوَ بِذَلِكَ ضَرَبٌ مِنَ الْعِشْقِ يَجْعَلُ الشَّيْءَ إِذَا لَمْ يُسْرَقْ كَائِنَهُ الْمَرْأَةُ الْمَعْشُوقَةُ الْمَمْتَنَعَةُ عَلَى عَاشِقَهَا .

وَالْجِيَاعُ إِذَا سَرَقُوا لِيَأْكُلُوا وَيُمْسِكُوا الْرَّمَقَ<sup>(۲)</sup> عَلَى أَنفُسِهِمْ ، لَا يُقَالُ فِي لِغَةِ الْفَلْسَفَةِ إِنَّهُمْ سَرَقُوا بِلْ أَخْذُوا . . . فَبِاضْطَرَارِ جَاعُوا وَبِاضْطَرَارِ مِثْلِهِ أَكْلُوا ، وَالسَّارِقُ هُنَا هُوَ الْغَنِيُّ الَّذِي مَنْعَهُمُ الْإِحْسَانُ وَالْمَعْوَنَةُ . . .

(۲) الرَّمَقُ : بَقِيَّةُ الْحَيَاةِ .

(۱) شَخْبُ : أَحْدَاثُ ضَجَّةِ .

فالدنيا معكوسه منقلبه أوضاعها يا أسطو، ولو استقامت هذه الأوضاع لوجدت السعادة في الأرض لأهل الأرض جميعاً. وكيف لك بالسعادة والناس مخلوقون بعيوبهم؟ ويا لينتهم مخلوقون بعيوبهم فقط، ولكن الطامة الكبرى أن عيوبهم تعمل دائماً على أن ترى في الآخرين عيوباً مثلها.

كل حمار فهو يريد أن يملأ جوفه تبناً وفولاً وشعيراً، غير أنه لم يأر حماراً قط يريد أن يملأ لنفسه الإصطبل؛ فإذا وجد حماراً هذه همته وهذا عمله فأسمه إنسان لا حمار.

يا أسطو إن معضلة المضلات أن يحاول إنسان حل مشكلة داخلية محضية قائمة في نفس حمار أو ثابتة في ذهنه الجماري... ومثل هذا أن يحاول حمار حل مشكلة نفسية في ذهن إنسان أو في قلبه، فلا حل لمشاكل العالم أبداً ما دام كل إنسان مع غيره كحمار مع إنسان...

والمضلات<sup>(١)</sup> النفسية من عمل الشياطين، فكان ينبغي أن تجيء الملائكة لمحارب الشياطين بالبرق والرعد دفاعاً عن الإنسانية؛ ولكن الله - تعالى - منعها، وأرسل للإنسان ملائكة أخرى إن شاء هذا إنساناً عملت، وإن شاء عجزت؛ وهي فضائل الأديان المنزلة. فإذا منحها إنساناً إرادته وقوته، فعملت عملها كان إنسان هو الملك بل فوق الملك، وإذا أضعفتها ومحقتها كان إنسان هو الشيطان وأسفل من الشيطان.

يا أسطو: «هذا العالم عندي كتلة من العدم اتفق على الظهور وستختفي. والعالم عندي ضعف ركب وقوة ركب. والعالم عندي لا شيء. والعالم بين بين. والعالم قسمان: منهم الفلاح الزراعي وذلك أفضل فلسفة طبيعية. والعالم في حاجة إلى الموت والموت في حاجة إليه. والأدب هو الحياة ولا حياة بلا أدب. والأدب ضربان: أدب نفسي وأدب مكتسب، وقد يكون طبيعياً كما هو عند نابغة القرن العشرين. ومن هو نابغة القرن العشرين؟ هو شخص مات بلا موت، ويحيا بلا حياة».

أتريد يا أسطو أن تعرف سر تركيب العالم؟ الأمر يسير غير عسير، فإن سر تركيبه كبير تركيب القرآن الذي في يدك، قد غني أظهرتك على هذه الحقيقة ومدد يدك بالقرآن لأبين لك سر التركيب فيه...

(١) المضلات: المشاكل الصعبة الحل.

ولكنَّ المجنونَ الآخرَ أسرعَ فغَيْبَ القرشَ في جيِهِ. فقالَ (النابغة): هذا سياسيٌ داهيةٌ خبيثٌ. وألروايةُ آلآنَ روايةُ سياسيٍ القرنِ العشرينِ.

ليسَ في حقيقةِ السياسةِ إلَّا الرذُلُ من أفعالِ السياسيينِ. والألفاظُ السياسيةُ التي تحملُ أكثرَ من معنَى هي التي لا تحملُ معنَى. فليحضرِ الشرقُ من كلِّ لفظٍ سياسيٍ يحتملُ معنيينِ، أو معنَى ونصفَ معنَى، أو معنَى وشبَّهَ معنَى؛ فإنَّ قالوا لنا (أحمر) قُلْنا لهم اكتبُوهُ بهذا اللفظ؛ فإذا كتبُوهُ قُلْنا لهم: أرسموا إلى جانبِهِ معناهُ باللونِ الأحمرِ ليشهدَ الطبيعةُ نفسُها على أنَّ معناهُ أحمرٌ لا غيرٌ.. وعلى هذه الطريقةِ يجبُ أن تُكتبَ المعاهداتُ السياسيةُ بين أوربا والشرقِ ..

إنَّهم يكتبونَ لنا جريدةً بأسماءِ الأطعمةِ ثمَ يقولونَ: أكلُّتم وشبعُتمِ .. ولقد رأيتُ (مظاهراتٍ) كثيرةً ولا كالْمظاهرَةِ التي أتمَّناها؛ فما أتمنَّ إلَّا أنَّ يخرجَ كلُّ المجانينِ في مظاهرةٍ ..

وهذا الأبلهُ الذي أمامَنا ليسَ وطنياً ولا فيهِ ذرةٌ منَ الوطنية؛ فإنَّ كانَ وطنياً أو زعمَ أنهُ وطنيٌ، فليُخرجِ القرشَ الذي في جيِهِ .. ليكونَ فالأَ حسناً بخروجِ جيشِ الاحتلالِ من مصرِ ..

\* \* \*

ولكنَّ المجنونَ لم يخرجِ القرشَ وتركَ جيشَ الاحتلالِ في مكانِهِ. فقالَ (النابغة): الروايةُ آلآنَ روايةُ الشرقيِ واللصِ. وبحقِّ منَ القانونِ يكونُ للشرقيِ أنْ يُفتشَ هذا اللصُ ليُخرجَ القرشَ من جيِهِ ..

\* \* \*

غيرَ أنَّ المجنونَ أمتنعَ. فقالَ (النابغة): كلُّ ذلك لا يُجدي<sup>(١)</sup> معَ هذا الخبيثِ، فالروايةُ آلآنَ روايةُ هارونِ الرشيدِ معَ البرامكةِ. ويجبُ أنْ ينكبَ الرشيدُ هؤلاءِ البرامكةِ ليُستَضفيَ القرشِ ..

\* \* \*

بيدَ أئنا منعناهُ أنْ ينكبَ «البرامكة» فقالَ: الروايةُ آلآنَ روايةُ العاشقِ والمعشوقَةِ، . ونظرَ طويلاً في المجنونِ وصعدَ فيهِ عينَهُ وصوَّبَ فلم يرِ إلَّا ما يُذكرُ

(١) لا يُجدي: لا يفعُ.

بأنهُ رجل، فتهَّدَى<sup>(١)</sup> إلى رأي عجيب. فوقَ على قدميهِ وتوهَّمَهُ امرأة في حذاءها... وجعلَ يُناجي الحذاء بهذه المناجاة:

إنَّ سخافات الحُبْ هي أقوى الدليل عندَ أهلهِ على أنَّ الحُبَ غيرُ سخيف؛ فكلُّ فكرةٍ في الحُبِّ مهما كانت سخيفةً، عليها جَلَالُ الحُبِّ؛ وللحذاء في قدميك يا حبيبتي جمالُ الصندوق المملوء ذهبًا في نظرِ البخلِ، وكلُّ شيءٍ منكِ أنتِ فيه سرُّ جمالِكِ أنتِ. والـحذاء في قدميكِ ليس حذاء، ولكنهُ بعضُ حدودِ جسمِكِ الجميلِ، فلا أكونُ كُلَّ العاشقِ حتى أحبطَ بكلِّ حدودِكِ إلى الحذاء..

إنَّ جسمِكِ يا حبيبتي كالماءِ الجاري العذب؛ في كُلِّ موضعٍ منه روحُ الماء كُلُّه؛ وحيثما وقعتِ القُبْلَةُ من جسمِكِ كانَ فيها روحُ شفتِكِ الورديتينِ، هذه قُبْلَةُ على قدميكِ يا حبيبتي؛ وهذه قُبْلَةُ على ساقِكِ؛ وهذه قُبْلَةُ على ثوبِكِ وهذه قُبْلَةُ على جَيْبِكِ..

وكادَت يدُ (النابغة) تخرجُ بالقِرْشِ؛ فعضَّهُ الجنونُ في كتفِهِ عضَّةٌ وحشيةٌ، فجأةً أَخوْفُ منها فطارَ صوابِه؛ فصرخَ صرخَةً عظيمةً دُوَّى لها المكانُ وترددَت كصُرُصَرةُ البازِي<sup>(٢)</sup> في الجوِّ، ثمَّ اعترَاهُ الطَّيفُ، وأطبقَ عليهُ الجنونُ فاختلطَ وتبَطَّ..

(والروايةُ الآن؟... روايةُ عربةِ الإسعاف...)

(٢) صرصرةُ البازِي: صوته.

(١) تهَّدَى: اهتدى وتَوَضَّلَ.

## فهرس المحتويات

٥	الإشراف الإلهي وفلسفة الإسلام
١٢	حقيقة المسلم
١٧	وحى الهجرة
٢٣	فلسفة قصة
٢٩	فوق الأدمة الإسراء والمعراج
٣٦	الإنسانية العليا
٤٤	سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم
٥٠	سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم
٥٧	درس من النبوة
٦٣	شهر لثورة فلسفة الصيام
٧٩	ثبات الأخلاق
٨٥	قلت لنفسي وقالت لي
٨٢	الانتحار ١
٩١	الانتحار ٢
٩٩	الانتحار ٣
١٠٧	الانتحار ٤
١١٤	الانتحار ٥
١٢٣	الانتحار ٦
١٢٣	تنمية
١٣٢	وحى القبور
١٣٦	عروش تُرَفُ إلى قبرها
١٤١	موث أم
١٤٦	قصة أب

١٥٢ .....	<b>السمكة</b>
١٦١ .....	<b>الزاهدان</b>
١٦٧ .....	<b>إيليس يعلم</b>
١٧٤ .....	<b>الدنيا والدرهم</b>
١٨٠ .....	<b>ذعابة إيليس</b>
١٨٧ .....	<b>الشيطان</b>
١٩٧ .....	<b>تاريخ يتكلم</b>
٢٠٠ .....	<b>المجلد الأول</b>
٢٠١ .....	<b>المجلد الثاني</b>
٢٠٢ .....	<b>المجلد الثالث</b>
٢٠٢ .....	<b>المجلد الرابع</b>
٢٠٣ .....	<b>المجلد الخامس</b>
٢٠٤ .....	<b>المجلد السادس</b>
٢٠٤ .....	<b>المجلد السابع</b>
٢٠٥ .....	<b>المجلد الثامن</b>
٢٠٥ .....	<b>المجلد التاسع</b>
٢٠٥ .....	<b>المجلد العاشر</b>
٢٠٧ .....	<b>كفر الذبابة</b>
٢١٥ .....	<b>يا شباب العرب!</b>
٢١٩ .....	<b>لؤ .. !</b>
٢٢٥ .....	<b>في محنة فلسطين</b>
٢٢٥ .....	<b>أيها المسلمون!</b>
٢٢٩ .....	<b>قصة الأيدي المتوضّة</b>
٢٣٥ .....	<b>نجوى التمثال</b>
٢٣٨ .....	<b>فاتح الجو المصري</b>
٢٤٢ .....	<b>أجنحة المدافع المصرية</b>
٢٤٦ .....	<b>أحاديث البasha</b>
٢٤٦ .....	<b>الطماطم السياسي</b>

٢٥٠	البك والبasha
٢٥٤	ساكنو أثياب
٢٥٨	الأخلاق المحاربة
٢٦٢	خضع يخضع
٢٦٦	فلتعصب !
٢٧١	وزن الماضي
٢٧٥	المعجم السياسي
٢٧٩	اللسان المُرَقّع
٢٨٣	سر القُبَّة
٢٨٧	سعد زغلول
٢٩٠	حماسة الشعب
٢٩٤	الجمهور
٢٩٩	المجنون ١
٣٠٦	المجنون ٢
٣١٣	المجنون ٣
٣٢١	المجنون ٤
٣٣٠	المجنون ٥
٣٣٨	المجنون ٦
٣٣٨	تتمة